

محمّد

# من وحي القرآن والسنة

تأليف

أ د عقيل حسين عقيل

2017م

القاهرة

## المحتويات

9	المقدمة
47	محمد من وحي القرآن
92	من صفات النبي محمد
92	1. بشرى:
94	2. محمد:
96	4. رسول الله:
97	رسول الثقيلين (الإنس والجن):
126	3. نبي الله:
130	5. أمي:
167	6. معلم:
174	8. راعيا لله:
175	9. ساجدا لله:
176	10. محرض:
178	11. مجاهد:
186	12. رءوف، ومرءوف به:
198	13. أولوي:
200	14. شهيد:
203	15. مبشّر:

205	.....	16 . مبلِّغ :
207	.....	17 . نذير مُنذر :
209	.....	18 . داع :
210	.....	19 . سراج منير :
223	.....	20 . على خُلُق العظيم :
229	.....	21 . مؤتي :
230	.....	22 . ناه :
232	.....	23 . مُتَّبِع :
234	.....	24 . عفو :
239	.....	25 . صبور :
251	.....	26 . كريم :
257	.....	27 . مهدي :
261	.....	28 . مشروح الصّدر :
262	.....	29 . موضوع الوزر :
262	.....	30 . مرفوع الذكر :
263	.....	31 . ميسّر الأمر :
263	.....	32 . مُؤْتَى القرآن :
267	.....	33 . شكور :
268	.....	34 . مستغفر للمؤمنين :

269	35 . مغلظ على الكافرين والمنافقين:
270	36 . سميع (أذن خير):
277	37 . أسوة حسنة:
281	38 . مشاور:
290	39 . متوكل على الله:
291	40 . مُطاع:
294	41 . شديد:
303	42 . مؤمن:
314	43 . حق:
317	44 . كاف:
318	45 . مُبتلى:
320	46 . أمر بالمعروف:
321	47 . ناهٍ عن المنكر:
321	48 . محلُّ الطيبات:
322	49 . مُحَرَّم الخبائث:
322	50 . حكيم:
327	51 . موعظ بالحسنة:
328	52 . مجادل بالتي هي أحسن:
347	53 . حريص:

348	.....	54 . رحيم:
353	.....	55 . عدل:
362	.....	56 . لا ينطق عن الهوى:
363	.....	57 . صادق:
365	.....	58 . مُذَكِّر:
366	.....	59 . مدثر:
383	.....	60 . خليفة:
386	.....	61 . الخاتم:
407	.....	62 . الفائز في الجنة:
409	.....	من
409	.....	خصوصيات النبي محمد
409	.....	1 . مؤاوى:
409	.....	2 . مؤيِّد:
410	.....	3 . مأمور:
413	.....	4 . مُسرى به:
430	.....	5 . مُتاب عليه:
435	.....	6 . مُغنى:
436	.....	7 . مُحَلَّل له:
437	.....	8 . لا آل له من الأبناء:

455	..... المدثر:
457	..... الخوف على الرّسالة:
492	..... أبعاد الهجرة:
512	..... هجرة الرّسول وأصحابه:
532	..... القرّبي في المفهوم القرآني:
560	..... العابس المتولي:
587	..... المرأة لمجادلة:
592	..... المجادلة في الظهار:
600	..... الابتهاال:
605	..... أصحاب وليسوا خلفاء:
626	..... من معجزات محمّد:
628	..... الفرق بين المعجزة وبين غيرها من خوارق العادات:
641	..... الإسراء والمعراج:
656	..... المعراج:
662	..... مفهوم الغيب في الإسلام:
673	..... الرؤيا:
685	..... الولاية والألوية:
705	..... مترتبات الألوية:
708	..... حقّوق الألوية:

714	.....: النبي الفاتح:
717	.....: الفتح العقائدي:
723	.....: الفتح الاجتماعي.
733	.....: الفتح الفكري والعقلي.
742	.....: الأمة والرّسالة الخاتمة:
748	.....: النبي الخاتم:
763	.....: الدلائل على النبي الخاتم:
799	.....: النبي محمّد من السنّة.
815	.....: كفالة عبد المطلب لمحمّد:
815	.....: محمّد مع تجارة خديجة:
816	.....: محمّد يضع الحجر الأسود مكانه:
817	.....: الأخلاق من أحاديث محمّد:
818	.....: خاتم محمّد رسميًا:
819	.....: بعثت محمّد:
820	.....: انقطاع الوحي:
820	.....: المعارك التي خاضها الرّسول:
822	.....: صلح الحديبية:
825	.....: نتائج الصلح:
826	.....: التاريخ والمصالحة بين اختلاف وخلاف:

- الإصلاح من سُنن الأنبياء والمصلحين: ..... 841
- رُسل رسول الله: ..... 917
- من رسائل النبي: ..... 922
- حديث الإسراء: ..... 929
- حكم قاتل غير قاتله: ..... 931
- من أحاديث دعاء النبي: ..... 931
- وفاة رسول الله: ..... 936



## المقدمة

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، والصَّلَاة والسَّلَام على أنبيائه ورسله وعلى  
محمّد الذي بُشِّرَ به نبيا خاتما قبل أن يُبعث رسولا.

وبعد:

ولد محمّد عليه الصَّلَاة والسَّلَام في مكّة المكرمة يوم الاثنين الثاني  
عشر من شهر ربيع الأوّل عام 571 م، ويعرف عام مولده بعام الفيل، وهو  
العام الذي حاول فيه أبرهة الحبشي أن يهدم الكعبة.

كان ميلاد محمّد بشري إنسانية وربّانية، ومع ذلك فقد ضاقت بعض  
الأنفس من ميلاده كونه نبيا ولا نبي من بعده، رسولا ولا رسول من بعده،  
وأنّ رسالته الإسلام ناسخة لكلّ الرّسالات السابقة، وهي حافظة لما ترشد  
إليه من مواعظ وعبر وحلول. فعن حسان بن ثابت، قال والله إنّّي لغلام  
يفعة ابن ثمان سنين أعقل كلّ ما سمعت، إذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى  
صوته: يا معشر اليهود حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك ما لك؟ قال  
طلع الليلة نجم أحمد.

ولما وُلِدَ محمّد صلّى الله عليه وسلّم، في ذلك اليوم، قالت أمّه آمنة،  
لقد أضاء نور إلى السّماء رأيت في ذلك النّور قصور الشام، إنّهُ نور من نور  
الله.

والنّور اسم ضياء وجمال تستبشر به الخلائق وترضى، تشدّ إليه ولا  
تطمأن إلا به سبحانه ينير الأنفس كما ينير الدروب، من نوره تشرق  
الشمس وتتألأ السّماء بنوره وتضيء القمر، وبالنّور يهتدي العباد إلى التي  
هي أحسن.

ولهذا؛ فالنور حُسن يستمدّ من الكلمة التي تنير القلوب، ومن الآيات العظام للنور المطلق، والنور المطلق لا يُرى في ذاته، ولكن يستمد من آياته، فالنور ليس كمثلته شيء، ولهذا فالله الذي ليس كمثلته شيء هو نور السماوات والأرض {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} 1.

وعليه "فالنور يُظهِرُ مَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْتَلِفُ بِحَسَبِهِ، فَنُورُ السَّمْعِ مُظْهِرٌ لِلْمَسْمُوعَاتِ، وَنُورُ الْبَصَرِ كَاشِفٌ لِلْمُبْصِرَاتِ، وَنُورُ الْقَلْبِ كَاشِفٌ عَنِ الْمَعْلُومَاتِ، وَنُورُ الْجَوَارِحِ مَا يَبْدُو عَلَيْهَا مِنْ أَعْمَالِ الطَّاعَاتِ" 2

ومن فضائل ونعم الله على عباده نعمة الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة للتحلّي بهذه النعمة إلا بانسراح الصدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والجهل والمعصية، لذا يتأتى عمى القلب بظلمة الجهالة، فالعقلاء وأرباب البصائر قلوبهم، {كَمَشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحِ فِي رُجَاةٍ الرُّجَاةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ} 3. ولأنّ الله هو النور وهو الذي جعل في الأرض خليفة؛ فهو الذي بث نوره في المستخلفين فيها ليصلحوا ولا يفسدوا ولا يسفكوا الدماء بغير حقّ.

وهؤلاء هم خلفاء النور بالنسبية لا على الإطلاق، فالعلم نور بصائرهم التي بها عرفوا الحقّ بالحقّ؛ فأشرق نور الله بعلمه فيهم، مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} 4.

---

1 النور 35.

2 عون المعبود، ج 3، ص 292.

3 النور، 35

4 الرعد 28.

وفي مقابل الذين اطمأنت قلوبهم بذكر الله، الكافرون الجاهلون الذين اسودت قلوبهم بما يكفرون ويجهلون، { كَظَلَّمَاتٍ فِي بَحْرِ الْجَبِّيِّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَّمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } 5. فأصحاب العقول الواعية والقلوب البصيرة هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم لنور الإسلام، والكافرون الجاهلون بحقيقة الإيمان هم الذين أراد الله أن يضلهم؛ فجعل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء، فالجاهل كما هو حال ذلك اليهودي الذي ضاقت نفسه عليه بعد ما علم أنّ نور من النور الأعظم قد ولد رحمة، وهو الذي جاء ذكره في التورات والانجيل وبشروا الأنبياء به (محمد رسول الله) صلى الله عليه وسلم، فذلك اليهودي كان مظلم القلب؛ فلم تفتح بصيرته وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان دليلا { وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا } 6، وعليه فالجهل أصل الظلمة والكفر والبعد عن مصدر النور.

وحتى نتدرج في الرقي لنقتبس من النور المحض علينا أن ننظر في اللغة لنرى ما النور؟

إنّ (الله نور، وله نور) نور ذاتي مهلك لا سبيل للوصول إليه، ونور مخلوق كنور الشمس والقمر، وكالذي سيتحلى به على عباده ليريه من جماله يوم القيامة وفي الجنة، وهذا النور من وراء حجاب الصورة.

ومن ثمّ؛ فالنور: هو الحق، الذي يتجلى في سماه، وهو الذي يُدرك بذاته وهو ينير البصر والبصيرة، يُهتدى به ويُهتدى إليه، به يرشد الضال

---

5 النور، 40

6 الإسراء، 72

سبيله إذا اهتدى، وبدونه يضل ضالاً، ولذا فبه تراح الظلمة والغمة وتُثار الدروب.

وعليه الله هو النور، وهو الفؤة الخارقة لكل فؤة، وهو القدرة النافذة لأي ظلمة، وبه يتم التبيين دون زيف. ولأنّ النور هو الله، فالنور هو الفؤة والقدرة التي تنير الإبصار والبصائر، كما تنير الدروب والسبل، ولأنّ النور هو الله؛ فهولا يرى مصداقاً لقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ }<sup>7</sup>. موسى عليه الصلاة والسلام يرى الجبل كما نحن نراه، أي بأمهات عينيه يرى الجبل جبلاً، ولكن هل العينان لوحدهما كافيتان لرؤية الجبل؟ بالطبع لا. أي لو لم يكن النور الذي هو من نور الله مبعوثاً ومنتشراً بين السماوات والأرض، ما كان للعينين من نور، وإذا فقدت العينان نور الله فيهما فقدت الرؤية حتى وإن كانت العينان سليمتين. ولننظر، إذا أغلقت عليك غرفة بالتمام ومعك في الغرفة فأر أو جمل هل لك أن ترى الفأر أو الجمل إذا لم ينفذ فيها نور؟ بالتأكيد لا. ولهذا علينا بإدراك الله بنوره الذي به رأينا الجبل، ونحن على سبيل المثال: إذا نظرنا إلى الشمس لزمنا قصر قد نفقد بصرنا، ولهذا ينهانا الطبيب عن النظر إلى مصادر التور، فهي فؤة خارقة للبصر، ولذا فما بالكم بالنور المطلق. أي إذا كانت مصادر التور المخلوقة فؤة لا يطاق النظر إليها فما بالكم بفؤة خالقها؟ ولهذا عندما تركزت فؤة نور الله على الجبل جعلته دكاً، وهكذا لو تركزت فؤة نور الله على الأرض والسماوات لجعلتها كما جعلت الجبل؛ وهكذا كان نور الله في محمد سراجاً منيراً.

---

7 الأعراف 143.

وعليه فمن يدرك نور الله لا يشكّ في وجوده، ومن له في نفسه بعد ذلك ظن فإنّ بعض الظن إثم، ولذا فمن أدرك نور الله أدركه يقينا، ولهذا قال موسى عليه الصلّاة والسّلام: {فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} 8.

إنّ الله نور في ذاته، ونور في خلقه، ونور في علمه، ونور في بصره وسمعه، ونور في الحركة والسكون. ولذا في الشروق ضياء وفي الغروب نور، ضياء الشّمس في النهار، وضوؤها في كبد السّماء ليلا نجوما تتلأأ وقمر منيرا، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ} 9.

وهكذا محمّد رسول الله وكلّ الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام نور، ولهم نور)، فهم نور المنير في أرضه، وكتبه معهم نورا تنير الأرض التي استخلفهم فيها مبشّرين ومنذرين ومحرضين على الحقّ وإحقاقه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا} 10.

و(للمؤمنين نور) يسعون به في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ

---

8 الأعراف 143.

9 يونس 5، 6.

10 الأحزاب 45، 46.

مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ {11، وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }12.

والتور في اللغة: في أسماء الله تعالى التور "هو الذي يُبَصِّرُ بنوره ذو العَمَاية وَيُرْشِدُ بهداه ذو العَوَاية"13

وهذا المعنى فيه الهداية التي تستمدّ من نوره، بمعنى إرشاده للطريق الصحيح للوصول إلى الحقيقة ولا بأس من هذا المعنى؛ فاللغة قد أحالتنا إلى معنى مستفاد من التور لا إلى معنى التور في حدّ ذاته، مع التأكيد في الوقت نفسه أنّ الأثر المعنوي للتور وهو الهداية لا شكّ مطلب من أعزّ المطالب التي يرجوها الخليفة الذي يسعى ليصلح في الأرض ولا إصلاح إلا بنور الهداية قال الله تعالى: {اللَّهُ وَليُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}14

نعم (الله ولي الذين آمنوا) فهو سبحانه محبهم ومعينهم ومتولي أمورهم لا يكلهم إلى غيره، فالولي يكون بالمحبة والنصرة؛ فيقال للمحبّ ولي لأنّه يتقرب من حبيبه بالنصرة والمعونة ولا يفارقه، والولي الناصح المحب يكون بحسن ونفع التدبير، وبصحة الأمر، وبنفع النهي، لذلك الله ولي الذين أراد أن يهديهم للإيمان ويخرجهم بالهداية من الظلمات، وهي ظلمات الكفر

---

11 الحديد 12، 13.

12 التحريم 8.

13 لسان العرب، ج 5، ص 240.

14 البقرة 258

والمعاصي وظلمات الشبه والشك في قدرة الله (إلى النور) نور الإيمان، فيخرج الله سبحانه وتعالى بهدايته وتوفيقه كل مؤمن من الظلمة التي وقع فيها إلى ما يقابلها من النور، والظلمات جمع تدل على أنواع الضلالة المتعددة من أنواع الكفر على جميع ملله، والنور مفرد فيدل على أن الإسلام دين واحد وسمى الكفر ظلماً لالتباس طريقه وسمى الإسلام نوراً لوضوح طريقه (والذين كفروا) الذين ثبت في علمه الأزلي كفرهم هؤلاء (أولياؤهم الطاغوت) الشيطان وأعدائه من المضلين عن طريق الحق من الكهنة والسحرة وقادة الشر والمفسدين في الأرض ومن يقفون عائفاً أمام تحقيق الخلافة المثلى في الأرض الذين يعتقدون في الأصنام التي هي جماد لا ينفع ولا يضر، فالولاية هنا ولاية اعتقاد لأن المفسدين الضالين المضلين أهل الظلمات يعتقدون ويتوجهون إليهم من دون الله فهم بذلك تنحوا عن طريق النور إلى طريق الظلمات. والطاغوت وأعدوان الظلام يخرجونهم من نور الإيمان الفطري الذي خلقهم الله عليه إلى ظلمات الكفر والفساد والانهماك في الشهوات، والخروج من نور اليقين إلى ظلمات الشك والشبهات، وإسناد القدرة المطلقة إلى الطاغوت مع أن الله مخرج العباد إلى الوجود ومرشدهم لطريق النور.

فالله (النور) وبنور هدايته يخرج المؤمنون من ظلمة المعصية إلى نور الطاعة والهداية لأنه يصلي على الذين آمنوا به وصلاته رحمة لأن صلته لنا لا تعني أن فيها ركوع أو سجود أو قيام حاشا لله ولكنها كما قلنا إرادة رحمة، واستجابة للملائكة الذين يستغفرون للمؤمنين، قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا } 15 فالله هو الذي يصلي عليكم ويرحمكم وأنتم لا تذكرونه فذكر صلته تحريضا للمؤمنين على الذكر والتسبيح (ليُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

التَّوَر) يعني يهديكم برحمته، والصَّلَاة من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، واللفظ المشترك يجوز استعماله في معنيين معا وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ جائز وينسب هذا القول إلى الشافعي رضي الله عنه وهو غير بعيد فإن أريد تقريبه بحيث يصير في غاية القرب فالرحمة والاستغفار يشتركان في العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمينية لكون العناية جزأ منهما (وكان بالمؤمنين رحيمًا).

ولد محمد نورا من نور الله (النور الأعظم) فكفله جدّه عبد المطلب رعاية وعناية مع حبّ رفيع، ولما بلغ محمد السادسة من عمره ذهبت به أمّه إلى يثرب لزيارة أخواله من بني النجار ومعها حاضنته أمّ أيمن، وفي طريق العودة ماتت أمّه رضي الله عنها في مكان يسمى (الأبواء) بين مكّة ويثرب؛ فرجعت به أمّ أيمن إلى مكّة فكان الكفيل كفيلا (جدّه عبد المطلب).

بقي في كفالة عبد المطلب حتى وفاته، وقد أوصى عبد المطلب من بعده ولده أبا طالب بحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فكفله أبو طالب وقام برعايته أحسن قيام، وكان يحبّه حبًا لطيفا.

أنزل الله تعالى الحقّ على محمد عليه الصَّلَاة والسَّلَام فكان حاقا للحقّ، مصداقا لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} 16.

ومع أنّه مع الذين آمنوا ليّن البال والقلب ورحيم النفس إلا أنّه على الكافرين والمنافقين شديد غليظ، قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ



فِي الْإِنْجِيلِ كَزَّرِعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ  
الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ {17}.

بُعث محمد أذن خير يستمع إلى الناس (الكافة) ليحييهم بما أمر الله تعالى به، لعلهم يهتدون ويكونوا على الحق أخوة متحابين في الله، فكان لهم أسوة حسنة فاقتدى به المؤمنون قولاً وفعلاً وعملاً وسلوكاً، فكان الصالحون منهم خليفة يرثون الأرض وهم مصلحون لا مفسدون ولا سافكي دماء فيها بغير حق، وامتنح الله قلوبهم وهم يغضون أصواتهم عنده للتقوى فجازهم مغفرة وأجر عظيمًا، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} {18}.

والأمي هو الصافي الذي لا تشوبه شائبة من أثر قراءة أو كتابة مُسَوِّقة لخدمة غرض من الأغراض الدينية أو الدنيوية، وهو من لا تلتصق به التهم فيما لا يعلم وإن نُعت بما.

الأمية حالة غير دائمة وهي قابلة للإزالة من الجميع في دائرة النسبية ودائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع، فمن يكن أمياً يصبح في دائرة الممكن عالماً فلا استغراب في هذا الأمر، ولهذا بالعلم تستنير العقول وتطمئن الأنفس والقلوب.

ولأن الأمية في دائرة النسبية؛ فهي غير مطلقة فما يكون به الإنسان عليماً أو عالماً يكون به غيره جاهلاً، والجهل بالشيء عدم معرفته، وعدم المعرفة بالشيء أمية، والأمية البعد بالتمام عن معرفة الموضوع محور الاهتمام فلا يكون له علم به.

---

17 - الفتح 29.

18 - الحجرات 3.

وبما أنّ الأمية في دائرة النسبية إذا الذي لا يعلم بالشيء المراد التحدث عنه يكون بالنسبة له أمياً، وحتى المتعلمون هم بما يجهلون أميون، فالذي لا يتكلم اللغة الفرنسية بالنسبة للمتحدثين بها هو أميٌّ، والذي لا يعرف لغة الحاسوب واستخداماته فهو بالنسبة لهذا الأمر أميٌّ حتى وإن كان من المتحصّلين على الشهادات العالية والدقيقة أو كان عالماً في علوم الفقه والدين، وهكذا في المقابل بالنسبة لمن يجيد اللغة الفرنسية أو أيّ لغة وهولا يعلم أولاً يعرف شيئاً عن علوم الفقه والدين أو الأديان، فهولا يخرج عن دائرة الأمية النسبية، ولذلك كل العلماء والمتعلمين هم في دائرة الأمية النسبية. والرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام لا يخرج عن دائرة الأمية النسبية، فهو بالنسبة لعلم القرآن قبل نزوله كان أمياً قراءة وكتابة مصداقاً لقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} 19 إنه قول الله لمحمد صلوات الله وسلامه عليه على لسان جبريل عليه السلام، إنه الأمر الأوّل الصادر للنبي الأمي (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) ولأنّ محمد عليه الصّلاة والسّلام أمي فقال ما أنا بقارئ فقال له: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فقرأ ما قيل له فأصبح بما قرأ غير أمي.

الأمية: كما يقول البعض: هي "الغفلة والجهالة، فالأمي منه، وذلك هو قلة المعرفة" 20، قال تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} 21 ف (منهم أميون) للتبعيض وهي عائدة على بعض ممن يجهلوا ما جاء في الكتاب المبين ويقصد اليهود الذين هم أميون بالنسبة

19 - العلق 5.1.

20 - مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ج 1، ص 42.

21 - البقرة 78.

لمن عُلِّمَ أو تعلَّم الكتاب المبين أو آمن به. وهناك من يرى أن الأميين هم العرب وغير العرب ممن لا يعلمون بالقرآن وأمر الرسالة الخاتمة للناس كافة، فقال: "ويجوز أن تطلق الأمية على جميع أهل الأرض لأن بعثته عليه الصلاة والسلام كان حين ذهب العلم من الناس"22.

وهناك من يقول: "(ومنهم أميون)، أناس من يهود"23.

قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} فالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}24 العرب الأميون والذين آمنوا معهم هم المعنيون بقوله (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ) ولأنه الرسول فهو صاحب الرسالة الخاتمة، ولأنه النبي فهو الذي أنبأه الله بـ{النَّبِيَّ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}25، ولأنه الأمي، فهو لم يكن له سابق علم بما أعلم به وكلف.

أمَّا قوله: (الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ) فهم أصحاب التوراة والإنجيل الذين يعلمون بأن رسولا خاتما ودينا للكافة سيكون على لسان الأمي أحمد صلوات الله وسلامه عليه.

وعليه:

كيف يقبل أن يكون محمد أميا وهو الذي يأمر بالمعروف؟

---

22 - نظم الدرر للبقاعي، ج 9، ص 6.

23 - تفسير الطبري، ج 2، ص 257.

24 - الأعراف 157.

25 - النبأ 2 3.

وكيف يقبل أن يكون أميًا وهو الذي ينهى عن المنكر؟

وكيف يقبل أن يكون أميًا وهو الذي بيده أمر تحليل الطيبات؟

وكيف يقبل أن يكون أميًا وهو الذي يُحَرِّمُ الخبائث؟

وكيف يقبل أن يكون أميًا وهو الذي يضع عن الناس إصْرَهُمْ؟

وكيف يكون أميًا وهو الذي جاء بما تُفكُّ به الأغلال؟

وكيف يكون أميًا ويؤمن به نبيا ورسولا ويأمر الله بطاعته والأخذ بما يأمر به نبأ ورسالة مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ 26.

ولأنَّ الرسول عليه الصلوة والسلام لم يعد أميًا بعد الرّسالة الخاتمة، فقلوه حقّ يستوجب الإتياع ولهذا قال تعالى: (يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ) ولأنّ هذا الأمر من الله أعطاه لمحمد حقّ في سبيل إحقاق الحقّ، فإتباعه واجب، ومن يعصي أمر محمد صلوات الله وسلامه عليه بالمعروف يعصي أمر الذي أصدر له الأمر وهو الله. ولذا لا يعتقد في أن الله تعالى يعطي أمره لمن يجهل أمره (أمي) ولهذا لا يعد محمد أميًا وبين يديه أمر الله مكلف به.

ولأنّ محمدا لم يعد أميًا بأسباب امتلاكه المعرفة الواعية والكاملة بعد أن قرأ دون سابق قراءة، فيجوز له حقّ النهي عن المنكر وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث مصداقا لقوله تعالى: (وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) ولذا عندما كان محمد أميًا لم يُعط له هذا الحقّ أو هذه الصلاحيات كما تسمى لدى البعض تحت مظلة لغة العصر، وإلا هل يُقبل أن يكون أمر التصرف بأمر الطاعة بيد من لا يعلم الأمر ومعجزاته؟

وهل يقبل التحليل والتحرير والنهي ممن لا يعلم بما يأمر أو ينهى أو يُجَلَّل أو يُحَرَّم؟

بالطبع لا.

ولهذا فمحمّد عليه الصّلاة والسّلام بعد أن قرأ بأمرٍ من الله تعالى فهو القارئ وليس الأمي ولهذا لم يعد حاله كما كان قبل الرّسالة. وعليه فالكلام أو الحديث عن محمّد قبل الرّسالة كلام أو حديث عن أمي، والكلام أو الحديث عن محمّد بعد الرّسالة عليه الصّلاة والسّلام حديث أو كلام عن نبي رسول عالم. ولذلك على المسلمين أن يفرقوا بين الحديثين والشخصيتين (شخصية محمّد الأمي وشخصية محمّد الرّسول النبي العالم) وإلا هل يُقبل أن يوصف النبي الكريم بالأمي ويوصف الذين آمنوا وتعلموا على يديه بالعلماء والحكماء الأجلاء؟

وكيف يُقبل أن يكون محمّد هو صاحب الرّسالة الخاتمة للناس كافة وهو المرجعية للرّسالة ونقبل أن يوصف بالأمي؟

وكيف لا نكتشف التناقض في الأمرين:

الأمر الأوّل: أمرُ محمّد الأمي.

الأمر الثاني: أمر الذين تعلموا ممّا علمهم به علماء وحكماء؟

وعليه هل يقبل أن يكون للرّسالة مرجعية ورسولها أميًّا؟

ولأنّ محمّدا رسول للناس كافة قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ} 27 أي أنّ محمّدا رسول الله عليه الصلّاة والسّلام لم يكن رسولا خاصا بالعرب بل هو للكافة (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 28.

إذا كيف يُقبل أن يكون رسول الكافة أمي والنّاس يعلمون؟

أقول: رسول الكافة ليس بأمي، بل هو بما أُعلِمَ علّمَ وبشّرَ وأنذر وحرّضَ وحلّلَ وحرّمَ، وهو قبل الرّسالة محمّد الأمي وبعدها محمّد رسول ونبي، ولذا فالفرق كبير بين محمّد الأمي الذي لا صلاة ولا تسليم عليه وبين محمّد الرّسول النبي الذي يصلّي الله وملائكته عليه ومن بعده يصلي عليه ويسلم المؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين.

وعليه فالقول بـ (الصلّاة والسّلام على سيدنا محمّد) هو إقرار بأنّه لم يعد ذلك الأمي، ولهذا قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} 29 قال (يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) أي الذي أصبح يعلم بالأمر بعد أن كان يجهله فكان خير رسول وخير نبي فله الحقّ بأن نصلي ونسلم عليه تسليما، وهكذا الملائكة تصلي وتسلم عليه، وهكذا يكون حال المؤمنین من بعده الذين يقرون بالحقّ ويتبعونه قولا وفعلا وسلوكا. ولأنّنا من الذين أسلموا وجههم لله ربّ العالمين وآمنوا به واحدا أحدا لا شريك له، وبمحمّد رسولا خاتما فإننا نصلي ونسلم عليه مباركة وإقرارا بأنّ ما جاء به هو الحقّ من الحقّ المطلق، ولذا فالصلّاة والسّلام على محمّد هي اعتراف وإعِ بأنه الرّسول الذي اصطفاه الله للناس

---

27 - الأعراف 158.

28 - سبأ 28.

29 - الأحزاب 56.

كافة بالرّسالة الخاتمة، ولأنه يعلم بأمر الرّسالة أكثر من الذين آمنوا بها على يديه أو آمنوا بها من بعده لذا فالصّلاة والسّلام إعلان تسليم بالحقّ والرّسول الحقّ المصطفى من الحقّ المطلق.

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} {30}. الأميون في هذه الآية الكريمة لا تعني الذين لا يقرءون ولا يكتبون بل تدل وتعني أن الأمية هي في دائرة النسبية وليس في دائرة المطلق، وإلا هل كان جميع العرب لا يقرءون ولا يكتبون وكأنهم قوم جهالة بالمطلق؟ هذا القول لا يستقيم إلا بعدم علمهم بالقرآن قبل نزوله على رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا مع أنّهم حقّ أميون إلا أن البعض منهم يقرءون ويكتبون، ولذا فهم بالنسبة للدين الجديد (القرآن) فهم جميعهم أميون، وإنّ أوّل من أُعلِمَ هو رسوله النبي محمّد صلوات الله وسلامه عليه، الذي كان أميًا قبل نزول القرآن، ولأنّه أوّل من أُعلِمَ كان مكلفًا بتلاوة القرآن عليهم وبتزكيتهم وبتعليمهم الكتاب والحكمة باعتبارهم كانوا أميين بما أُنزل.

وعليه فالرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام كما جاء في الآيات السابقة يتلوا القرآن، ولأنّه كذلك فكيف يحقّ لنا أن نصفه أميًا؟ أي هل يحقّ لنا أن نصف من يتلو القرآن بأنه أميٌّ؟ وكذلك كيف نصف من يزكي ويُعلّم المسلمين والمؤمنين الكتاب والحكمة بأنه أميٌّ؟ أي كيف نقبل بأن يوصف المعلم بالأمي ويوصف المتعلم منه بالعالم؟

ولأنّ الله عزّ وجلّ هو الذي تولى محمّد صلّى الله عليه والسّلام بالرعاية والعناية فقد تولاه رسولا بالتعلّم فعلمه القراءة بعد إن كان غير

قارئ، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ  
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} 31.

تُعتبر هذه السورة الكريمة أول سورة أنزلت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولذا تُعد هذه السورة هي الدليل الإثباتي على أن محمداً كان من قبلها أمياً، وهي الدليل الإثباتي بأن محمداً من بعدها أصبح نبياً ورسولاً عالماً بما علّمه الله تعالى به.

فقد اصطفاه الله تعالى في أميَّته ليكون نبياً رسولاً، ثمَّ علّمه وبعثه نبياً رسولاً، فقال له: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) فقرأ باسمه تعالى ما قرأ أمراً، فأصبح من القارئين العالمين بما علّمه تعالى به من نبأ وحكمة ورسالة خالدة.

وقوله: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) أمر عظيم، وكأنه يقول له لا تستغرب أن أقول لك اقرأ وأنت لست بقارئ، فإن استغربت هذا الأمر، فهناك ما هو أعظم منه، ألا وهو أمر الخلق، فأبي أمر أصعب: أن يُخلق الإنسان من لا شيء، أم أن يعلم بعد أن أصبح شيئاً؟

ومع ذلك فأمر القراءة لم يكن شورياً، بل أنّه المنفذ بالقوة (كن) فكان محمد رسولاً قارئاً وكتاباً، مصداقاً لقوله تعالى: (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)، هذه الآية الكريمة تحمل في مضمونها أنّ قراءة محمد التي علّمه الله إياها تُمكنه من قراءة المكتوب أو ما يُكتب، وهي تنص على أنّ ما علّمه الله لمحمد من قراءة هي قراءة ما يُكتب (عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) أي بالقلم (حروفاً تُكتب) لقد علّم الله تعالى محمد (الإنسان) ما لم يكن يعلمه من قبل (عندما كان محمد أمياً).



هكذا بدأت رسالة محمد بالأمر (كن) قراءة وكتابة، وتأكيذا على هذا المبدأ نزل قوله تعالى: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ}32، هاتان الآيتان موجّهتان لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي أصبح يعلم لغة القلم التي بها علّمه الله تعالى، فجاءت (ن) حرفا مستقلا يحمل سرا لا يعلمه يقينا إلا الله تعالى ومحمد الذي أنزل الله عليه الوحي وعلّمه قراءة ما يُكتب، فنحن من بعد محمد لا نعلم يقينا ماذا تعني (ن) فاتحة الآية الكريمة السابقة لا نعلمها إلا حرفا من الحروف التي يكتبها القلم.

ولأنّ حروف فواتح بعض السور القرآنية نزلت حروفا، فهذا الأمر فيه الإعجاز الذي لا يعلمه إلا من علّمه الله تعالى مباشرة، وهذا العلم لا يزال مجهولا وفي اعتقادنا سيظل في علمه لا يعلمه إلا من كُلف به رسالة كاملة للناس كافة، وهنا تكمن الحقيقة التي مفادها أن محمدا لقدماء وهو عالم بما لن يعلم أحدهم علّمه الله به من بعده، أي أن محمدا قد علّم الناس ما يشاء الله أن يتعلموه من القرآن الكريم، وما لا يشاء بقي آيات إعجازية تدل على أنّ القرآن معجزة باقية، أسراها المطلقة لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى.

ولأنّ محمدا عليه الصلّاة والسّلام أصبح عالما بما علّمه الله عزّ وجلّ به، فكان بالكتاب الذي أنزله الله عليه خير مُخرج للناس من الظلمات إلى النور مصداقا لقوله تعالى: {الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}33.

---

32 - القلم 1، 2.

33 - إبراهيم 1.

جاءت الأحرف (الر) لإظهار ما يعلمه محمد تفصيلاً، وإثبات قصورنا عن فهمه يقينا مع تسليمنا المطلق بأنه من إعجاز القرآن الكريم، ثم جاء (الكتاب) الذي يعلمه محمد حروفاً وكلمات وجمل تامة ومضمونا تاما، أي أنه النبي الرسول الذي يعلم من ربه ما لم نعلم، ولأنه كذلك فكيف لا يتصف بأنه معلّم؟

ولأنه المعلّم فكان تالياً للقرآن تلاوة كما دعا بها الله تعالى الذي استجاب لدعوة الداعيين (سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل) عليهما الصلّاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: { رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {34}، ترشد هذه الآية الكريمة إلى أنّ بعثة سيدنا محمد عندما يحين وقتها ستخرجه من الأمية (المقصورة على عدم القراءة والكتابة) إلى تعلّم القراءة والكتابة، ولهذا كان محمد أول من تلا آيات الكتاب الحكيم وأول من علّم الكتاب للآخرين من بعده ثم بعث المتعلمين مُرسلين لهداية الشعوب وأهل المدن والقرى إلى رسالة الكافة.

ولأنّ محمد عليه الصلّاة والسّلام معلّم بتلاوة الآيات الكريمة فهو الذي بُعث ليتلو صحفاً مطهّرة من الباطل، فالذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين هم على ضلالهم لا يثبتون إلى أن بُعث رسول الله بالبينّة التي تفكهم عن الكفر والشرك وتدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار، قال تعالى: { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ فِيهَا قِيَمَةٌ } {35}.

---

34 - البقرة 129.

35 - البينة 1.3.

ولأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد علَّم محمَّد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، قال في كتابه الحكيم: {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} 36.

وعليه فالإعلام بالقرآن لا يتم إلا مع من يجمله، ومن يجمله (أمي) وتعليم القرآن يتم مع راغب أو أمي، ولهذا كان محمَّد قبل نزول القرآن أميًّا به، أي لا يعلمه ولا يعلم عنه شيء بخلاف سيدنا عيسى والذين آمنوا برسالته فهم يعلمون أنّ رسولاً سيصطفيه الله برسالته اسمه أحمد مصداقاً لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} 37 ولأن محمَّد عليه الصلوة والسلام كان أميًّا بالرسالات السابقة للرسالة الخاتمة فهو لم يعلم بالرسالة الآتية التي يعلم بها موسى وأتباعه قبل إعلامه وعلمه بالقرآن مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} 38. إنه القول الحق فلو كان يعلم بالأمر مسبقاً ما كان أميًّا بأمر الرسالة، وهو أيضاً لم يكن يعرف الكتابة التي تخط بأيدي الكتّاب ولذا فلو كان قارئاً لكان كاتباً لما يقرأ ولكان في دائرة الموصوفين بالتعلم بدلاً من دائرة الموصوفين بالأمية.

ب . أن يزيهم، وتركيتهم بإتباع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتجنب ما نهى الله عنه واتباع ما أمر بإتباعه والأخذ به، وتحليل ما أحله الله لهم، وقول الحق وفعل الحق والإصلاح في الأرض وعدم الإفساد فيها أو سفك الدماء بغير حق، فمن يتبع ذلك يعد مزكياً حيث لا ذنب عليه في شيء، ولذا فالمزكون هم المطهرون.

---

36 - النساء 113.

37 - الصف 6.

38 - العنكبوت 48.

ج . أن يعلمهم الكتاب والحكمة، وهذه خطوة مترتبة على الخطوة الأولى (العلم بالقرآن) والعلم بالقرآن يعني عدم الجهل به، ولذا فالعالم به هو من لا يجمله.

فكلمة يُعَلِّمُهُمْ تدل على أنه متعلم بعلم الكتاب وعلوم الحكمة، أي أنه بالعلم كان سابقا على الأميين في تعلمه، وإلا ماذا سيعلمهم لو لم يكن متعلما؟! وبما أنه المتعلم بما علمه الله به لذا لا يحق أن يوصف بالأمي مصداقا لقوله تعالى: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ).

قال تعالى: { وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } 39. (ومنهم) جاءت للتبويض وذلك لإظهار الجزء من الكل، وهذا يدل على أن البعض الآخر غير أمي، فالذين يعلمون بالكتب والرسل ورسالاتهم هم غير أميين، والذين لا يعلمون شيئا من هذا هم الأميون، ولذلك فبعض من اليهود وبعض من النصارى وبعض من العرب أميون لا يعلمون الكتاب.

ولذلك "الأُمَّةُ الَّتِي بَعَثَهُ اللهُ إِلَيْهَا فِيهِمْ مَنْ يَفْرَأُ وَيَكْتُبُ كَثِيرًا كَمَا كَانَ فِي أَصْحَابِهِ وَفِيهِمْ مَنْ يَحْسُبُ وَقَدْ بُعِثَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْفَرَائِضِ الَّتِي فِيهَا مِنَ الْحِسَابِ مَا فِيهَا وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ عَامِلُهُ عَلَى الصَّدَقَةِ ابْنِ اللَّتْبِيَةِ حَاسِبَهُ. وَكَانَ لَهُ كُتَابٌ عِدَّةٌ - كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَمُعَاوِيَةُ - يَكْتُبُونَ الْوَحْيَ وَيَكْتُبُونَ الْعُهُودَ وَيَكْتُبُونَ كُتُبَهُ إِلَى النَّاسِ إِلَى مَنْ بَعَثَهُ اللهُ إِلَيْهِ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَرُؤُوسِ الطَّوَائِفِ، وَإِلَى عُمَّالِهِ وَوُلَاتِهِ وَسُعَاتِهِ وَعَبْدِهِ ذَلِكَ" 40.

---

39 - البقرة 98.

40 - مجموع فتاوى ابن تيمية، ج 6، ص 71.

وعليه كان الرسول محمد عليه الصلاة والسلام أميًا قبل نزول الرسالة عليه أي أنه أمي قبل الرسالة مصداقا لقوله تعالى: { وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحِطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَا رَتَابَ الْمُبْطِلُونَ } 41 أمّا بعد نزول الرسالة عليه فهو ليس بأمي، وذلك لأنه أول من قرأ القرآن، وأول من أعلم به الناس، وأول من علّمه لهم، وأول من صلّى بهم قارئاً، قال تعالى: { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } 42.

ولأنّ البعض أمي قال تعالى: { وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } 43 ولأنه قرآن كريم نزل ليحقّ الحقّ ويبطل الباطل ويدمغه حتى يزهق، لهذا قال: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) أي بعض من أهل الكتاب وليس كلهم، فلا تعميم حيث البعض يؤتمن جانبه والبعض لا يؤتمن جانبه، ومن لا يؤتمن جانبه إذا دابنته بدين لا يردّه إليك فهؤلاء هم مثل الذين يأكلون الرّبا مصداقا لقوله تعالى: { الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ } 44، ومثل الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما مصداقا لقوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا } 45.

---

41 - العنكبوت 48.

42 - البقرة 151.

43 - آل عمران 75.

44 - البقرة 275.

45 - النساء 10.

ولأنه أسوة حسنة كان عفوا يحب العفو وهو مستغفر لهم في كل أمر  
لعلهم يتقون، ومشاورا لهم في كل أمر يتعلق بهم لعلهم يرشدون، وعند العزم  
يتوكل على الله فهو وليه وإليه المصير، فكانت طاعتهم إليه من طاعة الله  
تعالى {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} 46.

رسول مسلم يجنح للسلم كلما جنح الجانحون إليه، ولا يُكره أحدا  
على الإيمان حيث لا إكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي، إنه نبي  
الإنس والجن كافة ومعجزته القرآن الكريم، قال تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ  
اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ  
وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} 47.

كُلف محمد بالنبأ العظيم داعيا ومبشرا ومحرضا ومنذرا وآمرا بالمعروف  
وناهيا عن المنكر وفاعلا للخيرات الحسان ومكثر من أعمالها، قال تعالى:  
{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرْجًا  
مَنِيرًا وَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بَأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ  
وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} 48.

ولذلك فالنبي هو المصلي والمسلم عليه، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ  
يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} 49، يفهم  
من هذه الآية الكريمة أمرين:

الأمر الأول: أن الله وملائكته يصلون على النبي.

---

46 - النساء 80.

47 - الجن 1، 2.

48 - الأحزاب 44 . 48.

49 - الأحزاب 56.

الأمر الثاني: جاء أمر الله للمؤمنين بالصلاة والسلام على النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، ويفهم من هذه الآية أن الله وملائكته يصلون على النبي، أمّا أمر التسليم فلا يلحق إلا لمن آمن بالنبي الكريم، بمعنى أن الله وملائكته يصلون على النبي ولكنهم لا يسلمون عليه، وذلك لأنّ أمر التسليم لا يكون إلا من مؤمن به ومتبع له نبيًا ليكون من الطائعين لأمر الله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا).

فصلاة الله على النبي بأسباب اصطفاؤه له نبيًا كريمًا، وصلاة الملائكة عليه بأسباب الطاعة لله تعالى، ولهذا فأمر التسليم لا يلحق الملائكة لأنّ النبي محمد عليه الصلاة والسلام لم يكن رسولًا للملائكة لتسلم عليه تسليمًا، بل أنه النبي المرسل للإنس والجن، ولهذا يستوجب على الإنس والجن الصلاة والسلام على النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وبناء على ما تقدّم نقول:

حال النبي كحال الرسول من حيث الاصطفاء، فلا نبيًا إلا من عند الله، ولا رسولًا يصلّي ويسلم عليه إلا من عند الله، ولهذا كان لمحمد صفة النبوة التي خصّه الله بها كما خصّه رسولًا للإنس والجن جميعًا.

إنّه المصطفى الذي له من الصفات الحسان ما جعله خير رسول وخير نبي وخير خليفة في الأرض، وجعله خير وارث في الدارين؛ فكان مبشرا ومحرضا ومجاهدا وشاهدا ونذيرا وداعيا للخير وسرجا منيرا، فصلّى الله عليه والملائكة والمؤمنون وسلّموا تسليما إنه الرسول النبي محمد الخالد في الجنة والأخبار من تحتها تجري.

كان أميا لا يعلم بأمر الرسالة إلى أن بُلِّغ بها من ربّه ليبلِّغ الناس بالحقّ الذي تهدي إليه، إنّه المؤيد من عند الله تعالى بجنود تفعل ما تؤمر وهي لا ترى من إلا قبل من يقع الفعل عليهم.

تميّز بالقدوة الحسنة فاتّصف بالخلق العظيم مصداقا لقوله تعالى:  
 {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} 50 أي أنه الخلق الذي لا يقارن بأي خلق، نبيا  
 لقد تاب الله عليه وعلى من هاجر معه وناصره واتبعه في ساعة العسرة،  
 {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ  
 الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رءُوفٌ  
 رَحِيمٌ} 51. وهو النبي المتبع لما يوحى إليه، علّمه الله القراءة فكان خير  
 قارئ بما أوحى إليه من ربه، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ  
 الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ  
 يَعْلَمْ} 52، فكان خير شاكرا وخير محدّثا بنعمة ربه تعالى.

محمد عليه الصّلاة والسّلام رسول مُسرى به ليلا فأراه الله آيات  
 عظيمة من آياته الكبرى فسبحان الذي أسرى بعبده ليلا، {سُبْحَانَ الَّذِي  
 أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا  
 حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} 53.

محمد عليه الصّلاة والسّلام هو الرّسول الخاتم الذي لا رسول يأتي من  
 بعده وهو رسول الكافة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ  
 بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 54، وهو لم يكن أبا أحد حيث  
 لا آل يؤل إليه، قال تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ  
 رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} 55.

---

50 - القلم 4.

51 - التوبة 117.

52 - العلق 1. 5.

53 - الإسراء 1.

54 - سبأ 28.

55 - الأحزاب 40.



وعليه لقد كان محمد ضالا عن الذي يتبعه العرب في زمانه قبل الرسالة، فهم على الكفر وهو محاط برعاية الله وعنايته وحفظه من الضلال الذي عليه أمته، ومن بعد الرسالة كانت الهداية بالحق نورا للكافة إلا من استغلظ عن الحق بغير حق.

ولأنّ محمدا مهدي من الله فقد أصبح هو الهادي لهم إلى ما يهديهم للتي هي أحسن وأقوم ليكونوا من بعده أمرين بالمعروف وناهين عن المنكر والبغي مصالحين في الأرض التي أمر الله تعالى بإصلاحها وغير مفسدين فيها ولا سافكي دماء بغير حق، يؤمنون بكل الرسل ولا يفرقون بين أحدا منهم فيصلون ويسلمون عليهم كما أمر الله تعالى.

ومع أنّ محمدا عليه الصلاة والسلام هو الذي يعمل على الهداية لله إلا أنه لا يكره الناس إلى الهداية، قال تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} 56، ولأنّ الهادي بالمطلق هو الله، فأمر الهداية لا يكون مطلقا إلا بيده أمّا من غيره فلا تُعد الهداية إلا جهدا لطاعة ومحبة في وجه الله تعالى.

الهادي مالك الحق، والمرشد إليه، ومالك الفؤة والمرشد بها، ومالك القدرة والتسيير بها؛ ولأنه الهادي فلا يهدي إلا للتي هي أحسن وأنفع وأفيد وأجود وأقوم.

الهادي هو الذي يعلم بالمطلق ما لم يعلمه من يُهدى إلى ما يُهدى إليه، ويعلم بصلاحه قبل بلوغه منه، وبعد الهداية إليه وبلوغه تكون الهداية

حقّ بالفعل الحقّ بالقوّة والقدرة الحقّ كما كان تعالى هاديا لرسول الله عليه الصلّاة والسّلام بالنبوّة والرّسالة الخاتمة.

الهادي هو مغير الأحوال من حال إلى حال أفضل، وهو على كل شيء قدير، والهادي هو الخالق الذي خلق المهتدين، {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ} 57. وهو منزل نصوص وحكم وكلم الهداية إليهم حتى لا يضلون وإن ضل بعضهم فإنّ الهداية من ورائه تلاحقه بالفعل وتسابقه بالقول حتى بلوغها ومن ضل بعد ذلك كان من الضالين.

ولأنّ الهادي صفته الكمال، والمخلوق صفته النقص، فالمنقوص دائما في حاجة للكامل الذي يهديه إلى ما يجب محبة كاملة.

والهادي هو الذي أرسل الرّسل للهداية، ولكن أهل الضلال استحبوا العمى على الهدى، قال الله تعالى: {فَاسْتَحِبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} 58 وحُبّ العمى على الهدى انصراف بالكلية عن طريق الرشاد إلى طريق الفساد لا محالة ومن طريق الخلافة إلى طريق الغواية، ومن ارتضى هذا المسلك أوجب على نفسه الضلال، وابتعد عن نعمة الله التي أوجبها على نفسه في هداية خلقه إلى ما فيه خيرهم وبقائهم.

وللهداية أنواع كثيرة منها:

أ . هداية دلالة.

ب . هداية معونة:

ج . هداية تسديد:

---

57 - الإسراء 97.

58 - فصلت 17.

د . هداية تأييد:

أ . هداية الدلالة: بمعنى أن الله الهادي قد وضع طرق الهداية لجميع الخلق ليهتدوا وأعطاهم من الوسائل التي تعينهم على تقبل الهداية من عقل يربط بين الأشياء قياسا ومنطقا واستدلالات ونتيجة واقتناعا وسلوكا واقتداء وتأثيرا وتأثرا، فمن قبل وعمل استحقّ النوع الثاني من الهداية وهو هداية المعونة.

ب . هداية المعونة بأن يعينه الله ويثبتته على الهداية.

ج . هداية تسديد للمهتدي الذي يريد أن ينشر الهدى الصحيح ويدخل في ذلك النوع الخليفة.

د . هداية تأييد للأنبياء بالمعجزات والوحي وليس لسواهم.

ولأنّ لا هداية تُستمد إلا من الهادي عزّ وجلّ لذا كانت هداية رسول الله كاملة على هذه الصفة التي ارتضاها الهادي تعالى له، فالهادي هو الذي بصّر عباده وعرفهم طريق معرفته حتى أقروا برّبوبيته وهدى كل مخلوق إلى ما لا بدّ له منه في بقائه ودوام وجوده.

ولأنّ أمر الهداية بيد الهادي المطلق لذا لا يهدي أحد إلا في مشيئته عزّ وجلّ، قال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} 59 القول القرآني في هذه الآية الكريمة موجه إلى الرسول الكريم محمد عليه الصلّاة والسّلام أي وإن كنت يا محمد شديد الحرص على هداية أحد تحبه، فإنك لا تستطيع أن تُدخل الهدى إلى عقله أو الإيمان إلى قلبه، ولكن الله يهدي للإيمان من علم فيه قبول الهداية واختيارها، وهو الذي يعلم علما ليس فوقه علم من سيدخل في صفوف

المهتدين، فالبعيدون عن الهدى يتأولون ذلك بأنّ الله تعالى الهادي إلى سبيل الرشاد لم يرد لهم الهداية وأن الضلال والغي مكتوب عليهم، والأمر هنا من وجهين:

الوجه الأوّل: فإنّ الله سبحانه وتعالى ما أراد شرا بالعباد وحاشا لله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، ذلك أن الخالق عزّ وجلّ أعطى الإنسان عقلا مميّزا، وبين له الخير والشر والهدى والضلال، وبين كذلك المسالك والمعابر والطرق والدروب التي تؤدّي إلى كل واحد ممّا ذكرنا، وبهذا فإنّ الله تعالى أقام الحجّة على الخلق وتبرأ من الظلم حيث قال تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} 60 ومن هذه الآية يتضح لنا الوجه الثاني.

والوجه الثاني: هو المتعلق بأمر العلم، فبعض من لإنسان مع عقله ووضوح رؤيته وتمييزه بين الصالح والطالح فقد ترك طريق الهدى واتخذ الغي سبيلا، والبعض الآخر فبعقله وتمييزه ووضوح رؤيته أيضا اختار الهدى واتخذ سبيلا، ويعلم الله المسبق لما سيقع قبل وقوعه كتب الشقاوة والضلال للبعض الأوّل والهداية للبعض الثاني، وعلى هذا فالعلم سابق على القدر بما ستكسب أيدي الناس، وبما أن الله تعالى هو خالق الخلق، فهو أعلم بهم وبما سيفعلون وبما سيعملون قبل أن يفعلوه وقبل أن يعملوه؛ ولأنّ علم الله بهم سبق أفعالهم وأعمالهم لذلك سبق على خلق كل واحد منهم كتابه الذي كتبه عليه، ولكن لا يعلم الغيب إلا الله تعالى فنعم المولى الهادي ونعم النصير الهادي الذي وجد محمّدا ضالا فهدى.

فالله سبحانه وتعالى لم يرد ظلما بالعباد، ولذلك بثّ آياته الدالة على وجوده ليهتدي إليها الخلق ومن خلالها يهتدون إلى الخالق، وهي الحجج

والبراهين الساطعة التي يوضح الله بها الحقّ، ويدفع بها الباطل من بعته الأنبياء والمرسلين، فالله سبحانه وتعالى أمّن ضرورات الهداية لخلقه من الأسباب التي عن طريقها تتم معرفة الهدى وصولاً إلى الهادي، وضرورة الخلق إلى معرفة الحقّ عن طريق الهدى ودين الحقّ فوق كل ضرورة، وحاجتهم إليه فوق كل حاجة، فإنه لا سبيل إلى معرفة الطيب من الخبيث، والصحيح من السقيم، من الاعتقادات والأقوال والأفعال والأحوال على التفصيل إلا من جهة الهداية، ولا سبيل إلى الفوز بالسعادة في المعاش والمعاد إلا من النبوة والرّسالات وما جاء به الأنبياء والرّسل من الكتب التي تحمل الهداية.

وبالإضافة إلى آيات الهادي الماثورة في هذا الكون التي تهدي الخلق إلى الصراط المستقيم، فقد أرسل الله الأنبياء والرّسل دعاءة إلى سبيل رشاده وهداه مبيناً لهم بما أتى أنبياءه من الكتب، وهي الحجج والبراهين الدامغة للباطل والمحقّة للحقّ، فأنزل مع الرّسول الخاتم الكتاب الذي فيه البيان والهدى والإيضاح، وأنزل معه الميزان، وهو العدل الذي ينصف به المظلوم من الظالم، ويقام به الحقّ وينشر به الهدى ويعامل النَّاس على ضوئه بالحقّ والقسطاس المستقيم، وبهذا فإن الله تعالى قد أوجد ضرورات الهدى لخلقه عن طريق الرّسالة الخاتمة والرّسول الكافة، إضافة إلى آيات الكون الماثورة أمام أعين الخلق، ذلك أن ضرورة الخلق إلى معرفة ما جاء به الرّسول الذي هداه الله ليكون نبياً رسولاً للحقّ وللناس كافة، فإنه لا سبيل إلى معرفة الطيب من الخبيث، والصحيح من السقيم من الاعتقادات والأقوال والأفعال والأحوال على التفصيل إلا من هذه الرّسالة والرّسول الذي هداه وأرسله للكافة.

وأما مسألة الهداية عن طريق الإبصار فلها شأن آخر يختلف كلّ الاختلاف عن قضية السمع، حيث جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ

تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ {61}

فإنك يا محمد إن تسألهم الهداية أو تطلب منهم أن يهتدوا إلى ما فيه خيرهم لا يسمعون سؤالك ولا يجيبون طلبك فضلا عن إرشادك إياهم، وإنك لتراهم كأنما ينظرون إليك، وهم في الحقيقة لا يرون شيئا، فالرؤية هنا بصرية والخطاب للجميع، فهم غير قادرين على الإبصار وهو بيان عجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع، ونعني أن قدرة الإنسان المخلوق إنما تكون بهذه الجوارح، فإنها أدوات يستعين بها الإنسان في جميع أموره ويسيرها العقل المدرك، والمخلوقات الأخرى وإن امتلكت هذه الأعضاء والجوارح فهي تفتقد إلى العقل المدبر للاختيار، فالإنسان له الفضل عليها بامتلاكه العقل المسيطر على هذه الأعضاء؛ لأنّ الرجل الماشية أفضل من الرجل العاجزة عن المشي وكذلك اليد الباطشة أفضل من اليد العاجزة عن البطش والعين الباصرة أفضل من العين العاجزة عن الإدراك والأذن السامعة أفضل من الأذن العاجزة عن السمع فظهر بهذا البيان أنّ الإنسان أفضل من هذه المخلوقات بكثير، ومن هنا تأتي أهمية البصر في اختيار طريق الهدى.

محمد رسول الله الله بعث للكافة برسالة خاتمة، ولا رسول من بعده،  
إنه خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليهم وسلم.

نحن لا نقول هذا تعصبا لنبينا صلى الله عليه وسلم، ولا تعصبا لديننا الذي ارتضاه الله لنا ملة أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي سمّانا مسلمين، ولكنّه إحقاق للحقّ، لأنّ محمد عليه الصلاة والسلام نبي الكافة ورسولا للكافة.

ذلك أنّه عندما يقف المتتبع على صفات النبي محمد التي تتمثل في أخلاقه وسيرته صلى الله عليه وسلم، تمتلئ نفسه روعة واضطرابا، وعقله

ذهولا ورجاءً، وفؤاده خوفاً وأملاً، ذلك أنه إمام مصطفى، ونبي مرسل من الله تعالى، وإنسان عظيم، لن تأتي كمثلته البطون.

فإن كانت العظمة تهزّ القلوب، وتثير الأفئدة، وتخلب الألباب، فما بالك بالعظمة التي انتظمت مع النبوة، والتي عززتها الرسالة، وما بالك بالخلق العظيم الذي ارتقى به محمد عليه الصلاة والسلام بالتضحية من أجل إعلاء كلمة الله، وخدمة في سبيل الإنسانية وخير البشرية.

إن صفات محمد عليه الصلاة والسلام التي استمدّها من الصفات المطلقة لله تعالى، كانت المنهج الذي تسير به الدعوة لنشر الرسالة التي أدت إلى نتائج عظيمة أهمها:

. إخراج الناس من الظلام إلى النور مصداقاً لقوله تعالى: {الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} {62}.

. إنذار قومه من أجل نجاتهم مصداقاً لقوله تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} {63}.

. رسول إلى الكافة تبشيراً وإنذاراً مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {64}.

ولكونها رسالة الكافة بالنبي الخاتم، فكان أن عمّ خيرها البشرية جمعاء، وقدمت الحلول المنطقية لخلاص الأمم من مشاكلها الروحية والاجتماعية والاقتصادية.

---

62 - إبراهيم 1.

63 - الشعراء 214.

64 - سبأ 28.

لقد كانت أخلاق محمد عليه الصلّاة والسّلام صفاته، وصفاته أخلاقه، وكان خلقه القرآن، فإن كان عليه الصلّاة والسّلام جمع القرآن الكريم في أخلاقه، فقد استمدّ جميع صفات خالقه التي جاء بها الذكر الحكيم.

وكتابتنا هذا تناولنا فيه بعضا من صفات نبينا محمد عليه الصلّاة والسّلام وبعضا من خصائصه، وفق المنهج الذي اعتمدناه في استخلاص هذه الصفات والخصائص من آيات الذكر الحكيم، كان الهدف من ذلك محاولة الوقوف على بعض المعاني التي لا نقول أنّها لم يقف عليها أهل التفاسير والسير والأخبار، وإثما إسهاما منّا في رفد هذا الإرث العظيم من توضيح بعض المفاهيم بطريقة ربّما تختلف عمّن تناول هذا النوع من البحث.

ومع العلم والتسليم أن كثيرا من العلماء والمفكرين من أهل العقائد والفقهاء والعبادات والمحدثين والإخباريين وما إلى ذلك، جمعوا شيئا عظيما من خصائصه عليه الصلّاة والسّلام في:

. كتب السّير.

. كتب المغازي.

. كتب الهدى.

. كتب الشمائل.

. كتب الخصائص.

. كتب الأذكار.

إلا أنّ يبقى عليه الصلّاة والسّلام ذاك المنهل الذي لا يُردّ وارده، ولا يُملّ بارده.



وإن أردنا أن نجمل مجموع الصفات يكفي أن نذكر منها ما مدحه بها ربّه بقوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} 65. ويكفي من (خلق عظيم) ألا نحصى ما لا يُحصى، فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذكره الله بهذه الصفة وأثنى عليه ومدحه بصفات كثيرة في القرآن الكريم من المنقبات والمكرّمات والمحامد ما لم يُمدّح به نبي ولا رسول.

لقد عمدنا في منهجيتنا في هذا البحث، من خلال الدراسة التي انصبت على صفات محمّد عليه الصّلاة والسّلام وخصائصه إلى الوقوف على ثلاثة أسس رئيسة في التعامل مع البحث في استخلاص ما استطعنا من صفات من النصوص القرآنية تمثلت في الآتي:

1. كان كثير منها ممّا تناوله من سبقنا، إلا أنّنا في منهجنا انطلقنا من رؤية أخرى بما فتح الله علينا من مفهوم بعض الصفات والخصائص، ربّما لم يقف عليها أحد، من خلال المعاني وظلال تلك المعاني في سياق الآيات بما تحمل من رؤية تشابكية في سياق السوابق واللواحق، بما تلقي من ظلال معانيها على الصفة أو الخصيصة.

2. بعض منها نفذنا من خلالها إلى مسائل فكرية يحتملها المعنى بما لا يخالف العقل.

وإنّ تناولنا لها بالطريقة التي اعتمدناها، شكّل لنا رؤية أخرى بما يقبله العقل ولا يتعارض مع النص القرآني، فقد كان جلّ اهتمامنا في تناول هذه الصفات والخصائص أن نقف جهد الإمكان على معنى جديد أو امتدادٍ لمعنى مطروق سابقا بالبرهان على صحة الفكرة والدليل الذي يقبله العقل بما لا يتعارض مع النقل.

3 . البعض الآخر، فإننا نشكّ أنّ أحدا وقف عليها بالطريقة التي بيّناها في بحثنا، أو أنّه غاص في أعماق معانيها علما أنه على علاقة دائمة بها قولاً وعملاً، وذلك مثل اسمه عليه الصّلاة والسّلام (محمّد). فمحمّد هو اسمه صلّى الله عليه وسلّم، وأسم محمّد موصوف بما حمّد به ممّا جعل الاسم محمّداً في حالة تطابق تام مع الصفة في الموصوف، وهذه من صفات اسم النبي صلّى الله عليه وسلّم، فصار الاسم هو عين الصفة والصفة هي عين الموصوف.

ومحمّد تدل على أنّه محمّد في خلقه وخلقه وذاته، فهو على ما هو عليه موصوف بما يُحمّد ويُخلّد.

وجاءت صفة التحميد لسيدنا محمّد معظّمة للموصوف بما يُحمّد به ويُحمّد عليه، ولهذا كان التطابق بين الصفة والموصوف في اسمه محمّد الذي يدلّ على أنّه المحمّد من الله تعالى تحميّداً.

وكذلك لأنّه عليه الصّلاة والسّلام لما كان هو:

. نبي ورسول الكافة.

. النبي الخاتم.

. رسول الثقلين.

فترتّب على ذلك أمور لمحمّد عليه الصّلاة والسّلام لم تكن للأنبياء الذين سبقوه صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين، ومن هنا وصف الله تعالى نبيّه محمّد عليه الصّلاة والسّلام بما لم يصف به أحدا من الأنبياء من قبله، فكان النبي الخاتم، حيث ختم الله تعالى بمحمّد عليه الصّلاة والسّلام الرّسالات

السماوية قال تعالى: { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا } 66.

ولأنَّ الله عزَّ وجلَّ يعطي من يشاء بما يشاء لمن يشاء، فقد اصطفى محمد عليه الصَّلَاة والسَّلَام نبياً للكافة، قال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 67.

لقد وصف الله تعالى محمداً عليه الصَّلَاة والسَّلَام بصفات وخصه بخصائص كما وصف وخصَّ غيره من الأنبياء والمرسلين.

وهكذا يشترك محمد عليه الصَّلَاة والسَّلَام مع الأنبياء في جميع صفاتهم ولا يشتركون معه في بعض صفاته التي تفرَّد بها، ولذا فقد عمدنا في تناول البحث إلى أن فصلنا بعض الخصائص عن بعض الصفات التي لم تذكر لأيِّ نبي أو رسول سواه عليه الصَّلَاة والسَّلَام كما ذُكرت له.

ولن نبالغ إذا قلنا أننا على وعي تام فيما نقول ونبحث، لأننا نتصور مدى أهمية مثل هذه الموضوعات التي تعالج قضايا كبرى جوهرية قبل أن نقدم على النظر في مسائلها والكتابة فيها من خلال صفاته وخصائصه صلَّى الله عليه وسلَّم، لما تضمُّ من فضائل وقيم تتعلق بالإنسان جوهرًا وعرضًا، وتمتُّ له بصلة في حياته العقدية والاجتماعية والفكرية.

ولما كان عليه الصَّلَاة والسَّلَام مُسْتَمِدًّا صفاته وخصائصه من الصفات والخصائص المطلقة التي وصف الله تعالى بها نفسه، فكان استمداده النسبي لها بشريا في مرتبة النبوة، ولما كانت النبوة هي أعلى درجات البشرية في إنسانيتها ورفيحتها، فقد وصلت إلى درجة التمام في تمثل الصفات والخصائص المستمدة من الكمال المطلق، ولما اجتمعت النبوة وتمام

---

66 - الأحزاب 40.

67 - سبأ 28.

الصفات والخصائص وكلاهما من الكمال المطلق، فكانت الرّسالة الخاتمة للناس كافة.

ولذا؛ فإنّ صفات محمّد عليه الصّلاة والسّلام مثبتة في القرآن الكريم بدقّة بالغة فوق ما نجد في أيّ مصدر آخر، والسيرة النبوية التي سار عليها عليه الصّلاة والسّلام في دعوته بنشر الرّسالة بالطريقة والأسلوب المعبر عن الخلق الذي يحمل هذه الصفات والمعاهدات التي عاهد عليها والتعامل مع الأتباع والخصوم في:

. الأمر والنهي

. والرّحمة والرّأفة

. والصفح والعفو

. والصدق والعدل

وما إلى ذلك من الصّفات التي مارسها واقعا تطبيقيا، والأعمال التي قام بها وأمر بها لا تترك مجالا للريب في الشخصية الكاملة على المستوى البشري، والإيمان الوطيد والإخلاص البالغ، وغير ذلك من الصفات التي خلقت الرجال القادة في التاريخ عندما تمثلوها وعملوا بها واتخذوها لهم منهجا.

لقد كان عليه الصّلاة والسّلام القدوة الحسنة لأمته، والأنموذج البشري الكامل قال جلّ ذكره: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة).

ثمّ إن هناك مسألة مهمة في قضية الصفات التي اتصف محمّد عليه الصّلاة والسّلام والصفات التي اتصف بها الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين وهي:

أنا ذكرنا في بحثنا عن صفات الأنبياء، أن صفة ما في نبي أظهر منها في نبي آخر، وذلك لخصوصية الرسالة في القوم المبعوث فيهم وإن كانوا جمعا يحملون جميع خلال الخير، إلا أنّ العوامل والظروف هي التي تستدعي ذكر صفة دون صفة بسبب من الزمان والمكان والإنسان، ولما كان محمد عليه الصلاة والسلام هو نبي الكافة وحامل الرسالة الخاتمة فقد كان له من ذكر الصفات في القرآن الكريم النصيب الأوفى، وهذا من مطلقة الرسالة الخاتمة وكونه رسول الكافة، فوجب ذكر صفات تناسب الكافة، وتكافئ الختام.

وعود على بدء نقول: إنّ صفات الأنبياء صلى الله عليهم وسلم متساوية لدى الجميع، لأنّها من القرآن الكريم خاصّة، وأنّ صفاتهم آيات، وأنّ كلّ صفة وقفنا عليها وأظهرناها في الآية القرآنية الإعجازية، هي صفة إعجازية من صفات الأنبياء ترتبط بالإعجاز، ولذا يشترك الأنبياء مع البشر في جميع صفاتهم الحميدة، ولا يمكن أن يشترك البشر مع الأنبياء في جميع صفاتهم.

إنّ صفات محمد عليه الصلاة والسلام وخصائصه بعد كتاب الله تعالى هي القدوة التي يؤتسى بها، لأنّ الصفات الحميدة والخصائص السامية، والفضائل الكريمة والقيم الرفيعة هي صفات محمد وخصائصه التي تبقى منهلا ثرا وموردا مقصودا للمؤمن والكافر.

ومّا تجدر الإشارة إليه في هذا الموضوع أنّ بعض الصفات التي اختصّ الله تعالى بها نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، والتي أوردناها في بحثنا أنّ هذه الصفات لا يشترك بها معه أي نبي آخر، مثل مطابقة صفته لاسمه، والنبي الخاتم ورسول الكافة.

فصلاة ربِّي وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله، وجزاك الله عنّا خير  
ما جرى به نبي عن أمته، ونسأل الله أن تكون شفيعنا يوم القيامة، وآخر  
دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

أد عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

## محمّد

### من وحي القرآن

النبي محمّد عليه الصلّاة والسّلام هو خاتم الأنبياء والرّسل الكرام عليهم الصلّاة والسّلام، ورسالته (الإسلام) رسالة الكافّة. إنّها الرّسالة التي نسخت كلّ ما سبقها من كتب ورسالات وصحف لتكون للنّاس كافة بدينٍ واحدٍ لربّ واحدٍ لا شريك له.

"ولد سيدنا ونبينا محمّد رسول الله عليه الصلّاة والسّلام يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربّيع الأوّل عام الفيل قبل بعد الفيل بخمسين يوماً"68.

رسول الله عليه الصلّاة والسّلام هو: "محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وأمّه آمنة ابنة وهب"69.

محمّد رسول الله عليه الصلّاة والسّلام هو النبي المبشّر به قبل أن يُخلق من النطفة التي لم تُخلق في ذلك الوقت، مصداقاً لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}70.

---

68 - عيون الأثر، ج 1، ص 39.

69 - المجموع، ج 19، ص 381.

70 - الصف 6.

ولذلك تتضح العلاقة بين ما بشر به عيسى وبين دعاء إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهم وسلم، مصداقا لقوله تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {71، فكانت الاستجابة بقوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ} {72.

فكان محمد متمما لمكارم الأخلاق التي تنار الرسل من أجلها من بعد نوح إحقاقا للحق وإزهاقا للباطل، فكانت أمته خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتسارع في الخيرات ولا تظلم أحدا.

أنزل الله تعالى الحق على محمد عليه الصلاة والسلام فكان حقا للحق، مصداقا لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدًا وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} {73.

ومع أنه مع الذين آمنوا ليين البال والقلب ورحيم النفس إلا أنه على الكافرين والمنافقين شديد غليظ، قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} {74.

بعث محمد أذن خير يستمع إلى الناس (الكافة) ليحييهم بما أمر الله تعالى به، لعلهم يهتدون ويكونوا على الحق أخوة متحابين في الله، فكان لهم

---

71 - البقرة 129.

72 - المؤمنون 32.

73 - محمد 2.

74 - الفتح 29.



أسوة حسنة فاقتدى به المؤمنون قولاً وفعلاً وعملاً وسلوكاً، فكان الصالحون منهم خليفة يرثون الأرض وهم مصلحون لا مفسدون ولا سافكي دماء فيها بغير حق، وامتنح الله قلوبهم وهم يعضون أصواتهم عنده للتقوى فجازهم مغفرة وأجراً عظيماً، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} 75.

ولأنه أسوة حسنة كان عفواً يحب العفو وهو مستغفر لهم في كل أمر لعلمهم يتقون، ومشاوراً لهم في كل أمر يتعلق بهم لعلمهم يرشدون، وعند العزم يتوكل على الله فهو وليه وإليه المصير، فكانت طاعتهم إليه من طاعة الله تعالى {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} 76.

رسول مسالم يجنح للسلم كلما جنح الجانحون إليه، ولا يُكره أحداً على الإيمان حيث لا إكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي، إنه نبي الإنس والجن كافة ومعجزته القرآن الكريم، قال تعالى: {قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} 77.

مصطفى له من الصفات الحسان ما جعله خير رسول وخير نبي وخير خليفة في الأرض وجعله خير وارث في الدارين فكان مبشراً ومحرضاً ومجاهداً وشاهداً ونذيراً وداعياً للخير وسرجاً منيراً، فصلّى الله عليه والملائكة والمؤمنون وسلّموا تسليماً إنه الرسول النبي محمد الخالد في الجنة والأنهار من تحتها تجري.

---

75 - الحجرات 3.

76 - النساء 80.

77 - الجن 1، 2.

كان أميا لا يعلم بأمر الرسالة إلى أن بُلِّغَ بها من ربِّه ليبلِّغَ النَّاسَ بالحقِّ الذي تهدي إليه، إنَّه المؤيد من عند الله تعالى بجنود تفعل ما تؤمر وهي لا تُرى من إلا قبل من يقع الفعل عليهم.

تميّز بالقدوة الحسنة فاتَّصف بالخلق العظيم مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} 78 أي أنَّه الخلق الذي لا يقارن بأي خلق، نبيا لقد تاب الله عليه وعلى من هاجر معه وناصره واتبعه في ساعة العسرة، {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} 79. وهو النبي المتبع لما يوحى إليه، علَّمه الله القراءة فكان خير قارئ بما أوحى إليه من ربِّه، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} 80، فكان خير شاكرا وخير محدِّثا بنعمة ربِّه تعالى.

محمَّد عليه الصَّلَاة والسَّلَام رسول مُسرى به ليلا فأراه الله آيات عظيمة من آياته الكبرى فسبحان الذي أسرى بعبده ليلا، {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} 81.

محمَّد عليه الصَّلَاة والسَّلَام هو الرِّسول الخاتم الذي لا رسول يأتي من بعده وهو رسول الكافة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 82، وهو لم يكن أبا أحد حيث

---

78 - القلم 4.

79 - التوبة 117.

80 - العلق 1.5.

81 - الإسراء 1.

82 - سبأ 28.

لا آل يؤل إليه، قال تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} 83.

فقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ) ماذا يعني؟

يعني ممّا يعنيه أنت يا محمد تختلف عن الرُّسل الكرام الذين سبقوك؛ فهم عليهم وعليك الصّلاة والسّلام رُسل خاصّة؛ أم أنت يا محمد (الرّسول الجامع) أنّك رسول الكافّة الذي يجمع الكلّ برسالة الكلّ. ومن هنا كان محمّدا يبشّر بدين الكلّ للكلّ ولا اكره في الدّين. ولتلبان وفهم دور محمّد في جمع العباد على كلمة سواء علينا بمعرفة صفة الله الجامع الذي استمد محمّد منه صفته الجامعة؛ فالجامع، هو المؤلّف بين المتماثلات والمتباينات والمتضادات ومسيّر أمورها دون خلل، أمّا جمع الله المتماثلات فكجمعه الخلق الكثير من الإنس على ظهر الأرض وكحشره إياهم في صعيد القيامة، وأمّا المتباينات فكجمعه بين السّماوات والكواكب والهواء والأرض والبحار والحيوانات والنبات والمعادن المختلفة كل ذلك متباين الا شكّال والألوان والطعوم والأوصاف وقد جمعها في الأرض وجمع بين الكلّ في العالم وكذلك جمعه بين العظم والعصب والعرق والعضلة والمخ والبشرة والدم وسائر الأخلاط في بدن المخلوق، وأمّا المتضادات فكجمعه بين الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة في أمزجة الحيوانات وهي متنافرات متعاديات وذلك من أبلغ وجوه الجمع، وتفصيل جمعه لا يعرفه إلا من يعرف تفصيل مجموعاته في الدنيا والآخرة وكل ذلك ممّا يطول شرحه تنبيه.

الجامع من أسماء الله الحسنى "هو الذي يجمع الخلائق ليوم الحساب،

وقيل: هو المؤلّف بين المتماثلات والمتباينات والمتضادات في الوجود" 84.

الجامع "الذي جمع الفضائل وحوى المكارم والمآثر" 85.

الجامع من العباد من جمع بين الآداب الظاهرة في الجوارح وبين الحقائق الباطنة في القلوب فمن كملت معرفته وحسنت سيرته فهو الجامع ولذلك قيل الكامل من لا يطفى نور معرفته نور ورعه وكان الجمع بين الصبر والبصيرة متعذر لذلك ترى صبورا على الزهد والورع لا بصيرة له وترى ذا بصيرة لا صبر له والجامع من جمع بين الصبر والبصيرة والسلام 86.

فالحمد لله جامع جميع مخلوقاته، ليوم الجمع استعدادا لملاقاته، فيجازي كلٌ بسيئاته وحسناته، والصلاة والسلام على سيد مخلوقاته، وعلى من سار على نهجه طمعا في جناته.

الجامع: الذي بيده كل شيء ولا شيء خارج يده، فهو الجامع للحق كله، فييده كل الملك وكل الأمر، وهو الجامع للشيء ونقيضه في المخلوق الواحد، كالفؤة والضعف في الإنسان مما يجعل المخلوق يقوى ويضعف ولكل أسباب، ويجعله يمرض ويشفى ويمشي ويقعد، وبهذا كل من يريد أن يؤمن فيإمكانه أن يؤمن، ومن يريد أن يكفر فيإمكانه أن يكفر، قال تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} 87، وقال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} 88. أي بما أن الله الجامع جامع للشيئين في المخلوق الواحد إذن طبيعة التخيير مغروسة في المخلوق في أحسن تقويم، ولهذا كل شيء ممكن فلا تستغرب أن يضل البعض ويهتدي البعض الآخر، ولهذا الحساب يسجل ويؤجل إلى يوم إنزال العقاب جنة أو نار.

---

85 الأسماء والصفات للبيهقي، ج 1، ص 209.

86 الغزالي، المقصد الأسنى، ص 144.

87 البقرة 272.

88 القصص 56.

اسم الجامع من أسماء الصفات، الجامع لكل كمال، المنزه عن كل نقص، وهو الجامع لمعاني الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ فجمع صفات العظمة والجلال والكبرياء، قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {89، الجامع لكل صفات البقاء، قال تعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} {90، وهي التي لا يستحق غيره أن يتصف بها إلا على سبيل الإضافة إلى الله عز وجل؛ لأنه سبحانه الجامع لجميع الصفات المحبوبة، والأسماء الحسنى والصفات العلى، وهو يثني بنفسه على نفسه، والخلق لا يحصون ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه، وهو الجامع؛ لأنه القوي المتفرد بما يستحق غيره أن يبقى تحت طوية يمينه، فهو القوي الذي يستطيع أن يجمع كل المخلوقات في قبضته يوم يريد لها ذلك، قال تعالى: {بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} {91، وهو الجامع لجميع صفات الألوهية التي من جملتها القدرة على النفع والضرر، فالله هو الجامع الذي جمع المتماثلات بتأليفه بين المتضادات في الوجود، وجمع الشيء بعد تفرقة فيجمعه جمعا من هنا وهنا، فيصير من الشيء القليل الشيء الكثير، ومن الشيء الصغير الشيء الكبير، ومن مظاهر ذلك:

---

89 الحشر 22-24.

90 الحديد 3.

91 الزمر 66، 67.

1 . جمعه للماء حتى يصير سيلا، فيلتقي من كل مكان ويجمعه من كل موضع في الموضع الذي يريده، قال تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ} 92، كذلك الخليفة عليه أن يكون نافعا حتى يمكث ذكره في الناس كما يمكث الماء النافع المبارك أثره في الأرض ولا يكون الخليفة نافعا إلا بإحقاق الحق فإذا الباطل زاهق، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا لَأَتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ} 93، والماء كما يريده الله، فيجعل فيه البركة حيث يشاء، ومصدقا لذلك قال تعالى: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} 94، ويجعله نقمة على من أشرك بالله وظن أنه العالی، كما فعل بقوم لوط، قال تعالى: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا

92 الرعد 16، 17.

93 الأنبياء 16-19.

94 ق 9-11.

فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ {95، فعلى الإنسان أن يحمد الله جل في علاه على نعمه التي لا تحصى، بما اصطفى به خلفاءه بأن نجاهم من العذاب الدنيوي قبل الآخروي وبما كانوا جادين من فعل الحسنات فسلمهم من كثير من المهلكات، أبدل لهم العذاب بمطار نافعة يغرسون تحت بركتها الشجر والحدائق الغناء، قال تعالى: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ بَلٌ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ {96.

2 . جمعه للقوم: فيكونون من هنا وهنا قبائل وأفخاذ وجماعات وشعوب وأمم، والذين أساسهم الفرد؛ وذلك للتعاون والتعارف، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ {97، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا {98، فعلينا أن نحافظ على بني البشر بفعل الخير واجتناب الشر، وألا نحاول العبث بنواميس الطبع والطبيعة، والتي خلقها الله جل في علاه بنظام لا نعلم من حقائقه إلا ما أَرَادَهُ اللهُ لَنَا أَنْ نَعْلَمَهُ، ولذلك يجب علينا ألا نعمل ما يعمله الملحدون والذين يظنون أنهم يحسنون صنعا، فمثلا عندما حاولوا أن يزرعوا الجنين في أنبوب وظنوا أنهم نجحوا حتى إذا ما وصلوا إلى نقطة الصفر وجدوا أنفسهم كأن لم يفعلوا شيئا؛ لأنهم دخلوا في ما هو علمه عند الله فوجدوا أنفسهم لا يعلمون شيئا مصداقا لقوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ

95 النمل 56-58.

96 النمل 59، 60.

97 الحجرات 13.

98 الفرقان 54.

الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} 99، وهذه الصفة التي تجمع بين الجسد والروح لا يقدر عليها إلا من كان يحمل هذا الاسم فكيف يكون جامعا وهولا يملك قدرة على الجمع، فقدرة الإنسان على الجمع إلا بقدر الإضافة التي حدد الله قدرها للإنسان فليكن الخليفة جمعه في الخير ووحدة الصف، وجعلهم كالبنين المرصوص، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} 100، ليكونوا قوة رادعة يرهبون عدو الله وعدوهم امتثالا لقوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} 101. فعمل الخليفة يتمثل في قدرته على جمعه للناس على الأمر الجامع بما يفعله من الخير وهو الأمر الذي يجمع خلفاءه على أرضه، وفي التنزيل قال تعالى جل في علاه: {وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ} 102.

3 . جمعه للنقيضين في الشيء الواحد: الإنسان واحد يعد ويجمع، ومن مكوناته الشخصية الحب والكراهية ولكل منهما مكانة في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع، فعندما يكون خليفة يجب فعل الخير قولاً وعملاً، ويكره الشر قولاً وعملاً وكليهما موجب، وفي مقابل ذلك من لم يكن خليفة قد يجب الخير لنفسه ويكره أن يكون الخير لغيره، وفي هاتين الحالتين سلبية لا تليق بمكارم الخلاق.

---

99 الإسراء 85.

100 الصف 4.

101 الأنفال 60.

102 النور 62.



في المخلوق الواحد يلتقي المرض مع الشفاء، والطرب مع الغضب والظلم مع الحق، والحقد والكره والبغض مع التواد والتراحم والمودة، وكلها نقائص في واحد، ومن يكون من المستخلفين يغالب بالموجبات أقولها وأفعالها على السالبات أقوالها وأفعالها. ومن يكون غير ذلك قد يجتني مظالم ويرتكب مفاسد ويسفك دما بغير حق، وفي ذلك تشب نار الفتنة. قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } 103.

4 . جمعه للنقيضين المستقلين في المكان الواحد: الإنسان مع الشيطان، المؤمن مع الكافر، المصلح مع المفسد، الخروف مع الذئب، القطط مع الفئران، الليل مع النهار (الشروق مع الغروب)، قال تعالى: { سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ هَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } 104.

5 . جمعه للكون: قال تعالى: { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } 105، هذه القدرة العظيمة التي عمر بها الكون ليست من قدرة مخلوق مهما كان حجمه أو قدرته، كهذه السماوات التي لا ترون أعمدتها، وكيف استطاع أن يسخر

103 النساء 1.

104 يا سين 36 . 40.

105 الرعد 5.

فيها الشمس والقمر وكلاهما بهذا الحجم ودونما إعياء أو تعب، قال تعالى: {أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} 106، وما جعل من تعاقب الليل والنهار وكلاهما يطلب صاحبه وهو جديد مع كل شروق وغروب، وكلاهما تحت تديره وتصرفه، فهل من مخلوق يستطيع أن يجمع بين كل هذه الأشياء العملاقة الضخمة؟ وكأن أمرا يسيرا يحدث في أمورنا المعتادة، وكل ما نراه لم يستغرق عنده سوى ستة أيام، فالجامع هو الذي له القدرة والعلم والقدرة والإرادة على فعل كل ذلك، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} 107، وحظ الخليفة من هذه الجمع العظيم الذي لم يكن ليعيش فيه لولا فضل الله الجامع المانع إلا أن يجمع الحسنات بفعل الحسنات والبعد عن كل ما يغضب الله تعالى في علاه، فليكن شاكرا لأنعم الله على كل ما حباه من الخيرات وفي كل الأوقات، وكيف يكون الإنسان شاكرا! وذلك بالعمل بما يرضي ربه والتوجه له بالدعاء جهرا وخفية لأن يوفق مستخلفيه إلى العمل الصالح، وعمل الصالحات وكل ما يعمر به الأرض والبعد عن الفساد والدمار امتثالا لقوله تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} 108.

6. جمعه البَيِّدَاءِ: فجعل فيها الشجر ومختلف النبات والجبال، وأمدّها

لمسافات شاسعة يعجز الإنسان عن قطعها بدون مساعدة، وجعل فيها

---

106 ق15.

107 الأعراف 54.

108 الأعراف 55، 56.

الجبال الراسيات المختلفة الا أشكال والألوان، وخصها بنوع معين من النبات وميزه بالقدرة على تحمل الحرارة العالية، وندرة الأمطار، وفي المقابل شقها في بعض الجهات بالأفكار؛ رحمة بالناس، سواء في ذلك المؤمن والكافر؛ لأن ذلك لا يزيد ولا ينقص من خزائنه شيئاً جل في علاه، وجعل فيها الواحات وبحاراً من الرمال، كل ذلك جمعه الجامع في بيئة واحدة نسميها الصحراء، أو البيداء لأنها تبيد كل من لا يحسن الدخول إليها، ليريه ربه أن الاستعداد جزء من حسن التوكل على الله، فالله يأمرنا بحسن التوكل عليه؛ وليعلمنا أننا أضعف من أن نتحداه في خلقه، قال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُزُقَيْنِ أَنْتَيْنِ يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفُضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } 109، وقال تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ } 110.

7 . جمعه البحرين: وَجَمَعُ الْبَحْرَيْنِ مُلْتَقَاهُمَا، أي العذب والمالح الأجاج، فالله جعل بينهما حاجزا لا يصل أحدهما إلى الآخر، وقد حاول العلماء قياس قوة هذا الحاجز فوجدوه مانعا قويا لا يمكن لأي قوة أن تخترقه، وهم لا يعلمون أنه سبق فيه قول الباري عز وجل: { وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا

109 الرعد 3، 4.

110 فاطر 27، 28.

تَحْجُورًا} 111، فسبحانه من جامع قوي جمع بعدل بين البحرين ودونما ظلم أو بغي لأيهما على الآخر، وقال تعالى: {أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلَاءٌ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} 112، والخليفة الذي يرى هذا الجمع بين النقيضين وما جعله بينهما من الحواجز التي لا تراها إلا بما نحسه من الفارق بين طعمهما، ليعلم في أن الطرف المقابل أن الله لا يوجد بينه وبين من يدعوه حاجز، حيث قال: (أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ)، وهو الذي يسمع المضطر إذا دعاه، وذلك عندما تعلق من حوله الأمواج فيجد نفسه ضعيفا لا يقوى على ردها من غير تدخل إلهي، وبذلك يخرج متيقنا بأن الله هو الذي جمع الفؤة والإرادة والقدرة والعلم، فيعبده بحق بعدما رأى رأي العين ما كان فيه من الموت المحقق، إلى ما صار إليه من النجاة، فيكون صادقا حريصا على مرضاة ربه في البر والبحر، وفي السر والعلن، وبذلك يكون مستحقا للخلافة الحقة في أرضه وصولا إلى جنته في أخراه؛ وتنفيذا لقوله تعالى في علاه: (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ). وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ} 113. وفي الناحية المقابلة نجد الذين ينكرون نعمة ربهم بعدما يخرجهم من محنتهم التي

111 الفرقان 53.

112 النمل 62.

113 لقمان 31-33.

كانوا فيها، فقد قال تعالى في حقهم: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَأِنَّ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَسَىٰ أَلْتَمِسُ مِنْهُ عَذَابًا أَلِيمًا} 114. وإذا ما غصنا في البحر لنرى من العجائب والغرائب في الجمع بين مختلف الكائنات من حيث الحجم والا شكّال ما يفوق كل تصور، فنرى الأودية والجبال والرمال والنبات المختلف في شكله وحركته وحجمه وكيف تسلك طريقها في الحياة بنظام بديع فلا تأكل إلا بقدر حاجتها وتنصرف تاركة حق غيرها، ودوما عبث بالطبيعة وما حوت، وكيف تحافظ هذه الكائنات على بقائها بطرق الحماية المختلفة، فتختار المكان والوقت المناسب لتكاثرها من حيث الجو والحرارة والتيارات البحرية وأمواج السمك الضخمة والتي تعد بمئات الآلاف، فسبحانه من قادر على جمع هذه المتضادات لتعيش في بيئة متناسقة ومتألّفة ودون أن يؤثر أحد في وجود الآخر؛ والحمد لله رب العالمين.

8. جمعه بين الأزواج: وإدامته بينهما، بما غرسه وأدامه الله من ألفة بين القلوب، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} 115، فالخليفة هو ذلك الذي يعمل على بناء البيوت الأسرية ولتعمر الأرض بأهلها وتزداد في بهائها بما تنجبه من أهل الخلافة الحقّة والذين أسسوا من أول يوم وجدوا فيه على البر وتقوى الله ليكونوا خلفاء الله في أرضه بما يقدمونه من الأعمال الصالحة، ولتحقيق ذلك يجب أن يكونوا على الأسس التالية:

أ. تقوى الله: فالبيت الذي يريد الله له الخلافة لابدّ وأن ينشأ على الخوف من الجليل الجامع الذي يجمع الناس ليوم تشخص فيه الأبصار

114 الأنعام 63، 64.

115 الروم 21.

والقلوب لدى الحناجر كاظمين الغيظ، فالجامع الذي يجمع كل عمل عمله من خير أو شر، فالله هولا يغفل عما يعمله الظالمون، قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} 116.

ب . عمل الصالحات: هو العمل الذي يبقى لصاحبه، كثر أو قل فكل شيء مسجل في مكانه إلى يوم لقائه سبحانه، قال تعالى: {قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} 117، وتنقسم الصالحات إلى:

. ما هو فرض لازم، كما هو الحال في الصلوات الخمس والزكاة وصيام رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا.

- وما هو سنة مؤكدة أو مندوبة والتي تتمثل في سنن قبل وبعد الصلوات الخمس، وصيام النوافل والصدقات.

وفي كل الأحوال الأجر ثابت عنده بإذنه ويضاعفه كيف يشاء، وأما ذكر الكتاب فإنه لا يعني أنه ينسى وإنما المراد به أنه تعالى أحفظ مما تحفظونه عندكم في الكراريس والسجلات والدفاتر المختلفة الا شكّال والأنواع تبعا لمادتها جودة وضعفا فالجامع ليس بحاجة لأن يعمل كل ذلك، فالكون عنده لا يساوي قيمة بعوضة علاوة على أن يشتغل به، ولو كان الكون عنده يساوي جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

---

116 إبراهيم 42.

117 طه 52.

ج . حفظ الأمانة: فالله أمر أن نؤدّي الأمانة إلى أهلها، قال تعالى:  
{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ  
تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} 118.

د . بالعدل بين الناس: وذلك في أمور منها:

- الحكم: قال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا  
بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ  
اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا  
الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} 119.

. الميزان قال تعالى: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي  
الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} 120.

. القضاء قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا  
حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ  
سَمِيعًا بَصِيرًا} 121.

. المنازعات: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا  
الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ  
كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} 122.

. في مكاتبة الديون: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ  
إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ

---

118 النساء 58.

119 الحجرات 9.

120 الرّحمن 7-9.

121 النساء 58.

122 النساء 59 .

يَكْتُبُ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبِ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا  
يَبْحَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ  
يُمْلَأَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا  
رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ  
إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا  
أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا  
أَنْ تَكُونَ بِيحَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُوهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا  
وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ  
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {123}.

. صون الأعراض: والذي يكون بالبعد عن الفواحش ما ظهر منها وما  
بطن تبعاً لقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ  
وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا  
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 124.

هـ. البعد عن النميمة والغيبة ورمي المحصنات الغافلات بما ليس فيهن:  
قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي  
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ  
وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقِّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ  
الْحَقُّ الْمُبِينُ} 125.

9. جمعه الجمعة: جعل الله يوم الجمعة ليجتمع فيها القوم ولا يتفرقون  
خوف الضلال ونحوه؛ لأنها هي التي تجتمعهم، فأمر المؤمنين إذا كانوا مع نبيه

123 البقرة 282.

124 الأعراف 33.

125 النور 23-25.



عليه الصلّاة والسّلام في جماعة فيما يحتاج فيه نحو الحرب وشبهها ممّا يحتاج إلى الجُمع فيه، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } 126.

10 . جمعه للكلام من حروف: حتى أعطى معنى، وجاء منه جوامع الكلم، وهو من قول النبي: "أوتيتُ جوامعَ الكلم" 127، يعني به القرآن وما جمع الله عزّ وجلّ بلطفه من المعاني الجمّة في الألفاظ القليلة كقوله عزّ وجلّ: { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } 128، والخليفة من صفته أنّ يتكلم بجوامع الكلم أي أنّ يجمع كثير المعاني في قليل الألفاظ كما هو الحال في الدعاء فهو الذي يجمع الأغراض الصالحة والمقاصد الصحيحة بحسن الثناء على الله تعالى وآداب مسأله تعالى.

11 . جمعه الخلائق ليوم الحساب، قال الله تعالى: { ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ } 129، والجامع جل في علاه قادر على جمعهم كما خلقهم أول مرّة قال تعالى: { وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } 130، وفي صفة السرعة المذهلة التي تجمع ملايين الملايين من الإنس والجن، وكافة المخلوقات مهما كان حجمها، قال تعالى: { فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ

---

126 الجمعة 9، 10.

127 مسند أحمد، ج 15، ص 137.

128 الأعراف 199.

129 هود 103.

130 الأنعام 94.

يَلَاؤُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} 131، وقال تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بِاللِّغَةِ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ حُشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} 132، وفي ذلك اليوم لا تخفى منكم خافية، بل يحاسب كل إنسان بما قدم من عمل صالحا كان أو غيره، ذكرا أو أنثى، ومن أي أمة كان إنسًا أو جنًا، مؤمنا كان أو كافرا، قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} 133، بل يحاسب على كل كبيرة وصغيرة، قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} 134، ويجد كل ما عمله حاضرا ومجموعا في صحيفة، حتى إن الإنسان ليستغرب الدقة المتناهية في جمعه الجامع تعالى في علاه لكل ما عمل، فيسأل كيف هذا الكتاب استطاع أن يجمع كل هذه الدقائق وعلى طوال العمر طال العمر أم قصر، قال تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا حَلَفْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا وَوَضِعَ الْكِتَابِ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} 135، وقال تعالى في صفة حساب المؤمن والكافر: {فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا

131 المعارج 42-44.

132 القمر 4-8.

133 الحاقة 18.

134 الأنبياء 47.

135 الكهف 47-49.

يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو  
ثُبُورًا وَيَصَلِّي سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ  
كَانَ بِهِ بَصِيرًا {136، وبالنسبة لحساب المؤمن الوارد في الآيات السابقة  
فيراد به يوم العرض فالله أكرم من أن يعذب عباده الصالحين، ولكن من  
شدة يوم الحساب ترى الناس قد أخذتهم العلامات العظيمة التي يظهرها  
لمخلوقاته وما يرون من القوة والقدرة الربانية التي لم تكن في حسابان خلقه  
يذهلون من هول ما يرون ودون أن يصل إليهم العذاب الذي وعد به رب  
العزة الكافرين، فذلك اليوم يقول في صفته وما يحدث فيه من الإرباك  
والاضطراب لكافة المخلوقات: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ  
شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْهَا تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ  
حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ  
شَدِيدٌ {137، وقال تعالى: { فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ  
وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ  
مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ  
الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ {138، وعن ذكر الأعمال والحساب لم يجدوا رب العزة ظالما  
بل يجدونه رحيمًا بعباده رؤؤفا بهم، قال تعالى: (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا  
يُظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

وعودا على بدء فيما يتعلق بذكر العرض والجنة والنار يلوح سؤال في  
الأفق: هل المؤمن يعرض على جهنم؟! وإذا كان كذلك فكيف يكون ذلك؟  
وبادئا ذي بدء نعرض على ما ورد ذكره في القرآن الكريم، وخاصة فيما يتعلق  
بهذه المسألة، قال تعالى: { قُلْ يَتُوقَاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى

136 الانشقاق 7-15.

137 الحج 1، 2.

138 عبس 33-42.

رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ {139}، فقوله: (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) قوله الحق، ولهذا كل ما قاله هو حق لا باطل فيه، وإحقاق الحق إصدار حكم، وحكمه بالقدرة والقدرة وامتلاكه للأمر المنفذ للحكم (كن)، وامتلاء جهنم يدل على شيئين اثنين:

الشيء الأول: أتساع جهنم، فهي ذات سعة تستوعب كل من خلق من الجنة والناس، ولهذا فهي لا تضيق بأحد.

الشيء الثاني: القدرة والإرادة الألوهية، فهو بإمكانه أن يدخل الجميع جهنم، وهذا الأمر ممكنا حيث كل شيء تحت أمره ولا وجود للمستحيل.

قال تعالى: { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا فَوَرَّبُّكَ لَنَحْشُرُهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِثِيًّا } {140}، فقوله: (فَوَرَّبُّكَ لَنَحْشُرُهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا) فوربك، قسم برب محمد عليه الصلاة والسلام إي القسم

139 السجدة 11-14.

140 مريم 66-74.

بالذات الألوهية، وعندما يكون القسم برب محمد عليه الصلوة والسلام، فإن الأمر يدل على مكانة محمد الرفيعة صلوات الله وسلامه عليه عند ربه عز وجل، والحشر في قوله (لَنَحْشُرَنَّكَ وَالشَّيَاطِينَ) جمع بين الشياطين والذين أغوهم من الإنس، وهؤلاء جميعا هم في جهنم، ولهذا لا محل للاستثناء في ذلك، إي لا علاقة في هذا القول بالذين آمنوا برهم ولم يشركوا شيئا.

وقال الألوسي في تفسير الآية الكريمة: (حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) 141: "وأما تفسير ما سأله الكفرة من الرجوع إلى الدنيا أو بالهداية إلى الجنة فليس بشيء لأعطيناها إياه في الدنيا التي هي دار الكسب وما أخرناه إلى دار الجزاء (هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي) أي ثبت وتحقق قولي وسبقت كلمتي حيث قلت لإبليس عند قوله: (لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمَخْلَصِينَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)، وهو المعنى بقوله تعالى: (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فإنه في الخطاب لإبليس مقدم وتقديمه هناك؛ لأنه الأوفق لمقام تحقير ذلك المخاطب عليه اللعنة، وقيل: التقديم في الموضوعين؛ لأن الجهنميين من الجنة أكثر. ويعلم وجه العدول عن ضمير العظمة في قوله سبحانه: (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا) إلى ضمير الوحدة في قوله جلّ وعلا: (ولكن حقّ القول مني)؛ وذلك لأن ما ذكر إشارة إلى ما وقع في الرد على اللعين وقد وقع فيه القول وإملاء مسندين إلى ضمير الوحدة ليكون الكلام على طرز قوله تعالى: {لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ} في توحيد الضمير، وقد يقال: ضمير العظمة أوفق بالكثرة الدال عليها (كُلُّ نَفْسٍ) والضمير الآخر أوفق بما دون تلك الكثرة الدال عليه (مَنْ الْجِنَّةِ) والناس أو يقال: إنه وحد الضمير في الوعيد لما أن المعنى به المشركون فكأنه أخرج الكلام على وجه لا يتوهم فهمي متوهم نوعا من أنواع الشركة

---

141 تفسير الألوسي، ج 16، ص 74.

أصلاً أو أخرج على وجه يلوح بما عدلوا عنه من التوحيد إلى ما ارتكبه مما أوجب لهم الوعيد من الشرك، أو يقال: وحد الضمير في (لأملاًن)؛ لأن الإملاء لا تعدد فيه فتوحيد الضمير أوفق به ويقال نظير ذلك في (حقّ القول مني) والإيتاء يتعدد بتعدد المؤتى؛ فضمير العظمة أوفق به ويقال نظيره في {شئنا} فتدبر، ولا يلزم من قوله تعالى: (أَجْمَعِينَ) دخول جميع الجن والإنس فيها، وأما قوله تعالى: (وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) فالورود فيه غير الدخول؛ لأن قوله: (أَجْمَعِينَ) تفيد عموم الأنواع لا الأفراد فالمعنى لأملائها من ذينك النوعين جمعا كقولك ملأت الكيس من الدراهم والدنانير جمعا كذا قيل، ورد بأنه لو قصد ما ذكر لكان المناسب التثنية دون الجمع بأن يقال كليهما، واستظهر أنها لعموم الأفراد والتعريف في (الجنة) للعهد والمراد عصاتها، ويؤيده الآية المتضمنة خطاب إبليس، وحاصل الآية لو شئنا إيتاء كل نفس هداها لآتيناه إياه لكن تحقق القول مني لأملاًن جهنم... إلخ الآية، فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى على العموم بل منعناه من اتباع إبليس الذين أنتم من جملتهم حيث صرفتم اختياركم إلى الغي بإغوائه ومشيتنا لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها فلما لم تختاروا الهدى واخترتم الضلال لم نشأ إعطائه لكم وإنما أعطينا الذين اختاروه من البررة"142، وهم الخلفاء في أرضه الذين لم يبدلوا إيمانهم بظلم بل كانوا كما أراد الله لهم من الهداية واتباع طريقها، أولئك الذين جمعوا الحسينيين في الدارين، فكيف لا يكونون خلفاء جامعين، وهم على علم باتباع طريق الرشاد فكانوا مخلصين لله تعالى في الدارين، فصح عليهم القول أن يكونوا الجامعين بالإضافة إلى خالقهم.

12 . جمعه الجيش المتفرق فيكون به خميسا، بعد أن كان مجرد أفراد قلة في العدد والحجم كما هو الحال في أسراب الجراد والنمل والنحل

142 تفسير الألويسي، ج 16، ص 74.

والزنابير، فهذه المجاميع الضخمة إذا نظرت إليها وهي في حال الإفراط لوجدتها مجرد جرادة أو نملة أو نحلة، ولكن بقدرة الجامع يتكون منها الجيوش الجرارة القادرة على إحداث الكوارث في المحاصيل الزراعية، ويجعلها الجامع رسلا وعقابا لمن ظن أنه قادر على أن يبرز في الأرض بغير الحق، وخير مثال ما حدث مع فرعون وجنده، قال تعالى: {فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُودِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ} {143، والجيوش في العادة يتكون من خمسة أقسام: ميمنة وميسرة ومقدمة ووسط ومؤخرة؛ ولذلك سمي خميسا، وعلى الخليفة الجامع أن يعد جيشه ويجمعه جمعا؛ استعدادا لكل مواجهة ونصرة لدين الله في كل مكان من أراضي المسلمين؛ لأنه محاسب أمام الله على كل تقصير في حق هذه النصرة سواء على الصعيد الشخصي أم على مستوى الجماعة والأمة، واتباعا لقوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {144، وإعداد الجيش يلزمه المال الذي يجمعه الخلفاء من الطرق الصحيحة والسليمة؛ ولأنه الجامع بالإضافة فلا بد له من تدبير في طرق ووسائل الجمع ليعد الجيش

143 الأعراف 131-135.

144 الأنفال 60 ، 61.

الذي هدفه نصره الإسلام والمسلمين وإظهار الحق بالحقّ دونما إزهاق لأرواح الأبرياء، ويكون إعداد الجيش لغرض قهر الشعوب الاستيلاء على خيراتها ونهب ثرواتها؛ لأن الله عادل في ملكه ويجب العدل في كل الأمور.

13 . جمعه الأحياء ليتكون المجتمع: قال تعالى: { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَقْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ } {145}، لقد خلق الله الجامع بني الإنسان على المفرد (فرادى) الجنس واحد ولكل خصوصية، ثم جعل آياته في جمعهم كثر، وهذا هو الأساس لتكوين الأسرة وهي نواة المجتمع فكان أساس الناس سيدنا آدم ثم من بعده ذرية نوح، فإذا هم قبائل وجماعات وشعوب جعلها الله لتعمر الأرض بالخير والنماء ولا عداوة ولا بغضاء إخوان متقابلين، يعمرون الأرض بكل خير وبر، لذلك على الخليفة أن يعمل على بناء المدن والقرى التي تساعد زيادة العدد لبني جنسهم، الذي أساسه الاستخلاف في الأرض لأجل إعمارها وإصلاحها دون إفساد أو سفك دماء بغير حقّ.

14 . جمعه الرمال: والتي كانت أساس الصخور العملاقة التي بنيت عليها السلاسل الجبلية، من ثم جاء العكس فبعوامل الطبيعة من سيول ورياح واختلاف في درجات الحرارة وما نتج عنه من تشقق في الصخور بفعل عامل التمدد والانكماش من ثم تفتت تلك الصخور إلى حبيبات صغيرة نقلتها مياه الأمطار فتكونت بها بطون أودية ومن ثم نقلتها الرياح إلى حيث يشاء الله فتجتمع لتكون الكثبان التي نراها منتشرة في أرجاء الصحراء، ومن ينظر إلى هذه الكثبان وكيف تجمعت وكيف تتحول من مكان إلى مكان وبأحجام مختلفة وربما لمسافات بعيدة لما وراء البحار فكثير ما نرى الكثبان التي هي منظر مألوف في السواحل الجنوبية للبحر المتوسط



قد تحولت إلى السواحل الشمالية منه، وهل يظن أحد أن هذه التنقلات الدقيقة الهائلة ليست بعلم الله جل في علاه، نعم، كل ذلك بعلمه وبأمره فهو الذي يعطي أوامره في أي وقت يريد فتقل بالواسطة التي يريد لها، فهو الجامع لما يشاء وكيف يشاء وفي أي وقت شاء، وكل ذلك بعلمه مهما كان حجم تلك الذرة في البر أو البحر، قال تعالى: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } 146، ولأن رب العزة عالم بكل صغيرة وكبيرة فكيف لا يعمل الخليفة على ما يرضيه باتباع ما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر، ولعلمنا أن الله سوف يجمع لنا كل كبيرة وصغيرة فعلينا أن نتقيه في السر والعلن، قال تعالى: { وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } 147.

15 . جمعه الثياب وإلباسها: قال تعالى: { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرَائِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمُ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } 148. واللباس نوعان:

. لباس ظاهر: لِيُبَيِّنَ الْإِنْسَانَ بِهِ إِلَى النَّاسِ وَعَادَةٌ يَتَكُونُ مِنْ:

146 سبأ 1-4.

147 البقرة 281.

148 الأعراف 26، 27.

. الإِزَار .

. وَالرِّدَاء .

. وَالْعِمَامَة .

. وَالْمِلْحَفَة .

. وَالْحِمَار .

. والسراويل، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ {149}.

. لباس الحرب، ومنه:

. الدرع.

. الخوذة.

. الترس.

. لباس باطني: ويتمثل في لباس التقوى، قال تعالى: (وَلِبَاسُ التَّقْوَى) ذَلِكَ خَيْرٌ، والذي يعتبر الأهم بالنسبة للخليفة، فالتقوى أزين ما يلبسه، وإذا فقدته فإن تعويضه ليس سهلا أو ربما لا يجده مرة ثانية، ولذلك على الخليفة أن يحتاط لكل شيء يمس هذا اللباس الثمين الذي لا يساويه ثمن وتكون المحافظة عليه من وجوه:

. أن يعمل كل ما يرضي الله.

. أن يراعي شعور الناس ولا يحاول خدشهم.

. الابتعاد عن النسيمة، والغيبة، وكل ما يمس أعراض الناس.

. أن يصلح ويفلح في الأرض ولا يفسد فيها.

. أن يقول الحق.

. أن يفعل الحق في كل زمان ومكان.

. أن يحكم بالعدل إذا بين الناس حكم.

. أن يتطهر في نفسه وماله.

16 . جمعه الإثم في الخمر: أي جَمَعَهُ وَمِظَنَّتُهُ فَاتَّقُوا هَذِهِ الْأَهْوَاءَ الَّتِي جَمَاعُهَا الضَّلَالَةُ وَمِيعَادُهَا النَّارُ، قَالَ تَعَالَى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} {150، الله ذكر الإنفاق بعد ذكر الخمر، ليبين أن الصرف الصحيح لا يكون في الخمر وما شابهها من الموبقات المهلكات بل يجب الصرف في حيثما أمر والابتعاد عما نهى عنه من المحرمات، قال تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} {151.

17 . جمعه الدين والشريعة الحقّة: الجامع جمع الشريعة بما لها من أحكام أصولية والفروع بين مفصل ومجمل، وعبر رسل وأنبياء ليتوارثوا الملة القويمة والشرع المستقيم نسلا بعد نسل حتى محمد الخاتم الكريم صلوات الله

---

150 البقرة 219.

151 الأعراف 32، 33.

وسلامه عليه، والكتب جامعة بين الظاهر والباطن، وجعل القرآن الكريم خاتماً لها، وهو العلم الإجمالي الجامع لهداية الناس إلى عبادة الله وحده وأتى به تنبيهاً للمأمورين وتثريفاً لهم، فالقرآن جاء جامعاً في عناوينه، وجامعاً لتفاصيل العلم، وهو الجامع للتكاليف؛ ولذلك أمر سبحانه باتباعه ونهى عن اتباع غيره، فأيها الخلفاء المؤمنون عليكم بهذا الكتاب الجامع لصفات الكمال الهادي إلى الصراط المستقيم الموصل إلى مقام الرحمة، استمعوه وعليكم بما جاء به فلا تتأخروا وعليكم بالعمل بما جاء به أمراً ونهياً، ليحصل المطلوب، ولعلكم ترحمون.

18 . جمعه بين اللطف والقهر: قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴾ {152}، وقال تعالى: ﴿ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ {153}. فالجامع مع لطفه ما ظهر لنا منه وما لم يظهر فهو قاهر لكل جبار متكبر، فالمتكبر مع تكبره وتعنته يوجد له رزقه وعمره الذي أراده له حتى إذا جاءت ساعة القهر فإنه لا يفلت من قبضته، بل يأخذه من حيث يظن في نفسه أنه قادر على فعل الذي يريد، فالله من لطفه وفؤة قهره لا يعذب أحداً حتى يرسل الرسل حيث فعل ذلك مع فرعون، وقوم نوح، وغيرهم ممن طغوا وكانوا بآيات الله يحدون، فلطف بهم على كل جانب حتى إذا كذبوا جاءهم النصر الإلهي فإذا القاهر ينتصر بقهره للجبابرة، ويذلهم ليطف بأخريين قد ظنوا بالله الظنون، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا

---

152 الأنعام 61.

153 الملك 13، 14.

أَتَّهَمَ قَدْ كَذَبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {154}.

19 . جمعه للنطفة: أي أنّ النطفة إذا وقعت في الرحم فأراد الله أن يخلق منها بشرا يجمعها، والمراد بالجمع مكث النطفة بالرحم أربعين يوما حتى تتهيأ للخلق والتصوير ثم يكون الخلق بعد الأربعين، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعِينُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ {155}، وبهذه الصورة العجيبة يتم جمع الجامع للجنين في بطن أمه وفقا للمراحل الآتية:

المرحلة الأولى: التقاء الختانين، الذي ينتج عنه التقاء الحيوان المنوي فيلتقي مع البويضة ويتم الاتحاد ومن ثم الالتحام، قال تعالى: (جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ).

المرتبة الأولى: قال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) والسلالة الخلاصة، وهي أصل تكوين النوع البشري، الذي به يتميز عن بقية المخلوقات حتى يتصف بالإنسان.

المرتبة الثانية: قال تعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ) ومعنى جعل الإنسان نطفة أنه خلق جوهر الإنسان أولا طينا، ثم جعل جوهره بعد ذلك

---

154 يرسف 109-111.

155 المؤمنون 12-17.

نطفة في أصلاب الآباء فقدفه الصلب بالجماع في قرارا مكينا، والقرار المكين هو رحم المرأة الذي تستقر فيه النطفة بكل آمان وسلامة، وذلك لمناسبته للنمو السليم مع الحفاظ التام في ظل الرعاية الربانية.

المرتبة الثالثة: العلقه، (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً)، أي حولنا النطفة عن صفاتها إلى صفات العلقه وهي الدم الجامد، وهي التي بدورها تنزل لتلتصق بجدار الرحم لتكون العلقه، هذه العملية المعقدة التي لا تتم بالصدفة بل لا بد من خالق يرعاها، وفي ظلمات ثلاث: مصداقا لقوله تعالى: { خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } 156.

المرتبة الرابعة: قال تعالى: (فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً) أي جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أي قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ، ولكن كل شيء تحت الفؤة والإرادة الألوهية الخالقة، والمضغة هي المعجونة أو التي تم سبكها وخلطها بغيرها دون ظهور فواصل بين الممضوغة (المضغة).

. المرتبة الخامسة: وهي التحول من اللحم إلى العظام، (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا)، والعظام تماسك كلسي ذا فؤة تفوق فؤة تماسك النطفة والمضغة والعلقه، وهو الذي به يتم بناء الهيكل الذي يجعل المخلوق في صفة القوام والاستواء في مخالفة مع المخلوقات التي تمشي مكبة على وجوهها.

. المرتبة السادسة: وهي تغطية العظام باللحم، (فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا)، بناء ملامح الشكل الظاهر الذي به يتميز خلق الإنسان عن بقية ما خلق، واكتساء العظام لحما لأجل اكتمال المخلوق في أحسن صورة.

. المرتبة السابعة: قال تعالى: (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ)، خلقا مختلفا عما سبقه في جميع المراحل السابقة فيكون الانتضاح والاكتمال الخلقي للنوع البشري متميزا ذكرا كان أم أنثى.

وعندما يكون جاهزا يضيف عليه اسمه بقوله تعالى: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ). فقد أعجبه جمعه للإنسان بما أضافه إليه من نعمة العقل والنطق، فجعله مباركا ليكون خليفته في الأرض، وليخرج إلى الأرض ليصلح ويعمرها بما هو نافع ومفيد في هذا الكون، ويمد في عمر من شاء منهم، قال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} 157.

وليكون جاهزا للحياة الابدية بقوله تعالى: (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعِينُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ).

20 . جمعه للرأي: فيجعله شديدا إذا أراد النصرة لصاحبه، وجعل ذلك الرأي في يد ورأس إنسان واحد، وجمعه أمره وعزمه عليه. وأجمع أمره وجعله جمعا بعدما كان متفرقا، وجمع الرأي فيه إتمام الحجة، وتوليف المتناقضات والمتماثلات والمتشابهات والمتنوعات والمتعددات والمتباينات.

21 . جمعه الثمرة في النبات: فهذه الحبة، أو الغصن يغرس في الأرض على يد الخليفة الذي يريد أن يحصد ثمارها كما يريد أن يحصد أجرها، فيضعها في الأرض ويبادر بسقايتها، حتى تخرج فتجتمعت وتتكون الأغصان التي تحمل على رؤوسه براعمه، ومن ثم يأتي موسم الأزهار فتزين الأرض بما أراه الله لها من ذلك الجمال والبهاء، فتلتقي حبوب اللقاح بمياسمها، وتبدأ مرحلة الثمار في الظهور من جديد، وكل ذلك بفضلته تعالى بما أنزله من الماء المبارك، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ

شَجَرٍ فِيهِ تُسَيَّمُونَ يُنْبِتْ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ {158}.

22 . جمعه الأيام: فيكون الأسبوع ومنه الشهر ليكون السنة ومن ثم القرن والدهر والعصور، قال تعالى: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ {159}.

23 جمعه بين الأبوين والجنين: فهو يجمع بين الناقة وفصيلها ليرضعها، وبين الطائر وفراخه ليطعمها، وبين الشجرة وثمارها فيصعد له الماء في أعلى قمته، وكل ذلك تحت كلمة الحنان الذي غرسه الله في أجوافها، فهي بهذه الغريزة جعل الكائن يحمي جنينه، ويلطف به، ويحافظ عليه، لينمو ويزدهر ومن ثم يحافظ على نوعه وبقائه كما أراد الله له، كيف يكون ذلك لولا قدرة الجامع على خلق هذه الغريزة الجامعة لكل كائن مع نوعه فتجد الطائر يدافع عن أفراخه، ويجعل لها عشا على الأرض أو في الشجر أو على رؤوس الجبال، ويتحد على إطعامهم الأبوين حتى إذا ما كبرا علمه الطيران ويشق طريقه في الحياة على نهج أبويه. وإذا ما نظرنا إلى النحلة كيف تسعى دأبة طول النهار لأجل أن تجمع الرحيق لتغذي الملكة والتي بدورها تضع البيض، والذي يفقس أنواعا من النحل تبعا لغذائه الذي يتغذى منه، فيخرج منه الشغالة والملكة، وليكون خلية أخرى من جديد، قال تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ

158 النحل 10، 11.

159 التوبة 36.



يَتَفَكَّرُونَ} 160. وكل ذلك فيه المنافع الظاهرة والباطنة للإنسان، ف يأكل من ثمار الأشجار كما يأكل من لحم الطير والدواب، ويشرب منها الحليب بين فرث ودم، قال تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا حَالًا صَائِعًا لِلشَّارِبِينَ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} 161.

24. جمعه الدراهم: فيكون منه الدينار مع الدينار، ومنه تتكون الأموال الطائلة، وهي التي جعلها الجامع زينة الحياة الدنيا، وتكون الأموال ربحا في الدنيا والآخرة لمن عمل بها الصالحات تصدق وتترك وأصلح وعمّر، وتكون غير ذلك لمن لم يحسن التصرف فيها فبغى وعتا، كما فعل قارون، وذلك هو الخسران المبين، قال تعالى في حقه: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} 162، وبذلك على الخليفة أن يجمع المال ابتغاء مرضاته في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} 163، والله جعل المال نعمة ونقمة، فعلى الخليفة الجامع أن ينفقها في سبيل الله ونصرة دينه في البر والبحر، لتجتمع القلوب على المحبة والمودة والطاعة لله تعالى، وقبل ذلك عليه أن يجمعها من الرزق الحلال فلا يكذب ولا يسرق

160 النحل 68، 69.

161 النحل 66، 67.

162 القصص 76، 77.

163 الكهف 46، 47.

ولا يغش ولا يحتال ولا يتبع أي طريق غير مشروع، ولا يقترب من أي شبهة أو شك، بل دائما على يقين وصحة، وليعلم أن الباقيات الصالحات وأن البر، وهي كلمة جامعة لكل معاني الخير، لا يأتي إلا بحسن الإنفاق وفي وجوهه التي أمر الجامع بالتصدق بها عليهم، وهذا البر الذي جعل أوله الإيمان بالله أتى بعده بذكر نفقة المال في الوجه الصحيح، حيث قال تعالى: {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} 164. وعليه نستنبط من هذه الآيات الكريمة ملامح الإيمان والبر والإنفاق في وجهه وهي ذات علاقة بأفعال الخير الحسان ومنها:

أ . الإيمان بالله تعالى: لأن الكافر مهما أنفق فإن الله تعالى لن يقبل منه؛ لأن عمله حبط قبل أن يقبل منه، قال تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} بل الله فأعبد وكن من الشاكرين} 165، ولذلك أمر الله تعالى أن يعبد في الأرض والسماء بالحق، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} 166.

ب . الإيمان باليوم الآخر: ونظرا لما للإيمان باليوم الآخر من أهمية للإنسان في عقيدته وتوجيه سلوكه نحو الاتجاه الصحيح جعل الله ذكره بعد

164 البقرة 177.

165 الزمر 65، 66.

166 النساء 136.

الإيمان به تعالى، قال تعالى: { زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجُمُعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } {167، في هذه الآيات الكريمة يقسم أنه سيجمعهم وأنه قادر على جمعهم بسهولة؛ لأنه هو الجامع لما أراد وقتما أراد، وهو القاهر فوق عباده، وهو الذي يسجد له من في السماوات والأرض طوعا وكرها، قال تعالى: { أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْعُوثَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } {168.

ج . الإيمان بوجود الملائكة: قال تعالى: { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } {169، والملائكة منهم:

. الحفظة: قال تعالى: { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } {170، لحافظين لأعمال العباد كبيرها وصغيرها، وكذلك وهم الذين كلفوا بحفظ الإنسان من الشياطين والمردة الذين أخذوا العهد على أنفسهم أن يضلوا عباد الله قدر ما استطاعوا، وقد جاء ذلك جليا واضحا في قوله تعالى: { قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا بَجْدٌ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا

167 التغابن 7-9.

168 آل عمران 83.

169 البقرة 285.

170 الانفطار 10-12.

مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ {171، ورد عليه الله على قوله وعهده، قال تعالى في علاه: { قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَى لِسْنِ آخِرْتِنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَاعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا {172، ومن توكل على الله فليس للشيطان عليه سبيل، فالله هو الذي بيده الفؤة والرد والحماية، قال تعالى: { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ } 173.

. الكتابة: وهم الذين يكتبون الأعمال الصالحة وغيرها فهما موجودان عن يمين الإنسان وشماله وهما يكتبان حسناته فور وقوعها، أو ورود النية بقصد عملها أو الأمر بها، وتكون مضاعفة لما يشاء الله ذلك، ولمن يشاء من عباده، ويترددان في كتابة السيئة، ولا يكتبانها إلا بعد التأكد من وقوعها، قال تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مِمَّا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَخَلَقْنَاهُ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ {174، وقال تعالى: { أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } 175.

171 الأعراف 14-18.

172 الإسراء 62-65.

173 الأنعام 61.

174 ق 16-18.

175 الزخرف 80.

. وجبريل عليه السلام: وهو الذي ينزل بالوحي من السماء إلى الأرض على رسله، ووُصِفَ بالفؤة والأمانة، قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} {176، هذا الملك الكريم جاء في وصف هيئته وقوته ما لا تتوقعه العقول والقلوب، وهذا الملك عندما نزل بالقرآن على رسولنا الكريم أبغضته اليهود طمعا في نزول الرسالة عليهم فرد الله عليهم قولهم وفضحهم في أقوالهم وتصرفاتهم، قال تعالى: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} {177.

. وميكائيل: وهو أحد الملوك الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، قال تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} {178.

. ملك الموت: وهو الذي ورد اسمه بملك الموت، قال تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} {179.  
. ملوك النفخات، وهي:

الأولى: نفخة الفزع: والتي قال تعالى في وصفها: {وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق} {180، وما ينتج عن هذه النفخة من هول قال تعالى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ

---

176 الشعراء 192، 193.

177 البقرة 97.

178 البقرة 98.

179 السجدة 11.

180 ص 15.

وَاهِيَةً {181، ويستثنى من ذلك الفرع الشهداء الذين هم في فضل من الله ورحمة، قال تعالى: {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُفِخَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ {182.

الثانية: نفخة الصعق: (صعقة الموت) قال تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ {183.

الثالثة: نفخة البعث: للقيام، قال تعالى: (ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ).

. حملة العرش: وهم الذين يحملون العرش الإلهي، قال تعالى: {وَالْمَلَائِكَةُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ {184.

. وخزنة الجنة، وهم الذين جعلهم الله على أبواب الجنة، ليستقبلوا المؤمنين عندما يدخلون الجنة التي وعدهم رب العزة بها، ويستقبلونهم بالتحية والسلام، وبكل كلام طيب يطيب به خاطر؛ جزاء أعمالهم الصالحة الصادقة، قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا

---

181 الحاقة 13-16.

182 النمل 87.

183 الزمر 68-70.

184 الحاقة 17.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْثَقَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ {185}.

. وخزنة النار: قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا مَتَّوٰى الْمُتَكَبِّرِينَ {186}.

وكلهم يسبحون بحمده لا يفترون ليل نهار كذا وصفهم القرآن الكريم في محكم آياته، قال تعالى: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {187}.

د . الإيمان بالكتاب: قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنَ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَاقُدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ {188}، وقال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ

185 الزمر 73، 74.

186 الزمر 71، 72.

187 الشورى 5.

188 الحديد 26 . 29.

النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا  
اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا  
بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من  
يشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ {189.

هـ . الإيمان بالرسل والأنبياء: قال تعالى: (وَالنَّبِيِّينَ)، وقال تعالى:  
{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ  
وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ  
وَكَفَى بِاللَّهِ عِلْمًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا تَبَاتٍ أَوْ انْفِرُوا  
جَمِيعًا {190.

و . التصدق بالمال عن طيب خاطر وحسن نية: قال تعالى: (وَأَتَى  
الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ)، وقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ  
خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ  
خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ {191، ويكون الصرف في الوجوه التي أمر الله تعالى  
بها:

. ذوي القربى: قال تعالى: (ذَوِي الْقُرْبَى)، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ  
بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ  
يَعْظُمُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ {192.

. اليتامى: قال تعالى: (وَالْيَتَامَى)، وقال تعالى: {وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا  
تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ

---

189 البقرة 213.

190 النساء 69-71.

191 البقرة 215.

192 النحل 90.



ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ  
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا {193}.

. المساكين: قال تعالى: (وَالْمَسَاكِينَ)، وقال تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو  
الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ  
اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {194}.

. ابن السبيل: قال تعالى: (وَابْنَ السَّبِيلِ)، وقال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ  
لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْعَارِمِينَ وَفِي  
سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنَ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {195}.

. السائلون: قال تعالى: (وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ  
وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ).

. الغارمون: قال تعالى: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ  
عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْعَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنَ السَّبِيلِ  
فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

ر . الوفاء بالعهد: ومن الأمور التي حافظ عليها العرب في جاهليتهم  
هو الوفاء بالعهد، والتاريخ يشهد لهم بذلك وكان لهم من الصدامات الدامية  
مع جيرانهم الفرس في ذلك الوقت في ذي قار، والذي كان سببه الوفاء  
الذي لم يرجع فيه العربي قيد أملة ولو كان على حساب حياته، وجاء  
الإسلام وأكد على هذه الخصلة النبيلة الحميدة، ومدح بها خلفائه في أرضه  
أمرهم بأن يتحلوا بها وأن يتبعوا نهجها، قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا  
عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا

---

193 النساء 36.

194 النور 22.

195 التوبة 60.

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ {196، وقال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْفُضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ {197.

ز - الصبر في كل الأوقات: والصبر على الفرح كما هو الصبر على الضراء، أما ترى أن الله نهى عن الفرح في غير موضعه أو في حال زيادته والإسراف فيه خوفا من أن يجر صاحبه إلى الغرور وغيره، وذلك ما حدث مع قارون عندما تجاوز الفرح عنده إلى مرحلة الكفر والاعتزاز، قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ {198، وكذلك عندما رفض سيدنا سليمان الهدية فقد جاء في القرآن الكريم ما جاء على لسانه عليه الصلاة والسلام: قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ {199، كل ذلك بعدا عما هو سبب في العجب بالنفس، وعلى الحالات فالمؤمن هو الذي في حقه قوله تعالى: (وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ). قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَرُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ {200.

---

196 البقرة 177.

197 النحل 91.

198 القصص 76.

199 النمل 36.

200 البقرة 214.

ط . إقامة الصلاة: بين فرض وسنة، قال تعالى: (وَأَقَامَ الصَّلَاةَ)، وقال  
تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ  
السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} 201.

من

## صفات النبي محمد

### 1. بشرى:

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} 202.

خطاب البشرى من الله تعالى موجّه إلى بني إسرائيل، والبشير هو عيسى ابن مريم، والمبشّر به هو أحمد رسول الله من بعد عيسى عليهما الصلاة والسلام، ولذا فمن الأولى أن يكون بنو إسرائيل هم أول المؤمنين المسلمّين والمتّبعين للرسول الخاتم المبشّر به في زمن عيسى (المسيح ابن مريم). ولأن البشرى دائما تسبق المبشّر به، فكان عيسى عليه الصلاة والسلام هو أول مؤمن بالنبي محمد صلى الله عليه وسلّم، أي كان مؤمنا به نبيا ورسولا قبل أن يُخلق، تصديقا لأمر الله الذي أمره به ليُبشّر به قومه، ولتكون البشرى سارية المفعول عبر الزمن إلى أن يُخلق ويبعث المبشّر به (أحمد رسول الله) في الزمن الذي حُلق من أجله.

ولذا فالبشرى بمحمد رسولا قبل أن يُخلق أجداده وأبويه هي مُعجزة في ذاتها، فالبشرى به لا تماثلها بشرى فيما علمنا من علم الله تعالى، فالجنة المبشر بها المؤمنين مخلوقة، مصداقا لقوله تعالى: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} فَسُوسَ هُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِمِهِمَا

وَقَالَ مَا تَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ  
 الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ  
 بَدَتْ لَهُمَا سَوَآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ  
 أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا لَكَمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ قَالَ رَبَّنَا  
 ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ قَالَ اهْبِطُوا  
 بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا  
 تُحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي  
 سَوَآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ  
 يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا  
 لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَآتِهِمَا {203}، وكذلك النار الممشر الكافرين بها مخلوقة،  
 مصداقا لقوله تعالى: {فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ  
 لِلْكَافِرِينَ} {204} وقوله تعالى: {وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} {205}  
 ولهذا فكل المؤمنين يسعون ويعملون من أجل بلوغ الجنة والكافرون  
 والمشركون سيكونون حطب جهنم والحمد لله رب العالمين.

وعليه فالذين لم يؤمنوا بمحمد نبيا ورسولا خاتما هم الذين لم يأخذوا بما  
 بشرهم به نبيهم عيسى صلى الله عليه وسلم، ومن لم يؤمن منهم بما بشرهم  
 به نبيهم المسيح عيسى ابن مريم، لا يُعد من الآخذين بما جاء به عيسى  
 صلى الله عليه وسلم، وذلك لعدم أخذهم بما بشرهم به، فإن كانوا مؤمنين  
 حقا بعيسى وبما جاءهم به من رسالة من الله فعليهم بأخذ ما جاءهم به  
 مبشرا من الله تعالى. ولذلك نقول: التوراة وحدة واحدة، والإنجيل وحدة  
 واحدة، والقرآن وحدة واحدة فلا يؤخذ بجزء ويترك الجزء الآخر من أي

203 - الأعراف 19 . 27.

204 - البقرة 24.

205 - آل عمران 31.

منها، فما جاء به عيسى من إنجيل لا يؤمن به إلا من آمن به وحدة واحدة، ومن يؤمن به وحدة واحدة لا يترك جزء منه غير مؤمن به، فإن كان الإيمان بالحقّ حقّ فلا يحقّ لأحدٍ أن يجزئ الحقّ كما يتراءى له حيادا لا التزاما وتصديقا.

ولأنّ أهل الديانات السماوية هم مسلمون، فلا يحقّ لهم أو لبعض منهم أن يؤمن بالله وينكر جزءا من أمره تعالى، أي أن المبيّث هو الله، والبشير هو عيسى ابن مريم، والمبيّث به هو محمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فكيف إذا يؤمن البعض بالمبيّث والبشير ولا يؤمن بالمبيّث به (أحمد)؟ فهل هذا شك في المبيّث؟ أم شك في البشير؟

فإن كان شكاً في المبيّث (الله تعالى) فلا داعي أن يتم الإيمان بالبشير (عيسى ابن مريم)، وإن كان شكاً في البشير، فكيف يتم الإيمان بجزء ممّا جاء به والكفر بجزئه الآخر الذي لا يتم الإيمان إلا به؟

ولأنّ البشري خير فكان عيسى ابن مريم بشير خير، والمبيّث به هو الخير في صفاته وأقواله وأفعاله وأعماله وسنّته ورسالته التي اصطفاه الله لها رسولا.

## 2. محمّد:

أسم محمّد موصوف بما به حمّد ممّا جعل الاسم محمّدا في حالة تطابق تام مع الصفة في الموصوف، وهذه من خصوصيات اسم النبي عليه الصلّاة والسّلام فصار الاسم هو عين الصفة والصفة هي عين الموصوف.

ومحمّد تدل على أنه محمّد في خلقه وحلّقه وذاته، فهو على ما هو عليه موصوف بما يُحمّد ويُخلّد.

وجاءت صفة التحميد لسيدنا محمد معظمة للموصوف بما يُحمد به ويُحمد عليه، ولهذا كان التطابق بين الصفة والموصوف في اسمه محمد الذي يدل على أنه المحمّد من الله تعالى تحميّداً.

وعليه لقد كان النبي الكريم عليه الصلّاة والسّلام محمّد بتسمية الله إليه، أي أن الله هو الذي سمى النبي بأنه (أحمد) في اسمه وهو (محمّد) في تطابق الاسم صفة وموصوفاً، وهو محمّد بالرسالة التي اصطفاه الله لها رسولا خاتماً وللناس كافة، قال تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ} 206.

ولأنّه محمّد من الله تعالى فلم يجعله أباً أحدٍ ولكنه رسولا خاتماً، قال تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} 207.

ولأنّه محمّد من الله تعالى فقد أنزل عليه الحقّ الذي به كفر سيئات المؤمنين وأصلح بالهم، قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} 208.

ولأنّه محمّد فقد كان على الكافرين شديد وعلى المؤمنين رحيم، قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} 209.

---

206 - آل عمران 144.

207 - الأحزاب 40.

208 - محمد 2.

209 - الفتح 29.

#### 4. رسول الله:

قال تعالى: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } 210، الرسول لا يكون إلا من مُرسل وتكون له رسالة، فُرسل الله تعالى لا يصطفيهم إلا هو، وُرسل العباد لا يختارهم إلا العباد غير المعصومين، والفرق كبير بين رَسُولٍ يصطفيه الخالق تعالى وبين رسولٍ يختاره المخلوق، فالله بيده الأمر المطلق والعبد وما بيديه تحت أمر الله عزّ وجلّ، فالمنقوص مهما عظم لا يبلغ الكمال وسيظل منقوصا.

الرسول من الله تعالى مأمور، وطائع للأمر، ومنفذ له، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } 211.

إذا لا رسول من عند الله إلا برسالة لقوم أو أمة معينة أو للكافة كما هو حال محمد عليه الصلّاة والسّلام ورسالته الخاتمة، أي مع أنّ محمّدا عربيّا ولغته العربيّة إلا أنه جاء رسولا للكافة داعيا بالفضائل إلى الفضل حيث لا فضل لأحدٍ على أحدٍ إلا بالتقوى، قال تعالى: { وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } 212. محمّد عليه الصلّاة والسّلام هو رسول الله مكلف أن يُبلّغ رسالته التي كُلف بها دون إكراه والله هو الشهيد على ما يُبلّغ به رسوله الكريم محمّد ولا شهادة عليه من أحدٍ.

إذا مهمة محمّد عليه الصلّاة والسّلام هي مهمة تبليغ، والذي يُكلف بهذه المهمة يتصف بها وهولا يزيد ولا ينقص ممّا كُلف به، فإن زاد أو أنقص فما بلّغ رسالته تعالى، (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ) وإن فعلت فقد

---

210 - الفتح 29.

211 - المائدة 67.

212 - النساء 79.



بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} 213.

وعليه تتطابق صفات سيدنا محمد رسول الله مع معطيات ومستوجبات الرسالة المكلف بها من عند الله تعالى، فهي الرسالة التي تُحَرِّضُ على الإيمان والطاعة والهداية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإكثار من أفعال الخيرات الحسان، وتدعو للوحدانية وتنهى عن الكفر والشرك كما تدعو للرحمة والسلام والإيمان التام والمغفرة التامة ومناصرة من ينصر الله، {وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} 214.

### رسول الثقلين (الإنس والجن):

رسول الله عليه الصلوة والسلام رسول الثقلين من الإنس والجن بما جاء من الأدلة التقلية وما يدل عليه العقل، فأما الأدلة التقلية التي عمّت الناس جمعاً فكثيرة نذكر منها:

قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} 215.

وقوله تعالى: {وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ} 216.

وأما الجن فدلّت النصوص على أنهم مكلفون وأمرُوا باتّباع دعوته عليه الصلوة والسلام ودخلوا في جملة الثقلين بالتكليف:

---

213 - يونس 108، 109.

214 - الحج 40.

215 - الأعراف 158.

216 - الأنعام 19.

قال تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} 217.

وقال تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} 218.

ثبت بقولهم: يا قومنا أجبوا داعي الله أنهم عرفوا أنه مبعوث إليهم وسمعوا دعوته إياهم والذين لم يحضروا من جملتهم فلذلك قالوا: (يا قومنا أجبوا داعي الله وآمنوا به).

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أُعْطِيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبَعَثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمَ، وَلَمْ تَحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهْرًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ، صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنَصَرْتِ بِالرَّعْبِ بَيْنَ يَدَيِ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيْتُ الشَّفَاعَةَ" 219.

وأما الأدلة العقلية فهي أكثر من أن تحصى، سواء أكانت عقلية مجردة قائمة على الفطرة، أم أنها استنباطية من النصوص النقلية.

فالفطرة تحب الخير وتأبى الشر، وترفع الهدى وتضع الضلال، وتنحاز إلى الحق وتبتعد عن الباطل، فما من مخلوق عاقل يأبى هذه الأخلاق التي جاء بها محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فضلا عن أنها الدين الحق الذي ينتشل

---

217 - الأحقاف 29-31.

218 - الجن 2، 1.

219 - صحيح مسلم، ج 3، ص 424.

هذا المخلوق العاقل من رتبة الاستعباد والضلال والظلم والطغيان، ويرتفع به إلى مصاف الدين الحق والأخلاق السامية وصولاً إلى الغاية المنشودة التي تكمن بها سعادته.

أما العقلية المستنبطة من النقلية من حيث تقبل العقل لها فهي كثيرة منها:

. إحلال الطيبات.

. تحريم الخبائث.

. الأمر بالمعروف.

. النهي عن المنكر.

. الإخراج من الظلمات إلى النور.

ولك ما تشاء من هذا القبيل ما يقبله العقل مما لا حصر له نصل وضمنا، ثم إن كل ذلك دون أجر، قال تعالى: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} 220.

فهذه الأدلة النقلية والعقلية توضّح:

. سماحة الرسالة كونها تسع الثقلين.

. أنه عليه الصلّاة والسّلام رسول الثقلين.

. الثقلان مكلفون باتباعه صلّى الله عليه وسلّم.

وعليه فإن محمّد عليه الصلّاة والسّلام نبي الكافة برسالته الكافة، ونبي الكافة للناس جمعا، ورسالته كافة للرسالات التي جاءت قبله ليس بمعنى

الإلغاء والإبطال، وإنما بمعنى التصحيح والعودة إلى ما جاءت به الرّسالات التي قبل رسالة النبي الخاتم، وتخليص تلك الرّسالات ممّا أصابها من انحراف على أيدي الضالين المضلين، حيث إن الله تعالى خلق الخلق على فطرة التوحيد منذ أن جعل الله آدم عليه الصّلاة والسّلام أول خليفة في الأرض، وأنزل معه الدين الحقّ والرّسالة الحقّ، وبما هيأ الله تعالى البشر من تقبل الفطرة السليمة حيث قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنَّا نَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} 221.

ومن هنا انبثقت الفطرة التي فطر الله النّاس عليها، ولذا خاطب الله تعالى نبيه عليه الصّلاة والسّلام بما فطره عليه مع الخلق حيث قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 222.

فالله تعالى لم يغير فطرة البشر، وإن الذين ضلوا عن الفطرة اختاروا ذلك بأنفسهم، فهذه النصوص واضحة الدلالة بأن النّاس وُجدوا في حياتهم مستقيمين على الحقّ مؤتلفين عليه، وأن الانحراف والاختلاف إنّما جاء عرضاً طارئاً، قال تعالى: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا} 223.

إنّ استمرار هذا الاختلاف واتساع شقته، إنّما كان بتأثير الوراثة في تراخي الزمن والابتعاد عن الحقّ، وتلقين كل جيل عقيدته للناشئين من آبائهم أو مجتمعاتهم، ولذا قال نبي الكافة صلّى الله عليه وسلم: "كل مولود

---

221 - الأعراف 172.

222 - الروم 30.

223 - يونس 19.

يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصره أو يمجّسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء"224.

فالرسالات السماوية متفقة على أن الإنسانية لم تترك وشأنها لِمَا يعترها من انحرافات، فلم تترك باستلهاها العبادات والقوانين والنظم من غرائزها وأطماعها، بل تعهدا الله تعالى بنوري الإلهام الوحي من أول يوم، فكان آدم عليه الصلّاة والسّلام هو أول الملهمين، وأول المؤمنين الموحدين، وأول المتضرعين الأوابين.

فإذا كان آدم عليه الصلّاة والسّلام أول الأنبياء، ومحمد عليه الصلّاة والسّلام آخر الأنبياء، وهو النبي الخاتم وني الكافة، وكفّ بنبوته الرسالات السماوية، فهل أن هذه الرسالات:

. مختلفة متغايرة.

. متفقة متطابقة.

. متحركة متطورة.

. حقيقة ثابتة.

نقول:

إنّ الرسالة السماوية كان لها السبق في الوجود على أي دين، وإن ما اعترها من شوب أو خلل وما وُجد من ديانات وضعية باطلة، إنما هو محض شذوذ وانحراف صدر عن أعراف وفئات وأشخاص كان لها مصلحة في ذلك، وعليه نتساءل:

---

224 - صحيح البخاري، ج 1، ص 365.

. هل بدأت هذه الديانات السماوية واستمرت تنزل ديانة إثر ديانة على نمط واحد، ثم انتهت وهي على هذا النمط دون تغير ولا تطوُّر؟  
. أم أنها بدأت على نمط خاص، ثم تطورت إلى أنماط مختلفة، ثم انتهت بنمط آخر هو نسيج وحده تمثل في الرسالة الكافة؟  
وعليه نقول:

إن الرسائل السماوية كلها جاءت متفقة ومتباينة:

. متفقة في أصولها.

. متباينة في فروعها.

كلها يتفق على الجوهر والحقيقة على أصول العقيدة وجوهر التوحيد، فهي جمعا تدعو إلى الإيمان بالله وحده، والإيمان بكل ما جاء عنه، والأخذ بكل ما يصل بالإنسان إلى الخير ويباعد بينه وبين الشر.

ونبي الكافة عليه الصلّاة والسّلام برسالته الكافة أكّد على هذه الحقيقة القرآن الكريم وصرّح بوحدة الرسائل السماوية كلها في الأصل والجوهر، حيث قال تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} 225.

وهذا دليل قطعي من جوانب كثيرة نذكر منها:

أ . أنه عليه الصلّاة والسّلام نبي الكافة، إذ أن التشريع الذي تحمله رسالته تتضمن ما شرّعه الله تعالى لأول المرسلين نوح عليه الصلّاة والسّلام

إلى نبي الكافة وما انحصر بينهما من الأنبياء والمرسلين وخصّ بالذكر أصحاب الرّسالات الباقية.

ب . أنّ الرّسالة السماوية واحدة في جوهرها وأصلها.

ج . أنّها تتباين في الفروع التطبيقية من شريعة إلى أخرى.

أمّا فروع الشرائع وتفصيلها وجزئياتها، فتتباين فيها الديانات السماوية اختلافا ظاهرا في التطبيق العملي، لا في الجوهر والحقيقة.

فمثلا فريضة الصلاة، جاءت بها كل الشرائع السماوية، ولكنها تتباين صورها وتطبيقاتها من شريعة إلى شريعة: فهي في الشريعة الإسلامية قيام، وقراءة، وركوع، وسجود على كيفية معروفة، وفي شريعة عيسى عليه الصّلاة والسّلام ترانيم وتراتيل تتلى على هيئة خاصّة.

وفريضة الصيام: جاءت بها كل الشرائع السماوية، كما تصرّح به الرّسالة الكافة في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } 226. ولكن صورتها تتباين من شريعة إلى شريعة، فالصوم في الشريعة الإسلامية: إمساك عن الطعام والشراب والنساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وفي شريعة عيسى عليه الصّلاة والسّلام: إمساك عن أكل كل ذي روح من الحيوان وما يتولد منه في وقت معين.

وهكذا تتباين الشرائع السماوية في أمور كثيرة كلها فرعية غير أصلية وذلك في الحقيقة، اختلاف في الأسلوب والمنهج لا في الجوهر والهدف، وقد

جاء ذلك صريحا في قوله تعالى: {لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا} 227.

أما لماذا اتحدت الشرائع السماوية في أصولها وتباينت في فروعها؟

نقول:

فذلك لأنّ الأصول حقيقة وجوهر ثابت لا يتغير منها شيء بحال من الأحوال.

. فالله سبحانه وتعالى، هو الله بذاته وصفاته وأسمائه الحسنی وأفعاله الحسان، لا يتغير ولا يتحول أبدا.

. الرّسل في كل أمة، هم الرّسل بما يجب لهم وما يجوز في حقهم.

. الكتب المنزلة على مدى تاريخ الرّسالات السماوية، هي الكتب المنزلة بما لها من قداسة وتعظيم.

وكلّ ما جاء عن الله حقّ ثابت، وصدق لا يُنقض، فأصول الأخلاق والعبادات والمعاملات والحرام والحلال بما أوجبه الله تعالى يرتضيه كلّ إنسان عاقل سويّ، لما يحمل من حقّ الخالق على المخلوق، وما ترضاه النفس الإنسانية، لما يحفظ لها من كرامة حقّوق، واحترام لهذه الحقّوق بما شرّعه الله تعالى، ولا يجيد عن ذلك إلا ضالّ أو مضلّ.

أما الفروع: فهي التي يعترتها التغير والتبديل، ويتناولها التعديل والتطوير، لأنها ليست أكثر من تطبيق للأصول في صور متعددة ومتنوعة، ولا بدّ لهذه الصور أن تتباين تبعا لتباين أحوال المكلفين واستعدادهم، وما يحيط بهم من عوامل وظروف كثيرا ما يكون لها أثر في التكاليف، فما يصلح



لزمان قد لا يصلح لزمان آخر، وما يلائم طبيعة قوم قد لا يلائم طبيعة قوم آخرين، غير أنّ التوحيد الذي يعبر عن جوهر الرّسالات جمعا لا يتأثر بالزّمان والمكان أو اختلاف الظروف والبيئة، ولذا اتفقت الأصول وتباينت الفروع.

وعلى ما تقدم من وحدة الرّسالات في جوهرها وأصولها، وتباينها في صورها وتطبيقاتها، فهي مهياة لن تدخل ضمن الرّسالة الكافة وما يدعو إليه نبي الكافة تبعا لوحدة الجوهر الحقيقي الثابت، والظرف الزماني والمكاني المتغيّر، ولذا وجب على أتباع الرّسالات الأخرى أن يدخلوا في الكافة لعدم التعارض ومراعاة السداد والتوفيق طاعة لأمر الله تعالى، ولهذا بُعث محمّد رسول للناس كافة.

إنّ من المهيمات الأولى للكافة، أن الإنسانية فيما يخص حياتها الدنيوية، تنمو وتتطور وتمرّ في مراحل، وهذه الأطوار التي مرت بها الإنسانية في مراحلها المتعددة، أشبه ما تكون بالأطوار التي يمرّ بها الإنسان الفرد في حياته، فهو يبدأ بمرحلة الطفولة، ثم يتدرج في مراحل أخرى، ينمو فيها جسمه وعقله حتى يصل إلى مرحلة الرجولة والنضج التام.

ومجموع هؤلاء الأفراد تتشكل منهم البشرية، حيث كان بها من الفؤة وما تمتلك من وسائل وأدوات وحاجات ومشبعات لتلك الحاجات ما يناسب كل حياة من حياة البشرية وأطوارها وظروف خصوصياتها وشمولياتها، ولذا عندما بلغت البشرية تمام نضجها وغاية رشدتها، كان رسول الكافة رسولا برسائله الكافة، وما الرّسل الذين سبقوه مبشرين ومنذرين وداعين الناس للهداية إلا دعاة إلى حقيقة واحدة، تمهيدا لبناء بيت واحد يؤسس السابق للاحق، ويشيّد اللاحق على أساس السابق وصولا لرسول الكافة بالرّسالة الخاتمة، فلا غرابة بعد ذلك.

ولذا نقول إن الدين عند الله واحد، ونبى الكافة حُتمت به الرّسالات السماوية التي كوّنت في مجموعها صرحا واحدا، اشترك في بنائه الأنبياء جمعا، فما من نبى أو رسولٍ بُعث إلا وقد وضع فيه لبنة، حتى إذا شارف البنيان على التمام والكمال ولم يبق منه إلا موضع لبنة يتم بها تمامه ويكمل حسنه وبهاءه، بعث الله محمّدا عليه الصّلاة والسّلام رسول للناس كافة، فكان صلّى الله عليه وسلّم، بما جاء به من الدين اللبنة المتممة للبناء، المكملة للحسن والجمال، فكان خاتم الأنبياء والمرسلين ونبى الكافة بالرّسالة الكافة.

وهكذا شاءت حكمة الله تعالى أن يرسل محمّدا عليه الصّلاة والسّلام بدين جمع هدي وإرشاد الأنبياء السابقين ورسالاتهم، وختم به عليه الصّلاة والسّلام الرّسالات، وجعل رسالته للناس كافة ولم تكن لقومه خاصة.

وعليه جاءت رسالة الثقلين التي بُعث بها محمّد خاتم الأنبياء والمرسلين شاملة الهداية بآيات تعم النّاس كافة فهي شاملة لكل أي أنّها رسالة الكل دون استثناء لأحدٍ من الإنس والجن.

ولقائل أن يسأل:

كيف يدخل أهل الكتاب في غير أهل الكتاب وهم خلف؟

نقول:

إنّ أهل الكتاب لما انحرفوا عن تعاليم الرّسالات السماوية، فقد خرجوا من الأهلية ولم يبق لهم من الكتاب إلا النسبة التي ينتسبون بها إلى الكتاب، فبقي الكتاب على جوهر حقيّته بانسلاخهم عنه، وضلوا عنه ضلّالا بعيدا، فهم بذلك أعظم جرما من الذين كانوا أميين قبل أن يأتيهم كتاب.

وأما دليل رسالة الثقلين لغير أهل الكتاب في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي  
بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ  
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ  
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 228.

فالأُمِّيُّون ليسوا فقط الذين لم يكن لديهم كتاب ثم نزل فيهم من  
حيث:

آ . الزمان .

ب . المكان .

ج . اللغة .

وإنما إضافة إلى الزمان والمكان واللغة، فقد دخل في الحكم كل من لم  
يأتيه كتاب أو لم يتبع كتابا أنزل من قبل.

وأما قوله: (وأخرجهم لما يلحقوا بهم) فقد دخل في حكم الوجوب من  
لم يوجد بعد، ذلك أن معنى (لما) تفيد نفي الحاضر، وإثبات المستقبل.

فإن الله سبحانه وتعالى بعث رسوله للناس كافة بين قومه، ورسالته  
جاءت لجميع الناس، وإن دلائل عموم رسالته عليه الصلاة والسلام معلومة  
من النصوص النقلية في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي  
رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} 229.

---

228 - الجمعة 2، 3.

229 - الأعراف 158.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا  
ونذيرا﴾230.

ونحن لا نقرّ بأن المراد بالأميين هم العرب الذين لا يعرفون القراءة  
والكتابة كما ذهب كثير من الباحثين في معنى الأمي والأمين، وهذا تفسير  
غير منطقي بأن توصف أمة بكاملها أنها أمية القراءة والكتابة لما فيه من  
المغالطات والخلط الشيء الكثير.

والرد على ذلك سهل يسير من ثبوت القراءة والكتابة وتمكّن العرب  
منها والأدلة كثيرة نذكر منها:

1 . إن كان المقصود أهل مكة، فمن المعلوم أن قريشا كانت تشترك  
جميعها في التجارة ورحلة الشتاء والصيف، ومن المعلوم أيضا أن جميع بطون  
قريش كانت مساهمة في هذه التجارة بأنصبة معلومة لكل بطن من بطونها أو  
لكل فرد من أفرادها، وهذه الأسهم والأموال والأرباح لا بدّ أن تقيّد كتابة  
من أجل معرفة رأس المال والأرباح وتوزيع ذلك حسب الأسهم لكل مسهم  
فيها وهذا لا يكون بالمشافهة.

2 . كتبة الوحي الذين كانوا يدوّنون القرآن الكريم، كانوا يكتبونه  
ويقرؤونه.

3 . فداء أسرى بدر كان أن يعلم الأسير من قريش واحدا من  
المسلمين مقابل فدائه.

4 . تدوين صلح الحديبية من قبل قريش والمسلمين.

5 . ثم علينا ألا ننسى المعلقات الشعرية التي كانت منتشرة على  
التوسع بين العرب.

ثمّ إذا انتقلنا إلى دائرة أوسع، فإنّ العرب العاربة كان لهم دول وحضارات في معين وسبأ، وهذه الحضارات التي تنتمي إلى دول، لها دواوينها في الجند والزراعة والتجارة.

والعرب المستعربة كان لها دول وحضارات أيضا، مثل مملكة كندا ودولة المناذرة ودولة الغساسنة، وجميع هؤلاء ينتمون إلى الأمة الأمية.

وعليه نتساءل:

ما هي الأمية ومن هم الأميون؟

وللإجابة على هذا التساؤل نقول:

إنّ هناك نوعين من الأميين:

الأوّل: الذين لم يخلُ فيهم كتاب من الكتب السماوية كما هو حال اليهود والنصارى الذين خلا فيهم كتاب بدليل قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} 231.

فثبوت دلالة القراءة والكتابة وعدم ثبوتها في سياق الآية مستويان، فقد بعث الله تعالى في الأميين رسولا:

- يتلو عليهم الآيات.

- يزكّيهم.

- يعلمهم الكتاب.

- يعلمهم الحكمة.

ذلك أنهم كانوا في ضلال مبین، ولم يكونوا يجهلون القراءة والكتابة، ولو كان الأمر كذلك لانتفت دعوة غير أهل الكتاب إلى الإسلام من الأمم ذات الحضارات أصحاب الثقافة والعلوم والفنون الذين لم يخلُ فيهم كتاب.

الثاني: الذين خلا فيهم كتاب ولكن لا يعلمونه، قال تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} 232.

وربّ قائل يقول: إن الله تعالى وصف نبيه عليه الصلّاة والسّلام وصفا صريحا بالنبي الأمي في أكثر من موضع كقوله تعالى: {فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} 233.

والجواب على ذلك من جانبين:

الأول: أنّ النبي الأمي هو هذا الرسول الذي لم يؤت كتابا من قبل، ولم يؤت كتابا عن طريق أسلافه من قومه، ولم يؤمر باتباع كتاب قبل كتابه.

الثاني: أنّ جميع أنبياء بني إسرائيل لم يوصف أحد منهم بهذا الوصف من موسى إلى عيسى صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين، ذلك أن كتاب موسى عليه الصلّاة والسّلام قد خلا فيهم من قبل، فلم يعودوا أميين.

ثمّ إنّ بعد ذلك هناك مسألة مهمة في مفهوم الدلالة على معنى الأمي بأنّه عدم العلم بالكتب المنزلة من الله سبحانه وتعالى على رُسله، وليس عدم القراءة والكتابة، فقد ذكر الله تعالى بعضا من أهل الكتاب الذين يجرفون الكلم عن مواضعه، مع أنّهم يعلمونه أنه الحقّ، ويقولون للبعض الآخر لا تحدثوا الذين آمنوا بما فتح الله عليكم حتى لا يكون ذلك عليكم حُجّة، ثمّ استثنى منهم الذين لا يعلمون الكتاب، وإنما يحملونه على الظن فوصفهم

---

232 - البقرة 78.

233 - الأعراف 158.

بالأميين لعدم علمهم بالكتاب، وليس لعدم علمهم القراءة والكتابة حيث قال تعالى: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَنُحَدِّثُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} 234.

وعلى هذا فقد دخل في رسالة رسول الثقلين عليه الصلوة والسلام كل من:

. الأميون الذين لم يؤتوا كتاب من العرب وغيرهم.

. الأميون الذين لا يعلمون الكتاب وهم بعض أهل الكتاب.

ولذا فمن المسلمات أن الكمال من الكمال المطلق، والرسالة الكافية التي جاء بها نبي الكافة كاملة بدلالة النصوص النقلية، وأمر بدهي وطبعي، أن رسالة الثقلين قد بلغت الغاية في الهداية والتشريع ضرورة، لأنها جاءت لإسعاد البشرية في أرقى مراحلها وأوج كمالها، فأى شيء يرجى للبشرية بعد ذلك؟

أي شيء يرجى لها بعد الكمال الذي لا كمال بعده؟

لا شيء إلا أن تمشي البشرية معتصمة بها إلى نهايتها، إذ ليس بعد الكمال غاية، ولا بعد بلوغ المنتهى نهاية، حيث قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} 235.

فمن المعلوم أن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن الكريم، وبعبارة أدق هي من آخر ما نزل من القرآن الكريم، والخطاب في هذه الآية لكل من

---

234 - البقرة 76 - 78.

235 - المائدة 3.

دخل في هذا الدين وأتبع رسالة رسول الثقلين ومن يدخل لاحقًا، ومعنى ذلك أنه دخل في الخطاب:

. الأميون من العرب.

. الأميون من غير العرب.

. الأميون من أهل الكتاب الذين لا يعلمون الكتاب.

ومجموع هؤلاء شملتهم رسالة الثقلين كونهم من غير أهل الكتاب، والأميون من أهل الكتاب دخلوا في الأميين الذين لم يكن لديهم كتاب كونهم لا يعلمون كتابهم.

وعليه فإن رسول الثقلين عليه الصلاة والسلام رسول إلى أهل الكتاب بدلالات كثيرة منها:

. نبي الكافة.

. النبي الخاتم.

. النصوص النقلية.

. الأدلة العقلية.

وقد بينا في نبي الكافة والنبي الخاتم كثيرا من أدلة الوجوب في اتباع رسول الثقلين، وسنبيّن هذا الوجوب من الأدلة النقلية والعقلية بما يقبله العقل وفق المنطق السليم، وما ترتاح إليه النفس وتطمئن به إلى صدق الأدلة إن شاء الله.

فمن النصوص النقلية التي تدعو أهل الكتاب إلى اتباع رسول الثقلين قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ



فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ  
وَمَا أَنْزَلْتِ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ  
فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا  
تَعْلَمُونَ {236}.

هذه الآيات في القرآن الكريم من أوائل ما أمر الله تعالى رسول الثقلين  
أن يخاطب بها أهل الكتاب ويدعوهم إلى اتباع رسالته، فهي تحمل من  
الدعة واللفظ والرفقة والحسن في التعامل بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة  
والموعظة الحسنة ما نراه.

فإن دعاني بهذه الدعوة نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى صلى الله  
عليهم وسلم أجمعين، فلا أملك إلا أن أجيئهم، وليس لي من سبيل إلا  
اتباعهم، لما تحمل هذه الدعوة من الحق والعدل والإنصاف في مضمونها،  
وما فيها من رفعة أخلاق وحسن التأدب ولين الجانب في أسلوبها.

إنها دعوة منصفة من منصف، في إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولو لم  
يكن عليه الصلاة والسلام رسولا لهم ما كان ليدعوهم إلى اتباعه.

هي دعوة لا يريد بها رسول الثقلين عليه الصلاة والسلام أن يتفضل  
عليهم، وإنما هي كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى واحد، لا  
يعلو بعضهم على بعض، ولا يتعبد بعضهم بعضا، دعوة لا يأبها إلا متعنت  
مفسد، لا يريد أن يفيء إلى الحق القويم.

إنها دعوة إلى عبادة الله الذي يعرفون، ولكن على ألا يشركوا به شيئا،  
ولا يتخذ بعضهم بعضا من دون الله أربابا، لا نبيا ولا رسولا ولا غير ذلك،

فالأنبياء والمرسلون كلهم عباد الله، وإنما اصطفاهم الله للتبليغ عنه، لا لمشاركته في الألوهية والرّبوبية.

فهذه الدعوة كلمة عادلة اتفقت عليها الرّسل والكتب التي أنزلت من عند الله، ثم إن الدعوة إلى كلمة سواء تستدعي لديهم مرجعيات عقائدية تخلّوا عن قسم منها، وأخفوا قسما آخر.

فأما القسم الذي تخلّوا عنه، هو الّا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دونه، ولا يطيع أحد أحدا في معصية الله من تحريم وتحليل وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، قال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} 237.

وأما القسم الثاني الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ما بشرتهم به رسولهم بالرّسول الذي أمرهم باتباعه، وهو دليل على أن رسول الثقلين، هو رسول لأهل الكتاب، حيث قال الله تعالى على لسان عيسى ابن مريم: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} 238.

فهذه البشرية لم تكن للأميين وإنما لأهل الكتاب، وجاءت في القرآن الكريم إخبارا عن عيسى عليه الصّلاة والسّلام بأنه أدّى الأمانة وبلغ الرّسالة بوجوب اتباع أحمد لمن أدركه منهم.

ثمّ إنّ الدّعوة إلى كلمة عدل وصدق مستوية لا التواء فيها أمر يجب أن يقبله أي عاقل ولا يجادل فيه، وهذه الكلمة السواء، الّا نُدخل مع الله

---

237 - التوبة 30.

238 - الصف 6.

تعالى من لا يستطيع السمو إلى جلاله أو الارتقاء إلى كماله، فالعقول  
السليمة ترفض كلمة الشرك قطعاً.

وبالعقل السليم والحجة المنطقية هل يشارك المخلوق خالقه فيما  
خلق؟

نحن بني البشر نرفض أن يشاركنا أحد في أموالنا أو أملاكنا ما لم يكن  
له فيها مساهمة أصلاً وهي مخلوقة لنا!

فكيف يستقيم قبول الشرك في الخلق ممن ليس له القدرة على الخلق؟

ومن هنا نقول:

إنّ كلّ مخلوق أشركوه في الألوهية، إنما جاء من بعد الأمر (كن)  
فكان الخلق، والذين يشركونه إنما هم داخلون في الأمر (كن).

وإنّ كان الشرك في إدارة الخلق، فهو سبب لا يصمد لحجة، بدليل أن  
إدارة الكون وما فيه من خلق أهون من خلقه أصلاً، مع علمنا أن الله تعالى  
ليس من صفاته أهون أو أصعب.

فإذا كان هذا هو السبب في الشرك فهو أتفه من أن يكون حجة،  
لأن الخالق سبحانه وتعالى قادر على إدارة هذا الكون ومن فيه بما فيه، ولذا  
فالله تعالى أنزل منهجا متدرجا:

. عمدته التوحيد في حقيقته.

. جوهره، وجزئياته العبادات في صورها المتعاقبة وصولاً إلى رسول  
الثقلين الذي أمروا باتباعه، فإذا ما اتبع الإنسان رسالة رسول الثقلين التي  
دعت إلى الحقيقة والجوهر وضمت الجزئيات صار الإنسان منسجماً مع هذا  
الكون والخلق، فلا داعي للزوم الشرك.

وإن كان الله شريك - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - وتمتع الشريك بقدرات ما، فهذه القدرات تنقص من قدرات الشريكين، والإله الحق قدراته كاملة لأن من صفاته الكمال، ولأن الله تعالى كامل في علمه، كامل في قدراته، كامل في أفعاله، كامل في صفاته فقد حسم الأمر لخلق بقوله تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ} 239.

لقد قرر القرآن الكريم أن رسول الثقلين هو رسول لأهل الكتاب أيضا لأنهم لا يخرجون عن الثقلين بحد من حدود، ولذا خاطبهم الله تعالى بقوله: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 240.

. فلم يقل رسولكم.

. ولم يقل رسولهم.

بل قال رسولنا، ورسولنا إلى من خلقنا ممن وجب عليهم اتباع رسالته والافتداء بهديه.

لقد كان أهل الكتاب يستعظمون أن يدعوهم نبي ليس منهم إلى الدين الحق، هو نبي من الأميين بالمعنى الذي أوضحناه، وهم يعتقدون أن الرسالة والنبوة مقصورة على أبناء إسحاق صلى الله عليه وسلم، كانوا يتعالون على الأميين ويتعاملون عليهم؛ لأنهم هم أهل الكتاب وهؤلاء أميون!

---

239 - المؤمنون 91.

240 - المائدة 15، 16.

فلما أراد الله الكرامة لهؤلاء الأُميين بعث فيهم خاتم النبيين ورسول الثقلين، وجعل فيهم الرّسالة الكافية الشاملة للبشر أجمعين.

وفي هذا النداء الإلهي لأهل الكتاب، يسجل عليهم أنهم مدعوون إلى اتباع هذه الرّسالة والداعي لها، ومدعوون للإيمان بهذا الرّسول ونصره وتأييده، كما أخذ عليهم ميثاقه. ويسجل عليهم شهادته - سبحانه - بأن هذا النبي الأُمي هو رسوله إلى أهل الكتاب كما أنه رسول إلى الأُميين وإلى الناس كافة.

. فلا مجال لإنكار رسالته أنها عند الله.

. ولا مجال للدعاء بأن رسالته مقتصرة على قوم.

. ولا مجال للنكران بأنها ليست موجهة إلى أهل الكتاب، (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا، يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير)؛ فهو رسول الله إليهم في أن:

. يُبيّن لهم ما أشكل عليهم.

. يوضّح لهم ما استعصى عليهم فهمه.

. يكشف لهم ما تواطؤوا على إخفائه من حقائق كتاب الله الذي معهم.

وفي ذلك يستوي اليهود والنصارى، وقد أخفى اليهود كثيرا من أحكام الشريعة؛ كرجم الزاني، وتحريم الرّبا، وأخفى النصارى التوحيد، كما أخفوا جمعا خبر بعثة النبي الأُمي رسول الثقلين (الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل).

وقد أخبرهم الله تعالى أنه عليه الصلّاة والسّلام يعفو عن كثير ممّا أخفوه من الكتاب، وما حرّفوه ممّا لم يرد في الكتاب، وهذا الذي لديهم لم يعد له عمل في المجتمع الإنساني لسببين:

الأوّل: أن الذين يعملون به هو ما كتبوه بأيديهم ممّا اشتروا به ثمنًا قليلاً.

الثاني: ما كانت له وظيفة معينة في ظرف زمني ومكاني لم يعد يؤدّي الحاجة.

أمّا وقد جاء الرّسالة الشاملة الدائمة، واستقرت، وقد أكملها الله وأتمّ بها نعمته ورضيها للناس دينًا، فلم يعد فيها نسخ ولا تبديل ولا تعديل.

ويبيّن لهم طبيعة ما جاء به رسول الثقلين، ومهمته في الحياة البشرية، وما قدر الله من أثره في حياة النّاس وما بعد الحياة.

(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام. ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم).

وليس أدق ولا أصدق ولا أدل على طبيعة هذا الكتاب وعلى طبيعة هذا المنهج، من أن الله تعالى تعهده بالرعاية والحفظ، حيث قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} 241

إن الله سبحانه وتعالى أعلم أهل الكتاب برسول الثقلين من حيث:

. التنبيه.

. الإنذار.

. وجوب الاتباع.

وذلك حتى لا يقول أحدهم لم يبلغني عن هذا الرسول شيء.

ومن حُسن الأدب وسماحة العفو أنه يبين كثيرا مما كانوا يخفون من الكتاب، ويعفو عن كثير، حيث أن هذا الأمر فيه دليلان:

. دليل على كثرة إخفاء الحق بدليل التبيين.

. دليل على كثرة الذنوب، بدليل كثرة العفو.

وعليه نقول:

إن رسول الثقلين محمد عليه الصلّاة والسّلام هو رسول لأهل الكتاب كونهم من الثقلين وقد بشرهم به عيسى عليه الصلّاة والسّلام قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} 242. فأثبت الله تعالى على النصارى ببشارة عيسى ابن مريم عليه الصلّاة والسّلام وجوب اتباع محمد صلى الله عليه وسلّم.

ثم إنّه تعالى أخبر عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى: أنّهم يجدون صفة محمد عليه الصلّاة والسّلام في التوراة والإنجيل، وأنه نبي أوجب عليهم اتباعه ونصرته، فقال الله تعالى: {عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا

بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ  
الْمُفْلِحُونَ {243}.

وقال تعالى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا  
كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ  
يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ  
بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {244}.

وقال تعالى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ  
مِنَ الرَّسُلِ أَنَّ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ  
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {245}.

فقطع الله تعالى بذلك كلَّ حُجَّةٍ لأهل الكتاب بما أخبرهم عن صفته  
في كتبهم، وأن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم:

. هو النور.

. هو الحق.

. يخرجهم به من الظلمات إلى النور.

. يهديهم إلى صراط مستقيم.

قال تعالى في كتابه العزيز: { وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ  
الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {246}. لقد خلق الله تعالى الخلق  
بحكمة منه ولحكمة له، والجن خلق من خلق الله تعالى كمثل سائر

---

243 - الأعراف 156، 157.

244 - المائدة 15، 16.

245 - المائدة 19.

246 - القصص 68.



المخلوقات، ولكنها مخلوقات خفية لها القدرة على أن تقوم بأعمال وأفعال لا يستطيع الإنس عملها أو فعلها مثل:

. الصعود إلى السماء ولمسها في دائرة الممكن:

قال تعالى: { وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثًا خَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا } 247.

. القعود من السماء واستراق السمع:

قال تعالى: { وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا } 248.

. القدرة على لمس السماء:

قال تعالى: { وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهَدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا } 249.

ومادة خلقهم تختلف عن المخلوقات الأخرى قال تعالى: { وَالْجَانُّ خَلْقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ } 250.

وهم مكلفون بالعبادة، فأوجب عليهم ذلك اتباع الرسل حيث قال تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } 251.

---

247 - الجن 8.

248 - الجن 9.

249 - الجن 13.

250 - الحجر 27.

251 - الذاريات 56.

ومحمد عليه الصّلاة والسّلام هو رسول الثقلين، والجن أحد طرفي هذا الثقلين، فهو رسول لهم بدلالة النصوص وهم يعلمون ذلك من خطاب الله تعالى لنبية عليه الصّلاة والسّلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} 252.

إنّ هذا الإصغاء إلى القرآن الكريم والإنصات له ثم الإيمان به قياسا على ما علموه من كتاب موسى صلّى الله عليه وسلّم، هذا بداية.

ثمّ إنّ هذه الآيات من الأدلة على أن محمدا عليه الصّلاة والسّلام هو رسول لهذا الثقل من الثقلين وهم الجن الذين استمعوا لهذا القرآن، فتنادوا بالإنصات لما اطمأنت قلوبهم إلى الإيمان به، فانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الله ويبشرونهم بالرسول الذي يعرفونه، وهذه المعرفة للجن برسول الثقلين معلومة عندهم ممّا يعلمون من الكتاب الذي أنزل من قبل، وهو كتاب موسى وبشرى عيسى عليهما الصّلاة والسّلام، فقد ربطوا بين كتاب موسى وهذا القرآن، فاستنتجوا وحدة المصدر وحقّيقة الجوهر، وهذه الحقّيقة التي جاءت على لسان الجن، أخفاها اليهود والنصارى، ومن هنا نتبيّن حقيقة كونية في وحدة الخلق من الإشارة التي جاءت من المخلوقات الخفية لتعطي درسا لبني البشر في القضية التي يجادل بها البعض، وبها يجحدون؛ فقول هذا النفر من الجن في:

. خشوعهم.

. إنصاتهم.

. إنذار قومهم.

تتضمن أسس الاعتقاد الصحيح في:

. التوحيد.

. تصديق الوحي.

. وحدة العقيدة

ووحدة العقيدة هذه بين الكتب السماوية أظهرتها الجن مع أنّ كثيرا من الإنس يخفونها.

وهنا يقع التساؤل؟

إن كانت هذه المخلوقات لا نراها وهي خارج حياتنا فلماذا ذكرها الله لنا؟

إنّ الإجابة على هذا التساؤل تمكن في أمور عديدة منها:

. أنّ الله تعالى أعطى دليلا أن محمّد رسول الثقلين من الإنس والجنّ.

. أنّ بعض الإنسان الذي كرمه الله على العالمين لم يكن أهلا لهذا التكريم فجحد.

. أن بعضا من خلق الله من هو أدنى مكانة من الإنسان، أفضل من بعض الإنسان.

. هذا الأدنى من الخلق سوف يشهد شهادة الحقّ على من هو أعلى منه مكانة.

. إن بعضا من الأقل تكريما، هو أفضل من بعض من كرم على العالمين.

ومن هنا نعلم الحكمة من قوله تعالى: {فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُؤْلَاءِ فَقَدْ  
وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوًّا بِهَا بِكَافِرِينَ} 253.

إنَّ رسول الثقلين هو رسول إلى الجن وهم يترقبونه وينتظرون مجيئه  
لاتِّباعه والتصديق به، ذلك أنهم أول ما سمعوا القرآن يتلى وصفوه بالهدى أو  
أنهم أطلقوا عليه هذا الاسم كونهم يعلمون الهدى من الضلال، قال تعالى  
حكاية عن الجن: {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ أَمْنَا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَحَافُ  
بِخَسَا وَلَا رَهَقًا} 254.

وأول سمة من سماتهم التي ذكرها الله تعالى لنبيه عليه الصلوة والسلام  
أنهم عقلاء مميزون حيث قال تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ  
فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} 255. وبهذا يتساوون مع الإنس في أمر  
التكليف واتِّباع رسول الثقلين صلى الله عليه وسلم، وقد ورد في آيات كثيرة  
من القرآن الكريم ما يدل على تلازم الثقلين في قوله تعالى: {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ  
الثَّقَلَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتِطْعَمْتُمْ أَنَّ  
تَنْفُدُوا مِنْ أَفْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُدُوا لَا تَنْفُدُونَ إِلَّا  
بِسُلْطَانٍ} 256.

وأنهم جميعاً مأمورون بالتكليف حيث قال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ  
وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يُفَصِّحُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ

---

253 - الأنعام 89.

254 - الجن 13.

255 - الجن 1.

256 - الرحمن 31-33.

هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ  
كَانُوا كَافِرِينَ {257}.

ومن ظاهر النص القرآني في الآية الكريمة نجد أن الخطاب جمع الثقلين  
بالتساوي في:

. أسلوب الخطاب في الاستفهام الإنكاري.

. مستوى الخطاب في التكافؤ.

. توجيه الخطاب للثقلين.

. قصد الخطاب في القصص والإنذار لكليهما.

. غرض الخطاب دعوة الثقلين.

. هدف الخطاب إقامة الحجّة على الثقلين.

. غاية الخطاب الإقرار من الثقلين

وهذا يقتضي أن تكون الرّسل:

إمّا من الثقلين (الجن والإنس).

وإمّا من أحدهما (الإنس).

فرُسل الجنّ والإنس كانت بعضاً ممّا ذكر من الثقلين، فإذا كانت  
(من) التبعية التي استثنت بعض الثقلين من الرّسل تعود على الإنس،  
فهذا يعني أن الرّسل من الإنس كانت إلى الثقلين وأدلته من الكتاب كثيرة،  
ولكن يترتب على هذا الأمر أمر آخر وهو رسل الرّسل، وهذا متحقّق في

قوله تعالى: {وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّندِرِينَ} 258.

فالدليل هنا يلزم منه أن يكون آمن قسم من الجن فبلغوا قومهم ودعوهم إلى ما استمعوا من الهدى، فكان القسم الذي آمن ودعا قومه إنما هم بمثابة رُسل من المرسلين من الله تعالى ولا يلزم من هذه الآية إثبات رسول من الجن للجن.

وأما قوله تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} 259.

فإنه واضح من النص أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جاءه نفر من الجن فاستمعوا القرآن وعندما وجدوه يهدي إلى الرشد الذي يعلمونه من كتاب موسى عليه الصلوة والسلام آمنوا به، ثم ذهبوا إلى قومهم مخبرين بما سمعوا من وصف لهذا القرآن فشرعوا في الثناء على الله تعالى بالمدح والتمجيد، يصتفون قومهم إلى مسلم وكافر وصالح ودون ذلك. ولذا ليس في سورة الجن دعوة من الذين آمنوا إلى الذين لم يؤمنوا بالتبشير والإنذار، وإنما آمنوا ونقلوا الخبر، وهذا يعني أن الذين لم يسمعوا عندهم علم بما أخبرهم به بعض قومهم، وكأنها بشرى يبشرون بها قومهم بأنه جاءهم الرسول الموعود، ولو لم يكن عليه الصلوة والسلام رسولا لهم لما آمنوا به.

### 3. نبي الله:

النبي الكريم محمد عليه الصلوة والسلام قد اتصف بما نبئ به من ربه تعالى، وهو النبا العظيم الذي اختلف الناس فيه، حتى جاءتهم البينة، قال تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ

---

258 - الأحقاف 29.

259 - الجن 1، 2.

ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} 260، وبعد أن علموا بالبيّنة فمنهم من آمن ومنهم من ظل وكفر، قال تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} 261.

وعليه فمحتوى البيّنة يشتمل على الآتي:

. رسولٍ من الله.

. الرسول يتلو صحفا مطهرة.

. في هذه الصحف المطهرة كتب قيّمة.

وكان المترتب على تبيان هذه البيّنة هو:

. هناك من كفر وهذا يعني أن هناك من آمن وأسلم وجهه لله تعالى،

ولهذا تفرّق الناس بين مؤمن وكافر ومشارك.

. هناك أمر يستوجب الإتيان والطاعة والإخلاص (وما أُمِرُوا إِلَّا

لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ).

---

260 - النبأ 1. 5.

261 - البيّنة 1. 7.

. هناك كُفِرَ قد تحقّق في ففتين، فئة من أهل الكتاب، وفئة من المشركين (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ).

. في البئنة هناك وعد بخلود الكافرين في نار جهنم (في نارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا).

. هناك وصف متحقّق للكافرين بأنهم هم شر البرية (أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ).

. هناك وصف متحقّق للمؤمنين العاملين للصلحيات بأنهم خير البرية (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ).

إذا فمن هو النبي محمد عليه الصلاة والسلام؟

هو الذي كُلف بالنبأ العظيم داعيا ومبشرا ومحرضا ومنذرا وآمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر وفاعلا للخيرات الحسان ومكثر من أعمالها، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرْجًا مُنِيرًا وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } 262.

ولذلك فالنبي هو المصلّي والمسلّم عليه، قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } 263، يُفهم من هذه الآية الكريمة أمرين:

الأمر الأول: أن الله وملائكته يصلون على النبي.

---

262 - الأحزاب 44 . 48.

263 - الأحزاب 56.



الأمر الثاني: جاء أمر الله للمؤمنين بالصلاة والسلام على النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، ويفهم من هذه الآية أن الله وملائكته يصلون على النبي، أمّا أمر التسليم فلا يلحق إلا لمن آمن بالنبي الكريم، بمعنى أن الله وملائكته يصلون على النبي ولكنهم لا يسلمون عليه، وذلك لأن أمر التسليم لا يكون إلا من مؤمن به ومتبع له نبيًا ليكون من الطائعين لأمر الله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا).

فصلاة الله على النبي بأسباب اصطفاؤه له نبيًا كريمًا، وصلاة الملائكة عليه بأسباب الطاعة لله تعالى، ولهذا فأمر التسليم لا يلحق الملائكة لأن النبي محمد عليه الصلاة والسلام لم يكن رسولًا للملائكة لتسلم عليه تسليمًا، بل أنه النبي المرسل للإنس والجن، ولهذا يستوجب على الإنس والجن الصلاة والسلام على النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وبناء على ما تقدم نقول:

حال النبي كحال الرسول من حيث الاصطفاء، فلا نبيًا إلا من عند الله، ولا رسولًا يصلّي ويسلم عليه إلا من عند الله، ولهذا كان لمحمد صفة النبوة التي خصّه الله بها كما خصّه رسولًا للإنس والجن جميعًا.

وعليه فالنبي محمد عليه الصلاة والسلام هو نبي الأنس والجن مصداقًا لقوله تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَأَنَّهُ كَانَ مِنْ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا} 264.

## 5. أمي:

الأمي هو من لا يعلم بالأمر إلا بعد التبليغ، أي هو الذي لا يعرف ولا يعلم بما لم يُعَلِّم أو يُعَلِّمَ به، والنبي الأمي هو محمد الذي لم يعلم بأمر الرّسالة التي كُفِّفَ بها قبل نزولها عليه، والذي لا يعلم بالشيء لا يقول شيئاً، ولذا فالذي يَعْلَمُ يُعَلِّمُ بما أُعْلِمَ به ويُعَلِّمُه لمن هم لا يعرفون عنه شيئاً.

الأُمِّيُّ هو "المنسُوب إلى ما عليه جَبَلَتُهُ أُمُّهُ أي لا يَكْتُوبُ فهو لا يَكْتُوبُ أُمِّيٌّ لأن الكِتَابَةَ هي مُكْتَسَبَةٌ فكأنه نُسِبَ إلى ما يُولد عليه أي على ما وُلِدَتْه أُمُّهُ عليه" 265.

وفقا للتعريف السابق تظهر علاقة قوية بين (الأمي والأمة والأم) فكما أنّ الأم أصل الحمل والرضاعة والعناية كذلك الأمة هي أصل لكل هوية ونسب، والأمي هو المنسوب إلى الأم وهي الأصل والمنسوب إلى الأمة وهي أيضا الأصل، ولذلك فالنبي الأمي هو الأصل الذي يجب العودة إليه فيما يقول ويفعل.

والأمي هو الصافي الذي لا تشوبه شائبة من أثر قراءة أو كتابة مُسَوِّقَة لخدمة غرض من الأغراض الدينية أو الدنيوية، وهو من لا تلتصق به التهم فيما لا يعلم وإن نُعت بها.

الأمية حالة غير دائمة وهي قابلة للإزالة من الجميع في دائرة النسبية ودائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع، فمن يكن أمياً يصبح في دائرة الممكن عالماً فلا استغراب في هذا الأمر، ولهذا بالعلم تستنير العقول وتطمئن الأنفس والقلوب.

ولأنّ الأمية في دائرة النسبية؛ فهي غير مطلقة فما يكون به الإنسان  
عليمياً أو عالماً يكون به غيره جاهلاً، والجهل بالشيء عدم معرفته، وعدم  
المعرفة بالشيء أمية، والامية البعد بالتمام عن معرفة الموضوع محور الاهتمام  
فلا يكون له علم به.

وبما أنّ الأمية في دائرة النسبية إذا الذي لا يعلم بالشيء المراد  
التحدث عنه يكون بالنسبة له أمياً، وحتى المتعلمون هم بما يجهلون أميون،  
فالذي لا يتكلم اللغة الفرنسية بالنسبة للمتحدثين بها هو أمي، والذي لا  
يعرف لغة الحاسوب واستخداماته فهو بالنسبة لهذا الأمر أمي حتى وإن كان  
من المتحصّلين على الشهادات العالية والدقيقة أو كان عالماً في علوم الفقه  
والدين، وهكذا في المقابل بالنسبة لمن يجيد اللغة الفرنسية أو أيّ لغة وهولاً  
يعلم أولاً يعرف شيئاً عن علوم الفقه والدين أو الأديان، فهولاً يخرج عن  
دائرة الأمية النسبية، ولذلك كل العلماء والمتعلمين هم في دائرة الأمية  
النسبية. والرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام لا يخرج عن دائرة الأمية  
النسبية، فهو بالنسبة لعلم القرآن قبل نزوله كان أمياً قراءة وكتابة مصداقاً  
لقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ  
الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} 266 إنه قول الله لمحمّد  
صلوات الله وسلامه عليه على لسان جبريل عليه السلام، إنه الأمر الأوّل  
الصادر للنبي الأمي (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)  
ولأنّ محمّد عليه الصّلاة والسّلام أمي فقال ما أنا بقارئ فقال له: (اقْرَأْ  
بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ  
بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فقرأ ما قيل له فأصبح بما قرأ غير أمي.

الأمية: كما يقول البعض: هي "الغفلة والجهالة، فالأمي منه، وذلك هو قلة المعرفة"267، قال تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَائِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} 268 ف (منهم أميون) للتبعيض وهي عائدة على بعض ممن يجهلوا ما جاء في الكتاب المبين ويقصد اليهود الذين هم أميون بالنسبة لمن عُلِّمَ أو تعلَّم الكتاب المبين أو آمن به. وهناك من يرى أن الأميين هم العرب وغير العرب ممن لا يعلمون بالقرآن وأمر الرسالة الخاتمة للناس كافة، فقال: "ويجوز أن تطلق الأمية على جميع أهل الأرض لأن بعثته عليه الصلاة والسلام كان حين ذهب العلم من الناس"269.

وهناك من يقول: "(ومنهم أميون)، أناس من يهود"270.

قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 271 العرب الأميون والذين آمنوا معهم هم المعنيون بقوله (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ) ولأنه الرسول فهو صاحب الرسالة الخاتمة، ولأنه النبي فهو الذي أنبأه الله بـ{النَّبِيَّ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}272، ولأنه الأمي، فهو لم يكن له سابق علم بما أعلم به وكُلف.

267 - مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ج 1، ص 42.

268 - البقرة 78.

269 - نظم الدرر للبقاعي، ج 9، ص 6.

270 - تفسير الطبري، ج 2، ص 257.

271 - الأعراف 157.

272 - النبأ 2 3.

أَمَّا قَوْلُهُ: (الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ) فَهَمَّ أَصْحَابُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ بِأَنَّ رَسُولًا خَاتَمًا وَدِينًا لِلْكَافَةِ سَيَكُونُ عَلَى لِسَانِ الْأُمِّيِّ أَحْمَدَ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِ.

وعليه:

كيف يقبل أن يكون محمّد أميًّا وهو الذي يأمر بالمعروف؟

وكيف يقبل أن يكون أميًّا وهو الذي ينهى عن المنكر؟

وكيف يقبل أن يكون أميًّا وهو الذي بيده أمر تحليل الطيبات؟

وكيف يُقبل أن يكون أميًّا وهو الذي يُجرِّم الخبائث؟

وكيف يقبل أن يكون أميًّا وهو الذي يضع عن النَّاسِ إصْرَهُمْ؟

وكيف يكون أميًّا وهو الذي جاء بما تُفكُّ به الأغلال؟

وكيف يكون أميًّا ويؤمن به نبيا ورسولا ويأمر الله بطاعته والأخذ بما يأمر به نبا ورسالة مصداقا لقوله تعالى: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } 273.

ولأنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَعِدْ أُمِّيًّا بَعْدَ الرَّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ، فَقَوْلُهُ حَقٌّ يَسْتَوْجِبُ الْإِتْبَاعَ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: (يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ) وَلِأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ مِنَ اللَّهِ أَعْطَاهُ مُحَمَّدٌ حَقٌّ فِي سَبِيلِ إِحْقَاقِ الْحَقِّ، فَاتِّبَاعُهُ وَاجِبٌ، وَمَنْ يَعْصِي أَمْرَ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِ بِالْمَعْرُوفِ يَعْصِي أَمْرَ الَّذِي أَصْدَرَ لَهُ الْأَمْرَ وَهُوَ اللَّهُ. وَلِذَا لَا يَعْتَقِدُ فِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْطِي أَمْرَهُ لِمَنْ يَجْهَلُ أَمْرَهُ (أمي) وَلِهَذَا لَا يَعِدُ مُحَمَّدٌ أُمِّيًّا وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَمْرَ اللَّهِ مَكْلَفٌ بِهِ.

ولأنَّ محمّدا لم يعد أميًّا بأسباب امتلاكه المعرفة الواعية والكاملة بعد أن قرأ دون سابق قراءة، فيجوز له حقّ النهي عن المنكر وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث مصداقا لقوله تعالى: (وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) ولذا عندما كان محمّد أميًّا لم يُعط له هذا الحقّ أو هذه الصلاحيات كما تسمى لدى البعض تحت مظلة لغة العصر، وإلا هل يُقبل أن يكون أمر التصرف بأمر الطاعة بيد من لا يعلم الأمر ومعجزاته؟ وهل يقبل التحليل والتحريم والنهي ممن لا يعلم بما يأمر أو ينهى أو يُحلّل أو يُحرّم؟

بالطبع لا.

ولهذا فمحمّد عليه الصّلاة والسّلام بعد أن قرأ بأمرٍ من الله تعالى فهو القارئ وليس الأمي ولهذا لم يعد حاله كما كان قبل الرّسالة. وعليه فالكلام أو الحديث عن محمّد قبل الرّسالة كلام أو حديث عن أمي، والكلام أو الحديث عن محمّد بعد الرّسالة عليه الصّلاة والسّلام حديث أو كلام عن نبي رسول عالم. ولذلك على المسلمين أن يفرقوا بين الحديثين والشخصيتين (شخصية محمّد الأمي وشخصية محمّد الرّسول النبي العالم) وإلا هل يُقبل أن يوصف النبي الكريم بالأمي ويوصف الذين آمنوا وتعلموا على يديه بالعلماء والحكماء الأجلاء؟

وكيف يُقبل أن يكون محمّد هو صاحب الرّسالة الخاتمة للناس كافة وهو المرجعية للرّسالة ونقبل أن يوصف بالأمي؟

وكيف لا نكتشف التناقض في الأمرين:

الأمر الأوّل: أمرُ محمّد الأمي.

الأمر الثاني: أمر الذين تعلموا ممّا علمهم به علماء وحكماء؟

وعليه هل يقبل أن يكون للرّسالة مرجعية ورسولها أميًّا؟

ولأنّ محمّدا رسول للناس كافة قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} 274 أي أنّ محمّدا رسول الله عليه الصلّاة والسّلام لم يكن رسولا خاصا بالعرب بل هو للكافة (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 275.

إذا كيف يُقبل أن يكون رسول الكافة أمي والناس يعلمون؟

أقول: رسول الكافة ليس بأمي، بل هو بما أُعلِمَ علّم وبشّر وأنذر وحرّض وحلل وحرّم، وهو قبل الرّسالة محمّد الأمي وبعدها محمّد رسول ونبي، ولذا فالفرق كبير بين محمّد الأمي الذي لا صلاة ولا تسليم عليه وبين محمّد الرّسول النبي الذي يصلّي الله وملائكته عليه ومن بعده يصلي عليه ويسلم المؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين.

وعليه فالقول بـ (الصلّاة والسّلام على سيدنا محمّد) هو إقرار بأنه لم يعد ذلك الأمي، ولهذا قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} 276 قال (يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) أي الذي أصبح يعلم بالأمر بعد أن كان يجهله فكان خير رسول وخير نبي فله الحقّ بأن نصلي ونسلم عليه تسليما، وهكذا الملائكة تصلي وتسلم عليه، وهكذا يكون حال المؤمنين من بعده الذين يقرّون بالحقّ ويتبعونه قولا

---

274 - الأعراف 158.

275 - سبأ 28.

276 - الأحزاب 56.

وفعلا وسلوكا. ولأننا من الذين أسلموا وجههم لله رب العالمين وآمنوا به واحدا أحدا لا شريك له، وبمحمد رسولا خاتما فإننا نصلي ونسلم عليه مباركة وإقرارا بأن ما جاء به هو الحق من الحق المطلق، ولذا فالصلاة والسلام على محمد هي اعتراف وإع بأنه الرسول الذي اصطفاه الله للناس كافة بالرسالة الخاتمة، ولأنه يعلم بأمر الرسالة أكثر من الذين آمنوا بها على يديه أو آمنوا بها من بعده لذا فالصلاة والسلام إعلان تسليم بالحق والرسول الحق المصطفى من الحق المطلق.

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} 277. الأميون في هذه الآية الكريمة لا تعني الذين لا يقرءون ولا يكتبون بل تدل وتعني أن الأمية هي في دائرة النسبية وليس في دائرة المطلق، وإلا هل كان جميع العرب لا يقرءون ولا يكتبون وكأنهم قوم جهالة بالمطلق؟ هذا القول لا يستقيم إلا بعدم علمهم بالقرآن قبل نزوله على رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا مع أنهم حق أميون إلا أن البعض منهم يقرءون ويكتبون، ولذا فهم بالنسبة للدين الجديد (القرآن) فهم جميعهم أميون، وإن أول من أعلم هو رسوله النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه، الذي كان أميا قبل نزول القرآن، ولأنه أول من أعلم كان مكلفا بتلاوة القرآن عليهم وبتزكيتهم وبتعليمهم الكتاب والحكمة باعتبارهم كانوا أميين بما أنزل.

وعليه فالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام كما جاء في الآيات السابقة يتلوا القرآن، ولأنه كذلك فكيف يحق لنا أن نصفه أميا؟ أي هل يحق لنا أن نصف من يتلو القرآن بأنه أمي؟ وكذلك كيف نصف من يزكي



ويُعلِّمُ المسلمين والمؤمنين الكتاب والحكمة بأنه أميٌّ؟ أي كيف نقبل بأن يوصف المعلم بالأمي ويوصف المتعلم منه بالعالم؟

وفي هذه الآية الكريمة تتضح بعض المهام الرئيسة للرسول الكريم وهي:

أ. أن يتلوا القرآن على الأُميين ليعلموا بالحق ويتبعوه، والقرآن الذي يتلوه عليهم لم يتعلّمه بالقراءة والكتابة كما نحن نتعلّم، بل تعلّمه وحيا موحى، وبهذا فقد علّمه أي أُعلِّمَ به إعلاما والإعلام بالشيء كالخبر به، والفرق بين هذا وذاك هو أنّ الإعلام بالشيء يكون أمره (هو كما هو عليه)، والإخبار به للعلم بالشيء أو ما يتعلق به دون إلزام الأخذ به، والعلم بالشيء الإلمام به دون غفلة عن شيء منه، ولهذا قد علّمه شديد القوى ما لم يكن يعلم.

وعليه فالإعلام بالقرآن يتم إلا مع من يجهله، ومن يجهله (أميٌّ) وتعليم القرآن يتم مع راغب أو أمي، ولهذا كان محمد قبل نزول القرآن أميًّا به، أي لا يعلمه ولا يعلم عنه شيء بخلاف سيدنا عيسى والذين آمنوا برسالته فهم يعلمون أن رسولا سيصطفيه الله برسالته اسمه أحمد مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} 278 ولأن محمد عليه الصلّاة والسلام كان أميًّا بالرسالات السابقة للرسالة الخاتمة فهو لم يعلم بالرسالة الآتية التي يعلم بها موسى وأتباعه قبل إعلامه وعلمه بالقرآن مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَنْتَ الْبُاطِلُونَ} 279. إنه القول الحق فلو كان يعلم بالأمر مسبقا ما كان أميًّا بأمر الرسالة، وهو أيضا لم يكن يعرف

---

278 - الصف 6.

279 - العنكبوت 48.

الكتابة التي تخط بأيدي الكتّاب ولذا فلو كان قارئاً لكان كاتباً لما يقرأ  
ولكان في دائرة الموصوفين بالتعلم بدلا من دائرة الموصوفين بالأمية.

ب . أن يزيهم، وتركيتهم بإتباع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر  
وتجنب ما نهى الله عنه واتباع ما أمر بإتباعه والأخذ به، وتحليل ما أحله  
الله لهم، وقول الحقّ وفعل الحقّ والإصلاح في الأرض وعدم الإفساد فيها أو  
سفك الدماء بغير حقّ، فمن يتبع ذلك يعدّ مزكّيا حيث لا ذنب عليه في  
شيء، ولذا فالمزكون هم المطهرون.

ج . أن يعلمهم الكتاب والحكمة، وهذه خطوة مترتبة على الخطوة  
الأولى (العلم بالقرآن) والعلم بالقرآن يعني عدم الجهل به، ولذا فالعالم به هو  
من لا يجله.

فكلمة يُعَلِّمُهُمْ تدل على أنه متعلم بعلم الكتاب وعلوم الحكمة، أي  
أنه بالعلم كان سابقا على الأميين في تعلمه، وإلا ماذا سيعلمهم لو لم يكن  
متعلما؟! وبما أنه المتعلم بما علمه الله به لذا لا يحقّ أن يوصف بالأمي  
مصداقا لقوله تعالى: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي  
ضَلَالٍ مُّبِينٍ).

قال تعالى: { وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا  
يَظُنُّونَ } 280. (ومنهم) جاءت للتبعيض وذلك لإظهار الجزء من الكل،  
وهذا يدل على أن البعض الآخر غير أمي، فالذين يعلمون بالكتب والرسل  
ورسالاتهم هم غير أميين، والذين لا يعلمون شيئا من هذا هم الأميون،  
ولذلك فبعض من اليهود وبعض من النصارى وبعض من العرب أميون لا  
يعلمون الكتاب.

ولذلك "الأُمَّة الَّتِي بَعَثَهُ اللهُ إِلَيْهَا فِيهِمْ مَنْ يَفْرَأُ وَيَكْتُبُ كَثِيرًا كَمَا كَانَ فِي أَصْحَابِهِ وَفِيهِمْ مَنْ يَحْسُبُ وَقَدْ بُعِثَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْفَرَائِضِ الَّتِي فِيهَا مِنْ الْحِسَابِ مَا فِيهَا وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ عَامِلُهُ عَلَى الصَّدَقَةِ ابْنُ اللَّتْبِيَةِ حَاسِبَهُ. وَكَانَ لَهُ كُتَابٌ عِدَّةٌ - كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَمُعَاوِيَةُ - يَكْتُبُونَ الْوَحْيَ وَيَكْتُبُونَ الْعُهُودَ وَيَكْتُبُونَ كُتُبَهُ إِلَى النَّاسِ إِلَى مَنْ بَعَثَهُ اللهُ إِلَيْهِ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَرُؤُوسِ الطَّوَائِفِ، وَإِلَى عُمَّالِهِ وَوُلَاتِهِ وَسُعَاتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ" 281.

وعليه كان الرسول محمد عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أميًا قبل نزول الرِّسَالَةِ عَلَيْهِ أَي أَنَّهُ أَمِيٌّ قَبْلَ الرِّسَالَةِ مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: { وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابِ الْمُبْطُلُونَ } 282 أمَّا بعد نزول الرِّسَالَةِ عَلَيْهِ فَهُوَ لَيْسَ بِأَمِيٍّ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَأَوَّلُ مَنْ أَعْلَمَ بِهِ النَّاسَ، وَأَوَّلُ مَنْ عَلَّمَهُ لَهُمْ، وَأَوَّلُ مَنْ صَلَّى بِهِمْ قَارِنًا، قَالَ تَعَالَى: { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } 283.

وَلَأَنَّ الْبَعْضَ أَمِيٌّ قَالَ تَعَالَى: { وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } 284 ولأنه قرآن كريم نزل ليحقق الحق ويبطل الباطل ويدمغه حتى يزهق، لهذا قال: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) أَي بَعْضُ مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَيْسَ كُلُّهُمْ، فَلَا تَعْمِيمَ حَيْثُ الْبَعْضُ يُؤْتَمَنُ جَانِبُهُ وَالْبَعْضُ لَا يُؤْتَمَنُ جَانِبُهُ، وَمَنْ لَا

281 - مجموع فتاوى ابن تيمية، ج 6، ص 71.

282 - العنكبوت 48.

283 - البقرة 151.

284 - آل عمران 75.

يؤمن جانبه إذا داينته بدين لا يردده إليك فهؤلاء هم مثل الذين يأكلون الربا مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَحَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} 285، ومثل الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِمَّا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} 286.

#### الأمية في دائرة النسبية:

هناك من يرى الأمية بمنظور عدم معرفة القراءة والكتابة، ونحن نقول ونحن في القرن الواحد والعشرين الأمية لا تخرج عن دائرة النسبية، ولهذا أتساءل:

#### بلغة من تكون القراءة والكتابة؟

أقول: الذي يقرأ ويكتب بلغة العرب ولا يعرف القراءة والكتابة بلغة الأعاجم ألا يعد أميا بأسباب عدم معرفته لتلك اللغة؟ حتى وإن عرف المتعلم مجموعة من اللغات ألا يُعد جاهلا وأميا باللغات الأخرى التي لم يتعلمها؟ لذا يعد تعريف الأمية قاصرا بقصوره على كون المتعلم هو الذي يقرأ ويكتب، وكذلك حتى وإن تعلّم جميع لغات العالم ولهجاته ولم يتدبّر ويؤمن بما تعلم ألا يُعد أميا بجهله الذي لم يُمكنه من بلوغ التدبّر والإيمان؟

وأقول أيضا: حتى من بين الذين آمن بعض منهم لا زالوا في دائرة الأمية النسبية، فالذي آمن وأسلم ولم يتدبر القرآن التزاما وطاعة للأمر ألا يكون من ضمن الذين هم لا يزالون في دائرة الأمية النسبية؟ قال تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} 287 جاء في هذا الآية

---

285 - البقرة 275.

286 - النساء 10.

287 - محمد 24.

الكريمة استغراب بقوله: (أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ)! أي لو تدبروه لعلمو الحق، ولأنهم لم يتدبروه فهم يجهلون (أميون) أي هم بالنسبة للذين يتدبرونه أميون. وقوله (أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)! القلوب التي عليها أقفالها هي القلوب التي لم تتدبر القرآن ولأنها كذلك فهي لم تُفتح بما يجب أن تتعلمه وتتدبره، فالتدبر هو الذي يُدخل الحكمة إلى القلوب، ولهذا فالقرآن الكريم لا يقتصر أمره على القراءة والكتابة بل يمتد ليشمل التدبر، ولذلك فالأمي هو الذي لا يعرف الأمر الذي يُسأل عنه، وعليه كل سؤال موضوعي ومنطقي يُطرح ولا يجاب عليه يعد الجاهلون به أو الغافلون عنه أميون في دائرة النسبية.

وبالعودة إلى القول بأنَّ محمد عليه الصلّاة والسّلام "أنّه (أمي) على معنى أنّه من الأميين - أي من غير اليهود - فما هذا ممّا يعيبه" 288. إنّه رأى قد يكون على دلالة من الصواب باعتبار أنّ محمد عليه الصلّاة والسّلام وبني قومه ليسوا من الذين جاء استثنائهم من الانتساب للأمة الأمية والرّسول الأمي. فاليهود بوصفهم أصحاب ديانة ورسالة خاصة فقد لا يشار إليهم بالأميين فهم لم يكونوا من الذين لا يدينون بها (الأميون)، أقول نعم إن العرب والرّسول الكريم هم أميون بالنسبة للرسالة قبل نزولها على الرّسول الكريم، وهم الذين أصبحوا غير أميين بعد تلقيهم الرّسالة وتعلمهم الكتاب والحكمة وتدبرهم القرآن وإسلامهم لله ربّ العالمين.

ويكون الأميون من بعدهم هم الذين كانوا غير أميين قبل نزول الرّسالة الخاتمة للناس كافة، فاليهود الذين آمنوا برسالة موسى عليه الصلّاة والسّلام هم غير أميين، وهم من بعد رسالة عيسى عليه الصلّاة والسّلام أصبحوا أميين إن لم يؤمنوا بها، وهكذا حال اليهود والنصارى فهم أميون إن لم يؤمنوا بمحمد ورسالته التي جاءت للناس كافة، ولذا في دائرة الأمية النسبية من كان يشار إليه بالأمية أصبح عالماً بأمور دينه ودنياه حلالاً وحراماً، ومن كان

---

288 - موسوعة الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ج 6، ص 3.

يشار إليه بغير ذلك أصبح أميًا في دائرة النسبية إن لم يؤمن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وعليه لا أمية إلا في دائرة النسبية.

ولأن القرآن وحي موحى فهو لم يكن معرفةً سابقةً لمن هم على قيد الحياة قبل بعثة محمد نبيًا رسولًا، ولم يكن مسطرًا في ألواحٍ أو كتبٍ، وذلك لخروجه عن دائرة الممكن التي تحصره بين متوقع وغير متوقع، فالوحي لا يأتي إلا من آفاق المستحيل الذي لا يحوطه شيء، ولذلك فكل السابقين على نزوله عليهم أو إليهم هم أميون، وكل الذين آمنوا به بعد نزوله هم غير أميين، ولذا كانت "أوروبا الأمية تزخر بالجهل والحرام، بينما كانت الأندلس تحمل إمامة العلم، وراية الثقافة في العالم"289.

وفي دائرة الأمية النسبية قد يقول قائلًا أو يتساءل: أين المسلمون في دائرة الأمية النسبية من التقدم العلمي والتقني الذي يشهده العالم المتقدم علميا وتقنيا؟

أقول: بالنسبة للرسالة الخاتمة من لم يؤمن بها هو أمي في دائرة الأمية النسبية، وفي المقابل من يؤمن بها ولا يأخذ بما بلغه العلم والتطور التقني سيكون في دائرة الأمية النسبية أميًا لا محالة.

وقد يتساءل آخر: ألا يكون الاتصاف بالأمية علامة من علامات النقص الذي يلحق بالإنسان المخلوق في أحسن تقويم؟

في هذا الأمر يقول ابن تيمية: "الْأُمِّيَّةُ صِفَةٌ نَقْصٍ لَيْسَتْ صِفَةً كَمَالٍ فَصَاحِبُهَا بِأَنْ يَكُونَ مَعْدُورًا أَوْلَى مِنْ أَنْ يَكُونَ مَمْدُوحًا"290.

---

289 - المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام، ج 2، ص 173.

290 - مجموع فتاوى ابن تيمية، ج 6، ص 71.

ونحن نقول وفقا لقاعدة الاحتمالات كل شيء في الحياة الدنيا نسبي ولا مطلق إلا من عند الله تعالى، فما يمدحه البعض يذمه البعض الآخر، وما يُقبل من البعض يُرفض من البعض الآخر، ولذلك يجب التخلص من الأمية ومقاطعتها إلى الأبد كما تخلّص منها النبي محمد عليه الصلّاة والسّلام إلى ابد الأبدين.

الأمة الأميّة (لا تكتب ولا تحسب):

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب" 291 الأمة الأمية، هي الأمة قبل الرّسالة، ولذلك فالأمة الأمية كانت شيعة وأحزابا وقبائل والفتن والعداء والفرقة واقعة بينهم مع تعدد ما يعبدون مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَىٰ الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} 292. آيات تبين بمقارنة بين عصر الأمة الأمية وعصر الأمة العالميّة. فالأمة الأمية لم تكتب تاريخا ولم تصنع هوية، ولم تحسب حسابا لما كانت تقوم به ولم تحسب حسابا لعاقبة الأمور، ولذا قال فيهم (كُنْتُمْ أَعْدَاءً)، وقال: (وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ) ولهذا فهم الضالون الذين قال فيهم تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ} 293.

---

291 - تفسير الطبري، ج 2، ص 257.

292 - آل عمران 103 . 105.

293 - البقرة 198.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ)، إشارة إلى ما كانت عليه الأمة قبل الرّسالة، ولهذا جاء القرآن حريصاً على الأمة العالمة فأوجب الكتابة مصداقاً لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يُأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا } 294.

ولذا فالأمة العالمة هي التي تعلم ما يجب وتقدم عليه، وما لا يجب وتمتنع عنه أو تتجنّبهُ أو تُغيّره، ولهذا قال فيهم: (فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) وقال: (وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا) ولأنهم أمة عالمة فهم يحسبون لكل حسابه فيدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولهذا فهم المفلحون مصداقاً لقوله تعالى: { فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } 295، وعليه أتساءل:

هل يمكن أن تنقل موازين الخيرات إن لم يحسب المؤمن ألف حساب لما يقول ويفعل؟

وكذلك قد يتساءل البعض:

من هم المتهيئون لأن يكونوا من المفلحين؟

بطبيعة الحال هم الذين يحسبون ألف حساب لما يقولون ولما يفعلون أي هم الذين يميّزون بين ما يجب ويقدمون على قوله أو فعله، وبين ما لا يجب ويتجنّبون قوله أو فعله، وهؤلاء هم الذين موازينهم بالخيرات ثقلت، ولذا فهم المفلحون بأعمالهم وحساباتهم بعد أن علموا الحقّ الذي من قبله كانوا يجهلون.

---

294 - البقرة 282.

295 - المؤمنون 102.



وعليه فالأمة الأُمِّيَّة (لا تحسب) والأمة العالمة (تحسب) قال تعالى:  
{الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ  
بِحُسْبَانٍ} 296.

إذا لمن عُلِّمَ القرآن؟

عُلِّمَتِ الأُمَّةُ الأُمِّيَّةُ حتى أصبحت به عالمة. وتعليم البيان جاء تبيانا  
ودليلا على أن الأمة التي كانت لا تحسب هي الآن على قمم الأمم التي  
تحسب ببيان واضح كوضوح الشمس والقمر أمام الناظرين والمبصرين الذين  
يميزون بين حركة الشمس وحركة القمر، وكذلك يميزون بين اتجاهات حركة  
كل منهما وسرعتهما وتزامن كسوفهما وخسوفهما على الأرض وأثر ذلك  
على تنوع الفصول الأربعة وما يتميز به كل فصل عن الفصول الأخرى، هذا  
هو الحساب الذي اشتهر بمعرفته العرب بعد الإسلام وعلموه بعد أن علموه  
ونشروه في بقاع المعمورة التي تولته بالبحث والتقصي والتطوير.

قال تعالى: {مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا  
أَخْصَاهَا} 297 الكتاب هو القرآن المنزَّل على محمد وهو يعلم يقينا أنه لا  
يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وهذا لا يتأتى إلا بحساب دقيق لا  
يسمح بمغادرة صغيرة ولا كبيرة إلا عِلِمَ بها، ولأنَّ محمدا هو الرسول الكريم  
صلوات الله وسلامه عليه فهو الذي يَعْلَمُ يقينا كل كبيرة وصغيرة جاء بها  
القرآن، ولذا فهو بطبيعة الحال يعلم علم الحساب الذي يمكنه من المعرفة  
التامة التي ترشد إليها الآيات الكريمة.

وبالعودة إلى قول النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا  
نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ) أقول: إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ يَعُودُ عَلَى الأُمَّةِ الأُمِّيَّةِ أَي يَعُودُ

---

296 - الرحمن 1 . 5.

297 - الكهف 49.

على حالها قبل الرّسالة، وحالها قبل الرّسالة حال من سكن في دائرة الأمية، ومن سكن في تلك الدائرة لا عيب أن يقول كنت هناك، ليقارن حاله وحال الذين تربّطهم به علاقات تلك الدائرة المنغلقة عن الكتابة والحساب مع دائرة العلم والمعرفة الحقّ وهذا هو يقين المؤمن وليس أدل عليه من حديث جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أمام النجاشي ملك الحبشة في الهجرة الأولى، يقول: "أيها الملك كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعاه لتوحيد الله وآلا نشرك به شيئا ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصللة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام... "298، ولذا فدائرة منغلقة عن الكتابة والحساب هل يشك في أنها ليست بأمية؟ ولذلك فالأمية تدل على الجهل بالأمر وعدم معرفته كما يجب، ممّا يستدعي المقارنة بما تمت معرفته وتدبره ولهذا جاء قول الرسول (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) لأجل المقارنة التي تبرز بكل وضوح الفارق الكبير بين إتباع الباطل وإتباع الحقّ، ولذا مع أنّ الكتابة حقّ والحساب حقّ إلا أن الأمة الأمية كانت غافلة لا تلتفت إليهما ولهذا كانت الأمة في ظلمات، فجاء الحقّ ليخرجهم من الظلمات إلى النور مصداقا لقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} 299.

298 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 1، ص 266.

299 - الحديد 9.

إنَّ قوله (لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) يعود على الرّسول الكريم والمعنى ليخرجكم من الأمية التي جعلتكم على الكفر والضلال إلى العلم والإيمان لتعرفوا الكتابة والحساب، ولتتقوا الله فيما تقولون وما تفعلون.

إذا قول الرّسول عليه الصّلاة والسّلام (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) جاء لأجل المقارنة ولمعرفة كيف كان حالهم وكيف أصبح، ولذلك فهو قول يستوجب الحمد والشكر من بعده على الفضل الذي منّهم به الله.

وكلمتي لا (نكتب) ولا (نحسب) تدلان على الغفلة المتعلقة بما يجري من معاملات بين الناس وبين ما سيأتي مرتباً عليها، أي لا يكتبون معاملاتهم لتكون شاهداً عليهم وشاهداً لهم وشاهداً بينهم، ولا يحسبون للعاقبة حساب، فما لا يُكتب تترتب عليه خلافات وصراعات واقتتال وفتن لو كُتِبَ لنجوا منها. وبطبيعة الحال الذين لا يكتبون ولا يحسبون لا يخافون الله، ومن لا يخاف الله أُمي في دائرة النسبية.

ولأنّ أساس البقاء الحقّ هو الكتابة والحساب حُجَّة بين الناس وحجّة عليهم جعل الله من خلقه رُسُلاً كتبة كراماً لا مهمة لهم إلا الكتابة ليكونوا على الناس كتبة شهوداً مصداقاً لقوله تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} 300 والذي يُكتب يُحفظ إلى يوم الحساب قال تعالى: {الْيَوْمَ نُحْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} 301، وقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ إِلَيَّ ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْحَالِيَةِ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي

---

300 - الزخرف 80.

301 - غافر 17.

لَمْ أُوتِ كِتَابِيَهُ وَمَا أَدْرِي مَا حِسَابِيَهُ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهُ  
هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهُ {302}.

وبناءً على ما تقدم قد يسأل سائل:

هل الذي يكتب ويحسب ليس بأمي؟

أقول مرة أخرى:

لا أمية إلا في دائرة النسبية، فأمام العالم اليوم في حالة تنافس علمي وتقني وكل شيء في منافساتها بحسبان، وكل حساب مكتوب في عمليات المنافسة الحرة، ولو كانت الكتابة والحساب مخرجان من دائرة الأمية لكان معظم أمم العالم وشعوبه خارجين عن دائرة الأمية، ولكن وفقاً لقاعدة (الأمية نسبية) أقول حسابات من لم يسلم وجهه لله رب العالمين ولا يؤمن بالرسالة الخاتمة هي حسابات في دائرة الحياة الدنيا التي تمكنهم من الكسب حلاله وحرامه، وهؤلاء هم الأميون الغافلون عن الحساب الذي لو حسبوا له حساباً لجنبهم عن حسابهم على الباطل يوم لا ينفع مال ولا بنون مصداقاً لقوله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ يُدْرَأُونَ فِيهَا الْجُبَّةِ} {303}.

وعن قضية أخرى البعض يتساءل:

. هل ما يكتب بأيدي الناس يعد شاهداً لهم وشاهداً على خروجهم

من دائرة الأمية؟

أقول:

---

302 - الحاقة 18 . 29.

303 - الشعراء 88 . 91.

ليس بالضرورة، فعندما يُكتب الحقّ ولا شيء غيره يعد ما كُتِبَ شاهداً لمن كتبه، وعندما يُكتب الباطل ولا شيء غيره، فلا يعد المكتوب إلا شاهداً على من كتبه، أي شاهداً عليهم لا شاهداً لهم، قال تعالى: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ بِهَا مِنْنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} 304. إذا الذين لهم الويل (مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) هم الأميون لا غيرهم، أي هم الذين لم يحسبون لما سترتب على ما يكتبون بأيديهم وعلى ما يكسبون.

مع أننا كتبنا عن الأمة الأمية إلا أن البعض قد يعيد السؤال:

من هي الأمة الأمية ومن هو الأمي؟

أقول على احتمالين:

الأول: أنّ الأمة الأمية هي الأمة التي لم تنزل عليها رسالة من الله تعالى، وهذا الأمر ينطبق بالتمام على جميع الأمم قبل الرسالة الخاتمة للناس كافة وبما فيهم محمد صلوات الله وسلامه عليه، قال تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 305، وقال تعالى: {زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 306، وقال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ فَصَيَّرْنَا بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} 307.

---

304 - البقرة 79.

305 - البقرة 143.

306 - الأنعام 108.

307 - يونس 47.

الثاني: أنه لا أمة أمية بعد الرسالة الخاتمة ولكن هناك أميون منهم من يقرأ ويكتب ومنهم ما دون ذلك لا يقرأ ولا يكتب. قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} 308، وقال تعالى: {إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} 309، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 310.

وعليه فالأمة الأمية هي الأمة التي لم تُدرك الحالة التي هي عليها من كفرٍ وشركٍ وضلالٍ وجهلٍ بأمور الدارين، وهي التي لم تأخذ بأسباب العلوم وتطوراتها من أجل إصلاح الأرض وإعمارها حتى يتمكن كل فرد من أخذ نصيبه منها دون أن يطمع في نصيب الآخرين أو يُحرم من نصيبه. ولهذا قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} 311 معنى قوله (أُمَّةً وَسَطًا) أمة عدل تقول الحق وتعمل بأفعاله، فلا تظلم أحدا ولا تنحاز إلا لإحقاق الحق، ولهذا قال تعالى: {وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} 312.

فقوله (وَإِذَا حَكَّمْتُمْ) جاءت (إذا) أداة شرطية إي إذ قبلوكم فاتخذكم الناس حكّاما لتحكموا بينهم فلا تميلوا ولا تنحازوا واحكموا بينهم بالعدل، ولهذا كان جواب شرطه قوله تعالى: (أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ).

إذا من هي الأمة التي يمكن أن تحكم بالعدل؟

---

308 - الأنبياء 107.

309 - التكوير 27، 28.

310 - سبأ 28.

311 - البقرة 143.

312 - النساء 58.

بالتأكيد لا أمة تحكم بالعدل غير الأمة الوسط، ولهذا رسول الأمة الوسط هو الرسول الذي لا يميل ولا ينحاز إلا للحق وإحقاقه، ولأنه كذلك كانت رسالته للكافة وكان رسولا خاتما.

ولأنه كذلك فمن يؤمن برسالته الخاتمة ليس له بدُّ إلا أن يكون حكما عدلا، وإذا كان كل من يؤمن برسالته لا شرط له في الحياة الدنيا إلا أن يكون عادلا، إذا كل من يؤمن برسالته هو من الأمة الوسط التي تحقِّ الحق وتدمغ الباطل حتى يزهق. وإذا كان كل واحد من أبناء الأمة التي تدين برسالة الكافة حاكما بالعدل بين الناس إذا بطبيعة الحال لا بد أن يكون شاهدا على الذين حكم بينهم بالحق، مصداقا لقوله تعالى: (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)، ولأن الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام هو الذي نزل عليه دين الحق وبشَّر به وأنذر فهو الشاهد على الشهداء من الناس الذين حكموا بينهم مصداقا لقوله (وَيَكُونُ الرَّسُولَ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) أي يكون الرسول شهيدا على المبشِّر والمبشَّر.

وعليه قد يتساءل البعض:

هل الأمة الأمية هي أمة الوسط؟

أقول: لا.

ومع ذلك قد يتساءل البعض الآخر لم لا؟

أقول: الأمة الأمية هي الأمة العربيّة قبل الرّسالة.

أمّا أمة الوسط فهي (أمة محمد) عليه الصلاة والسلام دما وانتماءً ودينيا.

ولذلك فامة الوسط هي (أمة المركز) التي لا تدور العجلة إلا بها أي لا تصلح الأرض إلا بها، ولذلك فامة الوسط لا تُفَرِّق بين أحد من رسله،

ولا تُكره أحدا على الدين، وتُصلح الأرض ولا تُفسد فيها ولا تسفك دما  
بغير حقّ، ولأنها أمة المركز الوسط فهي حاملة الأطراف على إحقاق الحقّ،  
ولهذا في الميزان العدل لا يكون الأمر بينها إلا شورى.

وبناء على ما تقدم لسائل قد يسأل:

هل ما كُتب في هذه الصفحات عن الأمة الوسط (الأمة المركز) هو  
على قيد الحياة يُفعل؟

أقول:

نعم إنّه على قيد الحياة، ولكن يا ليتّه يُفعل. والذي يُطمئن أصحاب  
القلوب هو اليقين بأن ما جاء به محمّد هو الحقّ والحقّ طال الزمن أو قصر  
لا بدّ أن يُحقّق والله دائما مع الصابرين مصداقا لقوله تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا  
يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ  
فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ  
يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ} 313.

إذا من هو النبي الأمي؟

الإجابة على أربعة احتمالات:

الاحتمال الأول: محمّد قبل الرّسالة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ  
تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ} 314.

الاحتمال الثاني: الرّسول النبي محمّد عليه الصّلاة والسّلام بعد الرّسالة  
مصداقا لقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم

---

313 - ق 39، 42.

314 - العنكبوت 48.



مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}315. أي أن الله نزل على نبيه محمد آيات الذكر الحكيم التي بها أصبح محمد داريا وعالما بالحق المطلق وفي هذه الحالة لم يعد ذلك الأمي كما هو حال بني قومه، مما أوجب عليه التبشير بالآيات البينات في اللوح المحفوظ وهداية الناس من حوله مصداقا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}316. فقله (أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) للتأكيد على أنه لم يكن من بناء أفكار محمد، ولأنه وحي من عند الله تعالى فهو على غير سابق معرفة به، ولهذا كان محمد ا رسول الله عليه الصلاة والسلام أميا بالنسبة للوحي قبل أن يُعَلِّمه له شديد القوى، وقوله: (قرآنا عربيا) نزل بلغة العرب لما فيها من الوضوح والبلاغة والجمال في إظهار العبر والقصص والحكم التي تمد العقل بالاستقراء والاستنباط الممكّن من التفكّر والتدكّر والتدبُّر.

وقوله (لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى) لَتُبَلِّغَهُمْ به، وأم القرى (مكة) مكان قبلة المسلمين الذين أسلموا وجوههم لله رب العالمين، (وَمَنْ حَوْلَهَا) المحيط الذي جعل الله له الكعبة قبلة ومركزا يتجهون إليه وهم موحدون غير مشركين، ولذا جعل الله تعالى الكعبة مركزا لما تحاط به من معمورة وقبلة لكافة سكان المعمورة أي (للناس على الأرض كافة).

وبما أنّ القرآن موحى لمحمد وحيًا، إذن لا شك في أنه كان أميًا بالنسبة له (بالنسبة للقرآن)، أي لا يعلمه أبدا، ولذا فمن بعد وحيه إليه لم يعد أميًا باعتباره أصبح يعلمه ومن يعلم الوحي (القرآن) لا يمكن أن يوصف بالأمي بل هو في دائرة النسبية يوصف بالعالم به.

---

315 - الحديد 9.

316 - الشورى 7.

ولأن محمدًا قد أُعْلِمَ بالرسالة وعَلِمَ بها فأصبح نبيًا ورسولًا يهدي بها  
التي هي أقوم ويجادل بالتي هي أحسن وينذر ويحرض ويبشر ويأمر بالمعروف  
وينهى عن المنكر ويسارع في أفعال الخيرات أمرًا بإصلاح الأرض وعدم  
الإفساد فيها وعدم سفك الدماء بغير حق. رسولًا يأمر بما أمر الله به وينهى  
عما نهى عنه يوصف بالأمي أمر لا يُقبل ولا يقبل التصديق.

الاحتمال الثالث: الرسول الأمي: هو رسول الكافة عالميها وجاهليها  
ومسلميها وكافريها، مصداقًا لقوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ  
بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 317، فقوله: ( وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا  
كَافَّةً لِلنَّاسِ ) تعني: أرسلناك رسولًا لكل الأمم من مشارق الأرض ومغاربها  
ولهذا يكون هذا الاحتمال الثالث أن الأمي هو من يُنسب أميًا، أي هو  
النبي الذي يوحد الأمم على كلمة سواء وهو الذي لا يغالب أمة على أمة  
لعرقٍ أو لنسبٍ بل هو العادل بين الناس ليحكم بينهم بالعدل فيما يختلفون  
فيه. ولذلك جاء وصف محمد رسولًا أميًا مثلما جاء وصف إبراهيم أمة،  
مصداقًا لقوله تعالى: { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَمِمَّنْ يَكُ مِنَ  
الْمُشْرِكِينَ } 318 أي وكان إبراهيم أمة بأسرها وذلك لأنه يحس بحالها ويفرح  
لفرحتها ويتألم لآلامها ويأمل لها الخير وبلوغ المنافع في مرضاة الله، ولهذا  
وُصف بالأمّة على سبيل الإطلاق لا على سبيل التخصيص، أي كان  
إبراهيم كما جاء في تفسير الطبري، "كان إمام هُدَى مطيعًا تُتَّبَعُ سُنَّتُهُ  
وملته" 319، وقوله ( أُمَّةً قَانِتًا ) يعني: "الأمّة: الذي يعلم الخير، والقانت:  
المطيع لله" 320.

---

317 - سبأ 28.

318 - النحل 120.

319 - تفسير الطبري، ج 17، ص 318.

320 - المصدر السابق، ص، 317.

إذا قوله (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) يعني أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لم يكن للخصوص بل هو نبيُّ أمةٍ بكاملها ولهذا مثلما كان محمّد رسولاً للكافة كان من قبله إِبْرَاهِيمَ رسولاً للكافة. وفي الأساس أَنَّ جميع أمم الرّسل هي أمة واحدة مصداقاً لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الرّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } 321.

وعليه فالنبي الأمي هو نبي الأمة في العموم وليس في الخصوص، ولهذا بعث الله محمّد رسولاً ونبياً للناس ولم يخص به المسلمين وبعثه للجن مثلما بعثه للإِنس، مصداقاً لقوله تعالى: { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا } 322 قال: (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ) دون أي استثناء أي أن المستهدفين بالكلم الفصل الذي يفصل بين الحقّ والباطل هم جميع العالمين، وقال تعالى: { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } 323، فقوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) تؤكد هذه الآية الكريمة على أن الرّسول الأمي يقصد به رسولُ النَّاسِ جميعاً وليس من لا يقرأ ولا يكتب كما يظن البعض أو يفسرون، وأيضا فهو لم يكن لأمة خاصة، بل هو رسول الأمة على العموم.

الاحتمال الرابع: الرّسول الأمي هو مستهدف الأميين بالرّسالة: والأميون هم الذين لا يعلمون الرّسالة الخاتمة، وهم على احتمالين:

---

321 - المؤمنون 51، 52.

322 - الفرقان 1.

323 - الأعراف 158.

الأول: الذين لم يسبق أن حُصوا برسالة من عند الله، وهؤلاء هم الأميون على المطلق عربّ وغير عربّ.

الثاني: الذين حُصّوا وسبق إبلاغهم برسالات أو أنباء من عند الله تعالى وهم اليهود والنصارى ومجموعة من الأمم والأقوام والشعوب السابقين، ومع أنّ هؤلاء سبق إبلاغهم أو إنبائهم إلا أنّهم بالنسبة للرسالة الخاتمة هم أميون لا يعرفونها أبداً.

ولذا فالنبي الأمي هو محمد قبل الرسالة الذي في ذلك الوقت لم يصل الله وملائكته عليه فهو كسائر الناس، أمّا محمد بعد الرسالة فهو الذي صلى الله عليه، وأمرنا أن نصلى عليه ونسلم، فالحمد لله إننا من المصلين والمسلمين عليه. {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} 324. وعلينا أن نتميز بين قوله: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ} وبين قوله: {صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}، فالأولى: إن الله وملائكته يصلون على النبي ولا يُسلمون عليه، والثانية: يُصلون عليه ويسلمون تسليماً، ولأن الصلاة على النبي مباركة وهي تقدير له فالله وملائكته يباركون الرسول ويرضون عنه، ولأن التسليم طاعة فالله يُطاع ولا يطيع، ولهذا الذين آمنوا يباركون الرسول ويطيعونه ويسلمون عليه تسليماً، إيماناً وتسليماً بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} 325 ولأن أمر التسليم طاعة وإتباع للرسول، قال الحواريون لعيسى وهم طائعون ومصدقون له كما

---

324 - الأحزاب 56.

325 - النساء 59.

جاء على لسانهم في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ 326.

مفارقات لغوية في المفهوم والمصطلح:

بناء على ما سبق عرضه من معلومات بإمكاننا أن نفرّق بوضوح لا لبس فيه بين الأمية والأمي، وبين الأمية والألمي.

مع أنّ بعض اللغويين يقولون أن الأمية هي دليل إثبات عدم القراءة والكتابة، إلا أننا نقول هذا الحكم من حيث المفهوم لا يصاحبه الإطلاق، ممّا يدخله في دائرة النسبية التي تسمح لنا ولغيرنا بأن يطرح أفكاره وآراؤه التي لها ما يسندها من القرآن الكريم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ 327 فالذين أتوا الكتابة هم اليهود والنصارى وهم من نزلت فيهم التوراة والإنجيل، وهؤلاء هم الذين يعلمون بأمر ما أنزل فيهم، ومع أنّهم يعلمون ما أنزل في كل منهما من توراة وإنجيل إلا أنّهم ليسوا جميعاً يعرفون القراءة والكتابة، ولذا فمنهم من لا يقرأ ولا يكتب، ولذلك في مقابل الذين (أُوتُوا الْكِتَابَ) جاء (وَالْأُمِّيِّينَ)، ولذا فالذين أتوا الكتاب يعلمون ما جاءهم فيه، والذين لم يأتمم كتاب لا يعلمون شيئاً عما لم يأتمم، ولهذا فهم أميون وسيظلون كذلك إلى أن يأتيهم الكتاب، ولأنّ أمر الأمية لا يقتصر كما يظن البعض على عدم معرفة القراءة والكتابة فإن العرب الذين وصفوا من قبل البعض بالأميين على الإطلاق هم في حقيقة الأمر أميون بالنسبة للتوراة والإنجيل، ولكنهم ليسوا أميين بالمطلق حيث منهم من كان يقرأ ويكتب قبل نزول الرسالة الخاتمة، "فنحن طبعاً نقرأ في كتب السيرة أن النبي عليه الصلّاة والسّلام قد استعان بعدد من كتّاب

---

326 - آل عمران 53.

327 - آل عمران 20.

الوحي لتدوين القرآن الكريم فور نزوله، أيضا نقرأ أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قد أسلم بعد أن قرأ جزء من سورة طه، وكذلك نقرأ أن مشركي مكة قبل الهجرة قد كتبوا صحيفة مقاطعة للمسلمين ووضعوها في الكعبة، كان في أسرى معركة بدر أيضا من الكفار من أراد افتداء نفسه أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة، وفي التاريخ نقرأ عن المعلقات السبعة وهي قصائد عُرف عنها أنها كانت تُكتب على صحائف وتعلّق في الأسواق والمنتديات العربيّة قبل الإسلام، وغير هذا ممّا يدل على أنّ العرب كان علم القراءة والكتابة معروف لديهم"328. وتشير الكثير من أشعارهم في الجاهلية إلى هذه المعرفة، فقد عرفوا أدوات الكتابة كالقلم، ويشير إليه الشاعر لبيد:

"وجلا السيول عن الطلول كأنها... زبرٌ تخطُّ متوتِّها أقالمها

وقال امرؤ القيس:

لِمَنْ طَلَلٌ أَبصرته فشجاني... كخطِّ زبورٍ في عسيبٍ يمانى

وقال حاتم الطائي:

أتعرفُ أطلالا ونؤيا مهدّما... كخطِّك في رقِّ كتابا منمنما

وقال الهذلي:

عرفتَ الديار كرسم الكتا... ب يزيه الكاتبُ الحميري"329

فالعرب عرفوا القراءة والكتابة لكنهم أميون بالكتاب السماوي، وهو قول الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: (وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

---

328 - المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام، ج 7، ص 3.

329 - النص الغائب، ج 1، ص 129

وَالْأُمِّيِّينَ) "أهل الكتاب يعني اليهود والنصارى والأميين الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب" 330، ولذا يكون الاتفاق مع ما قصد إليه الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية وفقا لما أوردناه تحليلا وتفسيرا واقتباسا.

الأمية: هي لا معرفة بالشيء المشار إليه معرفة، ولذلك تتساوى الأمية كونها شيئا مع المعرفة كونها شيئا آخر، ولكن كل منهما يختلف عن الآخر، فالأمية شيء معروف ولا علم توحيد فيه، والمعرفة شيء معروف ولا أمية فيه، ولذا فكل منهما حقيقة معلومة في دائرة الوجود إلا أنّ الأمية معلومة بانعدام العلم اليقين، والمعرفة معلومة بالعلم اليقين، ولذا فكل منهما حقيقة ماثلة أمام الآخرين، وهؤلاء الآخرون هم الذين أمام كل منهما اعتقاد أنه المستهدف من الآخر، وذلك لعلم العالمين بأضرار الأمية على القيم والفضائل الإنسانية التي يرتضيها الخالق في دائرة الإيمان، وعلم الأميين بأخطار رسالات العالمين على ما يفعلون في دائرة الأمية المتمركزة على الكفر والشرك لا الإيمان.

وعليه فالأمي هو المنسوب إلى دائرة انعدام المعرفة الإيمانية (معرفة التوحيد) التي سبق الإعلام أو العلم بها، والعالم هو العارف أو المدرك قبل غيره بما تم الإبلاغ به من معرفة إيمانية (معرفة التوحيد).

وعليه أتساءل:

هل العالم بعلم التوحيد هو كما العالم بعلم غيره؟

أقول: العالم بمعرفة التوحيد، غير العالم بمعرفة العلم الحديث في الطب والرياضيات والحاسوب وتقنية المعلومات وغيرها كثير، فالعالم الأول يقابله الأمي، والعالم الثاني يقابله الجاهل، أي أن الأول علمه في دائرة الكمال،

مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} 331 وقوله: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} 332، وقوله تعالى: {وَمَا مِنْ غَائِيَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} 333 أمّا الثاني فعلمه في دائرة النقص مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} 334. ولذلك فما يعلمه العالم بعلم الكتاب لا يساويه ما يعلمه آخر وهو لا يعلم بعلم الكتاب، قال تعالى: {أَبَلِعْتُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 335، وقال تعالى: {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 336، وقال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} 337، وعليه فعلم التوحيد تنزيلي من الخالق تعالى، والعلم من غيره علم مخلوق، ولذا لا مجال للمقارنة بين العلم الكامل والعلم المنقوص.

ومن المفارقات اللغوية في المفهوم والمصطلح أقول: هناك علاقة قوية أخرى تظهر بين مفهوم ومصطلح الأم، والأمة، والأمة.

---

331 - الأنعام 38.

332 - هود 6.

333 - النمل 75.

334 - الإسراء 85.

335 - الأعراف 62.

336 - يوسف 86.

337 - الروم 55، 56.



أمّا: كلمة نكرة تدل على كل أم، وهي الأصل الذي يحوي ما يُحمل ويُحجب عن الآخرين مشاهدة مباشرة، وهو كذلك عنه يُحجب ما يتعلق بهم من أمر، ولذا فهذا الحمل لا يعلم شيئاً وهو محاط بقوة حامله.

والأمة هي المظلة التي يستظل تحتها من هم من صلبها أو من هم في حالة انتماء إليها، فكما أنّ الأم مظلة وذات خصائص بحملها كذلك فالأمة مظلة اجتماعية تطبع أفرادها وجماعاتها بخصائصها.

ولأنّ للغة جذور واشتقاقات واصطلاحات ومفاهيم فما يستخدم في زمنٍ معين ومكان معين قد لا يستخدم كما هو في زمنٍ أو مكان آخر وهو من مظاهر تطور دلالة اللفظة، ولذا جاءت كلمة (أمة) على عدة أوجه ومعان منها:

أ . جاءت على معنى (الجماعة الصغيرة) كما في قوله تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْتَأْذِنُونَ} 338.

ب . جاءت على معنى (فترة زمنية) مصداقاً لقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ} 339.

ج . جاءت بمعنى (المفرد) مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ} 340 ولذلك ورد في تفسير الطبري للأمة، هو: "الذي يُعلّم الناس الخير" 341.

---

338 - القصص 23.

339 - يوسف 45.

340 - النحل 120.

341 - تفسير الطبري، ج 17، ص 316.

د . جاءت على معنى (القوم الذين هم على أصل وانتماء) مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} 342.

هـ . جاءت على معنى (دين وملة) مصداقا لقوله تعالى: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ} 343.

و . جاءت على معنى (شمول الناس) قال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 344.

ع . جاءت على معنى أمة (لأي دابة وأي طير) قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّةٌ أُمَّتُكُمْ} 345.

غ . جاءت على معنى (أمم الجن والإنس) قال تعالى: {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ} 346.

ف . جاءت على معنى (عموم الخلق) كما في قوله تعالى: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} 347، وقال تعالى: {قِيلَ يَا نُوحُ

---

342 - فاطر 24.

343 - الزخرف 22.

344 - البقرة 213.

345 - الأنعام 38.

346 - الأعراف 38.

347 - الأعراف 181.

اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ {348} الله خلق النَّاسَ أمةً ثم كانت منهم الأمم وكان الجن أمة والطير أمة والنحل أمة والنمل أمة والجماعة الصغيرة أمة ولذلك وردت في الآيات السابقة كلمة (أمة وأمم) لتفسح مجال الاجتهاد في دائرة العلم والمنطق وإظهار الحق من الباطل.

وبناء على ما تقدم فمن هو الأمي؟

أقول: في الحياة الدنيا كل شيء في دائرة النسبية، فأمية الزمن تلتصق بمن ينسب إليها (وَأَدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ)، وأمّية الجماعة الصغيرة تلتصق بمن ينسب إليها، وكذلك صفة الأمة العالمة تلتصق بمن ينتسب إليها، وهكذا ينسب الأمي لأمته التي هو منها سواء أكان من الجن أم الأنس أم الطير أم النحل أم النمل فله في خلقه شؤون.

وعودٍ على بدء أقول أنّ علاقةً قويةً تربط الأمي بالأمية والأممية، ولهذا كان محمد عليه الصلّاة والسّلام أمياً على حُجج سبع:

الحجّة الأولى: أنّه أمي من حيث أنه لم يكن من أهل الكتاب، ولم يكن يعلم بأمر الرّسالة الخاتمة قراءة وكتابة، بل علّم بها وحيا يُوحى، مصداقاً لقوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ} {349}.

الحجّة الثانية: أنّه أمي من حيث نسبه للأمة التي لم يسبق لها أن اهتدت كما اهتدى أهل الكتاب من قبلها، وبقيت على حالة من الجاهلية التي لا تفرق فيها بين حلال وحرام.

---

348 - هود 48.

349 - النجم 4 . 11.

الحجة الثالثة: أنه أُمِّي لانتسابه إلى الكافة، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 350.

الحجة الرابعة: أنه أُمِّي لتجاوزه رسولا ونبيًا لأمم الإنس، إنه المبعوث للثقلين وبذلك فهو النبي المتجاوز انتماء لحدود الأمة الواحدة.، قال تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} 351، وقال تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} 352.

الحجة الخامسة: أنه النبي (الأمة) الذي يعود إلى آل إبراهيم (الأمة)، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} 353، أي كما أن إبراهيم أمة وجعل الله النبوة في ذريته مصداقا لقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} 354 كذلك كان محمد (أمة) من حيث كونه نبيا للعالمين، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} 355، وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 356،

---

350 - سبأ 28.

351 - الأحقاف 29 . 31.

352 - الذاريات 55، 56.

353 - النحل 120.

354 - العنكبوت 27.

355 - الأنبياء 107.

356 - سبأ 27.

ولأن الله جعل النبوة في ذرية إبراهيم فأبراهيم هو أبو الأنبياء ومحمد هو خاتم ذريته وخاتم أنبياء الأمة التي كان عليها إبراهيم صلى الله عليهم وسلم وهو الذي به اكتملت رسالتها، ولذا فهو أمة.

الحجة السادسة: أنه رسول وني للأمة، أي الذي (استهدف الأميين برسالته ودعوته)، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} 357 إنه المبعوث للأميين الذين ينتمي إليهم، ويعني بالأمة الأمية "الأمة التي ليس فيها كتاب يقرؤونه، فبعث الله نبيه محمدا رحمة وهدى يهديهم به. وسميت أمة محمد عليه الصلاة والسلام الأميين، لأنه لم ينزل عليهم كتابا؛ وقال جل ثناؤه (رَسُولًا مِنْهُمْ) يعني من الأميين" 358. وهذا لا يعني أنه غير مبعوث لغيرهم، فهو بدون شك أمة ومن أمة أمية لكنه مبعوث لهم ولغيرهم من الأمم الأخرى بما فيهم أهل الكتاب، مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرَّسْلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 359.

الحجة السابعة: أنه أمة حيث (لا أمة أمية من بعده)، فهو آخر رسول وني من آخر أمة أمية، ولهذا فقد اكتسب الصفة التي لن تتكرر على أمة بأسرها كما كان حال أمته صلى الله عليه وسلم، مع العلم إن صفة الأمية ستتكرر مع أفراد آخرين إذا ما أصروا على الكفر والشرك والضلال،

---

357 - الجمعة 2.

358 - تفسير الطبري، ج 23، ص 372.

359 - المائدة 19.

قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} 360.

وقد يتساءل أحد:

كيف يكون محمد للكافة، ورسالته للكافة، وهو رسول من الأميين؟

أقول: ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى: إنه رسول الكافة، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} 361، وقال: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} 362.

الحقيقة الثانية: إن رسالته للكافة، قال تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} 363، وقال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنْ حَاجُوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} 364، وقال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ} 365.

---

360 - فاطر 24.

361 - الأنبياء 107.

362 - سبأ 28.

363 - آل عمران 85.

364 - آل عمران 19، 20.

365 - المائدة 3.

الحقيقة الثالثة: إنه من الأمة الأمية التي لم يسبق لها علم الكتاب، قال تعالى: {وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} 366 ولأنَّ محمداً كان أمياً فهو لم يسبق له أن تلي كتاباً ولا خطه بيمينه، ولهذا فحاله في الأمية لا يختلف عن حال أمته التي هو منها، (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ)، ورسولاً منهم تعني أن حاله كحالهم لا فرق حيث كل منهم أمي بهذا المعنى، ولهذا لا أحد منهم يتلو كتاباً من الكتب السابقة (التوراة والإنجيل) ولا يخطه بيمينه.

وعليه: فالأمية لا تقتصر على الذين لم يسبق لهم أن تلوا الكتاب وخطوه بأيديهم، بل تحتوي حتى أولئك الذين تلوا وخطوا، وذلك لأمتهم بآيات الكتاب الحكيم الذي يعلمون بأنه سينزل على نبي ليس منهم وأسمه أحمد، أي رسول من الأميين في الزمن الذي هم لا يعدون فيه من الأميين. قال تعالى: {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا} 367 يقول الله تعالى لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم: يا محمد قل لأهل الكتاب من الملمين وكذلك المشركين (الأميين) هل أسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا إلى الحق وأصبحوا من المؤمنين الذين يدينون بالرسالة الخاتمة للأمة الكافة، وإن فعلوا فلن يكونوا من الأميين الذين هم غافلون وضالون ومشركون.

## 6. مُعَلِّمٌ:

المعلم هو من يتولى تعليمه آخر (من يكون هذا الآخر) أمّا الذي علّم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فهو لم يكن آخر، بل هو (الآخر) ولذا فالفرق كبير بين تعليم (آخر أي آخر) وبين تعليم (الآخر) فتعليم أي

---

366 - العنكبوت 48.

367 - آل عمران 20.

آخر قد يكون تعليماً بما يفيد وينفع وقد يكون تعليماً بما يضل ويُفسد  
مكارم الأخلاق، أمّا تعليم (الآخر) فهو التعليم الحقّ، إنه التعليم الفضائلي  
الذي منه المنافع والفوائد تُستمد وبه الباطل يُدمغ ويُزهق.

ولأنّ الله عزّ وجلّ هو الذي تولى محمّد صلّى الله عليه والسلام  
بالرعاية والعناية فقد تولاه رسولا بالتعلّم فعلمه القراءة بعد إن كان غير  
قارئ، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ  
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} 368.

تُعتبر هذه السورة الكريمة أول سورة أنزلت على سيدنا محمّد صلّى الله  
عليه وسلّم، ولذا تُعد هذه السورة هي الدليل الإثباتي على أن محمّداً كان  
من قبلها أمياً، وهي الدليل الإثباتي بأن محمّداً من بعدها أصبح نبياً ورسولاً  
علماً بما علّمه الله تعالى به.

فقد اصطفاه الله تعالى في أميّته ليكون نبياً رسولاً، ثمّ علّمه وبعثه نبياً  
رسولاً، فقال له: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) فقرأ باسمه تعالى ما قرأ أمراً،  
فأصبح من القارئين العالمين بما علّمه تعالى به من نبأ وحكمة ورسالة خالدة.

وقوله: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) أمر  
عظيم، وكأنه يقول له لا تستغرب أن أقول لك اقرأ وأنت لست بقارئ، فإن  
استغربت هذا الأمر، فهناك ما هو أعظم منه، ألا وهو أمر الخلق، فأمر  
أصعب: أن يُخلق الإنسان من لا شيء، أم أن يعلم بعد أن أصبح شيئاً؟

ومع ذلك فأمر القراءة لم يكن شورياً، بل أنّه المنفذ بالقوّة (كن)  
فكان محمّد رسولا قارئاً وكتاباً، مصداقاً لقوله تعالى: (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ  
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)، هذه الآية الكريمة تحمل في



مضمونها أنّ قراءة محمّد التي علّمه الله إياها تُمكّنه من قراءة المكتوب أو ما يُكتب، وهي تنص على أنّ ما علّمه الله لمحمّد من قراءة هي قراءة ما يُكتب (عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) أي بالقلم (حروفا تُكتب) لقد علّم الله تعالى محمّد (الإنسان) ما لم يكن يعلمه من قبل (عندما كان محمّد أميًا).

هكذا بدأت رسالة محمّد بالأمر (كن) قراءة وكتابة، وتأكيدا على هذا المبدأ نزل قوله تعالى: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} 369، هاتان الآيتان موجّهتان لمحمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، الذي أصبح يعلم لغة القلم التي بها علّمه الله تعالى، فجاءت (ن) حرفا مستقلا يحمل سرا لا يعلمه يقينا إلا الله تعالى ومحمّد الذي أنزل الله عليه الوحي وعلّمه قراءة ما يُكتب، فنحن من بعد محمّد لا نعلم يقينا ماذا تعني (ن) فاتحة الآية الكريمة السابقة لا نعلمها إلا حرفا من الحروف التي يكتبها القلم.

ولأنّ حروف فواتح بعض السور القرآنية نزلت حروفا، فهذا الأمر فيه الإعجاز الذي لا يعلمه إلا من علّمه الله تعالى مباشرة، وهذا العلم لا يزال مجهولا وفي اعتقادنا سيظل في علمه لا يعلمه إلا من كُلف به رسالة كاملة للناس كافة، وهنا تكمن الحقيقة التي مفادها أن محمّدا لقد مات وهو عالم بما لن يعلم أحد ممّا علّمه الله به من بعده، أي أن محمّدا قد علّم الناس ما يشاء الله أن يتعلموه من القرآن الكريم، وما لا يشاء بقي آيات إعجازية تدل على أنّ القرآن معجزة باقية، أسرارها المطلقة لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى.

ولأنّ محمّدا عليه الصّلاة والسّلام أصبح عالما بما علّمه الله عزّ وجلّ به، فكان بالكتاب الذي أنزله الله عليه خير مُخرج للناس من الظلمات إلى

النور مصداقا لقوله تعالى: {الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} 370.

جاءت الأحرف (الر) لإظهار ما يعلمه محمد تفصيلا، وإثبات قصورنا عن فهمه يقينا مع تسليمنا المطلق بأنه من إعجاز القرآن الكريم، ثم جاء (الكتاب) الذي يعلمه محمد حروفا وكلمات وجمل تامة ومضمونا تاما، أي أنه النبي الرسول الذي يعلم من ربه ما لم نعلم، ولأنه كذلك فكيف لا يتصف بأنه معلّم؟

ولأنه المعلّم فكان تاليا للقرآن تلاوة كما دعا بها الله تعالى الذي استجاب لدعوة الداعيين (سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل) عليهما الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 371، ترشد هذه الآية الكريمة إلى أنّ بعثة سيدنا محمد عندما يحين وقتها ستخرجه من الأمية (المقصورة على عدم القراءة والكتابة) إلى تعلّم القراءة والكتابة، ولهذا كان محمد أول من تلا آيات الكتاب الحكيم وأول من علّم الكتاب للآخرين من بعده ثم بعث المتعلمين مُرسلين لهداية الشعوب وأهل المدن والقرى إلى رسالة الكافة.

ولأنّ محمد عليه الصلاة والسلام مُعلّم بتلاوة الآيات الكريمة فهو الذي بُعث ليتلو صحفا مطهّرة من الباطل، فالذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين هم على ضلالهم لا يثين إلى أن بُعث رسول الله بالبينّة التي تفكهم عن الكفر والشرك وتدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار، قال تعالى: {لَمْ

---

370 - إبراهيم 1.

371 - البقرة 129.

يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ  
رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ {372}.

ولأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد علَّم محمد رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال  
في كتابه الحكيم: {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ  
عَظِيمًا} {373}.

بناء على ما تقدم القرآن الكريم يُثبت أن محمداً عليه الصلوة والسلام  
قد تمَّ تعليمه من الله تعالى بما لم يكن يعلم، أي بعد أن كان محمداً يجهل بما  
يجعل أصبح يعلم بما علَّم وأعلم مصداقاً لقوله تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا  
ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ  
شَدِيدُ الْقُوَىٰ} {374}.

## 7. مُعَلِّمٌ:

المعلِّم هو من يُعلِّم الآخرين بما علَّم به، فمحمداً صَلَّى اللهُ عليه  
والسلام بعد أن علَّمه الله أصبح عالماً متعلماً ومكلفاً وقادراً على أن يعلم  
الآخرين ممَّا علَّمه الله تعالى، قال تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ  
يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا  
تَعْلَمُونَ} {375}، تحتوي هذه الآية الكريمة على الآتي:

. أن الرسول محمد عليه الصلوة والسلام رسولا من الأميين (منكم).

---

372 - البينة 1 . 3.

373 - النساء 113.

374 - النجم 1 . 5.

375 - البقرة 151.

. الرّسول محمّد بعد أن علّمه الله تعالى أصبح قادرا على تلاوة آيات  
الذكر الحكيم.

. أنّ الرّسول الكريم محمّد عليه الصّلاة والسّلام قادر على تزكية الأميين  
وتطهيرهم ممّا كانوا فيه من جهل وظلمة.

. إنّ رسول الله محمّد عليه الصّلاة والسّلام قادر على تعليم الأميين  
الكتاب.

. إنّ الرّسول الكريم محمّد صلّى الله عليه والسلام قادر على تعليم  
الأميين الحكمة (يعلمهم مكان الأسرار) بما يسنّه لهم من سنة بها يترسّخ  
الإيمان في قلوبهم.

. أنّ الرّسول محمّدا صلّى الله عليه والسلام قادر على أن يعلم من تعلّم  
منهم ما لم يكن يعلم، أي يعلمه الجديد المفيد والنافع الذي لا سابق له  
بعلمه.

. ولأنّه المعلّم فقد علّم المسلمين ممّا علّمه الله من علمه الواسع فقد  
علّمهم ممّا علّمهم به الآتي:

. علّمهم الكتاب.

. علّمهم الحكمة.

. علّمهم تلاوة آيات الذكر الحكيم.

. علّمهم كيف يرفعون الأذان عند مواقيت الصلاة.

. علّمهم كيف يقيمون الصلاة عند إقامتها وكيف يصلون.

. علّمهم كيف يركعون وكيف يسجدون عند كلّ صلاة.

. علّمهم الزكاة، وكيف يخرجونها، وعن ماذا يخرجونها، وزمن إخراجها.  
. علّمهم الحج، وكيف يُحرمون، وكيف يطوفون، وكيف يسعون، وكيف يقفون بعرفات، وكيف يرجمون، وكيف يفدون، وعما يفدون، وبماذا يفدون.  
. علّمهم الجهاد، ومتى يجاهدون، وبماذا يجاهدون، وعلّمهم تفضيلات كل جهاد، وعمّاذا يجاهدون، وفيمن يجاهدون.  
. علّمهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.  
. علّمهم إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل.  
. علّم الشورى وكيفيتها.  
. علّمهم الهداية وكيف يهدون الآخرين، وفقا لقاعدة (لا إكراه في الدين).

وعليه فإنّ تعليم محمّد للآخرين هو ممّا علّمه الله وأعلمه وحيا، أما تعليمه هو فهو تعليم مباشر من عند الله عزّ وجلّ عن طريق وحي موحى، وهكذا يكون الفرق كبير بين من علّمه رسول الله عليه الصّلاة والسّلام مباشرة، وبين من علّمه مجتهد من المجتهدين الأكارم.

إذا من هو الذي يستطيع أن يُخرج النّاس من الظلمات إلى النّور؟  
هو علّام الغيوب الله العليم بقوته وقدرته وأمره (كن) ثم من علّمه من علمه الواسع (الرّسول الكريم) الذي أذن له الله بذلك مصداقا لقوله تعالى:  
{هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} 376.

إذا الذي عُلِّم كيف يُخرج النَّاس من الظلمات إلى النُّور قادر على أن يُعَلِّم الماكثين فيها كيف يخرجون منها، ويُعرِّفهم الشيء الذي به يتمكنون من الخروج من الظلمات إلى النُّور (من الجهل إلى العلم ومن الكفر إلى الإيمان).

## 8 . رَاكِعَا لِلَّهِ:

الرَّكُوع علامة حركية يُثْنَى بِهَا الظَّهْر على حالة من التساوي تُعَبِّر عن الخضوع وطاعة العبد التامة لله تعالى، وهذه من مميزات المصلين الذين أسلموا وجوههم لله ربِّ العالمين ولا يؤمنون بالرَّكُوع لغيره، ولذا فإن ركوع المسلمين يدل على شيئين هما:

الأوَّل: الرَّكُوع لله تعالى طاعة وعن إرادة حرَّة.

الثاني: رفض الركوع لغير الله عزَّ وجلَّ.

ولهذا فإن رسول الله عليه الصَّلَاة والسَّلَام والذين آمنوا معه لا يركعون إلا لله وهكذا كل الأنبياء والرُّسُل والصديقين والصالحين هم لله ركعًا، قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا} 377، وقوله تعالى: (تَرَاهُمْ رُكَّعًا) تدل على رؤية المشاهد للركوع من خلال رؤيته للركع الطائعين.

إذا الركوع لا يدل على كل من هو ثانٍ لظهره، بل يدل فقط على من يصلي لله ربِّ العالمين ولا يُشْرِك به أحداً، مصداقاً لقوله تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ {378، ولهذا فقد اتصف رسول الله عليه الصلاة والسلام بأنه الراكع لله تعالى.

## 9. ساجدا لله:

صفة أخرى تميّز محمد عليه الصلاة والسلام وأتباعه بأنهم الساجدين لله تعالى، والسجود سلوك يضبط حركة المصلين الذين أسلموا وجوههم لله رب العالمين، وهو ما يأتي بعد الركوع لله في كل صلاة، وهو أيضا ما يحدث طاعة للأمر عند قراءة القرآن في موجبات السجود لله طاعة مصداقا لقوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا {379.

إذا كما جاء الركوع مدللا على الإيمان بطاعة الله واحدا أحدا، كذلك جاء السجود طاعة لله واحدا أحدا، وهكذا المؤمنون هم الطائعون لأمر السجود عبادة، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ {380، يفهم من هذه الآية الكريمة أنّ أمر الطاعة أمر وجوبي، لا يتطلب التأخير، ولا يتطلب معصية واستكبارا كما استكبر إبليس فكان من الكافرين، أي أنّ السجود لله يعني عدم الاعتراف بالسجود لغيره، ولهذا يُعد السجود لله عبادة وطاعة تامة له دون سواه؛ فمن آمن بذلك سلّم أمره إلى من بيده الأمر المطلق، أمر

---

378 - البقرة 125.

379 - الفتح 29.

380 - البقرة 34.

كل من خلق وما خلق، ومن يفعل ذلك يتصف بأنه من الساجدين، كما اتصف رسول الله بذلك صلى الله عليه وسلم.

## 10 . محرض :

المحرّض الحقّ هو المميّز بأهمية ما يحرض من أجله فيُتبع، أمّا المحرّض الباطل فلا يحرض إلا على باطل ولهذا لا يُتبع من قبل المصلحين، ولا يمكن أن يكون للتحريض شأنًا ما لم يكن المحرض مشاركًا في الفعل الذي يُحرّض من أجله، ولهذا اتصف الرسول الكريم بالمحرّض لأنه شارك في تحقيق الأفعال التي تُحقّق الحقّ وتدمغ الباطل فترهقه.

وفي القتال يكون التحريض هو حثّ الناس أفرادًا أو جماعات على الإقدام دفاعًا أو هجومًا من أجل مغالبة الخوف أو قطعه من الأنفس، فعندما تشبّ الحروب والمقاتلة بين الطوائف أو الجيوش أو الشعوب فقد يكون من بينهم غير مباليين أو مترددين أو خائفين ولأجل النصر يتم التحريض فيكون للقول فعله في شدّ الهمم، فيصبح في نفس الإنسان أحد الأمرين النصر، أو الاستشهاد، ولذلك فقد شرّع الله لنبيه محمد عليه الصلّاة والسّلام التحريض عند مقاتلة المعتدين من الكافرين والمشركين فكان خير محرض على إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ } 381.

ولأنّ للتحريض فعلته في إقناع الأنفس فكان التحريض حقّ لإحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، ولذلك يكون التحريض على درجة من الأهمية أثناء اشتعال نار الحرب وقبل اشتعالها، قال تعالى: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُّوا لِلَّهِ وَعَدُّوْكُمْ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا



تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ {382، فقلوه: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) قول تحريضي يهيب النفس إلى إعداد العدة قبل اشتعال نار الحرب، فعندما يمتلك الناس عدة الحرب يخشاهم عدوهم دون شك، أو من له مطامع اتجاههم واتجاه ما يمتلكون.

ونتيجة لتحريض الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام للمسلمين فتح المسلمون مشارق الأرض ومغاربها بالحق وهم قوة معدة بعقيدة متينة وبقين راسخ نصرًا أو استشهادًا.

التحريض لا يقتصر على أعمال المقاتلة بل في أولوياته الموضوعية أن يكون التحريض على قول الحق وفعل الحق والعمل الحق والسلوك الحق، قال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {383، وقوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ {384.

فالتحريض بالنسبة للمستخلفين الوارثين هو حثُّ على الأعمال الحسان، أما غيرهم فيمكن أن يحرضوا على ما ليس بالأفعال الحسان، ولهذا فالأعمال دائما بالنيات ولكل إنسان ما نوى مصداقا لقوله تعالى: {وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِعَافٍ لِمَا يَعْْمَلُونَ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمِ آخَرِينَ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ

---

382 - الأنفال 60.

383 - التوبة 105.

384 - هود 93.

مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ  
الظَّالِمُونَ {385}. وقال تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ  
وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ  
تَنْكِيلًا مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً  
سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا {386}.

إذا التحريض في قاموس المستخلفين في الأرض هو على كل فعل من  
أفعال الخير والأعمال الحسان، كالتحريض على الجهاد في سبيل الله، وطاعة  
الوالدين في غير معصية الله، وأداء الصلاة وإيتاء الزكاة، وهكذا يكون  
التحريض ضرورة لأجل الإخلاص في العمل الذي هو مثل الإخلاص في  
أداء العبادات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإقدام على كل ما من  
شأنه أن يحقق فوزا للحق وهزيمة للباطل، وكل عملٍ يحول بين سيئة وفاعلها.

## 11 . مجاهد:

الجهاد عبادة من أجل الدفاع عن النفس والدين والعرض والكرامة  
والوطن، ولأنه عبادة، فكل المستخلفون معنيون به، فعندما يحين وقته يتم  
التنادي بينهم ويجتمعون كصف واحد في مواجهة الأعداء، إنه ليس جيشا  
مجبرا على القتال، بل شعب واحد دون إجبار من أحد إلا من الضمير  
المؤمن بأهمية الجهاد في ممارسة العبادة.

وإذا نظرنا اليوم إلى خريطة العالم، نلاحظ أن الدين الإسلامي منتشر  
في آسيا، وأفريقيا، وأوروبا، والأمريكتين، وأستراليا، فأبي فؤة نشرته إذن؟

هل دخل العرب المسلمون بقوتهم العسكرية الجرارة إلى هذه القارات  
الخمس؟ لقد انتشر الدين الإسلامي بإحفاق الحق وإزهاق الباطل أي بفؤة

385 - الأنعام 132 - 135.

386 - النساء 84، 85.

العقيدة (فوة الحجّة) عند المبشرين بها وبقوته الفكرية والروحية بالدعوة والتبشير لا بالقوة العسكرية، فكل ما ينتشر بالقوة العسكرية يزول بزوالها مثله مثل الاستعمار. والجهاد هو نتيجة الإيمان بصدق الرسالة التي توّجّد العقيدة مع السلوك عندما تتجسد في النفس. أما الحرب فهي التي يدخلها المقاتل كرها لأنها تهديد للوجود ولا مفر من ذلك إلا أن تخاض دفاعاً عن النفس البريئة.

الجهاد أمر يخصّ كل من يحرص على معتقده ومصيره ممّا جعل الرسول عليه الصلّاة والسّلام يستشير المسلمين في أمرهم، وكان يأخذ برأيهم حول كل أمر في السلم أو في الحرب. فعندما سمع الرسول عليه الصلّاة والسّلام أنّ كفرة قريش كانوا يستعدون لمحاربة رسالته والمؤمنين بها، قبل غزوة بدر، جمع النّاس وأخبرهم بالأمر، فكان من بين المتكلمين أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب والمقداد بن عمرو الذي قال: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، ممّا جعل المسلمون يقررون قتال الأعداء الذين يعدون لهم العدة لمقاتلتهم.

وللجهاد مبررات موضوعية منها:

أ - أي اعتداء من العدو على الأمة أو الوطن يستوجب الدفاع على كل مواطن ومواطنة، مصداقاً لقوله تعالى: {فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَانفُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} 387.

ب - الدفاع عن الدين واجب لا خيار عنه والقتال من أجله جهاد والموت في سبيله استشهاد، {فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ

وَالْوَالِدَانَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا {388}.

ج - نقض العهد: في حالة توقيع اتفاق صلح أو عهد أمان بين الأمة وغيرها من الأمم الأخرى، ثم تنقض الأمم الأخرى عهدها مع الأمة بالخداع أو النفاق، يحقّ عليهم القول وهو إعلان الحرب مصداقا لقول الجامع: {وَإِنْ نَكُنُوا أَيَّمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ يُبَاخِرُ الرِّسُولَ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْتُمْ خَشِيتُوهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {389}.

د . إذا حاول الأعداء إشعال نار الفتنة بين أبناء الأمة، كما هو حال اليهود عندما حاولوا الفتنة بين الأوس والخزرج (بين المهاجرين والأنصار) حيث وجب قتالهم مصداقا لقول الله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ {390}.

هـ . في حالة الردة: إذا ارتدت أي أمة من الأمم الإسلامية أو أي طائفة من الطوائف أو الجماعات عن الدين وجب قتالها، مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ

388 - النساء، 74 . 76.

389 - التوبة، 12، 13.

390 - البقرة، 193.

عَلِيمٌ} 391. وقد سبق وأن ارتد عن الدين الإسلامي منذ بداية ظهوره ثلاث فرق من العرب وهم بنو مُدَجَج وكان رئيسهم ذو الحمار الأسود العنسي الذي تنبأ في اليمن، وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب تنبأ وحاربه أبو بكر رضي الله عنه بجند المسلمين وهلك، وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد، تنبأ فبعث له رسول الله عليه الصلوة والسلام خالد بن الوليد إلى أن أسلم بعد هروبه إلى الشام وحسن إسلامه 392.

إنّ النقاط السابقة تعتبر أساسية في تنظيم المجتمع المسلم. ولأن الحرب أمر يخص كل فرد من أبناء الأمة فلا يجوز لأحد أن يقره نيابة عنه، وذلك لتحمل المسؤوليات الجسام المترتبة عليه، وإذا لم يعرض أمر الحرب بين المعنيين به، فستكون النتيجة الهزيمة في معظم الأحيان، لأنّ قرار الحرب من الحاكم قد لا يكون نتيجة للأسباب السابقة، بل قد يكون لأمر يخص الحكومة كامتصاص الغضب الداخلي أو الطموح التوسعي على حساب الآخرين، أو نتيجة الزيادة الكبيرة في عدد السكان أو لأسباب اقتصادية أو لغرض الهيمنة العسكرية، أو لأسباب طاغية لا مبرر لها. والخليفة الذي لا يمتلك الحرية فيما يتعلق بمصيره على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي، لا يمكنه أن يكون مقاتلاً أو مدافعاً، منتصراً للدين أو تراب الوطن وذلك نتيجة الروح المعنوية المنهزمة على هذه المستويات الثلاثة والتي بدورها تؤدي إلى الهزيمة في ميدان القتال. وهذا ما نلمسه اليوم على جبهات القتال المنهزمة، فالمقاتل الذي يمتلك حريته وهو على جبهة القتال يستطيع أن يقرر النصر أو الهزيمة، يقرر النصر عندما يحس بأنه يقاتل من أجل دينه أو وطنه الذي يملؤه بالحب والأمان أو أنه يقاتل من أجل حريته التي يمتلكها

---

391 - المائدة، 54.

392 - محمد أحمد كنعان، مواهب الجليل من تفسير البيضاوي. بيروت، دار العلم

للملايين، 1984م، ص 148.

قرارا وتنفيذا ورقابة، وذلك في كل ما يتعلق به من أمر يخصه، وفي مقابل ذلك بإمكانه أن يقرر الهزيمة عندما يعرف إن النصر لا يعود عليه بل يعود على الحكومة التي تزيد من هيمنتها عليه وعلى سيادة الأمة وتراب الوطن، ممّا يجعله لا يقاتل بإرادة وقد يفضل الاستسلام أو يتآمر مع المتآمرين أو يهاجر مع المهاجرين حيث أرض الله واسعة.

وإذا سأله أحد:

. لماذا لا تقاتل من أجل العرض الذي يهتكه الأعداء؟

. لماذا لا تقاتل من أجل الحرية التي تهدد، أو عن تراب الوطن؟

فقد يجيب إذا كان القتال من أجل العرض فعليّ أن أقاتل الحكومة التي هتكت كل عرض، وإذا كان القتال من أجل الحرية، فعليّ أن أقاتل الحكومة التي كبّلت كل الحريات، وإذا كان القتال من أجل الوطن فيجب أن نحرره أولا من قيود الحكومة التي حولت ترابه إلي سجون، وهكذا إذا كان القتال من أجل امتلاك مسكن أو مزرعة أو جزء من الثروة التي تخصه، فعليه أن يقاتل المتحكّمين في أمره.

ووفقا لهذا الوضع لو سألنا ذلك المواطن:

. لماذا لا تقاتل من أجل تحرير الأرض؟

ستكون إجابته:

أنّي لا أقاتل من أجل تحرير الأرض حتى لا يتسع نفوذ الحكومة وتزداد طغيانا.

ونحن نقول:

الأمر تغير لم يعد هذا الزمن ماثلاً لزمن رسول الله محمد صلى الله عليه والسلام الذي كان مجاهدا ومحرضاً على الجهاد في سبيل الله، ولهذا فالفرق كبير بين أن يقاتل المقاتل في سبيل الله جهاداً، وبين أن يقاتل في سبيل الحاكم والطاغية ضاللاً.

ففي سبيل الله لا يحق لأحد أن يتخلف عن الجهاد، وفي سبيل الحاكم الطاغية يجب التخلف.

فقد ذكر الله تعالى الذين تخلفوا عن رسول الله عليه الصلاة والسلام في غزوة تبوك حيث قال تعالى: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّا مَلَجَاءٌ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} 393 لقد تفضل الله سبحانه على نبيه، وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار الذين خرجوا معه إلى الجهاد في وقت الشدة فثبتهم وصانهم عن التخلف، من بعد ما اشتدَّ الضيق بفريق منهم، حتى كادت قلوبهم تميل إلى التخلف عن الجهاد، ثم غفر الله لهم هذا الهم الذي خطر بنفوسهم، إنه سبحانه كثير الرأفة بهم، عظيم الرحمة، وتفضل سبحانه وتعالى بالعفو عن الرجال الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج في غزوة تبوك - لا عن نفاق منهم - وكان أمرهم مرجأً إلى أن يبين الله حكمه فيهم، فلما كانت توبتهم خالصة، وندمهم شديداً، حتى شعروا بأنَّ الأرض قد ضاقت عليهم على رحبها وسعتها، وضاقت عليهم نفوسهم هما وحزنا، وعلموا أنَّه لا ملجأ من غضب الله إلا باستغفاره والرجوع إليه، عندئذٍ هداهم الله إلى التوبة، وعفا عنهم، ليظلوا عليها، إنَّ الله كثير القبول لتوبة التائبين، عظيم الرحمة بعباده.

لذلك كان نداء الله وحثهم على الجهاد (التجارة الراجعة) بقوله تعالى:  
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنَجِّيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُوْمِنُونَ  
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ  
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } 394.

في هذه الآية الكريمة الشرط أن يتم الإيمان بالله ورسوله، (تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ  
وَرَسُولِهِ) وكما أن التجارة تنجي التاجر من الفقر فهذه التجارة مع الله تنجي  
المسلم من النار، ويتم فيها مبادلة النفس والمال بالجنة، والإيمان بالله ورسوله  
هي التجارة المنجية، التجارة التي رأس مالها التصديق بالعمل والإقرار  
بالقلب.

أما نداء المؤمنين وتعقيبه بالاستفهام الغرض منه الحث والإغراء وليس  
السؤال والتجارة الراجعة المحثوث عليها هي تجارة الإيمان مع الله والربح فيها  
مضمون كما قال تعالى: { إِنْ اللَّهُ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ  
هُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ  
وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ  
وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } 395.

قال تعالى: { انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا  
لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّعْيَةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا  
مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } 396، قوله تعالى: (إِنْ  
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أي لو كنتم تعلمون بالخيرات الحسان من وراء الجهاد لنفرتم

---

394 - الصف 10، 11.

395 - التوبة: 111.

396 - التوبة 42.



خفافا وثقالا وجاهدتم بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله (إحقاق الحق وإزهاق الباطل)، ولهذا فالفرق كبير بين المؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله رب العالمين وبين الذين لم يسلموا وجوههم لله تعالى؛ فالذين أسلموا وجوههم لله رب العالمين هم الذين لا يتأخرون عن الجهاد؛ فلا يتناقلون إلى الأرض بل ينفرون على وجه السرعة والحكمة خفافا وثقالا مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، ومع أن المؤمنين ليس لهم بدٌّ من الجهاد إلا أن البعض منهم يتناقلون إلى الأرض وهؤلاء هم الخاسرون، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } 397.

ومع أن الجهاد فرض على القادرين إلا أنه ليس كذلك على غير القادرين، قال الله تعالى: { لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } 398.

397 - التوبة 38 . 40.

398 - التوبة 38 . 40.

استثناء الذين ذكروا في الآية بسبب عدم القدرة الجسدية على الجهاد، والجهاد فعل يحتاج إلى قدرة جسدية بغض النظر عن توفر القدرة النفسية والمالية والإيمانية، ولذلك فالقاعدة هي: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها).

## 12 . رءوف، ومرءوف به:

الرّأفة نتاج المحبة والمودة والتقدير، فهي في دائرة النسبية على المستوى البشري هي العاطفة الظاهرة في الأحاسيس والمشاعر التي تربط الآباء بفلذات أكبادهم، وهي بالمطلق محبة من الخالق لمن يشاء من عباده الذين هم على مرضاته، قال تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} 399، فقله تعالى: (إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ) أي أن الرأفة بهم مترتبة على تحمّلهم المشاق والمصاعب في سبيل إعلاء كلمته، ولأنهم تحمّلوا ما هو أعظم من أن يتمّ تحمّله في سبيل الحقّ، كانت لهم المكافأة العظمى وهي نيلهم رأفة الله تعالى.

وعليه فالمرءوف به هو المقدرّ على ما يبذله من جهد وما يتحمّله من عناء ومتاعب شديدة في ظروف قاسية في سبيل الحقّ.

الرءوف: من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته يوحى بالرأفة والرحمة والعناية، ومن اسم الله الرءوف تستمد الرأفة.

الرءوف: هو من يحس بحال من هو إليه قريب (القريب من الله) وهو الحفيظ القادر على سلامته وأمنه ورعايته، يعلم بحاله وما هو عليه، ويعلم بما سيكون عليه، ويعلم بما سيقدم عليه قبل إقدامه، وهو الذي يعلم بما يجب بالمطلق، ولكن المرءوف بحاله لا يعلم بذلك فقد لا يتجنب ما يستوجب

تجنبه فيقع فيما لم يكن متوقعا، ولهذا فهو في حاجة للرفقة به وبجاله حيث  
إبتائه القليل من العلم.

مظاهر الرأفة:

من مظاهر الرأفة المودة التي بيننا:

جعل الله تبارك وتعالى الخلق أجمع ضمن سلسلة مرتبة من العلاقات  
التي تربطهم جمعا، وبما يضمن بقاء التواصل بينهم، إذ يقول تعالى: { يَا أَيُّهَا  
النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ  
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } 400. بيّن الله تبارك وتعالى في  
هذه الآية أن الخلق كلهم من أصل واحد يرجعون إلى آدم وحواء، ومن آدم  
وحواء خلق خلقا كثيرا، فبث منهما رجالا ونساء فلم يستقل كل واحد  
بنفسه بل فرّقهم الله تبارك وتعالى وجعلهم شعوبا وقبائل وذلك من أجل أن  
يتعارفوا، وجعل تكويناتهم الاجتماعية أسرية في علاقات زوجية وعاطفية فيها  
يتم تبادل المشاعر والعواطف التي تمتد من الأجداد إلى الآباء والأحفاد في  
عواطف أبوة وأمومة وأخوة وعمومة ومخولة وجيرة وذوي قرى، وهكذا أصبح  
الود والمحبة الشيء الثمين في مرضاة الله عزّ وجلّ، قال تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ  
أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً  
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } 401 هذه آية فيها عظة وتذكير بنظام  
الناس العام وهو نظام الازدواج وكيونة العائلة وأساس التناسل رأفة بمن جعله  
الله خليفة في الأرض ليصلح ولا يفسد فيها ولا يسفك الدماء بغير حقّ.

والرأفة فضيلة عظمى مبنية على المودة، والمودة تقتضي المحبة المجردة من  
كل غرض دنيوي، ولهذا قال تعالى على لسان رسول الله صلّى الله عليه

---

400 - الحجرات 13.

401 - الروم 21.

وسلم: {ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ} 402 أي أن عمل الرسول عليه الصلاة والسلام في دعوته وجهاده لا ينتظر منه أجرا من الناس، إنما هي علاقات الود مع أهله وأصحابه، فالمودة عالم جميل وعظيم جعله الله تبارك تعالى من أجل إضفاء الحياة سمة خاصة ألا وهي الرأفة العظيمة التي أوجدها الرؤوف العظيم.

ومن مظاهر رأفته تعالى بيّن لنا الحلال من الحرام:

رأفة الله عزّ وجلّ بمن خلقهم في أحسن تقويم جعلته يُبيّن لهم الحلال والحرام ونهاهم عن المحرّم كما نهى من قبل أبوهم آدم وأمهم حواء مصداقا لقوله تعالى: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} 403.

وهكذا بيّن الرؤوف كل المنهي عنه والمحرم والمحجب للعباد ليكونوا طائعين مؤمنين مسلمين وجوههم إلى الخالق الرؤوف بحالهم وأحوالهم، ولناخذ بعض الأمور التي نهى عنها البارئ عزّ وجلّ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} 404 يذم الله تبارك وتعالى الأشياء القبيحة، ويرسم لها صورة تتناسب مع فعل الشيطان بقوله: (رجس) وهنا النهي لم يأت بصيغة إنّ هذا حرام بل جاء بصيغة أكثر تأثيرا وإيجاء من خلال لفظة (فَاجْتَنِبُوهُ) بمعنى

---

402 - الشورى 23.

403 - البقرة 35.

404 - المائدة 90، 91.

اتركوه، فالله تبارك وتعالى يريد الفلاح للمستخلفين، وهذا الفلاح لا يتحقق إلا من خلال ترك ما حرم الله، وبالأخص الفواحش المذكورة ومنها الخمر، الذي هو رجس بمعنى الخبث، والأمور الخبيثة يجب اجتنابها وعدم التدنس بها، والدنس لا طهارة فيه، والخليفة من المتطهرين، ولذا ينبغي أن يكون المجتنب والمنتهي والمبتعد عن كل دنس، ولهذا فمن الطاعة اتباع الأوامر والنواهي الإلهية، وما يخالفها من عمل الشيطان الذي تلاحقه اللعنات.

ومن جملة ما نهي عنه الرؤوف تبارك وتعالى رافة بالعباد نهي عن الزنا، إذ يقول تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} 405، الزنا من الذنوب العظيمة فهي لا تقتصر على فعل جنسي فقط، بل يتعدى الأمر إلى أكثر من ذلك، وهذا ما عرضته الآية الكريمة، فالنص القرآني هنا لم يشير بكلمة التحريم بل أشار بكلمة الابتعاد التي هي أبلغ من التحريم، لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، ووصف الله الزنا وقبحه بأنه (كَانَ فَاحِشَةً) يستفحش في الشرع والعقل والفطرة لتضمنه التجرؤ على الحرمة في حق الله وحق المرأة وحق أهلها أو زوجها وإفساد الفراش واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفساد. ولذلك نجد صيغة العقوبة وما رافقها من رفع الرافة في قوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} 406.

ومن الرافة تحريم الخبائث وإباحة الطيبات، ولقصر نظر الناس فإنهم لا يستطيعون تحديد الحلال من الحرام في الأشياء والأفعال، فلكي ينصرف الخليفة إلى مهمته التي استخلفه الله تبارك وتعالى من أجلها وهو إعمار

---

405 - الإسراء 32.

406 - النور 2، 3.

الأرض وإقامة دين الله، فقد يَسَّرَ اللهُ تعالى له أمر الخير والشر، والحلال والحرام رأفة بقدراته العقلية التي لا تستطيع أن تستوعب كل المهام التي يمكن أن تناط بها في هذا الاستخلاف، فجعل الحلال والحرام من خصائص الله تبارك وتعالى، وجعل تنفيذها من مقدرات العباد رأفة بهم لا نقمة عليهم.

ولأنّ الخليفة يستمد صفاته من صفات الرؤوف المطلق عزّ وجلّ، لذا فهو الذي يعامل ما حوله برأفة وهذه العلاقة تكون محكومة بالشرع الذي يريده الله تبارك وتعالى، وعليه كل نهي وتحريم وأمر هو من أجل المخلوق فلماذا لا يتعظ البعض؟!

من مظاهر الرأفة إرسال الرّسل:

لما كانت أمم الأرض شعوب وقبائل متفرقة تتقاتل على غير حق؛ فكانت هذه الشعوب والقبائل بحاجة إلى رسول منذر لينذرهم، ومصلح يهذبها بما يطهرها من الدنس والظلم والضلال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ 407. فقد اقتضت حكمة الله أن يرسل إلى الأمم والشعوب في قراهم وبواديهم وحواضرهم المنعزلة رسلا مبشرين ومنذرين، لئلا يكون لهم حجة بالجهل والغفلة، وكان هؤلاء الرّسل يحملون مهمة واحدة، ذات أسس ومبادئ واحدة، فيمثلون إرادة مرسلهم بها، ويبلغون كتبه ووحيه، ويؤدون رسالاته رأفة بالعباد، قال تعالى: ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ 408 فكل نفس تحمل وزرها لا وزر نفس غيرها، والرؤوف لا

---

407 - النحل 36.

408 - الإسراء 15.

يعذب قوما إلا بعد أن يبعث لهم رسولا فيلزمهم الحجّة، وذلك من خلال الكتاب الرّباني المنزّل على الرّسول فهو المرجع لأمته، مهما تعاقبت العصور، فيرجعون إليه في تحديد عقائد الدين وأسسّه، ومبادئه وغاياته ويرجعون إليه في التعرف على أحكام شريعة الله لهم واستبانة الواجبات التي يأمرهم بها، والمحرمات التي ينهاهم عنها، والفضائل التي يحثهم عليها ويندبهم إليها، كما يرجعون إليه ليطالعوا مواعظه ونصائحه، وأمثاله وآدابه وقصصه، وما تضمنه من بشائر ونذر، ووعد ووعيد، وسائر الوسائل والأساليب ذات الفضائل الرفيعة، الهادية إلى صراط الرّعوف المستقيم، إذ يقول الرّعوف تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 409 هذه الآية تبين انه لا نبي إلا ومعه كتاب منزل، وفيه الرأفة (بيان الحق).

إذا إرسال الرّسل جاء رأفة من الرّعوف المطلق عزّ وجلّ، وبعبارة أخرى إنّ إرسال الرّسل إنقاذ لهم من العقوبة التي ينتظرونها نتيجة ما كانوا عليه من الضلال والضياع بعيدا عن الباري، فالبعد عن الباري هلاك والقرب منه رحمة، وبرأفته جعل المستخلفين فيها هم الأقرب إليه لأنهم أصحاب التقوى، ولأنّ الرّعوف هو رءوف بالعباد جميعهم جعل باب التوبة مفتوح للجميع وهو السمع القريب المحيب لمن يستجاب لأمره ونهيّه، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} 410.

من مظاهر الرأفة جاء الدين حُسن معاملة:

409 - البقرة 213.

410 - البقرة 186.

ومن الرأفة إقراره المعاملة الحسنة بين الناس وأمر الدعوة بها، قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} 411، وقال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} 412، وهكذا أمر بالمعاملة الحسنة رأفة لمن هم في حاجة، المسكين واليتيم والأسير لتكون معاملة متفقة مع صلب الشريعة الإسلامية، وهي من صفات الخليفة إذ يقول تعالى: {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} 413، إن هذه الآية الكريمة خير داعي للرأفة بالعباد خاصة الذين هم في أمس الحاجة لمن يمد إليهم يد العون رأفة بهم وطاعة لأمر الرؤوف.

ومن الرأفة ألا يُفسد زرع ولا حرث فهي من الأملاك المستحقة للاحترام رأفة بالعباد الذين جعل لهم الرؤوف الكريم حقاً فيها، ولهذا فإفساد الحرث والزرع معصية لا يقدم عليها خليفة من خلفاء الرؤوف الرحيم. قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ

411 - النحل 125 . 128.

412 - النحل 125.

413 - الإنسان 8، 9.



جَهَنَّمَ وَلِيَسَّ الْمِهَادُ} 414، فمن يعمل المعاصي فعمله إفساد في الأرض، ولهذا أنزل الرؤوف أمره رافة بالعباد وأرسل الرُّسل مبشرين ومنذرين ومحرضين على أفعال الخيرات الحسان رافة بمن خلق ليكون النَّاس المستخلفين مصلحين لا مفسدين فيها ولا سافكي دماء بغير حقّ.

. من مظاهر الرافة نعمة العقل: العقل فؤة متهيئة لقبول الهداية والإيمان والعلم، وهو من النعم التي أنعم بها الله تبارك وتعالى علينا، فهو الميزان الذي من خلاله يستطيع الخليفة التصرف وفق معطيات الحياة بكل تفاصيلها، به يدرك وبه يتفكر ويتذكر ويتدبر ويستنبط ويستقرى حتى اليقين. ولهذا تكرر في الخطاب القرآني لفظة (يعقلون) التي أخذت حيزا كبيرا من هذا الخطاب، قال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِفْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} 415 وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} 416.

ومن المواضع التي ذم الله فيها الكفار بعدم العقل قوله: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} 417 شبه الله تبارك وتعالى الكفار هنا كمثل البهائم التي ينطق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول، فهم يسمعون مجرد الصوت، الذي تقوم به

---

414 - البقرة 204 - 206.

415 - الأنعام 151.

416 - المؤمنون 78 - 80.

417 - البقرة 171.

عليهم الحجّة، ولكنهم لا يفقهونه فقها ينفعهم، فلهذا كانوا صمّا لا يسمعون الحقّ سماع فهم وقبول، عميا لا ينظرون نظر اعتبار، والسبب الموجب لذلك كله، أنّه ليس لهم عقل مدرك للحقّ وواقف عنده، بل هم في سفاهة العقل لا في يقينه.

. ومن مظاهر الرأفة رزقه للجميع: هذا من عظيم رأفته، فرزقه عام لا يفرّق فيه بين أحد مهما كانت ديانتته ومهما كان لونه أو جنسه، رزقه لكل ما خلق، من يعبده يرزقه، ومن يكفر به يرزقه، ولهذا فهو رءوف بمن يعلم فأمن، ومن لا يعلم فَضَلَّ، وذلك لأنّه الرءوف المطلق، قال تعالى: {كُلًّا مُدًّا هُوًّا لَاءٍ وَهُوًّا لَاءٍ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} 418 فرزق الله ليس ممنوعا من أحد بل أن جميع الخلق يشملهم رزقه وذلك بفضلته وإحسانه.

والخليفة يستمد هذه الصفة من الله تبارك وتعالى في تعامله مع الآخرين وخاصة مع أقرب المقرّبين إليه، فلا يفرق بين أبناءه في توزيع رزقه عليهم، فالكل يجب أن يكونوا وفقا لمعايير واحدة، ووفقا لقواعد الحقوق والواجبات والمسؤوليات، والفرض الذي فرضه الرءوف للآباء والأبناء في الحياة والنصيب في الميراث، وهذه المعايير واجبة الأخذ بها، وفي هذه المعايير تتضح رأفة الخالق بعباده.

. من مظاهر رأفته التوبة للجميع: التوبة كلمة ترددت في النص القرآني في مناسبات عدة، فهي تحمل مضمونا معرفيا ينساق خلف النصوص التي وردت فيها، فضلا عن ذلك أن وجود هذه الكلمة يميلنا إلى كلمات أخرى مرتبطة بها من قريب أو من بعيد، كالذنب والحرام والتجاوز والفساد وغيرها

من الكلمات التي تنحو هذا المنحى، بمعنى آخر أن ارتباط هذه الكلمات بكلمة التوبة يفتح لنا ملفاً أوجده الله تبارك وتعالى في تعامله مع عباده، فهو الذي يقبل التوبة، إذ يقول تعالى: { وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ } 419، وقوله تعالى: { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } 420.

ولما كانت أساليب الشدة والعنف في تربية الناس منفرة لنفوسهم، عقيمة الإنتاج فقد أرشد الله تبارك وتعالى رسله إلى اتخاذ أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن في توجيهها وتعليمها وتأديبها ثم التدرج بهم إلى كل ما من شأنه أن يحقق الحقّ ويزهق الباطل ولو كره المجرمون، لذلك نلاحظ أن الله جلّ وعلا أمر رُسله صلى الله عليهم وسلّم باتخاذ الحكمة في دعوتهم ومنهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وكل داع إلى سبيل ربّه من بعده أن يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادل الناس بالتي هي أحسن، قال تعالى: { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } 421.

هنا طريق الدعوة سلك مسلكاً بعيداً عن العنف أو التعصب أو الجبر، إذ أنه سلك مسلك الحكمة التي تعامل الخلق على حسب حالهم وفهمهم وقولهم، ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، فهو الطريق البين الذي يحرك العقول ويقنعها ويثبت الأمر المراد تثبيته، وتكون الدعوة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر

---

419 - الشورى 25.

420 - التوبة 104.

421 - النحل 125.

والنهي المقرون بالترغيب والترهيب بالحقّ دون أي إكراه، حيث لا إكراه في الدين. والترغيب والترهيب عملية عرض للمنافع والمضار التي يكون عليها من قبول أو رفض الدعوة وهي طريقة اختيارية تتسم بالحرية الكامنة المقرونة بالأدلة المثبتة للنفع والضرر في حالتي القبول والرفض.

ووردت اللينة مع الرسول عليه الصلّاة والسّلام في قوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} 422 فالقوم لما انهزموا عن النبي عليه الصلّاة والسّلام يوم أحد ثم عادوا لم يخاطبهم الرسول عليه الصلّاة والسّلام بالتغليظ والتشديد، وإنما خاطبهم بالكلام اللين، ثم إنه سبحانه وتعالى لما أرشدهم في الآيات المتقدمة إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وكان من جملة ذلك أن عفا عنهم، وزاد في الفضل والإحسان بأن مدح الرسول عليه الصلّاة والسّلام على عفوهم، وتركه التغليظ عليهم فقال: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ). فضلا عن ذلك أن اللين هو من شمائل النبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم التي وهبها الله تبارك وتعالى له، فكانت إحدى أدوات الدعوة التي ساهمت بشكل كبير في نشر الدين الإسلامي وتثبيتته، قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} 423. من الله تبارك وتعالى على عباده أن أرسل لهم النبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم الحريص عليهم، والحرص هنا يتجلى في حب الخير وإيصاله لهم، كذلك حرصه على هدايتهم نحو الإيمان وكره الشر لهم، فسعى

---

422 - آل عمران 159.

423 - التوبة 128، 129.

بكل جهده في تنفيرهم عنه، لأنه شديد الرحمة بهم، وهو رءوف بهم وبأحوالهم كما أن الله تعالى رءوفاً به وبهم.

وعليه فالخليفة هو من يستمد الرأفة على العباد من الرءوف الرحيم، ولهذا فمن خصائص الدعاة الكلمة اللينة في الدعوة، والدعوة إلى جانب كونها الدعوة إلى عبادة الله سبحانه وتعالى فهي طريقة التعامل مع المستخلفين وبينهم في شتى نواحي الحياة، فالأسرة هي عماد المجتمع، والتعامل باللين مع عناصرها يسهم في تقوية الروابط الأسرية ومنحها الثقة الكاملة التي تعزز دورها في بناء مجتمع صالح يريد الله تبارك وتعالى. وكذلك إن الدعوة إلى الله تبارك وتعالى لا تكون بالغلظة والفظاظة، بل بالقدوة الحسنة.

وعليه كلّ عناية ورعاية هي رأفة وكل نصح وإرشاد هو رأفة وكل نهي وأمر هو رأفة وكل رزق وخلق هو رأفة وكل دعوة في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل هو رأفة بالداعي للحق والدامغ للباطل، وكل معاملة بين الناس بمودة ومحبة ولين هو رأفة، وكل ما سنّه الرسول الكريم هو رأفة بالمسلمين الذين آمنوا بالله واحداً واحداً لا شريك له، وكل قصاص هو رأفة.

وقد يتساءل البعض:

ما علاقة القصاص بالرأفة؟ وكيف تكون فيه رأفة وقد يصل فيه الحد في بعض الأحيان إلى القتل؟

نقول:

الإجابة ظاهرة في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ

وَرَحْمَةً فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}424، هذه الأسئلة يرد عليها القرآن الكريم، بقوله: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}425. فالحياة لا بد أن يسودها الأمن والأمان من أجل أن يعيش الناس حياة طبيعية يأمنون فيها على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وهذه الأمور لا تتحقق إلا إذا نُقِذَ القصاص بالخارجين عن القانون بغير حق، ففي القصاص ارتداع للناس عن قتل النفوس التي حرّم الله إلا بالحق، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس؛ لأنّ أشدّ ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت، فلو علم القاتل أنه يسلم من الموت لأقدم على القتل مستخفاً بالعقوبات فتحقن بذلك الدماء.

ولأنّ الله رءوف رحيم كان سميعاً بصيراً، وعلماً حكيماً، وحفيظاً ودوداً، وكان قريباً مجيباً لدعوة الداعي إذا دعاه، ليفكّ عنه برأفته كل غم وهم.

وصفة الرأفة تُستمد من الرءوف المطلق فيوصف بها من يستمدّها كما استمدّها واتصف بها رسول الله محمد عليه الصلّاة والسّلام مصداقاً لقوله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}426.

### 13 . أولوي:

الألوي هو من له الحقّ والأحقية في الأمر المتعلّق به، فإذا أخذنا (الإيمان) أمراً من الأمور المتعلقة بالمؤمنين، فيكون أمر الإيمان المتعلّق بالله عزّ وجلّ هو أولى من يدعو إلى الإيمان بالله تعالى، ولهذا كان الرّسول عليه

424 - البقرة 178.

425 - البقرة 179.

426 - التوبة 128.

الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ فِي أَمْرِ الْإِيمَانِ هُوَ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} 427، يُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَرْبَعُ أُمُورٍ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْإِيمَانِ:

الأمر الأول: أمرُ النبي: فأمرُ النبي عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ مُصْطَفَى مِنْ اللَّهِ تَعَالَى لِيَكُونَ نَبِيًّا رَسُولًا يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ فَهَدَى إِلَى الْإِيمَانِ؛ فَأَمَّنَ مِنْ آمَنَ وَكَفَرَ مِنْ كَفَرَ، وَهَذَا؛ فَهُوَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الْإِيمَانِ أَوْلَى مِنْ غَيْرِهِ حَتَّى وَأَنْ كَانَ أَمْرُ الْإِيمَانِ مُتَعَلِّقًا بِذَلِكَ الْغَيْرِ، قَالَ تَعَالَى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} 428.

الأمر الثاني: أمر من هو أولى: الأولى بِالْإِيمَانِ فِي دَائِرَةِ الْمَقَارَنَةِ هُوَ مَنْ دَعَا إِلَى الْإِيمَانِ وَأَمَرَ بِطَاعَتِهِ طَاعَةَ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} 429.

إِذَا مِنَ الْإِيمَانِ طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (طَاعَةُ الْأَوْلَى وَطَاعَةُ مَنْ أَمَرَ لَهُ بِمَا هُوَ أَوْلَى) وَهَذَا كَانَتْ لِلرَّسُولِ أَسْبَقِيَّةُ الْإِيمَانِ أَوْلَى مِمَّنْ آمَنُوا بِمَنْ بُعِثَ لَهُمْ نَبِيًّا رَسُولًا.

الأمر الثالث: أمر المؤمنين: المؤمنون هم الذين آمنوا بالله ربًّا وبمحمد نبيًّا رسولًا، أي هم الذين أطاعوا الله بدعوة نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فكانوا من المؤمنين، وكان محمد عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِهِمْ رَعُوفٌ

---

427 - الأحزاب 6.

428 - الحشر 7.

429 - النساء 13، 14.

رحيما مصداقا لقوله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} {430، يفهم من هذه الآية الكريمة أن النبي هو الرءوف بالمؤمنين بعد الرءوف المطلق، ولهذا فهو الأولى بعد الله بالمؤمنين من أنفسهم.

الأمر الرابع: أمر الأنفس: النفس مخلوقة وثوقى مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} {431، والنفس على أهمية كبرى عند الله، ولهذا حرّم الله قتلها بغير حق، والنفس تتعرض للأخطاء فلا تُبرئ بالمطلق وهي تأمر بالسوء إلا من رحم ربّي، ولذلك هناك من ينهى النفس عن الهوى فلا تفضل ولا تشقى، بل تطمئن بما تفعل من خيرات حسان طاعة لله الواحد القهار.

ولأن الأنفس تضعف بأسباب الحاجة وبعدم الإيمان فهي مُعرّضة لما تتعرض إليه من ضغوط وشدائد قاسية فتنحرف عن الصراط المستقيم، ولكن إذا آمنت، آمنت كل ذلك، ولهذا يكون الرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم بأسباب الإيمان بالله واحدا واحدا وبمحمد نبيا رسولا.

## 14 . شهيد:

الشهيد المطلق يرى ويسمع ويلاحظ ويحكم ويحيب ويقدر ويهيمن وهو بكل شيء محيط وعليم، والشهيد بالإضافة هو من يستمد صفات الشهادة الحميدة حتى تكون شهادته الحق والعدل.

الشهيد دليل إثبات الشهادة، فلو لم يكن ما كانت، ولأنه الشهيد بالمطلق فهو يُشاهد ولا يُشاهد {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ

---

430 - التوبة 128.

431 - الزمر 42.



الأبصار {432، وفي غير ذلك يكون الشهيد بالإضافة تحت المشاهدة والملاحظة، ولذا فالشاهد المطلق يشهد الظاهر والباطن ويعلم بالمطلق علم اليقين، والشاهد بالإضافة لا يشهد ولا يعلم إلا ظاهرا وفي دائرة الممكن يستنبط ويستقرئ.

الشاهد المطلق الله، وشهادة الله لا يقابلها غيب، فلا غيب لديه، وعالم الغيب والشهادة بمعنى إنه يعلم ما يغيب عنا وما نشهده، وعلمه يسع ما يعلمه جميع الخلق وما يغيب عنهم من علم ملائكي وجي وبشري وكائناتي، وغير ذلك من علم معلوم ومجهول، ومشهود ومحجوب، وغائب ومعيب.

وهو سبحانه وتعالى عنده الشهادة المطلقة فلا يوجد عنده غيب فالغيب ما غاب عنا، ولا ينبغي أن نقول: إن عند الله غيب، فالغيب خلق من خلقه فكيف يغيب المخلوق عن خالقه، ولا أن نقول إن الشهيد مشتق من الشهادة، بل هو سبحانه وتعالى خالق الشهادة التي لغيره أما شهادته غير مخلوقة فهي ذاتية سرمدية بلا أولية ولا انتهاء لأنه الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية.

كما لا نقول: إن الشهيد مبالغة في الشهادة بل نؤكد: أن الشهيد له العلم المطلق الذي يليق به وبالكيفية التي يعلمها هو ولا نعلمها نحن على مر الأجيال والأجيال.

والشاهد الحاضر يقال شهدت الشيء وشهدت به وأصل قولهم شهدت به من الشهادة التي هي الحضور، ولا يمكن أن تأتي الشهادة من غير الحي، فالحياة لازمة لحصول الشهادة لأن الحياة تدل على القيومية وهذا الذي يجعل من الحي المطلق شهيدا مطلقا لا يمكن أن يغفل أو ينام وذلك

كما جاء في قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} {433}، فالشهيد المطلق هو من كان مطلق العلم بعباده وبما خلق لما تتطلبه الشهادة من متابعة ومراقبة وعلم وعدل وهذه الصفات لا تكون مطلقة إلا لدى الواحد الأحد الذي يشهد على كل صغيرة وكبيرة ويجعل من كل منها شاهدة على الإنسان في كتابه يوم تقوم الساعة فيقف بين يدي الحي القيوم مصداقا لقوله تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} {434}، ولا يمكن أن تكون هذه الدقة وهذا النظام إلا بوجود الشهيد الحي القيوم الذي لا يغفل ولا ينسى ولا ينام ولا يظلم، وفي تقديمه للصغائر عن الكبائر أكبر دليل على عدل شهادته ودقته وعلمه المطلق بكل شيء، فالعافل لا يمكن أن يدرك كل ما حوله والنائم لا بد أن تفوته الكثير من الأمور والميت تنتهي علاقته بكل شيء منذ ساعة موته، وهذا ينتفي مع صفات الله تعالى الذي يحاسب على كل شيء فكيف يحاسب الإنسان على أمر من غير أن يكون شهيدا عليه.

الشهيد عليهم بمن يراقبهم ويحفظ أعمالهم، فلا تكون شهادته بما نقص أو عيب وهذا ما يتفق مع أنه تعالى منزه عن النقائص والعيوب، فعلمه عز وجل يحيط بكل شيء والإحاطة تتوفر في مراقبته عز وجل، وبهذه المراقبة هو الشهيد علينا وهو على كل شيء شهيد.

---

433 - البقرة 255.

434 - الكهف 49.

وعليه فإنَّ الشهيد المستخلف في الأرض هو من يستمد صفاته من صفات خالقه تعالى، ولهذا كان رسول الله محمد عليه الصلّاة والسّلام شهيدا بهذه الصفة على أمته، مصداقا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} 435، فكما أرسل الله تعالى رسوله موسى عليه الصلّاة والسّلام إلى فرعون ليكون شاهدا عليه وعلى قومه، فكذلك بعث محمد عليه الصلّاة والسّلام رسولا لأمته (أمة الوسط) أي الأمة العادلة بين الناس تقول الحقّ وتتبعه ولا تشرك بالله أحدا، قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا} 436.

ولأنَّ الرّسول محمد عليه الصلّاة والسّلام بعث ليكون شاهدا بالحقّ، شهد الله بذلك في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} 437، وقال تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} 438، وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} 439.

## 15 . مُبَشِّر :

التبشير والتبليغ من مهام الخليفة المورث في الدار الدنيا والآخرة أن يبشر بما جاءه من الله تعالى على أيدي الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم. قال تعالى: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى

435 - البقرة 143.

436 - المزمل 15.

437 - الأحزاب 45.

438 - النساء 41.

439 - الحج 78.

فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ {440، وقال تعالى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } {441، وقال تعالى: { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ } {442.

التبشير فيه نقل رسالة من رسول مُرسل، فمن تبعه اهتدى ومن لم يتبعه فقد ضل، والناس بين مهتدٍ وضالٍ وعالمٍ وجاهلٍ وصادقٍ وكاذبٍ تفرقوا، إلا المستخلفين يرثون الأمانة وهم طائعون لحملها ولحمليها.

والبشير هو الآتي بالخبر الخير، الذي فيه بُشرى فيأتي عظيم مفرح، يأمله الناس الذين يتعلق الأمر بهم، وبهذا كان محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولا مبشرا بالخير للخير، وداعيا للحق وزاهقا للباطل وفاعلا وعاملا على الحق بالتي هي أحسن حيث لا إكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي.

ولأنَّ محمداً مبشراً، فقد أمره الله تعالى أن يُبشِّرَ من اتبع الرحمن بالغيب بمغفرةٍ وأجرٍ كريمٍ، مصداقاً لقوله تعالى: { إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَحَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ } {443، ولأنَّ رسالة محمد جاءت داعية للخير بالخير، فهي رسالة لا إكراه فيها لأحدٍ مصداقاً لقوله تعالى: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ

---

440 - الزمر 17، 18.

441 - المائدة 18، 19.

442 - البقرة 213.

443 - يس 11.

وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {444}.

ولأن رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام قد كُلف بالتبشير فكان خير بشيرٍ ونذيرٍ للناس كافة، تلقى القرآن من ربه وحيا موحى فبشّر به من حوله وبعث الرّسل إلى أقوام المشارق والمغربت فكان الإسلام هو النور الذي أضاءت الأرض به، قال تعالى: {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} {445}.

والتبشير وفقا لما جاء في الآية الكريمة السابقة يدل على الآتي:

. تبشير بالقرآن كما أنزل من عند الله.

. التبشير بيوم البعث (يوم الثواب والعذاب) فمن آمن فقد بُشّر بالجنة ومن كفر فقد بُشّر بالنار.

ولهذا كان محمد عليه الصلاة والسلام مبشرا بما هو حاضر (القرآن) وما فيه من خيرات حسان، وبما هو آتٍ (يوم الحساب) وما فيه من ثواب وعقاب.

## 16 . مبلغ:

المبلغ هو من يستمد صفته مما قام بتبليغه دون زيادة ولا نقصان، فرسول الله عليه الصلاة والسلام قام بمهمة التبليغ على أكمل وجه، ولهذا قلنا التبليغ التزام بمهمة مع عدم التقصير في تبليغها، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا

---

444 - البقرة 256.

445 - الإسراء 105.

الرَّسُولَ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ  
يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ {446}.

إذا فالمبليغ في هذه الآية الكريمة هو المأمور بالتبليغ من ربه، وهو  
الرَّسُولُ الكَرِيمُ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ الذي صدر له أمر التبليغ فبَلِّغْ، ولذلك  
فهو الموصوف بهذه الصفة الكريمة (مبليغ).

وعليه كانت صفة التبليغ على وجهين:

الأول: من حيث الأخذ بالأمر (بَلِّغْ) فتم الأخذ به.

الثاني: من حيث التنفيذ لقد تم التبليغ فَبَشَّرَ العباد.

ولذا علينا أن نُمَيِّزَ بين مفاهيم التبليغ حتى نتبيِّنَ البلاغ من المبليغ  
وهي:

مبليغ: المبليغ هو الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

مبليغ: المبليغ هو المستهدف بالتبليغ الأمة (الكافة).

مبليغ به: القرآن وهو الإسلام بشكله الشمولي.

التبليغ: هو ذلك الجهد الذي بُذِلَ في سبيل إيصال المبلِّغ به إلى  
المستهدفين.

ومصدر البلاغ: هو الله تعالى الذي أصدر الأمر لنبيه محمد ليبليغ  
النَّاسَ بما أمر أن يُبَلِّغَ به.

وعليه نقول: في التبليغ مجاهرة بالحقِّ مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ يَا  
أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ

مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ  
عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ {447}.

## 17 . نذير مُنذر :

الإندار فيه تفتين لشيء يستوجب الحيطه والحذر والاجتناب، وهذا  
الفعل لا يقوم به إلا رسول الله رب العالمين أو مصلح يجب الخير ويعمل من  
أجله، وهو أيضا لا يتم إلا من مدرك وعالم يعلم ما هو كائن وما يمكن أن  
يكون وما هو في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع). قال تعالى: {أَكَاَنَّ  
لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ  
لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ} {448}، وقال  
تعالى: {يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ  
الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ لِيُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْذَرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى  
أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} {449}، وقال تعالى: {وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ  
بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي  
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} {450}، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا  
مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ  
الْعَفَّارُ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى  
إِذْ يُخْتَصِمُونَ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ} {451}.

وعليه فالإندار رسالة بذاته يرشد لما هو صواب وخير، وفيه تحذير  
واضح من مخاطر تلم بمن لم يتعظ ويحترز ويحتاط، والوارثون هم المعنيون

---

447 - المائدة 68.

448 - يونس 2.

449 - ياسين 1. 7.

450 - الأحقاف 21 - 22.

451 - ص، 65 - 70.

بالبلاغ والإنذار، أما أولئك الذين يوجّه الإنذار إليهم فهم لم يكونوا من الخلفاء بعد، ولكن بإمكانهم أن يصبحوا من المستخلفين فيها إذا ما استغفروا واجتنبوا كل فعل من الأفعال الآثام.

وعليه فالمنذر هو من يعلم بالأمر على بينة قبل غيره فيعلمهم به مع فائق التحذير حتى لا يندموا على ما يفوتهم، ولهذا فالمنذر هو المحب لأفعال الخير والمقدم على أدائها دون تردد مع الحرص والتقدير للمنذرين والمنذر به، وهكذا كان رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام منذرا للأقارب والأباعد دون استثناء.

كان محمد نذيرا للناس كافة بالفرقان الذي به يفرق بين الحق والباطل، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} 452، ولذلك كان محمد نبي خير ورسول خير ووجه خير وفاعل للخير ومكثرا له، قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} 453، ولهذا فقد أنزل الفرقان (القرآن) على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فكان بشير خير، قال تعالى: {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} 454، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 455.

---

452 - الفرقان 1.

453 - البقرة 119.

454 - الإسراء 105.

455 - سبأ 28.



## 18 . داعٍ:

الداعي هو من يدعو الآخرين إلى أمرٍ هو يعتقد فيه صوابا حتى وإن كان هذا الأمر موضوعيا لا صواب فيه، ولهذا ليس كل دعوة هي دعوة حقّ، والذي يحدد ذلك هو:

الداعي: إذا كان الداعي نبيا رسولا يكون الداعي خيرا ودعوته خيرا، قال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 456، هذه الآية الكريمة جاءت على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، موضحا أنه لا يسلك إلا الحق سبيلا لإحقاق الحق، فهو يدعو إلى الله واحدا واحدا ولا يشرك بربه أحدا.

وفي مقابل من يدعو إلى الهداية هناك من يدعو إلى الضلال والشرك بالله تعالى، ولهذا جاء الداعي محمد عليه الصلاة والسلام منفذا لأمر الله الذي يؤمن به ويعبده ربّا ولا يشرك بربه أحدا، إليه يدعو وإليه مآب، قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبُ الْكَلْبِ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ} 457، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} 458.

الدعوة: الدعوة هي الموضوع الذي جاء به الداعي أو به أرسل ولهذا فدعوة محمد عليه الصلاة والسلام رسالته الإسلام (القرآن) قال تعالى: {أَفَعَيِّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ قُلْ أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

---

456 - يوسف 108.

457 - الرعد 36، 37.

458 - الجن 20، 21.

وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيِّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ {459}.

وعليه عندما يكون الداعي رسولا يكون له أسلوب متميز عن بقية العباد فكل الرُّسُل صلوات الله وسلامه عليهم يدعون العباد بالتي هي أحسن كما جاء في قوله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} {460}.

إذا محمد نبيا رسولا وسرجا منيرا داعيا للحق بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا يكره أحدا على اتباع دعوته، وذلك لثقتة بأن دعوة الحق لا تنتشر إلا بالتي هي أحسن، حيث لا أكره في الدين مصداقا لقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} {461}.

## 19 . سراج منير:

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرْجًا مُنِيرًا } {462} السراج كما أنزل في هذه الآية هو محمد عليه الصلاة والسلام النور الذي به تنار السبل وتستنير البصائر إلى ما يُطمئن القلوب فتتهدي إلى الحق عن بيّنة.

---

459 - آل عمران 83 . 85.

460 - النحل 125.

461 - البقرة 256.

462 - الأحزاب 45، 46.

والنور من أسماء الله الحسنى إنه اسم ضياء وجمال تستبشر به الخلائق وترضى، تشد إليه ولا تطمان إلا به سبحانه، ينير الأنفس كما ينير الدروب، من نوره تشرق الشمس وتتألق السماء وتضيء القمر، وبالنور يهتدي العباد إلى التي هي أحسن، والنور حُسن يستمد من الكلمة التي تنير القلوب ومن الآيات العظام للنور المطلق، والنور المطلق لا يُرى في ذاته ولكن يستمد من آياته العظام، فالنور ليس كمثلته شيء، ولهذا فالله الذي ليس كمثلته شيء هو نور السماوات والأرض {الله نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} 463.

من نعم الله تعالى فضائله على عباده، نعمة الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة للتحلي بهذه النعمة إلا بانسراح الصدور بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والجهل والمعصية، لذا يتأتى عمى القلوب بظلمة الجهالة، فالعقلاء وأرباب البصائر قلوبهم، {كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ الرَّجَاةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ} 464. ولأن الله هو النور وهو الذي جعل في الأرض خليفة فهو الذي بث نوره في المستخلفين في الأرض ليصلحوا ولا يفسدوا فيها ولا يسفكوا الدماء بغير حق.

وحتى نتدرج في الرقي لنقتبس من النور المحض علينا أن ننظر في اللغة لنرى ما النور؟

إنّ (الله نور، وله نور) نور ذاتي مهلك لا سبيل للوصول إليه، ونور مخلوق كنور الشمس والقمر وكالذي سيتجلى به على عباده ليربهم من جماله يوم القيامة وفي الجنة، وهذا النور من وراء حجاب الصورة.

463 - النور 35.

464 - النور 35.

النور: هو الحق، الذي يتجلى في سماه، وهو الذي يُدرك بذاته وهو  
ينير البصر والبصيرة، يُهتدى به ويُهتدى إليه، به يرشد الضال سبيله إذا  
اهتدى، وبدونه يضل ضالا، ولذا فبه تراح الظلمة والغمة وتثار الدروب.  
وعليه الله هو النور، وهو الفؤة الخارقة لكل فؤة، وهو القدرة النافذة  
لأي ظلمة، وبه يتم التبين دون زيف.

ولأنّ النور هو الله، فالنور هو الفؤة والقدرة التي تنير الإبصار  
والبصائر، كما تنير الدروب والسبل، ولأنّ النور هو الله فهولا يرى مصداقا  
لقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ  
قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا  
بَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ  
إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} 465. موسى عليه الصلاة والسلام يرى الجبل كما  
نحن نراه، أي بأمهات عينيه يرى الجبل جبلا، ولكن هل العينان لوحدهما  
كافيتان لرؤية الجبل؟

بالطبع لا. أي لو لم يكن النور الذي هو من نور الله مبعوثا ومنتشرا  
في السماوات والأرض وما بينهما، ما كان للعينين من نور، وإذا فقدت  
العينان نور الله فيهما فقدت الرؤية حتى وإن كانت العينان سليميتين.  
ولننظر، إذا أغلقت عليك غرفة بالتمام ومعك في الغرفة فأر أو جمل هل لك  
أن ترى الفأر أو الجمل إذا لم ينفذ فيها نور من نوره تعالى؟

بالتأكيد لا. ولهذا علينا إدراك الله بنوره الذي به رأينا الجبل، ونحن  
على سبيل المثال: إذا نظرنا إلى الشمس لزمان قد نفقد بصرنا، ولهذا ينهانا  
الطبيب عن النظر إلى مصادر النور الشديدة، ويحثنا على التمتع في نوره  
الذي هو الجمال بذاته، ولذا إذا كانت مصادر النور المخلوقة فؤة لا يطاق

النظر إليها فما بالكم بقوة خالقها؟ ولهذا عندما تركزت قوة نور الله على الجبل جعلته دكا، وهكذا لو تركزت قوة نور الله على الأرض والسموات لجعلتها كما جعلت الجبل.

وعليه فمن يدرك نور الله لا يشك في وجوده، ولذا فمن أدرك نور الله أدركه يقينا، ولهذا قال موسى صلى الله عليه والسلام: {سُبْحَانَكَ تَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}. {

إن الله نور في ذاته، ونور في خلقه، ونور في علمه، ونور في بصره وسمعه، ونور في الحركة والسكون، وهو الذي في الشروق ضياء وفي الغروب نور، ضياء الشمس في النهار، وضوؤها في كبد السماء ليلا نجوما تتلألأ وقمر منيرا، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ} 466.

وهكذا (الأنبياء نور، ولهم نور)، فهم نور المنير في أرضه، وكتبه معهم نور تنير الأرض التي استخلفهم فيها مبشرين ومنذرين ومحرضين على الحق وإحقاقه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرْجًا مُنِيرًا} 467.

خطاب الآية الكريمة موجّه إلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام الذي وصفه بأنه سراج منير، أي هاديا بنور القرآن إلى الإيمان بالله واحدا أحدا والّا يشرك به ولا يتخذ من دونه أربابا، وداعيا إلى كل ما من شأنه أن يُحقّق الحقّ ويُرهبق الباطل والتي هي أقوم وأحسن، هاديا للعدل وللمحبة والتعاون

---

466 - يونس 5، 6.

467 - الأحزاب 45، 46.

والمشاورة في الأمر، ولاستفاء الكيل والميزان، ولعدم التفرقة بين أحدٍ من رُسُلِهِ، ولذلك فهو النور المتمم لمكارم الأخلاق.

ولهذا كان محمد عليه الصلاة والسلام مستمد لنوره من النور المطلق فكان بحق سرجا منيرا.

و(للمؤمنين نور) يسعون به في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} 468، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 469.

وعليه نقول:

النور ظاهر وباطن: ظاهر في الحق، وكامن في الحقيقة، فأما الحق فهو بين لا حجاب عليه، كالشمس ظاهرة لا تغطي بفتحات الغربال، والحقيقة كامنة كالزيت في حبة الزيتون وكالشجرة في النواة، ولذا فالحقيقة تحتاج لمن يبحث عنها ويكتشفها، فهي حقيقة لمن يريد المعرفة، والحق هو الذي به يتم البحث الموضوعي، حيث لا انحياز إلا للحق، ولا اعتراف إلا به، ولهذا يهتدي الناس بنور الحق الذي هو نور من عند الله تعالى.

---

468 - الحديد 12، 13.

469 - التحريم 8.

ومن مظاهر الحقّ ومكامنه الآتي:

ظاهر في القول الحقّ: الذي به يُدمغ الباطل فيزهق، قال تعالى  
{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ  
لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} {470،  
وقال تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ  
الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} {471.

ظاهر في العمل الصالح: الصلاح أساس الاستخلاف في الأرض،  
والفساد خروج عن الطاعة، ولهذا الإصلاح نور، والفساد ضلال وظلمة.

ظاهر في الطاعة: الطاعة هداية بعد تبين، ولا تبين ولا هداية إلا  
بنور، ولذا فالنور هو الحقّ الذي به يتم التبين والتعرف على الحقيقة،  
والداعي بنوره تعالى هو رسول الله عليه الصلّاة والسّلام السراج المنير للناس  
كافة ولهذا كانت رسالته الإسلام هي الرّسالة الخاتمة.

ظاهر في النفس: النفس متنوعة الطباع فمنها ما يملؤه النور فتكون  
المطمئنة، ومنها ما يسودها الظن فتكون من الآثمين، ومنها ما يسودها  
السوء فتكون الأمّارة به، ولهذا النفس المطمئنة تعود إلى ربّها بنور الهداية  
الذي استمدته منه. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ  
رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي} {472. أما النفس التي  
تضل، فإنها تفقد نور ربّها فيها ممّا يجعلها تأمر بالسوء إن لم يرحمها الله بنور

---

470 - البقرة 146، 147.

471 - الأنبياء 18.

472 - الفجر، 27 - 30.

من نوره، قال تعالى: {وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} 473.

ظاهر في البدن: نور الله لا تخفيه خافية، وعلامات السرور والفرحة والابتهاج في مرضاة الله نور يُبث عقلا وبدنا، ولذا فالنور هو الذي يجعل الحركة والفعل والعمل صالح على الهداية والصراف المستقيم، قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} 474.

ظاهر في الصدور (القلوب والبصيرة): النور هو محيي البصيرة، وبعث اليقظة والفتنة فيها، ولهذا تصحو القلوب من غفلتها بنور اليقين الذي نزل به الروح الأمين على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} 475،

وعليه: لا رؤية إلا بنور ضوئي أو نور يقيني، وفي كلتا الحالتين لا نور إلا من النور المطلق عز وجل. قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا

---

287 - يوسف 53.

474 - الفتح 29.

475 - الحج 46.



تُبْصِرُونَ} 476. أي لو جعل الله النهار سرمدًا لا نور فيه، هل لنا بأن نبصر؟

بالطبع لا، ولهذا فالنور هو الذي به تبصر الأعين، فالحمد لله رب العالمين الذي جعل النور في قلوبنا وأبصارنا حتى اهتدينا إلى السبيل الحق.

قال تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ} 477، الذي به نبصر هو النور الحسي المستمد من النور المطلق، وهو أمر عظيم، ولهذا كان القسم بعظمته، حيث لولا النور ما كان لنا بصر به نتهدي إلى السبيل دون ميل أو انحراف، وهذا لا يعني أن الله، لم يقسم بما عرفنا وبما لا نعرف، فهو علام الغيوب، ولذا جاء القسم مطلقًا بكل ما نعلم وكل ما نبصر، وكذلك بما لم نعلم وما لم نبصر، والآيتان بينهما تكامل، ففي الآية الأولى: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ) فبما تبصرون، جاءت جامعة لا مانعة، فهي تحتوي جميع ما به نبصر من النور إلى العينين إلى القلوب والعقول والبصائر وغيرها كثير، حيث نعم الله التي بها نبصر لا تحصى، فله الحمد الذي هدانا بما بعث به نبيه محمد السراج المنير لإحقاق الحق وإقامة العدل بعد توحيد الله تعالى وعدم الشرك به.

أمَّا الآية الثانية: (وما لا تبصرون) فالذي لا نبصره هو العظيم الذي يفوق مقدرتنا على إبصاره وهو المطلق الذي لا تحده الحدود ولا يحصره حيز، وهو الذي وصف محمد عليه الصلاة والسلام بأنه (السراج المنير) لا إله إلا هو سبحانه.

ظاهر في السمع: نور الله على عباده هداية، والهداية قيمة مرضية لمن آمن، وهي الشاهد على القول والفعل والعمل، ولذا فالنور دائما في الكلمة

---

476 - القصص 72.

477 - الحاقة 38، 39.

الحقّ والفعل الحقّ والعمل الحقّ، أي هو في كل ما من شأنه أن يصلح ولا يُفسد، وكل ما هو مصلح نزل على السراج المنير رسالة خاتمة للناس كافة، تهدي إلى الحقّ ولا تجعل أحد يضل إن استمد نوره من النور العظيم الذي جاء به محمّد عليه الصلّاة والسّلام وهو (القرآن) وإن اتخذ محمّد رسول الله عليه الصلّاة والسّلام سرجاً منيراً (أسوة حسنة).

ومن نعمه على الذين استخلفهم في الأرض بعد أن خلقهم في أحسن تقويم هي نعمة السمع والإنصات إلى الحقّ، حتى الأخذ به، فسبحانه قال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبِعُوا حَيْثُ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } 478.

أمّا الذين ضلوا فقولهم لا يحزن أصحاب الحقّ ومتبعيه، بل سيكون حزننا على أصحابه يوم لا ينفعهم مال ولا بنون، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } 479.

هؤلاء الذين أصابهم الخزي، هم الذين أقفلت صدورهم وأسماعهم وأبصارهم عن رؤية السراج المنير الذي يهدي للتي هي أحسن.

ولأنّ النور من صفات الله تعالى قال الله عزّ وجلّ (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) لا غيره، فهو النور الذي ملاً الوجود خلقاً، فتبارك الله أحسن الخالقين، ولأنه هو خالق السماوات والأرض، فلا نور فيهما إلا من خلقه، أي من نوره، ولهذا بعث محمداً سرجاً منيراً للإنس والجن فامتد نور سراجهِ من السماوات إلى الأرض يهدي للتي هي أقوم ويبيّن للناس ما هم فيه مختلفون كيلا يضلوا السبيل، قال تعالى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } 480 لقد بعث نوره الذي به أدركنا السماوات العلا والأرض بنوره، ولهذا فإنّ (الله نور السماوات والأرض) وقال: (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) أي مثل نور هداه في قلب المؤمن كمشكاة فيها مصباح كما جاء وصفه في الآية الكريمة.

والنور الضياء والنور ضد الظلمة وفي المحكم النور الضوء أيّ كان وقيل هو شعاعه وسطوعه. وقوله عزّ وجلّ: { وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } 481 هذه بالنسبة للمسلم والمؤمن مسلمة، حيث لا شك في أن النور لا يستمد إلا من النور، ولهذا من لا يسترشد من السراج المنير في اتباع الحقّ الذي هو نور من عند الله تعالى فليس له بدا من أن يكون في الظلمة.

والسراج المنير هو النور بتخلقه بهاء الله الذي يبعث النور في قلوب العباد فيجعلهم مهتدين يصلحون ولا يفسدون. ووجه المثل الذي ضربته الله

---

480 - المائدة 15، 16.

481 - النور 40.

بالزيتونة المتميزة، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة لتقبل التعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، استنار قلبه نورا، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءة عظيمة، لصفائه من كل شائبة، وذلك بمنزلة صفاء الزجاج الدرية، فيجتمع له نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، فهو نور على نور في قوله للحقّ وعمله به وهدايته إليه والدعوة له تبشيرا وإنذارا وتحريضا وإرشادا.

ولهذا (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ) ممن يعلم صفاء سريره وطهارته، وأن النور معه يزيد وينمو (وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ) ليعقلوا عنه ويفهموا، لطفًا منه بهم، وإحسانًا إليهم، وليتضح الحقّ من الباطل والحمد لله ربّ العالمين.

ونور الله هداه للمؤمن فهو نور الهدى على نور الإيمان (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ) إلى دين الإسلام الذي به بعث محمّدا سرجا منيرا، ليُحقّق الحقّ ويُرهِق الباطل، ولهذا نقول:

النور في الدنيا عدل وفي الآخرة عدل، أي لم تعتدل الدنيا إلا به، ولن تعتدل الآخرة إلا به، ولأنه نور فهو المدخل للجنة، والخليفة هو الذي في نظره نور وفي سمعه نور وفي نفسه نور وفي قلبه نور وفي قوله نور وفي فعله نور، به يهتدي للحقّ في الحركة والسكون.

ولهذا قد استعار الله عزّ وجلّ النور للحقّ والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل، قال تعالى: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} 482 أشرقت

الأرض بما أظهر فيها من حقّ وعدل، وبما بسطه من القسط في الحساب ووزن للحسنات والسيئات، وإشراق الأرض بنور ربّها الخالق البارئ، فهي التي أشرقت بوجودها أي ظهورها من لا شيء إلى الشيء الذي هي عليه. وأشرقت بضياء الشمس عليها وذلك بتجلي الظلمة عنها، وأشرقت بنور القمر والنجوم في سمائها ليلا، وأشرقت بالسراج المنير الذي بعثه النور المطلق مبشرا ونذيرا وسرجا منيرا، وأشرقت بالإسلام دينا خاتما لكل الديانات السماوية التي أنزلت من عند الله تعالى، وأشرقت باهتداء العباد بها وإليها وهم مؤمنون بخالقها وخالقهم منها لأجل إحقاق الحقّ فيها وإزهاق الباطل عنها.

وعليه كما يستمد الغنى من الغني المطلق والعدل من العدل المطلق، والحقّ من الحقّ المطلق كذلك يستمد النور من النور المطلق، ولهذا فالنور خالق ونور الموجودات مخلوق، الخالق لا مادة، المادة تُخلق من اللامادة، والمادة تتنوع وتتعدد، منها ما هو من التراب والطين اللازب، ومنها ما هو من نور، ومنها ما هو من نار، ومنها ما هو هواء، وجميعها خالقها الخالق الذي لا تدرك ماهيته إلا بذاته، أي يدرك هو كما هو واحد أحد لا شريك له، له الملك وله الأمر والنهي وهو على كل شيء قدير لم يلد ولم يولد سبحانه.

وهذا هو نور الهداية للإسلام وللعمل الصالح وهو يدخل في صميم دور الخليفة الذي هداه الله وتولى هو بدوره إنارة الطريق أمام الناس ليهتدوا إلى النور الذي أرسله الله سرجا منيرا وإلى الكتاب الذي جاء به عليه الصلّاة والسّلام نورا من النور المطلق، ولهذا فمن تبع السراج المنير اهتدى إلى الحقّ بالحقّ فاستنار سبيله فكان نورا على نور.

ولأنّ نور الإيمان يُخرج من الظلمات إلى النور، لهذا فالإسلام هو النور، والكتاب هو النور، والرّسول هو النور، نعم إنه النور وإلا لما وصفه الله

سبحانه وتعالى بصفة كونه سرجا منيرا ورحمة للعالمين، وعليه فالنور المطلق هو الله، والأنوار المستمدة منه، هي الرسل والأنبياء والمؤمنين والكتب التي جاءت بها مبشرين ومنذرين ومحرضين بها على الحق وإحقاقه قولاً وفعلاً.

قال الله تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} 483، وفيه أقوال:

الأول: أنّ المراد بالنور محمد شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسرجا منيرا.

الثاني: أنّ هذا النور هو الحل لجميع مشاكلكم في الدار الدنيا الذي به تُخرجون من الظلمات إلى النور.

الثالث: أنّ المراد بالنور الإسلام الذي هو دين الله في أرضه وهو مبعث جميع الأنبياء والرسل.

الرابع: الكتاب المبين الذي هو نور للهداية وهو الرسالة الخاتمة (القرآن) فلا فتنة بعد ذلك فهو كتاب الكافة.

فالمؤمن هو النور والكافر هو الظلمة فعن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: "المؤمن بين أربع: إن ابتلى صبر، وإن أعطى شكر، وإن قال صدق، وإن حكم عدل، فهو يتقلب في خمسة من النور، وهو الذي يقول الله: (نور على نور) كلامه نور، وعلمه نور، ومدخله في نور، ومخرجه من نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة، والكافر يتقلب في خمسة من الظلم، فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه في ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة" 484.

---

483 - المائدة 15.

484 - حلية الأولياء، ج 1، ص 136.

## 20. على خُلق العظيم:

الخُلق هو السلوك وفقا لمجموعة القيم التي تنال التقدير والاحترام والاعتبار من الكافة المؤمنة يترى عليها العباد معاملة حسنة مع طيب نفس وتمسك بالحق، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَبْصَارِكُمُ الْمَفْتُونُ} 485.

فقوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) الخطاب موجه إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا القول الحق هو الدليل العظيم بأن الرسول الكريم حقًا هو على خُلق عظيم، أي خُلق سلوكية كلها في مرضاة الله تعالى، تتطابق مع ما أنزله عليه تعالى من قرآن كريم، ولهذا فأخلاقه عظيمة، أي معظمة بالحجة والكلمة الطيبة الحسنة حتى أصبح محمد عليه الصلاة والسلام قدوة حسنة لمن أراد أن يكون على خُلق عظيم.

والخلق العظيم هو الخلق الذي أراده الله في خلقه مصداقا لقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} 486، أي لقد خلقنا الإنسان على صورة ومعنى (شكل ومضمون) فمن هو على أحسن تقويم انطبقت صورته مع مضمونه فكان على خُلق عظيم، وهكذا بالتمام والكمال كان رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام على هذه الصفة العظيمة (على خُلق عظيم).

وعليه فإن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان استحيائي، والاستحياء هو نتاج فائق للاحترام والتقدير مع رفعة في الذوق المكلل برفيع القيم الأخلاقية، وهذه صفة قد اتصف بها رسول الله عليه الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ

485 - القلم 4 .6.

486 - التين 4.

فَانْتَشَرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ  
وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ  
ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ  
تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا إِنْ تُبَدُوا شَيْئًا  
أَوْ تُخْفَوُهَا فإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا {487.

وعليه ولأجل الزيادة في التبيان نعود إلى اللغة والاصطلاح والمفهوم  
لنقول:

الخلق في اللغة العادة 488، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ  
الْأُولَىٰ} {489.

أما في الاصطلاح فالخلق هو صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه  
وأوصافها ومعانيها الميختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها  
ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة مما يتعلّقان بأوصاف الصورة الباطنة  
أكثر مما يتعلّقان بأوصاف الصورة الظاهرة 490.

إذا الخلق في الواقع انعكاس لما تؤمن به النفس باطنا وظاهرا، إيمانا  
صادرا عن قناعة تركز على العقيدة أو القناعة (العرف) أو المنطق أو العقل  
أو العاطفة، فهذه كلها ركائز الأخلاق في الإنسان، ونوضح ذلك على  
النحو بالآتي:

. عقيدة: العقائد هي التي تدفع معتنقيها نحو اختيار مسار أخلاقي  
محدد يتجانس مع مبادئ هذه العقيدة وما فيها من فضائل، فالمسلمون نهلوا

---

487 - الأحزاب 53، 54.

488 - تاج العروس، 1 ج، ص 6294.

489 - الشعراء 137.

490 - النهاية في غريب الحديث والأثر ابن الأثير، ج 2 / ص 144.



من الإسلام أخلاق فاضلة كمثّل العفو عند المقدرة مصداقا لقوله تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} 491، والتسامح الخالص الذي وصفه سبحانه وتعالى وصفا دقيقا بقوله عزّ وجلّ: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} 492، وكثير من مثل ذلك.

. القناعة والعرف: تصدر كثير من الأخلاق عن قناعات بصواب هذا السلوك أو ذاك من الأفراد لتجانس قناعات الجماعة فتصل هذه القناعات إلى صيغة العرف الذي ترتضيه الجماعة، وهذا أمر جعله الله عزّ وجلّ من المصادر المقبولة في التشريع مصداقا لقوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} 493، ولذلك فالعرف هو المعروف والجميل من الأفعال التي يرتضيها الناس الذين تسودهم تلك الأعراف التي آلفها واستانسوا بها واستانسوا إليها في أحكامهم التي تُظهر القيم الأخلاقية في القول والفعل والسلوك والعمل.

. المنطق: هو ما يُعقل حُجَّةً يحتكم بها ويُحتكم إليها والأخذ بالمنطقيات يعطي الإنسان قدرة التخلق بأخلاق تدفعه باتجاه الصواب والتوازن الإدراكي إلى حد كبير.

. العقل: فالعقل هو الذي يفصل في اختياراته بين نوعي الأخلاق من خلال الموازنة بينهما ويدفع بمن يركز على العقل في اختياراته إلى اختيار الأمثل من الأخلاق.

---

491 - الشورى 40.

492 - فصلت 34.

493 - الأعراف 199.

. العاطفة: للعاطفة دور كبير في تحديد ما يصدر من أخلاق عن النفس، لأنها من أهم المتحركات في الاختيار فهي به إلى الصواب تارة، وهي تنحرف به تارة أخرى، لذلك نبهنا الله عزّ وجلّ إلى ذلك وحذّرنا من الاختيارات العاطفية التي تميل بنا عن الحقّ فقال عز من قائل: {وَهَيَّ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ} 494.

بقي أن نتساءل:

هل الصفة هي الخلق؟

هل صفات الرسول عليه الصلّاة والسّلام هي أخلاقه؟

نقول:

من المعلوم أن الصفة هي الاسم الدال على بعض أحوال الذات، وذلك نحو طويل وقصير وعافل، وغيرها. وهي الأمانة اللازمة بذات الموصوف الذي يعرف بها 495.

أمّا الخلق فهو عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلا وشرعا بسهولة سميت الهيئة خلقا حسنا وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة خلقا سيئا وإنما قلنا إنه هيئة راسخة لأنّ من يصدر منه بذل المال على الندور بحالة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه وكذلك من تكلف السكوت عند الغضب بجهد أو روية لا يقال خلقه الحلم وليس الخلق عبارة عن الفعل

---

494 - النزاعات 40.

495 - التعريفات، ج 1، ص 43.

فربّ شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع وربّما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث أو رياء<sup>496</sup>.

عليه فإن الخلق غير الصفة، فالأخلاق تصدر عن الصفات، كالكرم هو خلق يصدر عن صفة الإنسان الكريم، وقد لا يصدر الخلق مع وجود الصفة لمانع معين كالكرم إذا انقطع ماله فإنه لا يستطيع أن يُظهر خلق الكرم لوجود المانع.

كذلك فالخلق متغير، أما الصفة فتأبته لأنها من الموصوف حتى قال البعض أن الصفة هي الموصوف ذاته.

لذلك فإن حديثنا عن أخلاق النبي عليه الصّلاة والسّلام لن يكون هنا عن صفاته التي عرضنا لها في موضع آخر بل عن أخلاقه التي تصدر عن صفاته.

إنّ الحديث عن أخلاق الرّسول محمّد عليه الصّلاة والسّلام هو أقرب ما يكون إلى أن نصفه بالسهل الممتنع، لأننا يمكن لنا أن نختار أي خلق كريم وننظر إلى الإنسانية لنجد إن أحسن من تخلقه كان سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام هذا من جهة السهولة، ومن جهة أخرى فإنه من الصعب على باحث أن يلم بأخلاق سيد الكائنات محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ولا حتى يستطيع التعبير عن حقيقة ماهيتها كما هي، لذلك يبقى الحديث عن أخلاق الرّسول محمّد عليه الصّلاة والسّلام عبارة عن محاولة لمقارّبة الحقيقة لأن الوصول إلى الحقيقة في هذا الموضوع ممتنع.

إنّ الحديث عن أخلاق الرّسول عليه الصّلاة والسّلام يجب أن يستند على مصدر يقدم الحقيقة كما هي، ولا شك أنّ القرآن هو أوثق مصدر

---

496 - التعريفات، ج 1، ص 136.

لمن يريد أن ينهل المعرفة في هذا الموضوع، لذلك سيكون مسار البحث في أخلاق الرسول الأكرم محمد عليه الصلّاة والسّلام قرآنيا لأنه الأمل في هذا السياق على حسب ما نعتقد.

لقد بيّن الله عزّ وجلّ أخلاق رسوله الخاتم لتكون منهجا أخلاقيا لأتباعه ولكل من يبحث عن الأخلاق الفاضلة على المستوى البشري، وعلى النحو الآتي:

#### الخلق العظيم:

تفضل الله تعالى على حبيبه محمد عليه الصلّاة والسّلام بتوفيقه للاتصاف بمكارم الأخلاق وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، ثم أثنى عليه ونوه بذكر ما يتحلى به من جميل الصفات في آيات كثيرة من كتاب الله العزيز أقتصر على إيراد بعضها من ذلك قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} 497، قد أخبر سبحانه في هذه الآية الكريمة عما كان عليه المصطفى من أخلاق فاضلة ووصف خلقه عليه الصلّاة والسّلام بأنه عظيم.

وقوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) فيه مسائل:

المسألة الأولى: كانت الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية ظاهرة في القول والعمل والسلوك، ولما كانت أخلاقه الحميدة على التمام لا شك وصفها الله بأنها عظيمة ولهذا قال: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} 498، أي لست متكلفا فيما يظهر لكم من أخلاقي لأن المتكلف لا يدوم أمره طويلا بل يرجع إلى الطبع.

---

497 - القلم 4.

498 - ص 86.

وفيه مسألة مهمة تتعلق بالمعنى في السياق حيث قال الله عزّ وجلّ  
لرسول محمد عليه الصّلاة والسّلام أنه على خلق وكلمة على للاستعلاء،  
فدل اللفظ على أنّه مستعمل على هذه الأخلاق ومستول عليها، وأنه  
بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة كالأمير بالنسبة إلى المأمور.

المسألة الثانية: الخلق قيم حميدة يسهل على المتصف بها الإتيان  
بالأفعال الحسان، واعلم أنّ الإتيان بالأفعال الحسان غير، وسهولة الإتيان  
بها غير، فالحالة التي باعتبارها تحصل تلك السهولة هي الخلق ويدخل في  
حسن الخلق التحرّز من الشح والبخل والغضب، والتشديد في المعاملات  
والتحجب إلى الناس بالقول والفعل، وترك التقاطع والهجران والتساهل في  
العقود كالبيع وغيره والتسامح بما يلزم من حقوق من له نسب أو كان صهرا  
له وحصل له حقّ آخر، وفي كل امر تتوفر تقوى الله.

المسألة الثالثة: فالخلق العظيم الذي نعت الله عزّ وجلّ به خلق نبيه  
عليه الصّلاة والسّلام هو درجة مثلى للتخلق بالقيم الحميدة الحسنة، أي أن  
المنهج الأخلاقي الذي سلكه النبي الأكرم عليه الصّلاة والسّلام هو المتجسد  
في جميع صفاته التي ذكرها والتي لم نذكرها؛ فخلقها مستمدة من صفاته  
وصفاته مستمدة من صفات خالقه، ولهذا فصفت الرسول لا تحصى بما  
أتمها المستمدة من صفات خالقه تعالى.

## 21 . مؤتي:

المؤتي رسول الله عليه الصّلاة والسّلام الذي أتى بالحقّوق إلى  
أصحابها، مصداقا لقوله تعالى: { وَمَا أَنَا كُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ } 499، ولأنها  
حقّوق فهي تؤخذ دون تردد ولهذا قال (فَخُذُوهُ).

ويتحقق الإتيان بعد الحصول على الأشياء بطرق حلال (حيث لا حرام فيه) والمؤتي هو الذي حصل على تلك الأشياء بأساليب الحق المتبع جهادا في سبيل الله عزّ وجلّ، وهو الذي يعرف الحق ويعرف أصحابه فلا يضل السبيل من أجل أن يصل إليهم.

وعليه فالإتيان وفقا للآية الكريمة السابقة يتطلب الآتي:

. حقّ: وهو ما للإنسان من نصيب فيما يؤتى به إتيانا، ويعني ما أعطاكم الرسول من الفيء فخذوه فهو لكم حقّ حلال.

. مؤتي بالحقّ: المؤتي بالحقّ هو الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

. حقّ مأخوذ: الذي له نصيب فيه، وهم المسلمون أصحاب الحقوق، مصداقا لقوله تعالى: { مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجْبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } 500.

## 22 . ناه:

الانتهاء امتناع عن حرام أو باطل أو مكروه وهو ما ليس بحقّ للإنسان فيه، وقد يكون الانتهاء بالإرادة الشخصية بعد معرفة وقد يكون

بأمرٍ ناهٍ عن المنهي عنه مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا تَهَاكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا} 501. يُفهم من هذه الآية الكريمة:

ناهٍ: وهو الرسول الكريم عليه الصلوة والسلام الذي يعلم بما أعلمه وعلمه الله تعالى.

. منهي: المنتهون هم المسلمون الذين آمنوا بمحمد واتبعوه نبيا رسولا ومن يهتدي من بعدهم يكون من المنتهين عما نهى محمد عنه.

. منهي عنه: هو ما ليس بحلال ولا مفضل ولا مقبول ولا مرغوب وفقا للقيم الحميدة والفضائل التي جاء بها محمد رسولا من عند الله عز وجل مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} 502، وغيره كثير من المنهي عنه، قال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} 503، وقال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} 504، وقال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْنَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} 505، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ

---

501 - الحشر 7.

502 - المائدة 90 - 92.

503 - الأنعام 151.

504 - الأنعام 152.

505 - الإسراء 32، 33.

سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا {506.

### 23 . مُتَّبِع :

لقد اتبع الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ما أوحى إليه من ربه اتباع يقين لا شك فيه، ولأن ما يتبعه محمد هو الحق؛ فكان صابرا من أجل إحقاقه، قال تعالى: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} 507

الإتباع المأمور به رسول الله عليه الصلاة والسلام هو اتباع القرآن الكريم الذي أنزل عليه كتابا كاملا لا نقص فيه، قال تعالى: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا} 508.

إذا اتبع الرسول لربه هو اتباع رضوان والذي يتبع رضوان الله ليس كمن باء بسخطه، قال تعالى: {أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} 509.

---

506 - النساء 43.

507 - يونس 1- 9.

508 - الأحزاب 2، 3.

509 - آل عمران 62 . 64.



ولأن الرّسول الكريم يعلم أن الله قد أمره بالدعوة إليه فهو المتّبع طاعة للأمر الذي به أمر وهو اتباع ما جاء في القرآن الكريم الذي يدعو إلى عبادة الله واحداً أحداً لا شريك له ويدعو إلى كل ما من شأنه أن يؤدّي إلى الإصلاح في الأرض وإعمارها وعدم الإفساد فيها وسفك الدماء بغير حقّ، ولهذا فهو الذي يعمل اتباعاً بما أمر، قال تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} {510}.

ولأنّ الرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام مُتَّبِعٌ لأمر ربّه طاعة فهو المعرّض عن المشركين طاعة، قال تعالى: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} {511}.

ولأنّ الرّسول محمّد عليه الصّلاة والسّلام هو المتّبع لما أوحى إليه فهو خير رسول أرسل للناس كافة يهدي للتي هي أحسن وأقوم وأنفع وأفيد وأرفع وأعظم، ولهذا فهو المبشّر والمنذر والمحرض على الخير وأفعاله الحسان، ولأنه كذلك فهو يخاف المعصية إن لم يتّبع ما أمر باتباعه وهو الوحي الذي ظهر في الكتاب المحفوظ قرآن عربيّ يهدي للحقّ واتباع السبيل المستقيم، قال تعالى: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّا بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِنَا نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ} {512}

---

510 - الأنعام 56.

511 - الأنعام 106.

512 - يونس 15.

## 24 . عَفْوٌ :

العَفْوُ: هو من بيده أمر تحقيق الفعل في المعاقبة أو المحاسبة أو المساءلة والعذاب تجاه من لا يستجيب للأمر ومع ذلك يغفر للمذنب بعدم إنزال العقاب مع أنّ المذنب يستحقّ ذلك، ولهذا فهو العَفْوُ بمغفرته ورحمته، أي أنه المتجاوز عن السيئات والأخطاء بإعطاء الفرصة للتوبة وبما تعمل أيدي العباد من حسنات مما يجعل الحسنات يذهبن السيئات.

في أسماء الله تعالى العَفْوُ وهو فَعُولٌ من العَفْوِ وهو التَّجَاوُزُ عن الذنب وتَرْكُ العِقَابِ عليه وأصله المِحْوُ والطَّمْسُ، واسم الله العفو يدل على صفة من صفات الأفعال، وفي دلالة اسم الله العفو على الصفة قال تعالى: {وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ} 513، كذلك قوله: {وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} 514.

فالعفو هو الإسقاط المطلق للعقوبة وليس تأخيرها، فالمقصود من العفو الإزالة كما تدل الآيات المحكمات، قال تعالى: {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى} 515، ولهذا لم يكن المراد منه التأخير، بل الإزالة، فالعفو إذا هو الإسقاط المطلق.

ويتأكد أن العفو هو الإسقاط في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدَدِ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} 516.

---

513 - الشورى 25.

514 - الشورى 30.

515 - البقرة 237.

516 - البقرة 178.

إذا فظاهر العفو هو إسقاط الحقّ وذلك إنما يتأتى من الولي الذي له الحقّ على القتل، فصار تقدير الآية: فإذا عفا ولي الدم عن شيء يتعلق بالقاتل فليتبع القاتل ذلك العفو بمعروف، وقوله: (شيء) مبهم فلا بدّ من حمله على المذكور السابق وهو وجوب القصاص إزالة للإبهام، فصار تقدير الآية إذا حصل العفو للقاتل عن وجوب القصاص، فليتبع القاتل العافي بالمعروف، وليؤد إليه ما يؤدّي بإحسان، وبالإجماع لا يجب أداء غير الدية، وما يؤكد هذا الوجه قوله تعالى: (ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ) أي أثبت الخيار لكم في أخذ الدية، وفي القصاص رحمة من الله عليكم، لأن الحكم في اليهود حتم القصاص والحكم في النصارى حتم العفو فخفف عن هذه الأمة وشرع لهم التخيير بين القصاص والدية، وذلك تخفيف من الله ورحمة في حقّ هذه الأمة.

وفي اللغة: "العَفُوُّ على فَعُول هو الكَثِيرُ العَفْوُ" 517، فهو الذي يعفو عن صغير الذنوب وعن كبيرها للتائب المستغفر، فيعفو عن الضعيف الذي لا يقدر على فعل الخير لعله الضعف أو الكبر أو لقلة التدبير ممّا يجعل بعض أفعالهم ذنوبا صغيرة، وهؤلاء جاء ذكرهم في قوله تعالى: {إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا} 518، والإشارة واضحة إلى صغر الذنب وذلك لذكر العلة وهي الضعف المشار إلى أنواعه في الآية وفي آيات أخرى حددت بالضبط من الذين يجب مراعاتهم كل حسب وضعه تعليما وتفهيما لفكرة مهمة يريد العفو أن يبينها لخليفته ليتمكن من التمييز.

517 - مختار الصحاح، 1، ص 210.

518 - النساء 98، 99.

ولأته العليم فهو الذي يعلم بحال من هم في حاجة للعفو، فيعفو عنهم، ومن هؤلاء:

أ . المضطر، والاضطرار حالة مُلجئة للمخالفة على كل صعيد، كالحاجة إلى الطعام، إذ يمكن للاضطرار أن يوقع العبد في الحرام، وليس عليه شيء ما دام خارج سور البغي فإذا دخله اختلف الحكم عليه، أما إذا حرص العبد على الطاعة واضطر إلى الوقوع في ما حرم الله فإنه يجد الله العفو عفورا رحيفا، {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ بِهِ لَعَنَ اللَّهُ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 519، لذا وجب على الخليفة أن يتنبه إلى فكرة الاضطرار ويعرف معانيها جيدا ويدرك حدودها بالتحديد ليستطيع التمييز بين عاصٍ باغٍ، وبين مضطرٍ ذي حاجة، فيجعل لكل منهما حدا كما علّمه المولى عز وجل.

ب . العليل، بكل أنواع العلل، أصابه العفو برحمته فرفع عنه الحرج فقال: {لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 520.

ج . الأطفال، وهؤلاء يُلتمس لهم العذر في أفعالهم وأقوالهم إلى حد معين هو البلوغ، فإذا أتموه كانوا خارج الاستثناء، {وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 521.

---

519 - البقرة 173.

520 - التوبة 91.

521 - النور 59.

د . الشيوخ: غير أصحاب الحاجة إلى النساء وهم الشيوخ الطاعنون في السن الذين فنت شهواتهم، يقول العفو سبحانه: {عَبَّرَ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنْ الرِّجَالِ} 522.

وهذه الأصناف أولى أن تكون ممّا يلفت انتباه الخليفة كونهم من المحتاجين إلى العون بشكل من الاشكال، فكان تنبيه العفو سبحانه لخليفته رحمة ورأفة بهؤلاء، وذلك ما يجب أن يتحلى به الخليفة الحقّ، كما في هذه الآيات إشارات واضحة للخليفة ليكون واسع العفو وأن يتسع صدره لكل من يحتاج عونه وعفوه الذي هو صفة لمن استمد صفاته من العفو عزّ وجلّ.

العفو على مستوى الخليفة تنازل عن حقّ، دون مطالبة لاحقة، مع تسامح إرادي دون إكراه، ويترتب على العفو طمأنة النفس ورضاها مع انتظار الزيادة في موازين الحسنات، التي يجازي الله عليها عباده الصالحين الذين استخلفهم في الأرض وأورثهم الجنة.

للعفو أنواع فيجب على الخليفة التمييز بين نوعين من العفو:

الأوّل: العفو الذي يحدث خيرا ويقصد إليه وهو المقصود في دعوة العفو لعباده للأخذ به، وقد ذكره العفو في آيات العفو وهي: قوله تعالى: {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى} 523، وقوله سبحانه: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} 524. ولهذا فمن لا يعفو ولا يصلح، لا أجر له عند الله، ولأن الأمر كذلك فالعفو والإصلاح هما مصدرا رحمة فلا ينبغي أن يغفل الخليفة عنهما، ولهذا كان رسول الله عليه الصلّاة والسّلام عفواً يُحبّ العفو ويحث عليه من خلقهم الله ليكونوا المستخلفين فيها.

---

522 - النور 31.

523 - البقرة 237.

524 - الشورى 40.

والثاني: أنّ يصير العفو سببا لمزيد جرأة الجاني وفؤة غيظه وغضبه وهذه الآية محمولة على القسم الثاني {والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون} 525، والتميز واجب لكيلا يكون العفو عن المصير كالأغراء له ولغيره بارتكاب الجديد من الظلم بحق العباد، فلو أن رجلا قتل رجلا وهو مصر على فعلته فلا يجوز العفو عنه لأن في ذلك تسفيه لمعنى العفو وتحريض لآخرين لسهولة القيام بمثل هذه الأعمال.

ومن عفو العفو أنه جعل العفو سنة بين عباده، فوعدهم أن يعفو عنهم ليحببه إلى نفوسهم فدعا العباد إلى الأخذ بالعفو، ورغبهم فيه، ومناهم بالثواب عليه، فقال العفو الكريم سبحانه وتعالى: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 526.

ولقد أوجب الله تعالى على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام بأن يعفو عن أصحابه وغير أصحابه حتى يكون العفو صفة من صفات محمد وسنة من بعده للمستخلفين في الأرض، قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ} 527، جاء الطلب على دلالة الأمر من الله تعالى لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام بأن يعفو عنهم، فعفي عنهم طاعة لأمر الله وحبا في العفو الذي هو صفة من صفاته.

ولأن العفو صفة من صفات محمد المحببة إليه فكان محمد عليه الصلاة والسلام عفو على من صاحبه وعلى من كاد إليه المكائد كما هو عفو على اليهود الذين نقضوا العهود معه أكثر من مرة وفي كل مرة، قال تعالى: {فَبِمَا

---

525 - الشورى 39.

526 - النور 22.

527 - آل عمران 159.

نَفْسِهِمْ مِيتَاتِهِمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ  
وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ  
فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {528

"يقول الله عزّ وجلّ لنبيه: اعف، يا محمد، عن هؤلاء اليهود الذين  
هُمُوا بما هموا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح لهم  
عن جُرمهم بترك التعرّض لمكروهم، فإني أحب من أحسن العفو والصفح  
إلى من أساء إليه" 529.

## 25. صبور:

الصَّبْر؛ هو الذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه  
بل ينزل الأمور بقدر معلوم ويجريها على سنن محدودة لا يؤخرها عن آجالها  
المقدّرة لها ولا يقدمها على أوقاتها بل يودع كل شيء في أوانه على الوجه  
الذي يجب أن يكون وكما ينبغي له.

الصبور: "المعتاد الصبر القادر عليه وهو اسم من أسمائه تعالى ومعناه  
أنه لا يعاجل العصاة بالانتقام مع القدرة عليه" 530.

الصبور: مصدر لكل صبر، يستمد الصبر منه وهولا يستمد من شيء  
سبحانه، ولذا فالصبر دليل فوّة العزيمة وسلامة الرأي والقرار والفعل والعمل  
وذلك لأنه المستمد من الصبور المطلق، ومن اتصف به كان من المستخلفين  
فيها، وخير المستخلفين هم الصديقين والأنبياء والرّسل والصالحين الذين  
يصلحون ولا يُفسدون ولا يسفكون الدماء في الأرض بغير حقّ.

---

528 - المائدة 13.

529 - تفسير الطبري، ج 10، ص 134.

530 - المعجم الوسيط، ج 1، ص 1049.

والصبر في حقّ الله تعالى يكون درسا في التوازن والنظام، أي أنّه سبحانه وتعالى لا تحمله العجلة على تقديم ما لا يجب تقديمه، أو تأخير ما لا يجب تأخيره بل حكمته هنا تتدخل لتعمل على تسيير أمور خلقه وفق نظام وسنن ثابتة، لا يمكن أن تتبدّل هذه السنن أو تتغير لتعجل أو تسرع في أمر من أمور عباده أو تتأخر عنه ولهذا كل شيء في مشيئته ومراده وهو الصبور على كل أمر، ولهذا فهو الذي يُهمل ولا يُهمل.

الصبور: هو من لا قلق فيه، وهو الذي يعلم بالأمر ويعلم ما يقوله ويفعله ويظنه الظانون، وهو بكل شيء عليم، ومع ذلك يترك الأمر إلى حين، ولهذا قال تعالى لنبيه محمّد صلّى الله عليه وسلّم: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} 531.

إذا الصبر كما يقولون هو مفتاح الفرج، ولهذا يقول الله عزّ وجلّ لنبيه محمّد عليه الصّلاة والسّلام أصبر: يا محمّد فإن الفرج آتٍ فلا تستعجل، ولأن محمّد يعلم أن الله علّام الغيوب فهو متيقن بأن الصبر هو مكن الخير والفرج معا فكان صابرا على الحقّ من أجل إحقاقه، قال تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى} 532، وقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} 533، فقله: (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) قول تأكيد إن صبرت وأنت على الحقّ ثابت فسبح أي وكأنه يقول له: اطمئن إنك لمنتصر على الأعداء (كفرة ومشركين ومنافقين

---

531 - الروم 60.

532 - طه 130.

533 - ق 38، 39.



وناقضي عهدود) ففي الآية الكريمة السابقة جعل الله تعالى قدرته على الخلق دون تعبٍ أو مشقة درسا ومثلا لتعليمه أنبيائه ورسله الصبر على صعاب الأمور، وكأنه يقول للبشر ما هو الأمر الأصعب من الخلق وتكوين هذا الكون؟ وبالرغم من ذلك فقد نفذ أمره دون ملل أو تعب، فعلى الخليفة الذي استخلفه الخالق في الأرض أن يكون صابرا على أموره وثابتا لا يهزمه الملل ولا يقضي عليه التعب والضيق.

بذلك لا بدّ أن نفرّق بين صبر الله تعالى وصبر العباد لأن صبر الصبور يكون عن قدرة مطلقة كاملة، وأيضا لا يكون صبره لقضاء حاجة له عند عبيده في الأرض، وكذلك لا يكون صبره حاملا الألم والحزن لعدم تمام ما يريد أو تأخيره، قال تعالى: ﴿وَرَبِّكَ الْعَنِّيٰ ذُو الرِّحْمَةِ إِنَّ يَشَاءُ يَذْهَبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ {534، أما الإنسان من غير الأنبياء والرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلّم فقد يكون صبره عن ضعف وعدم استطاعة، أو لقضاء غاية والوصول إليها عند غيره من البشر، ويكون في صبره شعور يحرك الألم والحزن في داخله، وقد يؤدّي به إلى اليأس والإحباط.

والله هو الصبور على جميع الخلق، ولكن رحمة الله بصبره وحلمه على العباد العصاة، بالرغم من شدة كفر هؤلاء الناس وإشراكهم به عزّ وجلّ، هو الصبور الذي يُخفي بين طياته الكرم والرحمة، فصبره هو الذي أحر هذا العقاب الدنيوي للكافرين جزاء لهم على كفرهم وعنادهم، فصبر الصبور هنا تمثّل في المنع عن تنفيذ العقاب الفوري لأولئك الكافرين وهذا ما ترغب به السّماء والأرض من شدة كفرهم وطغيانهم إلا أن الصبور يمسكهما بصبره وحلمه عزّ وجلّ، وهكذا كان رسول الله قدوة لغيره بالصبر حتى اتصف به قولا وعملا وسلوكا.

فعلى خليفة الله أن يكون صابرا امتثالاً لأمر الخالق في قوله تعالى:  
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ  
تُفْلِحُونَ } 535، فالصبر فيه حكمة التصرف والتحكم في النفس التي تمكن  
الإنسان من بلوغ الغايات العظام التي يرتضيها الله عز وجل ورسوله صلى  
الله عليه وسلم.

من هنا تتضح مكانة العبد الصالح المخلص عند الله فهو مخلوقٌ غالي  
على الخالق استخلفه في الأرض وأكرمه أكثر من جميع خلقه، علماً بأن  
الخالق بعلمه المسبق وخبرته بخلقهم جمعاً يعلم أنهم سيفسدون ويسفكون  
الدماء ولكنه أيضاً علم أنه من عباده الصالحين المصلحين فصبر على  
الظالمين وقرب المخلصين وأثامهم وأعطاهم أكثر مما يمكن أن نتصوره  
ليستطيع أن يتحمل العبء المنوط به، فيكفي الإنسان أن يتأمل في اسم  
الصبور ليستشعر بينه وبين نفسه أنه مخلوق مكرم وغالي عند ربه، والدليل  
على ذلك أنه حين يخطئ أو يُذنب أو ما شابه ذلك يجد الخالق أحياناً  
ساتراً له لا يفضحه بين الناس بل يستره، ثم يمنحه الفرص تلو الفرصة  
ليستغفر ويتوب إليه فيغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر سبحانه أنه الصبور  
الذي بعث في الأميين رسولا منهم يعلمهم ويذكهم وهو عليهم صابراً.

لذلك فلا بد لخليفة الله تعالى أن يكون عاشقاً لله مستشعراً بمكانته  
عنده، فلا يفترط فيها ولا يجب أن تنقص بل يجب أن تزيد، ومكانة هذا  
الخليفة لا تزيد إلا بالعمل الصالح والطاعة لله تعالى وخشيته والإخلاص له  
والصبر على حكمه، قال تعالى: { مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ  
وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ

ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا  
كَانُوا يَعْمَلُونَ {536}.

وعليه لقد خلق الله الإنسان وخلق فيه الشهوة والرغبة، وقد تباين  
البشر في اتباع شهواتهم، فمنهم من كان عبدا لها تأمره فيطيع، لا يستطيع  
الصبر على ما يشتهي فيسرع إليه دون إعطاء الفرصة لنفسه أن يحاورها عن  
مدى صحة أو خطأ هذه الطاعة لشهوته، فلا يتأني ولا يصبر على زينة  
ومتاع الدنيا اللذان من شأنهما أن تدمران حياته، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ  
حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ  
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ  
الْمَآبِ {537}، فالشهووات متعددة في الدنيا وكثيرة وكل نوع منها يحتاج إلى  
إرادة قوية يدعمها الصبر والجلد، والصبر لا يأتي إلا بالطمع فيما عند الله  
تعالى ومد البصر إلى النعيم الأخروي الذي ينتظر الصابرين في الدنيا  
والمتمسكين بصبرهم أمام إغراءاتها المتنوعة.

ومن كرمه تعالى على عباده أن أمرهم بالصبر علاجا لما قد يتعرض له  
الإنسان من ضيق وبلاء بأشكاله المتباينة، وقد جعل الله عز وجل الرسل  
صلوات الله عليهم وسلامه أمثلة للصبر على الابتلاءات والمحن، فما من  
رسولٍ أو نبيٍّ إلا وكان الصبر من صفاته، ومن شأن هذا أن يدعم فينا هذه  
الصفة، حيث أن الصبر كان وسيلة من ضمن الوسائل التي لجأ إليها  
المصطفين الأخيار في مشوار دعواتهم ومسيرة تبليغهم لرسالات الخالق عز  
وجل، قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي  
ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ {538}، وقوله

---

536 - النحل 96، 97.

537 - آل عمران 14.

538 - النحل 127، 128.

تعالى أيضا: {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} 539، وكان أمر الله بالصبر لرسوله علاجا يتعامل به مع الكفرة والعاصين، وليس مجرد توقيت فيه تأخير أو مَمَاطلة، وهو عبارة عن مبدأ اعتمد عليه الرُّسل والأنبياء يرتكزون عليه في تحمُّل معاناة تبليغ الرِّسالة لتوحيد الخالق سبحانه وتعالى، ولولا ذلك لما بلغت الدعوة إلى توحيد الله هذا المدى بإذنه تعالى، ولهذا كان صبر محمّد عليه الصَّلَاة والسَّلَام سلاحا قويا داعما لشعور النصر في نفسه، فكان صبره على الشدائد والأذى حتى من أقرب النَّاس إليه كان نابعا من حبه لله سبحانه وتعالى وحرصه على رضاه، ونستطيع أن نذكر هنا أن الرضا متبادل بين الصبور وعباده الصالحين، قال تعالى: {لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 540، فهنا يتحلى لنا الحب المتبادل وهو أرقى درجاته وأسمى أنواعه، هذا الحب الخالص الذي لا يمكن لإنسان أن يعبد الله تعالى ويصل بحبه له إلى هذه الدرجة من الحب، إلا وتجد الله تعالى قد أهداه بين جنبه قلبا صابرا على الشدائد ممَّا يجعل المؤمن صابرا لا يتذمر لعلمه أن صبره في الله لهذا الخالق الذي يحبه ويعظمه، والحبيب يسعى دائما لإرضاء حبيبه، والله لن يضيع صبره أبدا، قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} 541، من هنا يتضح لنا حب الله لعباده الصابرين، ومن هنا أيضا نستطيع أن ندرك مصدر الفوَّة التي يتحلى بها عباده الصابرين، وهو الحب النقي الصادق.

539 - المزمل 10.

540 - المجادلة 22.

541 - آل عمران 142.

فعلى خليفة الله أن يكون حبه لله دافعا لصبره، محتذيا بالصالحين والأنبياء والرسل من قبله، فلا ينكسر أمام حزنه أو يستسلم أمام فشله، أو يضعف أمام مصيبة أو بلاء قد يحلان به، بل عليه أن يستحضر الصابرين في سبيل الله ليشد عزيمته وأن يكون على يقين بأن الله يزيد من محبته لعباده الصابرين، فيكون مضرباً مثل بصبره فلا يستطيع أي كان أن يخترق هذا الحصن المنيع الذي لا بينه ولا يعمره إلا الرضا والقبول بقدر الله ولا يأتي هذا الرضا إلا بحبه.

لذلك فخليفة الله هو عنوان الصبر في الأرض، يتعامل مع أمور دينه وديناه بالصبر الجميل الذي من شأنه أن ينصره على نفسه أولاً وعلى من يؤذيه ثانياً فلا يشعر باليأس لمجرد امتناع حاجة من الحاجات عنه أو نقصها بل أنه يرى في ذلك حب الله له فيكون رده على هذا الحب بالصبر الذي يرتضيه الله لخليفته في الأرض كما سار عليه الحبيب المصطفى سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وعليه فمن الأمور التي تعود الإنسان الصبر حب الله فإذا انغرس حب الله في نفس المؤمن فإنه يستطيع أن يواجه العالم بأسره وينتصر، وقد بشر الصبور المطلق الصابرين لعلمه بصعوبة الصبر، فوعد الصابرين بالجزاء العظيم مكافأة لهم على ما كابدوه وعانوه ليصلوا إلى إمكانية الصبر، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} {542، فكم من مبتلى في هذه الدنيا منحه حبه لله الصبر على معاناته ومحنته، وأروع مثال على ذلك صبر آل ياسر على أذى وعذاب كفار قريش، فقد تجلى فيهم أروع صورة للصبر والتضحية في سبيل الله، إذ أن الله تعالى بشرهم

بموعِدٍ في جنة الخلد على لسان رسوله الكريم حين خاطبهم قائلاً وهم تحت وطأة العذاب: (صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة)، فاستحقوا بصبرهم هذا الوعد وهذا التكريم من الصبور الذي أمدهم بالصبر والثبات في قلوبهم، فانتصروا بهذا الثبات على جميع كفره قريش وجبايرتها.

وعندما يصبر الإنسان فمعنى ذلك أنه قد فوّض أمره لله تعالى وتوكل عليه كما توكل وفوضى رسوله الكريم أمره إليه وهو على يقين أن الصبر على الحقّ هو خير محقق للحقّ، ولأن الله هو السميع الجيب قال تعالى: ﴿بَلِ اللّٰهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ {543}، ولهذا كان النصر حليفاً لمحمد ورسالته الخاتمة للناس كافة.

وكذلك من الأمور التي تعوّد الإنسان الصبر هي المداومة على الصلاة من شأنها أن تعوّد المؤمن الصبر، فلا يتذمر من تكرار الصلاة ولا يتناقل عنها ولا يكسل بل يقوم إليها بحب ويصبر على كل أمور الدنيا لكيلا يتلهى عنها، بعكس المنافق الذي لا يملك حبها أو الصبر عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ {544}، فالصلاة من الأمور التي من شأنها أن تعوّد النفس على الخشوع والطاعة لأمر الله وتقرب بين العبد وربّه، وهذا القرب هو الذي يولّد الصبر في النفس المؤمنة الراضية بقضاء الله، فالصلاة إذن هي بمثابة تمرين للنفس على الصبر والخشوع والطاعة، وقد أوصى لقمان ابنه بالمداومة على الصلاة لما وهبه الله من حكمة وصواب رأي وبعد نظر فكان حكيماً صائب الرأي، قال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلٰى مَا أَصَابَكَ إِنَّ

---

543 - آل عمران 150.

544 - النساء 142، 143.

ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ {545، فالصلاة في هذه الوصية كانت ملازمة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر.

وهكذا نقول، الصوم نعمة من النعم التي تعود الإنسان الصبر، فمن المعروف أن الإنسان محب للطعام ومستحق له، والتنوع في الأطعمة جعلت الإنسان يشتهي ويتلذذ بها، بل ويكثر من طلبها كحاجة ضرورية له، وقد فرض الله عز وجل الصيام وهو ترك الطعام من الفجر إلى غروب الشمس، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } 546.

إذا في الصيام تدريب جسدي ونفسي للصبر، فلا بد أن نصبر على الطعام طاعةً لأمر الله تعالى، وأن نصبر على أذى غيرنا يكبح النفس عن رد الإساءة، وكذلك الصبر على شهوة الجنس طوال ساعات عديدة، قال تعالى: { أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَنَاسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٍ هُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } 547، فالصبر الجنسي من شأنه أن يعود المؤمن على كبح شهواته والتحكم فيها، فمن يستطيع أن يسيطر على شهواته ورغبته طوال ساعات وأيام يستطيع أن يصبر العمر كله أمام أي تحدي أو

---

545 - لقمان 17.

546 - البقرة 183، 184.

547 - البقرة 187.

مغريات وشهوات قد يساومه المساومين بها من كفره ومشركين (شياطين الجن والإنس).

وعليه الصبور المطلق: هو معطي الفرصة لمن انحرف عما يقول وقوله الحقّ، والصبور بالإضافة هو الذي خلقه الله فوّه وخلق فيه الحاجة التي تضعفه إن لم يتحصّن بالصبر، فبالرغم من خلقه له في أحسن تقويم، إلا أنه خلقه على الحاجة التي تتعدد وتنوع وتتطور وهي على رغبة مع الإشباع، أي خلقه في حاجة للهواء والماء والأكل والجنس، وغيرها كثير، ويريد أن يكون صبورا، من أجل بلوغه الهواء الذي له الحقّ فيه، والماء الذي له الحقّ فيه، والأكل الذي له الحقّ فيه، والزواج الذي له الحقّ فيه فسبحانه الصبور الذي جعلنا على الصبر وبالصبر نبلغ غاياتنا ونحن في عزة وعلى مكرمة منه.

والخليفة يكون صبره لشيئين عما يجب ويرغب، وصبره عما يبغض ويكره، وهناك فرق بين النوعين، لأن الصبر عما نحب يستوجب منا جهدا نفسيا شديدا وجهادا صعبا لا يحتمله إلا أصحاب القلوب الشديدة الإيمان والمطواعة لله، كأن يصبر المؤمن على فقدان أعز أحبائه سواء بالموت أو حتى في الحياة، وهناك النوع الآخر من الصبر وهو الصبر على ما نكره إذ لا خيار لنا إلا الصبر كأن نصبر مثلا على المرض والنقص وغيرها، ولا يمكن للخليفة في الأرض أن يسلك طريق الجنة بسهولة ويسر ذلك لأن طريقها مليء بالشدائد والمصاعب والابتلاءات، فالحجب للجنة ومن يرغب في الوصول إليها منحه الله الصبر على تخطي العوائق، ولهذا فبدون الصبر والثبات لما استطاع إنسان أن يصل إلى جنة الخلد.

والصبر لا يكون فقط على أصحاب الحاجة أو من نقصت عليهم نعمة من النعم، بل الصبر يكون حتى على أصحاب النعم والخيرات، ولعلمهم أشد احتياجا للصبر من ذوي الحاجات، ذلك مثل ما هو آتي:



## أ . الفقر والغنى:

الفقير الذي يحتاج إلى عون غيره لكي يستطيع العيش فعليه بالصبر على حاجته للناس، إذ أنه لا يمكن أن يستغني عنهم لعدم قدرته على الاعتماد على نفسه، وهذا بحد ذاته يتطلب صبرا كبيرا يعينه على تحمل هذا الوضع، لأن البشر ليسوا سواء في حب الإنفاق والتصدق، ومن هنا كان لابد للفقير من أن يصبر نفسه عن ارتكاب الجرائم أو اللجوء للطرق غير الصحيحة للعيش أو حتى أن يكون حاسدا للغني على غناه، بل عليه ألا يتذلل للخلق ويصبر على قدره، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْقَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ {548}، فالصبر يتمكن حتى الإنسان الفقير المحتاج إلى كسب احترام الناس ورضا الله الكريم الخبير، في حين أنه في حالة الإنسان الذي أكرمه الله تعالى بالمال والخير الوافر فهو يحتاج إلى الصبر أكثر من الفقير.

لذلك فإن الغني أشد احتياجا للصبر من الفقير، نظرا لامتلاكه أسباب التمتع واللهو في الدنيا، فعلى خليفة الله في الأرض ولو أنه امتلك المال والجاه والسلطان أن يتذكر صبر الله على عباده مع امتلاكه القدرة والسلطة والهيمنة عليهم، فيصبر بذلك الخليفة ويجعل من هذه النعم طريقا ممهدا يوصله لفضيلة الصبر لا الجبروت والتكبر والظلم.

## ب . المرض والصحة:

في العادة الإنسان يشعر بقيمة صحته إلا إذا ألمَّ المرض به، فيتذكر شكر الله على ما كان فيه من نعمة كبيرة، ولا يكون أمام المرء عند نزول المرض به إلا الدعاء لله والرجاء بزوال هذا المرض عنه، وأن يمنحه الصبور

الصبر من عنده لتحتمل الآلام والمعاناة، فالمرض من شأنه أن يعوّد الإنسان على الصبر والأمل في فرج الله تعالى، ولذلك يكون الإنسان الصحيح بحاجة إلى الصبر أكثر من العليل ذاته، فيكون صابرا على مداومة شكر الله على الصحة فلا ينقطع ولا يغفل عن ذلك.

فالمرض والصحة كلاهما بحاجة للصبر والثبات، وخليفة الله بالإضافة هو من كان صابرا على الألم مستحضرا سيدنا أيوب ورحلة معاناته مع الألم الذي رافقها الصبر والثبات عليه، ومستحضرا جزاء الخالق له، وكذلك أن يكون شاكرا للمولى عزّ وجلّ على دوام الصحة وحامدا له عليه ليل نهار.

### ج . الضعف والفتوة:

البشر يتفاوتون بين ضعيف وقوي، سواء أكان هذا الضعف في الجسد أم في المكانة الاجتماعية، فالإنسان الضعيف جسديا يحتاج إلى الصبر على من هو أقوى منه على أن يكون هذا الصبر خالي من التذلل والمسكنة، فيستعين بالله على من ظلمه وقهره، ويصبر على هذا الأذى وهو يسعى للخروج منه حتى يأتيه الفرج من الله تعالى، وفي حالة الإنسان القوي جسديا فإنه يحتاج إلى الصبر أكثر من الضعيف نفسه، لأنه يملك الفتوة التي يستطيع أن يظلم بها ويتجبر ويتكبر، لذلك فهو بحاجة إلى الصبر لكيلا يستعمل قوته الجسدية في أذية الآخرين حتى دون أن يقصد.

ولأنّ محمّد عليه الصلّاة والسّلام يعلم أن نصر الله حقّ فهو خير الصابرين على ما يقال أو يُفعل في حقّه، ومع ذلك فهو المستغفر في كل حين، وهو الحامد الشاكر لرّبّه على ما آتاه من نعم ومكارم، قال تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} 549.

وكم من آيات الذكر الحكيم التي نصت على الصبر وأهمية التمسك به من قبل رسول الله عليه الصلّاة والسّلام وهو خير المتمسكين بالصبر حتى اتصف به قولاً وعملاً، قال تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} 550، وقال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} 551، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَزِبٌ وَتِيَابِكَ فَطَهَّرَ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنِ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} 552، وقال تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} 553.

إذا لو لم يكن للصبر أهمية وقيمة وفضل ما أمر به الله تعالى رسوله الكريم عليه الصلّاة والسّلام ليكون متمسكاً به فضيلة في مواجهة الصعاب وكيد الكائدين ومكر الماكرين ونفاق المنافقين وكذب الكاذبين، ولو لم يكن الصبر مفتاحاً للفرج ومخلصاً من الكرب ومنجياً من الكيد ومُدخلاً للجنة ما كان مستمداً من اسمه الصبور.

## 26. كريم:

الكريم اسم كمال من أسماء الله الحسنى وهو كثير الخير الجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه وهو الكريم المطلق والكريم الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل والكريم اسم جامع لكل ما يُحمد فالله عزّ وجلّ كريم حميد الفاعل وربّ العرش الكريم العظيم.

550 - غافر 77.

551 - الأحقاف 35.

552 - المدثر 1 - 7.

553 - الإنسان 24، 25.

الكريم هو مصدر العطاء دون انتظار مقابل، فهو يخلق الأسباب ويجعل تيسيرها بين أيدي من هم في حاجة، ولذا فالعلاقة قوية بين اسمه الكريم واسمه الجواد إلا أن تميّزا كبيرا لكل فعل مترتب على اسم من أسمائه المطلقة.

ولأن الكرم عظمة من عظمة الله تعالى فجاءنا في القرآن الكريم بمسميات كريمة تسرُّ الأنفُس وتثير الدروب بها في رعاية الله وفضله، وهي:

أ . المغفرة والرزق الكريم: فمن الذي يغفر ويرزق لو لم يكن هو الكرم المطلق، قال تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} 554.

ب . ملك كريم: بحسن الله في خلقه لقد خَلق من خلق آية في حُسنه وفضائله الحميدة التي كانت في مرضاة الله عزّ وجلّ، إنّه يوسف عليه الصلّاة والسّلام الذي وصف بوصف الملك الكريم، قال تعالى: {وَقُلْنَا حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} 555.

ج . زوج كريم: صفة من صفات الكرم وهي معطيات التكاثر التي أسس الله تعالى عليها خلقه لتتضاعف الأزواج والإنتاج ويتضاعف العطاء من كرمه الذي أكرم به ما خلق ومن خلق، قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} 556.

---

554 - الأنفال 4.

555 - يوسف 31.

556 - الشعراء 7.

د . مقام كريم: المقام الكريم هو الذي يليق بالصلحين والصادقين والأنبياء والمرسلين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، إمَّا غيرهم فليس لهم مقام كريم، قال تعالى: {وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} 557.

هـ . كتاب كريم: مفتح باسم الله الرحمن الرحيم ويدعو إلى الحق والطريق المستقيم، والدعوة التي يدعو إليها هي مكنن المكارم كلها، والخلاص من التبعية والعبودية ويوجِّه العباد لله رب العالمين، قال تعالى: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ} 558.

و . غني كريم: صفتين من صفات الله تعالى، صفة الغني وصفة الكرم ممَّا يجعل الغني كرم من الكريم عزَّ وجلَّ، الذي له الشكر والحمد على ما أعطى ويُعطي وهو على كل شيء قدير، قال تعالى: {وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} 559.

ز . مغفرة وأجر كريم: لا غافر للذنوب والأخطاء إلا الكريم، ولا موفي للأجر إلا الكريم، ولهذا فإن الله هو الغفار الكريم الذي يُعطي ولا يطلب مقابل لما يُعطي سبحانه أنه الكريم، قال تعالى: {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} 560.

ح . رسول كريم: كريم باصطفاء الله إليه وكريم بإرساله نبيا رسولا لبني إسرائيل وكريما بما أنزل عليه من إنجيل كريم، وكريم بما يهدي إليه من حق، قال تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ} 561.

---

557 - الشعراء 58.

558 - النمل 29.

559 - النمل 40.

560 - يس 11.

561 - الدخان 17.

ك . مقام كريم: المقام الكريم لا يكون إلا من الكريم المطلق وهو علو مرتبة وأهلية مقدرة من الله عز وجل، قال تعالى: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} 562.

ل . قرآن كريم: القرآن كريم بإعطائه للحكم والعلم ولاحتوائه للآيات العظام التي أنزلت شاهدا للحق بالحق، قال تعالى: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} 563.

م . قول رسول كريم: إنه القرآن الذي أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الحق المبين للكبائر والصغائر والأمر العظيم، ولهذا كان سيدنا محمد رسولا كريما بما أنزل عليه من القرآن الذي تملئه المعجزات المتعلقة بالخلق والحياة والممات والبعث والثواب والعقاب واللجنة والنار. قال تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} 564.

ن . العرش الكريم: إنه عرش الله تعالى ولهذا كانت صفة الكرم فيه من صفة الكريم مالك العرش الكريم، أي العرش الذي هو آية من آياته العظام ولهذا فهو كريم المقام والمكانة التي لا تخضع للمقارنة مع أي عرش يُدعى به، قال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} 565.

س . الرب الكريم: هو الله ربّ الأرباب وربّ ما خلق، ولذا فهو الكريم الذي لم يغفل عمّا خلق، رعاية وعناية وحفظا ورزقا وهو على كل شيء قدير فلا يحقّ لمخلوق إن يغر بربّه الكريم عز وجلّ الذي لا جود أجود

---

562 - الدخان 25، 26.

563 - الواقعة 77.

564 - الحاقة 40.

565 - المؤمنون 116.

منه ولا كريم أكرم منه، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ  
الْكَرِيمِ } 566

الكريم اسم عظيم لصفة عظيمة، بما يتم تقدير الذات بالقدرة، وتقدير  
الآخر بالعطاء دون منة، يترتب عليها رضا نفسي وقناعة تامة بأن فعلها هو  
الحق، ولذا فالكرم صفة لكريم، والصفة الثابتة ترتبط بالفعل المنفذ لها، مما  
يجعلها تنتقل من القول إلى الفعل الذي يُرضي خمسة:

أولاً: يُرضي الكريم المطلق.

ثانياً: يرضي من أقدم على الفعل الكريم، أو من قام بفعل المكرمة.

ثالثاً: يُرضي من قدمت المكرمة إليه.

رابعاً: يرضي كل كريمٍ ومحِبٍ للكرم.

خامساً: يُرضي المسبِّحين باسمه تعالى.

ولأنَّ الله هو الخالق وهو الرازق وهو المحيي والمميت، فهو الكريم الذي  
يعلم بالأمر فيعطي قبل الطلب وقبل الترجي، ولهذا أكرم أبونا آدم وأمنا  
حواء بالجنة، وذلك لعلمه بنواياهما تجاهه، فهو يعلم أن إبليس قد غرر بهم،  
ويعلم إنهما من عباده الصالحين ولهذا أخرجهما من الجنة إلى الدار الدنيا ثم  
أعادهما إليها بوسع فضله وكرمه المطلق. وهكذا الخليفة الذي جعله الله في  
الأرض معرض للأخطاء والتغيير به، ولأنه مخلوق في أحسن تقويم فإن هذا  
التقويم بطبيعة الحال سيرتقي به إلى الدرجات العلاء وسيكون من الوارثين  
للجنة.

الخليفة إنسان لم يخلقه الله تعالى ملكا، ولم يخلقه شيطانا رجيمًا، لقد خلقه في أحسن تقويم، له حقوق ونصيب في الدنيا يجب أن يأخذها ولا ينسى شيئًا من نصيبه منها، وله عقل يدرك به المجرد الذي به يتعلم ويتذكر ويتفكر حتى يدرك الحقّ ولا يجحد عنه ولأجل ذلك يفوز بالجنة. وله واجبات ينبغي أن يؤدّيها تجاه خالقه الكريم الذي انعم عليه بمكرمة العيش في الدنيا وأخذ نصيبه منها والفوز بالجنة والحياة فيها دائما أبدا إن كان من العاملين عليها، وعليه أن يؤدّي واجبه تجاه نفسه التي لها الحقّ عليه ويكون كريما معها، وأن يؤدّي واجبه تجاه والديه وأبنائه وزوجه وكل من له حقّ عليه ويكون كريما معهم. وله مسؤوليات يجب عليه حملها دون تردد، فليعبد الله الكريم ويصون الدين والعرض ويلتزم بما أمره الكريم ولا يتعدى الحدود التي حددها له الخالق، حيث يصدق ولا يكذب ويصوم ويصلي ويحج، ويتعبد ويذكر الله ربّه ويصلي ويسلم على كل الأنبياء والرسل وأن يؤمن بمحمد خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه، وأن يتبع سنته التي تتماثل مع الكتاب ولا تختلف معه في شيء.

وعليه لقد بعث الله تعالى محمدا رسولا كريما يهدي للتي هي أحسن كما أمره الله ويأمر بالمعروف كما أمره الله وينهى عن المنكر كما أمره الله ولهذا فهو الرسول الكريم، قال تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَدَّكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {567}، يؤكد الحقّ عزّ وجلّ أن ما جاء به محمد الرسول الكريم عليه الصلّاة والسّلام هو أمر كريم من الكريم المطلق، ولهذا محمد عليه الصلّاة والسّلام كريم الصفات، فصفاته من صفات الله الحسنی.



## 27 . مهدي:

الضلال يستوجب هداية من الله أو من الذين آمنوا بالله تعالى، ولأن محمدا رسول الله هو أول المهتدين بما أنزله الله عليه من قرآن فهو أول من يهدي الآخرين إليه، ولكن السؤال:

من الذي كان سببا في هداية محمد صلى الله عليه وسلم؟

إنه الله مصداقا لقوله تعالى: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} 568، ولهذا يحق لنا أن نصف محمدا رسول الله بأنه مهدي من الحق تعالى إلى الحق المطلق الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل، ولذا فالفرق كبير بين من يهديه الله مباشرة وبين الذي يهديه وسطاء.

إن الهادي تبارك وتعالى أمر عباده باتباع سبيله من خلال آياته وأنبيائه وكتبه ورسوله، وبين لهم الطرق ووضح لهم السبل حتى يتبين الخلق الرشد من الغي والهدى من الضلال والإصلاح من الإفساد، وميز الصديق الصالح من قرين السوء فقد قال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} 569، قل يا محمد للمشركين: هل من شركائهم من يهدي إلى الحق؟! لذلك أنكر على الذين اتخذوا غير الله آلهة أو جعلوا له شريكا هذا العمل، إذ ليس من معبودات هؤلاء التي جعلوها شركاء لله من يستطيع التمييز بين الهدى والضلال، فيرشد سواه إلى السبيل الحق، فهل القادر على الهداية إلى الحق أولى بالاتباع والعبادة أم الذي لا يستطيع أن يهدي في نفسه، وهولا يهدي غيره، اللهم إلا إذا هداه غيره، ولو كانت الهداية بوجه من الوجوه فإن أدنى مراتب

---

568 - الضحى 7.

569 - يونس 35.

العبودية هداية المعبود لعباده إلى ما فيه صلاح أمرهم، الله يهدي من يشاء للحقّ دون غيره بنصب الأدلة وإرسال الرّسل وإنزال الكتب والتوفيق للنظر الصحيح والتدبر الصائب فإنّ العقول مضطربة والأفكار مختلطة وتعيين الحقّ صعب ولا يسلم من الغلط إلا الأقل من القليل فلاهتداء لإدراك الحقائق لا يكون إلا بإعانة الله وهدايته وإرشاده، فالذي يهدي إلى الحقّ بإعطاء العقل وبعثة الرّسل وإنزال الكتب والتوفيق إلى النظر والتدبر بما نصب في الآفاق والأنفس إلى غير ذلك هو الله سبحانه وتعالى، فبين سبحانه بما هو مستقر في الفطرة أن الذي يهدي إلى الحقّ أحقّ بالاتباع ممن لا يهدي، إلا أن يهديه غيره، فلزم أن يكون الهادي بنفسه له الكمال دون الذي لا يهدي إلا بغيره، وإذا كان لا بدّ من وجوب الهادي لغير المهتدي بنفسه فهو الأكمل وهو أحقّ أن يتبع، ولما كان كمال العبد في كونه عالماً بالهدى متبعاً للحقّ ومعلماً لغيره، فهو من الهداة المهتمدين، فالهادي من الخلق بالضرورة أن يكون مهتدياً، لأن الهادي إذا لم يكن مهتدياً في نفسه لم يصلح كونه هادياً لغيره لأنه يوقع الناس في الضلال من حيث لا يشعرون، وأما الهادي بالإضافة فهو خليفة الله في أرضه ومنه أكسب صفة الهدى، فلذلك وجب عليه أن يبصّر عباد الله ويعرفهم طريق معرفته حتى يقروا بالهادي وصولاً إلى الهدى، ذلك أن الهادي بالإضافة هو الدليل إلى الخيرات والمرشد إلى الطاعات.

في قوله تعالى: {وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} 570 وهنا تتجلى هداية التأييد من الهادي التي تمثلت بالفضل، فلولا أن الله تفضل على نبيه بالوحي ورحمه بالإدراك النافذ، لأرادت طائفة منهم السعي إلى الإضلال، ولكنهم لا يضلون إلا أنفسهم، لأن الله أطلع

نبيه عليه الصلّاة والسّلام على تدبيرهم، وجعل بصيرته نافذة إلى الحقّ، فلا ضرر عليه من تدبيرهم وتضليلهم، وقد أيدّه الله تعالى بنور الهداية بما أوحى إليه من القرآن الكريم الذي هو ميزان الحقّ ومصباح الهدى وسبيل الرشاد، وأودع قلبه الحكمة وعلمه من الشرائع والأحكام ما لم يعلمه إلا بوحي منه، حيث كان ضمان الهداية من الله تعالى مخاطبا نبيه: إن فضل الله عليك عظيم بما أنعم عليك من مصابيح الهدى في توحي طريق العدل، وأنّ وبال ذلك الإضلال يرجع عليهم بسبب تعاونهم على الإثم، ومردّد ذلك إلى هداية الله تعالى وحكمته في أنه يعصم المؤيدين بالهدى ممن يحاول إضلالهم، فمن تولاه الله بفضلته وشمله بإحسانه وكفاه غائلة من أراد به سوء فلا سبيل إلى فتنته أو إبعاده عن الهداية التي قضاها الهادي جل شأنه له.

وقوله تعالى: { وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } 571 وإرادة الفتنة من الله تعالى هنا لا تدخل في المشيئة، وإنما تدخل في باب العلم من الله تعالى أن هؤلاء لن يهتدوا أبدا بما تقدم أيديهم من باب الاختيار بين الخير والشر والهدى والضلال والغبي والرشاد، فترك الخير والهدى والرشاد، واتباع الشر والضلال والغبي، هو من قبيل التمسك بالجهل المؤدي إلى المهالك، فهؤلاء لا يؤسف عليهم بصنيع أفعالهم من تركهم طريق الهدى الموصل إلى الهادي، فهم ينتقلون في مراتب الضلال من أدناها إلى أعلاها مسارعين فيها، من هؤلاء المخادعين الذين قالوا: آمنا بألسنتهم ولم تدعن للحقّ قلوبهم فمن يرد الله ضلاله لانغلاق قلبه فلن تستطيع أن تهديه أو أن تنفعه بشيء لم يرده الله له، وأولئك هم الذين أسرفوا في الضلال والعناد لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من دنس الحقدّ والعناد والجهل

والضلال، ولهم في الدنيا ذل بالفضيحة والهزيمة ولهم في الآخرة عذاب شديد عظيم.

إنَّ الله سبحانه وتعالى هو الهادي، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وذلك بخلق أفعال الهدى وأفعال الضلال، وعلى هذا يكون الخلق من الله وممارسة الفعل من الإنسان، سواء أفعال الهدى والرشاد أم أفعال الغي قال الله جل ذكره إخباراً عن كليمة موسى عليه الصلّاة والسّلام في مناجاته له: {إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْعَافِرِينَ} 572، والهداية تكون على معنيين أحدهما بمعنى الإيضاح والإرشاد يقال: أهديت فلانا الطريق أي أرشدته إليه، والآخر بمعنى التوفيق قال الله عزّ وجلّ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} 573 أي أنك لا تستطيع يا محمد أن توفق للهداية من أحببت، ولكن الله يوفق إليها من يشاء، ولهذا فالنبي عليه الصلّاة والسّلام أرشد وبيّن وأوضح وبلّغ من يجب ومن لا يجب، فبين بذلك هدي الرّسالات السماوية التي قبله، والرّسالة التي جاء بها صلّى الله عليه وسلّم، إذ لا خلاف أن الدين عند الله الإسلام، وجميع الرّسالات السماوية كلها مصدرها الهادي وهنا نستطيع أن نقول:

إنّ هدي النبي عليه الصلّاة والسّلام هدي تكليف، وأمّا بالنسبة للمبلغين فهديهم هدي اختيار لما دلت عليه الآية الكريمة، فالرّسول عليه الصلّاة والسّلام هو الخليفة وهو الهادي بالإضافة، ولأنّ الهادي هادي الطريق، والهدى واحد من الطرق التي تؤدّي إلى النجاة، فكان الخليفة يأخذ بالمهتدين به إلى نجاحهم وفوزهم، وأمّا الفتنة فمعناها الامتحان والاختبار إلا أنّها مستعملة في عرف التخاطب بمعنى الخذلان، يقال: فُتن فلان إذا أخذ

---

572 - الأعراف 155.

573 - القصص 56.

وضل، ويدل على صحة هذا التأويل أنه قال الهادي بمعنى الموفق فمعناه والله أعلم أنه الموفق بفضله، والخاذل لمن شاء بعدله لا إله إلا هو الفَعَّال لما يريد.

## 28 . مشروح الصدر:

أي مهياً للاستقبال والتقبل، من حيث:

أ . استقبال ما يؤمر به من الله تعالى، وما يُنزلُ عليه من وحي وقرآن كريم.

ب . تقبل ما يحدث من ردود أفعال من الإنس والجن المبعوث إليهم جميعاً.

ولهذا يدل قوله تعالى: {أَمْ نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ} 574 على أن شرح صدر محمد كان مسبقاً قبل الوحي والرّسالة للكافة، فكان مهياً لحملها ومهياً لتحمل الأعباء المترتبة عليها مع الأنس والجن.

ولأنّه مشروح الصدر تيسيراً، فقد تلقى القرآن الذي تنزل عليه تنزيلاً، وكان مذكراً به تذكيراً، ومبشراً به تبشيراً، وداعياً له وسرجاً منيراً.

ولأنّ الله علّام الغيوب فقد علمَ بأمر محمد قبل أن يبلغ محمد أمره ويعلمه، ولهذا جاء قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ} 575، أي الله مسبقاً يعلم بما يضيق به صدر محمد فشرحه كيلاً يضيق كما سبق تبياناه.

ومن علم الغيب المسبق على محمد أن الله تعالى يعلم بحال محمد ونفسه ومما يضيق صدره الذي لو لم يشرحه له لكانت فيه من الشكوك من

---

574 - الانشراح 1.

575 - الحجر 97.

خلال بعض الأفاويل التي يتقول بها البعض، مصداقا لقوله تعالى: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} 576.

## 29 . موضوع الوزر:

وَضِعُ الْوِزْرِ عَنْ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ مَرْتَبًا عَلَىٰ شَرْحِ صَدْرِهِ لِلْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ وَتَقْبَلُ الْمَهَامُ الصَّعَابُ، أَي لَوْ لَمْ يَشْرَحِ اللَّهُ تَعَالَىٰ صَدْرَ مُحَمَّدٍ بِالْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْهُدَايَةِ لِلْحَقِّ قَوْلًا وَعَمَلًا وَسُلُوكًا لَكَانَتِ الْأَوْزَارُ مَحْمُولَةً عَلَيْهِ، وَهَذَا لَقَدْ وَضَعَ اللَّهُ تَعَالَىٰ تِلْكَ الْأَوْزَارَ عَنْهُ بِشَرْحِ صَدْرِهِ لِلنَّبِوَةِ وَالرَّسَالَةِ مَصْدَاقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: {وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ} 577.

ولأنَّ مُحَمَّدًا لَقَدْ قَضَىٰ رَدْحًا مِنْ عَمْرِهِ فِي عَصْرِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مَمْتَلِئَةً بِالْمَظَالِمِ وَالْمَفَاسِدِ وَالشَّرْكِ وَالْكَفْرِ الَّتِي جَمِيعُهَا كَانَ مُحَمَّدٌ يَبْنِي مِنْهَا وَكَأَنَّهَا أَثْقَالٌ مَوْضُوعَةٌ عَلَىٰ ظَهْرِهِ، فَبِالْإِسْلَامِ وَوُضِعَتِ الْأَوْزَارُ عَنْ ظَهْرِ مُحَمَّدٍ، حَيْثُ مَا كَانُوا يَرْضَاهُ مُحَمَّدٌ جَاءَ مُطَابِقًا لِمَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ الَّذِي شَرَحَ صَدْرَهُ وَكَلَّفَهُ بِالنَّبِوَةِ وَالرَّسَالَةِ لِلنَّاسِ كَافَةً.

## 30 . مرفوع الذكر:

رِفْعَةُ الذِّكْرِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِرِفْعَةِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَالْفِعْلِ وَالسُّلُوكِ، وَلِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ بِالْإِسْلَامِ فَقَدْ وَضَعَ عَنْهُ أَوْزَارَهُ، وَهَذَا أَصْبَحَ مَرْفُوعَ الذِّكْرِ بِالنَّبِوَةِ وَالرَّسَالَةِ الَّتِي جَاءَتْ لِلْكَافَةِ فَكَانَ مُحَمَّدٌ بِرِفْعَةِ ذِكْرِهِ مَبْشَرًا وَمَنْذِرًا وَدَاعِيَا الْإِنْسِ وَالْجِنِّ لِلْخَيْرِ، قَالَ تَعَالَىٰ: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} 578، أَي رُفِعَ ذِكْرُ مُحَمَّدٍ بِالذِّكْرِ الْحَكِيمِ وَالرَّسَالَةِ

---

576 - هود 12.

577 - الانشراح 2.

578 - الانشراح 4.

الخالد للناس كافة، فأصبحت الشهادة به حقّ مرتبطة بشهادة الآله إلا  
الله.

### 31. ميسر الأمر:

فبعد أن كان الأمر معسراً في الجاهلية أصبح على يدي محمد عليه  
الصلاة والسلام ميسراً بالإسلام، وبعد الإعلان عن الدين الحق، كان  
الكفار والمشركون والمنافقون من الأقارب والأباعد يكيّدون المكائد ويمكرون  
بالرسول والذين آمنوا معه، فكانت الصراعات والحروب من قبل أعداء الله  
للسلوة ودينه الحقّ بغير حقّ، ومع ذلك كان النصر عليهم من عند الله  
ميسراً لا معسراً، مصداقاً لقوله تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ  
يُسْرًا} 579، فالمعنى يدل على ما يدل عليه، كلما أحسست يا محمد بعسرٍ  
تأكد أن معه يسر فلا تيأس ولا تقنط من رحمة ربك.

### 32. مؤتى القرآن:

المؤتى هو من نال ما آتاه من ربه فكان به مؤتى، ومؤتى القرآن هو  
محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي  
وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} 580 أي أن محمد لم يكن قد بذل الجهد في سبيل أن ينال  
القرآن بل الله تعالى هو الذي آتاه القرآن دون أن يعلم به محمد حتى آتاه  
البلاغ المبين.

ولهذا فإتاء القرآن كان تنزيلاً من عليم حكيم، قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ  
نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} 581، وقال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ  
الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا} 582

---

579 - الانشراح 5، 6.

580 - الحجر 87.

581 - الحجر 9.

وعليه لو سألت من سألت:

من هو صاحب القرآن الكريم (على من نزل القرآن)؟

لن تكون الإجابة إلا على محمد رسول الله عليه الصلوة والسلام  
مصدقا لقوله تعالى: {طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذِكْرًا لِمَنْ  
يَخْشَى تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ  
اسْتَوَى} 583، وقال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا فَاصْبِرْ  
لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً  
وَأَصِيلًا} 584.

أي أن محمد عليه الصلوة والسلام هو الذي أنزل عليه الحق من الله،  
مصدقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَاهُمْ  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ  
كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} 585.

ومع أن الرسول عليه الصلوة والسلام لم يكن يعلم بأمر القرآن إلا أنه  
بعد الوحي به أصبح يعلم بأحسن القصص التي حدثت في الأزمنة الغابرة،  
قال تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ  
وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ} 586، وعليه كان محمد هو صاحب  
الكتاب الحكيم الذي أوحى إليه به كتابا مفصلا من عند الله تعالى.

---

582 - الإنسان 23.

583 - طه 1 - 5.

584 - الإنسان 23 - 25.

585 - محمد 1، 2.

586 - يوسف 3.



ولأنّه موحى إليه به وحيا كريم؛ فقد خرج من غمّة الظلمات إلى نور الهداية وأخرج المؤمنين منها، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} 587.

إنّ القرآن الذي يهدي للتي حي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ويتعدون عن المفسد بان لهم أجرا كبير والفوز بالجنة، قال تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} 588.

ولأنّه المنزّل القرآن عليه؛ فهو الرّسول الكريم هداية النّاس كافة، ولهذا أنزل القرآن عليه هداية وأمنا وطمأنة ولم يُنزل عليه ليشقى، قال تعالى: {مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} 589، أي أنزلناه إليك يا محمّد لترضى وهو شفاء ورحمة لمن آمن، قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} 590، وعليه فمن يتبع ما أمر الله به في القرآن لا يضل ولا يشقى.

ولأنّ محمّدا عليه الصلّاة والسّلام رسول الكافة فهو المتلقي للقرآن من لدنّ حكيم عليم، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ} 591، إنه المتلقي للقرآن بتدبّر ودراية تامة وعن علم وحكمة، ولهذا سبق وأن قلنا بعد أن كان محمّد أميّا أصبح رسول الله عليم من العليم المطلق.

---

587 - الحديد 9.

588 - الإسراء 9.

589 - طه 2.

590 - الإسراء 82.

591 - النمل 6.

ولأنَّ محمّد موحى القرآن إليه وحي؛ فهو أول من كان تالياً لآياته  
الكريمة أمام ربّه ثم بعد ذلك أُمرَ بأن يبشر النَّاسَ به ليهديهم سبيل الرشاد،  
قال تعالى: {وَأَنْ أُنزِلَ الْفُرْقَانُ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ  
فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ} 592.

ولأنَّ القرآن منزّل على محمّد فهو من أصحاب الجنّة، ولهذا فهو  
الموعود بها وهو أيضاً موصوف بها كما سيأتي تبيانه لاحقاً، قال تعالى: {إِنَّ  
الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ} 593.

ولأنّه من أحي القرآن إليه، فهو رسول الأنس والجن، قال تعالى:  
{وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا  
فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنذِرِينَ} 594.

ولأنّه من أحي القرآن إليه؛ فهو أول من رتله ترتيلاً كما شاء له الله أن  
يرتل، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نَّصِفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ  
قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} 595.

وعليه لو لم يُنزل القرآن على محمّد عليه الصلّاة والسّلام تنزيلاً ما  
وصفناه برسول الكافة بالرّسالة الخاتمة، ولأنّه كذلك كان خير تالٍ ومرتلٍ  
وقارئٍ للقرآن الكريم الذي أنزل الله عليه تنزيلاً، مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّا  
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا} 596.

---

592 - النمل 92..

593 - القصص 85.

594 - الأحقاف 29.

595 - المزمل 1-4.

596 - الإنسان 23.

### 33 . شكور :

الشُّكْرُ أمرٌ يُفعل من قبل مُعترفٍ بالفضل ومُعلنٍ له أمام من يستطيع المجازاة عليه، ولهذا لا شكر إلا على نعمة أو فضل أو مكرمة سبق تقديمها أو إعطائها أو وهبها أو إيتائها لمن هو في حاجة إليها، وهي التي لا يقابلها ثنا في مساواتها ممَّا يجعل الشكر لمصدرها خير عرفانٍ بفضله.

ولذا فالشكر قيمة وفضيلة مترتبة على فعل محبب في مرضاة الله تعالى، وهو مجازاة في مقابل اعتراف بأفعال التطابق مع الحقّ، ولأن الله عزّ وجلّ يريد للحقّ أن يُحقّق، ويُريد للباطل أن يُزهق، ويُريد للكافر أن يؤمن بإرادة، فهو بطبيعة الحال شكور لمن أزهق الباطل ولمن آمن وأسلم وجهه إليه واحداً أحداً لا شريك له سبحانه.

والشكور المطلق هو الله والشكور في دائرة النسبية هو المؤمن بفضل الله عليه، ولأنّ محمّد رسول الله عليه الصلّاة والسّلام هو خاتم الأنبياء والمرسلين وهو رسول الكافة فهو خير الشاكرين لرّبّه على ما آتاه من نعيم وفضل.

فكان محمّد عليه الصلّاة والسّلام شاكرًا لله على ما آتاه من نعم، ولأنّه شاكرًا لله على نعمه قال تعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} 597، أي فمن حقّك يا محمّد أن تشكر كيفما تشاء، وأن تعدد النعم التي أنعمت بها عليك، من التبشير بك وأنت في علمي، إلى تسميتك أحمد وأنت في علمي إلى خلقك والظروف التي مررت بها في حياتك من الميلاد إلى اصطفائك نبياً رسولاً إلى بلوغك الجنّة، ولكن مهما حدّث فلن تستطيع أن تحصيها مع أنّها المحصية في كتاب لا يضل منه شيئاً.

وعليه لقد خلق الله تعالى الإنسان وهداه السبيل فمن آمن به شكره على نعمائه ومن كفر وأشرك فقد ضل ضلالا مبينا، قال تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} 598.

### 34 . مستغفر للمؤمنين:

الرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام رحيم بالمؤمنين ويأمل لهم الرّحمة من ربّه عزّ وجلّ، ولهذا فهو لين البال معهم غير مستغظ عليهم، ولذا فهو دائما يدع لهم بالمغفرة ويستغفر لهم، قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ} 599.

ولأنّ الكمال لله وحده فالمؤمن بشر معرض للخطأ مثلما هو معرض للصواب، وهكذا حال كل البشر فما بالك بمن لم يدخل الإيمان قلبه بعد، فمثل هؤلاء يظلمون أنفسهم بما يفعلوا ولكن إن استغفروا الله واستغفر لهم الرّسول فهم سينالون المغفرة ومن فوقها التوبة والرّحمة من الله عزّ وجلّ، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} 600.

ولأنّ لكل من النّاس ظرفه الخاص به ولأنه لا إكراه في الدين، ولأنه دين التيسير لا التعسير، فإن استأذن أحد أو بعض المؤمنين الرّسول لظرف يتعلق به أمرهم فليأذن لهم الرّسول وليستغفر لهم في كل أمر من شأنه أن يؤدّي إلى التوبة والمغفرة والطاعة، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ

---

598 - الإنسان 3.

599 - آل عمران 159.

600 - النساء 64.

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {601}.

وهكذا جاء أمر الاستغفار للمؤمنات اللاتي يأتين لمبايعة الرسول وهنَّ صادقات طاعة لله رب العالمين فمبايعتهن حق والاستغفار لهن واجب، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِفْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعُهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {602}.

ولأن الرسول مستغفر للمؤمنين فهولا يمكن أن يكون مستغفرا للكافرين والمشركين والفاستقين، ولذلك الله يحذره من أن يستغفر لهم، قال تعالى: { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ {603}.

### 35 . مغلظ على الكافرين والمنافقين:

في مقابل لين محمد عليه الصلاة والسلام واستغفاره للمؤمنين غلظته وشدته على الكافرين والمنافقين، ولذا فالغلظة عدم اللين مع وافر الشدة التي يمكن أن تُسهَم في إصلاح أو إصلاح الأمر الذي من أجله يستوجب الغلظة والشدّة، وإن لم يُصلح أمرهم فلا تلين يا محمد بل اشتد وبكل غلظة عليهم فأولئك مأواهم جهنم وبئس المصير، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {604}.

---

601 - النور 62.

602 - الممتحنة 12.

603 - التوبة 80.

604 - التوبة 73.

وعليه لم يكن لمحمد صفتين متناقضتين كما يظن البعض (الاستغفار واللين، في مقابل الغلظة والشدّة) بل له صفتان حميدتان: اللين من أجل الحقّ وإحقاقه يساوي الشدّة والغلظة من أجل الحقّ وإحقاقه، ولهذا الموصوف واحد وهو محمد والغاية واحدة وهي إحقاق الحقّ، أمّا المختلف فهو فعل الآخر الذي خلّ بقوانين إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل.

### 36 . سميع (أذن خير):

النبى عليه الصلّاة والسّلام قوله حقّ، وصوته حقّ، وسمعه حقّ، وفعله وعمله وسلوكه حقّ، ولأنه نبيا ورسولا للكافة؛ فهو المبشر للكافة والمنذر للكافة والمستمع للكافة، ولهذا فهو رسول الخير كل الخير الذي يرضيه الله لعباده المؤمنين، فالذين حاولوا أن يؤذوا النبى الكريم عليه الصلّاة والسّلام وقالوا إنّه هو أذن تُصدّق ما تسمع، فهذا الأمر لا يجوز على الإطلاق، ولكنه في دائرة الممكن والنسبية نعم أنه يصدق كل ما يقال من ربّه الذي أوحى إليه القرآن وحيا.

وعليه فمحمد الذي يصدق الله بالمطلق لن يصدق سواه بالمطلق، ولهذا لا خوف من أذن محمد فهي أذن خير كما جاء في الذكر الحكيم: قال تعالى: { وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } 605.

إذا النبى هو أذن خير لأسباب كثيرة منها:

. أذن خير: (مستمع الوحي) الذي أوحى إليه من ربّه تعالى.

. أذن خير: لأنه يستمع من أجل الحقِّ وإحقاقه، ولذا فهو لم يكن  
أذن شر.

. أذن خير: لأنه يستمع إلى جميع الأطراف كيلا يظلم بقرارٍ أحداً،  
ولذا فهو يستمع للجميع دون مغالبة لأحدٍ على أحدٍ إلا بالحقِّ، ولهذا  
السبب لا يخاف خصم من خصمه عند رسول الله عليه الصلّاة والسّلام  
لأنه لا يحكم إلا بعد دراية واستماع للذين يتعلق الأمر بهم من كل الأطراف  
مسلمة وكافرة ومشركة ومنافقة وكاذبة لأجل أن يتبيّن.

. أذن خير: لأنه يستمع من أجل أن يجعل الله لِمَا يُسمع مخرجاً.

. أذن خير: يستمع ليعقل المسموع ويدركه بحقّ.

. أذن خير: لأنه مستمع عدل، وشاهد حقّ، وعامل به وعليه.

. أذن خير: لا يأخذ ممّا يستمع إليه إلا المفيد النافع ويترك ما لا يفيد  
ولا ينفع فلا خوف منه ولا خوف عليه.

. أذن خير: لا ينفصل إنصاته واستماعه عن المسموع وما يجب إن  
يُدرّك منه.

السميع اسم صفة مطلقة لله تعالى متضمن لمعنى كمال السمع وكمال  
الإدراك والفقوة، وقد سمّى الله عزّ وجلّ نفسه في الكثير من الآيات القرآنية  
بهذا الاسم كما في قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ  
الْبَصِيرُ} 606.

ولأنّ السميع المطلق هو الله فهو الذي جعل أنبيائه ورُسُله الكرام  
صلّى الله عليهم وسلّم على هذه الصفة سميعين، أي طائعين لِمَا أمر به

إتباعا وانتهاءاً، ولأنهم كذلك فهم الذين عملوا على إحقاق ما أمرهم به هداية.

ولأنّ الله هو السميع المطلق فهو الذي خلق خلقه على حاسة السمع لكي يتولوا الأمانة سمعا وطاعةً، ولذا فمن أسرار خلقه لحاسة السمع أنّه يود أن يكون خلقه سميعين لقوله وأمره، ولكن البعض كفر بما سمع وهؤلاء هم السّمّاعون أما الذين آمنوا فهم السميعين، والفرق كبير بين السّمّاع وبين السميع، فالسّمّاع هو من يلاحق الناس ويعمل على نشر ما يخصهم وكأنه ناشرا لملابس مبتلة، وفي مثل هؤلاء قال تعالى: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَصْرِوْكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} 607. أمّا السميع لوحيه فهو المهتدي لاستماع الحقّ والمتهبئ له والعامل عليه وبه، قال تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} 608.

إذا في هذا الأمر هناك من الخلق فريقين، فريق سمّاع، وفريق سميع، وهؤلاء هم مثل الخطان المتوازيان لا يلتقيان مهما امتد، مصداقا لقوله تعالى: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} 609، إذا فالأصم هو عكس السميع تماما، فالذي استمد صفاته من صفات خالقه لا بدّ وأن يكون سميعا ومجيبا بعد تدبر وبيّنة، ولذا فالمؤمن السميع هو الذي يستجيب مع كل أمر بالعمل الصالح أو بالانتهاء عما

---

607 - المائدة 42.

608 - البقرة 285.

609 - هود، 24.



نهى الله عنه أو بالتجنب عنه أو بالأخذ به وفي ذلك يقدر الله الأمر تقديرا وكل شيء بحسبان.

ولأنّ الله تعالى هو السميع لكل شيء فجعل أنبياءه ورُسله سميعين لِمَا يجب ومتبعين له وسميعين لما لا يجب ومنتهون عنه، ولذلك فالرسول الكريم سميع بما أحي إليه من ربه ومجيب وفقا لِمَا أحي إليه به، ولذلك قلنا كلمة (السميع) تدل على من يجيد الاستماع إلى أدق الأمور وأعظمها مع فائق الاهتمام والتدبر وهكذا كان رسول الله سميعا.

والسميع بالإضافة هو المؤمن الذي استمد صفاته من صفات خالقه السميع المطلق، ولذا فهو الذي يحرص على أن يسمع من القول أفضله ويدرك معانيه ويفهمه ويأخذ به، ويحرص على ألا يسمع لغو الحديث والكلام الذي لا يفيد، قال تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} 610، فالأمر هنا أن السمع قد وقع لقولين الأول سماع آيات الله تعالى يُسْتَهْزَأُ بِهَا، والثاني لقول الله باتخاذ الرد المناسب منهم وهو ترك هذا المجلس وما على مثله حتى يخوضوا في حديث غيره، وكذلك كان هذا الأمر للنبي - عليه الصلاة والسلام، وهو الخليفة الذي اختاره الله عز وجل لتبليغ الرسالة في قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} 611، فالمؤمن المسلم وجهه لله رب العالمين مأمور بترك الاستماع لما يقال في المجالس من استهزاء ولغو وفي الوقت نفسه مأمور بسماع قول الله عز وجل واتباع أمره حتى يخوضوا في حديث غيره.

---

610 - النساء 140.

611 - الأنعام 68.

وعليه فلمؤمن هو الذي لا يغفل عما يستمع إليه من السميع المطلق، أما أولئك الغفلة فهم الذين جعل لهم الله تعالى حاسة للسمع وعقلا للتمييز وهم عن أمرهم غافلون، أي غافلون عما قاله تعالى وهو خير لهم، ومع أنه خير لهم إلا أنهم لم يدركوا بعد هذا الخير وبعد فوات الأوان سيكونون من الخاسرين بأسباب الغفلة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ فَهَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرَاهُمْ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ 612 المنافقون والكفرة والمشركون دائما في المسلمين يظنون ظن الجاهلية، ومثل هؤلاء المستهزئون الساخرون من الحق هم الغافلون حقا فهم لا يدرون الساعة تأتي بغتة.

لذلك لا بد أن يكون المؤمن دائما مستحضرا لسماع الله المطلق، فيكون سمعه للحق ومن أجل إحقاق الحق، وللعادل لا للظلم، وأن يكون قبل كل شيء سمعه للخالق، هذا هو السمع الحق كما أراده الله فينا، وإلا لما كان هذا السمع نعمة من الله سبحانه وتعالى لنا مثل كثير من النعم الأخرى، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَعْلَاقًا وَسَعِيرًا إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ 613، أي أن الله أتم خلقه للإنسان وبعد ذلك أهداه نعمتي السمع والبصر، ثم جاءه التخيير فبعد أن يستمع له الاختيار إما أن يكون شاكرا على نعمه التي أنعمها عليه

612 - محمد 16 - 19.

613 - الإنسان 1 - 5.

وإما أن يكون جاحدا كفوورا ولكل حسابه. وللتمييز سيكون السميع مسلما طائعا، وسيكون غيره كافرا رافضا.

السميع هو المجيب، ولأن رسول الله مستمد صفاته من صفات خالقه السميع المطلق فهو سميع لأجل أن يجيب على من استمع إليه، ولهذا كلمة (سميع) تحمل في معناها عمق الاستماع وذلك لأجل معرفة البعد الدلالي للقول.

ولأن الله السميع قد منّ علينا بحاسة السمع فلما لا نكون سميعين لِمَا يجب أن يُسمع، ولهذا كان رسول الله سميع لما يقال له ولم يجيب على كل ما يسمع إلا بعد تبين وتدبر وهذه من خاصيات أنه سميع.

فالمؤمن الحقّ يجب أن يكون سمعه من سمع الله سبحانه وتعالى، وبصره من بصر الله عزّ وجلّ، فهو الذي يجعل حياته للخالق، ويعقد قلبه على ترك مخالفة الله تعالى، وترك معاصيه وأن يلزم الحقّ وأوامر الله عزّ وجلّ.

ونستوحي من بعض الآيات القرآنية الكريمة قرب الله سبحانه وتعالى بسمعه منا، {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} {614،

السميع المطلق هو الذي يستمع إلى الشيء قبل أن ينطق بما يود أن ينطق به، فعلام الغيوب يعلم بالشيء قبل وقوعه، ولذا فهو المستمع لما سيقال قبل قوله ولهذا فهو الله الواحد القهار.

السميع هو من يكون منتبها لما يُسمع وهو الذي لا يسترق السمع لأن في استراقه فتنة، ولهذا فهو سميع لما يقال بعناية واهتمام وتدبر، فاستراق السمع، صفة ذميمة لا تؤدّي بصاحبها إلاّ للتحقير، ولا يجوز لأي مخلوق

أن يتعدى حدوده التي أعطها له خالقه، فإن الله تعالى قد جعل لسمعنا حدودا وحكمة هو مدركها، فكيف نتخطى هذه الحدود الإلهية؟

نقول:

استراق السمع ممنوع على كل أنواع الخلق من الجن والإنس، فالسمع المطلق هو ملك للسميع المطلق، ولهذا المؤمن لا يستمع إلا لما يجب الاستماع إليه فلا يسترق سمعا، وذلك لمعرفته بعقاب من يسترق السمع استرقا، قال الله تعالى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ} 615.

والمؤمن الصادق هو الذي يصون أذنه عن سماع اللغو والباطل، كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} 616.

إذن قد فرّق القرآن بين الذين يتمتعون بالسمع كحاسة فقط، وبين الذين يتمتعون بالسمع كتدبر وفهم واستيعاب للأمور بعقل سليم، فالنوع الأول قد جعل الله تعالى سمعهم وكأنه صمم، أما النوع الثاني فقد جعل الله تعالى سمعهم إدراكا وتدبرا.

والنوع الثاني هو خاص بالمؤمن الذي يجعل من سمعه وسيلة للطاعة، كما أراد الخالق عزّ وجلّ عندما قرن الطاعة بالسمع في قوله تعالى: {فَاتَّقُوا

---

615 - الحجر 16 - 18.

616 - القصص 55.

اللَّهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {617}.

### 37 . أسوة حسنة:

الأسوة الحسنة هو من يكون مثالا للآخرين في قوله للحق، وفعله له، واهتدائه به عملا وسلوكا، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} {618}.

الأسوة الحسنة هو من يضرب المثل به في الصفات الحسان المستمدة من صفات الله الحسنى لتكون معاملة بين الناس في الهداية والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والرسول عليه الصلاة والسلام كان أسوة حسنة من حيث:

أ . اتباعه لأمر الإتياع الذي أمره الله به، وانتهائه عن الأمر المنهي عنه، ولمن يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا، (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا).

ب . اتباعه لسنن الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه بالدعوة، قال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} {619}.

---

617 - التغابن 16.

618 - الأحزاب 21.

619 - الممتحنة 4.

ج . تكوينه وإعداده الأخلاقي، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} 620.

ولأن محمد أسوة حسنة في الأخلاق والطاعة لله الواحد القهار وفي قول الحق وإحقاقه ودمغ الباطل وإزهاقه، لذا فهو القدوة لمن يريد أن يقتدي في حياته ويوم بعثه، ولذلك كان محمد سرجا منيرا، {وسرجا منيرا} 621.

الأسوة الحسنة هو المحسن لخلق الله تعالى، ولذا في قيمة الإحسان أفعال حسان، وإتقان يستوجب الجزاء الأوفى، وذوق رفيع على موازين الحياة العادلة. قال تعالى: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} 622، وقال تعالى: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} 623، وعليه فالإحسان من عمل وسلوك النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا فالأعمال الحسان هي أعمال إحسان للصغير والكبير والذكر والأنثى والقريب والغريب، وهي من الأعمال الصالحة التي قال عنها تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 624.

وعليه فالإحسان عمل الخير لمن هم في حاجة إليه، والأسوة الحسنة هو المكثّر من الحسنات التي هي جهود تُبذل بأفعال طوعية تحقّق الرضاء النفسي لمن تُقدّم له، ولمن قام أو أقدم على أفعال تقديمها للمستحقين لها.

---

620 - القلم 4.

621 - الأحزاب 46.

622 - الرحمن 60، 61.

623 - البقرة 83.

624 - النحل 97.

إذا الأسوة الحسنة لا تقتصر أسوته على ذي القربى ومن له علاقات بهم بل يحتويهم ويمتد إلى آخرين، ولذلك كان محمد أسوة حسنة للناس كافة بالرّسالة الخاتمة.

ولأنّ محمّدا عليه الصّلاة والسّلام أسوة حسنة فالذين امتحن الله قلوبه للتقوى يغضون أصواتهم عنده، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَعْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} 625، وأولئك الذين يغضون أصواتهم عند رسول عليه الصّلاة والسّلام الله هم الأسوة للأسوة الحسنة.

ولأن محمّدا عليه الصّلاة والسّلام أسوة حسنة فهو لين القلب طيب النفس قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} 626، أي أن برحمة الله كان قلب محمد عليه الصّلاة والسّلام لينا عليهم، وبهذا اللين ليس لك بدا إلا أن تعفو عنهم وتستغفر لهم وتشاورهم في كل أمرٍ يتعلق بهم، وهكذا كان محمد لين، ولهم أسوة حسنة.

ولأن محمّدا أسوة حسنة من عند الله اتخذه الناس لهم مثال حسن في القول والفعل والعمل والسلوك، ولهذا أصبح موصوفا بما وصفه الحقّ به مصداقا لقوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ).

في الآية دلالة على فضل الاقتداء بالنبى عليه الصّلاة والسّلام وأنه الأسوة الحسنة لا محالة ولكن ليس فيها تفصيل وتحديد لمراتب الائتساء والواجب منه والمستحب وتفصيله في أصول الفقه.

---

625 - الحجرات 3.

626 - آل عمران 159.

وعليه نتساءل:

. هل الأسوة تُخلق الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

. كيف يكون الائتساء بالرَّسول؟

إن الظاهر في لفظة أسوة أنها لفظة عامة بمعنى أنها غير مخصوصة بدلالة معينة، وهذا يعني أمور منها:

1 . مطلقية الائتساء إلا ما اختص به الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

2 . مطلقية الخلق الحسن.

إن السياق القرآني في غاية الدقة والوضوح في التعبير عن المراد، فالترغيب بالائتساء بالرَّسول الأكرم مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يشمل كل أخلاقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دون مخافة من الوقوع فيما يخالف عقيدة أو عرفا لان الله عزَّ وجلَّ أخبر أن كل الائتساء بالنبي عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حسن أي هو من الموجب في الدين والدنيا وذلك راجع إلى أخلاق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا وجود لما يقلق عليه المؤتسي في اتسائه بالرَّسول الكريم لأنَّ مطلقية الخلق الحسن بادية جلية في الآية الكريمة.

كان لكم في رسول الله أخلاق حسنة من حقها أن يؤتسى ويقتدى بها؛ ويجوز أن يراد بالأسوة القدوة بمعنى المقتدى على معنى هو عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في نفسه قدوة يحسن التأسى به، وفي الكلام صنعة التجريد وهو أن ينتزع من ذي صفة آخر مثله فيها مبالغة في الاتصاف، والآية وإن سيقَّت للاقتداء به عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أمر الحرب من الثبات ونحوه فهي عامة في كل أفعاله عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا لم يعلم أنها من خصوصياته.



### 38 . مشاور :

المشاور هو الموصوف بالمشاورة التي هي تعني: أخذ الرأي بعد تبيان الأمر واستيضاحه مصداقا لقوله تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} 627، ويقول ابن منظور: "شاورهم تعني استخراج آراءهم" 628 أما الشيخ الشعراوي فيقول: "المشورة هي تلقيح الرأي بآراء متعددة" 629. وهذا يدل على أن مفهوم الشورى في الدين الإسلامي يتعاضم عن مفهوم الديمقراطية حتى وإن تقاربت منها في الدلالة والمفهوم، فالشورى لا تقتصر على فئة أو جماعة دون أخرى بل هي قاعدة عريضة لكل الناس مثنى وثلاث ورباع وأي عددٍ يمكن أن يكون في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع، ولذلك فممارسة الشورى حقا للجميع الذكور والإناث، ولهذا لا أمر (أي أمر) في الدين الإسلامي إلا ويُعظَّم بالشورى.

والأمر: هو، كل ما يتعلق بالإنسان من ممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمل مسؤولياته، سواء أكان هذا الأمر سياسة داخلية أم خارجية أم أكان هذا الأمر في حالة السلم أو في حالة الحرب، وسواء أكان اقتصادا أم علاقات اجتماعية، ولذلك في الآية السابقة يخاطب الله عز وجل رسوله الكريم ويلزمه بالمشاورة في الأمر، أي وكأنه يقول، في وجودك يا رسول الله لا ينبغي أن تقرر أي شيء يتعلق بالناس نيابة عنهم، بل ما يتعلق بهم من أمرٍ يجب أن تكون فيه في حالة شورى معهم، ولذلك كانت الآية (وشاورهم في

---

627 - آل عمران 159.

628 - تفسير الجلالين، بيروت، دار الفكر، ص 94.

629 - محمد متولي شعراوي، تفسير الشعراوي، القاهرة، أخبار اليوم، المجلد الثالث، ص

1840.

الأمر) موجّهة إلى رسول الله عليه الصلّاة والسّلام لتبيّن له أهمية المشاورة في الأمر مع الذين يتعلّق الأمر بهم.

وبعد أن تتم المشاورة في الأمر الذي هو بين النّاس (شركاء فيه) يجب أن يؤخذ القرار الذي أصبح العزم فيه واضحاً حيث لا تردد من بعد مشاورة تفضي إلى قرار عن وعي وإرادة، (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)، أي إذا بلغت مرحلة اتخاذ القرار، واتخذته بعد المشاورة فتوكل على الله لتنفيذه وفقاً لما صممت عليه، أي لا يجب عليك أن تتأخر فأمضي حيث ما عزمت فإن الله يُحب المتوكلين عليه في تنفيذ أمورهم التي هي في مرضاته تعالى.

ولأنّ المشاورة حقّ لمن يتعلّق الأمر بهم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أنتم أعرف بأمر دنياكم وأنا أعرف بأمر دينكم، وقال: ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم"630.

ولذلك كانت منابر المساجد في عهد رسول الله عليه الصلّاة والسّلام منابر دعوة وتبشير وشورى وفي كل أمر يتعلّق بالنّاس، ولهذا كان رسول الله عليه الصلّاة والسّلام مشاوراً لمن يتعلّق الأمر بهم سلماً وحرّاً وعهداً وموثقاً.

كان رسول الله محمّد في واقعة أحد مشاوراً لمن يتعلّق الأمر بهم فأشاروا عليه بالخروج، وعندما وقع ما وقع كان الجميع للمسؤولية متحملين دون أن يُشار بها لأحدٍ بعينه، ولذا فقوله (وشاورهم في الأمر) هي الباقية حتى وإن كانت نتائج بعض المشاورات ليست بالإيجابيات الظاهرة كما هو حال المشاورة لموقعة أحد، ولأن الكمال لله وحده فلا استغراب أن يكون النّاس الذين يتعلّق الأمر بهم على غير كمال فيقعون في مثل ما وقع فيه المتشاورون في موقعة أحد، ولأن الشورى حقّ فلا ينبغي أن تُفسخ بأسباب

---

630 - تفسير الرازي، ج 4، ص 445.

عدم الكمال، بل به يجب أن تُرَسَّخ بين الناس ليكونوا على الحقّ أو منه أقرب.

وهكذا كان رسول الله عليه الصلّاة والسّلام مشاورا حيث استشارهم في الخروج لبدر، وفي الخروج إلى أحد، وفي شأن الأسرى، واستشار عموم الجيش في ردّ سبي هوازن، وفي غير ذلك كثير، وفي مثل هذا الأمر لقد أخرج الخطيب عن عليّ قال: "قلت: يا رسول الله الأمر ينزل بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يسمع منك فيه شيء قال: اجمعوا له العابد من أمّتي واجعلوه بينكم سُورى ولا تقضوه برأي واحد" 631.

ولأن الشورى هي أساس تكوين العلائق بين الأقارب والأبعد وبين المؤمنين والكافرين ففي عهد موسى عليه الصلّاة والسّلام كانت الشورى في بعض الأمور من المتعارف عليه، مصداقا لقوله تعالى: { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا تُوَكُّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغَلِبُوا هَنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ } 632.

وفي عهد ملكة سبأ كان للمشاورة شأن، ولهذا كانت في ذلك الوقت على الفؤة التي بها يُضرب المثل، قال تعالى: { قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو فِؤَةٍ وَأَوْلُو بُأْسٍ شَدِيدٍ

631 - التحرير والتنوير، ج 3، ص 263.

632 - الأعراف 109 - 120.

وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ قَالَتْ إِنَّ الْمُؤَكَّ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا  
وَجَعَلُوا أَعْرََّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ بِمِ  
يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ {633}.

ولأنَّ الله واحداً أحداً لا شريك له، ولأنَّ الدِّين من عند الله هو  
الإسلام الذي لا يُثنى ولا يُجمع، وأنَّ الرُّسُل جميعهم مصطفون من الله  
الواحد الأحد، لذا ما يريد الله هو واحد لا يُثنى ولا يُجمع ألا وهو (الحقّ)  
ويُريد من عباده إحقاقه بينهم شورى، مصداقاً لأمره لمحمد عليه الصلّاة  
والسّلام بأن يكون الأمر بينه وبين الذين يتعلّق الأمر بهم شورى (وشاورهم  
في الأمر).

وفي حالة ما لم يكن الرُّسول عليه الصلّاة والسّلام معهم، أو من بعده  
أيضاً يصبح الأمر بينهم شورى مصداقاً لقوله تعالى: {وَأْمُرْهُمْ شُورَى  
بينهم} {634}. إذا بكل وضوح إنَّ الأمر الذي يتعلّق بالنّاس في فترة الرُّسول  
عليه الصلّاة والسّلام كان في حالة شورى بين الرُّسول والآخرين الذين يتعلّق  
الأمر بهم. أمّا من بعده فيترك الأمر بين الذين يتعلّق بهم شورى يقررون ما  
يشاءون فيه، وينفذونه كما يشاءون وفقاً لما يراؤون، ولهذا لا ينبغي أن يتقدم  
أحد لينوب عن النّاس فيما يتعلّق بهم من أمر.

وكلمة (أمرهم) تتكون من جزأين هما:

. أمر.

. وهم.

---

633 - النمل 32 - 35.

634 - الشورى 38.

فالأمر هو ما سبق تبيانه، أما هم فجاءت مطلقة، أي كل من هم على علاقة ارتباط مع الأمر، ولفظة بينهم الظرفية تعني أن تقتصر الشورى في الأمر على الذين يعينهم الأمر فقط ولا مكان لغيرهم، ولتأكيد هذا الخصوصية قال عزّ وجلّ بينهم، ولم يقل بين الحاكم والمحكومين، أو بين السادة والعبيد، أو بين المسؤول وغير المسؤول.

والشورى صفة أصيلة من صفات العقلاء كونها رافدا مهما في تحسين الاختيار الذي يصب في قرار الإرادة الناتج عن الوعي الجمعي، ومن شاور الناس شاركهم فيما يعقلون، وذلك من أجل تحري أفضل السبل التي تقود إلى نجاح فكرة ما، ذلك أن أيّ قرار بإرادة لا يستند إلى المشاورة فهو مبني على نقص في الفكرة، ولذا فالعلاقة قوية بين الإرادة والأمر والواقع والظرف الذي هو فيه، فالإرادة فوّة تُمكن من اتخاذ قرارات وفق معطيات واقعية، وهذا الواقع إنما يتمثل في أفراد المجتمع الذين يتعلق الأمر بهم، فكلما كانت دائرة الشورى متسعة للذين يتعلق الأمر بهم، كان الاختيار أقرب إلى الواقع، أو مطابقا له، وبالتالي كان قرار الإرادة ينسجم مع هذا الواقع الذي يُهيئ له في دائرة الممكن.

ولأن الأعمال تتفاضل وتختلف درجاتها، وشرط نجاح الأعمال سلامة المعتقد، أو نجاح الفكرة أو الأفكار التي تقوم عليها تلك الأعمال، ومن أجل تطابق الفكرة النظرية مع الواقع العملي قدر المستطاع وجبت الشورى التي تؤسس على الإرادة من أجل ممارسة الحق والعمل على إحقاقه.

ولذا فالشورى لا تقتصر على فرد أو صديق أو جماعة دون أخرى، وإنما كلما اتسعت دائرة الشورى، اتسع مجال الاختيار، وحتى الذين لا تظن بهم خيرا يدخلون ضمن الشورى التي بأسبابها تنطهر أنفسهم أو تقتدي للأحسن ولأقوم، فمن خلال الشورى يتم الحصول على أفكار عقلية وخالصة تجاربت تستند إلى أساس واقعي، من خلال الذين تتم استشارتهم،

فمجموع الأفكار التي يتم استخلاصها شورى إنما هي نتاج تجارب وخبرات وحاجات متنوعة ومتطورة إما مقتبسة من الواقع من خلال المشاهدة بإعمال الفكر وعملية التأمل، أو مكتسبة منه على أساس تجربة سابقة، فهذه الشورى وإن كانت فكرة ذهنية، إلا أنها تكونت من معطيات واقعية، وعلى هذا الأساس يستطيع المشاور أن يُركب من خلال إدراكه لما هو واقع مدركات وتصورات جديدة تُسهّم أو تُؤدّي إلى إنتاج معرفة مضافة بأساليب أكثر فائدة ونفعا في صناعة المستقبل الأفضل.

وعليه فالشورى أمر يستوجب الأخذ به والعمل عليه، فهي فضيلة في مرضاة الله تعالى، فمن يريد أن يكون من الطائعين فعليه بالشورى في كل أمر مستوجب الاستشارة فيه.

ولأن الشورى من الفضائل التي جاءت في القرآن الكريم لما تُؤدّي إليه من اختيار صحيح، فقد أمر الله تعالى رسوله عليه الصّلاة والسّلام بها في قوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} 635.

وعليه نقول: المشورة هي إغناء الفكرة من استظهار آراء الآخرين لمعرفة ما لديهم من خبرة ومعرفة ورأي وكذلك فهي تشدّ أواصر الرابطة الجماعية والمجتمعية بين من يتعلق الأمر بهم. فالمشورة تنور الأفكار وتوضّح الأمور، ممّا يضيفي زيادة في الفهم عندما يقدم العقل على الاختيار وخاصة في الأمور المصيرية التي تحتاج إلى إمعان النظرة وتقليب الفكرة، فإن في ذلك من الفوائد والمصالح ما لا يخفى على عاقل، إضافة إلى ذلك فإنها للمسلم من العبادات التي يتقرّب بها إلى الله تعالى.

إذا الاستشارة تؤدّي إلى صواب الرأي، ولا يكاد المشاور أن يخطئ،  
وإن أخطأ فقد شارك من استشارهم في حمل المسؤولية.

وعلى ما تقدم فإنه كلما اتسعت دائرة الشورى، كان مجال الاختيار  
رحب في اقتناص الصواب الذي يخدم قرار الإرادة عند الإقدام على الفعل،  
(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) أي من بعد استكمال معطيات ممارسة  
الشورى تصبح الخيارات أمام المنفذين لِمَا ترتب عليها من قرارات متعددة  
مستوجبة التوكّل الذي لا تردد من بعده.

ولذا إذا أريد للمجتمع أن يكون قويا مؤمنا بالواحد الصمد، عليه  
بتمكين أفراده من ممارسة الحرية بأسلوب الشورى في المجالات الآتية:

المجال الاجتماعي.

المجال الإنتاجي.

المجال السياسي.

المجال النفسي.

المجال الذوقي.

المجال الثقافي.

ولأنّ أيّ أمر من الله لعباده يتطلب من عباده استجابة فقد استجاب  
الذين آمنوا لرّبهم بإقامة الصلاة ويجعل أمرهم بينهم شورى وهؤلاء هم  
الفائزون، قال تعالى: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى  
بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} 636.

ولهذا لقد كانت الشورى هي الفؤة التي ساندت الحقّ في فترة رسول الله وستظل فؤة مهابة ومقدّرة من بعده عند المستخلفين في الأرض، فكان الرّسول عليه الصّلاة والسّلام أكثر التزاما بها حتى ولو كان القرار المترتب عليها مخالفا لرأيه.

ولأنّ أمر الحرب كأي أمر من أمور النّاس هو شورى بينهم، فلا يجوز فيه الإجبار من أحد ممّا جعل الرّسول عليه الصّلاة والسّلام لا يتجاوز التحريض على الجهاد بعد أن أذن له وللمؤمنين بذلك، ومن لا يرغب في ذلك لا يكون إلا مع الخوالف.

وعليه لم يكن للرسول جيوشا نظامية كما هو حال المجتمعات من بعده، بل كان معه مقاتلين من أجل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل وبكل اشتياق ورغبة ممّا جعلهم الموصوفون في القرآن الكريم بـ (المجاهدين)، أمّا أمر الجيوش فهو عبارة عن موظفين مأجورين من قبل الدولة للدفاع عنها، وعندما تكتب عليهم الحروب يدخلونها متثاقلين غير راضين وليس لهم حرية التخلف عن تنفيذ الأوامر التي تصدر لهم، وهم لا رأي لهم فيها ممّا يجعل الهزائم العسكرية علامة من علامات الجيوش المأجورة. ولهذا لا خير في متباطئ متثاقل مصداقا لقوله تعالى للرسول صلّى الله عليه وسلّم: {فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرص المؤمنين} 637.

وبالرغم من الخسارة الحربيّة للمسلمين في بعض المعارك التي خاضوها ضد الذين كادوا لهم المكائد ومكروا بهم مكرًا إلا أنّ الانتصارات كانت هي الحليف الأكثر تكرارا لهم وذلك نتيجة الإيمان بالقضية التي جاهدوا في سبيلها بالفؤة، فؤة العقيدة وفؤة التوحيد وفؤة الحجّة وفؤة النفس وفؤة الإرادة.



ولذا فالفرق كبير بين من يقاتل من أجل قضية وبين من يقاتل من أجل حكومة. فالذي يقاتل من أجل قضية دينية أو وطنية فهو يقاتل في حقيقة الأمر من أجل كرامة شخصية يكون لها اعتبار بين الناس ويكون لها اعتبار في المستقبل الخالد مما يحقق للمقاتل النصر أو الاستشهاد، أما الذي يقاتل بغير قضية فلا يكون له اعتبار لا في الحاضر ولا في المستقبل، مما يجعله في حالة استسلام وهزيمة ويكون الندم له رفيقا.

وعليه جاء الأمر في قوله تعالى: (شَاوِرْهُمْ) مطلقا لا مقيدا على أمرٍ محددٍ، أي شاورهم يا محمد في كل أمر من أمورهم المؤدية إلى علاقات بينهم. والمشاورة بين المسلمين جاء النص عليها فيما لم يرد (ينزل) بشأنه نصا واضحا مبينا، فالذي نزل بشأنه نصا قرآنيا لا شورى فيه، بل به يتم الالتزام والإتباع مع فائق الطاعة.

ولأنّ الشورى هي البوتقة للصواب والرشاد فهي حقّ يجب أن يُعطى ويُمكنّ النَّاس منه، وإن لم يعط سيتم أخذه كلما تهيئة له الظروف.

والشورى في عهد رسول الله عليه الصلّاة والسّلام لها مرامي منها:

. تُمكنّ من معرفة خير الأمور بين النَّاس وأشرفها.

. تُمكنّ من اتباع أمر الله بين العباد وبالعباد.

. تُمكنّ المتشاورين من المعرفة الحقّ.

. تُمكنّ من معرفة واكتشاف المتميّزين في المجتمع فكرا واستعدادا وقدرةً

وقدوةً حسنة.

. تُمكنّ المشاركين فيها من المشاركة في حمل أعباء المسؤوليات الجسام.

. تُمَكِّن أصحاب الأفكار والرياء من بوتقة أفكارهم ورؤاهم في قرارات قابلة للتنفيذ وفقا لما هو متاح لديهم من إمكانيات.  
. تُحَسِّن من المستوى المعرفي للمتشاورين وترتقي بهم إلى ما يفيد وينفع.  
. تُمَكِّن الأفراد والجماعات من الانتماء إلى النظام الذي أقرَّ لهم حقَّ المشاورة.

### 39 . متوكِّل على الله:

التوكِّل على الله قرار يُتخذ بعد بيِّنة من الأمر واعتقاد تام في أنَّ الله المتوكِّل عليه هو الذي ينصر عبده ويعز المؤمنين بما يحقُّ لهم نصرا، ولهذا فرسول الله عليه الصلّاة والسّلام كان مشاورا لمن يتعلق الأمر بهم وإذا عزم يتوكِّل على الله فكان محبوبا عنده، مصداقا لقوله تعالى: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} 638.

وعليه كلما رأى الرّسول أنه على الحقّ المبين يتوكِّل على الله ولا يتردد في قرارٍ يتخذه بعد بيِّنة، قال تعالى: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} 639.

ومن يتخذ الله وكيلا له في كل ما يقول ويعمل ويفعل ويسلك يتوكِّل عليه وهو يعلم أنه ليس بحاجة لغيره، قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} 640.

ولأن من يتوكِّل على الله لا يُخذل، فكان رسول الله عليه الصلّاة والسّلام خير متوكلا على الله في كل أمر من أمور السلم والحرب وبشكل

---

638 - آل عمران 159.

639 - النمل 79.

640 - النمل 81.

عام في كل أمور الحياة والممّات، ولهذا يعقد العهود والمواثيق وهو غير متردد بعد توكله على الله، قال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {641}، أي بعد أن يجنحوا للناس للسلام عليك يا محمد بالجنوح إليه، ولهذا كان رسول الله دائما متوكل في أمره على الحي الذي لا يموت، وقال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} {642}.

ولذا ما أجمل أمر الله وما أعظم أن يطاع أمره، لقد أمر الله تعالى رسوله بأن يتبع ما يوحى إليه من ربه، فكان أكثر طاعة وهو متوكل عليه، قال تعالى: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا} {643}، ومن يطيع الله وهو متوكل عليه، لا يمكن له أن يطيع كافرا ولا منافقا، قال تعالى: {وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا} {644}.

#### 40. مطاع:

المطاع هو الذي يتم اتباعه عن رغبة وإرادة، والطاعة الحق لا تكون إلا للحق والذي يأمر به، ولهذا في الطاعة اتباع ونيل تقدير ونيل احترام ونيل اعتراف وتحقيق اعتبار، وفي معكوس المعنى اللغوي للطاعة يكون الضلال والمعصية، وفي مقبل الطوع يكون الكره.

والطاعة قد تكون بعد تبين وقد تكون طاعة للأمر الموثوق من مصدره، قال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

641 - الأنفال 61.

642 - الفرقان 58.

643 - الأحزاب 2، 3.

644 - الأحزاب 48.

الْكَافِرِينَ} 645، في هذه الآية الكريمة جاء أمر طاعة الرسول مرتبطاً بطاعة الله فالذي يطيع الله ليس له بدٌّ إلا أن يطيع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولأنَّ الدين الحقَّ من عند الله، فالله تعالى أوجب طاعة الرسول ثم تلاها بطاعة أولي الأمر من النَّاس طاعة في غير معصية لله، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} 646، ولكن قوله (وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) لا تعني أولي أمركم، فأولي أمركم تعني من يتولاكم بالرعاية والعناية كالوالدين والأخوة الكبار، أمَّا أولي الأمر منكم فهي تعني الذين اخترتموهم طواعية لأن يتولَّوا رعاية الأمر الذي هو منكم، وهذا الأمر هو أي أمر منكم سواء أكان سياسة داخلية أم خارجية أم سلماً أم حرباً، فالذي اخترتموه لذلك عليكم بطاعته في الأمر الذي اخترتموه من أجله، وهذا يعني لا طاعة له في غير الأمر الذي تم اختياره ليكون عليه ولياً راعياً.

والذين استجابوا لأمر الله بطاعة الرسول الكريم فعليهم بطاعته دون تردد، وعليهم ألا يتخلَّوا عنه في ساعة العسرة، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبَعْتُمْ تَوَلَّيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} 647، ولذلك في طاعة الرسول هداية واتباع للحق الذي أمر الله بطاعته، ومن لم يطع الرسول فيما يأمر به فقد ظل وعليه عبئ ما حُمِّلَ به، قال تعالى: { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ

---

645 - آل عمران 32.

646 - النساء 59.

647 - الأنفال 20، 21.

الْمُبِينُ} 648، وليعلم الجميع أن الذي يطيع الله ورسوله عليه الصلاة والسلام يُدخله الله تعالى الجنة والأخبار من تحتها تجري، قال تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} 649، والذين يدخلون الجنة بأسباب طاعة الله ورسوله، يجدون أنفسهم مع أولئك الذين أنعم الله من النبيين والصديقين، قال تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} 650.

وفي مقابل الطائعين لله ورسوله أولئك الكفرة الفجرة الذين تولوا عن الطاعة، فكانت لهم جهنم هي المأوى فيها يعذبون بدون رأفة، قال تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا} 651.

وعليه فالمطاع بالمطلق هو الله، والمطاع أمرا هو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} 652، أي أن الله تعالى أمر رسوله محمد بأن يبلغ الناس بطاعة الله وطاعته رسولا مبشرا ومنذرا ومحرضا على الحق بالحق، ولذا فطاعة الرسول الكريم تستوجب اتباع عن بيّنة وأفعال خير حسان.

إذا طاعة الله طاعة في ذاته، وطاعة الرسول طاعة لأمر الله بطاعته، وهكذا تكون من بعده طاعة أولي الأمر في غير معصية الله عز وجل، ولأن

---

648 - النور 54.

649 - النساء 13، 14.

650 - النساء 69.

651 - الفتح 17.

652 - آل عمران 32.

طاعة الرسول الكريم مأمور بها، إذا من الوجوب في طاعة الرسول محمد اتباع ما أمر باتباعه والانتهاة عمًا نهي عنه.

ومع أنّ الرسول الكريم مأمور بأن يُبلِّغ النَّاس بطاعة الله وطاعته رسولا خاتما للرُّسل، إلا أنه لا يكره أحدا على الطاعة حيث لا إكراه في الدين، ولذا فمن يتولى عنه يُحمّل وزرا ومن يهتدي فقد رشد، ولأن أمر طاعة الرسول موجّه للمؤمنين لذا فمن آمن بالله تعالى ربّا ولم يؤمن بمحمد رسولا قد أضع أعماله التي يعتقد أنها قد تنجيه من العذاب الشديد، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ } 653.

#### 41 . شديد:

الشديد هو المشتد على الشدة حتى يقهرها لتكون من بعدها رحمة، فهو يشتد على الكفر والشرك لأجل الإيمان بالحقّ واحدا واحدا لا شريك له، فكلما اشتدت على الكفار والمشركين والضالين والمشعوذين والمفسدين في الأرض وسافكي الدماء فيها بغير حقّ فُرِجت على الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأصلحوا في الأرض ولذا في شدته الرحمة.

ولأن الشدة حقّ ينبغي أن تُحقّ، وإلا لظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ولأن الكفر شدة فساد، فالشدة عليه قوة إصلاح وإعمار، والشدة على أصحابه شدة رحمة لينتهوا عن الفساد في الأرض، ولذا كان محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار صدقا لقوله تعالى: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } 654.

---

653 - محمد 33.

654 - الفتح 29.

ولأنَّ الشدَّةَ من أجل الرِّحمةِ بين النَّاسِ فكان محمَّدٌ والذين معه هم الأشداءُ على الكفار وهم الرِّحماءُ بينهم، أي أن الشدة على الكافرين رحمة على المؤمنين، ولهذا رسول الله عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ الشديد على الكافرين رحيم على المؤمنين وهكذا أصبح المؤمنون رحماء بينهم، ولو كان رسول الله فظا غليظ القلب لانفضوا من حوله مصداقا لقوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} {655}.

ولأنَّ الذي علَّم رسول الله، شديد القوى، فالشديد لا يُعلِّم إلا شدة وشديدا، فالمعلِّم شديد القوى لم يحدد ذكرا في القرآن بل استنتاجا، والأكثرية تعتبره جبريل، ولكن قد يكون المعلِّم الشديد هو الشديد المطلق، والمتلقي لعلم شديد القوى هو محمَّد، ولهذا كان محمَّد شديد القوى أيضا بما علِّم به من وحي موحى، قال تعالى: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} {656}. فالضمير في هذه الآية الكريمة عائد على من تم تعليمه أمَّا المعلم فهو شديد القوى التي جاءت على احتمالات منها:

. أن يكون المعلم جبريل أو الملك المكلف بذلك.

. إنَّ شديد القوى هو الله الشديد.

ولكن إن أخذنا الآية مستقلة بذاتها عما سبق وما لحق فلا تكون إجابة إلا أن الشديد هو الله مالك الفوَّة ولهذا فشديد القوى هو الله تعالى.

ولأنَّ الشديد هو القوي بالمطلق فقد جعل قوته في خلقه لتكون على الحقِّ وإحقاقه وهكذا جعل في نعمه الشدة التي بها تقوى النعم لتكون على الفوائد والمنافع فكانت شدته فوَّة في المعادن التي منها الحديد مصداقا لقوله

---

655 - آل عمران 159.

656 - النجم 5.

تعالى: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} 657.

ولذلك فالشدة تكون على ما يفيد وينفع وكذلك تكون على ما يضر ويهلك الضرر والهلاك.

ولأنّ الشديدي فهو لن يهمل القرى التي أهلها كفروا وأفسدوا وعتوا عن أمر ربهم إلا وجاعلها في التهلكة كما هو حال عاد وثمود أو أن يُعذب أهلها عذاباً شديداً كما هو حال قوم نوح الذين كفروا وسخروا منه وبما جاءهم به من نبأ وخبر فاغرقوا يوم لا عاصم من أمره إلا هو (حكماً لا مفر منه)، قال تعالى: {وَإِنَّ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} 658.

إذا لا شك في أنه المذيق العذاب الشديد للذين كفروا وطغوا وسخروا كثيراً من القرآن الكريم قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} 659، إذا العذاب الشديد حق بيد الله سينزله على الذين كفروا وأشركوا والغوا في القرآن، ولهذا فالشدة رحمة لمن آمن بربه واهتدى.

ولسائلٍ أن يسأل:

بما أنّ الشدة رحمة فعلى من تكون هذه الشدة رحمة؟

---

657 - الحديد 25.

658 - الإسراء 58.

659 - فصلت 26-27.



هي: شدة على الكافرين ورحمة على المؤمنين، أي رحمة على الذين آمنوا وصدّقوا وعملوا صالحا في مرضات الله وتكون قسوة شديدة على الكثيرين الذين تنوعت أعمالهم المفسدة ومنهم:

أ . الذين يتخذون من دون الله أندادا، قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْفَوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} 660.

ب . المبدّل لنعم الله من بعد ما جاءته، قال تعالى: {وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} 661.

ج . الذي لا يتقي الله فيما أمر ونهى وحرّم، قال تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} 662.

د . الذين كفروا بآيات الله كفرا وشركا، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} 663.

هـ . المكذبون بآيات الله تكديبا، قال تعالى: {كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} 664.

---

660 - البقرة 165.

661 - البقرة 211.

662 - البقرة 196.

663 - آل عمران 4.

664 - آل عمران 11.

و . المتعاونون على الإثم والعدوان، قال تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ  
وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ  
العِقَابِ} 665.

ز . المجرمون والمكرون، قال تعالى: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ  
سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا  
يَمْكُرُونَ} 666، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ  
وَمَكْرٌ أُولَئِكَ هُوَ يُبْوَرُ} 667.

ح . الذين شاقوا الله ورسوله، قال تعالى: {ذَلِكِ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} 668.

ط . واقدو نار الفتنة وظالمو الناس ظلما، قال تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا  
تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} 669.

ي . الذين يزين لهم الشيطان أعمالهم، قال الله تعالى: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ  
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا  
تَرَءَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ  
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} 670.

---

665 - المائة 2.

666 - الأنعام 124.

667 - فاطر 10.

668 - الأنفال 13.

669 - الأنفال 25.

670 - الأنفال 48.

ك . المجادلون في الله من بعد ما تبين لهم الحق، قال تعالى: {وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} 671، وقوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} 672.

ل . الذين لا يثقون في أن زلزلة الساعة آتية لا محالة وأن أمرها بيد خالقها الشديد العظيم، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسِ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْهَا تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} 673.

م . الذين يضلون عن سبيل الله، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} 674.

ن . الذين يكفرون بالرسل وما آتوهم من البينات، قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدٌ الْعِقَابِ} 675.

س . المتفاخرون بالحياة الدنيا، قال تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُمْصَقًا ثُمَّ يُكَونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ

---

671 - الرعد 13.

672 - الحج 3، 4.

673 - الحج 1، 2.

674 - ص 26.

675 - غافر 22.

عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ  
الْعُرُورِ {676}.

ع . القرية التي تعنى عن أمر ربها، قال تعالى: {وَكَايِنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ  
عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّ بِنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا فَذَاقَتْ  
وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا حُسْرًا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا  
أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا {677}.

وعليه فمن هو الشديد؟

بدون شك لا شديد بالمطلق إلا الله تعالى .

ولهذا فالشدة على الكفار والمشركين والمفسدين والمجرمين والظالمين  
والماكرين والكائدين هي على الذين آمنوا رحمة، فالיום الذي نادى فيه  
أصحاب الجنة أصحاب النار ألا يكون هو يوم الطمانينة التي جعلت المؤذن  
يؤذ فرحة بما ناله الكفار والمشركين في نار جهنم، وفوق ذلك لقد زادهم لعنة  
لتشتد النار عليهم رحمة على أصحاب الجنة، قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ  
الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ  
رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ {678}.

وعلى الخليفة في الأرض أن يكون شديدا غليظا على أعدائه من  
الذين كفروا في حالة المواجهة من أجل الحقّ والألا يظلم أحدا، قال تعالى:  
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً  
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ {679}.

---

676 - الحديد 20.

677 - الطلاق 8 - 10.

678 - الأعراف 44.

679 - التوبة 123.

وقال تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} 680.

إذا على الخليفة أن يُظهر الشدة في محلها المناسب ليكون للشدة معنى ودلالة وتكون عليه رحمة ولا تكون له أو عليه نقمة، لذا فالشدة من أجل التخلص من الشدة الظالمة رحمة، والشدة ضبطاً للأمر التي بين اليمين أو يؤتمن عليها شدة يقين وإيمان والتزام بما يجب ولذلك ينبغي الشدة على الأعداء طاعة لأمر الله عز وجل وإتباعاً لسنة النبي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} 681، ولهذا دائماً يجب الشدة على الأعداء (أعداء الله) والتراحم بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وعلى الخليفة أن يتخذ من شدة سليمان شدة في كيفية التعامل مع المخلوقات التي للإنسان سلطان عليها، فقد كان شديداً بمعنى الشدة التي تدل على التمسك مع إمكانية استخدام القوة والقدرة كلما تطلب الأمر أو استدعت الظروف، ولذلك من يمتلك مقاليد القوة والقدرة يستخدمها متى شاء وكيفما يشاء ولكن إن كان من المؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله رب العالمين فلن يستخدم قوته وقدرته في غير ما يجب لأجل نيل مرضاة الله تعالى، وإن كان من غيرهم من الضالين والظالمين والفاستقين والحاسدين والماكرين والكائدين فقد يستخدمها فيما لا يجب؛ ولأننا نتكلم عن سليمان عليه الصلاة والسلام فإننا نتكلم عن المؤمن الذي أحصه الله تعالى بمعجزات وآيات كريمة ميّزته عن غيره من العباد المؤمنين والمسلمين وجعلته في عليين، {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا

---

680 - التوبة 29.

681 - الفتح 29.

شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ {682}.

وعليه قوله تعالى (لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا) دليل إثبات إمكانية استخدام الشدة في محلها وهو بأسباب الغياب التي قد يكون من بينها عدم طاعة الهدهد من الطير المسحَّر لسليمان ليصَّرَف فيه وبه متى ما يشاء في مرضاة الله تعالى، أي بما أن أمر الحشر قد صدر من سليمان ليكون الحضور من الجميع دون استثناء فكيف لا يكون الهدهد من الحاضرين؟

هل هو عاصٍ؟

هل هو متمرّد؟

أم أنه غير معترف بالأمر؟

أم أنه غير مقدّر للشدة الموهوبة لسليمان من الله تعالى؟

وتزداد الشدة وفقا للصلاحيات الممنوحة لسليمان حتى بلوغ تنفيذ أمر القتل في الهدهد إذا لم يكن له عذر في غيابه أو تأخره عن الحضور المحشور فيه من الإنس والجن والطير، مصداقا لقوله تعالى: (أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ).

وكذلك قوله تعالى: (أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) فيه شدة وتهديد باستخدام الفؤة والقدرة المتاحة من الله تعالى، أي إذا لم يكن هناك مبررات مقنعة من الهدهد تُرضي سليمان عليه الصلّاة والسّلام فإن الفؤة المستخدمة ستكون شديدة جدا من العذاب إلى الذبح أو البديل الثالث وهو المبرر المنطقي الذي به يُحقّق الحقّ ويزهق الباطل.

قال تعالى: (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ بِهِ وَحِجَّتِكَ مِنْ سَبِّ بَنِي يَاقِينَ) أي أنه قد تأخر قليلاً، إلا أنه حضر بوجه السرعة وهو يجيب على تساؤل سليمان عليه الصلوة والسلام بما جاء به من أمر لم يحط به سليمان من قبل، فنجي من التعذيب والقتل وتحولت الشدة وانقلبت إلى لين.

وعليه من يكفر ويشرك بالشديد المطلق لا بدّ وأن تشتد عليه حتى تتحقّق الرّحمة، ومن يشتد على من علّمه شديد القوى لا بدّ وان تشتد عليه حتى تعم المؤمنين الرّحمة، ويكون الويل كل الويل محققاً للكافرين مصداقاً لقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشئًى وَّفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} {683، هذا العذاب الشديد هو رحمة على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قال تعالى: {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} {684.

اللهم إنك الشديد وشدتك حقّ فاجعلنا بشدتك مُحَقِّين للحقّ ودامغين للباطل وزاهقين له، اللهم إنك أمرت بالشدّة والغلظة على الأعداء فاجعلنا على الشدة والغلظة التي بها أمرت ولا تجعلنا على الوهن والضعف الذي به نُهزم، اللهم إنك شديد العقاب فأشدد عقابك على شياطين الأنس والجن الذين يُفسدون في الأرض ولا يصلحون.

## 42 . مؤمن:

المؤمن هو من يُسلّم أمره إلى من آمن به ولا يُشرك به أحداً، فالرّسول عليه الصلوة والسلام آمن بالله تعالى ربّاً لا شريك له فأمن من بعده بما أنزل

---

683 - سبأ 46.

684 - الشورى 36.

إليه من ربه وهو القرآن الموحى إليه وحيا، فكان مبشرا به وداعيا له حتى آمن المؤمنون به نبيا رسولا لرب واحد أحد، قال تعالى: {أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} 685.

آمن به تعني: وثق به وصدقه، حتى اعتقده حقيقة، ولذا فالإيمان هو الوثوق والتصديق والتسليم.

والمؤمن من المؤمنين هو الذي يؤمن بالمؤمن الحَقَّ وحده لا شريك له بيده الملك يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

أَمَّا الأمانة: فهي المتداولة بين الطرفين ويستشهد بها ويُشهد عليها بين مالك ومُملِك، وهي إرث يُورَث من سابقٍ إلى لاحقٍ يأتي من بعده كما تورث الأمانة بالإيمان للمؤمن بها، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} 686.

والأمن: فعل استقراري من فاعل أعظم إلى فاعل بالإضافة {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} 687.

والأمان: عهد يُقطع ممَّا يجعل أمان الله باقي ببقائه، وأمان العبد زائل بزواله.

والإيمان: اعتراف إرادي بفعل جل، {لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ

---

685 - البقرة 285.

686 - الأحزاب 72.

687 - الأنعام 82.



أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أَوْلِيكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {688.

بناء على ما تقدّم علاقة قوية بين اسم المؤمن والفعل الإيماني، وذلك من حيث إنّ اسم المؤمن هو المصدر للفعل الإيماني، أي لو لم يكن المؤمن ما كان للإيمان فعلٌ وفاعل، وبما أنّ للإيمان فعل، إذن فمن يعمل على الأخذ به وتأكيدِه فهو المؤمن (الفاعل) وإلا هل يُعتقد أن يتم الأخذ بالفعل الإيماني من غير المؤمن؟! ولذلك من يتخذ من الصفة أفعالها يتصف بها.

وبما أنّ الأمانة عبء، والعبء ثقل ليس هينا، ومن ورائه مسؤوليات جسام، فمن الذي يتطوع لحمله؟

نقول:

الواثق هو الذي يتقدم متطوعا لحمله، أمّا غير الواثق فلا يتقدم، ولهذا عبء الأمانة لا يحمله إلا الواثقون، الذين هم يتصفون بالأمانة.

المؤمن هو المصدّق، قال تعالى: { قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ } 689 فقولهم: (وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كُنَّا صادقين) تعني: وما أنت بمصدق لنا، وجاءها التأكيد عليها بقولهم: (ولو كنا صادقين) التي تحمل في مضمونها الاعتراف من قبلهم بعدم صدقهم فيما يقولون. ولهذا قالوا ولو كنا صادقين ولم يقولوا ونحن صادقين.

---

688 - المجادلة 22.

689 - يوسف 17.

وعليه، فالمؤمن هو الصادق، الذي لم يدخل قاموسه الكذب من قريب ولا من بعيد. ولهذا (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا) تدل أيضا على انعدام الثقة فيهم في أمر يوسف؛ وهذا الأمر هو الذي يجعل من أمر المؤمن أمر وثوق، ولذلك قلنا أن المؤمن هو: الواثق. ولذا فهو الصادق فيما يقول، ولأنه كذلك، فالمؤمن كلما استمع أو قراء قولاً من قول الله تعالى قال: صدق الله العظيم، وهذا القول هو التصديق من المؤمن بالإضافة للمؤمن الحق. ولأن المؤمن هو الواثق، قال: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ).

ولهذا فالمؤمن لا يخاف في الحق أحدا. وبما أن المؤمن لا يخاف في الحق أحدا، إذن أمر التسليم حق، ولأن أمر التسليم بالحق حق، لذا فالإيمان بالحق أمر تسليم، ولهذا جاء قوله تعالى: (وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ) أي أصبح فعل الإيمان أمرا نافدا في زمن الاستماع للهدى دون انتظار أو طلب استشارة من أحد. ولذلك لما يدخل الإيمان في القلوب تصبح الحقيقة هي البينة، {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} 690، إذا لا إيمان للأعراب إلا بعد أن يدخل الإيمان في قلوبهم ويؤمنون بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام الذي آمن بالله ولم يشرك بربه أحدا، مصداقا لقوله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} 691.

والإيمان خيرا، فالمؤمن هو الخير، ولذا فمن يريد خيرا فعليه بالإيمان، ومن يريد شرا فليس له من غيره، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ

690 - الحجرات 14.

691 - البقرة 285.

الرَّسُولِ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا {692} فقولته تعالى (فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ) دليل  
إثبات أن الإيمان هو الخير في ذاته، ولهذا ارتبط بذات الله العلية، وفي مقابل  
ذلك ينفصل الشر عن ذاته ويرتبط بفاعله.

قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ  
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ  
الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} {693}. هذه الآية  
رسالة من الله تعالى إلى الناس جمعاً، يُطلب فيها الإيمان به وبرسوله محمد  
النبي الأمي، الذي آمن بالله وكلماته وهو الذي له ملك السماوات والأرض  
وحده لا شريك له، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

وقد يظن البعض متسائلاً:

كيف يكون هو الرسول من عند الله تعالى ويقول آمنوا بالله ورسوله  
النبي الأمي، وفي هذا النص يشير مباشرة لنفسه (النبي الأمي)؟

هذه الآية نص تام من عند الله تعالى، وما الرسول إلا مكلف بتبليغها  
هي كما هي دون زيادة ولا نقصان، فالله تعالى هو الذي قال النص التام  
لهذه الآية الكريمة، وهو الذي وصفه بالنبي الأمي ولم يصف نفسه بذلك،  
وبهذا الوصف الرباني يُبرئ الله سيدنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام من  
أي اتهام أو ظن، مؤكداً أن الرسالة التامة هي من عند الله وليس للرسول  
فيها من شيء إلا الإيمان بها وبالمؤمن المطلق، وعليه بالبلاغ، وبهذا أكد الله  
تعالى على أن الرسول أمي أي لا علم له بأمر الرسالة لو لم يُعلمه الله بها  
ويُعلمه علمها ويُكلفه بالتبليغ.

---

692 - آل عمران 179.

693 - الأعراف 158.

ولذا فإن الرسول كما سبق أن بيّنا من بعد الرسالة لم يعد أميًّا، فهو الذي يُبيّن ويفسّر ما علّمه الله، فالرسول قبل الرسالة بحقّ كان أميًّا بأمرها، أمّا من بعدها فقد علّمه الله عزّ وجلّ بعلم الرسالة، فالرسول عليه الصلّاة والسّلام لو لم يعلم أنّ الله على كل شيء قدير ما آمن به، ولو لم يعلم علم اليقين بأنه الحقّ ومنه الحقّ ما اصطفاه الله رسولا له، ولو لم يكن كذلك قادرا على حمل ما كلفه بحمله ما حمل الرسالة وبشّر بها ودعا إليها وحرّض على ما تأمر به، ولو لم يكن كذلك ما كان المرجعية التي يعود إليها جميع المسلمين { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ } 694 وقوله تعالى: { لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } 695 فأنزله أولا: بعلمه الذي علّمه محمّد، وثانيا: بشر به، ولأنه قادر على ذلك، صلّى الله عليه وسلّم، وطلب منّا الصلاة والتسليم عليه فالحمد لك والشكر لك لا شريك لك والصلّاة والسّلام على من أمرتنا بالصلّاة والسّلام عليه، سيدنا ونبينا محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

ولقد ورد بلاغان في الآية الكريمة (فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) بلاغ عن الرسول، وبلاغ به، فالبلاغ عنه: أنه آمن بالله وكلماته. والبلاغ به: أنه المكلف بإبلاغ النَّاس أن يؤمنوا بالله وبرسوله النبي الأمي، وإتباعه مع أفضل التمنيات بالهداية.

وعليه، فالإيمان في هذه الآية جاء رباعي الأبعاد:

البعد الأول: إيمان الرسول عليه الصلّاة والسّلام بالله تعالى.

694 - الحشر 7.

695 - النساء 166.

والبعد الثاني: طلب في صيغة أمر بأن يتم الإيمان بمن آمن الرسول به وهو المؤمن.

البعد الثالث: أن يتم التسليم والإيمان بالرسول الأُمِّي محمد رسول الله عليه الصلاة وأتم التسليم.

البعد الرابع: إتباع الرسول أي الأخذ بسنته حتى تتم الهداية لما يأمر الرسول به.

وعليه فمن يؤمن بالرسول فقد آمن بالله الذي به آمن وبما أنزل إليه منه تعالى: (أَمَّنَ الرَّسُولَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ) ومن يكفر فلن يكون إلا حطبا من حطب جهنم.

وعليه فالأمانة التي عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها وأشفق منها هي المسؤولية التي حملها الإنسان، والمسؤولية التزام بالطاعة وعدم المعصية، طاعة الله واحدا أحدا لا شريك له، ولذا فإن الأمانة عبء كبير ومن ورائها منافع أكبر فمن كان أميناً حريصاً عليها كان من المؤمنين حقاً.

وبالرغم من ثقل عبء الأمانة التي آمن بها محمد عليه الصلاة والسلام والتزم بها تبشيراً وإنذاراً ودعوة وتحريصاً وإرشاداً أمام ربّه تعالى، آمن بها من بعده من آمن به ربّاً وبمحمد رسولا وبالكتاب رسالة للكافة، وهذا الالتزام بحمل العبء يعد طاعة لأمر الله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم.

وفي مقابل ذلك لم يُوفَّق الكل في حملها، فكان التقصير من البعض، وكان الشرك من البعض، وكان الظلم وقتل النفس التي حرم الله، وكان الفساد في الأرض، وكان أكل أموال الناس بالباطل، وكان قول الزور متمشياً مع شهادة الزور، وكان الزنا مع المحرمات، والكثير من المعاصي وعدم الالتزام. وهذا لا يعني أن الكل على هذه الشاكلة، بل هناك الأنبياء والرسل

صلوات الله وسلامه عليهم، وهناك الصالحون رضي الله عنهم الذين يعملون على إصلاح ما يُفسده المخالفون، وهناك المجاهدون الطائعون، وهناك الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وهناك المتصدّقون والمتزكّون والقائمون بأعمال الخير والإحسان، وهؤلاء هم الذين إذا أقسموا بالله لأبرّهم، فالحمد لله ربّ العالمين. ولهذا كان الانقسام والخلاف بين الذين ثقلت موازينهم والذين موازينهم خفّت.

ولذا فإن اسم المؤمن هو الأصل، وما يشتق منه تابع له، فالمؤمن بالإضافة مشتق من المؤمن الحقّ، وهو في هذه الحالة متماثل في اشتقاقه مع اشتقاق الأمانة والأمن والأمان من اسمه.

فالذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، هم المؤمنون حقًا الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فهم الذين لم يصاحبهم ظن بما آمنوا به، وهم الذين لا يقولون إلا ما يفعلون، ولذلك فهم المؤمنون، ولأن المؤمنين هم جمع مؤمن، لذا فهم الفؤة المجمعّة بفؤة الإيمان التي بها يضمّنون الأمن وهم مطمئنون مهتدون بمعرفة تامة إلى ما يجب اتباعه، وإلى ما يجب اجتنابه.

ولذا فالإيمان هو دليل وثوق المؤمن من ذاته ونفسه وقوله وفعله. فالإيمان عهد لا ينفصم، وقسم لا يحنث، إنه الرسوخ والثبوت على الحقّ بفؤة الحجّة.

وعليه فإنّ الإيمان يقين راسخ واسم المؤمن اسم يقيني، {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 696. هذه الآية الكريمة دليل إثبات أمام الأبصار والعقول، ولقد جاءت شاهدا على

الإيمان، (قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) أي بلى آمنت ولكن لأرى الحقيقة، وليرى غيري ومن يتم استخلافه من بعدي أن الإيمان حق. فالعلاقة قوية بين ما تراه الأبصار وبين ما يستقرُّ في القلوب ليُعمَّر. ولذلك فمن يريد أن يرى الله فعليه بملاحظة امتداد قوته بين الحركة والسكون، فالطيور الأربعة التي تم أخذها هي في حالة حركة، وبعد أن قُطِّعت إلى أجزاء متفرقة أصبحت ساكنة لفقدانها الحياة التي بانعدامها تنعدم الحركة بالنسبة للميت، ولأن خالق الحياة والموت حيًّا لا يموت ويبيده الأمر، أعيدت الطيور الأربعة إلى الحركة الحية آية بين أيدي إبراهيم عليه الصَّلَاة والسَّلَام الذي عندما سُئِلَ: أولم تؤمن قال: (بلى). وبما أنه أجاب بـ (بلى) فهو المؤمن بدون ظن، وبما أنه المؤمن بدون ظن، إذن فلماذا إبراهيم يسأل ربه تعالى؟

تتلخص هذه الآية الكريمة في دعوة إبراهيم ربه تعالى، واستجابته له كانت الفؤة الماثلة أمامه وبين يديه، فاطمأن قلب إبراهيم عليه الصَّلَاة والسَّلَام باستجابة ربه تعالى حتى أزيل الشك عنه. وبهذه الاستجابة الشاهد عيان انقطع الشك من قلب إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعرف أن ربه سيكون مجيبا دعائه كلما دعاه. وفي الوقت ذاته كانت الاستجابة فؤة حُجَّةٍ وستظل شاهدا عبر الزمن لمن يُؤمن بالله والرَّسُل والأنبياء الكرام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ.

ولأنَّ المؤمن الحقَّ هو الذي يُصدِّق عباده المؤمنين ويصدِّق ووعده، جاء تصديقه بالاستجابة لدعوة إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى اطمأن قلب إبراهيم بالإيمان.

ولذا جاء قوله: (أَوَلَمْ تُؤْمِن) جاء استغرابيا استفهاميا، فالله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وجعل الليل لباسا والنهار معاشا، هو الذي تساءل بقوله تعالى: (أَوَلَمْ تُؤْمِن) أي أولم تؤمن وأنت تعرف أنك تجوع وأنا الذي أطعمك من الجوع، وأنت الذي تظمى وأنا الذي أروي ظمأك بالماء

الذي جعلت منه كل شيء حيا، وأنت الذي في حاجة للجنس، وأنا الذي شرّعت لك الحلال منه، وأنت الذي تخاف وأنا الذي آمنتك من الخوف، وأنت الذي تغضب وأنا الذي جعلت الفرحة تملأ صدرك، وأنت الذي تظلم وأنا الذي جعلت العدل فيك حبٍ وغرست الكره في كلّ المظالم، وأنت الذي تقتل وأنا الذي حرّمت قتل النفس بغير حقّ، وأنت الذي من بينك كفره وأنا الذي جعلت الإيمان حقّ لمن يريد أن يؤمن إرادة.

إذا المؤمن الحقّ هو مصدر الفوّة المطلقة، والمؤمن بالإضافة هو الذي يستمد قوته من المؤمن الحقّ، وهو الذي يُسلّم به تسليما تاما لا ظن فيه. ولذا فإن اسم المؤمن بالإضافة هو اسم تسليمي، يؤمن بما أنزل ولا يعصي لله أمرا.

واسم المؤمن بالإضافة اسم تعبدي، بعد أن يتم التسليم بالله ورُسله وكتبه وبكل ما أمر به ونهى عنه يصبح الإيمان فعل إضافة لفعل التسليم، ويصبح المؤمن في هذه الحالة هو الذي يملأه اليقين مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} 697.

ولأنّ الإيمان فوّة أصبح الأمن نقيض الخوف، فمتى ما حلّ الأمن نُزِعَ الخوف، وهذا يعني أن الإيمان هو بيت الاستقرار والسكينة الذي به تطمئنّ القلوب، وبما أنّ الإيمان هو بيت السكينة والاطمئنان، إذا فمن أراد للأمن أن يستقر في نفسه فلا مفر من المؤمن الحقّ إلا الفرار إليه وحده لا شريك له بيده الخير وهو على كل شيء قدير. وإن لم يتم ذلك لا يمكن للفتن أن تزول، ولا يمكن للحقّ والمكائد أن تزول، وبما أن الأمر كذلك فستظلّ الفتن والمكائد والصدمات والحروب إلى أن تتم العودة إليه بدلا من المفر منه



مصدقا لقوله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي  
الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 698.

وبما أنّ الإيمان هو المشتق من اسم المؤمن، وهو بيت السكينة  
والاطمئنان، إذا فمن آمنَ بالمؤمن آمنَ نفسه من الجوع والخوف مصداقا  
لقوله تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ  
خَوْفٍ} 699. وعليه فمن أراد الآلا يكون من الخائفين فعليه بالإيمان، {أَلَا  
بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} 700.

وبما أنه لا آمان إلا منه.

إذا فالإيمان به هو الممكن من الإيمان منه، ولذا فمن أراد أمان الله  
عليه فعليه بالإيمان به وحده لا شريك له. والإيمان في هذه الحالة هو عهد  
قطعي لا رجعة من بعده مما يستوجب اللجوء إليه دون غيره، حيث لا أحد  
غيره يطعم من الجوع ويأمن من الخوف، وإلا هل هناك من يضمن ذلك  
ويؤتمن جانبه إلى الأبد غيره عز وجل؟

الإجابة تكمن في قوله تعالى: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا  
بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ  
أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ  
الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِدُنُوهُمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ  
لَا يَسْمَعُونَ} 701.

---

698 - الكهف 80.

699 - قريش 4.

700 - الرعد 28.

701 - الأعراف 97 - 100.

### 43. حقّ:

الحقّ هو الذي لا يلبسه الباطل، وهو الجلي في ذاته وآياته، وعلى المستوى الإنساني الحقّ يقال فيُستمع إليه، ويطاع بعد اعتراف يقيني.

الحقّ فعل وصفة لموصوف بالفعل المسمى به، فالرسول الكريم حقّ وجاء بالحقّ من الحقّ المطلق، قال تعالى: {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} 702. فقوله: (أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ) حيث لا ينبغي التكذيب، وقوله: (وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ) أي جاءهم بالحقّ المبين الذي لا يُخفى.

ولأنّ الرسول عليه الصلّاة والسّلام هو حقّ فهو الذي لا ينزل عليه إلا الحقّ ليحكم به بين الناس مصداقا لقوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ} 703

الرسول الحقّ عليه الصلّاة والسّلام هو الذي يحقّ الحقّ ويزهق الباطل، وذلك بتنفيذه لأمر الحقّ المطلق، قال تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} 704.

ولأنّ الذي أنزل إلى الرسول محمّد عليه الصلّاة والسّلام هو الحقّ فالذين تبينوا آياته وعرفوا معجزاته عرفوا أنّ محمّدا حقّ وما جاء به هو الحقّ فخشعت قلوبهم طاعة لأمر الله فكانوا على الهداية وأعينهم من الدمع تفيض وهم يتضرعون الله ليكتبهم مع الشاهدين، قال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ

---

702 - آل عمران 86.

703 - المائدة 48.

704 - الأنبياء 18.

إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا  
أَمْنَا فَانكُتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ {705.

وفي مقابل الذين آمنوا بالحقّ الذي أنزل إلى محمّد عليه الصّلاة  
والسّلام هناك من كذّب بالحقّ، قال تعالى: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ  
قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} 706، ولكن بما أنه الحقّ، فهل يكون للتكذيب  
أثر عليه أو على الرّسول الحقّ؟

نقول:

الحقّ لا بدّ وأن يحقّ ولو كره المجرمون والكافرون والمنافقون والكائدون  
والمشركون، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ  
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} 707

وبما أن الحقّ قد جيء به لمحمّد رسول الله فكيف لمحمّد أن يشك في  
الحقّ الذي جاءه من الحقّ المطلق! قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ  
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} 708، ولأنه الحقّ لقد آمن به محمّد يقينا راسخا  
ودينا كاملا وعمل به سنة في حياته وهو يُبشّر للناس كافة.

ولأنّ الكتاب جاء به الرّسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه تنزيلا  
من الحقّ العزيز، فإن ما جاء به الرّسول هو الحقّ الواجب أخذه، قال تعالى:  
{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ  
الْعِقَابِ} 709.

---

705 - المائدة 83.

706 - الأنعام 66.

707 - التوبة 33.

708 - يونس 94.

709 - الحشر 7.

الحقّ لا يحقّه إلا الحقّ، والباطل لا يسنده إلا باطل، ولذا فالفرق كبير بين من يتصف بالحقّ حتى يسمى به ويتصف وبين من يرتكب الباطل حتى يتصف به، وإذا أوضحنا ذلك فإنّ (الحقّ لا يحقّه إلا الحقّ) يعني:

. كلمة الحقّ الأولى في الجملة السابقة: تدلّ على التصاق الفعل بفاعله.

. وكلمة الحقّ التالية في الجملة السابقة، تدل على المصدر الذي يُستمد الحقّ منه.

. وكلمة التوسط بين الحقّين (لا يحقّه) تدل على أنّ الحقّ لا يستطيع إحقاقه هو كما هو إلا الحقّ الذي استمد منه.

وفي المقابل لما ذكرنا جاءت الجملة التالية: (الباطل لا يسنده إلا الباطل)، وهذه الجملة هي الأخرى حقّ، ولكنها ليست الحقّ الذي جاء بالحقّ، فالباطل الأولى في جملة ما بين القوسين السابقين، هي الباطل هو كما هو. والباطل التالي للباطل في ذات الجملة، هو: الفاعل للفعل الباطل، وهو الذي لا تسنده حُجّة حقّ.

والله أرسل رسوله محمّدا حقّ لتصحيح الزور وإبطال الباطل الذي انتشر كفرا، وجاءت رسالة الإسلام لتعيد البشرية إلى الفطرة السليمة بأن الله وأحد أحد لا شريك له، وتشهد بذلك قائلة: (أشهد الآ إله إلا الله وأشهد أنّ محمّدا رسول الله) وهذا قول الحقّ وذروته، ثم يتأتى الاعتراف والإقرار بباقي الحقّ التي منها أنّ الأنبياء حقّ والموت حقّ والساعة حقّ والملائكة حقّ والبعث حقّ والعقاب والثواب والجنّة والنار وكل ما أنزل آيات في القرآن الكريم هو الحقّ الذي يجب أن يُتبع ويهتدي إليه.

والحقّ في معناه ما يعاكس معنى الباطل دلالة وإرشادا، وهولا يعرف إلا بأنّه الحقّ، سواء اسم أو صفة أو فعل، ولهذا فللحقّ دائما الصفات

الحسنى، والحقّ أيضا يتوحد مع الذات ويتوحد مع القول ويتوحد مع العمل ويتوحد مع السلوك ويتوحد مع الفعل، وعندما يتم التوحد به يأخذ المتوحد به صفة الحقّ الذي لا يتبدل (هو كما هو) ولذا فإنّ الله الحقّ مطلق، وقوله مطلق وفعله مطلق.

وعليه فإنّ الحقّ المطلق محتص بالله، والحقّ بالإضافة نسبي وصاحبه هو الخليفة الذي يؤمن بالحقّ ربّا أعلى، ومن خلال الإيمان بالحقّ ربّا يتأتى الإيمان بالنبي رسولا حقّا من الحقّ.

#### 44. كافٌ:

الكافيّ هو الذي يتعلق به أمر الكافّة، كما هو أمر النبي محمّد عليه الصّلاة والسّلام المرسل للناس كافة، أي المرسل لهم دون استثناء، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 710، والكافة لا تسمح بأي استثناء سواء أكانوا أهل الكتاب أم غيرهم.

وعلى المستوى الإنساني فإنّ محمّد رسول الله هو رسول للناس جميعا، قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} 711 أي أن محمّدا عليه الصّلاة والسّلام رسولا للناس كافة، وعلى مستوى الجميع فهو رسولا للناس جمعا.

ولأنّ محمّدا رسول الكافة فهو المرسل إلى الإنس والجن الذين لو اجتمعوا جمعا لأنّ يأتوا بمثل هذا القرآن الذي بُعث به محمّد إليهم مرسلا لعجزوا عن الإتيان بمثله، قال تعالى: {قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على

---

710 - سبأ 28.

711 - الأعراف 158.

أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ  
ظَهِيرًا {712}.

#### 45. مُبْتَلَى:

الابتلاء لا يكون إلا لصاحب رسالة ليكون الاختبار بأسبابها ليس  
هينا، فأصحاب الرّسالات الخالدة الذين اصطفاهم الله لم تكن الطرق  
مفروشة لهم بالورود، بل ممتلئة بالصعاب والظروف الشديدة فصراعهم مع  
كفرة ومشركين ومنافقين ينقضون العهود ويخونون الموثيق التي يبرموها، وفي  
مقابل ذلك يكون أصحاب الرّسالات صادقي الوعد والعهد ولا يُدّلّوا  
تبديلا، ولأنّ محمّد رسول الله هو الرّسول الخاتم فكانت الصعاب في  
مواجهته أكثر صعوبة وشدّة، ومع ذلك لقد كان صابرا على الأذى من  
أجل أن تعم رسالته الكافة طاعة لأمر الله، ولهذا تعرّض لصدّ من المنافقين  
لمن أراد أن يأتي إليه ليعلم بالإسلام الذي يدعو محمّد إليه برسالته الحقّ، قال  
تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ  
يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} {713}.

ولم يقتصر الأمر عند حد المنافقين وصدّهم للناس كيلا يدخلون الدين  
أفواجا بل تعداه إلى محاربة الرّسول من قبل الذين هموا بإخراجه، قال تعالى:  
{أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ  
أَتَخَشَوْنَهُمْ فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {714}.

ومع أنّ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بُعث للكافة إلا أن البداية  
كانت بالأقربين، وأولئك الأقربون بعضهم هجر القرآن بالابتعاد وبعضهم

---

712 - الإسراء 88.

713 - النساء 61.

714 - التوبة 13.

هجره بالتقؤل فيه افتراء وذلك بقولهم ما ليس حقّ، قال تعالى: {وَقَالَ  
الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ  
عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} 715.

وأولئك الكفرة الفجرة هم الذين يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية  
الرّسول، مصداقا لقوله تعالى: {وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ  
وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ} 716.

ولأنّ الله تعالى أمر الرّسول بأن يبشر عشيرته الأقربين، فدعاهم إلى  
الهدى طاعة لله تعالى، فأمن من آمن وكفر أقربهم عائليا إليه ألا وهو عمّه  
أبو لهب الذي نزلت فيه آية شاهدة على كفره ليكون كفره وضلاله  
ومعصيته لرسول الله شاهدا عليه إلى يوم القيامة، قال تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي  
لَهَبٍ وَتَبَّ} 717

ومع كلّ الشدائد التي تعرّض لها رسول الله ابتلاء كان صامدا متحديا  
بالحقّ كل الباطل، فنصره الله في كل مرة، قال تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ  
نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ  
لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 718.

ولأنّ رسول الله عليه الصلّاة والسّلام بُعث لأمة أمية تجهل أمر ربّها  
ورسالته لها في الحياة فكانوا قوما على الغلظة والشدّة، ممّا جعل بعضهم غير  
متأدبين في مخاطبة رسول الله وهم ينادونه من وراء الحجرات مصداقا لقوله

---

715 - الفرقان 30، 31.

716 - المجادلة 8.

717 - المسد 1.

718 - التوبة 40.

تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} 719،  
أي أن أكثر المنادين لك يا محمد من وراء الحجرات هم على الضلالة سفها  
فخذ حذرك ولا تصدق أقاويلهم ولن يضروك شيئا.

والنتيجة المسبقة أن الذين يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى  
سيكونون حطبا من حطب جهنم، قال تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ  
بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ  
وَسَاءَتْ مَصِيرًا} 720، ولهذا لا يحزنك يا محمد الذين يسارعون في الكفر،  
وهم يقولون ما لا يفعلون يحرفون الكلم عن مواضعه معصية للأمر الذي  
يستوجب منهم الطاعة، ولأنهم كفروا وأشركوا وناقضوا فلهم الخزي في الدنيا  
ولهم في الآخرة عذاب عظيم مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا  
يَحْزِنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ  
قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ  
يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ  
فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ  
أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} 721.

#### 46. أمر بالمعروف:

المعروف ما تعارف عليه الناس من حق واستحسنوا اتباعه وارتضوه  
دون أن يكون مخالفا لأمر الله عز وجل، قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ  
النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ  
بِالْمَعْرُوفِ} 722 أي أن الذين آمنوا من أهل الكتاب بمحمد ورسالته

---

719 - الحجرات 4.

720 - النساء 115.

721 - المائدة 41.

722 - الأعراف 157.



الخاتمة لن يكون لهم محمدٌ أمراً إلا بالمعروف الذي يؤكد التمسك بالمتعارف عليه من الحق. وهكذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام هو أمر بالمعروف لكل من آمن به رسولا مما جعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض بالمعروف، قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 723.

#### 47. ناهٍ عن المنكر:

ولأن النبي محمد عليه الصلاة والسلام جاء أمراً بالمعروف في مرضاة الله فهو لا بد وأن يكون ناهياً عن المنكر الذي لا تقبله أخلاق العباد، قال تعالى: {وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ} 724.

#### 48. محلّ الطيبات:

ولأن النبي الكريم محمد عليه الصلاة والسلام جاء بالحق أمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر فهو لا بد وأن يكون محللاً للطيبات، قال تعالى: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ} 725.

ومن الطيبات التي أحلت للمؤمنين طعام الذين أوتوا الكتاب والزواج من المحصنات المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبل، قال تعالى: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا

---

723 - التوبة 71.

724 - الأعراف 157.

725 - الأعراف 157.

مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ  
الْحَاسِرِينَ {726.

#### 49. مُحَرَّمُ الْخَبَائِثِ:

ولأن النبي الكريم جاء أمرا بالمعروف وناه عن المنكر ومحلا للطيبات  
فليس له بدّ إلا أن يحرم الخبائث، قال تعالى: { وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ  
عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ  
وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } {727، ولذلك يكون  
النبي قد وضع عن المؤمنين إصْرهم والأغلال التي كانت عليهم.

#### 50. حَكِيم:

الحكيم بالمطلق هو الله تعالى الذي خلق المخلوقات عن حكمة وعلى  
حكمة لا يعلم مقتضاها بالمطلق إلا هو عزّ وجلّ، والحكيم على المستوى  
البشري هو من يجيد التفكير في الفكرة والقول ويحسن التحليل والتعليل  
بدراية تامة مما يجعله إذا قال أصاب وإذا فكّر تدبّر، وإذا خالفه أحد في رأي  
عاد إلى رأيه صوابا، ولذا فالحكيم هو من يعلم بحال الشيء ويملك حقّ  
التصرف وفقا لميزان العدل دون مظلمة أو ميل لأحد على حساب آخر،  
فهو الذي لا يتصرف إلا وفقا للزمان والمكان والظرف دون مخافة أحد في  
سبيل قول الحقّ أو فعل الحقّ الذي ينبغي أن يُحقّق.

ولأنّ الحكمة خير، جاء أمر الدعوة إليها وبها محققا لكل خير، وهي  
لا تؤتى إلا من الحكيم المطلق، قال تعالى: { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ  
يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } {728، ولأنّه

---

726 - المائدة 5.

727 - الأعراف 157.

728 - البقرة 269.

هو المؤتي للحكمة لمن يشاء فقد آتاها لرُسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، ولهذا أمر سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة مصداقا لقوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} {729}، ولذا فالدعوة بالحكمة تأكيد على أنّ الدعوة المحمدية هي دعوة لين ورحمة دون أي إكراه مع فائق التقدير والاعتبار والاحترام لبني آدم المستهدفين بالدعوة.

وبالحكمة يتم التعرف على أفضل ما يقال وأفضل ما يفعل ويُعمل به ويسلك دون أن تترتب أضرار عليه، ومن حكمة اصطفاء الله لسيدنا محمد رسولا خاتما وللناس كافة هو:

. التأكيد على أنّ الله واحد.

. التأكيد على أنّ الدين من عند الواحد واحد.

. التأكيد على أنّ الرُّسل كلهم واحد ولا فرق بينهم ولا يجب التفريق، مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {730}.

وعليه فالحكمة لا تستمد إلا من حكيم عليم، يعلم بالأمر وبجمله وبما يجب أن يكون عليه قبل أن يكون، ولذا فالحكيم مصدر لكل معاني الحكمة ودلائلها التي بها يتم الاتعاظ وأخذ ما يجب أخذه وترك ما ينبغي تركه في

---

729 - النحل 125.

730 - البقرة 135 - 137.

المكان والزمان المناسبين، ولهذا نقول: الحكيم هو من يعلم الأمور وأحوالها ويخبر الكيفية التي يجب أن يتم التعامل بها ويهدي إليها، وهو من وضع المعايير لما ينبغي أن يقال ويدرك ويؤخذ به ويفعل بكل تفهّم، وبهذا تكون الحكمة تقنيناً للكلمة والجملة كيلا تخرج عن السيطرة المنطقية التي بها تعقل الحقائق وتدرك وتُفهم وتنتهيًا للامتداد من عقل لعقل وهي تاركة الأثر الطيب الذي يولّد المعلومة من المعلومة ويرشد للحقّ.

وعندما تقال الحكمة قد يظهر الاستغراب لدى البعض وقد يحدث الاستفهام ويطرح التساؤل وكأنها تحمل المفاجأة لأول مرة وبهذا يتم اقتباس الحكمة من قائلها ويتم الاهتداء بها في صناعة المستقبل المأمول الأفضل والأجود والأحسن والأفيد والأمنع.

ولذا فالحكمة تستوقف العقل لتمده بما يدرك الحقيقة دون تغليف وهي تظهر الدلالة في المعنى وتفتح الآفاق أمام امتداد الفكرة من عقل لعقل.

والحكيم المطلق جعل في كل آية من آياته الكريمة حكمة تحتوي الإعجاز فيها حتى تستوقف العقل وتلفتته لما كان غافلاً عنه في الوقت الذي لم يكن يعتقد أن الأمر كان كذلك، ومن كل حكمة من حكم الحكيم المطلق تؤخذ حكم تغذي العقل وتطمئن النفس وتحفّز المؤمن على الإقدام تجاه ما يحقّق له الأمل. إنها المرشد للحقّ والناهي عن الضلال والموقظ عن الغفلة.

والحكيم بالإضافة هو من يستمد حكمته من الحكيم المطلق، ويبقيها حية إيماناً تاماً بالمعلومة في المنازل بين الأسر وفي المدارس والجامعات بين التلاميذ والطلبة ويبقيها آية بين الجيران أقاربّ وأباعد، وبين من تربّطهم به

علاقات دم وعرف ودين ومكان وزمان بين المشارق والمغرب وأثناء الحركة والسكون.

ولهذا فالأب الحكيم يكون طائعا لوالديه في غير معصية الله، ويكون راعيا لأبنائه وراشدا لهم حتى الهداية التي تمدهم بالتقوى وتعزهم بالطاعة لله تعالى، وتقوي لحمتهم على إحقاق الحق وإزهاق الباطل. وكذلك المدرس الحكيم هو من يشد المتعلمين إلى الدرس الذي يقدمه لهم حتى يتمكنوا من الوقوف على الحقيقة التي يود توصيلها إليهم، والطالب الحكيم هو من لا يغفل أثناء الدرس، والمربي الحكيم هم من يوعظ بالحكمة، والمتربي الحكيم هو من يتعظ بها.

ومن حكم الحكيم المطلق ما هو معلوم وما هو مجهول، فالمعلوم منها هو المحمول في الآيات الكريمة في الكتاب الذي لا يدخله الباطل من خلفه ولا من بين يديه. والمجهول منها هو ما نستدل عليه استدلالا بالفعل لا بالكلمة، فنحن بنو آدم لا نعلم لماذا علم أبانا الأسماء كلها واستخلفه في الأرض ولم يعلمها للملائكة الكرام واستخلفهم في الأرض؟

ألا يكون في ذلك حكمة لا يعلمها إلا هو؟

ونحن ننتقل من حكمة إلى حكمة نستدل على أن خلق الإنسان من تراب حكمة، وفي هذه الحكمة إثبات لفوة الأمر كن فكان أبونا آدم من التراب على أحسن التقويم حكمة، قال تعالى: { أَكْفَرْتِ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْقَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا } 731.

وعليه فالحكمة تؤخذ بأربع أو ببعض منها:

أ . بالقول تعطى الحجة فتؤخذ، قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} 732.

ب . بالفعل ترسخ الحكمة فتدرك، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّعْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} 733.

ج . بالعمل تتجسد الحكمة فترى، قال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَأَخْرَجُونَ مَرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 734.

د . بالسلوك تمتد الحكمة فتكون القدوة، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ قَالَ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ} 735.

بناء على ما تقدم فإن الحكيم لا يعاقب إلا عن حكمة، ولا يجازي إلا عن حكمة، ولا يغفر إلا عن حكمة، ولا يتوب على أحد إلا عن حكمة، ولهذا جاءت من وراء ما يدعو إليه الرسول الكريم محمد عليه

---

732 - النساء 165، 166.

733 - المؤمنون 1 - 4.

734 - التوبة 105، 106.

735 - الزخرف 23 - 25.

الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ حِكْمٌ كَثِيرَةٌ مِنْهُ: فَمِنْ وَرَاءِ الزَّكَاةِ حِكْمَةٌ، وَمِنْ وَرَاءِ الصَّلَاةِ حِكْمَةٌ، وَمِنْ وَرَاءِ الصُّوْمِ حِكْمَةٌ، وَمِنْ وَرَاءِ الْحَجِّ حِكْمَةٌ، وَمِنْ وَرَاءِ الْجِهَادِ حِكْمَةٌ، وَمِنْ وَرَاءِ الدَّعْوَةِ وَالتَّبَشِيرِ وَالتَّحْرِيزِ وَالْإِنذَارِ حِكْمٌ، وَمِنْ وَرَاءِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ حِكْمٌ.

وَمَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْحَكِيمُ الْمَطْلُوقُ الَّذِي يُؤْتِي الْحِكْمَةَ لِمَن يَشَاءُ، إِلَّا أَنَّ بِالْخِبْرَةِ وَالْعِلْمِ يُمْكِنُ أَنْ يَتَمَّ نَيْلُ الْحِكْمَةِ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِذَا فَالْتَفَكَّرُ فِي عِظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَجَلَالِهِ، وَجَبْرُوتِهِ، وَمَلَكُوتِهِ، وَأَيَاتِهِ فِي سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ يُمَكِّنُ مِنَ مَعْرِفَةِ الْحِكْمَةِ؛ وَكَذَلِكَ التَّفَكِيرُ بِالْقَلْبِ عِنْدَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْإِمْتِنَانُ بِمَا أَمَرَ بِهِ، وَتَرْكُ مَا نَهَى عَنْهُ يُمَكِّنُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْفَوْزِ بِالْحِكْمَةِ؛ وَالتَّذَكُّرُ الَّذِي يَرْبِطُ الْحَاضِرَ بِالْمَاضِي حَتَّى تَسْتَمِدَّ الْعَبْرَ مِنْ قِصَصِ الْأَوَّلِينَ وَتَجَارِبِهِمْ فِي الْحَيَاةِ يُمَكِّنُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْفَوْزِ بِالْحِكْمَةِ.

وَلِأَنَّ الْحِكْمَةَ تُؤْتِي مِنَ الْحَكِيمِ الْمَطْلُوقِ، لِذَا كَانَ فِي وَحْيِ هِ تَعَالَى لِسَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِكْمٌ لَا تُحْصَى وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُوحِ اللَّهُ كُلَّ الْحِكْمِ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَلَا لِكُلِّ الرَّسُولِ، أَيَّ أَنَّ الْحِكْمَ الْمَطْلُوقَةَ لَا تَكُونُ بِالْمَطْلُوقِ إِلَّا لِلْمَطْلُوقِ أَمَّا الْحِكْمُ فِي دَائِرَةِ الْمُمْكِنِ وَالنَّسَبِيَّةِ تَكُونُ لِمَن خَلَقَ، قَالَ تَعَالَى: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ} 736

## 51. موعظ بالحسنة:

الموعظة هي فعل مُتَرَتِّبٌ عَلَى فِعْلِ النَّصْحِ وَهِيَ الَّتِي عَلَيْهَا يَكُونُ حَالُ الْمَوْعُوظِ بَعْدَ أَنْ يَأْخُذَ النَّصِيحَةَ الَّتِي سَبَقَ أَنْ قَدِمْتَ إِلَيْهِ أَوْ نَصَحَ بِهَا مِنْ قَبْلِ حَكِيمٍ أَوْ خَبِيرٍ أَوْ عَالِمٍ فِي الْأُمُورِ، وَلِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَكِيمٌ فَهُوَ يَمْتَلِكُ الْحِكْمَةَ الَّتِي بِهَا يَوْعِظُ الْآخِرِينَ مِنْ بَعْدِهِ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ، وَمَعَ أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ هُوَ فِي حَاجَةٍ لِمَن يَعِظُهُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ

يكون رافضا للموعظة إن لم تكن بالتي هي أحسن، ولهذا أمر الله تعالى رسوله الكريم بأن يدعو في سبيله عزّ وجلّ الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، مصداقا لقوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} 737.

ولأنّ محمدا رسولا عليه الصّلاة والسّلام مُكَلَّف بالدعوة والتبليغ والتبشير للناس كافة فكان خير داع ومبشر بما جاءه من موعظة من ربه وهي الموعظة التي فيها شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} 738.

## 52 . مجادل بالتي هي أحسن:

الجدل إصرار في الحوار يؤدّي إلى اقتناع عن إرادة، ويستند الجدل على فوّة الحجّة وإيمان المحاجة وفوّة رسالته التي بها يحاجج، وإن خرج الجدل عن التي هي أحسن قد تكون النتيجة ما لا يحمد عقباه وهو الصدام والنزاع، قال تعالى: {وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} 739، قال تعالى (جادلهم) ولم يقل (حاورهم)، فالمجادلة فيها مكابدة ودرجة عالية من التحمل، وعدم الإسراع في الخروج من الموضوع، إلى أن تتحقّق القناعات بعد مكاشفات، وحجج دامغة، ليس فيها تزوير أو تهرب من إحقاق الحقّ، وعلى المحاور ألاّ يُستفز من قبل المحاور الآخر، فالاستفزاز قد يُنهي زمن المجادلة التي لا ينبغي أن تُهزم بالاستفزازات غير المسؤولة من قبل الآخر. أما (حاورهم) ففيها شيء من التخفيف إذا ما قورنت بالمجادلة، ففي المجادلة إصرار، وعدم إعطاء الفرصة

---

737 - النحل 125.

738 - يونس 57.

739 - النحل 125.



لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلى نتائج مقنعة، وفيها التحذير والإنذار، وفيها التواعد إذا لم يتم الاتفاق، وفيها معرفة العواقب.

أمّا الحوار فقد لا تكون فيه مكابدة، يعتمد على فوّ الحجّة، التي لا تستوجب الوعيد والتهديد، وفي الحوار شفافية ومنطق اعتبار الأنا والآخر.

في حالة التعنّت وفشل المجادلة، يتم تسخير الإمكانيات لكف من يمتلك الفوّ المهددة للحقّ عما يهدف إليه من مشاكل أو مآسي، ولذا يعتبر المال والنفس العنصران التاليان في الاستخدام بعد عدم التفهم لِمَا دار من حوار بين المتجادلين بالحجّة، والمتجادلون عندما يفقدون قواعد الركون إلى المحاجة المنطقية، قد يضطروا إلى الخصام الذي لا طائل من ورائه إلا الاختلاف والافتتال.

إذا الأساس أن يتم التجادل والحوار بالتّي هي أحسن، وعندما يصل الحوار والمجادلة إلى طريق مسدود فلا بدًّا من المواجهة العلنية بما هو أسوى حيث ينقسم النّاس إلى فئتين، فيئه مع الحقّ، وفيئه مع الباطل. وعندما يحدث الصراع قد يمتد من أصحاب الحقّ إلى المناصرين لهم من جهة، وبين أصحاب الباطل والمناصرين لهم من جهة أخرى. ولهذا فحدود الحرب عندما تبدأ قد تكون معروفة ولكن عندما تستمر قد لا تُعرف حدودها، ولذا فعلى المتحاورين أن يضعوا في اعتباراتهم في الحوار المنطقي حدوث المتوقّع وغير المتوقّع حتى لا يتم الاستغراب بعدما تحدث المفاجأة.

وعليه فالقبول بالمحاجة هو قبول بالسلام، والخروج عنها خروج عن السلام، وعندما يخرج أطراف الحوار عن حدود المجادلة دون تفهّم لبعضهم البعض، أو دون تفهّم لقضاياهم ولِمَا يجب وما لا يجب تجاهها، فقد يحدث بينهم الصدام الذي تُسخر له كل الإمكانيات والفوّ اللازمة للمواجهة أو

للتصدي، وبطبيعة الحال المواجهة لن تكون إلا بالأنفس المؤيدة والمعارضة للفكرة (موضوع الاختلاف).

إذا عندما تغيب الحجّة بين المتجادلين بالتي هي أحسن يُفسح المجال للخصام والصدام، الذي يتطلب حشد الإمكانيات المادية من مال وعتاد، ثم بعد ذلك تحشد الأنفس القادرة على خوض الحرب، وعندما تشتعل نار الحرب، تقدم الأنفس فداءً للدين أو الفكرة التي تم الاعتراض عليها، أو فداءً ضد الدين أو الفكرة التي لا يود لها أن تنتشر وتسود بين الناس. وبرغم ذلك لا بدّ للحرب أن تتوقف بالمغالبة أو بالتحاوّر لوقف سفك الدماء، ولأجل ذلك ينبغي أن يعود أطراف الحوار إلى طاولة التفاوض والمجادلة بالتي هي أحسن.

ومن متطلبات المجادلة أن تكون على الحقّ بالحقّ، ولا تكون عن الذين يختانون أنفسهم وهم ليسوا بصادقين فيما يقولون، ولهذا نهى الله رسوله الكريم أن يجادل عنهم، قال تعالى: {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ حَوَّانًا أَثِيمًا} 740.

قال تعالى: {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجُودِلٍ عَن نَّفْسِهَا} 741. قوله: (بُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا) أي تُدافع وترافع بما لديها من حُجج عندما يُنسب أو يوجّه إليها ما ارتكبت من أفعال وعملت من أعمال، ويومها لن يكون بين أيديها إلا الحقّ من الحقّ فيومها لن تكون قادرة إلا على قول الحقّ، ممّا يجعل الجدل في ذلك اليوم جدل حقّ.

---

740 - النساء 107.

741 - النحل، 111.

ولذا في ذلك اليوم سَتُوفَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ فِي الدنیا بالثواب الأوفى إن كانت نفس صالحة مصلحة في الدنيا، وبالعقاب الأوفر إن كانت قد أفسدت أو سفكت دما في الأرض بغير حقّ.

وعليه في الحياة الدنيا قد كان الإنسان أكثر شيء جدلاً، ولكن في يوم الحساب لن يكون كذلك، قال الله تعالى: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} 742 والجدل لا يتم ببسر، بل يتم بنقاش يؤدّي إلى البينة التي بها الإنسان يدرك مميزاً بين ما يجب ويقدم عليه وبين ما لا يجب ويتعد عنه، ولذلك فالجدل يؤدّي إلى اليقين إذا سادت الروح الحسنی بين الناس المتجادلين حيث لا غالب ولا مغلوب إلا سيادة الحقّ وإحقاقه.

وعليه لا بدّ أن يكون للجدل عناصر وهي طرفین أو أكثر وموضوع للجدل وقبول بذلك الجدل، ومع ذلك فقد يكون أحد الأطراف مجادلاً فيما ليس فيه جدل، وهو الحقّ المطلق، الذي إن أراد المتجادلون نتيجة موضوعية لا بدّ وان يحتكموا بقوله على أي قولٍ يقال منهم، قال تعالى: {أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُضْرَفُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} 743، ولذلك لم يستغرب رسول الله جدال الذين كفروا وأشركوا وكذبوا وناقضوا في زمانه ومن قبله مع الرّسل الذين سبقوه، أولئك الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، مصداقاً لقوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} 744.

---

742 - الكهف 54.

743 - غافر 69، 70.

744 - التوبة 32، 33.

وهناك من يأتي إلى الرسول عليه الصلّاة والسّلام مجادلاً في الحقّ وليس به، وهناك من يأتي إليه ليستمع وهو جاعل على قلبه أكنة فلا يؤمن بقرارٍ منه مسبقاً ولذا هناك من يأتي إلى الرسول مجادلين في الحقّ بغير حقّ، قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} {745}، وعليه أي جدل بدون حقّ لا يخلص إلى نتيجة مرضية لمن لم يريد الحقّ أن يُحقّق، وهؤلاء هم الذين يجادلون في الحقّ بعد ما تبين لهم، قال تعالى: {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ} {746}، إنّه من المستغرب أن يناقش ذي العقل في شيء ظاهرٍ بيّن بين يديه وأمام بصره وبصيرته، ولكن لا استغراب في شيء من كافرٍ أو مشركٍ أو منافقٍ وضال.

إذا الأساس أن يتمّ التجادل والحوار بالتي هي أحسن، وعندما يصل الحوار والمجادلة إلى طريق مسدود فلا بدّاً من المواجهة العلنية بما هو أسوأ حيث ينقسم النّاس إلى فئتين، فئة مع الحقّ، وفئة مع الباطل. وعندما يحدث الصراع قد يمتد من أصحاب الحقّ إلى المناصرين لهم من جهة، وبين أصحاب الباطل والمناصرين لهم من جهة أخرى. ولهذا فحدود الحرب عندما تبدأ قد تكون معروفة ولكن عندما تستمرّ قد لا تُعرف حدودها، ولذا فعلى المتحاورين أن يضعوا في اعتباراتهم في الحوار المنطقي حدوث المتوقّع وغير المتوقّع حتى لا يتمّ الاستغراب بعدما تحدث المفاجأة.

وعليه فالقبول بالمحاجة هو قبول بالسّلام، والخروج عنها خروج عن السّلام، وعندما يخرج أطراف الحوار عن حدود المجادلة دون تفهّم لبعضهم البعض، أو دون تفهّم لقضاياهم ولما يجب وما لا يجب تجاهها، فقد يحدث

---

745 - الأنعام 25.

746 - الأنفال 6.

بينهم الصدام الذي تُسخر له كل الإمكانيات والقوة اللازمة للمواجهة أو للتصدي، وبطبيعة الحال المواجهة لن تكون إلا بالأنفس المؤيدة والمعارضة للفكرة (موضوع الاختلاف).

إذا عندما تغيب الحجّة بين المتجادلين بالتي هي أحسن يُفسح المجال للخصام والصدام، الذي يتطلب حشد الإمكانيات المادية من مال وعتاد، ثم بعد ذلك تحشد الأنفس القادرة على خوض الحرب، وعندما تشتعل نار الحرب، تقدم الأنفس فداء للدين أو الفكرة التي تم الاعتراض عليها، أو فداء ضد الدين أو الفكرة التي لا يود لها أن تنتشر وتسود بين الناس. وبرغم ذلك لا بدّ للحرب أن تتوقف بالمغالبة أو بالتحاور لوقف سفك الدماء، ولأجل ذلك ينبغي أن يعود أطراف الحوار إلى طاولة التفاوض والمجادلة بالتي هي أحسن.

ومن متطلبات المجادلة أن تكون على الحقّ بالحقّ، ولا تكون عن الذين يختانون أنفسهم وهم ليسوا بصادقين فيما يقولون، ولهذا نهى الله رسوله الكريم أن يجادل عنهم، قال تعالى: {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ حَوَّانًا أَنِيمًا} 747.

قال تعالى: {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَادِلٍ عَنِ نَفْسِهَا} 748. قوله: (بُجَادِلُ عَنِ نَفْسِهَا) أي تُدافع وترافع بما لديها من حُجج عندما يُنسب أو يوجّه إليها ما ارتكبت من أفعال وعملت من أعمال، ويومها لن يكون بين أيديها إلا الحقّ من الحقّ فيومها لن تكون قادرة إلا على قول الحقّ، ممّا يجعل الجدل في ذلك اليوم جدل حقّ.

---

747 - النساء 107.

748 - النحل 111.

ولذا في ذلك اليوم سَتُوقَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ فِي الدنْيا بِالثواب الأوفى إن كانت نفس صالحة مصلحة في الدنيا، وبالعقاب الحقّ إن كانت قد أفسدت أو سفكت دما في الأرض بغير حقّ.

وعليه في الحياة الدنيا قد كان الإنسان أكثر شيء جدلاً، قال الله تعالى: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} 749 والجدل لا يتم ببسر، بل يتم بنقاش يؤدّي إلى البينة التي بها الإنسان يدرك مميزاً بين ما يجب ويقدم عليه وبين ما لا يجب ويتعد عنه، ولذلك فالجدل يؤدّي إلى اليقين إذا سادت الروح الحسنی بين الناس المتجادلين حيث لا غالب ولا مغلوب إلا سيادة الحقّ وإحقاقه.

ولذا لا بدّ أن يكون للجدل عناصر وهي طرفان أو أكثر وموضوع للجدل وقبول بذلك الجدل، ومع ذلك فقد يكون أحد الأطراف مجادلاً فيما ليس فيه جدل، وهو الحقّ المطلق، الذي إن أراد المتجادلون نتيجة موضوعية لا بدّ وان يحتكموا بقوله على أي قولٍ يقال منهم، قال تعالى: {أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُصْرَفُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} 750، ولذلك لم يستغرب رسول الله جدال الذين كفروا وأشركوا وكذبوا وناقضوا في زمانه ومن قبله مع الرّسل الذين سبقوه، أولئك الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، مصداقاً لقوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} 751.

---

749 - الكهف 54.

750 - غافر 69، 70.

751 - التوبة 32، 33.

وهناك من يأتي إلى الرسول عليه الصلّاة والسّلام مجادلا في الحقّ ولا يجادل به، وهناك من يأتي إليه ليستمع وهو جاعل على قلبه أكنة فلا يؤمن بقرارٍ منه مسبقا ولذا هناك من يأتي إلى الرسول مجادلا في الحقّ بغير حقّ، قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يُقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} 752، وعليه أي جدل بدون حقّ لا يخلص إلى نتيجة مرضية لمن لم يريد الحقّ أن يُحقّق، وهؤلاء هم الذين يجادلون في الحقّ بعد ما تبين لهم، قال تعالى: {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ} 753، إنه من المستغرب أن يناقش ذي العقل في شيء ظاهرٍ بيّن بين يديه وأمام بصره وبصيرته، ولكن لا استغراب في شيء من كافرٍ أو مشركٍ أو منافقٍ أو ضال.

وقد يتساءل سائل:

عن أمر تلك الزوجة التي تجادل رسول الله في زوجها، فنقول:

قال الله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} 754

ولتبيان ذلك نتساءل:

ما طبيعة الجدل الذي دار بين زوجة ذلك الرجل وبين النبي صلّى الله عليه وسلّم؟

وما موضوع المجادلة؟

---

752 - الأنعام 25.

753 - الأنفال 6.

754 - المجادلة 1-3.

وهل من الدين مجادلة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قبل البدء في استبيان الحقيقة نقف على جذر الكلمة اللغوي للجدل  
فهي تعود لأصل ثلاثي يتكون من (ج د ل)

ومن هذا الأصل يكون:

جدلٌ مصدر الثلاثي جدل (جدلٍ جدلا)

والثلاثي المزيد بحرف (جادل) على وزن فاعل ويأتي منه المصدر على  
صيغتين:

فعال (جدال).

مفاعلة (مجادلة).

كما في نازل نزال ومنازلة.

وقاتل قتال ومقاتلة.

وقد خلطت كتب التعريفات بين الجدل، والجدال والمجادلة في معنى  
واحد أو معنيين قريبين.

. الجدل هو: "شِدَّةُ القَتْلِ وَجَدَلْتُ الحَبْلَ أَجْدِلُهُ جَدَلًا إِذَا شَدَدْتُ  
فَتَّلَهُ وَفَتَّلْتَهُ فَتَلًا مُحْكَمًا"755.

الجدال: "عبارة عن مرء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها"756.

---

755 - لسان العرب، ج 11، ص 103.

756 - التعريفات، ج 1، ص 24



- المجادلة: بضم الميم وفتح الدال مصدر جادل، "المناظرة لإفحام  
الخصم وإسكاته"757.

ونقول:

كل التعريفات السابقة لا ترتقي لتعريف المجادلة بين المرأة المجادلة للنبي  
صلّى الله عليه وسلّم.

لماذا؟

- لأنّها لا تمّاري على مذهب الشك فهي مؤمنة بالله ورسوله ولا  
تشك في حكم النبي صلّى الله عليه وسلّم، وكذلك لم يكن الرّسول عليه  
الصّلاة والسّلام خصم لتلك المرأة، وهي لم تقوم بمناظرة لإفحام الخصم  
وإسكاته؛ فالنبي عليه الصّلاة والسّلام مؤيد بالحجّة العقلية والقرآن الكريم  
والوحي في روعه عند الحاجة إلى ذلك. ولذا لم يكن عند المرأة الحجّة التي  
تلزّم النبي عليه الصّلاة والسّلام وتفحّمه حاشاه عن ذلك، لأنّه ليست هناك  
خصومة بينها وبين النبي صلّى الله عليه وسلّم.

وكذلك تخرج المجادلة بين المرأة وبين النبي عليه الصّلاة والسّلام عن  
(دفع المرء خصمه عن إفساد قوله: بحجة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح  
كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة).

إذا فما طبيعة الجدل بين المرأة وبين النبي صلّى الله عليه وسلّم؟

كان الجدل ليس بين المرأة والنبي في أمر تختلف عليه والنبي، ولكن  
الجدال كان في فعل قام به (زوجها).

وكيف يكون الحل الشرعي فيه بوصف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ أَذْنُ الْخَيْرِ  
التي تتلقى أمر السماء لخلق الأرض.

فكان الجدل في (زوجها)

وليس في أمر يخص النبي عليه الصلاة والسلام يحتاج حجة أو برهان  
وإفحام.

فالمجادلة هنا هي:

- شكوى من المرأة للنبي ومشاورة للخروج من الكلمة الجاهلية التي  
قالها الزوج وهو مسلم.

- فلا يحل له وهو مسلم أن يفعل فعلا من أفعال الجاهلية.

ويبدو انه ليس الوحيد الذي كان يفعل هذا مع زوجته.

- فكانت تلك الشكاية من المرأة لوضع حدٍّ يمنع الرجال من  
التلاعب بألفاظ تفكك عرى الأسرة.

- حتى لا تكون المرأة دمية يلهو بها الرجال كيف شاءوا.

- ويبدو أن النساء كن مغلوبات على أمرهن حتى فعلت المرأة ما  
فعلته فرفعت الشكوى إلى الرسول وإلى الله.

- وإلى الله شكوى لكل النساء.

- إلى الرسول مجادلة في زوجها.

- لأنها لا يمكن أن تكون في مجادلة مع الله في زوجها.

ولكون النبي عليه الصلّاة والسّلام أمر بان يجادل بالتي أحسن السمع  
للمرأة وخفض جناحه لها مصداقا لقوله تعالى: {وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ  
لِلْمُؤْمِنِينَ} 758

فكان الجدل في الزوج لا في أمر قضاءه النبي صلّى الله عليه وسلّم.

أيحقّ للزوج أن يفعل ذلك؟

فما جزاؤه؟

ما حكم قوله؟

ولم يكن عند النبي عليه الصلّاة والسّلام حكم شرعي قد نزل من  
السّماء في هذه المسألة.

الله يسمع هذه المجادلة والشكوى إليه فانزل السورة وبيّن حكم  
الظهار.

ثم عن سياق الرواية التي جاءت في المصادر حول الدافع الذي دفع  
الزوج للظهار ما يعطي المرأة حقوقا أخرى مبيّنة في الكتاب الحكيم.

قال الله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى  
اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ  
مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْتَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ  
وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا  
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَمُ تُوَعِّظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ  
فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ

فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ  
عَذَابٌ أَلِيمٌ {759

إن سورة المجادلة سورة أحكام قد نزلت في العهد المدني الذي يوضح  
أحكام المجتمع والأسرة وحياة الفرد مع نفسه وغيره أيا كان هذا الغير.  
لذا سنقرأ هذه الآيات قراءة جديدة، لا من حيث أحكام القراءة  
ولكن من حيث القضايا.

فالقضايا الجدلية الأبرز في الآيات هي:

1. الظهار.

2. مناقشة المرأة لهذه القضية.

2. حكمه.

3. سبب تشريعه.

4. دور المرأة في الحياة التشريعية.

5. موقف الإسلام من المرأة.

ولهذا لن نستطيع أن نناقش هذه القضايا دونما أن نبرز

ما الظهار؟

ومن الذي يقوم به؟

وعلى من يقع ضرره؟

كيفية مواجهة الظاهرة اجتماعياً؟

الظهار:

"الظَّهَارُ مِنَ النِّسَاءِ هُوَ قَوْلُهُ أَي الرَّجُلُ لِامْرَأَتِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي  
أَوْ كَظَهْرِ ذَاتِ رَحِمٍ وَكَانَتْ الْعَرَبُ تُطَلِّقُ نِسَاءَهَا بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ وَكَانَ فِي  
الْجَاهِلِيَّةِ طَلَاقًا فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ نُحُوا عَنْهَا وَأَوْجِبَ الْكَفَّارَةَ عَلَى مَنْ ظَاهَرَ  
مِنْ امْرَأَتِهِ وَهَذَا هُوَ الظَّهَارُ.

وَأَصْلُهُ مَأْخُودٌ مِنَ الظَّهْرِ وَإِنَّمَا خَصُّوا الظَّهَرَ دُونَ الْبَطْنِ وَالْفَخْذِ  
وَالْفَرْجِ وَهَذِهِ أَوْلَى بِالْتَّحْرِيمِ لِأَنَّ الظَّهَرَ مَوْضِعُ الرُّكُوبِ وَالْمَرْأَةُ مَرْكُوبَةٌ إِذَا  
عُشِيَتْ فَكَأَنَّهُ إِذَا قَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي أَرَادَ: رُكُوبُكَ لِلنِّكَاحِ عَلَيَّ  
حَرَامٌ كَرُكُوبِ أُمِّي لِلنِّكَاحِ فَأَقَامَ الظَّهَرَ مَقَامَ الرُّكُوبِ لِأَنَّهُ مَرْكُوبٌ وَأَقَامَ  
الرُّكُوبَ مَقَامَ النِّكَاحِ لِأَنَّ النَّاحِحَ رَاكِبٌ وَهَذَا مِنْ لَطِيفِ الِاسْتِعَارَاتِ  
لِلْكِنَايَةِ.

قال ابن الأثير: قيل: أرادوا أنتِ عليَّ كبطنِ أمي أي كجماعها فكأنوا  
بالظَّهْرِ عَنِ الْبَطْنِ لِلْمُجَاوِزَةِ "760؛ فهو "تشبيه زوجته، أو ما عرِّ به  
عنها، أو جزء شائع منها، بعضو يحرم نظره إليه من أعضاء محارمه، نسبا أو  
رضاعا، كأمه وابنته وأخته" 761.

والذي يقع منه الظهار هو الرجل بوصفه يملك العقد والحل في الزواج  
دون المرأة باتفاق بينهما أو بين الرجل والولي الذي يلي أمر المرأة.

- ويقع ضرره على الرجل وليس على المرأة وحدها لأنه يهدد الأسرة  
بالتفكك.

---

760 - تاج العروس، ج 1، ص 3139

761 - التعريفات، ج 1، ص 46.

- يظهر غلظة بعض الرجال في غير مرضاة الله تعالى

- يهين المرأة بغير حق.

يجعل المرأة في مكانة أقل من الرجل (من وجهة نظر المظاهر) وفي هذا المر يكون أقرب إلا الاستعباد.

- يجعل الأولاد عرضة للضياع.

أمّا عن كيفية مواجهة المشكلة فهذا تحملت ثقله المرأة المجادلة المحاورة.

ولذا فلما ظاهر الزوج زوجته ذهبت إلى رسول الله عليه الصلّاة والسّلام وقالت:

"فجئت رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - أشكو إليه، وذكرت أموراً، وقلت: قدمت معه صحبتي، ونثرت له كنانتي.

ولي منه صببية إن ضمهم إليه ضاعوا، وإن ضمّتهم إلي جاعوا.

أشكو إلى الله عجري وبجري، ورسول الله عليه الصلّاة والسّلام يجادلني فيه، يقول: اتق الله، فإنه ابن عمك.

فما برحت حتى نزل القرآن: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها) فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: يعتق رقبة.

قلت: لا يجد.

قال: فيصوم شهرين متتابعين.

قلت: يا رسول الله، شيخ كبير ما به صيام.

قال: فليطعم ستين مسكيناً.

قلت: ما عنده شيء يتصدق به.

قال: فأتى بعرق من تمر.

قلت: يا رسول الله، وأنا أعينه بعرق آخر.

قال: قد أحسنت، اذهبي فأطعمي عنه ستين مسكينا، وارجعي إلى  
ابن عمك762.

لذا نقول:

إن المرأة المجادلة في الظهر والتي نزل فيها القرآن كانت قضيتها أعم  
من مشكلتها الخاصة فقد عاجلت قضية كلية تشملها وتمل كل النساء بعد  
ذلك، فهي إن كانت امرأة واحدة فهي تمثل جميع من يتعرضن لهذا القول  
(الظهر).

ولما قضى رسول الله عليه الصلاة والسلام بهذا الحكم الشرعي:

الكفارة بأحد الممكن الميسر.

ومع كل هذا التبيين قد يتساءل البعض:

هل الظهر حرام أم حلال؟

نقول:

الظهر محرم مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ  
مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ  
وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ عَفُوفٌ}763

هذا القول حرام لأن:

---

762 - جواهر العقود، ج 2، ص 134.

763 - المجادلة 2.

. الزوجة غير الأم.

. لأنّ الزوج لو طلقها لأمكن أن تتزوج بأخيه، والأم لا يمكن أن تتزوج بأخي الزوج مهما حدث لأنه ابنها وهذا محرم تحريم تأييد.  
. يمكن أن يراجعها ويطأها، وهذا لا يمكن أن يحدث مع الأم لاستحالة أن تكون زوجة في شريعة الإسلام.

وعليه:

فإن الزوجة لا تكون محرّمة كالأم تأييدا.

وهذا القول (الظهار بألفاظه) حرام لأنه أيضا:

. منكر من القول.

. وزورا.

والزور حرام بنص القرآن مصداقا لقوله تعالى: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} 764.

وعليه:

بما أن قول الزور من أكبر الكبائر.

إذا فالظهار من المرأة حرام.

والسؤال:

من يقع الظهار ويصح؟

يقع من الزوج.



- لا من أحد بالوكالة عنه لقول الله تعالى: (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِمْ)

- فمن نسائهم تعني من نسائهم الذين لهم الولاية عليهم والقوامة بالزواج والوطء.

- لا من أحد ينوب مكانهم.

- ويصح الظهار من كل زوج يصح طلاقه.

مسلمًا

حرا

أو عبدا

أو كافرا (لأنه معمول به قبل الإسلام)

أمّا الآن فنظن إنه يصح من المسلم الحر لأن:

العبودية قد أبطلت

وإن كان في بعض الأماكن عبيد وتلفظ بكلمات الظهار صح ووقع منه على زوجته.

والكافر لا علاقة له الآن بأحكام الإسلام.

لأنه يوجد خلاف الآن بين الكافر وبين كافر الجاهلية، فكافر الجاهلية يعيش وفق مجموعة من القوانين الأعراف الاجتماعية تختلف ولا شك عم يعيشه الهندوسي أو البوذي، أو الدينيين.

وكذلك يقع الظهار من السكران قياسا على حكم الطلاق كما بينا قبل ذلك في كتاب منهاج السلوك.

ولفظ الظهر:

- أنت علي - أو مني، أو معي، أو عندي، أو لي - كظهر أمي،  
وكذلك أنت كظهر أمي عليّ

ولما جعل الله حكم الظهر التكفير يجرم الوطاء قبل ذلك.

فالأمر كان جدال اتباع في زوجها

لا جدال خصومة

لا مرء بشك

حوار بيقين يبين ضعف المرأة، وصدق الرسول، ورحمة الله وسمعه

وبصره

ردع رجال استهانوا بالمرأة

إحقاق حقّ للمرأة في العبادة

في الحياة بكرامة

في محاورة أولي الأمر.

التحاور:

لما بحثنا في (والله يسمع تحاوركما)

وجدنا أن الناس قد أخذوها على المحاورة والمحاورة لا شك غير

التحاور:

أمّا المحاورة فهي:

"المجَاوِبَةُ وَمُرَاجَعَةُ النُّطْقِ وَالكَلامِ فِي المِحَاطَبَةِ وَقَدْ حَاوَرَهُ وَتَحَاوَرُوا:  
تَرَاجَعُوا الكَلَامَ بَيْنَهُمْ "765

. فهذا التعريف للمحاورة يفضي إلى حقيقة ما دار بين التي تجادل في زوجها وتشتكي إلى الله.

. فقد كانت محاورة للنبي عليه الصلّاة والسّلام ومراجعته لكلام زوجها مع النبي وما حدث منه معها.

ونقول:

. إن المرأة كانت تنقل الحوار الذي دار بينها وبين زوجها.

. ولما رد عليها النبي عليه الصلّاة والسّلام صار ما بينهما تحاور.

. والفرق بين الحوار والتحاور:

الحوار يدور حول موضوع غير متفق عليه بين أطرافه.

. التحاور يدور حول موضوع قد سبق ينقل طرف ما دار فيه للطرف

الآخر ثم ما يكون بينهما حوله تحاور.

وهذا ما حدث بين المرأة المجادلة المتحاوره وبين النبي صلّى الله عليه

وسلم.

### 53 . حريص:

الحريص هو من لا يضيع أجرا مع التمسك بالحقّ والدفاع عنه والدعاية له والتبشير به، ولهذا كان رسول الله محمّد عليه الصلّاة والسّلام حريص على المؤمنين أن يتمسكوا بدينهم ويطيعوا الله حقّ طاعته وان يحسنوا

---

765 - تاج العروس، ج 1، ص 2734.

كما أحسن الله إليهم، قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} 766 أي أنّ النبي عليه الصلّاة والسّلام لا يُرضيه أن يرفضوا قومه ما جاءهم به من دين يهديهم للتي هي أقوم وأحسن، ولذا فهو الحريص كل الحرص على أن تكون حياتهم على الحقّ بالحقّ وتكون نهاياتهم رحمة ولهذا كان الرّسول بالمؤمنين رءوف رحيم.

## 54 . رحيم:

فالكلمة رحيم: اسم دائم بفعل دائم، فعندما يمد حرف الياء بقراءة في اتصال كأنه لا ينقطع، يتبين للقراء العطاء الدائم من الاسم الرّحيم الدائم، أي يتبين لهم أنّ الأفعال تُحمل في هذه الكلمة، ما يجعل الرّحمة قيمة والرّحيم فاعل لهذه القيمة، وخير فاعل لقيم الرّحمة الرّسول الكريم محمّد عليه الصلّاة والسّلام الذي تجسدت الرّحمة في أقواله وأفعاله، فكان بالمؤمنين رءوف رحيم، قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} 767 رحيمًا على نفسه وعلى الذين تربّطه بهم علاقات رحمة، قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} 768 فمحمّد عليه الصلّاة والسّلام والذين معه هم الذين آمنوا

766 - التوبة 128.

767 - التوبة 128.

768 - الفتح 29.

بالله ربّا وهم الأشداء على الكفار الرحماء بينهم يحبون بعضهم في الحقّ وهم طائعون.

ولذا كان رسول الله عليه الصّلاة والسّلام رحيم مع المؤمنين الرحماء فيما بينهم أي أن الرّسول رءوف ليّن معهم ولا شدة له عليهم، ولكن له فيهم عموم الرّحمة التي جعلتهم أشداء على أعدائهم في الدين.

ولذا فالرّحيم على المستوى البشري هو الذي يلين قلبه ويرق لقول الحقّ وفعل الخير، ومساعدة المحتاج، ورعاية اليتامى، ومناصرة المغلوب ظلماً، ورفع الضيم عن المضام.

وبما أنّ من أسماء الله تعالى وصفاته الرّحيم، إذا بطبيعة الحال من اختاره الرّحيم رسولا له داعيا للحقّ ومبشرا به ومحرضا على الخير وأفعاله لا بدّ أن يكون رحيماً ليخلفه بما أمره به نبياً رسولا.

ولأنّ الرّحيم هو القوي المطلق لذا فهو الشديد المطلق، ولهذا فهو الرّحيم على الرحماء فيما بينهم والشديد على الأشداء فيما بينهم، والرّحيم هو دائما قوي في مقابل ضعيف، وهو الذي يمتلك الفوّة التي بها يشتد الكربّ على المكروب أو بها يُفرج عنه، {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} 769 نلاحظ من هذه الآية الكريمة وجود خائف ومخيف، والخائف في حاجة ماسة لرحمة من مخيفه، ولأنّ مصدر الفوّة في هذه الآية هو الله فكان بالخائفين منه رءوف رحيم، وذلك لاعترافهم بقوته وإعلانهم عن مخافته بعد معرفتهم بما ألمّ من عقاب بالذين سبقوهم بالمعصية، ولهذا ترتب على

الخوف تأجيل العقوبة وإتاحة الفرصة للإنسان ليتذكر ويفكر حتى يأتيه اليقين رافة به ورحمة.

إذا كل رحيم قادر على أن يقوم بأفعال الرّحمة مباشرة وبدون إنابة، ولذا لا يمكن أن تكون أفعال الرّحيم خالية من الرّحمة، ولهذا كل أثرٍ من رحيم هو أثر رحمة، وبما أن الأمر كذلك إذا بطبيعة الحال تكون الرّحمة صفة للرحيم. وبما أنّ الرّحمة صفة، إذن الاتصاف بها ممكنا، وبما أنه ممكن فالاقتداء بأفعالها كما يود لها أن تكون يجعل الإنسان خليفة.

ولارتباط الرّحمة بالرحيم، نلاحظ أينما وُجِدَ رحيم وجدت الرّحمة، وأينما غاب رحيم غابت الرّحمة. ولأنّ الله هو الرّحمن الرّحيم الذي لا يغيب فإن رحمته لن تنقطع، حيث قال تعالى: {عَدَائِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءَ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرّسولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَإِنجِيلٍ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُوَ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 770.

ولأنّ العذاب عام والرّحمة خاصة، لقد جاءت قضايا العذاب جامعة مانعة، جامعة للذين يحقّ عليهم العذاب، وتستثني الذين يقومون بأفعال الرّحمة. أمّا قضايا الرّحمة فهي قضايا جامعة لا مانعة، جامعة لكل من يقوم بأفعال الرّحمة ومستوعبة لكل من يُكفّر عن سيئاته متى ما يشاء.

وأما مسألة الخصوص والعموم في الرّحمة، فإن رحمته تعالى التي وسعت كلّ شيء فقد دخل في عمومها المؤمن والكافر في الحياة الدنيا، لأن الله

سبحانه وتعالى يرزق الفريقين برحمته، ويلطف بهم برحمته، وينظر كيف يفعلون، وأما الآخرة فرحمته تعالى مترتبة على شكر الإنسان لرحمة الدنيا، وعليه فإنّ الرّحمة تكون على العموم في الدنيا، وللخصوص في الآخرة، ولذا فإن العذاب والرّحمة لخصوص العموم من كلا الفريقين.

إذا الرّحمة أمل ينبغي أن يسعى الإنسان إلى بلوغها ولا ينبغي له أن يئس، فالئس هو انقطاع الصلة بين الرّحمة ومن هو في حاجة إليها وبين الرّحيم الذي بيده أمر القيام بالفعل، والأمل هو الصلة التي بها يتم إشباع الحاجة التي هي في نفس الخليفة الراغب في مرضات من استخلفه في الأرض.

ولذا فالرّحمة والأمل أمران مترابطان مثل ترابط المثير والاستجابة، فلولا الأمل ما تحققت الرّحمة، ولولا الرّحمة ما تحقّق الأمل. وعليه الرّحمة في ذاتها معطية بلا فعل، والأمل في ذاته أيضا معطية بدون فعل، ولهذا كان وراء كل رحمة رحيم ووراء كل أمل مرحوم.

وتتعدد أفعال الرّحمة بتعدد ما يُقدّم من أعمال حسان، {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} 771 فلننظر إلى هذه الآية الكريمة والكيفية التي تتعدد الرّحمة فيها:

ألا تُعد صلاة الله على الخليفة رحمة.

ألا تُعد صلاة الله وملائكته على الخليفة رحمة.

ألا يُعد الإخراج من الظلمة رحمة.

ألا يُعد دخول النور رحمة.

ألا تُعد رحمته بالمؤمنين رحمة.

ألا يُعد وجود الرحمة في ذاته رحمة.

ألا يُعد اسم الرحيم الفاعل للرحمة رحمة.

بناء على هذه المعطيات خُلق الإنسان ضعيفا، ولأن الأمر كذلك فهو بحاجة لقوي وبيده الرحمة وقادر على فعلها متى ما تعلق الضعيف به وجده رحمن رحيم كريم عفو قادر على نقله من الضعف إلى القوة والقدرة.

ولأن الرسول رحمة من الله فهو رحيم برحمة الله به للكافة، ولهذا فاتباعه رحمة لمن تبعه هداية وطاعة تامة، قال تعالى: {عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 772.

وبطبيعة الحال بما أن هناك رحيم، يكون هناك من هو في حاجة لأن يُرحم، وبما أن الإنسان خُلق ضعيفا من حيث غرائزه ومشاعره وحواسه تجاه ما يُشبع الشهوات، إذا هو بحاجة لرحيم يجود عليه من واسع رحمته. ولهذا فالرحيم لا يمكن أن يكون ضعيفا، ولا يكون مناعا للخير ولا معتدًا أثيم، ولا يمكن أن يكون خصما، فمن يدخل في خصام مع الناس يفقد خاصية من خاصيات الاستخلاف في الأرض، ولذا فإن الله سبحانه وتعالى رحيم يجب الرحمة والرحماء، وقد أمر عباده بأن يكونوا رحماء لئني الجانب عطوفين، وهذه



الرَّحْمَةُ الَّتِي تَسْكُنُ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الرَّحِيمِ الْمَطْلُوقِ الَّذِي وَهَبَهُ إِيَّاهَا، قَالَ تَعَالَى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} 773 فهذه رحمة من الله بك يا محمد وبهم فلو كنت جاني المعاملة قاسي القلب، لتفرقوا من حولك، فتجاوز عن خطئهم، واطلب المغفرة لهم، واستشرهم في الأمر متعرفا آراءهم بما يجبون وبما لا يجبون، فإذا عقدت عزمك على أمر بعد المشاورة فامض فيه متوكلا على الله، لأن الله رحيم يحب الرحماء.

## 55. عدل:

العدل مبدأ باعتباره الأول بذاته، وغاية باعتباره الآخر بذاته، ومصدر: باعتباره الأول والآخر بذاته، ولذا فهو فعل في ذاته وصفة حسنة في ذاته فمن حيث اللغة العدل مصدر يشتق منه اسم الفاعل (العادل) ومن يتبع هذه الصفة الحسنة يوصف بها ويستخلف بها في الأرض ليصلح ولا يفسد ولا يسفك الدماء بغير حق.

وعليه العدل: صفة حسنة من صفات العدل المطلق، وهي المستمدة منه فلو لم يكن ما كانت.

لذا فقد احتفظ لذاته باسم "العدل" مصدرا لا اشتقاقا، ولأنه العدل فهو مصدر لا يظلم ولا يجور لأن في ذلك تناقض فالعدل المطلق ليس عنده ظلم، وحتى يُبَسِّطَ لنا معنى العدل ألقى على مسامعنا في القرآن الكريم ألفاظا تدل على العدل وتهدى إليه منها الصراط المستقيم، والقسط، والميزان، ومثقال ذرة، وقد وضع الموازين القسط للحكم بين الخلق في الدنيا وبينها في المنهج الذي ارتضاه لمن أراد أن يُسَلِّمَ وجهه إليه عز وجل.

إذا العادل بالإضافة هو المضاف لصفة العدل المستمدة من العادل المطلق، والتي بها اندمج عدلا في قوله وفعله وسلوكه وأحكامه.

ولأن النبي محمد عليه الصلاة والسلام عدل مستمد من العدل المطلق فهو طائعا للأمر الذي استوجب عليه اتباع العدل بعد الدعوة والاستقامة المأمور بهما، قال تعالى: {فَلِدَلِكْ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبَّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} 774.

فهذه وصية جامعة تحث على العدل المطلق لمن أراد أن يلحق بركب العدل، فالله العدل يأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يستقيم كما أمره على منهج العدل الذي أنزله عليه كما انزله على من قبله من الأنبياء والرسل، ولذا فمن أراد أن يلحق بركب العدل فعليه باتباع نبي العدل على شريعة العدل، والاكتفاء بما أنزل على النبي الذي أمر ليعدل فعديل.

وعليه فالعدل ميزان وقسط به يتم الفصل بين المحتكمين، أو الشركاء والخلطاء دون ظلم أو انحياز، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} 775.

ولأن الله هو أحكم الحاكمين فهو يرى ما لا يرى المخلوق في أمره وأمر من حوله، فعندما بعث محمد عليه الصلاة والسلام رسولا مصدقا لما

---

774 - الشورى 15.

775 - النساء 58، 59.

بين يديه من الكتاب ومهيمننا عليه ليحكم بينهم بما أنزل الله وهو أحكم الحاكمين، كان أمره تعالى لنيبه محمد الآ يتبع أهواء المختلفين في أمرهم وأن يحكم فيهم بما أنزل الله في كتابه الحكيم الذي لا انخياز فيه إلا للحق، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} 776.

ولأنه أحكم الحاكمين وحكمه الحق بالمطلق فالحكم بما أنزل يعد اتباع وطاعة لأمره ونهيه ولذا فعلى الذين يلتزمون بما أنزل في أحكامهم بين الناس هم من المستخلفين في الأرض بالحق فمن تبعهم كان منهم ومن ضل عما يحكمون به وهو الحق فلعل ذلك لازدياد ذنوبهم وفسقهم، قال تعالى: {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} 777.

أمَّا الذين يجيدون عمًا أنزله خير المنزلين على رسوله محمد في كتابه الحكيم فهؤلاء هم الذين على أحكام الجاهلية منتهجون أي هم الذين لا يريدون الإصلاح في الأرض وأعمارها بل هم للإفساد متخذون بظلمهم وإنكارهم للحق الذي فيه الناس يتساوون أمام أمر أحكم الحاكمين، قال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} 778. أحكم الحاكمين هو الذي يحكم بالحق ولذا فمن يحكم

---

776 - المائدة 48.

777 - المائدة 49.

778 - المائدة 50.

بالحقّ يكون من الذين استمد صفاته من صفات أحكم الحاكمين، قال تعالى: {قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ} 779.

أحكم الحاكمين هو الذي لا تأخذه العاطفة التي تجعل الضعيف يميل عن الحقّ وإحقاقه، فالذين لا خير فيهم هم السَّمَاعُونَ للكذب والآكلون للسحت فهؤلاء حكم أحكم الحاكمين فيهم بين، فلا خوف أن تصدر ضدّهم الإدانات الصريحة عدلاً ولهم في الآخرة عذاب شديد، ولهذا أمر الله رسوله محمّد عليه الصلّاة والسّلام أن يحكم بينهم بالعدل وهو التأكيد على الحقّ الظاهر في التوراة بالنسبة لليهود والذين آمنوا منهم هم الذين يحكمون بالحقّ فإن أخذ بحكمهم فحكمهم الذي هو من التوراة حقّ، قال تعالى: {سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِن حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُخْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} 780.

779 - الأنبياء 112.

780 - المائدة 42 - 45.

إذا من يحكم بحكم أحكم الحاكمين لا يمكن أن يشتري بآيات الله ثمنا قليلا، ومن لا يحكم بما أمر أحكم الحاكمين فأولئك هم الكافرون، ولذا قد جاء في التوراة كما نزل في الكتاب الحكيم الحكم العدل الذي منه:

. النفس بالنفس.

. العين بالعين.

. الأنف بالأنف.

. والأذن بالأذن.

. والسن بالسن.

. الجروح قصاص.

وعليه فمن لا يحكم بما أمر أحكم الحاكمين فهو من الظالمين مصداقا لقوله تعالى: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

ولأنه أحكم الحاكمين (العدل) فحكمه واحد (الحق) فما أنزله في التوراة هو الحق وما أنزله في الإنجيل هو الحق وما أنزله في القرآن هو الحق، ولذا الله العدل وعدله الحق سبحانه أنه أحكم الحاكمين، ومن لا يحكم بما أنزل الله في التوراة والإنجيل والقرآن فهم الفاسقون، ولهذا أنزل الكتاب مصدقا لما جاء في التوراة والإنجيل، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ} 781 أي أنزلنا إليك يا محمد الكتاب بالحق الذي يُمكنك من أن تحكم عدلا، فاحكم بين أهل الكتاب ومن يحتكم إليك منهم ومن غيرهم عدلا.

وحتى يُبَسِّطَ اللهُ لنا معنى العدل ألقى على مسامعنا من آيات القرآن الكريم فضائل تدل على العدل وتهدى إليه منها:

. الصراط المستقيم.

. القسط.

. الميزان.

. مثقال ذرة.

وقد وضع الموازين القسط للحكم بين الخلق في الدنيا وبينها في المنهج الذي ارتضاه لمن أراد أن يحقق الخلافة.

إذا العدل في ملكه هو الله عزّ وجلّ وهو العدل المطلق، والعدل بالإضافة هو المضاف لصفة العدل.

والعدل به تستوي كفتا الميزان بشعرة التمرکز في منتصف مسافة السويّة التي تشير إلى ثبوت الاتزان دون ميل ولا انحياز، ممّا يجعل العدل قراراً حكمٍ لإحقاق الحقّ وإزهاق الباطل مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} 782 وقال تعالى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} 783.

ولذا فالاعتدال توسُّط في الأمر والفرق بين العدل والاعتدال هو أن العدل يستوجب طرفين، والاعتدال قد يتعلق بطرف واحد أو شخص

---

782 - النساء 58.

783 - الأنعام 152.

واحد، كحالة الاعتدال في الأكل والشرب والاعتدال في القول والفعل وفي الأخذ أو العطاء حتى لا يغلب الظاهر على حقيقة ما يكمن من ورائه. ولذا فالاعتدال يستوجب القبض على الشح والتبذير قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} {784، وقال تعالى: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنزِلُ بِقَدْرِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} {785.

والعدل في أبهى صوره أن يكون مع النفس والجسد والروح ومع الله ومع الغير، ولهذا أمر الله تعالى رسوله محمد عليه الصلاة والسلام أن يعدل ويأمر بالعدل قال تعالى: {فَلِدَلِكْ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} {786.

قوله (فَلِدَلِكْ فَادْعُ) أي: فالذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع، فادعُ الناس إليه وفقا لما أنزلناه إليك واستقم اتباعا للعدل.

وقوله: (وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) أي: لا تخالف ولا تحيد بل استقم أنت ومن اتبعك على العدل تطابقا مع الأمر والكيفية التي هو عليها في القرآن.

وقوله: (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ) يعني: أعدل ولا تلتفت إلى المشركين فيما اختلفوا فيه، وكذبوا به وافتروه من عبادة الأوثان، فإنها زائلة وفاقدة لصفة

784 - الإسراء 29، 30.

785 - الشورى 27.

786 - الشورى 15.

الديمومة والبقاء، فأنت أيها النبي تعبد الحي الذي لا يموت ولا يبئد ولا يفنى ولهذا أنت العدل الذي تم اصطفاؤه عدلا في الأرض وعدلا في السماء.

وقوله: (وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ) أي: آمنت بالعدل وصدقت بجميع الكتب المنزلة من العدل المطلق، ولهذا من العدل ألا نفرّق بين كتبه ورسله الذين قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير.

وقوله (وأمرت لأعدل بينكم) جاء العدل صراحة مباشرة للتأكيد على كل المضامين السابقة الذكر، ولأنه رسول الله فهو المطيع لأمره وليس له بدّ إلا العدل بين العباد فيما هم فيه مختلفون أو مختصمون.

وقوله (الله ربّنا وربّكم) وهذه عين العدل أن يكون الله للجميع وليس لأحد كما هو حال المشركين الذين اتخذوا من دونه أربابا.

وقوله: (لَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ) أي من عمل صالحا فله ومن عمل طالحا فله وما ربك بظلام للعبيد، وقوله: (لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) لقد ظهر الحقّ عدلا وافية، فلا حُجَّةَ بعده بيننا وبينكم أي بعد أن تبين الحقّ فلا داعي للمحاجة، الحقّ نور لا يخفى عن مبصر ولا بصيرة.

وقوله: (الله يجمع بيننا) فيما اختلفنا فيه بعد ظهور الحقّ فالعدل المطلق يجمع بيننا على الحقّ، فلا داعي للاختلاف وعلينا بتقواه وعدم الشرك به إلهها واحدا عادلا في ملكه.

وقوله: (وإليه المصير) كل شيء يعود إليه، المستقبل وعلم الغيب يعلمهما بالتمام والكمال العدل الذي يعدله يجمع بيننا، ولهذا فهو مرجع الكل بفضل القضاء العادل، فالمصير إليه وحده لا شريك له.



والله العدل يأمر بإقامة العدل فيقول عز وجل: { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَيْلْتُمْ وُزُنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } 787 ولأن القسط أعدل الموازين لذا فمن العدل أن تُعَيَّر الموازين ليطم العدل بها بين الناس إذا احتكموا لمن يكيل بينهم أو ليكيل بميزانه فليثق الله ربّه بعدله.

يقول الله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ } 788.

جاء أمر العدل مطلق دون اقتصار على عدل بذاته، وتبعه أمر الإحسان مطلق، وتبعهما أمر الإيتاء لذي القربى مطلق حيث وجوبية الحق بالإتباع والطاعة. ولأنها أوامر من عند الله فإتباعها والأخذ بصفاتهما طاعة لله تعالى وأخذ بصفاته، وعدم الأخذ بها عصيان لا يقدم عليه إلا كافر فليتقي الإنسان ربّه بالطاعة التامة له واحدا أحدا لا شريك له. ولهذا فالمؤمنون هم الذين إذا حكموا هم يعدلون بالحق، وللإحسان هم فاعلون، وللعطاء لأصحاب الحقوق عليهم من ذي القربى وافون، وهم الذين ينهون عن الفحشاء والمنكر والبغي، وجميع هذه المواعظ من الرحمن الرحيم العادل في ملكه، ولأنّ هذه المواعظ والأوامر هي في اللوح المحفوظ فإن التذكير بها يستوجب العودة إليها وإلى الأسرار التي تكمن من ورائها. ثم أمر تعالى بإيفاء العهد وعدم نقض الأيمان بعد توكيدها والله تعالى شاهد على ذلك، فليثق الإنسان ربّه ويتبع أوامره ويتعد عما نهى عنه ويحمده ويشكره على فضله.

---

787 - الإسراء 35.

788 - النحل 90.

وبإقامة العدل يستقر المجتمع ويأمن الفرد على نفسه وعرضه وماله وتسود روح المحبة بين الجميع والله العدل يأمر بأداء الأمانة والحكم بين الناس بالعدل، وأفضل العدل أن يطيع العبد ربه تعالى ويطيع رسوله محمد ولا يُفترق بين احدٍ من رُسله صلوات الله وسلامه عليهم فإن فرّق بينهم فقد ظلم، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } 789.

### 56. لا ينطق عن الهوى:

الذي لا ينطق عن الهوى هو الموحى إليه وحيا وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ولذا فالنطق عن الهوى لا تصديق فيه، ولكنه من بنات الأفكار التي يتبناها المفترون الذين يقولون ما لا يفعلون وقد وصف الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام بالآتي يتبع الهوى فيما يُخبر به ويؤمر بإتباعه وإبلاغه للناس كافة، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ 790، وهذا وصف إلهي لمن اختاره الله من بين سلاله رُسله الكرام صلوات الله عليهم وسلم ليُبشّر بالحق وليحكم بين الناس بالعدل، ولهذا جاء قوله تعالى: { قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن آتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ } 791، وقال تعالى: { قُلْ إِنَّمَا آتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } 792، وقال تعالى: { وَإِذَا تُلتَّىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا

789 - النساء 58 - 59،

790 - النجم، 3 - 5.

791 - الأنعام 50.

792 - الأعراف 203.

يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ {793}.

ولأن محمدا عليه الصلاة والسلام مُتَّبَعًا لِمَا أُوْحِيَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ فَهَوَّلَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ مَصَدَقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَاكِمِينَ} {794}، أَيِ اتَّبِعْ يَا مُحَمَّدُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ فَأَنْتَ عَلَى الْحَقِّ وَبِالْحَقِّ تُبَشِّرُ وَتُبَلِّغُ وَسَيَرُونَ حُكْمَ اللَّهِ الْعَدْلَ فِيهِمْ وَفِيمَا يَقُولُونَ.

### 57. صادق:

الصدق قول حقّ وفعل حقّ، فمن تبعه كان من الوارثين، ومن لم يكن على الهدى كان من الضالين، والصدق لا يحدث ولا يتم إلا بالتقرب لله وطاعته فيما أمر، وتجنب ما نهى عنه، والأخذ بما أتى به الرسول والانتفاء عما نهى عنه، أي خذوا ما جاءكم به الرسول فهو الحقّ (الصدق) الذي ليس لكم مفرا منه فإن اتبعتموه فكنتم من المصدّقين الصادقين وإن عصيتم فتكونوا من الكاذبين المكذبين، قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} {795}.

793 - يونس 15 - 17.

794 - يونس 109.

795 - الحشر 7 - 8.

ولأنَّ محمّد رسول الله عليه الصّلاة والسّلام صفتُه الصدق، كان داعياً لربّه تعالى أن يُدخله فيما يشاء دخوله مُدخل صدق وإن أراد له الخروج منه يأمله تعالى أن يُخرجه منه مخرج صدق، ولذلك يطلب الرّسول الكريم ربّه أن يجعل له سلطان نصيراً، قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً} وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا {796.

ولأنَّ الصدق صفة محمّد رسول الله عليه الصّلاة والسّلام أنزل الله تعالى أمره لنبيه الكريم بأن يقول للجاحدين والماكرين والمكذّبين أن ما يقوله لهم هو الحقّ (الوحي) ولا شيء غير الوحي، قال تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} 797.

الصدق هو المبرأ من الذنب والمرسخ للحقّ، وفاك من الظلم ونازع للغبن وقاهر الماكرين والمكيدين بغير حقّ، ولهذا جاء قول الله تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} 798، ولهذا الحقّ يجب أن يقال ولو كان على النفس، وبقول الحقّ لا تكتم الشهادة، وبدونه تُخفى، قال تعالى: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 799.

796 - الإسراء 80، 81.

797 - الأنعام 50.

798 - الإسراء 80، 81.

799 - البقرة 283، 284.

ولأن رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام اصطفاه الله تعالى للكافة فلا بدّ وان يكون الصدق صفته التي عنها لا يجيد وإلا كيف يكون للكافة رسولا؟ وهكذا لو لم يكن محمد صفته الصدق فكيف يكون بين الناس عادلا وأسوة حسنة؟

ولأن محمدا رسولا من عند الله تعالى إذا لا بدّ وأن يكون الصدق صفة له، ولأن الله يعلم بذلك فأمره أن يتبع ما يوحى إليه ولا يتوقف عند اتهامات المكذبين ولهذا جاء قول الله عزّ وجلّ مطمئنا لقلب النبي من وسوسة المكذّبين الضالين مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ 800.

## 58 . مُذَكِّر :

لا تذكر إلا بأسباب وجود الغفلة؛ ولأن الإنسان خلق على التمام ولم يخلق على الكمال، فهو من طبعة ينسى ويتذكر ويغفل ويتفكر ويستغفر ويتوب إلى الله توابا، ولهذا فالذكرى نافعة لمن آمن مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ 801، أي ذكر يا محمد المؤمنين فإن التذكير في كل ما يتعلق بهم من أمر من أمور الحياة والدين ينفعهم، ولهذا فمهمتك هي التذكير وعليك به، أمّا أمر السيطرة فهو من أمر الله، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ 802.

---

800 - الأحزاب 2، 3.

801 - الذاريات 55.

802 - العاشية 21 - 26.

ولذا فالتذكير باتباع الحق مفيد كثيرا في الإيقاظ من الغفلة والسهو والجهل، ويرشد إلى ما هو أفضل وأجود وأحسن، وفي هذا الإيقاظ أجر لكل من المرشِّد للحق، والمستجاب لمن أرشده بالحق.

وعليه يستمد الرسول عليه الصلّاة والسّلام مهامه التي أمره الله بها من صفاته الحسان التي اصطفاه الله بها نبيا مرسلا، ومن هذه المهام أن يوقظ الغافلين من غفلتهم عن آيات الله عزّ وجلّ ورضوا أن يكونوا مع الخوالب بالحياة الدنيا وهم في غفلتهم عن لقاء ربهم الذي خلقهم ويودّ لهم أن يكونوا على ما خلقهم عليه في أحسن تقويم، هؤلاء ومن على مثلهم هم في حاجة للإيقاظ من الغفلة التي هم فيها، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ} 803.

المذكّر هو محمّد المنذر للغافلين ليتم إيقاظهم من غفلتهم التي تُنسهم ذكر الله واتباع أمره وتُنسهم الانتهاء عما نهى عنه، وتنسهم طاعة رسوله بما أمر ونهى، قال تعالى: {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} 804.

## 59 . مدثر:

المدثّر هو المحاط بالعناية والرعاية كما يحاط الإنسان بثوبه الذي يحفظه ويستره، ولذلك جاء في اللغة الدثائر بمعنى "الثوب الذي يُستندفأ به من فوق الشعار" يقال تدثّر فلان بالدثار تدثّرا وادثّر ادثارا فهو مدثّر والأصل مُتدثّر أدغمت التاء في الدال وشدّدت وقال الفراء في قوله تعالى يا أيها المدثّر يعني المدثّر بثيابه إذا نام وفي الحديث كان إذا نزل عليه الوحي يقول دثّروني دثّروني أي عطّوني بما أدفأ به" 805.

---

803 - يونس 7.

804 - يس 6.

805 - لسان العرب، ج 4، ص 276.

والمدثر هو محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام مما جعلنا نقول من  
 صفة محمد أنه كما وصفه الله بما وصفه به أنه المدثر، مصداقا لقوله تعالى:  
 { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ  
 تَسْتَكْبِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ فَإِذَا نَقَرْنَا فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى  
 الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ  
 شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا  
 سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا } 806.

ولذا نحن نقول:

أن المدثر هو محمد النبي الأمي المحاط بالهيمنة الإلهية التي تحفظه من  
 كل سوء ليظهر الحق ويحقه بين الناس كافة ولو كره المجرمون والفاسقون  
 والكافرون والمشركون.

ومن خلال تحليل الآية الكريمة السابقة التي وصفت النبي محمد عليه  
 الصلاة والسلام بالمدثر في أول حدث بعد التكليف مما يوجب الوقوف  
 عنده من خلال تساؤلين نطرحهما:

هل كان الدثار حقيقيا؟

أم كان مجازيا؟

ولدراسة كلا الاحتمالين نقف على معنى الدثار، والدثار بالكسر: ما  
 يُتَدَثَّرُ به. وقيل: هو ما فوق الشِّعَارِ مِنَ الثِّيَابِ. وقيل: الثَّوْبُ الَّذِي يُسْتَدَفُّ  
 به من فوق الشِّعَارِ يقال: تَدَثَّرَ فلانٌ بالدِّثَارِ تَدَثُّرًا وَادَّثَرَ ادِّثَارًا فهو مُدَثِّرٌ

والأصل مُتَدَثِّرٌ أَدِغَمَتِ التَّاءُ فِي الدَّالِ وَشُدِّدَتْ وَقَالَ الْفَرَّاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى " يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ يَعْنِي الْمَتَدَثِّرُ بِثِيَابِهِ إِذَا نَامَ 807.

هذا يعني أن الدثار شيء خارجي عن الأصل، وهو مضاف إضافة لحاجة ويمكن الاستغناء عنه، أو أن يكون التدرثر اختيارا لحالة من حالات النوم وهو النوم بالملابس طلبا للدفع.

وعليه نتساءل:

إذا كان التدرثر حقيقي:

لماذا؟

هل كان خوفا؟

هل كان طلبا للسكينة؟

هل كان رغبة في الراحة؟

هل كان استجابة لأمر؟

ليس من المنطقي أن يكون طلب الدثار خوفا من شيء، لان الرسول عليه الصلاة والسلام كان قد اختار أن يتحنث في غار بعيد موحش دون أدنى تفكير بالخوف من شيء لأنه كان مهيبا أصلا لمهمة الرسالة الأمر الذي يجعل الخوف من الرسالة مستبعد بل معدوم.

وطلب السكينة أو الراحة فهو مستبعد أيضا لأنه ما من سكينة أكثر من سكينة الإيمان، وما من راحة أكثر من تطابق شعور النبي عليه الصلاة والسلام مع مهمته الجديدة التي كان يتصل بها اتصالا روحيا قبل أن يكون اتصالا حقيقيا بكلام جبريل معه.



ونقول على الاحتمال أن يكون طلب الدثار استجابة جسدية لما حصل من لقاء بين مخلوق سماوي ملائكي هو جبريل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومحمد البشر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهنا نعتقد جازمين أن الفؤاد (فؤاد محمد) لم يكن إلا ملء إيمان و يقين صادق.

عليه فإن تدثر الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن خوفا من الأمر الذي نعتقد أن إرهاباته موجودة عند الرسول من قبل وأن شعورا داخليا بما سيحصل متحقق في يقين محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لذا فإننا ننفي بالمطلق أن يكون هناك خوف من الأمر قد تولد في نفس الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن خوفا آخر قد يتولد في نفس المكلف بالرسالة من حيث:

#### 1 . الخوف على الرسالة وتبليغها:

لا شك أنّ من يُكلّف برسالة هي خاتمة الرسالات وهي للعالمين كافة مصداقا لقوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } 808، وقوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 809، لا شك أنه عليه الصلاة والسلام يشعر بعظم المسؤولية كبيرة لأن الأمر عظيم كما وصفه ربّه له فقال: { إِنَّا سَنَلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا } 810.

ومعنى كونه ثقيلًا يعني كلامًا عظيمًا، ووجه النظم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل فكأنه قال: إنما أمرتك بصلاة الليل لألقي عليك قولًا عظيمًا، فلا بدّ وأن تسعى في صيرورة نفسك مستعدة لذلك القول العظيم، ولا

---

808 - الأنبياء 107.

809 - سبأ 28.

810 - المزمل 5.

يُحصل ذلك الاستعداد إلا بصلاة الليل، فإنَّ الإنسان في الليلة الظلماء إذا اشتغل بعبادة الله تعالى وأقبل على ذكره والثناء عليه، والتضرع بين يديه، ولم يكن هناك شيء من الشواغل الحسية والعوائق الجسمانية استعدت النفس هنالك لإشراق جلال الله فيها، وتهيأت للتجرد التام، والانكشاف الأعظم بحسب الطاقة البشرية، فلما كان لصلاة الليل أثر في صيرورة النفس مستعدة لهذا المعنى.

وقد يتولد عن ذلك خوف على مسيرة هذه الدعوة ونجاح التبليغ لاسيما أن الله عزَّ وجلَّ ذكَّر رسوله عليه الصَّلَاة والسَّلَام بأهمية التبليغ فقال عز من قائل: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } 811.

إنَّه الأمر الجازم الحاسم للرسول عليه الصَّلَاة والسَّلَام أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه كاملاً، وألا يجعل لأي اعتبار من الاعتبارات حساباً وهو يصدع بكلمة الحقِّ هذا، وإلا فما بلغ وما أدَّى وما قام بواجب الرسالة، والله يتولى حمايته وعصمته ويدبِّره من أفعال وأعمال المفسدين في الأرض، ولذا فمن كان الله له عاصماً فقد كفاه النَّاس.

إنَّ كلمة الحقِّ في العقيدة لا ينبغي أن تحجب! ويجب أن تبلغ كاملة فاصلة؛ وليقل من شاء من المعارضين لها كيف شاء؛ وليفعل من شاء من أعدائها ما يفعل؛ فإن كلمة الحقِّ في العقيدة لا تملق الأهواء؛ ولا تراعي مواقع الرغبات؛ إنما تراعي أن تصدع حتى تصل إلى القلوب في فؤة وفي نفاذ 812.

---

811 - المائدة 67.

812 - في ظلال القرآن، 2 ج، ص 393.

وقد علم العليم الخبير ما في نفس رسوله الكريم من خوف على مسيرة دعوة التبليغ فأمنه عزّ وجلّ رسوله بأن جعل مهمته التبليغ فقط وأما موقف من كفر فقد قامت عليه الحجّة عن ذلك مصداقا لقوله تعالى: {مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} 813.

لذلك فخوف الرسول عليه الصلّاة والسّلام على الرّسالة الخاتمة خوف مشروع مصدره اليقين بالحقّ الذي جاءت به، والرغبة بأن ينال الخير الذي فيه النّاس كافة.

## 2. الخوف على المستهدفين:

أرسل سيدنا محمّد عليه الصلّاة والسّلام رحمة للعالمين، وهو رحمة في الدين وفي الدنيا، أما في الدين فلأنه بعث عليه الصلّاة والسّلام والنّاس في جاهلية وضلالة، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم فبعث الله تعالى محمّدا عليه الصلّاة والسّلام حين لم يكن لطالب الحقّ سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحقّ وبَيّن لهم سبيل الثواب، وشرع لهم الأحكام وميّر الحلال من الحرام، ثمّ إنّما ينتفع بهذه الرّحمة من كانت همته طلب الحقّ فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار.

وأما في الدنيا فلأنهم تخلّصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه، ولهذا خصّ الله محمّدا عليه الصلّاة والسّلام بوصف الرّحمة ولم يصف به غيره من الأنبياء، وكذلك في القرآن كله، قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} 814، وقال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ

---

813 - المائدة 99.

814 - التوبة 128.

وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ  
وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ  
الْمُتَوَكِّلِينَ { 815.

لا شك أنّ الرسول الذي فُطر على الرحمة سيكون في نفسه خوف  
على العالمين، خوف مصدره العلم بما سيلحق بالكافرين من عذاب لكفرهم  
وما سيحرمون منه من خير كثير في الدنيا والآخرة إن لم يؤمنوا بمحمد  
ورسالته الخاتمة مصداقا لقوله تعالى: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ  
مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنَّ  
اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ  
ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ { 816.

### 3. الخوف على مستقبل الرسالة:

أخبر الله عزّ وجلّ رسوله أن رسالته ستكون خاتمة الرّسالات، وهذا  
يعنى أن الرّسالات ستقطع بعد محمد صلى الله عليه وسلّم، لذلك فإن من  
المنطق أن يتولد حرص وخوف على ما سيكون بعد ذلك لاسيما أن الله عزّ  
وجلّ يخبر رسوله بكثير ما سيحدث فيما بعد كمثل قوله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ  
إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ  
وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنُيَضِّرَنَّ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ { 817.

والمقصود من الآية العتاب على ما سيقع من الاضطراب، والثناء على  
الَّذِينَ ثَبَتُوا وَوَعظوا النَّاسَ، والتحذير من وقوع الارتداد عند موت الرسول  
صلى الله عليه وسلّم، وقد وقع ما حدّتهم الله منه بعد وفاة الرسول عليه

---

815 - آل عمران 159.

816 - هود 1-3.

817 - آل عمران 144.

الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ إِذَا ارْتَدَّ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَظَنُّوا اتِّبَاعَ الرَّسُولِ مَقْصُورًا عَلَى حَيَاتِهِ، ثُمَّ هَدَاهُمُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَالآيَةُ فِيهَا إِنْبَاءٌ بِالْمُسْتَقْبَلِ 818.

وَمِنَ الْأُمُورِ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ بِهَا هِيَ هَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} 819.

وهذه الآية توجب خوفا على الأتباع من إضاعة ما في القرآن من خير كبير، وهذا حرص منه عليه الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ على من اتبعه من المؤمنين.

إنَّ هذه المخاوف المشروعة قد تتبادر إلى الذهن لعظمة المهمة فهذه الرِّسَالَةُ هِيَ الرِّسَالَةُ الْخَاتِمَةُ الَّتِي لَنْ يَأْتِيَ بَعْدَهَا رَسُولٌ يَزِيدُ أَوْ يَنْقُصُ يَحِلُّ أَوْ يَحْرُمُ فَالْمَسْأَلَةُ مُوجِبَةٌ لِلْحَرَصِ عَلَى الْأَمْرِ وَنَجَاحِهِ مَعَ تَأْكِيدِنَا عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ مُطْلَقٌ بِنَجَاحِ الْأَمْرِ عِنْدَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ لِأَنَّهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وهذه المخاوف لم يكن مصدرها ضعف على الإطلاق ولكن كانت نابعة من فَوْةَ الْعَقِيدَةِ وَصَدَقَ الْإِيمَانَ.

ونتساءل:

ما الذي أوجب الدثار عند رسول الله؟

لقد علم الرسول عليه الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ أمور ما كان يعلمها من قبل وشعر بعظمتها وإعجازها وعمق دلالاتها وهو يسمع أولى كلمات ربه التي نقلها إليه جبريل إذ يقول الحق عز وجل: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ

---

818 - التحرير والتنوير، ج 3، ص 236.

819 - الفرقان 30.

الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ {820}.

فقد عرف محمد عليه الصلاة والسلام من هذه الآيات القليلة حقائق عظيمة هي:

- الاختصاص بالرسالة (اقرأ).

الله خالق لكل شيء (ربك الذي خلق).

الإنسان مخلوق من علق (خلق الإنسان من علق).

العلم من الله عز وجل (وربك الأكرم الذي علم بالقلم).

العلم يتحصل (علم الإنسان ما لم يعلم).

الذي حصل في هذه اللحظة أن الله، العظيم الجبار القهار المتكبر، مالك الملك كله، قد تكرم في عليائه فالتفت إلى هذه الخليقة المسماة بالإنسان، وكرم هذه الخليقة باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلهي، ومستودع حكمته، ومهبط كلماته، وممثل قدره الذي يريده سبحانه بهذه الخليقة.

وهذه حقيقة كبيرة. كبيرة إلى غير حد. تتكشف جوانب من عظمتها حين يتصور الإنسان قدر طاقته حقيقة الألوهية المطلقة الأزلية الباقية.

821.

وعليه نتساءل:

ماذا تحصل عند الرسول في هذه الساعة من معاني؟

---

820 - العلق 1-5.

821 - في ظلال القرآن، ج 8، ص 64.

الرّسول من بلغاء العربّ الذين يملكون القدرة على تمييز الأساليب العربيّة وتبين بلاغتها الموجبة لفهم معانيها الدقيقة، لذلك فمن المؤكّد أن يكون لكل لفظة دلالتها المؤثّرة، فلفظة خلق مثلاً في سياق (ربّك الذي خلق) لا شكّ أنّها أعطت دلالة مطلقيّة الخلق لله عزّ وجلّ لأنّها جاءت على صيغة النكرة التي تفيد العموم والإطلاق، فما من شيء في الأرض وفي السّماء إلا وهو من خلق الله عزّ وجلّ.

أمّا الحقيقة الأخرى التي أجابت ولا شكّ عن تساؤلات كانت تدور في ذهن المتأمل لخلق الإنسان فقد قدمت إجابة وافية هي (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) فقد تخصّص خلق الإنسان ومبدأه خلق الإنسان من علق ن تلك النقطة الدمويّة الجامدة العالقة بالرحم، من ذلك المنشأ الصغير خلق الإنسان الذي سيتعلم ما لم يعلم.

أمّا بالنسبة لعلم الإنسان فقد انحصر مصدر العلم بكونه من الله عزّ وجلّ، ودلّ ذلك على كمال كرم الله بأنّه علّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، وثبّه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلاّ هو، وما دوّنت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلاّ بالكتابة؛ ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا؛ ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره ودليل إلاّ أمر القلم والخط، لكفى به 822.

هذه الحقائق التي نزلت على الرّسول لا شكّ أنّها قوية الأثر على شخصيّة كانت ترتقب مثل هذه الحقائق وقد حصل هنا توافق بين المبلغ والمبلغ ودليله إيمان صادق من الرّسول بحقيّة ما حصل معه وقيامه بالأمر على أكمل وجه.

أمّا القول بأنّه ليس المراد من المدثر، المتدثر بالثياب، وعلى هذا الاحتمال فيه وجوه احتمالية:

الأول: أنّ المراد كونه متدثرا بدثار النبوة والرّسالة من قولهم: ألبسه الله لباس التقوى وزينه برداء العلم، ويقال: تلبس فلان بأمر كذا، فالمراد يأبها المدثر بدثار النبوة قم فأندر.

الثاني: أنّ المتدثر بالثوب يكون كالمختفي فيه، وأنّه عليه الصلّاة والسّلام في جبل حراء كان كالمختفي من النّاس، فكأنه قيل: يا أيها المدثر قم بهذا الأمر واخرج واشتغل بإنذار الخلق، والدعوة إلى معرفة الحقّ.

الثالث: أنه تعالى جعله رحمة للعالمين، فكأنه قيل له: يا أيها المدثر بأثواب العلم العظيم، والخلق الكريم، والرّحمة الكاملة قم فأندر عذاب ربّك .823

وعلى الحقيقة أو المجاز كان على المدثر أن يقوم بما يأمره عزّ وجلّ لأنّ الدثار الحقيقي مؤقت منتهي لذا فقد توجب أن يكون بعده أمر آخر.

وإذا على المجاز فهو صفة أصيلة (متدثر بالنبوة) توجب أن يفعل المتصف بها أمور تجعل دثاره صفة حقيقة، وعليه كان الأمر من الله عزّ وجلّ للمدثر بأمر تبيينها الآيات الكريمة مصداقا لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنِ تَسْتَكْبِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ).

هذا الأمر تضمن:

1 . قم فأندر.



2. ربك فكبر.

3. ثيابك فطهر.

4. الرجز فهجر.

5. لا تمنن تستكثر.

6. لربك فاصبر.

عليه على المدثر أن يترك الدثار لكي يقوم بما أمره الله عز وجل، ومن المهم الانتباه إلى تسلسل ما تضمنه الأمر، فالإنذار هو من أولى مهام الرسول عليه الصلاة والسلام بل هو مهمته الرئيسية.

هنا يطرح التساؤل:

هل الإنذار دون غيره هو مهمة الرسول؟

أين التبشير؟

لماذا لم يذكر شيء آخر؟

نقول إن حقيقة دور الرسل تتمركز على كونهم مبشرين ومنذرين مصداقا لقوله تعالى: { وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } 824.

لكن في واقع الحال لا يمكن أن يبدأ الرسول بالتبشير قبل الإنذار، وقد أخبرنا الله عز أن رسله بدؤوا الناس بالإنذار فإذا آمنوا كان التبشير، فقد بدأ نوح بالإنذار: { إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ

وَأَطِيعُونَ يَعْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {825.

كذلك بدأ إبراهيم بإنذار أبيه آزر مصداقا لقوله تعالى: {وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا {826.

فالإنذار أولا ثم التبشير، والمسألة مرتبطة بالعميقة حيث:

لا ينفع التبشير مع الكافر.

لا يدوم الإنذار لمن آمن.

إذ كيف يُصدّق الكافر بالبخارة وهو يُكذب وعيد الإنذار؟

لكن يمكن القول إنه لا غنى عن التبشير ولا على الإنذار في كل حين لكن الترتيب العقلي والمنطقي أن يكون الإنذار قبل التبشير دون انفصال بين الاثنين وهذا ما حدث مع نوح عليه الصلوة والسلام فبعدهما أنذر بشرهم مصداقا لقوله تعالى: {يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا {827.

وهو ذات الأمر الذي كان في رسالة محمد عليه الصلوة والسلام بما ورد في نص الآيات الموحاة إليه بالإنذار ثم التبشير معا: {فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي

---

825 - نوح 1-4.

826 - مريم 41-45.

827 - نوح 11-12.

وَقُودَهَا النَّاسَ وَالْحِجَارَةَ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا  
الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا  
خَالِدُونَ {828}.

فقصر الأمر بالإندار (قم فأندر) ليس من باب التخصيص بل هو  
من باب الإيجاز لأنّ الإندار يوجب التبشير وهذا ما بينته آيات القرآن  
الكريم.

ثم بعد ذلك يأتي مضمون التبليغ وشعاره وهو (الله أكبر)، أي أخبر  
عنه بخبر التعظيم، وهو تكبير مجازي بتشبيه الشيء المعظم بشيء كبير في  
نوعه بجامع الفضل على غيره في صفات مثله.

فمعنى وربك فكبر صيف ربك بصفات التعظيم، وهذا يشمل تنزيهه  
عن النقائص فيشمل توحيدته بالإلهية وتنزيهه عن الولد، ويشمل وصفه  
بصفات الكمال كلها.

ومعنى (كبر): كبره في اعتقادك: وكبره بقولك تسبيحا وتعلينا.  
ويشمل هذا المعنى أن يقول: "الله أكبر" لأنه إذا قال هذه الكلمة أفاد  
وصف الله بأنه أكبر من كل كبير، أي أجلّ وأنزه من كل جليل، ولذلك  
جعلت هذه الكلمة افتتاحا للصلاة بعد رفع كل مناداة للصلاة.

وأعتقد أن في ذكر التكبير إيماء إلى شرع الصلاة التي أولها التكبير  
وخاصة اقترانه بقوله: (وثيابك فطهر) فإنه إيماء إلى شرع الطهارة، ولعل  
ذلك إعداد لشرع الصلاة 829.

---

828 - البقرة 24-25.

829 - تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 402.

أمّا قوله تعالى الرجز فاهجر الرجز: يقال بكسر الراء وضمها وهما لغتان فيه والمعنى واحد عند جمهور أهل اللغة. الرّجز بالكسر العذاب والنجاسة والمعصية، وبالضم الوثن. ويحمل الرجز هنا على ما يشمل الأوثان وغيرها من أكل الميتة والدم.

وتقديم (الرجز) على فعل (اهجر) للاهتمام بالأمر بتركه.

واهجر: ترك المخالطة وعدم الاقتراب من الشيء. واهجر هنا كناية عن ترك التلبس بالأحوال الخاصة بأنواع الرجز لكل نوع بما يناسبه في عرف الناس 830.

هنا من المهم التوقف مع مسألة يطرحها التساؤل الآتي:

هل كان الرسول عليه الصلّاة والسّلام قريب من الرجز ليأتي أمر الهجر؟

لم يكن في مسيرة محمّد عليه الصلّاة والسّلام قبل النبوّة أي ذكر له مع أي وجه من وجوه الرجز، فلم يكن قد اقترب من صنم ولا ظلم أحد ولم يكن قد تعاطى كل ما يمكن أن يكون رجزاً أو يقترب منه، بل كان على العكس من ذلك من جملة صفات الخير والعدل والرّحمة والصدق.

فلماذا أمره الله بذلك؟

نقول إن الأمر هنا يحتمل عدة احتمالات منها:

1. أن يكون الخطاب هنا عاماً لا خاصاً، أي ليس موجهاً لمحمّد عليه الصلّاة والسّلام بل لعموم المسلمين.

2. أن يكون أمرا توجيهيا، أي أن يكون من الأخلاق التي يعلمها الله لرسوله لكي يعلمها أتباعه من بعد ذلك.

3. أن يكون متعلقا بالعقيدة الصحيحة والمحافظة عليها من دخول شيء من العقيدة الفاسدة، أي يا محمد علم أتباعك كيفية المحافظة على العقيدة الصحيحة بالابتعاد عن كل ما يمكن أن يشوبها من فاسد العقائد.

وهذا أمر منطقي لان العقيدة الصحيحة كانت جديدة العهد بالنسبة إلى الوثنية وعقائدها التي كانت متغلغلة في النفوس لذا فهذه الآية تعليم وتنبيه في الوقت ذاته للرسول وأصحابه مما يجب أن يكونوا عليه.

ومما يؤكد ذلك ما جاء في أمر لاحق هو (وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْبِرُ)، أي: ولا تعط مستكثرا رائيا لما تعطيه كثيرا، أو طالبا للكثير: نهي عن الاستغزار: وهو أن يهب شيئا وهو يطمع أن يتعوض من الموهوب له أكثر من الموهوب.

وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون نهيها خاصا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ الله تعالى اختار له أشرف الآداب وأحسن الأخلاق.

والثاني: أن يكون نهي تنزيه لا تحريم له ولأتمته 831.

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) وهذا الأمر فيه إطلاق مما يجعل وجوه الاحتمالات

عديدة منها:

1. اصبر لله.

2. اصبر على أداء الرسالة تامة.

3. اصبر على تلك الأوامر وغيرها من أوامر الله عزَّ وجلَّ.

---

831 - تفسير الزمخشري، ج 1، ص 1312.

4 . اجعل الصبر خلقك وخلق إتباعك في الدين والدنيا.

والصبر هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله 832،  
ومن المفهوم تتضح دلالات إيجابية منها:

1. لن يكون أمر الدعوة هينا.

2 . ستواجه يا محمد تعباً ونصباً.

3 . سيكذبك كثير من قومك.

4 . سيؤذيك الكفار والمشركين والمنافقين.

5 . ستحاربك الأحزاب.

وعلى هذا فإن المدثر لم يتدثر ليرتاح ولكن ليبدأ مسيرة الدعوة إلى  
الحق الذي جاءت به خاتمة الرسالات وهي المهمة الصعبة.

ومن حيث المفهوم أيضاً؛ فإن كلمة المدثر قد يعطها البعض دلالة  
التردد، ولهذا جاء الأمر (قم) لكيلا يبقى للتردد أثر في نفس المتردد، فقوله  
تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ  
وَلَا تَمَنَّئْ تَسْتَكْبِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) تأسست هذه الآيات جميعها على تحديد  
المدثر وهو (محمد) والأمر (قم) أي لم يُترك لمحمد رأي فيما جاءه من الأمر  
الذي يستوجب التنفيذ دون تردد في كل الآتي:

. فأندِر .

. وربك فكبر .

. وثيابك فطهر .

. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ .

. وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ .

. وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ .

وعليه فقد قام محمد عليه الصلاة والسلام من دثاره فأندر، وكبر ربه، وطهر ثيابه، وأهجر الرجز، وقبل كل ذلك ولم يستكثر ثم صبر على أداء كل ذلك دون تردد.

وعليه نقول:

المدثر هو الصلب الذي تمسك بأسباب الفؤة وعمل بها على تنفيذ تلك الأوامر التي احتوتها الآيات الكريمة: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ).

## 60 . خليفة:

الخليفة هو من يستمد صفاته من صفات مستخلفه، ولهذا فإن جميع الرسل والأنبياء الكرام صلى الله عليهم وسلم هم مستمدون صفاتهم من صفات الله عز وجل، فهم على أحسن التقويم الذي عليه خلقوا من الله تعالى، وعليه لم يأت استخلاف الأنبياء والرسل برغبة منهم، بل هو اصطفاء من عند الله وذلك لمعطيات لا يعلمها إلا هو، فكان محمد خليفة الله مثلما كان داوود خليفة لله وهكذا كل الرسل خلفاء لله عز وجل منذ استخلاف آدم عليه الصلاة والسلام على الأرض، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

تَعْلَمُونَ}833، وقال تعالى: { يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}834.

ولأنّ الإيمان بالله مأمور به، إذا طاعته تجعل المؤمن من المستخلفين فيها، ولأنّ أمر الإيمان بالله متبوعاً بأمر الإيمان بمحمد نبياً رسولاً ومستخلفاً في الأرض، إذا فالأخذ بما جاء به محمد يُعد الطاعة التامة التي تُمكن من يؤمن بمحمد والرّسالة الخاتمة من الاستخلاف فيها، قال تعالى: {أَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُضُوا مِمَّا جَعَلْتُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ}835.

وعليه فمن يؤمن برسالة محمد (الإسلام) يكون خليفة بما استخلفه الله به في الأرض ألا وهو القرآن، كما استخلف من قبل نوح وقومه الذين آمنوا بما جاء به نوح أمّا أولئك الكفرة منهم فلا استخلاف لهم في الأرض وذلك لفقدهم الإيمان الذي يُمكن من الاستخلاف فيها، قال تعالى: {وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ}836، وهكذا كان الاستخلاف جيلاً بعد جيل للذين سبقونا بالإيمان إلى أن بلغناه مستخلفين بنبي ورسول الإسلام الخاتم وللناس كافة محمد صلى الله عليه وسلّم، قال تعالى: {وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْتُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}837.

وعليه فالمستخلفون هم المؤمنون بجميع الأنبياء والرّسل صلى الله عليهم وسلّم ولا يفرقون بينهم فيما هم به مستخلفون فيها، فمثل عيسى

---

833 - البقرة 30.

834 - ص 26.

835 - الحديد 7.

836 - الأعراف 69.

837 - الأعراف 74.



كمثل آدم الذي اصطفاه الله على من خلق ملائكة وجان وعلمه الأسماء جميعها قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} 838. ولهذا فالمسافة بين محمد وآدم هي المسافة بين آدم وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم، ولذلك يجب ألا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، قال تعالى: {أَمَرَ الرَّسُولَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} 839.

ولأن المستخلف بالاصطفاء لا يُفَرِّق بين الذين استخلفوا فيها من قبله بالاصطفاء من أنبياء ورسل، فكذلك نحن مأمورين من الخليفة محمد عليه الصلاة والسلام بأن نؤمن بما أنزل على محمد وجميع الأنبياء والرسل الكرام، قال تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 840.

ولأن الله تعالى لقد خلق الإنسان في أحسن تقويم، فهو خلقه لرسالة، ولأن له رسالة أستخلف بها في الأرض، ليُصلح فيها ولا يفسد ولا يسفك الدماء بغير حق، إذا فالله تعالى اصطفى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم برسالات الإصلاح المؤسسة على قاعدة الاستخلاف في الأرض التي استوجبت مخلوقا في أحسن تقويم، وبما أنه لا رسول إلا برسالة، إذن لا

---

838 - آل عمران 59، 60.

839 - البقرة 285.

840 - البقرة 136، 137.

استخلاف بالفؤة إلا بها، وهكذا الاستخلاف من بعدهم لا يكون إلا برسالة، ولأن رسالة محمد صلوات الله وسلامه عليه هي الرسالة الخاتمة، إذن لا خليفة إلا ويكون على الرسالة، ولهذا فمن أسلم وجهه لله كان خليفة، ومن لم يسلم فقد فقد شرطاً رئيساً للاستخلاف وهو الرسالة.

وعليه بالرسالة كان استخلاف الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، وعلى الرسالة الخاتمة يكون الاستخلاف. قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} {841}، ولأن الاستخلاف في الأرض غاية عظمى لا يقوى عليها إلا مسلماً قادراً، لذا لا يمكن أن يكون المسلم خليفة إن لم يكن قادراً على حمل رسالة الاستخلاف فيها، قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {842}. إذن القاعدة مؤسسة على ما (آتاكم) والذي أوتينا به هو الرسالة المحمولة في الكتاب المحفوظ، فمن تبعها فقد اهتدى السبيل إلى الاستخلاف والوراثة ومن ضلَّ فقد ضلَّ.

## 61 . الخاتم:

الخاتم محمد رسول الله عليه الصلوة والسلام وهو الرسول الذي ليس من بعده رسولا آتٍ، وهو المصدق على ما سبقه بعد نسخ وتنزيل من لدن عليم حكيم.

والخاتم هو الذي جاء بكلم الفصل الذي لا انحياز فيه، إنه الحق الذي لا يُميز بين قريب وبعيد في إحقاقه، ولكنه يُمكن من التمييز بين ما يجب أن يقال وهو الحق وبين ما لا يجب أن يقال وهو الباطل ويُظهر، ووفقاً لقاعدة

---

841 - الأنعام 165.

842 - الحشر 7.

(الحقُّ يُحقِّق) جاء الرّسول مبشرا وداعيا والكافة مأمورة بان تأخذ ما آتاه الرّسول وتنتهي عما نهاها.

ولأنّ محمّدا هو الخاتم بالرّسالة الخاتمة للكافة فهو آخر رسولٍ يؤول إلى سلسلة أولئك الأنبياء والرّسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم وهم الذين جعل الله النبوّة فيهم من نوح وإبراهيم عليهما الصلّاة والسّلام، ولأنّ الأمر كذلك فبطبيعة الحال لن يكون محمّد أبا أحد حتى لا يظن أحد أنّ سلسلة النبوّة لم تنقطع بعد، ولهذا لقد أنجب رسول الله ذكورا ولكن لم تستمر حياتهم حتى بلوغ الزواج الذي يجيز الاستمرارية من بعد محمّد، ولهذا انقطع أمر السّماء بالرّسول الخاتم والرّسالة الخاتمة، مصداقا لقوله تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} 843.

وعليه لقد كان محمّد رسولا من الرّسل وهو خاتمهم، فمن يؤمن برسولٍ من قبله ليس له بدٌّ إلا أن يؤمن بمحمّد رسولا خاتما، ومن لم يكن يؤمن من قبله برسول من الرّسل الكرام فليس له بدٌّ هو الآخر إلا أن يؤمن بمحمّد رسولا خاتما، وعليه ألا يضيع عمره في الانتظار حيث لا رسول من بعد محمّد ولا رسالة من بعده، ولهذا فمن يتنغي غير الإسلام دينا فلن يقبل منه مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 844.

وقال الله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} 845.

---

843 - الأحزاب 40.

844 - آل عمران 85.

845 - التوبة 128.

ربّما تبدو هذه الآية الكريمة للبعض بعيدة عن الدليل على أن ختام النبوة محمّد صلى الله عليه وسلّم، ولكن إذا استعرضنا معظم الآيات التي خوطب بها الأنبياء صلى الله عليهم وسلّم، نجد أن الأنبياء:

. إمّا أن ينسب النبي المبعوث فيهم، إليهم كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} 846.

. وإمّا أن ينسبون إليه قال تعالى: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} 847.

. وقال تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ} 848.

. وإمّا أن تكون علاقة التساوي في الأخوة، قال تعالى: {وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ} 849.

وقال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} 850.

وحتى أنّ إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام جاء في حقّه قوله تعالى: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} 851.

---

846 - البقرة 54.

847 - الأعراف 159.

848 - يونس 98.

849 - الأعراف 65.

850 - الأعراف 73.

أمّا في خطاب من اتّبع محمّد عليه الصّلاة والسّلام فكان الأمر مختلفا تماما قال تعالى: (جاءكم رسول من أنفسكم) ولم يقل: (جاءكم رسول منكم) حتى لا يقتصر الخطاب على قريش أو على قومه الذي ينتمي إليهم (من أنفسكم) فلم يكن ذلك من أجل شدة الحساسية وعمق الصلة فحسب، مع أنّها أدلّ على نوع الوشيجة التي تربطهم به، فهو بضعة من أنفسهم، تصلهم به صلة النفس بالنفس، وهذا لا يقتصر على أنفس قوم معينين، لذلك نجد القرينة الموضحة (بالمؤمنين رؤوف رحيم) أخرجت المعنى من الخصوص إلى الشمول والعموم، فمن آمن بهذا الرّسول الكريم، كائنا من كان، فقد تجاوز العرق واللون، والتاريخ والجغرافيا، والزمان والمكان، فلا يقتصر على قوم أو شعب أو أمة، وهذا يعني أنه نبي الكافّة، ونبي الكافّة، فهو بالتالي هو النبي الخاتم الذي هو من أنفسهم.

ثمّ أنّ الله سبحانه وتعالى أخبر الأنبياء بالنبي الخاتم وكتابه الخاتم الذي يحمل رسالته الخاتمة حيث قال الله تعالى: { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } 852؛ فقله تعالى: (ثمّ جاءكم رسولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ) دليل إثبات أن محمّد هو الخاتم لكل ما سبق، ثمّ أن في الآية من البراهين والقرائن ما يكفي للدلالة على أن الرّسالة التي يحملها هي الرّسالة الخاتمة، لما في الآية من أوامر واجبة الطاعة لله في حقّ الأنبياء لمحمّد صلّى الله عليهم وسلّم وعليهم أجمعين منها:

. الإيمان به .

. نصرته .

ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِجَزْئِيَّاتٍ وَتَفَاصِيلِ الْمِيثَاقِ الَّذِي ذَكَرَهُ:

. الإقرار (أقررتم) .

. العهد (وأخذتم على ذلكم إصري) .

. الاعتراف (قالوا أقررنا) .

. طلب الشهادة (قال فاشهدوا) .

. التأكيد على الشهادة (وأنا معكم من الشاهدين) .

ولو لم يكن هو النبي الخاتم، لأخذت شهادته على النبي الخاتم.

ففرض شهادتهم للرسول عليه الصلّاة والسّلام أن يشهدوا أنّ محمّدا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، خاتم الأنبياء لا نبي بعده، وكتابه خاتم الكتب لا كتاب بعده، وهو مهيمن على كل كتاب، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} 853.

مصّدق لما سلف من الكتب قبله، وأن شريعته ناسخة للشرائع، قاضية عليها إلا ما أقره كتابه ووافقه، وكتابه خاتم على الكتب وحاكم عليها، وأنه هو الذي بشر به عيسى صلّى الله عليه وسلّم، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} 854.

---

853 - المائدة 48.

854 - الصف 6.

وهو المذكور في التوراة والإنجيل وسائر كتب الله عز وجل المنزلة على رسله، قال تعالى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ } 855.

فمن الواضح أنّ جزء من الكثير الذي كانوا يخفونه من الكتاب هو معرفتهم وعلمهم بالنبى الخاتم الذي أمروا أن يؤمنوا به ويصدقوه وينصروه.

فقد أخذ الله ميثاق النبيين أن يؤمنوا به وينصروه لو أدركوه، وإن لم يدركوه فقد أخذ عليهم الميثاق بالتبليغ بالإيمان به وتصديقه ونصره، فأقروا بذلك وشهد الله تعالى على شهادتهم بأشياء منها:

. أن الأنبياء أخذت شهادة أممهم على الإيمان به وأمرتهم بتصديقه وأخبرتهم بظهوره.

. أن إيمان أهل الكتاب بكتابه مفترض عليهم مأمورن به في كتبهم وعلى ألسنة رسلهم.

. أن طاعته ومحبه فريضة واجبة على الكافة كطاعة الله تعالى.

. أن اتباع أمره واجتناب نهيه مفترض على الأمة إيجابا أوجبه الله تعالى له.

. فرض افترضه على خلقه متصل بفرائضه من المتممات للإيمان.

وأما الميثاق الذي دخل به محمد عليه الصلوة والسلام مع الأنبياء والمرسلين جمعا، فقضيته مختلفة عن النبي الخاتم والرّسالة الخاتمة حيث قال تعالى: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى

وَعَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ  
وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا {856}.

فالله سبحانه وتعالى أخذ الميثاق على الأنبياء جمعا، ثم أخبر محمدا عليه الصلاة والسلام بقوله (ومنك) كونه الرسول الخاتم وهو المخاطب بالكلام، ثم أردف ذلك بنوح صلى الله عليه وسلم، كونه أول المرسلين، ثم اتبع ذلك بإبراهيم وموسى وعيسى صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

فقد كان الإخبار بأن الميثاق جرى على جميع الأنبياء وأخذ منهم دون استثناء، وأما تقديم محمد صلى الله عليه وسلم، فهو واجب التقديم لسببين: الأول: أنه المخاطب بالإخبار ليخبر به.

الثاني: كونه الرسول الخاتم.

وأما تخصيص نوح صلى الله عليه وسلم، وعطفه بالواو على الضمير (منك ومن نوح) فمن أجل فاتحة المرسلين وخاتمهم، ولأن نوحا في ذريته النبوة والكتاب، ويأتي ضمنا من أرسل بينهما من رسل تترى على فترات.

ثم ذكر بعد ذلك إبراهيم وموسى وعيسى صلى الله عليهم وسلم، لأن ذكر هؤلاء، يغني عن ذكر كثير من الأنبياء والرسالات لأسباب كثيرة منها:

1. أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو أبو الأنبياء.
2. أن ملة إبراهيم كان عليها هود وصالح وإسماعيل.
3. أن موسى عليه الصلاة والسلام كان على شريعته أبناء يعقوب وداوود وسليمان صلى الله عليهم وسلم.



4. ذكر عيسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنَّ رسالته تصحيح للانحراف عن شريعة موسى.

5. أنَّ رسالات إبراهيم وموسى وعيسى كانت معروفة، وهناك من يدين بها.

وبالجملة فقد خصَّ اللهُ تعالى بالذكر أربعة من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ويمكن أن نضيف إلى تلك الأسباب أن موسى وعيسى عليهما الصَّلَاة والسَّلَام، كان لهما في زمن المخاطب قوم وأمة فذكرهما احتجاجاً على قومهما، وإبراهيم كان العرب يقولون بفضله وكانوا يتبعونه في بعض الشعائر والذين كانوا يُعرفون بالموحدين، ثمَّ أن نوحاً كان أصلاً ثانياً للناس، فهو أبو البشر بعد آدم عليه الصَّلَاة والسَّلَام (وجعلنا ذريته هم الباقين) حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان.

فالميثاق في هذه الآية التي دخل فيه النبي الخاتم، يختلف في اختصاصه وتوجهه عن الميثاق الذي أخذ للنبي الخاتم، ذلك أن الميثاق هنا، أخذ عليهم أجمعين، والمراد من هذا الميثاق المأخوذ من النبيين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمُ وَسَلَّمَ، هو إرسالهم إلى البشر بما هم مأمورون به من التبليغ، لما اصطفاهم اللهُ تعالى واختصهم بالنبوة وكلفهم بالرسالات وأمرهم بالتبليغ، فكان ذلك ميثاق من الأنبياء لله تعالى بأداء ما كُلفوا به من تبليغ الرسالة أمانة منهم لما أخذ عليهم من ميثاق.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَدَّدَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِذَلِكَ الْمِيثَاقِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:  
{وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا}.

والميثاق الغليظ هو سؤالهم عما فعلوا فيما كُلفوا به وقبلوا ذلك التكليف من حمل الرسالة وأداء أمانتها كما قال تعالى: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} 857.

وهذا السؤال هو التخليط، وهو بمثابة الاستجواب لمن أُرسِل إليهم، وشهادة المرسلين المتضمنة لتبليغ أوامر الله في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم.

لقد أمر الله سبحانه وتعالى الرُّسل بالتبليغ بما أخذ عليهم من ميثاق، وأمر الأمم بالقبول والاتباع، ثم ذكرهم بعذاب الأمم التي عاندت وعصت الرُّسل السابقين، ذكر بأن الحساب يوم القيامة دقيق وعادل، حيث يسأل كلُّ إنسان عن عمله، كلُّ إنسان دون استثناء ثمَّ يُحاسب عليه:

(فلنساءلنَّ الذين أُرسل إليهم) يسأل الناس؟

. هل تبلَّغتم الرسالة؟

. بماذا أجبتهم المرسلين؟

(ولنساءلنَّ المرسلين)

. هل بلغت ما أنزل إليكم من ربكم؟

. بماذا أجابكم أقوامكم؟

إن الله سبحانه وتعالى لم يأخذ الموثاق على عباده إلا بما فيه والحق والعدل والخير، ولذا وجب طلب الإقرار.

وميثاق الإقرار في قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ

قَالَ أَفَرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَيَّ دَلِيلَكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ  
مِنَ الشَّاهِدِينَ {858.

ما ذكره الله تعالى في هذه الآية، أن الله تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء  
الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم  
آمنوا به ونصروه، وأخبر أنهم قبلوا ذلك، وحكم تعالى بأن من رجع عن  
ذلك كان من الفاسقين، فهذا هو المقصود، وأنه تعالى أوجب على جميع  
الأنبياء الإيمان بكل رسول جاء مصدقا لما معهم.

أمّا من الجانب اللغوي لمفهوم هذه الآية فنقول:

قوله تعالى: (ميثاق النبيين) فأتى بالمصدر وأضاف إليه النبيين.

ومن المعلوم أن المصدر أقوى في الدلالة من الاسم والفعل، ثم إن  
المصدر يجوز أن يكون مضافه فاعلا أو مفعولا، فإن حُمل المضاف على أنه  
فاعلا، فإن الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين، وإن حُمل على أنه مفعولا،  
فالمعنى أن الله تعالى أخذ الميثاق للنبيين من الناس، ولما قام هذا الدليلان  
فإننا نعتقد أن المعنى بأن الله تعالى:

. أخذ من النبيين ميثاقهم.

. أخذ للنبيين ميثاق الناس.

وعلى هذا يكون المعنى الأول أن الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين في  
أن يصدّق بعضهم بعضا، ويؤمن بعضهم ببعض، ولذا لا يخرج بقية الناس  
في التصديق بالأنبياء وما أتوا من كتاب، وهذا ما ذهبنا إليه في شمول  
المعنيين.

وإن كان قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ) يُشعر بأن أخذ الميثاق هو الله تعالى، والمأخوذ منهم هم النبيون، وليس في الآية ذكر لقوم أو أمة، فلا يحسن صرف الميثاق إلى الناس فنقول: من يذهب هذا المذهب فهو من باب إضافة الميثاق إلى الموثق عليه، وهو من باب إضافة الفعل إلى فاعله، ولا يدخل فيه بقية الناس، فهذا مخالف شرعا وعقلا، لما وردت فيه النصوص النقلية من الكتاب والسنة وهي أكثر من أن تحصى، كقوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ} 859.

فإن كان إضافة الفعل إلى الفاعل أقوى من إضافته إلى المفعول، فإن إضافته إلى المفعول لا تكون أقل من مساوته به. ثم إن المنطق العقلي أسلم له إذا ذهب في إضافته للمفعول من إضافته إلى الفاعل وذلك أن:

. إضافته إلى الفاعل تقتصر على الأنبياء ولا يدخل فيهم أحد.

. إضافته إلى المفعول يُدخل الناس جمعا في الميثاق.

. الأنبياء من الناس.

وعليه: تكون إضافته إلى المفعول أقوى من إضافته إلى الفاعل في هذا الموضوع. ولذا فإن الميثاق قد أخذ من الأنبياء في التبليغ ومن الناس في التلقي.

وعليه فقد وجب على كل أمة جاءها رسول أن تؤمن بالنبي الخاتم لأنها أخبرت به عن طريق نبيها الذي أعطى الله تعالى الميثاق على ذلك، وصدق الله تعالى إذ يقول: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ

وَيُجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {860.

وعلى هذا فإنهم يعلمون أنه النبي الخاتم وذلك أنه:

. يجدونه مكتوبا عندهم.

. في التوراة والإنجيل.

. يأمرهم بالمعروف.

. ينهاهم عن المنكر.

. يحلّ لهم الطيبات.

. يحرم عليهم الخبائث.

. يضع عنهم الإصر والأغلال.

وهذا يعني أن جميع الأنبياء تعلم من هو النبي الخاتم، وأن أقوامهم علمت ذلك من أنبيائهم ومن الرسائل التي جاؤوا بها، فأعلموهم بالميثاق المأخوذ عليهم بالتبليغ والإقرار، ولا ينكر ذلك إلا فاسق.

فكان الإقرار بالنبي الخاتم من الأنبياء، وأخذوا على ذلك إصر الله وعهده، ثم شهدوا وشهد الله على شهادتهم، ثم أخبر بحال من تولى عمّا أمر به المولى عزّ وجلّ بقوله تعالى: {فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} {861.

---

860 - الأعراف 157.

861 - آل عمران 82.

فقد أخذ الله سبحانه وتعالى موثقا عظيما جليلا كان هو شاهده وأشهد عليه رسله. فهو موثق على كل رسول، أنه مهما آتاه من كتاب وحكمة، ثم جاء رسول بعده مصدق لما معه، أن يؤمن به وينصره ويتبع دينه، وجعل هذا عهدا بينه وبين رسله جمعا، نصره منه تعالى ونصرة من أنبيائه للنبي الخاتم.

والآية الكريمة تطوي الأزمنة، وتتجاوز الأمكنة، حتى كأن الخطاب في الزمن الصفر والمكان الصفر، على الرغم من تراخي الزمان وترامي المكان بين الأنبياء المتتابعة، لأن الخطاب يجمعهم في مشهد، في استفهام تقريرى: (قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ). لذلك نرى رسم الصورة في التعبير القرآني تظهر جلال الموقف في الحضرة الإلهية والأنبياء مجتمعون لحظة الخطاب لأخذ الميثاق للنبي الخاتم.

هذا المشهد الجليل، الذي يرسمه التعبير القرآني، وهو يتمثل بحضرة الباري عز وجل، والرسل مجتمعون، دليل على أن الرسالة واحدة من إله واحد غايتها واحدة.

وفي ظل هذه الصورة، يبدو الموقف الذي تتجسد فيه الغاية متصلا متساندا، ومستسلما للتوجيه الإلهي، الذي تتمثل فيه الحقيقة الواحدة التي شاء الله سبحانه وتعالى أن تقوم عليها الحياة البشرية، دون انحراف أو تعارض أو تصادم، لما سنّه الخالق لخلقه.

ويبقى الاصطفاء والاختيار والإخبار من الله تعالى لأنبيائه ورسله، مجسدا حقيقة الرسالة بالنبي الفاتح والنبي الخاتم من أنبياء الله تعالى.

ثم أن هناك قضية مهمة لا نغفل عنها تراود أذهان كثير من الناس، وهي كيف يؤمن السابق باللاحق؟

إن هذه القضية تحمل في ثناياها جوانب كثيرة منها:

## 1 . العلم:

. إن علم الأنبياء هو من علم الله تعالى، وقد أعلمهم الله بما هم أهله من العلم، يبلغون جزءاً منه وهذا هو التكليف.

. وعلم آخر لا يعني بقية البشر في تعلمه وتعليمه والأخذ به، مما اختص الله تعالى إما تعليمه للأنبياء والرسل أو أجره على أيديهم مثل:

اليقين: قال تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} 862.

الاطمئنان: قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 863.

المعجزات: كما قال عيسى ابن مريم: {أَيُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} 864.

## 2 . وحدة الرسالة ومصدرها:

إن الله سبحانه وتعالى عندما أخذ الميثاق من الأنبياء للنبي الخاتم، دلّ بذلك على أن الرسالة واحدة على اختلاف المبلّغين زماناً ومكاناً، وأن رسالة النبي الخاتم لا تختلف في جوهرها وحقيقتها عن رسالة النبي الفاتح وما

---

862 - الحجر 99.

863 - البقرة 260.

864 - آل عمران 49.

انحصر بينهما من أنبياء ورسالات، ولذا أخبر الله تعالى أنبياءه بوجوب الإيمان بما قبل أوامها.

إن الاصطفاء والاختيار من الله تعالى لبعض عباده، في تبليغ رسالته، مناطه أن النبوة خالصة عن الدنيا وما فيها، وخالصة للآخرة، ولذا فإن الله تعالى يختص من المصطفين الفاتح والخاتم ومن يحمل ذرية النبوة، ويختار التسلسل بمشيئته لرسالته؛ ثم يسلمها إلى مختار بعده، ويسلم نفسه معها لأخيه اللاحق به. فما للنبي في نفسه من شيء؛ وما له في هذه المهمة من أرب شخصي، ولا مجد ذاتي، إنما هو عبد مصطفى، ومبلغ مختار.

### 3. التبليغ:

ولما أخذ الله تعالى الميثاق من الأنبياء للنبي الخاتم، وجب عليهم تبليغ الأمم التي بعثوا فيها بهذا الميثاق من الإيمان به وتصديقه ونصره، ومن لم يفعل فقد نقض الميثاق الذي أخذه عليه الله تعالى فخرم بذلك إيمانه، ذلك أن الإيمان بالنبي الخاتم جزء من رسالة الأنبياء الفواتح والتوالي التي جاءت بحقيقة واحدة تدعو إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وبهذا فقد وجب إيمان السابقين بالنبي الخاتم بناء على ما أبلغوا به ممن أخذ منهم الميثاق على الإيمان والتبليغ، قال تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} 865.



وكما أبلغت الأمة الخاتمة بوجوب الإيمان بالأنبياء والرّسالات التي قبلها، فقد وجب إيمان السابقين على النبي الخاتم أن يؤمنوا به بما بيّنه لهم أنبياءهم ورسولهم بما كانوا واثقوا الله عليه.

وفي ظل هذه الحقيقة يبدو الذين يتخلّفون من أهل الكتاب وغيرهم عن الإيمان بالرّسول الخاتم صلّى الله عليه وسلّم، ومناصرته وتأييده، تمسكا بدياناتهم، لا بحقيقتها، فحقيقتها تدعوهم إلى الإيمان به ونصرته، ولكن باسمها تعصبا لأنفسهم في صورة التعصب لها لا بحقيقة الإيمان! مع أنّ رسولهم الذين حملوا إليهم هذه الرّسالات قد قطعوا على أنفسهم عهدا ثقيلًا غليظًا مع ربّهم في مشهد جليل، والذين يتجاهلون حقيقة الإيمان بالنبي الخاتم ونصرته وتصديقه، إنّما يكونون قد نقضوا الميثاق الذي أخذه الله تعالى على الأنبياء الذين بدورهم قد بلّغوا من أرسلوا إليهم بما كانوا واثقوا الله عليه.

#### الدلائل على النبي الخاتم:

إنّ دلائل النبي الخاتم أعظم من أن تحصى، نقلية وعقلية على حدّ سواء، وقد تعددت البشارات في الكتب السابقة لدى أهل الكتاب بخاتم النبيين محمّد صلّى الله عليه وسلّم، حيث بشر الأنبياء السابقون بقدمه، وأمروا أتباعهم بالإيمان به عليه الصّلاة والسّلام وتصديقه إذا ظهر، ولولا ما أصاب هذه الكتب من تحريف وتزييف عن عمد أو غير عمد، لكانت النصوص الدالة على النبي الخاتم عليه الصّلاة والسّلام واضحة وضوح الشمس في وسط النهار.

فإنّ زعم أهل الكتاب أن كتبهم لم تبشر بالنبي الخاتم عليه الصّلاة والسّلام وأنّ النصوص التي يستشهد بها المسلمون غير دالة على ذلك، فالإجابة على هذا الزعم وتفنيده هذه الآراء من البساطة والسهولة في الرّدّ

عليها ودحضها وإثبات نقيضها بما لا يدع مجالاً للزاعمين إلا أن يستسلموا للأدلة وهم صاغرون، ولذا نقول:

إن وجود هذه البشارات أو عدمها لدى أهل الكتاب سواء بسواء، فرسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ليست بحاجة إلى دليل يقام لها من خارجها على أنّها الرسالة الخاتمة، ونبوته الخاتمة صلى الله عليه وسلم، ليست بحاجة أيضاً إلى الدليل الخارجي، بحيث إذا لم يوجد ذلك الدليل الخارجي بطلت الرسالة وبطلت النبوة وبطل الختام!

إنّ رسالة دليلها فيها، ووجود البشارات والأدلة والبراهين عليها عند أهل الكتاب، لا يضيف إليها شيئاً، وعدم وجود تلك الدلائل أو جحودها ونكرانها لا ينقص من الرسالة الخاتمة شيئاً، ولا ينتزع من محمد عليه الصلاة والسلام خاتمة النبوة.

إنّ النبي الخاتم ورسالته حقيقة قائمة بذاتها، لها سلطانها الغني عمّا سواها، ودليلها قائم فيها، خالد خلود الزمان والمكان، باق ما تعاقب الليل والنهار.

ومع هذا لا بدّ من إظهار أدلّتنا لدحض افتراءاتهم، وأول هذه الأدلة هي أدلة نقلية من القرآن الكريم أشارت إلى علم الجاحدين بها في كتبهم، فإن أقروا بذلك فقد ظهر حقنا وزهق باطلهم، وإن لم يقروا، فقد زهق باطلهم وانجلى حقنا. فكيف يكون هذا؟

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ {866}.

والذي حملهم على أن يكفروا بما عرفوا، هو حسدهم لرسول الله عليه الصلّاة والسّلام أن يختاره الله للرسالة الخاتمة التي انتظروها فيهم، ويعرفونها كما يعرفون أبناءهم، وهذا الحقد مخالف لمشية الله أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده. فكان هذا بغيا منهم وظلما، فعادوا من هذا الظلم بغضب من الله، وهذه المواقف مضطردة ومتأصلة في عقلية اليهود وتصرفاتهم ونفسياتهم التي تبدو طبيعة فيهم.

هي طبيعة الأثرة الضيقة التي تسكن نطاق التعصب الشديد؛ وتشعر أن كل خير يصيب سواها كأما هو مقتطع من حقّها، وعليه: فلا تربّطهم بالإنسانية وشيعة، ولا يتمنّون الخير لإنسان؛ فكان نكرانهم نابعا من هذه المعايير، لا كما يدّعون من عدم علمهم بما أعلمهم به الله تعالى.

فالقرآن الكريم مصدّق لما معهم في أمور الرّسالة كلّها، وأولها، ما يتعلق بتكليفهم بتصديق النبي الخاتم في أمر النبوة، وهذا الكتاب مصدّق لما معهم من دلائل النبوة.

فإن كان هذا الكتاب غير مصدّق لما معهم فقد انتفت الوحداية، وهذا محال.

وإن كان مصدّقا لجزء ومخالفا لجزء، فقد تعددت الآلهة، وهذا باطل.

وإن كان مصدّقا لما معهم، وكفروا به فقد بان دليلنا.

والتصديق الذي جاء به الكتاب لما معهم، هو موافقته لكتبتهم فيما يختص بالنبوة وما يدلّ عليها من العلامات والصفات والنعوت.

غير أن جحودهم وكفرهم منبعهما الظنّ القائم على أن النبي الخاتم يكون من بني إسرائيل لكثرة من جاء فيهم من الأنبياء، وكانوا يرغبون الناس في دينه ويدعوهم إليه فلما بعث الله تعالى محمّدا عليه الصلّاة والسّلام وهو

ليس منهم، عظم ذلك عليهم فأظهروا التكذيب وخالفوا ما كانوا يدعون إليه.

ثُمَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الْكِتَابَ الْخَاتِمَ، أَكَّدَ لَهُمْ عَلَى الرَّسُولِ الْخَاتِمِ الَّذِي يَحْمِلُ الرِّسَالَةَ الْخَاتِمَةَ، قَالَ تَعَالَى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} 867.

فهذه الآية تثبت حقائق كثيرة منها:

. حقيقة النبي الخاتم الذي يعرفه أهل الكتاب.

. حقيقة الطباع الفاسدة لمن يعلم الحق ويقول بالباطل.

. نبذ فريق منهم كتاب الله وراء ظهورهم.

. الفريق الآخر أقرّ واعترف بصدق ما جاءه.

فكان هذا مظهرا من مظاهر نقض فريق لكل عهد يعاهدونه؛ فلقد كان ضمن الميثاق الذي أخذه الله عليهم، أن يؤمنوا بكل رسول يبعثه، وأن يصدّقوه وينصروه.

فلما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، نقضوا ميثاقهم وخانوا بعهدهم، فنبد فريق من الذين أوتوا الكتاب، كتاب الله وراء ظهورهم، فاستوى في هذا النبد، كتاب الله الذي معهم، والذي يتضمن البشرى بالنبي الخاتم وقد نبذوه، والكتاب المصدق لما معهم الذي جاء به النبي الخاتم.

فكيف ينبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب، كتاب الله وراء ظهورهم؟

هذا النبذ إنما ينطوي على عدم الارتقاء إلى مستوى الكتاب، ولا يعني ذلك أنّ الله سبحانه وتعالى، أكرم لئيمًا، أو أعطى المعروف والإحسان لغير أهله، وإن كانوا هم في الحقيقة ليسوا أهلا لذلك.

وعلى هذا نقول: أنّ الله سبحانه وتعالى يريد الإيمان والصلاح والخير والهداية للناس جميعًا إلاّ من أبي، وهؤلاء أبوا، فحقّ عليهم القول بما كانوا يبنذون.

ثمّ إنّ نبذهم هذا كان وزره مضاعفاً، فلو كانوا من المشركين ولم يكن لديهم كتاب يُعلمهم بالكتاب الخاتم الذي جاء به النبي الخاتم، لكان نبذهم لكتاب الله وراء ظهورهم مفهوماً! أو التمسنا لهم العذر في ذلك، وإن لم يكن في ذلك عذر لأحد، ولكنهم:

. هم الذين أوتوا الكتاب.

. هم الذين عرفوا الرّسالات والرّسُل.

. هم الذين اتصلوا بالهدى ورأوا النّور.

ثمّ بعد ذلك، هم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم!

فنبذوه وجحدوه وتركوا العمل به، وأبعدوه عن مجال تفكيرهم وحياتهم. فالتعبير القرآني يجسّد الصورة وينقل المعنى الفكري من دائرة الذهن إلى دائرة الحس؛ فيمثّل عملهم بحركة مادية متخيلة، تصور هذا التصرف تصويراً بشعاً شنيعاً، ينضح بالجحود ويتسم بالفظاظة، التي أفضت إلى سوء أدب مع الله تعالى.

ودليلنا على ذلك في أنهم يخفون في صدورهم ما لا يبدونه للحقّ قوله تعالى: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُسْنِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} 868.

فهم يعرفون النبي الخاتم بأوصافه والرّسالة الخاتمة بما أوتوا من الكتاب، وقد ذكر الإمام الرازي: "أن منافقي أهل الكتاب كانوا إذا لقوا أصحاب محمد عليه الصّلاة والسّلام قالوا لهم: آمنا بالذي آمنتم به ونشهد أن صاحبكم صادق وأن قوله حقّ ونجده بنعته وصفته في كتابنا، ثم إذا خلا بعضهم إلى بعض قال الرؤساء لهم: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم في كتابه من نعته وصفته ليحاجوكم به، فإن المخالف إذا اعترف بصحة التوراة واعترف بشهادة التوراة على نبوة محمد عليه الصّلاة والسّلام فلا حجة أقوى من ذلك، فلا جرم كان بعضهم يمنع بعضا من الاعتراف بذلك عند محمد عليه الصّلاة والسّلام وأصحابه" 869

وعود على بدء نقول:

إن صح أن أهل الكتاب، لم يخبرهم كتابهم بأمر النبي الخاتم صلّى الله عليه وسلّم، ولا بأمر الرّسالة الخاتمة سلبيًا أم إيجابيًا، فإن ذلك مطعن في هذه الكتب، وليس طعنا في صدق الكتاب الخاتم الذي جاء به النبي الخاتم، لأنه من يقف على كتب أهل الكتاب يجدها تخبر بأخبار الحوادث الماضية من سفر التكوين في خلق آدم ونزوله إلى الأرض، ونبوة إبراهيم وموقفه من النمرود وغير ذلك، والحوادث القادمة كحادثة نبوخد نصر والإسكندر وأولاد يعقوب ومصر ونيوى وبابل، وهي أقل بكثير من النبأ العظيم، فيبعد كل البعد ألا يُخبر أحد منهم عن خروج النبي الخاتم عليه الصّلاة والسّلام

---

868 - البقرة 76.

869 - تفسير الرازي، ج 2، ص 168.

الذي يبلغ دينه الشرق والغرب ويغلب الأديان، ويبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فكيف يجوز العقل السليم أنهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة ولم يأثم خبر النبأ العظيم.

## 62 . الفائز في الجنة:

الفوز بالجنة مشروط بالقول اللين الذي يُصلح ما بين المرء وزوجه، وبه يعدل بين المحتكمين بالحق، ولا يشهد به شهادة زور، ولا يلوك كذبا بين الشفتين، ولا ينطق كفرا وشركا وبهتاننا ذلك الحق من ربك، وإلى جانب القول الحق، الفعل الحق فلا يسرق ولا يزني ولا يأكل أموال الناس بالباطل، ولا يسفك في الأرض دما بغير حق، ولا يشرب الخمر، ولا يأكل ما حُرِّم، وأن يصلي لله تعالى واحدا أحدا لا شريك له، وأن يكون مؤمنا بمن أرسل وبما أرسل.

ولأنَّ محمدا نبيا ورسولا من الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلّم فهو من المخلدين في الجنة، وكذلك في الجنة يُخلد الصديقون والصالحون والمجاهدون والعاملون فيما ذكرنا جهادا وإصلاحا وإعمارا في الأرض وطاعة تامة لله الواحد القهار في كل ما أمر وما نهى، قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ {870، إذا فوز الرسل والأنبياء والصديقين والشهداء الأبرار، فوزهم فوز عظيم ولذا فهم الخالدون في الجنة.

وعليه فمن يطع الله ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام يُدخله الجنة، أي أنّ الجنة التي كُتبت للأنبياء والرسل كتبت من بعدهم لمن يطيع الله ورسوله الخاتم، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {871،  
وقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا  
خَالِدُونَ} 872.

ولأنَّ محمداً عليه الصلوة والسلام فائز مع الفائزين بالجنة فهو المبشر  
للذين لهم نصيب فيها، والمبشرين بما هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قال  
تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ  
مُتَشَابِهًا وَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 873.

---

871 - النساء 13.

872 - البقرة 82.

873 - البقرة 25.



من

## خصوصيات النبي محمد

### 1 . مؤاوى:

الإيواء هو العناية والرعاية هداية وتوفيقا، ولهذا كان محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام مؤاوى من الله تعالى فلم تلحقه الحاجة، لقد تم إيوائه وحفظه من الهلاك الذي كان ممكنا لولا رعاية الله وإيوائه إليه عنايةً وحفظاً، فكيف له وهو طفل صغير تموت أمه بعد أبيه الذي لم يدركه ويموت جده عبد المطلب الذي تولاه بالرعاية حتى يتولاه الله من يدٍ مُحِبَّةٍ إليه إلى يدٍ أكثر حُبَّةً، قال تعالى: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى} 874، ولهذا كان العرفان من محمد بقوله: بلا، لقد وجدني ربِّي يتيما فأواني فنعم المولى ونعم المأوى ونعم النصير الكريم.

### 2 . مؤيَّد:

التأييد مناصرة تؤدِّي إلى المغالبة، وتحقق النصر للمؤيد، والتأييد قد يكون من الله عزّ وجلّ كما أيد نبيه ورسوله محمداً عليه الصلاة والسلام بجنود لم تُرى مصداقا لقوله تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 875.

---

874 - الضحى 6.

875 - التوبة 40.

وقد يكون التأييد بين البشر على إحقاق الحق وإزهاق الباطل وقد يكون بينهم على الباطل، فالذين أيدوا رسول الله هم الذين ناصروه وآزروه وبايعوه كما فعل المؤمنون الذين بايعوه تحت الشجرة مصداقا لقوله تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَعَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَعَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} 876.

وعليه: بتأييد الله لرسوله كان الرسول الكريم والذين آمنوا معه يعيشون النصر من بعد النصر، ففتح النبي محمد عليه الصلاة والسلام بتأييد الله إليه الأمصار في المشارق والمغرب، وهو باسم ربه يسبح ويحمد ويشكر ويستغفر حتى فاز بتوبة من الله عز وجل مصداقا لقوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} 877.

### 3 . مأمور:

الرسول محمد عليه الصلاة والسلام مأمور باتباع ما أمر به اتباعا، وأول هذه الأوامر هي اتقاء الله في القول والفعل والعمل والسلوك، والآ يطيع المشركين والمنافقين، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ

876 - الفتح 18 - 22.

877 - النصر 1 - 3.

وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ  
كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا {878.

ثم أمره تعالى أن يجاهد الكفار والمنافقين ويغلب عليهم دون تردد،  
فكان خير مُتَّبِعٍ لما أمر به من ربه عزَّ وجلَّ، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ  
جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئسَ  
الْمَصِيرُ {879.

وهكذا كان النبي محمد عليه الصلوة والسلام مأمورا بان يقول لمن في  
أيدي المسلمين اتباعه من أسرى إن الله يعلم السر وما يخفى ولهذا فعليهم أن  
يعلموا بذلك وأن وراء كل من السر والإخفاء سرا، فإن كان في سرهم خيرا  
يؤتيهم رهم خيرا وإن كان غير ذلك فيما في سرهم سيجازون، قال تعالى:  
{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا  
يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ {880.

ولأن النبي محمدا عليه الصلوة والسلام مأمور، فهو الطائع بالمطلق  
للأمر المطلق من الرب المطلق، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن  
كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعِكُنَّ وَأَسْرَحِكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا  
وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ  
أَجْرًا عَظِيمًا يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا  
الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا {881.

---

878 - الأحزاب 1- 3.

879 - التوبة 73.

880 - الأنفال 70.

881 - الأحزاب 28 - 30.

ولأته المأمور بأزواجه فهو المأمور أيضا ببناته ونساء المؤمنين فقال لهنّ ما قاله الله إليه: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدُوا وَقَتَّلُوا تَقْتِيلًا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا } 882.

وهكذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام مأمور بالتبليغ لمن يتعلق الأمر بهم ذكور وإناث، فقال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا وَاللَّائِي يَمْسَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا } 883.

ولأن الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام مأمور باتباع الحق فهو المأمور بالتبشير والشهادة والإنذار والدعاء إلى الله عز وجل، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرْجًا مُنِيرًا

882 - الأحزاب 59 - 62.

883 - الطلاق 1 - 5.

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ هُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ  
أَزْوَاجَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا {884}.

#### 4. مُسْرَى بِهِ:

قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى  
الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ  
الْبَصِيرُ} {885}.

فقوله (سبحان) تنزيه لله تعالى عن أي ظن قد يظنه البعض في إسرائه  
ليلا بالنبي عليه الصلاة والسلام من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى،  
والسياق يوحي بالتنزيه للنبي صلى الله عليه وسلم، وفي هذا القول الكريم  
تنزيه للرسول من أي قول لا يرتضيه الله تعالى، فقوله (سبحان) تعظيم  
لمعجزة الإسراء ليلا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ولهذا فقوله (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى  
الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) تعود على الله القادر على كل شيء فسبحان الله القادر  
على كل شيء، والذي منه إسرائه بعبده محمد رسول الله من المسجد الحرام  
إلى المسجد الأقصى، وكان الغرض من أسرار الإسراء، أن يُري الله محمدا ما  
أراه من آيات عظام من آياته المطلقة.

وقوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} فهو السميع لدعاء محمد  
وأمنيته التي من بينها ما قد يكون تحقق بالإسراء به ليلا، ولأن الله هو  
البصير فقد مكن محمد من الرؤية ليلا للآيات العظام وهي الأمر الأصعب  
عند الناس إذا ما قورنت من قبلهم بالرؤية النهارية.

وعليه لا استغراب في إسرائ محمد ليلا، فالذي أسرى به ليلا هو الذي رفع عيسى إليه، وهو الذي أهبط والدينا من السماء إلى الأرض التي نحن من بعده شواهد إثبات على هبوط أبونا من السماء عليها، والذي أسرى بعده ليلا أعاده إلى المسجد الحرام الذي أسرى به منه، أمّا الذي تم رفعه إلى السماء (عيسى) فلم يعد بعد.

بناء على ما تقدم نستوضح معجزات ثلاث:

أ . معجزة أبونا آدم: في السماء علّمه الله تعالى الأسماء وفضله على الملائكة والجن، وفي الأرض كان هبوطه عليها آية ومعجزة استخلافية.

ب . من معجزات نبي الله ورسوله عيسى التي أيده الله بها: الإنجيل، ثم رفعه الله تعالى إلى السماء عند ربّه.

ج . معجزة نبي الله ورسوله محمد: القرآن، وأنه الخاتم، وللناس كافة، ثم الإسرائ به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ذهابا وإيابا.

هذه معجزات أراد الله تعالى إظهارها لعباده، لتكون دلائل على قدرة الله تعالى في عقول الناس وأفئدتهم، بحيث يبيّن لهم عجزهم أمام المعجزات، ويدلّل بحيث يؤيد بسلطانه من يشاء من عباده، فإن نفذوا من أقطار السماوات أو الأرض، فإن نفوذهم لا يكون إلا بسلطان هيأه الله لأحد من عباده.

ولهذا أرى الله عزّ وجلّ محمدا ما أراه في إسرائه من الآيات العظيمة، مصداقا لقوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} 886. فقله تعالى: (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) يدل على أنه لقد

أرى نبيّه محمّداً من الآيات العظيمة ما أراه سمعاً وبصراً دون أن يكون الليل حجاباً بين محمّد وبين آيات الله التي مكّنه الله من رؤيتها والاستماع إليها أو سمع أصواتها والتعرّف عليها.

وعليه يُعدّ الإسراء والمعراج من الحوادث المهمة التي شهدتها دعوة رسول الله محمّد صلّى الله عليه وسلّم، إذ دخلت سلّم التشكيل الدعوي فطرحت أمراً مغايراً لم يطرحه باقي الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، فكان مدعاة للتساؤل على مختلف الأصعدة ومختلف العقول التي تتحرى عن هذا الأمر ضمن تساؤلات عدة منها ما يرتقي إلى هذه الحادثة، ومنها من ينزل إلى درجة الانحدار الكلي فلا يجد له أي تبريراً سوى انه تساؤلاً مفتعل ليس إلا، وربّ سائل يسأل:

. ألم يكلم الله موسى؟

. ألا يدل التكليم على خرق سنن البشر؟

. ألا يدخل التكليم حقّ الإسراء والمعراج؟

إن هذا التساؤل لا تمنح أن تكون هناك مقابلة بين دعوة موسى ومحمّد عيهما الصّلاة والسّلام، فالدعوتان متباينتان من حيث الأمر الذي نحيل إليه، ذلك أن تكليم موسى عليه الصّلاة والسّلام كان خاصاً به فلم يكن ضمن طروحات الدعوة التبليغية أو حتى كشفه لفرعون وغيره من المقصودين من دعوته، فالأمر كان متعلقاً به ضمن طرق التبليغ التي بينها الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ {887، أما

الإسراء والمعراج فقد مثل نقطة واضحة في مسيرة دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فقد تمثل فيها جانبان:

الجانب الأول: أنها أمر خارق دخل مجال التبليغ، فالإسراء إلى المسجد الأقصى ومن ثم العروج إلى السماء يعد أمرا خارقا لتقبل الفكر البشري وذلك ضمن الاستدراك الذي يتحقق له عند سماع مثل هذا الأمر.

الجانب الثاني: فرضت فيها الصلاة، فكل العبادات فرضت على الأرض إلا الصلاة من حيث العدد والكيفية والأداء، فالقرآن الكريم يقدمها في سياقه على بقية الفروض، إذ يقول تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} 888، وقوله تعالى: {قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ} 889.

فالإسراء: هو المشي في الليل، سَرَى أي مشى في الليل، وأسرى أي مشى ليلا.

والمعراج: فهو مفعال من العروج، وهو اسمٌ للآلة التي عليها عُرجَ به؟ والإسراء: هو الانتقال ليلا من مكة إلى بيت المقدس، وكان العروج إلى السماء على سُلَّمٍ خاص وهو المعراج.

فإذا الإسراء اسم للفعل، والمعراج اسم للوسيلة التي عليها سار إلى السماء.

وإذا كان كذلك، فالإسراء وهو الانتقال ما بين مكة إلى بيت المقدس ليلا في ساعات معدودة ثم الرجوع.

---

888 - البقرة 43.

889 - إبراهيم 31.



ونحن نقول أن رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام لم يكن ماشيا ليلا، ولكن مسرا به بكيفية أرادها الله تعالى أن تكون معجزة له.

قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} {890، هذه الآية الكريمة من الآيات التي أدخلت الموضوع حقل التساؤلات المتعددة ففيها:

. طرق لأبواب الغيب بسمة واضحة.

. التبليغ عن فروض الله تعالى بطريقة تدعو إلى الاعتاض والتدبر.

فضلا عن ذلك أن سياق الآية فيه ما يحيل إلى أن ما فيها هو أمر خاص، ذلك أن الآية الكريمة اشتملت على أمور عدة منها أن الله تعالى عظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه غيره، فقد أسرى بعبده محمد عليه الصلاة والسلام ليلا من (المسجد الحرام) إلى بيت المقدس (المسجد الأقصى)، وهو المسجد الذي بارك الله ما حوله، من زروع وثمار ونبات ليبري عبده محمداً، من آياته العظام، ما فيه الدليل القاطع على واحديته، وعظيم قدرته، وهو السميع لأقوال العباد، البصير بأحوالهم.

اختلف المفسرون حول ما إذا كان الإسراء قد تم ببدنه صلى الله عليه وسلم، أو بروحه فقط. وأكثر الفقهاء متفقون على أنه أسري به ببدنه وروحه، يقظة لا مناما. ولما حدث الرسول قريشا بإسرائه استغربوا ذلك كثيرا، وأخذوا يسألونه عن صفات بيت المقدس، فأخذ يصفه لهم، فقالوا:

أمّا النعت فصحيح.

ويستدلون على أنه أسري به ببدنه أنّ الله تعالى بدأ السورة بقوله: (سبحان الذي أسرى بعبده)؛ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان الأمر لم يتعد المنام لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظما، ولما ارتدت جماعة من المسلمين عن الإسلام، ولما بادرت قريش إلى تكذيبه، ثم إنّ عبارة (عبده) تدل على مجموع الروح والجسد، وتدل على تهيؤ النبي عليه الصلّاة والسّلام جسدا وروحا بما يمكنه من اختراق المكان والزمان. وقال تعالى في آية أخرى عن هذا الإسراء: (ما زاغ البصر وما طغى) والبصر من آلات الذات لا الروح.

ومن آمن بقدرته تعالى التي لا حدود لها، لا يستعظم أن يسري الله برسوله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بجسده، لأن الإسراء بالنبي بجسده هو أمام قدرة الله في مثل السهولة التي يسرى به بروحه، ولذلك فلا يستغرب مؤمن بالله وقوع هذا الحادث.

وقد جاء في كتب بني إسرائيل نبوءتان لنبيين من أنبيائهم تشير أولاهما إلى أنّ سيد الرّسل أو رسول الله سيزور بيت المقدس (الهيكل) فجأة. وتقول الأخرى إنّ سيعرج به إلى السّماء ليمثل في حضرة الرّب العظيم ليمنحه المجد والسلطان لإبادة الشرك من الأرض. ولم يدع أحد قبل محمّد عليه الصلّاة والسّلام هذا الشرف العظيم، فوجب أن يكون محمّد هو المقصود بالنبوءتين 891.

هذه الآية الكريمة لو تدخل مقاربات أهل مكة فإنها تخرج من سياق الحياة المتعارف عليه، ذلك أن أية مقاربة لهذا الأمر لا تعدو كونها ضربا من ضروب الفشل، ذلك وعدم الإيمان بالله ورسوله عليه الصلّاة والسّلام لا يدخل مثل هذه الأمور جانب التحقّق الممكن، فأهل مكة عند سفرهم إلى

---

891 - أيسر التفاسير لأسعد حامد، ج 1، ص 2030.

المسجد الأقصى يحتاجون إلى أيام طوال من أجل الوصول، وهذا بطبيعة الحال خاضع لمقاييس الزمن، فالفعل ضمن سياق الحياة الأرضية بقوانينها المختلفة، أمّا حادثة الإسراء فهي لا تخضع لقانون البشر في كل المقاييس، ذلك أنها أمر لا يمكن تحقّقه بأية معيارية، ولهذا كان تقبل الأمر من قبل الناس جميعاً بشكل متفاوت، فالمؤمنون لا ينكرون أي شيء يقوله الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، أما المشركون فهم بطبيعة الحال ينكرون هذا الأمر إذ ما أدخلوه ضمن مقاييس الزمن والتحقيق.

إن الاختلاف الحاصل بين العلماء هو هل كان الإسراء يجسد النبي عليه الصلاة والسلام وروحه أم كان بروحه خاصة؟

وإنّ الحديث عن الإسراء يجب ألا يخرج عن حيز الزمن الذي حدث فيه، فلا بدّ من أمر القبول والرفض ضمن آليات البحث المعرفي، فالقبول والرفض وان كان متعلقاً بالأمور العقديّة إلا انه يدخل باب تقبل الأمر ضمن آلية التفكير البشري، فهو موجه إلى النّاس كافة وعلى مختلف الدرجات المعرفية والإدراكية للمتلقين بوصفهم المستهدفين، هذا الاستهداف هو صلب الدعوة لما يحمله من تليغات متعددة يكون على أساسها قيام الدعوة ومن ثم تتحقّق فيه التبعات المختلفة دنيويًا وأخروياً، إذ يقول تعالى:

﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِّلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا

أُوتُوا وَيُؤْتَرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {892}.

فالجمهور يرى الإسراء: أنه بجسد النبي عليه الصلّاة والسّلام وروحه، وآخرون: كان بروحه خاصة وكانت رؤيا نوم حقّ، فحجّة الجمهور؛ أنه لو كان مناما لم تنكره قريش، ولم يكن في ذلك ما يكذب به الكفار، ألا ترى قول أم هانئ له: لا تخبر بذلك فيكذبك قومك، وحجّة من قال: أن الإسراء كان مناما قوله تعالى: (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك)، وإنما يقال الرؤيا في المنام، ويقال فيما يرى بالعين رؤية، وفي الحديث أنه عليه الصلّاة والسّلام قال: بينما أنا بين النائم واليقظان وذكر الإسراء، وقال في آخر الحديث: فاستيقظت وأنا في المسجد الحرام، وجمع بعض النّاس بين الأدلة فقال: الإسراء كان مرتين: أحدهما بالجسد والآخر بالروح، وأن الإسراء بالجسد كان من مكة إلى بيت المقدس، وهو الذي أنكرته قريش، وأن الإسراء بالروح كان إلى السموات السبع، ليلة فرضت الصلوات الخمس، ولقي الأنبياء في السموات (الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) صفة للمسجد الأقصى، والبركة حوله بوجهين:

أحدهما: ما كان فيه وفي نواحيه من الأنبياء.

والآخر: كثرة ما فيه من الزروع والأشجار التي خص الله بها الشام (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا) أي لنري محمّدا عليه الصلّاة والسّلام تلك الليلة من العجائب، فإنه رأى السموات والجنّة والنّار وسدرة المنتهى والملائكة والأنبياء، وكلمه الله تعالى حسبما ورد في أحاديث الإسراء، وهي في مصنفات الحديث 893.

---

892 - الحشر 7.9.

893 - تفسير ابن جزّي، ج 1، ص 877.

هذا هو مجمل الخلاف الذي حصل بين الأمة في أمر الإسراء،  
فالتفصيل الذي ذهبوا إليه ضمن جعل الإسراء على مرحلتين:

المرحلة الأولى: بالجسد والروح من المسجد الحرام إلى المسجد  
الأقصى.

المرحلة الثانية: بالروح من المسجد الأقصى إلى السماء.

ونحن نرى أنّ الإسراء كان إسراء تاما لعبده بما خصه من الاطلاع  
على آياته.

يجعل أمر الإسراء كامن في الطريقة التي تحقّق فيها، وهذا يخرج الإسراء  
من الحقيقية التي أرادها الله تعالى، وبطبيعة الحال هذا لا يمنع من كون  
الإسراء أمر خارق للعادة فطرحة على قوم:

. يتشبثون بالماضي.

. يفتعلون الأكاذيب.

. يلتمسون الخطأ في كل صغيرة وكبيرة.

. لا يخرج إدراكهم عما حولهم.

. ينكرون أي أمر يخالف معتقدتهم.

. يترّبصون بالرّسول عليه الصّلاة والسّلام الدوائر.

هذا الوصف يدخل الإسراء في دائرة محايدة لكل الأفعال التي تصدر،  
فحياة المشركين آنذاك تبحث لها موطن يتجدّر فيه:

. الصدّ.

. المنع.

. التّكذيب .

فكان الإسراء احد هذه المواطن التي استند عليها المشركون في محاولة تفتيت المركز وجعل الأمور تسير كما كانت قبل البعثة النبوية، والاستناد لا نعني به التمثل والاستجابة لما يقوله الرسول عليه الصّلاة والسّلام بل هو تحويل ما يقوله عليه الصّلاة والسّلام إلى كلام يُحارب به صلّى الله عليه وسلّم، وهذا ما وجدناه متجدرا في حادثة الإسراء، فعندما أبلغهم الرسول عليه الصّلاة والسّلام بما رآه في الإسراء نجدهم قد ادخلوه في سياق الدفاع عن معتقداتهم، إذ ذهبوا إلى تحليله وفق مدركاتهم البشرية الضيقة دون إحالته إلى الخالق، وهذا يُدخل الجميع مجال الامتحان:

. كيف يتقبل المسلمون هذا الأمر؟

. كيف يرفض المشركون هذا الأمر؟

ولذا فالطرح هنا ينقصه التدبُّر والتعقُّل، فالقبول والرفض لا بدّ أن يبني على إيمان حقيقي كي يتحقّق أحدهما، فالمسلمون تقبلوا هذا الأمر وفق معطيات الدعوة وصاحب الدعوة، ذلك أن الإسراء حمل معه أمورا غيبية تستعرض الرّسالة السماوية في:

. كيفيتها .

. أصولها .

. قواعدها .

. ماهيتها .

. مداراتها .

. شمائلها .

. ميزانها.

. عاقبتها.

أما المشركون فإنهم يدورون حول الدعوة وصاحبها عليه الصلاة والسلام كي يحاولوا أن:

. يفتتوا الدعوة.

. سلب هيبة الدعوة.

. إفراغها من غيبتها.

. تسليمها للواقعية وفقا لمقاييسهم.

. عزلها عن محيطها الإيماني.

إنّ العهد المكي كان حافلا بالآيات القرآنية المتنوعة التي تطرح الفكر الغيبي وتجعله البداية القولية للدعوة، وهذا لا يجعل الإسراء ضمن إطار واحد خاص دون الآيات التي صورت الآخرة في صور تبعث على الخوف والرهبة لكنها في الوقت نفسه صور غيبية غير متحققة الحصول ضمن الواقع الإنساني، إذ يقول تعالى: { إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ فَلَا أُفْسِمُ بِالْجُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي فَوْةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى الْعَيْبِ بِضَنِينٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذَهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ  
الْعَالَمِينَ { 894

هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج في كل مقطع منهما تقرير  
حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة:

الأولى حقيقة القيامة، وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل كامل،  
يشمل الشمس والنجوم والجبال والبحار، والأرض والسماء، والأنعام  
والوحوش، كما يشمل بني الإنسان.

والثانية حقيقة الوحي، وما يتعلق بها من صفة الملك الذي يحمله،  
وصفة النبي الذي يتلقاه، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي معه، ومع  
المشيئة الكبرى التي فطرتهم ونزلت لهم الوحي.

هذه السورة الكريمة قائمة على أمور غيبية غير متحققة دنيويا وان  
كانت أدواتها من الدنيا إلا أن سمة التحقق غير موجودة إلا في الإخبار  
الغيبية الذي أخبر به القرآن الكريم، فهذا الوصف المرعب الذي ينزل  
القلوب لا يمكن إلا أن يترك أثرا في النفس الإنسانية التي تتفاعل مع الحشد  
البلاغي والإعجازي للصور المتداعية، ولو أدخلنا هذه السورة المكية بمقارئة  
مع حادثة الإسراء والمعراج فهل يمكن أن يتحقق فيها:

. الاستغراب.

. الرفض.

. وضع اليد على الرأس.

. الانبهار.



في اعتقادنا سيحدث ما حدث عند سماع المشركين لحادثة الإسراء،  
فهذا الدوي من الانفعالات والمغالطات يحدث في كل حادثة، وفي كل أمر  
يدعو إلى:

. التأمل.

. الإدراك.

. إعادة الإنتاج.

عليه يمكن القول إنّ القرآن الكريم في كل آياته يعرض قضاياها بطريقة  
فنية تستند على التصور الفني، فالتصوير الفني لا يغيّر من طبيعة المعنى في  
ذاته، فالمعنى باق كما هو ولكن التغيير يحصل في طريقة عرضه وكيفية  
تقديمه. والتصوير الفني يفرض علينا نوعاً من الانتباه للمعنى الذي يعرضه  
وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى ونتأثر به، ويمكن القول أن  
التصوير الفني هو إقناع المتلقي، ففيه ظاهرة الإبانة والتوضيح، ويعتمد على  
لون من الحجاج والجدل ويحرص على إثارة الانفعالات في النفوس على  
النحو الذي يؤثر في المتلقي ويستميله إلى القيم الدينية السامية التي يعبر  
عنها القرآن الكريم، ذلك أن القرآن الكريم في خطاب الجاهليين تهيؤاً  
وترغيباً، فيلجأ إلى طريقة خاصة تعتمد على المبالغة في الوصف اعتماداً  
ملحوظاً، وأصبح قوله تعالى: { سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ } 895، من قبيل  
الاستعارة التي تهدف إلى المبالغة.

إنّ تعدد الآراء في الوقوف على أمر الإسراء بالقول:

. كان بالجسد والروح.

. كان بالروح فقط.

ولكن ينبغي أن يعلم الفرق بين أن يقال:

. كان الإسراء مناما.

. وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده وبينهما فرق عظيم.

فالإسراء ما كان مناما قطعاً لأنه لو كان مناما لما كذّبه المشركون فإن من الناس من يرى أنه صعد إلى السماء أو قطع مسافات شاسعة لا يتصورها العقل، وليس المنام معجزة خارقة للعادة، والروح في المنام لا تفارق الجسم، كذلك لو كان الإسراء مناما لصرح به رسول الله عليه الصلاة والسلام 896.

أما الكلام عن لفظ الرؤية الوارد في النص القرآني الذي يحمل النص على أن يكون الإسراء والمعراج بالجسد والروح فهو باب كبير يمكن الأخذ منه وجعل الرؤية العينية هي المتحققّة في الإسراء فلا بدّيل لها إلا أن تكون عينية في قوله تعالى: (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) وقوله {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} 897. وما زعمه بعض أهل العلم من أن الرؤيا لا تطلق بهذا اللفظ لغة إلا على رؤيا المنام، مردود. بل التحقيق: أن لفظ الرؤيا يطلق في لغة العرب على رؤية العين يقظة أيضاً؛ ومنه قول أبي الطيب: ورؤياك أحلى في العيون من الغمض.

وعليه نقول:

أن الرؤية التي كانت يقينا عينيا مصداقا لقوله تعالى: وزعم بعض أهل العلم: أن المراد بالرؤيا في قوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً

---

896 - سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، محمد رشيد رضا، ج 1، ص 171.

897 - النجم 17 - 18.

لِلنَّاسِ) ولهذا لقد صدق الله رسوله الرؤيا مصداقا لقوله تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ  
اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ} 898.

ولذا فنحن نقول أي كلام افتراضي يخرج الإسراء من القيمة الإيمانية  
التي أرادها الله تعالى أن تكون للمسلمين آية، أما الصلاة في بيت المقدس  
وعدمها لا علاقة لها بالتشريع الذي سنه الله تعالى للناس جميعا، فبيت  
المقدس كما نعتقد لا يدخل حالة التغييب في سياق دعوة رسول الله محمد  
عليه الصلاة والسلام فقد كان ولم يزل احد المرتكزات الدينية التي تدول  
حولها القضايا المهمة والرئيسة وان لم يكن قبلة للمسلمين، فبوصفه أحد  
أركان الإسراء يعطي للمسلمين مكانته التي يريدتها الله تبارك وتعالى، فقد  
كان في كثير من الأحيان مركزا من مراكز دعوات الأنبياء صلّى الله عليهم  
وسلم، وهذا أيضا يمنح دعوة النبي محمد عليه الصلاة والسلام بعدا أعمق في  
كونها امتدادا للنسق الدعوي الذي أراده الله تعالى، فلا انقطاع بل تواصل،  
إذ يقول تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي  
وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي  
إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ  
مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ} 899.

وأما المعراج فنقول:

إنَّ أمر المعراج لا يخضع إلى المستوى العقلي أيا كان فهو خارق للعادة  
غير مرتبط بأي علم من العلوم أو حتى بأي شكل من أشكال المعرفة التي  
يمكن أن تتحقّق في ذلك الوقت.

---

898 - الفتح 27.

899 - يوسف 108، 109.

عليه يكون المعراج أمرا خارقا للعادة، فيه عرض لعظمة الله تعالى وقدرته. ذلك أن طرح أمر المعراج يخلق حالة من التصدي الفكري للأمر من قبل المشركين، فقبوله ورفضه هو ميدان الدعوة، فدعوات الرّسول صلّى الله عليهم وسلّم جميعا اتسم ميدانها بوجود طرفي نقيض كل واحد يبغى:

. الانتصار.

. الإفحام.

. الدفاع.

. الإبطال.

. الاستظهار.

هذا الميدان يسلب من الدعوة شيء بل يعطيها دافعا وحافزا جديدا، فهو يللم أطراف الحديث، ويدفعه في ناحية جديدة يكون من خلالها الوصول إلى الحقيقة المبتغاة، إنّ سماع أمر المعراج يشكّل حالة من التيه الفكري للمشركين ذلك أن الانغماس في الشرك يجعل الأمور كلها تجري وفق سياق المادة، فتهشيم الأصنام الشاخصة أمامهم لا يكفي، بل يحتاج إلى عملية تنوير تكفل لهم إيمانا جديدا وقراءة جديدة لكل ما يُسمع عن دعوة النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم، فدعوته عليه الصلّاة والسّلام طرحت أمورا غيبية يكون من خلالها الإخبار عن:

. ما كان.

. ما سيكون.

فضلا عن ذلك بيان:

. عظمة الله تعالى.

. دلائل قدرته.

هذه الصورة الغيبية رافقت الدعوة الإسلامية ومنحتها بعدا عميقا وتصورا بعيدا يجعل أفقها لا يدرك حدوده للناظر، والتأمل فيها يضيف على العبادة حلاوة وطمأنينة وسكينة.

إن دعوة الله تعالى على يد رسوله الكريم محمد عليه الصلاة والسلام فيها طرح بعيد، فلم تكن دعوة ظرفية مثل دعوة شعيب ولوط عليهما الصلاة والسلام، بل هي دعوة لكل زمان ومكان، يقول الرسول الكريم عن القرآن الكريم: "كتاب الله فيه خير ما قبلكم ونبا ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل هو الذي لا تزيع به الأهواء ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة رد ولا تنقضي عجائبه" 900.

والتساؤلات التي يمكن أن نطرحها عن الغيب منها:

. ما علاقة الغيب بالعبادة؟

. ألا يكون الغيب حافزا للعبادة؟

. ألا يكون الغيب جزءا من العبادة؟

. ألا يكون الغيب مدخلا للإيمان؟

. ألا يكون الغيب بابا من أبواب التفكر؟

. ألا يكون أمر الغيب مؤديا إلى التسليم بالوحدانية؟

إن الله هو علام الغيوب فلا يعلم أحد الغيب، بل الله الواحد الأحد هو العالم بغيب السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن وما بينهما، قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا

---

900 - المصنف في الأحاديث والآثار، ج 6، ص 125.

تَسْفُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ  
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ {901.

وقال تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ  
وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} {902.

وقال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى  
مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا  
رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} {903.

وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي  
الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ عَدًّا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ  
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} {904، فدللت هذه الآيات أن علم الغيب مختص بالله  
عز وجل، وهو ما سيكون في الأرض أو في السماء دون أن يكون علمه  
عند أحد سواه.

## 5. مُتَابِ عَلَيْهِ:

التوبة رضا، وتاب رضي، والرضا لا يكون إلا بأسباب الاعتراف  
بالحق والتقدير لمن اعترف به، والمرضي عليه هو من نال عظيم الأجر وعظيم  
الحسنات، قال تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ  
اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ  
إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} {905.

---

901 - الأنعام 59.

902 - النمل 65.

903 - الجن 26 - 28.

904 - لقمان 34.

905 - التوبة 117.

يفهم من هذه الآية الكريمة أن الله عزّ وجلّ لقد تاب على الرسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام وتاب على الذين اتبعوه ساعة الشدة (المهاجرين والأنصار) أي لقد نال الرسول والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه ساعة العسرة نالوا رضا الله، بمعنى بأسباب تحمّلهم المتاعب والأعباء الجسيمة والشاقة في سبيل الحقّ نالوا رضا الله تعالى، وهذه مجازاة عظيمة لرسوله محمّد والذين اتبعوه ساعة العسرة (أيام الشدة في سبيل اتباع الحقّ وإحقاقه).

وعليه ينبغي أن نفرّق بين ثلاثة أمور للتوبة:

الأمر الأوّل: عندما تكون التوبة من الله عزّ وجلّ، أي (عندما يتوب الله على من يشاء من عباده) مصداقا لقوله تعالى: (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ). في هذه الآية الكريمة الله تعالى هو الذي تاب على نبيه والمهاجرين والأنصار، وهذه توبة مجازاة لهم على ما تحمّلوه من متاعب ومصاعب شديدة في سبيل الدعوة لله تعالى، ولم تكن توبة على جرم مقترف، فذلك يدل على شيء آخر نُبيّنه في الأمر الثاني.

الأمر الثاني: توبة العبد إلى الله تعالى من ذنبٍ يعرف العبد أنه قد اقترفه، قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} 906 ولهذا عندما يستجيب العبد إلى أمر الله يتوب إليه (يعود إليه طائعا) قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} 907، فقوله (توبوا إلى الله) تعني: توبوا عن ذنوب قد اقترفتموها،

906 - الشورى 30.

907 - التحريم 8.

ولذلك عندما يدرك العبد أن الله هو الغفار التَّوَّاب يستغفره ويعود إليه حاملاً  
تزول الغفلة عن عقله، إي حاملاً يصح من غفلته. قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ  
مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 908.

الأمر الثالث: عندما تكون توبة الله على عبده مترتبة على توبة العبد  
إليه، أي لا توبة من الله على العبد إلا بعد توبة العبد من ذنبه إلى الله، وهنا  
يكون رضا الله لاحقاً بالقبول (التوبة مترتبة على توبة) ولم يكن سابقاً كما  
هو حال إثابته تعالى على رسوله والذين كانوا معه ساعة العسرة، قال تعالى:  
{فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ  
رَحِيمٌ} 909.

وعليه نقول ثلاثة فروق في مفاهيم التوبة من حيث:

أ. التوبة على: هي توبة الخالق على المخلوق كتوبته على سيدنا محمد  
والذين كانوا معه ساعة العسرة، وهي توبة عن غير ذنب يُقترف، بل هي  
توبة (مجازة) على مجاهدة أمام كل الصعاب التي واجهتهم في سبيل الحق  
واتباعه سواء أكانت هذه المتاعب والمشاق والعسرة مادية أم كانت نفسية أم  
اجتماعية من المحيط أو بعض الخلطاء مصداقاً لقوله تعالى: (مَنْ بَعْدَ مَا كَادَ  
يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ).

ب. التوبة من: هي التوبة التي بها يتدبر العبد أمره فيستغفر ويتوب  
إلى بارئه (يعود إلى الله)، وبعودته إليه عسى أن يكون من المفلحين مصداقاً  
لقوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ  
الْمُفْلِحِينَ} 910.

---

908 - الأنعام 54.

909 - المائدة 39.

910 - القصص 67.



ج . التوبة إلى : التوبة إلى ، مترتبة على التوبة من ، أي التوبة من الذنب  
عودة إلى الله عز وجل ، قال تعالى : { وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى  
اللَّهِ مَتَابًا } 911 .

والتَّوَابَ يتوب على عبده بفضله ، ومن فضله أنه يقبل التوبة ويتبعها  
بالعفو العام المطلق حتى لا يكون للذنب السابق أثر على اللاحق ، قال  
تعالى : { وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا  
تَفْعَلُونَ } 912 .

والتَّوَابَ هو الذي يرجع إليه تيسير أسباب التوبة وهو التَّوَابُ الرَّحِيمُ ،  
قال تعالى : { وَأَنَا التَّوَابُ الرَّحِيمُ } 913 ، يقول : وأنا الذي أرجع بقلوب  
عبيدي المنصرفة عني إلي ، والرائدُها بعد إدارها عن طاعتي إلى طلب محبتي ،  
والتَّوَابُ بِالْمَقْبَلِينَ بعد إقبالهم إلي ، أتغمدهم مني بعفو ، وأصفح عن عظيم ما  
كانوا قد اجترموا فيما بيني وبينهم ، بفضل رحمتي لهم ؛ فَيَسِّرَ لِمَنْ يَشَاءُ  
أَسْبَابَ التَّوْبَةِ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ ، { لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ  
أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ } وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ  
يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } 914 ، فالتَّوَابُ هو الذي يهب  
التوبة لمن يشاء من عباده ويمنع من يشاء ، فهو الوهاب الذي يوفق من  
أحب من عباده لفعل ما يرضاه من أعمال ويسهل له القيام بها فيجعلها من  
أسباب قبول توبته .

والإِنَابَةُ إلى الله تعالى هي أساس التوبة ومعناها الرجوع إلى الله الذي  
يهدي من أناب أمره إلى التَّوَابِ : { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ

---

911 - الفرقان 71 .

912 - الشورى 25 .

913 - البقرة 160 .

914 - آل عمران 128-129 .

مِنْ رَبِّهِ قُلْنَ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ {915، والإِنَابَةُ،  
تَأْتِي بَعْدَ ذَنْبٍ يَتُوبُ مِنْهُ الْعَبْدُ خَوْفًا مِنْ رَبِّهِ وَطَاعَةً لَهُ بَعْدَ تَدْبِيرٍ.

والتَّوَابُ هُوَ الْمَتَفَرِّدُ بِقَبُولِ تَوْبَةِ التَّائِبِينَ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَا يَشْرِكُهُ فِي ذَلِكَ  
أَحَدٌ، قَالَ تَعَالَى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} {916. وَفِي  
الآيَةِ إِشَارَةٌ وَاضِحَةٌ إِلَى تَفْرُدِهِ سُبْحَانَهُ بِفِعْلِ التَّوْبَةِ وَذَلِكَ وَاضِحٌ فِي تَأْكِيدِ  
الاسْمِ الظَّاهِرِ (اللَّهُ) بِالضَّمِيرِ الظَّاهِرِ (هُوَ) مِمَّا يَدُلُّ وَلَا شَكَّ عَلَى قُدْرَتِهِ  
عَلَى الْقِيَامِ بِالتَّوْبَةِ وَغَيْرِهَا.

التَّوَابُ مُتَّصِلٌ بِالتَّوْبَةِ، أَيُّ مَثُوبَتِهِ لَا تَنْقَطِعُ أَبَدًا، وَالتَّوَابُ اسْتِجَابَةٌ  
لِفِعْلِ خَيْرٍ، وَطَلَبُ صَادِقٍ، وَنِيَّةٌ طَيِّبَةٌ، وَتَحْمُلٌ فِي سَبِيلِ إِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِزْهَاقِ  
الْبَاطِلِ.

والتَّوَابُ إِذْ يَتُوبُ عَلَى الْعَبْدِ إِنَّمَا يَنْقُذُهُ مِنَ الْمَعَاصِي: {إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ  
الرَّحِيمُ} {917 يَعْنِي: الرَّاجِعُ لِمَنْ أَنْابَ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ إِلَى مَا يَجِبُ مِنَ الْعَفْوِ  
عَنْهُ، وَجَاءَ بِالرَّحِيمِ بَعْدَ ذَلِكَ لِلإِشَارَةِ إِلَى الرَّحْمَةِ الْمُنْجِيَةِ مِنَ الْعَذَابِ،  
والتَّوَابُ هُوَ الْمُنْجِي مِنَ عَاقِبَةِ السُّوءِ الَّتِي تَلْحَقُ بِالمُصْرِبِينَ عَلَى السُّيْئَةِ وَذَلِكَ  
بِالتَّوْبَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْعَذَابِ، وَهَذَا فَرْحَةٌ التَّوَابِ أَوْسَعُ مِنْ حَصْرِ التَّوْبَةِ  
بِالْعَمَلِ، فَجَعَلَ مِنْ كَرَمِهِ عَلَى عِبَادِهِ الِاسْتِغْفَارَ يَقَابِلُ الْعَمَلَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى  
التَّوْفِيقِ لِلتَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ  
يَجِدِ اللَّهَ عَفُورًا رَحِيمًا} {918.

---

915 - الرعد 27.

916 - التوبة 104.

917 - البقرة 54.

918 - النساء 11.

وعليه لقد تاب الله تعالى على رسوله الكريم محمد صلى الله عليه  
والسلام بالنبوة والرسالة وما تحمّله في سببها من عناء وما تعرض له من  
شدائد ومكائد وابتلاءات، فأنجاه من كل همٍّ وغمٍّ وابتلاء، وجعله ومن اتبعه  
هم الوارثين.

## 6. مُغْنِي:

المغني هو الذي كان إغنائه من المغني الذي بيده كل أمر حيث إذا  
أراد شيئاً يقول له كن فيكون، وبهذا الأمر وفي مشيئته تعالى أغنى الله تعالى  
محمدًا صلى الله عليه والسلام بالحقّ واتباعه، والهدي إليه، قال تعالى:  
{وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى} 919، أي أغناه بحبه إليه ورعايته له عن الحاجة  
(أيّ حاجة).

ولأنّ المغني لمحمد هو الله تعالى فهو المصدر للغني المطلق، والغني  
المطلق هو الذي ليس في حاجة، وهو يملك المطلق لمشبعات كل حاجة،  
يهب ما يشاء لمن يشاء كيفما يشاء متى ما يشاء وأينما يشاء، وهولا يوهب  
إليه، يرزق وهو في غير حاجة للرزق، يملك وهو في غير حاجة للملك، إنه  
ذو الرّحمة والمغفرة والتوبة لكل عبد منيب ومستجيب له لا شريك له، له ما  
في السماوات وما في الأرض وهو على كل شيء قدير، وهو الذي يُفْتَقَرُ  
إليه وهو الغني الحميد.

المغني: هو من يغني بالصحة والعافية، ويغني بالطمأنينة والطموح  
والأمل، وبالعلم والحكمة، وبالتذكر والتفكير، والمغني بالحركة والسكون،  
وبالحب والعاطفة وبالضمير الذي يجعل الإنسان عادلاً إذا ما حكم بين  
الناس، ومغني بالتزواج والإنجاب، ومغني بالتعاون بين من هم في حاجة وهو  
المغني بالنبوة والرسالة الشافية لكل علة، كما أغنى سيدنا محمد بالنبوة

والاصطفاء رسولا مبشرا ومنذرا ومحرضا وسرجا منيرا، وهو الذي يغني الخليفة بالإيمان والهداية من الضلال، ويغنيه بحكم العدل كلما حكم بين الناس، ويغنيه بالصدق من الكذب، وبالأمانة من الخيانة، ومن العفة من الزنا، وهكذا فهو المغني من الغش والتزوير والتطفييف والخيانة وشرب المسكرات، ومغني بالانتهاه والتجنب عما نهي. إنه المغني الذي أغنى المخلوق بما لا يغنيه شيء عنه، فالمغني المطلق أغنى سيدنا محمد به، فأصبح من بعد إغنائه له في غير حاجة، ولهذا لا خوف عليه من شيء، بما أن المغني قد أغناه بكل شيء مصداقا لقوله تعالى: (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى).

وعليه لقد أغنى الله تعالى سيدنا محمد فكان في غير حاجة لرأي على غير هداية من الله، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} {920، القول القرآني موجه إلى الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام الذي أغناه الله بفضله نبيا رسولا.

## 7. مُحَلَّلْ لَهُ:

التحليل لرسول الله عليه الصلاة والسلام إباحة مقيدة بمرضاة الله تعالى، فمن آتاهنَّ أجورهنَّ في حالة تماثل مع ما تملك يمينه مما أفاء الله عليه، وكذلك بنات عمِّه وبنات عمَّاته وبنات خاله وبنات خالاته اللاتي هاجرن معه طاعة في سبيل الله عز وجل، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتِ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي

أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا {921}.

وعليه فمن الحلائل المنصوص عليها للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام تحليل الخصوصية الذي يحفظه من الوقوع في المحرمات، ولهذا كل أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام هُنَّ حلائله من الله تعالى، ولذا لقد خصَّه الله تعالى بذكرٍ حكيمٍ في أزواجه، فالتى وهبت نفسها خالصة للرسول من دون المؤمنين ليستنكحها إرادة منه ومنها، هي زوجة من حلائله التي أحلها الله لنبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ولأن الله قد أحل للرسول الكريم ما أحل له فلا يحق له بعد ذلك أن يُحرِّم ما أحله الله له مصداقا لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } {922}.

## 8 . لا آل له من الأبناء:

قال تعالى: { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ } {923}.

ولأن محمدا رسول الله الخاتم إذا بطبيعة الحال ألا يكون من بعده من هم يؤولون إليه، أي أن محمدا هو الخاتم لسلالة الأنبياء والرسل الكرام الذي قال فيهم تعالى: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً

---

921 - الأحزاب 50.

922 - التحريم 1، 2.

923 - الأحزاب 40.

وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا  
حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ يَا أَيُّهَا  
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا  
تَمْشُونَ بِهِ وَيَعْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ {924.

وعليه يمكن أن نؤصل لغة ومفهوما كلمة (الآل) من حيث:

آل: يؤل أولاً، وآل الشيء للشيء يرجع إليه Revert to. والآل  
الأصل الذي يؤل الدم إليه، ولهذا يُنسب الأبناء لأبائهم من حيث ثبات  
الأصل ونقائه، قال تعالى: {ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ  
تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا  
أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا النَّبِيُّ أَوْلَى  
بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى  
بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ  
ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا {925.

\* "آل الرجل: كل من يشاركه في النسب إلى أقصى أب له في  
الإسلام" 926.

\* قال تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ  
رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا  
وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا  
يَرْتُئِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا {927 دعاء مستجاب

924 - الحديد 26 - 28.

925 - الأحزاب 5، 6.

926 - معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 36.

927 - مريم 2 - 6.

بإنجاب الولد الذي هو من صلبه ليرثه دما وعلمًا ونبوة، فكانت الاستجابة وفقا للطلب، وهو طلب الذكر وليس الأنثى (وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا).

وعليه وردت كلمة (آل) متصلة بالمذكر في القرآن الكريم ثماني مرات ولم ترد ولا مرة واحدة متصلة بال مؤنث (آل إبراهيم، وآل عمران، وآل يعقوب، وآل لوط، وآل داوود، وآل موسى، وآل هارون، وآل فرعون) مما يدل على الاختصاص الذي يدعى به الأبناء لأبائهم.

\* الفرق بين الأهل والآل: "الأهل يكون من حيث العلاقة الاجتماعية والاختصاص، فمن جهة العلاقة الاجتماعية قولك أهل الرجل، ومن جهة الاختصاص قولك أهل البصرة وأهل العلم.

آل: كلمة تأصيلية تُمَكِّن من العودة إلى الأصل الذي ينسب إليه الشيء، ولذلك قال تعالى: (ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ).

\* آل: تدل على ذوي القرى الذين يعودون إلى صلب الرجل.

\* "الفرق بين الآل والذرية: آل الرجل: ذو قرابته، وذريته: نسله من الأبناء.

فكل ذرية آل، وليس كل آل بذرية"928.

\* الفرق بين آل، وأهل، والذرية: هو إن الآل تعود بالفرع إلى الأصل من جهة الأب، "آل الرجل: كل من يشاركه في الانتساب إلى أقصى أب له في الإسلام"929.

---

928 - الفروق اللغوية، ج 1، ص 6.

929 - معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 33.

والأهل تأخذ احتماليين:

الأوّل: الأهل هم ذوو القرّبيّ من جانب الأب والأمّ ممّا يجعل الأعمام كالأخوال في علاقة نسب ومصاهرة تُقربّ العلاقات بين الأجداد والأحفاد من الجانبين الذين منهما (الأب والأم) ويمتد مفهوم الأهل ليشمل العشيرة التي منها الأب وكذلك العشيرة التي منها الأم.

الثاني: الأهل اندماج اجتماعي بقراءة الدم وبغيرها ممّا يجعل للمكان المشترك خصوصية تسمح بالانتساب والانتماء إليه، ولذلك يقال: أهل القرية وأهل الحي، وأهل المدينة.

أما الأولاد: فهم الأبناء مباشرة للأب والأم وهم لا يدعون إلا لأبائهم.

وعليه الآل أداة رتبط لعلاقات دم ترتبط الفروع بالأصول، والأهل مسمى يطلق على ذوي القرّبيّ الاجتماعية والمكانية، والأولاد هم الذين لا يفصلهم فاصل عن آبائهم.

\* وبناء على ما سبق: فإن آل: مكوّن لغوي من ثلاثة أحرف هي: (ء، ا، ل) ولذلك فكلمة (آل) لا تتجرد حتى يعاد بها إلى أصل غير أصلها كما يقول البعض: بأن (آل) أصلها (أهل) وإذا عدنا للفرق بينهما نجد من حيث المفهوم أنّ (أهل) شاملة وقضاياها جامعة لا مانعة، أما (آل) فهي خاصة لصلة نسب الدم ولذلك فقضاياها جامعة مانعة، أي جامعة لذوي الصلة العرقية ومانعة لمن هم لا علاقة لهم بالعرق الانتمائي.

ونحن أيضا لا نتفق مع من يقول أن تصغير (آل) هو (أهيل) فأهيل تصغير لأهل، أمّا (آل) فتصغيرها (أويل).



\* آل: لا ترتبط إلا بمعلوم بشري مذكر، أمّا أهل فترتبط بمعلوم بشري ومكاني وموضوعي، وعلى مكانة أو دون منها، ومنها قولنا (أهل الجنة وأهل النار) وهذه لا تختص بأي آل، ولذلك يقال، أهل الجنة أو أهل النار، وهكذا يقال: أهل الإيمان وأهل العلم وأهل الخير والمعروف والحق، وفي مقابل ذلك يقال: أهل الكفر والجهل والمنكر والظلم.

و"آل الأمر إلى كذا يؤول، إذا انتهى إليه، والمآل، المرجع"930. ولذلك ف(آل) هي دليل تأصيلي أما أهل فهي دليل إثبات علاقات مكتسبة تختلط فيها الدماء مصاهرةً.

قال تعالى: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّجُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}931 من هذه الآية الكريمة يمكننا القول: فرق كبير يتضح بين (آل) وبين (أهل) فال فرعون هم الذين ينتسبون إليه من حيث الأصل أي من حيث صلة الدم، فال فرعون هم الذين من صلبه أي هم الذين ينتمون إليه، ولذلك فرعون ليس بشخص واحد، بل لقب لحكام مصر عبر التاريخ، ولهذا فرعون متكرر ولم يكن شخصية فردٍ واحدٍ فهو الذي من بعده توارث أبناؤه الحكم وهم الذين يشار إليهم بآل فرعون أي الذين يعودون إلى فرعون الأول وهم الذين يتوارثون الحكم في مصر.

أمّا (أهل) كما سبق أن أوضحنا صلة علاقات اجتماعية ومكانية وموضوعية ولذلك جاء قوله تعالى: (آل فرعون) لخصوصية الدم ولم يأت بأهل المدينة أو القرية أو أهل فرعون حيث وجود اختلافات عرقية بين

---

930 - أسرار البلاغة، ج 1، ص 36.

931 - البقرة 49.

الأهل في القرية أو المدينة التي يعيش فيها فرعون معهم، ولهذا جاء الاستثناء للذين ليس هم من آل فرعون مع أنهم من أهله.

\* أهل: مكانية وعلائقية وموضوعية:

. مكانية كقولنا: أهل المدينة وأهل القرية وأهل مكة وأهل الدار وأهل الأرض وأهل السوق (أهل المكان سكانه أو العاملين فيه وسكان المكان ليس بالضرورة أن يكونوا من آل واحد).

. علائقية كقولنا: أهل محمد، وأهل جيرة، وأهل نسب وحسب، وأهل بطانته ولذلك فالأهل (لا تقتصر على آل فقط بل تتعداهم لتستوعب الآخرين من أصحاب النسب والحسب والبطانة).

. موضوعية: كقولنا أهل عقيدة وأهل رياء وأهل عهد، وأهل كرم، وأهل الإيمان وأهل الكفر وأهل العلم وأهل البادية وأهل الحق وأهل الحكمة وأهل اللغة وأهل الأدب وأهل المنطق (مواضيع تتعلق بالخصوصية الموضوعية التي لا تقتصر على النوع العرقي المقيد بال).

\* أهل: كلمة جامعة لمن هم ينتمون لآل، ولمن ينتمون لآلٍ غيرها، كأهل الكتاب الذين هم ليسوا بآل في شيء وهم (اليهود والنصارى، أهل التوراة والإنجيل)، فأهل الكتاب منهم بعض العرب ومنهم آخرون من غير العرب، ولهذا فهم يتحدثون في كلمة (أهل الموضوع) ولا يتحدثون في كلمة (آل الدم والأصل).

قال تعالى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ

المُشْرِكِينَ} 932. أهل الكتاب هم من اليهود والنصارى وهم من مجموع بني إسرائيل (آل يعقوب) وبعضهم من العرب (آل إسماعيل) وبعضهم الآخر من غيرهم، ولهذا عندما يلتقون على الموضوع فلا جامع لهم إلا كلمة (أهل). "اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله عليه الصلّاة والسلام فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديًا، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيًا! فأنزل الله عزّ وجلّ قوله فيهم: "يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون"، قالت النصارى: كان نصرانيًا! وقالت اليهود: كان يهوديًا! فأخبرهم الله أنّ التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده، وبعده كانت اليهودية والنصرانية" 933.

أهل الإنجيل هم النصارى وحدهم، وهم الذين منهم من هو من آل يعرب ومنهم من هو من آل إسرائيل، ومنهم من هم من سواهم، فأهل الإنجيل لا يجتمعون بكلمة آل.

أهل: مكانية كأهل البيت والكعبة هي البيت الحرام وبيت إبراهيم الكعبة التي رفع قواعدها قال تعالى: {قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ} 934 قالت سارة باستغراب وتعجب (أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخًا) والشيخ البعل هو إبراهيم صلى الله عليه وسلم، ولذا قولان بينهما الأمر يتأرجح: قول يعود على إبراهيم بقوله تعالى: (أهل البيت) وهذا المعنى لا استغراب فيه باعتباره وزوجه هما المخاطبان، ولأن الأمر يتعلق بإبراهيم وزوجه فهو يتعلق بعلاقات اجتماعية

---

932 - آل عمران 65 - 67.

933 - تفسير الطبري، ج 6، ص 490.

934 - هود 72-73.

وهذه تتطلب استخدام كلمة (أهل) لا استخدام كلمة (آل) التي لا تستخدم إلا لأصل يعود على المذكر أو يعود به إلى مذكر، ولهذا جاء في القرآن الكريم (آل إبراهيم وآل يعقوب وآل موسى وآل هارون وآل داود، وآل فرعون وآل لوط). وعلينا أن نتوقف قليلا أمام قوله تعالى: {أَلْ مُوسَىٰ وَأَلْ هَارُونَ} 935 مع أنّ موسى وهارون من آل عمران من أبٍ واحد إلا أن آل موسى هم غير آل هارون، فالذين هم من آل موسى يعودون إلى صلبه، والذين هم من آل هارون يعودون إلى صلب هارون، ولذلك فالقضية اللغوية تتعلق بخصوصية كل أخ عن الآخر، ولذا لم يكن هارون من آل موسى ولا موسى من آل هارون، بل كلاهما من آل عمران صلّى الله عليهم وسلّم. وعليه فالعلاقة الاجتماعية تترتب وفقا للآتي:

. من الأبناء (ذكورا وإناثا) لأصولهم العرقية علاقة (آل).

. من الأبناء للأباء علاقة (أبوة) وعلاقة (أمومة) وعلاقة (آل).

. من الآباء إلى الأبناء علاقة (أهل).

. العلاقة بين الأبناء علاقة (أخوة) وعلاقة (أهل).

. العلاقة بين الأقارب علاقة (أهل).

. العلاقة بين الأنساب علاقة (أهل).

. العلاقة بين الجيران وسكان المدينة والقرية علاقة (أهل).

. العلاقة بين المشتركين في الموضوع الواحد علاقة (أهل).

\* وكلمة (أهل البيت) لم ترد في القرآن الكريم إلا مرتين:

الأولى: في قوله تعالى: {رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ} 936.

والثانية: في قوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} 937، ولذا فدخل الزوجين أو الأزواج في المعنى والمفهوم يدل على بيت النسب "المراد من البيت بيت النسب لا بيت الطين والخشب، ودخل سارة رضي الله تعالى عنها حسبما جاء في الآية الكريمة السابقة من سورة هود عليه الصلوة والسلام هنا لأنها بنت عمه، وكأنهم حملوا البيت على الشرف كما هو في أحد معانيه" 938.

إذا (أهل البيت)، تدل على أهل بيت النبوة (البيت الذي رفع قواعده إبراهيم وابنه إسماعيل) عليهما الصلوة والسلام.

وهناك من يعود بقوله تعالى: (رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ) على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليه الصلوة والسلام مما يجعل البيت بمعنيين:

معنى علاقات اجتماعية، الرسول وأزواجه بغض النظر عن الآلات التي تعود إليها كل زوج من أزواجه رضي الله عنهنّ جمعا.

والمعنى الآخر: هو أن أهل البيت، الكعبة وهذا المصطلح يجمع كل من اتخذ البيت الحرام قبلة له ومصلى.

قال تعالى: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ اتَّقِيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ

---

936 - هود 72، 73.

937 - الأحزاب 32، 33.

938 - تفسير الألوسي، ج 8، ص 308.

وَرَسُولُهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا {939}. القول في هذه الآيات موجه إلى نساء النبي عليه الصلّاة والسّلام دون استثناء وهنّ أمهات المؤمنين بالرسالة الخاتمة، وهنّ لا يعدنّ إلى آل واحد بل يعدنّ إلى أصول عرقية متعددة، وزواج الرسول الكريم منهن جعل بينهن وبين الرسول عليه الصلّاة والسّلام وبين عشائرهن علاقات نسب ومصاهرة ممّا جعل لفظ كلمة أهل لائحة بهذه المصاهرة والنسب والعلاقات الاجتماعية الطيبة والمرغوبة أو المفضّلة والمحبة للأنفس، ولذلك لا تقتصر العلاقات الاجتماعية بين العناصر المكونة للأنساب علاقة (الآل)، بل تمتد لتجمع العلاقات في كلمة (الأهل).

ونساء النبي عليه الصلّاة والسّلام ليسوا من آله، فاله لا بدّ أن يكونوا من صلبه ولأنهنّ أزواجه فهنّ من أهله، ولذلك نقول:

إنّ أبناء الرسول محمّد عليه الصلّاة والسّلام هم من آله، ولأنّه لم يخلف من الذكور من خلف ليكون من بعده من هم من آله، لذا لا آل من بعد محمّد ولكن من بعده أهله ففاطمة الزهراء من آل محمّد أمّا أبناءؤها فليسوا من آله بل هم من أهله، وذلك لأنهم من آل علي رضي الله عنه، وعلي لم يكن من آل محمّد صلوات الله وسلامه عليه فهو من آل أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ولكن محمّد عليه الصلّاة والسّلام وعلى رضي الله عنهما من آل عبد المطلب.

عليه فالذين يعتقدون أنفسهم أنهم من آل محمّد عليه الصلّاة والسّلام اعتقادهم ليس في محله، والذين يعتقدون أنهم من أهله فهم من أهله. ولذا فالذين ينسبون أنفسهم إلى فاطمة الزهراء هم في حقيقة الأمر من آل علي

رضي الله عنه، وبنسبهم هذا يكونون من آل عبد المطلب وهو آل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

وعلينا ألا نغفل عن المعجزة المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام ابن مريم بنت عمران فهو مع أنه ابن مريم إلا أنه من آل عمران، وقد يتساءل البعض: ألا يكون التناقض مع قولك أن الآل تعود إلى مذكر دون مرور بالأنثى؟!

نقول: نعم ولكن عيسى ابن مريم لم يكن له أب يختلط بأسبابه الدم بأسباب المصاهرة فمريم بنت عمران عليها الصلاة والسلام أنجبت عيسى بدون أب، قال تعالى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانٌ وَالْحَنُوفُ وَإِذَا قِيلَ لَهَا تَمْسِكِي وَاتَّقِي أَلَّا تَرَى الْإِنسَانَ مِمَّا حَفِطَ لَهَا فَتُضِلَّنَّ وَتَذَلَّلَنَّ وَتُكَلِّمَنَّ تَأْتِيهَا فَتَكَلِّمُهَا كَلِمَاتٍ مِنْهَا حَمِيدٌ فَلَمَّا طَغَى الْغَيْطُ طَمَسْنَا سُمْكُهَا وَاجْتَمَعَتْ بِهَا وَابْنَتُهَا أَيَّةُ الْغَالِمِينَ} 941. ولهذا بقي الآل متصلا بعيسى صلى الله عليه وسلم.

\* استخدامات (آل) و(أهل):

. الآل: تُستخدم من الأبناء إلى الأصول العرقية التي يعودون إليها أي التي ينحدرون منها وفقا للآية (ادعوهم لأبائهم) ولذا فلا مفر من استخدام كلمة (آل).

. الأهل: على وجهين:

الأول: يستخدم من الآباء إلى الأبناء باعتبارهم نتاج علاقات النسب والمصاهرة، الذين يفتحان آفاق صائبة أمام استخدام كلمة (أهل) ولا يفتحانها أمام استخدام كلمة (آل).

---

940 - التحريم 12.

941 - الأنبياء 91.

الثاني: تستخدم على مستوى الأبناء مصداقا لقوله تعالى: ﴿واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي أشدد به أزري﴾ 942 إن موسى وهارون عليهما الصلّاة والسّلام هما أخوان من أب وأم فهما على علاقة أخوة وأهل، أما من حيث العودة إلى الأصل الأبوي فإن كل منهما يعود إلى عمران وآل إبراهيم صلّى الله عليهم وسلّم، ولذا فالعلاقة على مستوى الأخوة هي علاقة (أهل)، والعلاقة مع الآباء والأجداد هي علاقة (آل) وهذه العلة قال موسى عليه الصلّاة والسّلام: (واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي) وهذا القول قول حقّ لأن هارون عليه الصلّاة والسّلام لم يكن من آل موسى.

آل النبوة: جميع الأنبياء من بعد إبراهيم هم من آله، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ 943. إذن جميع الأنبياء من بعد إبراهيم صلّى الله عليهم وسلّم هم من آله، والأنبياء من بعد إبراهيم في أساسهم هم موهوبون من الله تعالى، أي أن امرأة إبراهيم عجوز فكيف يمكن أن يكون له الولد لو لم يهبه الله إياه؟ ولذا قال: (وهبنا له إسحاق) للتأكيد على أن أفعال المستحيل بيده وبإمكانه إظهارها متى ما يشاء للذين لا تمتد قدراتهم وقواهم خارج دائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع).

قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ 944 ولأن

---

942 - طه، 29.

943 - العنكبوت 27.

944 - هود 72، 73.



الخطاب موجه لزوج إبراهيم وكما سبق أن بينا قال تعالى: (أَهْلَ الْبَيْتِ) ولم يقل آل البيت.

وإسحاق الذي وهبه الله تعالى لإبراهيم عليهما الصلوة والسلام، وهب له إمكانية الإنجاب فأنجب ولدا له من بعده هو يعقوب صلى الله عليه وسلم. (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب). تدل هذه الآية الكريمة على أن النبوة التي سبقت إبراهيم لم يتم اصطفاؤها من بيت واحد، إلا من بعده حيث أصبحت النبوة والرسالات في ذريته صلى الله عليهم وسلم. وهذا الأمر هو الذي جعل إسحاق نبيا مثلما إبراهيم نبياً، وكذلك جعل من يعقوب حفيداً لإبراهيم ونبياً. إذن الفرع الذي من صلب إبراهيم هم الذين خصهم الله (بال أنبياء) أي باصطفاء الأنبياء منهم مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} 945. فآل إبراهيم هم الذين يؤولون إليه من صلبه.

والأهل: هم الذين يعودون إلى البيت الذي رفع قواعده إبراهيم أي هم الذين يدينون بديانة إبراهيم لله الواحد القهار، أي أنهم من دينه مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} 946 وقوله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 947.

وهكذا هو الحال مع الذين من بعده من آل بيته وهم:

---

945 - آل عمران 33.

946 - آل عمران 95.

947 - آل عمران 67.

آل عمران، وآل موسى، وآل هارون، وآل داود، ومحمد. قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} 948 وعليه لقد ذكر القرآن آل نوح وآل إبراهيم وآل عمران وآل موسى وآل هارون وآل داود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ. أمَّا في قوله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) المقصود به نساء الرسول محمد عليه الصلوة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين وهو آخر نبي من آل إبراهيم، وبه انتهى الانتساب ب (آل) للأنبياء والرسل، وذلك لأن محمداً عليه الصلوة والسلام لم يُخْلِيفَ من بعده ولداً يولد من بعده حفدة لينسبوا إليه، بل خلف فاطمة الزهراء (أم الحسن والحسين) عليهم السلام، ومع أن فاطمة الزهراء من آل محمد إلا أن الحسن والحسين من آل علي كرم الله وجهه، ولذلك فمن يأتي من خلفهم لا يكون من آل محمد بل يكون من آل علي عليه السلام.

وعليه فإن المقصود من آل البيت هم الذين هم من صلب إبراهيم أما أهل البيت فهم الذين أسلموا مع إبراهيم لله رب العالمين.

وعليه من يريد أن ينسب نفسه إلى آل البيت فهو من الذين يؤولون إلى إبراهيم دماً.

والذين هم من أهل إبراهيم هم الذين يدينون بدين إبراهيم وهو الإسلام حيث إبراهيم ما كان يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً. ولذا فالبيت الذي يجمع المسلمين هو الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلوة والسلام مصداقاً لقوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ} 949، والسر من وراء بناء البيت هو طمأنة قلوب

948 - الأحزاب 33.

949 - البقرة 127.

المؤمنين وتأمينهم من كل خوف وذلك لأنه بيت توحيد لا بيت شرك، ولهذا فالتوحيد يؤدّي إلى الاطمئنان ويحقّق الأمن، والشرك لا يحقّق إلا الخوف قال عزّ وجلّ: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا} 950 يفهم من هذه الآية الكريمة أن البيت هو المكان الذي يتوفر فيه الآمان والطمأنينة، وينعدم فيه الخوف بالمطلق، مصداقا لقوله تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} 951.

ولأن ما وهبه الله تعالى لإبراهيم عليه الصلّاة والسّلام لا ينقطع فقد أضاف (وأتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين) أي أنه كسب الدنيا بما عمل دعاءً متصلاً مع الأنبياء والصالحين والذين هم يؤمنون بقوله تعالى: (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً).

بناء على ما تقدم لم يرد ذكر آل البيت مطلقاً في القرآن الكريم وذلك لسبب علمي وهو أن محمّداً عليه الصلّاة والسّلام كان آخر آل البيت الذين ينتمون إلى إبراهيم (الذين جعل الله عزّ وجلّ النبوة فيهم) مصداقا لقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النّبوةَ وَالْكِتَابَ} 952 ولأن محمّداً عليه الصلّاة والسّلام خاتم الأنبياء والمرسلين الذين هم من آل إبراهيم (من صلبه) كان خاتماً لأمرين اثنين:

الأول: أنه النبي الخاتم للأنبياء الذين يعودون لآل إبراهيم.

الثاني: أنه صاحب الرّسالة الخاتمة لكل الرّسالات السابقة وهي الرّسالة الكافية للعالمين وبهذا محمّد رسول الكافة وخاتم الأنبياء والمرسلين الذين يؤولون إلى إبراهيم عليهم الصلّاة والسلام وهو النبي الذي جعل الله

---

950 - البقرة 125.

951 - قريش 3، 4.

952 - العنكبوت 27.

النبوة والكتاب في ذريته، ولذا كان محمد رسولا خاتما وكان القرآن كتابا خاتما، وأصبحت الكعبة البيت الحرام هي بيت المسلمين ومن دخله فقد (أمن).

وعليه: فأهل البيت هم المسلمون الذين اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، قال تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} 953 أي كل من أسلم وجهه لله رب العالمين واتبع ملة إبراهيم بالرسالة الخاتمة والرسول الخاتم آخر رسول ينسب لآل إبراهيم صلى الله عليهم وسلّم، قال تعالى: {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ} 954. بمعنى جعل الله الكعبة بيت المسلمين محرم على الكافرين، ولذا فأهل البيت (أهل الكعبة) هم جميع المسلمين، "بيت الله الذي يتساوى فيه عباد الله، فلا يملكه أحد منهم، ولا يمتاز فيه أحد منهم" 955.

قال تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِّلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ} 956. قال (أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِّلنَّاسِ) قال للناس ولم يقل للمسلمين أي لا بيت للناس على الحق إلا بيت الله الحرام فمن يهتدي فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا مامن لهم من الخوف إلا هو مصداقا لقوله تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ

---

953 - البقرة 125، 126.

954 - المائدة 97.

955 - في ظلال القرآن، ج 5، ص 189.

956 - آل عمران 96.

وَأَمَّنَهُمْ مِنْ حَوْفٍ {957} ولهذا فأول بيت وضع ببكة هو بيت النَّاس كافة، وبيت النَّاس لا يقتصر على أحد ولا يُحرم أحد منه، إلا إذا ارتضى أحد حرمان نفسه، ثم قال (وَهُدَى لِلْعَالَمِينَ) أي أنه مفتوح أمام من يتخذه قبلة ومصلى، ولذا فهولا يقتصر على من أسلم بل هو لكل من أسلم ولكل من سيسلم عبر الزمان وهؤلاء هم الذين يشار إليهم بأهل البيت، ولهذا لا (آلا للبيت) ولكن له أهل وأهله المسلمون جمعا. ولأن الدين الإسلامي للكافة كان البيت الحرام قبلة وهدى للعالمين على المطلق وليس على الخصوص.

وأما الذرية فهي تجمع ما بين الأهل والآل، ومن هنا وقع الخلط قصدا أو جهلا، ذلك أن أبناء الذكر وبناته هم من آله، وأبناء أبنائه نزولا هم من آله أيضا، وكذلك بناته هم من آله، إلا أن أبناء البنات لا يدخلون في آله وإن كانوا من أهله، فالأهل هي الدائرة الكبرى التي تضم إليها الآل، والدائرة الصغرى التي هي الآل يكون الأهل خارجها، وبما أن الآل تدخل في دائرة الأهل، فعليه تكون الذرية ضمن هذه الدائرة، وقد وردت في القرآن الكريم في عدة مواطن بهذا المعنى، ومن هذه الآيات:

قال تعالى: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} {958}.

والمقصود بقول سيدنا إبراهيم (مِنْ ذُرِّيَّتِي) أي بعض أبنائي وهو إسماعيل صلى الله عليه وسلم. وقد جاء الخطاب بعد لفظة (ذرية) بصيغة الجمع مع أنّ إسماعيل مفرد على احتمال ما سيكون لما يحمل إسماعيل من ذرية والتي هي من ذرية إبراهيم صلى الله عليه وسلم.

---

957 - قریش 3، 4.

958 - إبراهيم 37.

وقال سبحانه وتعالى: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ  
وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا  
وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ } 959.

ومن ذريتي: هو دعاء لا بدّ أنه مستجاب لصدوره عن نبي الله إبراهيم،  
وجاءت من التبعية لاحتتمالات:

الأول: من ذريتي الذين يكون منهم الآل الذين جعلت النبوة في  
أصلابهم وصولاً إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

الثاني: دخول الإناث في الذرية وخروج أبنائهم من الآل.

الثالث: بعض الذرية تتبع الهدى (مقيم الصلاة) فقد جعل إتياع الملة  
شرط لآل النبوة بعد الانحدار من الصلب، وبعضهم الآخر لا يتبع الهدى،  
فيخرج من الأهل كابن نوح صلى الله عليه وسلم.

ولذا: فشرط دخول آل النبوة إتياع الملة، والخروج من الملة لا يخرج  
من الآل، حيث قال تعالى: { وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي  
وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ  
عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } 960 فأخرجه من أهله على الموضوعية، لأن نوح ومن  
معه هم أهل عقيدة التوحيد، وابنه ليس كذلك فخرج من هذه الأهلية،  
فالشرط في الآل والأهل أن يتبع الدين الحق داخل ذرية النبوة ودليل ذلك  
أن الله يصطفي من عباده من يشاء.

وختاماً نقول: النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام منطقياً لا يخلف  
ذكوراً من بعده لينجبوا، وذلك لانقطاع الوحي والنبوة، التي لن تكون من

---

959 - إبراهيم 39، 40.

960 - هود 45، 46

بعد الرسالة الخاتمة والرسول الكافة، قال تعالى: { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ } 961.

### المدثر:

يقول الحقّ جلّ وعلا لنبيه ورسوله الخاتم: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ  
وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنِ تَسْتَكْبِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ فَإِذَا  
نُقِرَ فِي النَّافُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ذُرِّي وَمَنْ  
خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ  
يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا } 962.

هذه الآية تصف النبي محمد عليه الصلاة والسلام بالمدثر في أول  
حدث بعد التكليف ممّا يوجب الوقوف عنده من خلال تساؤلين نظرهما:

هل كان الدثار حقيقيا؟

أم كان مجازيا؟

ولدراسة كلا الاحتمالين نقف على معنى الدثار، والدِّثَارُ بالكسْر: ما  
يُتَدَثَّرُ به. وقيل: هو ما فَوْقَ الشِّعَارِ مِنَ الثِّيَابِ. وقيل: الثَّوْبُ الَّذِي يُسْتَدْفَأُ  
به من فَوْقِ الشِّعَارِ يقال: تَدَثَّرَ فُلَانٌ بِالدِّثَارِ تَدَثَّرًا وَادَثَّرَ ادِثَارًا فَهُوَ مُدَثَّرٌ  
وَالْأَصْلُ مُتَدَثَّرٌ أَدِغَمَتِ التَّاءُ فِي الدَّالِ وَشُدِّدَتْ وَقَالَ الْفَرَّاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:  
( يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ) يَعْنِي الْمُدَثَّرُ بِثِيَابِهِ إِذَا نَامَ 963.

---

961 - الأحزاب 40

962 المدثر 117.

963 تاج العروس، ج 1، ص 281.

هذا يعني أنّ الدثار شيء خارجي عن الأصل، وهو مضاف إضافة  
لحاجة ويمكن الاستغناء عنه، أو أن يكون التدرّج اختيار لحالة من حالات  
النوم وهو النوم بالملابس طلبا للدفع.

وعليه نتساءل:

إذا كان التدرّج حقيقي:

لماذا؟

هل كان خوفاً؟

هل كان طلبا للسكينة؟

هل كان رغبة في الراحة؟

هل كان استجابة لأمر؟

ليس من المنطقي أن يكون طلب الدثار خوفاً من شيء، لأنّ الرّسول  
عليه الصّلاة والسّلام كان قد اختار أن يتحنّث في غار بعيد موحش دون  
أدنى تفكير بالخوف من شيء لأنه كان مهيباً أصلاً لمهمة الرّسالة الأمر  
الذي يجعل الخوف من الرّسالة مستبعد بل معدوم.

أمّا طلب السكينة أو الراحة فهو مستبعد أيضاً لأنه ما من سكينة  
أكثر من سكينة الإيمان، وما من راحة أكثر من تطابق شعور النبي عليه  
الصّلاة والسّلام مع مهمته الجديدة التي كان يتصل بها اتصالاً روحياً قبل أن  
يكون اتصالاً حقيقياً بكلام جبريل معه.

لكن ربّما كانت استجابة فسيولوجية لاتصال الجسد الإنساني  
بالسماء، فمحمّد عليه الصّلاة والسّلام بشر بجسده وروحه، والإنسان  
بجسده مخلوق من الأرض واليها، هذا الجسد مخصوص للأرض وهو بكل



تأكيد لم يخلق لغيرها والمثال القريب أن هذا الجسد لا يستطيع أن يحيا في المياه مثلا وهو على ذلك ومن باب أولى ألا يستطيع أن يتحمل العيش في السماء إلا أن يشاء الله، فالأرض مكان موقوت بالزمن، أما السماوات التي يخبرنا المولى عزّ وجلّ عنها فهي تحيط بالأرض، فلا هي مكان وليس فيها زمان.

نقول على الاحتمال أن يكون طلب الدثار استجابة جسدية لما حصل من لقاء بين مخلوق سماوي ملائكي هو جبريل صلى الله عليه وسلّم، ومحمد البشر الرسول صلى الله عليه وسلّم، وهنا نعتقد جازمين أن الفؤاد (فؤاد محمد) لم يكن إلا ملء إيمان و يقين صادق.

عليه فإن تدثر الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن خوفا من الأمر الذي نعتقد أن إرهاباته موجودة عند الرسول من قبل وأن شعورا داخليا بما سيحصل متحقق في يقين محمد صلى الله عليه وسلّم.

### الخوف على الرسالة:

لذا فإننا ننفي بالمطلق أن يكون هناك خوف من الأمر قد تولد في نفس الرسول صلى الله عليه وسلّم، ولكن خوفا آخر قد يتولد في نفس المكلف بالرسالة من حيث:

الخوف على الرسالة وتبليغها:

لا شك أن من يكلف برسالة هي خاتمة الرسالات وهي للعالمين كافة مصداقا لقوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } 964، وقوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ {965، لا شك أنه عليه الصلّاة والسّلام يشعر بعظم المسؤولية كبيرة لان الأمر عظيم كما وصفه ربّه له فقال: { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً } 966.

ومعنى كونه ثقيلا عظم قدره وجلالة خطره، وكلّ شيء نفس وعظم خطره، فهو ثقل وثقيل وثاقل، كذلك يعني كلاما عظيما، ووجه النظم أنّه تعالى لما أمره بصلّاة الليل فكأثّه قال: إنّما أمرتك بصلّاة الليل لأنّنا سنلقي عليك قولاً عظيماً، فلا بدّ وأن تسعى في صيرورة نفسك مستعدة لذلك القول العظيم، ولا يحصل ذلك الاستعداد إلا بصلّاة الليل، فإنّ الإنسان في الليلة الظلماء إذا اشتغل بعبادة الله تعالى وأقبل على ذكره والثناء عليه، والتضرع بين يديه، ولم يكن هناك شيء من الشواغل الحسية والعوائق الجسمانية استعدت النفس هنالك لإشراق جلال الله فيها، وتهيأت للتجرد التام، والانكشاف الأعظم بحسب الطاقة البشرية، فلما كان لصلّاة الليل أثر في صيرورة النفس مستعدة لهذا المعنى لا جرم قال: إنّما أمرتك بصلّاة الليل لأنّنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً، فصير نفسك مستعدة لقبول ذلك المعنى 967.

وقد يتولد عن ذلك خوف على مسيرة هذه الدعوة ونجاح التبليغ لاسيما أنّ الله عزّ وجلّ ذكر رسوله عليه الصلّاة والسّلام بأهمية التبليغ فقال عز من قائل: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } 968.

---

965 سبأ 28.

966 المزمل 5.

967 تفسير الرازي ج16، ص 108.

968 المائدة 67.

إنّ الأمر الجازم الحاسم للرسول - عليه الصّلاة والسّلام - أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه كاملاً، وألا يجعل لأيّ اعتبار من الاعتبارات حساباً وهو يصدع بكلمة الحقّ.. هذا، وإلا فما بلغ وما أدّى وما قام بواجب الرّسالة. والله يتولى حمايته وعصمته من النّاس، ومن كان الله له عاصماً فقد كفاه النّاس.

إن كلمة الحقّ في العقيدة لا ينبغي أن تحجب! ويجب أن تبلغ كاملة فاصلة؛ وليقل من شاء من المعارضين لها كيف شاء؛ وليفعل من شاء من أعدائها ما يفعل؛ فإن كلمة الحقّ في العقيدة لا تملق الأهواء؛ ولا تراعي مواقع الرغبات؛ إنّما تراعي أن تصدع حتى تصل إلى القلوب في فؤة وفي نفاذ969.

وقد علم العليم الخبير ما في نفس رسوله الكريم من خوف على مسيرة دعوة التبليغ فأمنه عزّ وجلّ رسوله بأن جعل مهمته التبليغ فقط وأما موقف من كفر فقد قامت عليه الحجّة عن ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾970.

لذلك فخوف الرّسول عليه الصّلاة والسّلام على الرّسالة الخاتمة خوف مشروع مصدره اليقين بالحقّ الذي جاء به، والرغبة بأن ينال الخير الذي فيها النّاس كافة.

الخوف على المستهدفين:

أرسل سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام رحمة للعالمين، وهو عليه الصّلاة والسّلام رحمة في الدين وفي الدنيا، أمّا في الدين فلأنه عليه الصّلاة السلام بُعث والنّاس في جاهلية وضلالة. وأهل الكتابين كانوا في حيرة من

---

969 في ظلال القرآن ج 2، ص 393.

970 المائة 99.

أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم فبعث الله تعالى محمدا عليه الصلوة والسلام حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام، ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار.

وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه.

كما كان عليه الصلوة والسلام كان في عظيم حسن الخلق قال تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)، يرجعان إلى معنى واحد، لما بينا أنه كان رحمة لكل لو تدبروا، فرسالته عليه السلام رحمة للمؤمنين بإيمانهم، وللكفار من حيث لم يعجل عذابهم في الدنيا، كما عجل عذاب سائر الأمم 971.

وهذا يعني أنّ محمدا عليه الصلوة والسلام فطر على خلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة لتتكون مناسبة بين روحه الزكية وبين ما يلقي إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة حتى يكون تلقيه الشريعة عن انشراح نفس أن يجد ما يوحى به إليه ملائما رغبته وخلقته.. ولهذا خصّ الله محمدا عليه الصلوة والسلام بوصف الرحمة ولم يصف به غيره من الأنبياء، وكذلك في القرآن كله، قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} 972، وقال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ} 973.

---

971 تفسير الرازي، ج 11، ص 81.

972 التوبة 128.

973 آل عمران 159.

لا شك أنّ الرسول الذي فُطر على الرحمة سيكون في نفسه خوف على العالمين، خوف مصدره العلم بما سيحقّ بالكافرين من عذاب لكفرهم وما سيحرموا منه من خير كثير في الدنيا والآخرة مصداقا لقوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ 974.

الخوف على مستقبل الرسالة:

أخبر الله عزّ وجلّ رسوله أن رسالته ستكون خاتمة الرسالات، وهذا يعنى أن الرسالات ستقطع بعد محمد صلى الله عليه وسلّم، لذلك فإنّ من المنطق أن يتولد حرص وخوف على ما سيكون بعد ذلك لاسيما أنّ الله عزّ وجلّ يخبر رسوله بكثير ما سيحدث فيما بعد كمثل قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ 975.

والمقصود من الآية العتاب على ما سيقع من الاضطراب، والثناء على الذين ثبتوا ووعظوا الناس، والتحذير من وقوع الارتداد عند موت الرسول صلى الله عليه وسلّم، وقد وقع ما حدّره الله منه بعد وفاة الرسول عليه الصلّاة والسّلام إذا ارتد كثير من المسلمين، وظنّوا اتّباع الرسول مقصورا على حياته، ثمّ هداهم الله بعد ذلك، فالآية فيها إنباء بالمستقبل 976.

974 هود 13.

975 آل عمران 144.

976 التحرير والتنوير، ج 3، ص 236.

ومن الأمور التي أخبر الله عزّ وجلّ رسوله بها هي هجر المؤمنين للقرآن الكريم مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} 977.

وهذه الآية توجب خوفا على الأتباع من إضاعة ما في القرآن من خير كبير، وهذا حرص منه عليه الصلّاة والسّلام على من اتبعه من المؤمنين.

إن هذه المخاوف المشروعة قد تتبادر إلى الذهن لعظمة المهمة فهذه الرّسالة هي الرّسالة الخاتمة التي لن يأتي بعدها رسول يزيد أو ينقص يحلل أو يحرم فالمسألة موجبة للحرص على الأمر ونجاحه مع تأكيدنا على أن الإيمان مطلق بنجاح الأمر عند الرّسول عليه الصلّاة والسّلام لأنه من الله عزّ وجلّ. وهذه المخاوف لم يكن مصدرها ضعف على الإطلاق ولكن كانت نابعة من فوّة العقيدة وصدق الإيمان.

ونتساءل:

ما الذي أوجب الدثار عند رسول الله؟

لقد علم الرّسول عليه الصلّاة والسّلام أمور ما كان يعلمها من قبل وشعر بعظمتها وإعجازها وعمق دلالاتها وهو يسمع أولى كلمات ربّه التي نقلها إليه جبريل إذ يقول الحقّ عزّ وجلّ:

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} 978.

---

977 الفرقان 30.

978 العلق 15.

فقد عرف محمد عليه الصلاة والسلام من هذه الآيات القليلة حقائق

عظيمة هي:

- الاختصاص بالرسالة (اقرأ).

الله خالق لكل شيء (ربك الذي خلق).

الإنسان مخلوق من علق (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ).

العلم من الله عز وجل (وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ).

العلم يتحصل (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم).

الذي حصل في هذه اللحظة أن الله، العظيم الجبار القهار المتكبر، مالك الملك كله، قد تكرم في عليائه فالتفت إلى هذه الخليقة المسماة بالإنسان، القابعة في ركن من أركان الكون لا يكاد يرى اسمه الأرض. وكرم هذه الخليقة باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلهي، ومستودع حكمته، ومهبط كلماته، وممثل قدره الذي يريده سبحانه بهذه الخليقة.

وهذه حقيقة كبيرة. كبيرة إلى غير حد. تتكشف جوانب من عظمتها حين يتصور الإنسان قدر طاقته حقيقة الألوهية المطلقة الأزلية الباقية  
.979

فماذا تحصل عند الرسول في هذه الساعة من معاني؟

الرسول من بلغاء العرب الذين يملكون القدرة على تمييز الأساليب العربية وتبين بلاغتها الموجبة لفهم معانيها الدقيقة، لذلك فمن المؤكد أن يكون لكل لفظة دلالتها المؤثرة، فلفظة خلق مثلا في سياق (ربك الذي خلق)، لا شك أنها أعطت دلالة مطلقة الخلق لله عز وجل لأنها جاءت

على صيغة النكرة التي تفيد العموم والإطلاق، فما من شيء في الأرض وفي السماء إلا وهو من خلق الله عز وجل.

أما الحقيقة الأخرى التي أجابت ولا شك عن تساؤلات كانت تدور في ذهن المتأمل لخلق الإنسان فقد قدمت إجابة وافية هي (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) فقد تخصص خلق الإنسان ومبدأه خلق الإنسان من علق من تلك النقطة الدموية الجامدة العالقة بالرحم، من ذلك المنشأ الصغير خلق الإنسان الذي سيتعلم ما لم يعلم.

أما بالنسبة لعلم الإنسان فقد انحصر مصدر العلم بكونه من الله عز وجل، ودل ذلك على كمال كرم الله بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دوت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضببت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة؛ ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا؛ ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدييره ودليل إلا أمر القلم والخط، لكفى به 980.

هذه الحقائق التي نزلت على الرسول لا شك أنها قوية الأثر على شخصية كانت ترتقب مثل هذه الحقائق وقد حصل هنا توافق بين المبلغ والمبلغ ودليله إيمان صادق من الرسول بحقيقة ما حصل معه وقيامه بالأمر على أكمل وجه.

أما القول بأنه ليس المراد من المدثر، المتدثر بالثياب، وعلى هذا الاحتمال فيه وجوه احتمالية:

---

980 تفسير الزمخشري، ج 7، ص 311.



الأول: أنّ المراد كونه متدثرا بدثار النبوة والرّسالة من قولهم: ألبسه الله لباس التقوى وزينه برداء العلم، ويقال: تلبس فلان بأمر كذا، فالمراد بأبيها المدثر بدثار النبوة قم فأندر.

الثاني: أنّ المتدثر بالثوب يكون كالمختفي فيه، وأنه عليه الصلّاة والسّلام في جبل حراء كان كالمختفي من النّاس، فكأنه قيل: يا أيها المدثر قم بهذا الأمر واخرج واشتغل بإنذار الخلق، والدعوة إلى معرفة الحقّ.

الثالث: أنّه تعالى جعله رحمة للعالمين، فكأنه قيل له: يا أيها المدثر بأثواب العلم العظيم، والخلق الكريم، والرّحمة الكاملة قم فأندر عذاب ربّك 981.

وعلى الحقيقة أو المجاز كان على المدثر أن يقوم بما يأمره عزّ وجلّ لأنّ الدثار الحقيقي مؤقت منتهي لذا فقد توجب أن يكون بعده أمر آخر.

وإذا على المجاز فهو صفة أصيلة (متدثر بالنبوة) توجب أن يفعل المتصف بما أمور تجعل دثاره صفة حقيقة، وعليه كان الأمر من الله عزّ وجلّ للمدثر بأمر تبينها الآيات الكريمة مصداقا لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنِ تَسْتَكْبِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ } 982.

هذا الأمر تضمن:

1- قم فأندر.

2- ربّك فكبر.

---

981 تفسير الرازي، ج 16، ص 128.

982 المدثر 17.

3- ثيابك فطهر.

4- الرجز فهجر.

5- لا تمنن تستكثر.

6- لرّبك فاصبر.

عليه على المدثر أن يترك الدثار لكي يقوم بما أمره الله عزّ وجلّ، ومن المهم الانتباه إلى تسلسل ما تضمنه الأمر، فالإنذار هو من أولى مهام الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بل هو مهمته الرئيسية.

هنا يطرح التساؤل:

هل الإنذار دون غيره هو مهمة الرّسول؟

أين التبشير؟

لماذا لم يذكر شيء آخر؟

نقول إن حقيقة دور الرّسول تتمركز على كونهم مبشرين ومنذرين مصداقا لقوله تعالى: { وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } 983.

لكن في واقع الحال لا يمكن أن يبدأ الرّسول بالتبشير قبل الإنذار، وقد أخبرنا الله عز أن رسله بدؤوا الناس بالإنذار فإذا آمنوا كان التبشير، فقد بدأ نوح بالإنذار: { إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ

وَأَطِيعُونَ يُعْزِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {984.

كذلك بدأ إبراهيم بإنذار أبيه آزر مصداقا لقوله تعالى: {وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا {985.

فالإنذار أولا ثم التبشير، والمسألة مرتبطة بالعميقة حيث:

(لا ينفع التبشير مع الكافر)

(لا يدوم الإنذار لمن آمن)

إذ كيف يُصدّق الكافر بالبشارة وهو يُكذّب وعيد الإنذار؟

لكن يمكن القول إنه لا غنى عن التبشير ولا على الإنذار في كل حين لكن الترتيب العقلي والمنطقي أن يكون الإنذار قبل التبشير دون انفصال بين الاثنين وهذا ما حدث مع نوح عليه الصلوة والسلام فبعدهما أنذر بشرهم مصداقا لقوله تعالى: {يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا {986.

وهو ذات الأمر الذي كان في رسالة محمد عليه الصلوة والسلام بما ورد في نص الآيات الموحاة إليه بالإنذار ثم التبشير معا: {فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي

---

984 نوح 14.

985 مريم 41-45.

986 نوح 11-12.

وَقُودَهَا النَّاسَ وَالْحِجَارَةَ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا  
الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا  
خَالِدُونَ {987.

فقصر الأمر بالإندار (قم فأندر) ليس من باب التخصيص بل هو  
من باب الإيجاز لان الإندار يوجب التبشير وهذا ما بينته آيات القرآن  
الكريم.

ثم بعد ذلك يأتي مضمون التبليغ وشعاره وهو (الله أكبر)، أي أخبر  
عنه بخبر التعظيم، وهو تكبير مجازي بتشبيه الشيء المعظم بشيء كبير في  
نوعه بجامع الفضل على غيره في صفات مثله.

فمعنى وربك فكبر صيف ربك بصفات التعظيم، وهذا يشمل تنزيهه  
عن النقائص فيشمل توحيدته بالإلهية وتنزيهه عن الولد، ويشمل وصفه  
بصفات الكمال كلها.

ومعنى (كبر): كبره في اعتقادك: وكبره بقولك تسبيحا وتعلينا.  
ويشمل هذا المعنى أن يقول: "الله أكبر" لأنه إذا قال هذه الكلمة أفاد  
وصف الله بأنه أكبر من كل كبير، أي أجل وأنزه من كل جليل، ولذلك  
جعلت هذه الكلمة افتتاحا للصلاة.

وأعتقد أن في ذكر التكبير إيماء إلى شرع الصلاة التي أولها التكبير  
وخاصة اقترانه بقوله: (وثيابك فطهر) فإنه إيماء إلى شرع الطهارة، ولعل  
ذلك إعداد لشرع الصلاة 988.

---

987 البقرة 24-25.

988 تفسير التحرير والتنوير، ج 15، ص 402.

أمّا قوله تعالى الرّجز فاهجر الرّجز: يقال بكسر الراء وضمها وهما لغتان فيه والمعنى واحد عند جمهور أهل اللغة. الرّجز بالكسر العذاب والنجاسة والمعصية، وبالضم الوثن. ويحمل الرّجز هنا على ما يشمل الأوثان وغيرها من أكل الميتة والدم.

وتقديم (الرجز) على فعل (اهجر) للاهتمام بالأمر بتركه.

واهجر: ترك المخالطة وعدم الاقتراب من الشيء. واهجر هنا كناية عن ترك التلبس بالأحوال الخاصة بأنواع الرّجز لكل نوع بما يناسبه في عرف النّاس 989.

هنا من المهم التوقف مع مسألة يطرحها التساؤل الآتي:

هل كان الرّسول عليه الصّلاة والسّلام قريب من الرّجز ليأتي أمر الهجر؟

لم يكن في مسيرة محمّد عليه الصّلاة والسّلام قبل النبوّة أي ذكر له مع أي وجه من وجوه الرّجز، فلم يكن قد اقترب من صنم ولا ظلم أحد ولم يكن قد تعاطى كل ما يمكن أن يكون رجزا أو يقترب منه، بل كان على العكس من ذلك من جملة صفات الخير والعدل والرّحمة والصدق.

فلماذا أمره الله بذلك؟

نقول إن الأمر هنا يحتمل عدة احتمالات منها:

أن يكون الخطاب هنا عاما لا خاصا، أي ليس موجها لمحمّد عليه الصّلاة والسّلام بل لعموم المسلمين.

أن يكون أمرا توجيهيا، أي أن يكون من الأخلاق التي يعلمها الله لرسوله لكي يعلمها أتباعه من بعد ذلك.

أن يكون متعلقا بالعقيدة الصحيحة والمحافظة عليها من دخول شيء من العقيدة الفاسدة، أي يا محمد علم أتباعك كيفية المحافظة على العقيدة الصحيحة بالابتعاد عن كل ما يمكن أن يشوبها من فاسد العقائد.

وهذا أمر منطقي لان العقيدة الصحيحة كانت جديدة العهد بالنسبة إلى الوثنية وعقائدها التي كانت متغلغلة في النفوس لذا فهذه الآية تعليم وتنبيه في الوقت ذاته للرسول وأصحابه مما يجب أن يكونوا عليه.

ومما يؤكد ذلك ما جاء في أمر لاحق هو (وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْبِرُ)، أي: ولا تعط مستكثرا رائيا لما تعطيه كثيرا، أو طالبا للكثير: نهي عن الاستغزار: وهو أن يهب شيئا وهو يطمع أن يتعوض من الموهوب له أكثر من الموهوب.

وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون نهيا خاصا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ الله تعالى اختار له أشرف الآداب وأحسن الأخلاق.

والثاني: أن يكون نهى تنزيه لا تحريم له ولأتمته 990.

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) وهذا الأمر فيه إطلاق مما يجعل وجوه الاحتمالات

عديدة منها:

1- اصبر لله.

2- اصبر على أداء الرسالة تامة.

3- اصبر على تلك الأوامر وغيرها من أوامر الله عزَّ وجلَّ.

---

990 تفسير الزمخشري، ج 1، ص 13.

4- اجعل الصبر خلقك وخلق إتباعك في الدين والدنيا.

والصبر هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله 991، من المفهوم تتضح دلالات إيجابية منها:

لن يكون أمر الدعوة هينا.

ستواجه يا محمد تعباً ونصباً.

سيكذبك كثير من قومك.

سيؤذيك الكفار والمشركين والمنافقين.

ستحاربك الأحزاب.

وعلى هذا فإن المدثر لم يتدثر ليرتاح ولكن ليبدأ مسيرة الدعوة إلى الحق الذي جاءت به خاتمة الرسالات.

القدوة الحسنة:

الخلق في اللغة العادة 992، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ} 993.

أمّا في الاصطلاح فالخلق هو صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة مما يتعلّقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلّقان بأوصاف الصورة الظاهرة 994.

---

991 التعريفات، ج 1، ص 42.

992 - تاج العروس، ج 1، ص 6294.

993 - الشعراء 137.

994 - النهاية في غريب الحديث والأثر، ج 2، ص 144.

عليه فالخلق في الواقع انعكاس لما تؤمن به النفس باطنا وظاهرا، إيمانا صادرا عن قناعة تركز على العقيدة أو القناعة (العرف) أو المنطق أو العقل أو العاطفة، فهذه كلها ركائز الأخلاق في الإنسان، ونوضح ذلك على نحو موجز بالآتي:

. عقيدة، تدفع العقائد معتنقيها نحو اختيار مسار أخلاقي محدد يتجانس مع مبادئ هذه العقيدة وما فيها من فضائل، فالمسلمون نهلوا من الإسلام أخلاق فاضلة كمثال العفو عند المقدرة مصداقا لقوله تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} 995، والتسامح الخالص الذي وصفه سبحانه وتعالى وصفا دقيقا بقوله عز وجل: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} 996، وكثير من مثل ذلك.

. القناعة (العرف)، تصدر كثير من الأخلاق عن قناعات بصواب هذا السلوك أو ذاك من الأفراد لتجانس قناعات الجماعة فتصل هذه القناعات إلى صيغة العرف الذي ترتضيه الجماعة، وهذا أمر جعله الله عز وجل من المصادر المقبولة في التشريع مصداقا لقوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} 997، والعرف: المعروف والجميل من الأفعال.

. المنطق، الإيمان بالمنطقيات يعطي الإنسان قدرة التخلق بأخلاق تدفعه باتجاه الصواب إلى حد كبير.

---

995 - الشورى 40.

996 - فصلت 34.

997 - الأعراف 199.



. العقل، يفصل العقل في اختياراته بين نوعي الأخلاق من خلال الموازنة بينهما ويدفع بمن يرتكز على العقل في اختياراته إلى اختيار الأمثل من الأخلاق.

. العاطفة، لها دور كبير في تحديد ما يصدر من أخلاق عن النفس، لأنها من أهم المتحركات في الاختيار فهي به إلى الصواب تارة، وهي تنحرف به تارة أخرى، لذلك نبهنا الله عزّ وجلّ إلى ذلك وحذرنا من الاختيارات العاطفية التي تميل بنا عن الحقّ فقال عز من قائل: { وَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ } 998.

بقي أن نتساءل:

هل الصفة هي الخلق؟

هل صفات الرسول عليه الصلّاة والسّلام هي أخلاقه؟

معلوم أن الصفة هي الاسم الدال على بعض أحوال الذات، وذلك نحو طويل وقصير وعامل، وغيرها. وهي الأمانة اللازمة بذات الموصوف الذي يعرف بها 999.

أمّا الخلق فهو عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلا وشرعا بسهولة سميت الهيئة خلقا حسنا وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة خلقا سيئا وإنما قلنا إنه هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور بحالة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه وكذلك من تكلف السكوت عند

---

998 - النزاعات 40.

999 - التعريفات، ج 1، ص 43.

الغضب بجهد أو روية لا يقال خلقه الحلم وليس الخلق عبارة عن الفعل  
فربّ شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع وربما يكون  
خلقته البخل وهو يبذل لباعث أو رياء 1000.

عليه فإن الخلق غير الصفة، فالأخلاق تصدر عن الصفات، كالكرم  
هو خلق يصدر عن صفة الإنسان الكريم، وقد لا يصدر الخلق مع وجود  
الصفة لمانع معين كمثل الكريم إذا انقطع ماله فإنه لا يستطيع أن يُظهر  
خلق الكرم لوجود المانع.

كذلك فالخلق متغير، أما الصفة فتأبته لأنها من الموصوف حتى قال  
البعض أن الصفة هي الموصوف ذاته.

لذلك فإنّ حديثنا عن أخلاق النبي عليه الصلّاة والسّلام لن يكون  
هنا عن صفاته التي عرضنا لها في موضع آخر بل عن أخلاقه التي تصدر عن  
صفاته.

إنّ الحديث عن أخلاق الرّسول محمّد عليه الصلّاة والسّلام هو أقرب  
ما يكون إلى أن نصفه بالسهل الممتنع، لأننا يمكن لنا أن نختار أي خلق  
كريم وننظر إلى الإنسانية لنجد إن أحسن من تخلقه كان سيدنا محمّد عليه  
الصلّاة والسّلام هذا من جهة السهولة، ومن جهة أخرى فإنه من الصعب  
على باحث أن يلم بأخلاق سيد الكائنات محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ولا  
حتى يستطيع التعبير عن حقيقة ماهيتها كما هي، لذلك يبقى الحديث عن  
أخلاق الرّسول محمّد عليه الصلّاة والسّلام عبارة عن محاولة لمقارّبة الحقيقة  
لان الوصول إلى الحقيقة في هذا الموضوع ممتنع.

لقد كان عليه الصلّاة والسّلام أول أمره إلى آخره لحظة من لحظاته متحلّياً بكلّ خلق كريم، فهو أعلم النّاس وأنصحهم وأفصحهم لساناً، وأقواهم بياناً، وأكثرهم حياءً، يضربّ به المثل في الأمانة والصدق والعفاف.

أدبه الله فأحسن تأديبه فكان أرجح النّاس عقلاً، وأكثرهم أدباً، وأوفرهم حلماً، وأكملهم فوّة وشجاعة وشفقة، وأكرمهم نفساً، وأعلاهم منزلة 1001.

إنّ الحديث عن أخلاق الرّسول عليه الصلّاة والسّلام يجب أن يستند على مصدر يقدم الحقيقة كما هي، ولا شكّ أن القرآن هو أوثق مصدر لمن يريد أن ينهل المعرفة في هذا الموضوع، لذلك سيكون مسار البحث في أخلاق الرّسول الأكرم محمّد عليه الصلّاة والسّلام قرآنياً لأنه الأمل في هذا السياق على حسب ما نعتقد.

لقد بيّن الله عزّ وجلّ أخلاق رسوله الخاتم لتكون منهجاً أخلاقياً لأتباعه ولكل من يبحث عن الأخلاق الفاضلة على المستوى البشري، وعلى النحو الآتي:

#### أولاً. الخلق العظيم

تفضل الله تعالى على حبيبه محمّد عليه الصلّاة والسّلام بتوفيقه للاتصاف بمكارم الأخلاق وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، ثم أثنى عليه ونوه بذكر ما يتحلّى به من جميل الصفات في آيات كثيرة من كتاب الله العزيز أقتصر على إيراد بعضها من ذلك قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} 1002، قد أخبر سبحانه في هذه الآية الكريمة

---

1001 - موسوعة الدفاع عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ج 1، ص 236.

1002 - القلم 4.

عما كان عليه المصطفى من أخلاق فاضلة ووصف خلقه عليه الصلّاة  
والسّلام بأنه عظيم.

وقوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) وفيه مسائل:

المسألة الأولى: كانت الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية ظاهرة منه،  
ولما كانت أخلاقه الحميدة كاملة لا شك وصفها الله بأنها عظيمة ولهذا قال:  
{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} {1003}، أي لست  
متكلفا فيما يظهر لكم من أخلاقي لأن المتكلف لا يدوم أمره طويلا بل  
يرجع إلى الطبع.

وفيه مسألة مهمة تتعلق بالمعنى في السياق حيث قال الله عزّ وجلّ  
لرسول محمّد عليه الصلّاة والسّلام أنه على خلق وكلمة على للاستعلاء،  
فدل اللفظ على أنه مستعمل على هذه الأخلاق ومستول عليها، وأنه  
بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة كالأمير بالنسبة إلى المأمور.

المسألة الثانية: الخلق ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان  
بالأفعال الجميلة. واعلم أن الإتيان بالأفعال الجميلة غير وسهولة الإتيان بها  
غير، فالحالة التي باعتبارها تحصل تلك السهولة هي الخلق ويدخل في حسن  
الخلق التحرز من الشح والبخل والغضب، والتشديد في المعاملات والتحجب  
إلى الناس بالقول والفعل، وترك التقاطع والهجران والتساهل في العقود كالبيع  
وغيره بما يلزم من حقوق من له نسب أو كان صهرا له وحصل له حقّ آخر.

المسألة الثالثة: قيل لعائشة: «أخبريني عن خلق رسول الله، قالت  
ألست قرأ القرآن؟ قلت: بلى قالت: فإنه كان خلق النبي عليه الصلّاة  
والسّلام" وسئلت مرة أخرى فقالت: كان خلقه القرآن، ثم قرأت: (قَدْ أَفْلَحَ

المؤمنون)، وهذا إشارة إلى أن نفسه المقدسة كانت بالطبع منجذبة إلى عالم الغيب، وإلى كل ما يتعلق بها، وكانت شديدة النفرة عن اللذات البدنية والسعادة الدنيوية بالطبع ومقتضى الفطرة1004.

فالخلق العظيم الذي نعت الله عزّ وجلّ خلق نبيه عليه الصّلاة والسّلام به هو درجة مثلى للتخلق بالأخلاق الحسنة، أي أن المنهج الأخلاقي الذي سلكه النبي الأكرم صلوات الله وسلامه عليه يمثل أعلى درجة في أمور منها:

1 . مثالية السلوك الإنساني.

2 . عظمة الاختيارات الأخلاقية.

3 . قدرة مطلقة على الانتهاء عن السالب الأخلاقي.

4 . أداء أمثل لمضامين الأخلاق الحسنى.

هذه المسائل يمكن لها أن تفسر إلى حد كبير طبيعة عظمة خلق النبي محمد عليه الصّلاة والسّلام الذي كان عليه.

ثانيا- الأسوة الحسنة

يقول الحقّ جلّ وعلا: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}1005.

في الآية دلالة على فضل الاقتداء بالنبي عليه الصّلاة والسّلام وأنه الأسوة الحسنة لا محالة ولكن ليس فيها تفصيل وتحديد لمراتب الائتساء والواجب منه والمستحب وتفصيله في أصول الفقه.

---

1004 - تفسير الرازي، ج 15، ص 436.

1005 - الأحزاب 21.

نقف الآن مع عدد من التساؤلات:

. هل الأسوة تُخلق بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم؟

. كيف يكون الاتّساء بالرّسول؟

إنّ الظاهر في لفظة أسوة أنّها لفظة عامة بمعنى أنّها غير مخصوصة

بدلالة معينة، وهذا يعني أمور منها:

1 . مطلّقة الاتّساء إلا ما اختص به الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

2 . مطلّقة الخلق الحسن

إنّ السياق القرآني في غاية الدقة والوضوح في التعبير عن المراد، فالترغيب بالاتّساء بالرّسول الأكرم محمّد عليه الصّلاة والسّلام يشمل كل أخلاقه صلّى الله عليه وسلّم، دون مخافة من الوقوع فيما يخالف عقيدة أو عرفاً لأنّ الله عزّ وجلّ أخبر أنّ كل الاتّساء بالنبي عليه الصّلاة والسّلام حسن أي هو من الموجب في الدين والدنيا وذلك راجع إلى أخلاق النبي صلّى الله عليه وسلّم، فلا وجود لما يقلق عليه المؤتسي في اتّسائه بالرّسول الكريم لأن مطلّقة الخلق الحسن بادية جلية في الآية الكريمة.

كان لكم في رسول الله أخلاق حسنة من حقّها أن يؤتسى ويقتدى بها كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد؛ ويجوز أن يراد بالأسوة القدوة بمعنى المقتدى على معنى هو عليه الصّلاة والسّلام في نفسه قدوة يحسن التأسى به، وفي الكلام صنعة التجريد وهو أن ينتزع من ذي صفة آخر مثله فيها مبالغة في الاتّصاف، والآية وإن سيقّت للاقتداء به عليه الصّلاة والسّلام في

أمر الحرب من الثبات ونحوه فهي عامة في كل أفعاله عليه الصلّاة والسّلام  
إذا لم يعلم أنّها من خصوصياته ككنكاح ما فوق أربع نسوة 1006.

من هنا تكون الأسوة الحسنة منهجا يحسن الاقتداء به في كل الأفعال  
دون تخصيص، فكرمه أسوة وصدقه أسوة ورحمته أسوة ورأفته أسوة وكل خلق  
فيه أسوة لمن يريد مثالية أخلاقية منهجا وسلوكا.

ثالثا: رءوف

كان الرّسول عليه الصلّاة والسّلام رءوفا بالنّاس، خلقا اختاره  
ليتواصل مع النّاس بالرّأفة والرّحمة مصداقا لقوله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ  
مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ  
رَّحِيمٌ} 1007.

والرّءوف هو من يحس بحال من هو مهم لديه، وهو الحريص على  
سلامته وأمنه وحفظه، يعلم بحاله وما هو عليه، ويعلم بما سيكون عليه،  
ويعلم بما سيقدم عليه.

وقد بين الله عزّ وجلّ وجوه رأفة النبي عليه الصلّاة والسّلام من حيث:

أ. إنّه من أنفسنا فهو عارف بأحوالنا وما نحب وما نكره لذلك اختار  
أن يكون رءوفا بنا في كل ما يتعلق بأمور ديننا ودنيانا.

ب. عزيز عليه ما عنتنا

ج. حريص علينا

---

1006 - تفسير الألوسي، ج 16، ص 68.

1007 - التوبة 128.

أي إنه بحال يشق عليه ضرركم وتعظم رغبته في إيصال خير الدنيا والآخرة إليكم، فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم في حقكم، والطبيب المشفق ربّما أقدم على علاجات صعبة يعسر تحملها، والأب الرحيم ربّما أقدم على تأديبات شاقة، إلا أنّه لما عرف أن الطبيب حاذق، وأن الأب مشفق، صارت تلك المعالجات المؤلمة متحملة، وصارت تلك التأديبات جارية مجرى الإحسان. فكذا ههنا لما عرفتم أنه رسول حقّ من عند الله، فاقبلوا منه هذه التكاليف الشاقة لتفوزوا بكل خير 1008.

ومن رأفته تعلقه بالفقراء من المسلمين يحن عليهم ويشاركهم مجلسهم، عن خباب بن الأرت، قال: نزلت واصبر نفسك مع الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي قال: كنا ضعفاء نجلس عند النبي عليه الصّلاة والسّلام بالغداة والعشي يعلمنا القرآن والخير، وكان يخوفنا بالجنّة والنّار، وما ينفعنا الله به، والبعث بعد الموت 1009.

رابعا: رحيم

الرّحمة قيمة علائقية، بها تلين القلوب وتقترب من بعضها بعضا من أجل ما يُفيد وينفع ذوي العلاقة سواء أكانوا أفراد أسرة أو عشيرة أو رفاق عمل أو جيرة أو أصحاب مصلحة أو مواطني دولة. فبدون الرّحمة لا يمكن أن تتكون العلاقات بين النّاس، وإذا انقطعت الرّحمة انقطعت العلاقات وإذا سادت بينهم سادت العلاقات، فعلى مستوى الأسرة لا يمكن أن يحدث التفكك؛ والرّحمة سائدة بين الوالدين والأبناء وبين الأخوة جميعا، ما يجعل الرّحمة شرطا رئيسا للرّحمة والوحدة وتبادل المحبة بين النّاس.

---

1008 - تفسير الرازي، ج 8، ص 191.

1009 - دلائل النّبوة، ج 1، ص 347.



ذكر سبحانه أخلاق نبيه عليه الصلّاة والسّلام من الرّحمة بالمؤمنين والحرص على ما ينفعهم في دينهم وأخراهم، والتألّم من كل ما يشق عليهم بقوله سبحانه ممّتنا على المؤمنين بإرساله: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ).

{فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} فهذه أخلاقه صلّى الله عليه وسلّم، أكمل الأخلاق، التي يحصل بها من المصالح العظيمة، ودفع المضار، ما هو مشاهد، فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والافتداء به، أن يكون كلا على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول؟ وإن رأى منهم معصية، أو سوء أدب، هجرهم، ومقتهم، وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق، قد حصل من هذه المعاملة، من المفساد، وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقرا لمن اتصف بصفات الرّسول الكريم 1010.

خامسا: كريم

كرم الرّسول محمّد عليه الصلّاة والسّلام أمر تدعّمه الآيات الكريمة وهي أقوى شهادة على كرمه عليه الصلّاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَدْكُرُونَ} 1011.

ويقول جلّ وعلا: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي فَوْةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ} 1012.

---

1010 - تفسير السعدي، 1 ج، ص 598..

1011 - الحاقة 40-42.

1012 - التكوير 19-21.

لا شك أن الآية وصفت محمد عليه الصلاة والسلام بأوصاف كثيرة ولكن حديثنا هنا عن الكرم يوجب التوقف مع سياق ذكره في السياق القرآني، فقد كان ذلك في قوله:

رسول كريم

هنا قد يتبادر تساؤلات هي:

أكان كرم الرسول مقرونا برسالته؟

ألم يكن كريما قبل الرسالة؟

هل هو كريم لأنه رسول؟

هل الكرم متصل بالعقيدة؟

إن الحديث عن هذه المسائل يوجب الوقوف عند بعض الحقائق ومن أهمها:

إن محمدا كان رسول من قبل أن يولد، في دعوة إبراهيم مصداقا لقوله تعالى: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } 1013.

وفي توراة موسى مصداقا لقوله تعالى: { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } 1014.

---

1013 - البقرة 129.

1014 - الأعراف 157.

وفي بشارة عيسى، {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} 1015.

وعليه هو كريم مذ كان، فكرمه خلق أصيل فيه، سلوكه ونهجه في التعاطي مع الآخر يصدر من كرم أخلاقه، فالكرم المحمدي لم يقتصر على السلوك المادي المتمثل في الإطعام أو الاكساء أو أي من أنواع العطاء، إنه أصل في كل العلاقات التي أقامها عليه الصلّاة والسّلام مع الأفراد أو الجماعات.

يقول الحقّ تعالى أن محمّدا صلّى الله عليه وسلّم: {وَمَا هُوَ عَلَى الْعَيْبِ بِضَنِينٍ} 1016، فقد نفى الله عزّ وجلّ عن رسوله أن يكون بخيلا، أو أن يكون متهما بكتمان ما أرسله الله به وليس ببخيل بما أنزل الله عليه بل يبذله لكل أحد.

وأنّ رسول الله عليه الصلّاة والسّلام قبل أن يبعثه الله بالرسالة العظمى في الذروة العليا من الأخلاق الحسنة صدقا وأمانة وكرما وحلما وشجاعة وعفة وقناعة وغير ذلك من الصفات التي يحظى بالإجلال والإكبار من حصل على واحدة منها فضلا عن جمعته له وتوفرت فيه.

ولما بعثه الله سبحانه بالتّور والهدى إلى الثقلين الجن والإنس زاده الله فوّة في هذه الخصال الحميدة إلى قوته حتى بلغ الحد الأعلى الذي يمكن أن يصل إليه إنسان مصدق رسول الله عليه الصلّاة والسّلام حيث قال: "إنّما بعثت لأتمّ صالح الأخلاق" 1017

---

1015 - الصف 6.

1016 - التكوير 24.

1017 - شعب الإيمان للبيهقي، ج 17، ص 8.

وبلغ صلوات الله وسلامه عليه في خلق الجود والكرم مبلغا لم يبلغه غيره، ووصل فيه إلى الغاية التي ينتهي عندها الكمال الإنساني. ومن توفيق الله له عليه الصلّاة والسّلام أن جعل جوده يتضاعف في الأزمنة الفاضلة يقول ابن عباس رضي الله عنه في الحديث الصحيح: "كان رسول الله عليه الصلّاة والسّلام أجود النّاس بالخير، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن فإرسول الله عليه الصلّاة والسّلام أجود بالخير من الريح المرسلة"1018.

جاد بنفسه في سبيل الله فكسرت ربّاعيته وشج وجهه وسال الدم منه صلوات الله وسلامه عليه. والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

عن أنس بن مالك، قال: "كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، إذا صافح، أو صافحه الرجل، لا يزرع يده من يده حتى يكون الرجل يزرع، وإن استقبله بوجهه لا يصرفه عنه حتى يكون الرجل ينصرف، ولم ير مقدما ركبته بين يدي جليس له"1019

سابعاً: حيي

قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ }1020.

يستدعى المعنى في الآية أن يكون المستحي منه أمراً حقاً متعلقاً بهم لأنفسهم وما ذاك إلا إخراجهم. يعني إن إخراجكم حقّ فينبغي ألا يترك

---

1018 - صحيح مسلم، ج 7، ص 73.

1019 - دلائل النبوة للبيهقي، ج 1، ص 295.

1020 - الأحزاب 53.

حياء ولذلك لم يترك الله ترك الحبي وأمركم بالخروج والتعبير عن عدم الترك بعد الاستحياء للمشاكله وكان عليه الصلّاه والسّلام اشدّ النَّاس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء وهو التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته. والحياء رقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهته أو ما يكون تركه خيرا من فعله 1021.

قال الراغب الحياء انقباض النفس من شيء وتركه حذرا عن اللوم فيه، وهو نوعان: نفسان، وهو الذي خلقه الله تعالى في النفوس، كلها كالحياء من كشف العورة، أو غير ذلك من الموجب للحياء، وإيماني، وهو أن يمنع المؤمن من فعل المعاصي خوفا من الله تعالى 1022.

وحياء النبي عليه الصلّاه والسّلام يجمع كل دلالات الحياء وما فيها من مضامين، ولو توقفنا مع جو الآية: (إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ) لشعرنا بصدق حياء الرسول عليه الصلّاه والسّلام مع أصحابه حتى أنه يستحي أن يؤذيهم بالإفصاح عما يؤذيه، إنه خلق أصيل عظيم وأمثلة وهذه هي حقيقة الأسوة الحسنة التي يجب أن يتحلّى بأخلاقها المؤمن الحقّ.

يروى أبو سعيد الخدري، يقول: "كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أشدّ حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه" 1023.

ثامنا: صادق

---

1021 - تفسير حقّي، ج 11، ص 100.

1022 - التعريفات، ج 1، ص 31

1023 - صحيح البخاري، ج 12، ص 306.

أعترف الأعداء قبل الاتباع بصدق الرسول الكريم مصداقا لقوله تعالى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} 1024.

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أن طوائف الكفار كانوا فرقا كثيرين، فمنهم من ينكر نبوته لأنه كان ينكر رسالة البشر ويقول يجب أن يكون رسول الله من جنس الملائكة وقد ذكر الله تعالى في هذه السورة شبهة هؤلاء وأجاب عنها.

ومنهم من يقول: إنَّ محمداً يخبرنا بالحشر والنشر بعد الموت وذلك محال. وكانوا يستدلون بامتناع الحشر والنشر على الطعن في رسالته.

وقد ذكر الله تعالى ذلك وأجاب عنه بالوجوه الكثيرة التي تقدم ذكرها ومنهم من كان يشافهه بالسفاهة وذكر ما لا ينبغي من القول وهو الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية.

المسألة الثانية: معنى (لَا يُكَذِّبُونَكَ) أي لا يصادفونك كاذبا لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة كما يقال أحمدت الرجل إذا أصبته محمودا فأحبهته وأحسنت محمّده إذا صادفته على هذه الأحوال.

المسألة الثالثة: ظاهر هذه الآية يقتضي أنهم لا يكذبون محمداً عليه الصلّاة والسّلام ولكنهم يجحدون بآيات الله، روي أن أحدهم قال لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمّد أصادق هو أم كاذب فإنه ليس عندنا أحد غيرنا، فقال له والله إن محمداً لصادق وما كذب قط؟ ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابه والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش فنزلت هذه الآية.

فهم لا يقولون إن محمد عليه الصلّاة والسّلام كذاب لأنهم جربوه  
الدّهر الطويل والزّمان المديد وما وجدوا منه كذبا، وسموه بالأمين فلا يقولون  
فيه إنّه كاذب ولكن جحدوا صحة نبوته ورسالته، وبهذا التقدير: لا ينسبونه  
إلى الكذب أو لانهم قالوا: إنّه ما كذب في سائر الأمور، بل هو أمين في  
كلها إلا في هذا الوجه الواحد 1025.

تاسعا: معلم

يقول الحقّ سبحانه: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو  
عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي  
ضَلَالٍ مُبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ  
يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} 1026.

والتساؤل الذي يطرح:

هل يكون من خلق النبي عليه الصلّاة والسّلام أن يكون معلما؟

نعم فالمرء عندما يكون معلما فإنه يتخلق بأخلاق فاضلة عديدة تجعله  
في موضع التواصل مع أتباعه، والتواضع في معارفه إلى مستوى قدراتهم  
الاستيعابية، والصبر على جهلهم ليتعلموا، ونسيانهم ليتذكروا وذلك بتوجيهه  
وتربيته وتعليمه لأصحابه.

فعلى الرغم من انشغال رسول الله عليه الصلّاة والسّلام بالجهاد  
ومجالدة الشرك وأهله، إلا أنّه كان دائما مع أصحابه مخالطا ومعايشا ومُربيا  
وموجّها، ومعلّما لهم على اختلاف أحوالهم وأعمارهم، ولا يترك موطنًا من

---

1025 - تفسير الرازي، ج 6، ص 269.

1026 - الجمعة 2.

مواطن الزلل أو جانباً من جوانب الخطأ إلا وأصلحه وبينه، ولا موطناً من موطن الخير إلا حثهم عليه ورغبهم فيه 1027.

وقد أكد المولى جلّ وعلا على هذا الخلق الكريم، وفصل فيه فقال عزّ من قائل: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} 1028.

ومنها قوله: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَادْكُرُونِي أَدْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} 1029.

هنا نتساءل:

ما كان غاية المعلم؟

لقد كانت غايات أخلاقية فسرتها الآية بأنها:

تزكي الأتباع

تعليمهم الحكمة

والغايات الأخلاقية تنطلق بالضرورة من مصادر أخلاقية، لذا فقد كانت تزكية النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه تصدر عن خلق زكي، والزكي هو الخالص من كل شائب.

---

1027 - موسوعة الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ج 1، ص 240.

1028 - آل عمران 164.

1029 - البقرة 151.



أمّا تعليم الحكمة فهي أقرب ما تكون إلى تعليم أمثل للخلق، لأنّ الحكمة علم يبحث فيه حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية، فهي علم نظري غير آلي.

والحكمة أيضا: هي هيئة الفؤة العقلية العلمية المتوسطة بين الغريزة التي هي إفراط هذه الفؤة، والبلادة التي هي تفريطها. وتجيء على ثلاثة معان: الأوّل: الإيجاد. والثاني: العلم. والثالث: الأفعال المثلثة، كالشمس والقمر وغيرهما، وقد فسر ابن عباس، رضي الله عنهما، الحكمة في القرآن، بتعلم الحلال والحرام، وقيل: الحكمة في اللغة: العلم مع العمل، وقيل: الحكمة يستفاد منها ما هو الحقّ في نفس الأمر بحسب طاقة الإنسان، وقيل: كل كلام وافق الحقّ فهو حكمة، وقيل: الحكمة هي الكلام المقول المصون عن الحشو.

وقيل: هي وضع شيء في موضعه.

وقيل: هي ما له عاقبة محمودة 1030.

هذه المعاني كلها إذا تحققت عند إنسالا شكّ أن ترتقي عنده الأخلاق رقيا يجعله في مصاف المؤتسي بمعلمه، لذلك كان النبي عليه الصلّاة والسّلام يعلم أتباعه الحكمة لكي يأتسوا به في حكمته وفي تعليم الحكمة لآخرين غيرهم.

والحكمة التي كان الرّسول عليه الصلّاة والسّلام يعلمها لأصحابه تتضمن أمور كثيرة منها:

1. أسلوب الحوار

شكل الحوار مع الآخر مهمة رئيسة للنبوة على مر تترها، لان النبوة تستهدف الآخر لذلك فإن الحوار مع الآخر غاية أساسية لذلك، ويجب تحديد ملامح هذا الحوار من حيث:

المضمون

الأسلوب

وقد علّم الله عزّ وجلّ رسوله إتباع هذين الأمرين بقوله عز من قائل:  
{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ  
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } 1031.

أمر الله تعالى محمدا عليه الصّلاة والسّلام أن يدعو النّاس بأحد هذه الطرق الثلاثة وهي:

الحكمة

الموعظة الحسنة

المجادلة بالطريق الأحسن

أنّ الدعوة إلى العقيدة الصحيحة والأخلاق الحميدة لا بدّ وأن تكون مبنية على حجة وبينة، والمقصود من ذكر الحجّة، إما تقرير تلك العقيدة في قلوب المتلقين، وإما أن يكون المقصود إلزام الخصم وإفحامه.

أمّا القسم الأول: فينقسم أيضا إلى قسمين: لأنّ الحجّة إمّا أن تكون حجة حقيقيّة يقينية قطعية مبرأة عن احتمال النقيض، وإما ألا تكون كذلك، بل تكون حجة تفيد الظن الظاهر والإقناع الكامل، فظهر بهذا التقسيم انحصار الحجج في هذه الأقسام الثلاثة:

الأول: الحجّة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية، وذلك هو المسمى بالحكمة، وهذه أشرف الدرجات وأعلى المقامات، وهي التي قال الله في صفتها: {وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} 1032.

الثاني: الأمارات الظنية والدلائل الإقناعية وهي الموعدة الحسنة.

الثالث: الدلائل التي يكون المقصود من ذكرها إلزام الخصوم وإفحامهم، وذلك هو الجدل، ثم هذا الجدل على قسمين:

القسم الأول: أن يكون دليلا مركبا من مقدمات مسلمة في المشهور عند الجمهور، أو من مقدمات مسلمة عند ذلك القائل، وهذا الجدل هو الجدل الواقع على الوجه الأحسن.

القسم الثاني: أن يكون ذلك الدليل مركبا من مقدمات باطلة فاسدة إلا أن قائلها يحاول ترويحها على المستمعين بالسفاهة والشغب، والحيل الباطلة، والطرق الفاسدة، وهذا القسم لا يليق بأهل الفضل، وذلك هو المراد بقوله تعالى: (وجادلهم بالتي هي أحسن) فثبت بما ذكرنا انحصار الدلائل والحجج في هذه الأقسام الثلاثة المذكورة في هذه الآية 1033.

2. العلم حدث مالك بن أنس، قال: قال زيد بن أسلم: إن الحكمة: العقل، قال مالك: وإنه ليقع في قلبي، أن الحكمة هي الفقه في دين الله وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلا في أمر الدنيا، إذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفا في أمر دنياه، علما

---

1032 - البقرة 269.

1033 - تفسير الرازي، ج 9، ص 488.

بأمر دينه، بصيرا به، يؤتية الله إياه، ويحرمه هذا، فالحكمة: الفقه في دين الله 1034.

هذه من الحكمة التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام يعلمها لأصحابه والناس من بعد لتكون مصدرا تستمد من الفضائل الأخلاقية وتصدر عنه في الوقت ذاته.

وهكذا فإن الحديث عن أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام فضاء لا يمكن الإمام به لأن أخلاقه أوسع من أن نلم بها أو بجيشتها، فرجاؤه وخشيته لربه، وجوده وكرمه وإيثاره وحياته ووفائه وصدقة وأمانته وإخلاصه وشكره وصبره وحلمه وكثرة احتمالته، ورفقه بأمتة وحرصه على التيسير عليها، وعفوه وشجاعته وتواضعه وعدله وزهده وقناعته، وصلته لرحمه، وتبسمه، وعفته وغيرته، إلى غير ذلك كلها وغيرها من خلقه صلى الله عليه وسلم.

### أبعاد الهجرة:

#### 1- الهجرة حلا

لماذا تُعد الهجرة حلا؟

ولمن كانت حلا؟

وكيف هي حل؟

بادئ ذي بدء نعود بأذهاننا إلى ما قلنا سابقا على أن الهجرة لم تكن هروبا ولم تكن كذلك قرار المشركين من كفار قريش، بل هي إرادة الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا يعني التأكيد على أن الهجرة كانت حلا لأمر كثيرة تتعلق بكل من:

الدعوة

المؤمنين

المشركين

قدمت الهجرة للدعوة الإسلامية الجديدة مساحة مكانية تكون بمثابة المنطلق المكاني الذي تنطلق منه لتبلغ أصقاع ما كانت لتبلغها لو بقيت تحت حصار المشركين في مكة، لتخاطب عقول أصمها الضجيج من حولها وتفتح أعين تغشاها الباطل من قبل بما كان موروثا من هزيل العقائد البالية التي أقروا بأنها لم تكن من صميم عقيدتهم بل كانت موروثا اتبعوه كما يجبرنا عنهم العليم الخبير: {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ} 1035.

والى جانب هذا المنطلق المكاني أعطت الهجرة فترة من الزمن الذي يتجرد فيه العمل الدعوي من المؤثرات المعاكسة لأهدافه حيث يمكن التخطيط والعمل ثم التنفيذ بدون معوقات مانعة للتطبيق، بمعنى آخر إن الدعوة الجديدة كانت بأمس الحاجة إلى زمن تستغرقه من اجل تحقيق الغايات المنشودة، وهذا الزمن لم يكن ليتحقق في مكة وذلك ليس بسبب انعدام الزمن ولكن بسبب عدم امتلاك المسلمين قدرة التصرف بالزمن بما يوافق الدعوة ومتطلباتها إذ كان العمل الدعوي غالبا ما يكون خلصة أو في غفلة قريش وهذا لا يمكن له إلا أن يهيا الحد الأدنى من النجاح في مجال الدعوة، وهو هدف غير مدرج في مسيرة الدعوة وأسسها، فهذه الدعوة هي الرسالة الخاتمة التي يجب أن تبلغ الناس جميعا، وهذا غير متحقق لان زمام الزمن كان بيد المشركين من قريش ولم يكن المسلمون يملكون إلا القليل منه،

لذلك كانت الهجرة حلا من هذا الجانب أيضا من حيث أنها منحت الدعوة زمنا خالصا للعمل الدعوي.

وهنا مسألة أخرى مهمة تتعلق بالدعوة هي حاجتها إلى المرتكز التطبيقي لمبادئها، وهذا لم يتحقق لولا الهجرة، فكل ما حصل في مكة للدعوة الإسلامية كان يتمثل بالطرح النظري للدعوة الجديدة ولم يتهيا لها بسبب ما عانت من رفض المشركين تطبيق هذا التنظير إلا في قليل من الأمور المرتبطة بالعقيدة أما تفصيلات ما جاءت به وعلى مستوى عموم المؤمنين فلم يتحقق ذلك بسبب عدم إمكان الظهور الدعوي لأنه يمثل آنذاك الذهاب إلى التهلكة التي منع الله عزّ وجلّ المؤمنين من الاقتراب من أسبابها مصداقا لقوله تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} 1036.

إنّ كلّ المبادئ النظرية لا بدّ لها من أن تتحقّق على الأرض لتحقّق النجاح وبذلك يتسنى لها امتلاك أسباب الفوّة للتأثير في المستهدفين بالدعوة، وهكذا فإن الدعوة الإسلامية لو بقيت دعوة نظرية لم تطبق مبادئها على الأرض ما كان لها أن تحقّق هذا النجاح الهائل الذي حقّقه بعد الهجرة، وتمثل بالقليل الموثوق وهو باب العبادات والمعاملات والأحكام في الشريعة الإسلامية، هذا الباب لو لم تحصل الهجرة لم يكن ليتحقّق إلا على صعيد ضعيف وهذا لا يتيح للدعوة أن تكشف عن نفسها بما قد يُسفر عن بهائها وصدقها وأن يظهر الحقّ الذي فيها، لذلك فقد كانت الهجرة حلا من هذا الجانب أيضا.

وهكذا فإن الهجرة قدمت للدعوة الإسلامية منطلقا مكانيا ومساحة زمنية ومرتكزا تطبيقيا وهي على هذا الأساس كانت حلا للدعوة.

أما كون الهجرة حلا للمؤمنين فقد قدمت لهم حلولا على صعيدين

هما:

الصعيد الدنيوي

الصعيد الديني

فالهجرة حلا دينيا ودنيويا مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} 1037.

فالمرء يمكن أن يكون له في وطنه نوع من الراحة والرفاهية، فيقول لو فارقت الوطن وقعت في الشدة والمشقة وضيق العيش، فأجاب الله عنه بقوله: (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً) ويقال: راغمت الرجل إذا فعلت ما يكرهه ذلك الرجل وقولهم: رغم أنفه كناية عن الذل.

وهكذا فإن هذه المراغمة إنما حصلت بسبب أنهم فارقوا وخرجوا عن ديارهم.

يا أيها الإنسان إنك كنت إنما تكره الهجرة عن وطنك خوفا من أن تقع في المشقة والمحنة في السفر، فلا تخف فإن الله تعالى يعطيك من النعم الجليلة والمراتب العظيمة في مهاجرتك ما يصير سببا لرغم أنوف أعدائك، ويكون سببا لسعة عيشك، وإنما قدم في الآية ذكر رغم الأعداء على ذكر سعة العيش لأن ابتهاج الإنسان الذي يهاجر عن أهله وبلده بسبب شدة

ظلمهم عليه ببلده من حيث إنها تصير سببا لرغم أنوف الأعداء، أشد من ابتهاجه بتلك البلد من حيث إنها صارت سببا لسعة العيش عليه.

وأما المانع الثاني من الإقدام على المهاجرة فهو أن الإنسان يقول: إن خرجت عن بلدي في طلب هذا الغرض، فربما وصلت إليه وربما لم أصل إليه، فالأولى ألا أضيع الرفاهية الحاضرة بسبب طلب شيء ربما أصل إليه، وربما لا أصل إليه، فأجاب الله تعالى عنه بقوله: (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مهاجرا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموت فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) 1038.

ولكن كيف يمكن أن تكون الهجرة حلا للمشركين؟

نأخذ هذا الأمر على مسارين هما:

حل مادي

حل عقائدي

الحل المادي يتمثل في عودة الحياة المادية للمشركين من قريش إلى ما كانت عليه من سياقات بعد خروج المسلمين من مكة، ويتمثل ذلك بعودتهم إلى تجارتهم وإلى مصالحهم المادية وإلى خياراتهم الحياتية التي تأثرت بالدعوة الجديدة مما أحدث نوعا من الارتباك في تطبيقاتها.

هنا نتساءل:

هل يمثل هذا حلا؟

نقول من حيث الواقع هو حل لمن يريد أن يعيش في هذا المسار ويصر عليه فهو حل له، لكنه بكل تأكيد حل موصوف بأحد وصفين على الاحتمال هما:



حل مؤقت

حل وخيم العاقبة

حل مؤقت لأنه سينتهي بانتصار المسلمين على المشركين وبالتحديد يوم الفتح بالنسبة للمشركين في قريش، { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } 1039.

وعليه بعد هذا أن يختار له حلا جديدا وهو مخير في ذلك وهنا مسألة نريد التأكيد عليها، فحتى بعد فتح مكة لم يفرض على مشرك أن يؤمن بالله الواحد الأحد ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، بل ظل أمامهم خيار القبول والرفض، ومما يؤكد ذلك ما حصل في الفتح من ملاقتهم الرسول عليه الصلاة والسلام "فقال لهم حين اجتمعوا في المسجد: ما ترون أي صانع بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء" 1040.

الطلاق هنا الأحرار الذين لهم الخيار فيما يختارون، وهكذا فإن الهجرة كانت حلا من هذا الجانب لبعض المشركين من مكة لأنها أعطتهم فرصة من أجل اختيار ما يرونه صوابا في هذا الأمر.

أما كون الهجرة حلا عقائديا فهي كذلك وتصديقه كثرة من آمن بعد الهجرة من مشركي قريش، حيث تركت الهجرة فراغا في مكة سمح لمن أراد

---

1039 - الفتح 1-4.

1040 - معرفة السنن والآثار للبيهقي، ج 4، ص 417.

بإعادة التفكير فيما حصل ثم إقامة الموازنة بين العقيدة الجديدة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام وبين عقيدة موروثه ليس لها أثر حقيقي في النفوس سوى كونها من موروثات الآباء، هذه الموازنة رجحت عند كثير من أبناء مكة والعرب الآخرين كفة الإسلام الأمر الذي دفعهم إلى الإيمان بالله ورسوله خيارا محضا خالصا من كل المؤثرات.

وتشير عدد من الآيات إلى ذلك مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ} 1041

وفي الآية بيان حكم المتصددين لمبادئ التوبة من سماع كلام الله تعالى والوقوف على شعائر الدين اثر بيان حكم التائبين عن الكفر والمصرين عليه، وإن استجارك أحد من المشركين استجارك أي استأمنك وطلب مجاورتك بعد انقضاء الأجل (الأشهر الحرم) فَأَجِرْهُ أي فآمنه حتى يَسْمَعَ كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة ما تدعو إليه والاختصار على ذكر السماع لعدم الحاجة إلى شيء آخر في الفهم لكونهم من أهل اللسن والفصاحة، والمراد بكلام الله تعالى الآيات المشتملة على ما يدل على التوحيد ونفي الشبه والشبيه، ذلك أي الأمان أو الأمر بِأَنَّهُمْ أي بسبب أنهم قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ما الإسلام وما حقيقة ما تدعوهم إليه أو قوم جهلة فلا بد من إعطاء الأمان حتى يفهموا ذلك ولا يبقى لهم معذرة أصلا 1042.

---

1041 - التوبة 6.

1042 - تفسير الألوسي، ج 7، ص 161.

أما الموقف من هؤلاء فقد بينه قوله تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ  
بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ  
سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 1043.

بل نزلت في قوم أقدموا على ذنوب، ثم جاءوه عليه الصلابة والسلام  
مظهرين للندامة والأسف، فنزلت هذه الآية فيهم والأقرب من هذه الأقاويل  
أن تحمل هذه الآية على عمومها، فكل من آمن بالله دخل تحت هذا  
التشريف 1044.

عليه فإن الموقف من هؤلاء القادمين من مكة إلى المدينة ليؤمنوا هو:

أ- قبولهم في المجتمع الإسلامي الجديد.

ب- منحهم الأمان.

ج- معاملتهم بالرحمة.

د- تبشيرهم بالمغفرة الإلهية.

هنا تبادر تساؤل:

هل يُعد هؤلاء مهاجرون؟

هذا التساؤل مصدره أنهم خرجوا من مكة إلى المدينة قبل الفتح،  
والحديث الصحيح يشير إلى فترة زمنية محددة يُحسب فيها الخروج على أنه  
هجرة وهو ما قبل الفتح، فقد سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ

---

1043 - الأنعام 54.

1044 - تفسير الرازي، ج 6، ص 302.

الهِجْرَةَ فَقَالَ «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيَّةٌ وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا» 1045.

ومن نص الحديث يتبين أن من خرج من مكة إلى المدينة قبل الفتح يمكن أن يُعد من المهاجرين لأنه لم يدخل زمن المجاهدة بعد وإنما هو في زمن الهجرة، لذا فالهجرة ظلت مستمرة إلى الفتح، فلم تكن حادثة طارئة بل هي قرار بإرادة يستهدف التغيير لصالح نجاح الدعوة الإسلامية.

## 2- المناصرة

من الأبعاد المهمة التي أفرزتها الهجرة تحقق المناصرة، وهو مبدأ مؤسس لقيم وفضائل جديدة كونه يهدف لقيام علاقات من نوع جديد لم يألّفها العرب من قبل بهذه الصورة التي أخذت شكلا تشكلا وفق منهج محدد وعلى أسس ومبادئ واضحة.

ولمعرفة ماهية المناصرة من المهم الوقوف مع الجذر اللغوي للكلمة ودلالاتها، ولا بأس من التوقف مع الجذر أولا.

معلوم أن المناصرة جذرها نصر، وتنص المعاجم على أنها من النصر الذي هو عَوْنُ المظلوم، وانتَصَرَ الرجل: انتَقَمَ من ظالمه.

والنُصْرَةُ: حُسْنُ المَعُونَةِ 1046.

وَنَصْرَتُهُ عَلَى عَدُوِّهِ وَنَصْرَتُهُ مِنْهُ نَصْرًا أَعْنَتُهُ وَقَوَّيْتُهُ وَالْفَاعِلُ نَاصِرٌ وَنَصِيرٌ وَجَمْعُهُ أَنْصَارٌ 1047.

---

1045 - صحيح مسلم، ج 6، ص 28.

1046 - معجم العين، ج 2، ص 35.

1047 - المصباح المنير، ج 9، ص 320.

فالنصر يشتمل على تقديم العون والإمداد بالقوة والانتقام من العدو، فإذا تحققت هذه القضايا بين الجماعات كانت مناصرة، وَتَنَاصَرَ الْقَوْمُ مُنَاصِرَةً نَصَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا 1048.

عليه فالمناصرة لا تتحصل بنصر جماعة لجماعة أخرى، بل تتحقق بالنصر المتبادل من الجماعتين إحداهما للأخرى فهؤلاء أنصار وتلكم أنصار، وهذه كما نعتقد تكشف عن كثير من خصائص العلائق بين المهاجرين والأنصار، فهم كما تدل الآيات جماعتان مختلفتان في كينونتها لكنهما تشتركان في صفة أو أكثر، يقول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ 1049.

والنص واضح الدلالة على أن المهاجرين غير الأنصار من حيث الكون مع وجود صفات مشتركة دل عليها النص وفسرها السياق.

فما هي الصفات المشتركة بينهما؟

أولى هذه الصفات أنهم من السابقين الأولين وهذا مذكور بالنص (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ).

أما الصفة الثانية فهي أن بينهم مناصرة وهذه يفسرها السياق فالأنصار نصروا المهاجرين، والمهاجرون بدورهم نصروا الأنصار لأن بينهم مناصرة، ومن يقول بغير ذلك يقر على المهاجرين صفة الخذلان للأنصار وهذا محال وغير متحقق في الواقع أصلا.

---

1048 - المصباح المنير، ج 9، ص 320.

1049 - التوبة 100.

عليه فالأنصار هنا صفة لا تقتصر على فعل الأنصار مع المهاجرين، بل هي تتسع لتشمل دور آخر يتمثل بنصرة الدين بكل المستطاع.

هنا يتبادر التساؤل:

هل كان النصر تكليفا مخصوصا للأنصار؟

هل المهاجرون غير مقصودين بالسعي لتحقيق النصر؟

نقول أولا إن اختصاص بعض المؤمنين بأمر دون آخرين متحقق في الرسائل السابقة كما اختار موسى من قومه لميقات ربه مصداقا لقوله تعالى: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَهْلَكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ} 1050.

والاختصاص بالنصرة متحقق على وجه التحديد كما حصل مع عيسى عليه الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمْنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} 1051.

والنصر المأمور به هنا نصر دين الله الذي آمنوا به بأن يثبتوه ويثبتوا على الأخذ به دون اكتراث بما يلاقونه من أذى من المشركين وأهل الكتاب، قال تعالى: {لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم

---

1050 - الأعراف 155.

1051 - الصف 14.

الأمر {1052، وهذا هو الذي شبه بنصر الحواريين دين الله الذي جاء به عيسى عليه الصلاة والسلام، فإن عيسى لم يجاهد من عاندوه، ولا كان الحواريون ممن جاهدوا ولكنه صبر وصبروا حتى أظهر الله دين النصرانية وانتشر في الأرض ثم دبّ إليه التغيير حتى جاء الإسلام فنسخه من أصله.

والأنصار: جمع نصير، وهو الناصر الشديد النصر.

والأنصار المراد به دلالة اسم الفاعل المفيد للإحداث، أي محدثين النصر 1053.

بعد هذا نتساءل:

لماذا حُصَّ الأنصار بهذه الصفة؟

نقول الأمر على اليقين لا على الاحتمال أن الأنصار خصوا بذلك لتوفر مقومات النصر فيهم وهي:

العدد

العدة

الموطأ

لذلك فإنّ دقة الإعجاز هي التي فصلت بين المهاجرين والأنصار ولم تجمعهم من باب ما ذكرنا من كونهم جماعتين مختلفتين يشتركان في صفة أو أكثر ويختلفان في صفة أو أكثر، فقد اختلفوا في:

1. كون الجماعة الأولى مهاجرة والأخرى مقيمة.

---

1052 - آل عمران 186.

1053 - تفسير ابن عاشور، ج 15، ص 70.

2. كذلك يختلفان في امتلاك أسباب النصر.

فالمهاجرون لم يمتلكوا من أسباب النصر كما امتلك الأنصار، فلا عددهم ولا عدتهم تؤهلهم لتحقيق النصر، كما أنهم يفتقدون العمق الاستراتيجي (موطأ الأرض) الذي يساهم إلى حد كبير في تحقيق النصر.

عليه فالأنصار لم يكونوا أنصاراً لأنهم ناصروا إخوانهم من المهاجرين فحسب بل لأنهم امتلكوا أسباب تحقيق النصر أكثر من المهاجرين لذلك ساهم القرآن أنصاراً لصفته المتحققة فيهم لا على المدح والثناء كما قد يُظن.

ويؤكد ما ذهبنا إليه حادثة موثقة في السيرة الصحيحة هي أنه لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بن عمهم وذرايرهم، ومع رسول الله عليه الصلاة والسلام عشرة آلاف والطلاق، فأدبروا عنه حتى بقي وحده، فنادى يومئذ نداءين لم يخلط بينهما، التفت عن يمينه فقال: "يا معشر الأنصار" قالوا: لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك.

ثم التفت عن يساره فقال: "يا معشر الأنصار" فقالوا: لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك، وهو على بغلة بيضاء، فنزل فقال: "أنا عبد الله ورسوله".

فانهزم المشركون وأصاب يومئذ مغام كثيرة فقسم بين المهاجرين والطلاق ولم يعط الأنصار شيئاً، فقالت الأنصار: إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا! فبلغه ذلك فجمعهم في قبة فقال: "يا معشر الأنصار ما حديث بلغني؟" فسكتوا فقال: "يا معشر الأنصار ألا ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون برسول الله تحوزونه إلى بيوتكم؟" قالوا: بلى



فقال: "لو سلك النَّاس واديا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار"1054.

نعود الآن إلى ماهية المناصرة المتحققة بين المهاجرين والأنصار ونتساءل:

هل كانت مناصرة دنيوية؟

أم عقديّة؟

أم الاثنين معا؟

تذكر مسيرة الدعوة أن المناصرة الدنيوية تحققت بين المهاجرين والأنصار وتمثل ذلك بما حصل من مشاركة مادية بين الجماعتين إلى جانب ما تحقّق من تواصل عاطفي بينها وهذا أمر لا نريد الخوض فيه، فقد أسهبت كتب السير في بيان تفصيلاته ونحيل القارئ إليها ليعرف الكم الكبير من التلاقي المادي والعاطفي بين المهاجرين والأنصار.

ولكن نريد الوقوف مع قضية المناصرة العقديّة التي نعتقد أنّها الأهم في بيان هذا الجانب من المناصرة.

ونبدأ بالتساؤلات:

هل هي لله عزّ وجلّ؟

هل هي للرسول صلّى الله عليه وسلّم؟

هل المناصرة العقديّة بينية؟

---

1054 - السيرة النبوية لابن كثير، ج 3، ص 676.

نعتمد أن المناصرة الحقّة هي أصرة تدل على الفؤة التي يشكّلها المجموع، ومن هنا فالموجب في المناصرة أن تكون لله ورسوله وللمؤمنين وهي عزة كما يقول الحقّ جلّ وعلا: {يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} 1055.

عليه فالمناصرة ليست لله وحده لأن الله هو الغني عن عون من سواه، أما قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} 1056.

فليس المقصود أن يكون النصر من العبد لله، بل معنى نصرهم الله: نصر دينه ورسوله عليه الصلّاة والسّلام لأن الله غني عن النصر في تنفيذ إرادته كما قال: {ولو يشاء الله لانتصر منهم} 1057.

وفي نصر الله تعالى وجوه:

الأول: إن تنصروا دين الله وطريقه.

الثاني: إن تنصروا حزب الله وفريقه.

الثالث: طاعة أمر الله، فنقول النصر تحقيق مطلوب أحد المتعاضدين عند الاجتهاد والأخذ في تحقيق علامته، فالشيطان عدو الله يجتهد في تحقيق الكفر وغلبة أهل الإيمان، والله يطلب قمع الكفر وإهلاك أهله وإفناء من اختار الإشراك بجهله، فمن حقّ نصره الله حيث حقّ مطلوبه 1058.

---

1055 - المنافقون 8.

1056 - محمد 7.

1057 - محمد 4.

1058 - تفسير الرازي، ج 14، ص 86.

كذلك لا تكون المناصرة لرسول وحده، لان النصر متحقق مع الرسول عليه الصلاة والسلام بدوئهم مصداقا لقوله تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} 1059.

هذا إخبار من الله عزّ وجلّ لأصحاب رسوله عليه الصلاة والسلام أنّه المتوكّل بنصر رسوله على أعداء دينه وإظهاره عليهم دوئهم، أعانوه أو لم يعينوه، وتذكيرٌ منه لهم فعل ذلك به، وهو من العدد في قلة، والعدو في كثرة، فكيف به وهو من العدد في كثرة، والعدو في قلة؟

يقول لهم جل ثناؤه: إلا تنفروا، أيها المؤمنون، مع رسولي إذا استنفركم فتنصروه، فالله ناصره ومعينه على عدوّه ومغنيه عنكم وعن معونتكم ونصرتكم؛ كما نصره (إذ أخرجهم الذين كفروا) 1060.

كما إن نفي أن يكون قعودهم عن النفير مُضِرّاً بالله ورسوله، يثير في نفس السامع سؤالاً عن حصول النصر بدون نصير، فبيّن بأنّ الله ينصره كما نصره حين كان ثاني اثنين لا جيش معه، فالذي نصره حين كان ثاني اثنين قدير على نصره وهو في جيش عظيم، فتبيّن أنّ تقدير قعودهم عن النفير لا يضّر الله شيئاً.

والضمير المنصوب ب (تنصروه) عائد إلى النبي عليه الصلاة والسلام وإن لم يتقدّم له ذكر، لأنّه واضح من المقام.

بمعنى ألا تنصروه فهو غني عن نصرتكم بنصر الله إيّاه إذ قد نصره في حين لم يكن معه إلا واحد لا يكون به نصر فكما نصره يومئذٍ ينصره حين لا تنصرونه 1061.

---

1059 - التوبة 40.

1060 - تفسير الطبري، ج 14، ص 257.

عليه نقول:

وجب أن تكون المناصرة كلية وليست جزئية، بمعنى أن تكون المناصرة لله ولرسوله وللمؤمنين.

### 3- كلمة الله هي العليا

يقول الحقّ جلّ وعلا: {وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 1062.

نريد التأكيد أن كلمة الله عزّ وجلّ هي العليا بالمطلق، فليس للهجرة بعد في تحقّق ذلك، ولكن كان من أبعاد الهجرة أن كلمة الذين كفروا جعلت سفلى، هذا يعني أنّها لم تكن من قبل سفلى أو بالأحرى ما أريد لها أن تكون هي السفلى، المسألة إذا لا علاقة لها بالارتباط الزمني أي من قبل الهجرة أو بعدها ولكن العلاقة بما سعى إليه الكافرون من بذل الجهد في المحافظة على علو كلمتهم ولكن ذلك لم يتحقّق لأنّ الهجرة التي بدت للمشركين أنّه نصر تحقّق بإخراج الرسول عليه الصلّاة والسّلام والمؤمنين معه وما في ذلك من علو كلمتهم بين العربّ سرعان ما تبدد بالنصر والمناصرة.

والكلمة أصلها اللفظة من الكلام، ثم أطلقت على الأمر والشأن ونحو ذلك من كلّ ما يتحدّث به الناس ويخبر المرء به عن نفسه من شأنه، قال تعالى: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ} 1063 أي أبقى التبريء من الأصنام والتوحيد لله شأن عقبه وشعارهم.

---

1061 - تفسير ابن عاشور، ج 6، ص 288.

1062 - التوبة 40.

1063 - الزخرف 28.

وقال {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ} 1064، أي بأشياء من التكليف كذبح ولده، واختتانه.

وقال لمريم {إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ} 1065، أي بأمر عجيب، أو بولد من غير أب، وقال: {وَوَمَّتْ كُلِّمْتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} 1066، أي أحكامه ووعوده.

وكلمة الذين كفروا شأنهم وكيدهم وما دبروه من أنواع المكر.

ومعنى السفلى الحفيرة لأنَّ السفلى يكتى به عن الحفارة، وعكسه قوله: (وكلمة الله هي العليا) فهي الدين وشأن رسوله والمؤمنين، وأشعر قوله: (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) أنَّ أمر المشركين كان بمظنة الفؤة والشدة لأنَّهم أصحاب عدد كثير وفيهم أهل الرأي والذكاء، ولكنَّهم لما شاقوا الله ورسوله خذلهم الله وقلب حالهم من علوِّ إلى سفلى.

وجملة (وكلمة الله هي العليا) مستأنفة بمنزلة التذييل للكلام لأنَّه لما أخبر عن كلمة الذين كفروا بأنَّها صارت سفلى أفاد أنَّ العلاء انحصر في دين الله وشأنه. فضمير الفصل مفيد للقصر، ولذلك لم تعطف كلمة الله على كلمة الذين كفروا، إذ ليس المقصود إفادة جعل كلمة الله عُليا، لما يُشعر به الجعل من إحداث الحالة، بل إفادة أنَّ العلاء ثابت لها ومقصود عليها، فكانت الجملة كالتذييل لجعل كلمة الذين كفروا سفلى.

ومعنى جعلها كذلك: أنه لما تصادمت الكلمتان وتناقضتا بطلت كلمة الذين كفروا واستقرَّ ثبوت كلمة الله 1067.

---

1064 - البقرة 124.

1065 - آل عمران 45.

1066 - الأنعام 115.

1067 - التحرير والتنوير، ج 6، ص 291.

#### 4- الفوز

من أبعاد الهجرة تحقّق الفوز للمؤمنين مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ  
آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ  
وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} 1068.

ونتساءل:

ما هو الفوز؟

وما صفته؟

وما أنواعه؟

وهل تحقّق لمؤمنين؟

نقول الفَوْزُ في اللغة الظَّفَرُ بالخير والنَّجاةُ من الشر 1069.

وفي الاصطلاح الفوز هو الخلاص من المكروه مع الوصول إلى المحبوب  
ولهذا سمى الله تعالى المؤمنين فائزين لنجاتهم من النار ونيلهم الجنة 1070.

وقد وصف الله فوزهم بأنه عظيم فقال عز من قائل: {وَالسَّابِقُونَ  
الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ  
وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ  
الْعَظِيمُ} 1071.

فلماذا هو فوز عظيم؟

---

1068 - التوبة 20.

1069 - لسان العرب، ج 2، ص 392.

1070 - الفروق اللغوية، ج 1، ص 365.

1071 - التوبة 100.

لما تحقّق فيه وعلى النحو الآتي:

1 . رضا الله عنهم

2 . الرضا بما وهب الله بما أفاض عليهم من نعمه الجليلة في الدين والدنيا.

3 . نيل الجنات

4 . الخلود في الجنان

والحقّ أن هذا متحقّق في فوز كل من آمن مخلصاً بالله عزّ وجلّ وهو هنا في هذه الآية إخبار من الله عزّ وجلّ للمؤمنين بصفة فوزهم وما فيه من عطاء غير محدود، والآية إن كانت تركز في ذكر الآخرة، فإن الله عزّ وجلّ أخبر المؤمنين أن فوزهم لا يقتصر على الآخرة وإن كانت الأهم لمن آمن، ولكنه كذلك فوز في الدنيا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ 1072.

ويفسر الرازي هذه الآية تفسيراً انفرادياً به عن غيره وهي من لمعاته الفكرية الدقيقة إذ يقول: "وعندي فيه وجه آخر، وهو أن يكون المعنى: ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه في بلده الأصلية وذلك لأنّ من فارق وذهب إلى بلدة أجنبية فإذا استقام أمره في تلك البلدة الأجنبية، ووصل ذلك الخبر إلى أهل بلده خجلوا من سوء معاملتهم معه، ورغمت أنوفهم بسبب ذلك، وحمل اللفظ على هذا أقرب من حمله على ما قالوه، والله أعلم.

والحاصل كأنه قيل: يا أيها الإنسان إنك كنت إنما تكره الهجرة عن وطنك خوفاً من أن تقع في المشقة والمحنة في السفر، فلا تحف فإن الله تعالى يعطيك من النعم الجليلة والمراتب العظيمة في مهاجرتك ما يصير سبباً لرغم أنوف أعدائك، ويكون سبباً لسعة عيشك، وإنما قدم في الآية ذكر رغم الأعداء على ذكر سعة العيش لأن ابتهاج الإنسان الذي يهاجر عن أهله وبلده بسبب شدة ظلمهم عليه بدولته من حيث إنها تصير سبباً لرغم أنوف الأعداء، أشد من ابتهاجه بتلك الدولة من حيث إنها صارت سبباً لسعة العيش عليه"1073.

فالهجرة في الواقع فوز لمن هاجر لأنها حققت له المراد في الدنيا والآخرة، هنا من المهم القول مرة أخرى أن قرار الهجرة اتصل بالعقيدة اتصالاً وثيقاً، فقد صدر عنها، بمعنى أنه كان أمراً من الله ورسوله فهو من العقيدة، وبالهجرة سادت العقيدة الصحيحة وتحقق لها النجاح في أهدافها التي كان من أهمها التبليغ برسالة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

### هجرة الرسول وأصحابه:

تمثل الهجرة حدثاً عظيماً في تاريخ الإسلام، فقد كانت نقطة التحول في مسيرة الدعوة الإسلامية من حيث أنها حولت القلة المستضعفة المشردة إلى قوة عقائدية تشع بالهداية المفضية إلى هجر ما كان من عقائد بالية وفسادة، (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى).

من هنا كان من الأهمية بمكان أن نبحت في الهجرة وأبعادها، ونبدأ بالمبدأ فلا بد من فهم معنى الهجرة ثم مفهومها وصولاً إلى دلالاتها انتهاءً بأبعادها.

---

1073 - تفسير الرازي، ج 5، ص 354.



تقول معاجم اللغة: "هَجْرُهُ هَجْرًا، بالفتح، وهِجْرَانًا، بالكسر صَرَمَهُ، الشيءَ تَرَكَهُ كَأَهْجَرُهُ، وهُمَا يَهْتَجِرَانِ وَيَتَهَاجِرَانِ يَتَقَاطِعَانِ، والاسْمُ الهِجْرَةُ، بالكسر، وهَجَرَ الشِّرْكَ هَجْرًا وهِجْرَانًا وهِجْرَةً حَسَنَةً.

والهِجْرَةُ، بالكسر والضم الخُرُوجُ من أَرْضٍ إلى أُخْرَى، وقد هَاجَرَ 1074.

أما في الاصطلاح فالهجرة هي ترك الوطن الذي بين الكفار والانتقال إلى دار الإسلام 1075.

والهِجْرَةُ تعدد: إِحْدَاهُمَا الَّتِي وَعَدَّ اللَّهُ عَلَيْهَا الْجَنَّةَ فِي قَوْلِهِ { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ } فَكَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَيَدْعُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ لَا يَرْجِعُ فِي شَيْءٍ مِنْهُ وَيَنْقَطِعُ بِنَفْسِهِ إِلَى مُهَاجِرِهِ وَكَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَكْرَهُ أَنْ يَمُوتَ الرَّجُلُ بِالْأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ مِنْهَا فَمِنْ ثَمَّ قَالَ: "لَكِنَّ الْبَائِسَ سَعِدَ بِنُ حَوْلَةَ" يَزِيهِ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ مَاتَ بِمَكَّةَ. وَقَالَ حِينَ قَدِمَ مَكَّةَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ مِنَايَانَا بِهَا فَلَمَّا فُتِحَتْ مَكَّةُ صَارَتْ دَارَ إِسْلَامٍ كَالْمَدِينَةِ وَانْقَطَعَتْ الْهِجْرَةُ.

ومنها: مَنْ هَاجَرَ مِنَ الْأَعْرَابِ وَعَزَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَفْعَلْ كَمَا فَعَلَ أَصْحَابُ الْهِجْرَةِ الْأُولَى فَهُوَ مُهَاجِرٌ وَلَيْسَ بِدَاخِلٍ فِي فَضْلِ مَنْ هَاجَرَ تِلْكَ الْهِجْرَةَ 1076.

---

1074 - القاموس المحيط، ج 2، ص 30.

1075 - التعريفات، ج 1، ص 82.

1076 - النهاية في غريب الأثر، ج 5، ص 557.

وهكذا فإن للهجرة مفهوم واضح في الفكر الإسلامي يتجلى في انتقال الرسول عليه الصلّاة والسّلام وأصحابه من المسلمين من مكة إلى المدينة لبدء مرحلة جديدة في الدعوة الإسلامية.

كما اتفق المسلمون على أن الهجرة لم تكن هجرا دائما لمكة ومن فيها، بل كان هجرا مؤقتا يتم فيه الاستعداد للعودة، فمكة هدف من أهداف الإسلام، من أجل تخليصها من الشرك وبدون ذلك لا يمكن لأركان الإسلام أن تتم لان الحج مخصوص في مكة، ونقرأ الحرص الشديد على تطهير المسجد الحرام من الشرك في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } 1077.

أما عن الدلالات والأبعاد فنبداً بتساؤلات مهمة هي:

هل الهجرة أمر الله؟

هل كانت خيار الرسول؟

هل كانت قسرا؟

هل كانت إخراجا؟

الحديث أولا عن أن الهجرة أول الأمر كانت خيار الرسول عليه الصلّاة والسّلام للسابقين من أصحابه، فقد ذكرت الموثوقات من المصادر أن قريشا ائتمرت أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يؤذونهم ويعذبونهم، فافتتن من افتتن، وعصم الله منهم من شاء، ومنع الله تعالى رسوله بعمه أبي طالب، فلما رأى رسول الله عليه الصلّاة والسّلام ما بأصحابه ولم يقدر على منعهم ولم يؤمر بعد بالجهاد

أمرهم بالخروج إلى أرض الحبشة، وقال: "إن بها ملكا صالحا لا يظلم ولا يُظلم عنده أحد، فاخرجوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجا" وأراد به النجاشي، واسمه أصحمة وهو بالحبشة عطية، وإنما النجاشي اسم الملك، كقولهم قيصر وكسرى، فخرج إليهم سرا أحد عشر رجلا وأربع نسوة، وهم عثمان بن عفان وامراته رقية بنت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف وأبو حذيفة بن عتبة وامراته سهلة بنت سهيل بن عمرو، ومصعب بن عمير وأبو سلمة بن عبد الأسد وامراته أم سلمة بنت أبي أمية، وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة وامراته ليلى بنت أبي حثمة وحاطب بن عمرو وسهل بن بيضاء رضي الله عنهم، فخرجوا إلى البحر وأخذوا سفينة إلى أرض الحبشة وذلك في رجب في السنة الخامسة من مبعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه الهجرة الأولى ثم خرج جعفر بن أبي طالب، وتتابع المسلمون إليها وكان جميع من هاجر إلى الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلا سوى النساء والصبيان 1078.

وعليه فإنَّ أمر الهجرة هو من الرّسول عليه الصّلاة والسّلام الذي لا ينطق عن الهوى إنّما هو وحي يوحى لاسيما فيما يتعلق بأمر العقيدة والدعوة ومسيرتها، والمسألة بعد ذلك ليست خيارا للمؤمنين إنّما هي أمر الله ورسوله وليس في ذلك خيار مصداقا لقوله تعالى: { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا } 1079.

عليه فإننا نعتقد أن الهجرة لم يكن قرارا للمشركين فرضوه على الرّسول محمّد عليه الصّلاة والسّلام وعلى أصحابه، بل كان أمرا إلهيا بلغه الرّسول

---

1078 - تفسير البغوي، ج 3، ص 86.

1079 - الأحزاب 36.

الأكرم لمن حوله من المسلمين ليكن لهم منفذا يبدؤون من خلاله مرحلة جديدة في دعوتهم للإسلام، مرحلة يعلو فيها صوت الحق ليصل إلى أقوام ما كان ليصلهم لو ظل المسلمون في مكة بسبب موقف الكفار الذي أراد لهذه الدعوة أن تموت في مهدها كما أراد فرعون لموسى أن يموت في مهده.

هنا نتساءل:

هل يتناقض ما قلنا مع مبدأ الإخراج الذي ورد في النص القرآني؟

من المهم للبحث في التساؤل السابق فهم معنى الإخراج وهو: مصدر أخرج، ويعني الدفع من الداخل، وقد يعني الإبعاد والتنحية<sup>1080</sup>.

والإخراج إظهار من حجاب<sup>1081</sup>، عليه فإن إخراج الكافرين للمسلمين تم بالسلوك المفضي إلى الدفع بهم خارجا دون هدف ولا غاية سوى إبعادهم عن مكة ظلما، ولم يكن في خلدتهم ولو بقليل من التصور أن هذا الإخراج سيؤدى إلى اتخاذ قرار الهجرة الذي سيأتي فيما بعد عليهم فيزول ملكهم وسلطانهم، لذلك فإن الإخراج غير الهجرة في الدلالة وفي المفهوم، فالإخراج سلوك الكافرين مع من خالفهم العقيدة من المسلمين وهكذا يفعل الظالمون والهجرة هي طاعة المسلمين لأمر الله ورسوله.

دلالات الهجرة

لم تكن الهجرة شكلا من أشكال الخلاص من العذاب كما قد يُظن، ولم يكن ذلك كل غايتها، بل كان هناك غايات أخرى تكشفها دلالات الهجرة، حيث كان للهجرة دلالات تمس كل من المؤمنين والكافرين على النحو الآتي:

---

1080 - معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 50

1081 - التعريفات، ج 1، ص 43.

أولاً: المؤمنون

دلت الهجرة على عدة أمور تتعلق بالمؤمنين، فالهجرة بالنسبة لهم لم تكن حراكاً مكانياً إذ تغير المكان من مكة إلى المدينة، ولا تركاً فطرياً لمصدر الخوف، ولا استجابة لقرار الآخر الكافر (الإخراج) بل كان طاعة دلت على عدة مضامين مهمة تتعلق بصلب العقيدة الإسلامية من حيث:

1- الهجرة جهاد في سبيل الله، يقول الحق للمهاجرين {إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي} 1082.

لماذا تُعد الهجرة جهاداً؟

الجهاد: مصدر جاهد، إذا بالغ في بذل الجهد، ومنه جهده المرض، وأجهده: إذا بلغ به المشقة، وهو أيضاً قتال العدو الكافر.

وجهاد النفس: بذل الجهد في إبعادها عن الحرام والسير بها في طريق الحلال 1083. وحقيقة الجهاد كما قال الراغب: استفراغ الوسع والجهد فيما لا يُرتضى وهو ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر والشيطان والنفس 1084.

هذه المعاني تتطابق مع ما في الهجرة مع مضامين من حيث:

أ- أنها جهد جديد يُبذل في سبيل الله

ب- رفض الظلم

ج- الاستعداد لمحاربة الكفر وأركانه

---

1082 - الممتحنة 1.

1083 - معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 168.

1084 - تاج العروس، ج 1، ص 1945.

د- الحرمان من الوطن

هـ - الانقطاع عن الأهل والعشيرة

و- الافتقار بعد غنى

ز- تحمل المعاناة وما يترتب عليها من أعباء في سبيل الله.

هذه المشاق وغيرها أعطت بفضل الله عزّ وجلّ أمر الهجرة قيمته العقدية، فحولته من عمل شاق إلى عمل محبب، ومن المهم القول أن الهجرة لم تكن رحلة طيبة أو خروجاً لأداء مهمة معينة قام بها من هاجر بل كانت معاناة حقيقية كما في الهجرة الأولى والثانية، ومما يحسن الالتفات إليه معاناة المهاجرين من الهجرة، ففي الهجرة الأولى عانى المسلمون معاناة شديدة جعلت بعضهم يلوم أهله من الكفار ويعبر لهم عن طبيعة معاناته ويوبخهم على موقف الإخراج، وَقَالَ عُمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ يُعَاتِبُ أُمِّيَّةَ بْنَ خَلْفِ بْنِ وَهَبِ بْنِ حُدَافَةَ بْنِ جُمَحٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّهِ وَكَانَ يُؤْذِيهِ فِي إِسْلَامِهِ وَكَانَ أُمِّيَّةُ شَرِيفًا فِي قَوْمِهِ فِي زَمَانِهِ ذَلِكَ:

أَتَيْمَ بْنَ عَمْرٍو لِلَّذِي جَاءَ بِغُضَّةٍ... وَمِنْ دُونِهِ الشَّرْمَانَ وَالْبَرْكَ أَكْتَعُ

أَأَخْرَجْتَنِي مِنْ بَطْنِ مَكَّةَ آمِنًا... وَأَسْكَنْتَنِي فِي صَرْحِ بَيْضَاءَ تُقَدِّعُ

تَرِيشُ نَبَالًا لَا يُوَاتِيكَ رِيشُهَا... وَتَبْرِي نَبَالًا رِيشُهَا لَكَ أَجْمَعُ

وَحَارَبْتَ أَقْوَامًا كِرَامًا أَعَزَّةً... وَأَهْلَكَتَ أَقْوَامًا بِهِمْ كُنْتَ تَفْرَعُ

سَتَعْلَمُ إِنْ نَابَتِكَ يَوْمًا مُلِمَّةً... وَأَسْلَمَكَ الْأَوْبَاشُ مَا كُنْتَ تَصْنَعُ 1085

وهكذا فالهجرة جهاد لما فيها من المجاهدة على أكثر من صعيد

الجسدي والنفسي والمادي والعاطفي.

## 2- ابتغاء مرضاة الله

يقول الحقّ جلّ وعلا: {وَابْتَغَاءَ مَرْضَاتِي} 1086، هذه الآية تؤكد أن الهجرة أمر الله عزّ وجلّ للمسلمين من أجل بدء مرحلة جديدة في مسيرة الدعوة، مرحلة تتم فيها الدعوة بأقل ما يمكن من معوقات، مرحلة يتحول فيها المسلم من مستضعف مأمور بالباطل إلى قوي أمر بالحقّ.

## 3- الإعلان والتصريح عن الصدق

لا شكّ أن المهاجرين كانوا على الصدق الذي أوصلهم إلى هذه الدرجة الرفيعة في الدنيا والآخرة، وليس من فائدة في مناقشة صدق المهاجرين ولكن الحاجة إلى فهم دلالة الصدق في الهجرة قائمة، يقول الحقّ سبحانه للمهاجرين: {وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَحْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ} 1087.

الحقيقة المؤكدة أن هذه الآية تعبر عن صدق خالص من المهاجرين لله ورسوله مصداقا لقوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} 1088، فالهجرة هي في الواقع تصريح عن صدق العقيدة عند من هاجر من المسلمين، والهجرة هي صدق وتصديق، فالمهاجرون لما هجروا لذات الدنيا وتحملوا شداؤها لأجل الدين ظهر صدقهم في دينهم، أما تصديقهم فظاهر في:

أ- ابتغائهم فضلي الدنيا والآخرة، {يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا} 1089.

أي طالبين منه تعالى رزقا في الدنيا ومرضاة في الآخرة.

---

1086 - الممتحنة 1.

1087 - الممتحنة 1.

1088 - الحشر 8.

1089 - الحشر 8.

ب- ينصرون الله ورسوله {وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} 1090، أي أنهم عندما هاجروا كانوا على نية صادقة من نصره الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

لذلك فإن الموصفين بما ذكر من الصفات الجليلة {هُمُ الصَادِقُونَ} أي الكاملون في الصدق في دعواهم إلى الإيمان حيث فعلوا ما يدل أقوى دلالة عليه مع إخراجهم من أوطانهم وأموالهم لأجله لا غيرهم ممن آمن في مكة ولم يخرج من داره وماله 1091.

ج- عدم ولاية غير المهاجرين

من مظاهر الصدق في هجرة المهاجرين أنهم تركوا موالاة غير المهاجرين ولو كانوا من ذوي القرى والمودة، المسألة هنا تتعلق بالصدق العقدي الذي يجب أن يسيطر على العاطفة، وقد كان العليم الخبير وليهم فنبههم إلى البديل، وهو أن يكونوا أولياء بعضهم البعض رحمة منه في التعويض عن الفاقد العاطفي عند هؤلاء، يقول الحق جلّ وعلا: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} 1092.

لقد بين الله تعالى أن المؤمنين انقسموا في زمان الرسول عليه الصلاة والسلام إلى أربعة أقسام، وذكر حكم كل واحد منهم، وتقرير هذه القسمة أنه عليه الصلاة والسلام ظهرت نبوته بمكة ودعا الناس هناك إلى الدين، ثم

---

1090 - الحشر 8.

1091 - تفسير الألوسي، ج 20، ص 424.

1092 - الأنفال 72.



انتقل من مكة إلى المدينة، فحين هاجر من مكة إلى المدينة صار المؤمنون على قسمين منهم من وافقه في تلك الهجرة، ومنهم من لم يوافقه فيها بل بقي هناك.

أما القسم الأول: فهم المهاجرون الأولون، وقد وصفهم بقول: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} 1093 وإنما قلنا إن المراد منهم المهاجرون الأولون لأنه تعالى قال في آخر الآية: (والذين ءامنوا من بعد هاجروا) وإذا ثبت هذا ظهر أن هؤلاء موصوفون بهذه الصفات الأربعة:

أولها: أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقبلوا جميع التكليف

والصفة الثانية: قوله: (وهاجروا) يعني: فارقوا الأوطان، وتركوا الأقارب والجيران في طلب مرضاة الله، ومعلوم أن هذه الحالة حالة شديدة، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ} 1094، جعل مفارقة الأوطان معادلة لقتل النفس، فهؤلاء في المرتبة الأولى تركوا الأديان القديمة لطلب مرضاة الله تعالى، وفي المرتبة الثانية تركوا الأقارب والخلان والأوطان والجيران لمرضاة الله تعالى.

والصفة الثالثة: قوله: (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) أما المجاهدة بالمال فلأنهم لما فارقوا الأوطان فقد ضاعت دورهم ومساكنهم

---

1093 الأنفال 72.

1094 - النساء 66.

وضياعهم ومزارعهم، وبقيت في أيدي الأعداء، وأيضا فقد احتاجوا إلى الإنفاق الكثير بسبب تلك العزيمة، وأيضا كانوا ينفقون أموالهم على تلك الغزوات، وأما المجاهدة بالنفس فلأنهم كانوا أقدموا على محاربة بدر من غير آلة ولا أهبة ولا عدة مع الأعداء الموصوفين بالكثرة والشدة، وذلك يدل على أنهم أزالوا أطماعهم عن الحياة وبذلوا أنفسهم في سبيل الله.

وأما الصفة الرابعة: فهي أنهم كانوا أول الناس إقداما على هذه الأفعال والتزاما لهذه الأحوال.

وأما القسم الثاني: من المؤمنين الموجودين في زمان محمد عليه الصلاة والسلام فهم الأنصار، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام لما هاجر إليهم مع طائفة من أصحابه، فلولا أنهم آووا ونصروا وبذلوا النفس والمال في خدمة رسول الله عليه الصلاة والسلام وإصلاح مهمات أصحابه لما تم المقصود البتة، ويجب أن يكون حال المهاجرين أعلى في الفضيلة من حال الأنصار لوجوه:

أولها: أنهم هم السابقون في الإيمان الذي هو رئيس الفضائل وعنوان المناقب.

ثانيها: أنهم تحملوا العناء والمشقة دهرًا طويلًا، وزمانًا مديدًا من كفر قريش وصبروا عليه، وهذه الحال ما حصلت للأنصار.

ثالثها: أنهم تحملوا المضار الناشئة من مفارقة الأوطان والأهل والجيران، ولم يحصل ذلك للأنصار.

رابعها: أن فتح الباب في قبول الدين والشريعة من الرسول عليه السلام إنما حصل من المهاجرين، والأنصار اقتدوا بهم وتشبهوا بهم.

القسم الثالث: من أقسام مؤمني زمان الرّسول عليه السلام وهم المؤمنون الذين ما وافقوا الرّسول في الهجرة وبقوا في مكة وهم المعنيون بقول: (والذين ءآوؤا وَنَصَرُوا أُؤَلِّكُ) فبين تعالى حكمهم، واعلم أنّ قوله تعالى: (مَالِكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ) يوهم أنهم لما لم يهاجروا مع رسول الله عليه الصلّاة والسّلام سقطت ولايتهم مطلقاً، فأزال الله تعالى هذا الوهم بقوله: (مَالِكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا) يعني أنهم لو هاجروا لعادت تلك الولاية وحصلت، والمقصود منه الحمل على المهاجرة والترغيب فيها، لأنّ المسلم متى سمع أنّ الله تعالى يقول: إنّ قطع المهاجرة انقطعت الولاية بينه وبين المسلمين ولو هاجر حصلت تلك الولاية وعادت على أكمل الوجوه، فلا شك أن هذا يصير مرغبا له في الهجرة، والمقصود من المهاجرة كثرة المسلمين واجتماعهم وإعانة بعضهم لبعض، وحصول الألفة الشوكة وعدم التفرقة 1095.

هذا فيما يتعلق بالمؤمنين، أما بالنسبة للكافرين فالهجرة لها دلالاتها من حيث طبيعة الموقف الذي اتخذوه من المهاجرين وذلك من حيث: .كفرهم:

دلت الهجرة على أن إخراج الكفار للمسلمين كان مصدره عقديا بالدرجة الأساس فهو في حقيقتة كفر مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ أُخْرِجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} 1096.

هنا نتساءل:

هل كان كل الذين أخرجوا النبي عليه الصلّاة والسّلام كفارا؟

1095 - تفسير الرازي، ج 7، ص 447.

1096 - التوبة 40.

ألم يؤمن بعدها عدد من المخرجين؟

كيف يكون الحكم عليهم بعد الإيمان؟

أيقنون على الكفر؟

نقول المسألة على الاحتمال من حيث:

. يحتمل أن يكون من أخرج هم من أصحاب الرأي من الكفر والذين قتلوا أو ماتوا ولم يؤمنوا، وهؤلاء ليس لهم إلا تسمية واحدة هي الكفار.

. الاحتمال الآخر أن يكون آمن بعدها عدد من الذين أخرجوا المسلمين، هنا المسألة لا تحتاج إلى كثير من التأويل، إذ تصبح الصفة (الذين كفروا) مختصة بحالهم قبل الإيمان، وليس في ذلك اختلاف أو تناقض لاسيما أن قاعدة أساسية من قواعد التعامل في الدعوة الإسلامية تنصُّ على أن الإسلام يجب ما قبله، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الهجرة والإسلام يجب ما قبله)1097.

- ظلمهم

لقد كان إخراج الكفار للمسلمين من ديارهم ظلما بكل الوجوه، فهو ظلم عقدي حيث حرموهم حرية التعبير عن عقيدتهم وممارسة شعائرها والدعوة إليها، وظلم نفسي لما في الإخراج من معاناة نفسية شديدة، وظلم مادي حيث حُرم المسلمون من أموالهم وممتلكاتهم مصدقا لقوله تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ

---

1097 - معرفة الصحابة للأصفهاني، ج 14، ص 162.

هُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ  
اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ {1098}.

هذا الظلم أحدث أثرا بالغا في العلاقة بين المسلمين والكافرين مع  
وجود صلوات القرى وأواصر الأهل والآل حيث تأسست عليه أحكام تتعلق  
بأمور من أهمها عدم جواز موالاة هؤلاء من الظالمين كما يخبرنا العليم الخبير:  
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ  
وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ  
إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا  
أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ  
السَّبِيلِ {1099}.

. عداوتهم

كشف الإخراج عن موقف مهم من مواقف الكفار، موقف يتعلق  
بحقيقة القناعة الراسخة في يقين ووجدان هؤلاء، موقف وصفه الله تعالى بأنه  
عداوة لله وعداوة للمسلمين، وهذا في اعتقادنا من أفسى ما وصف موقف  
لأحد، فأن يكون عدوا للمؤمنين أمر يمكن المداولة فيه والرجاء في تفسيره  
تفسيرا آخر، ولكن أن يكون المرء عدوا لله فهذا أمر لا يمكن معه لا المجادلة  
ولا المناقشة إلا أن يُسلم الأمر لله في هؤلاء الذين اختاروا أن يعادوا الله وما  
على المؤمنين إلا مقاطعتهم حتى يعودوا عن ذلك، يقول الحق جلّ وعلا: (يَا  
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ).

الحدث العظيم في الهجرة (الغار)

1098 - الحج 39-40.

1099 - الممتحنة 1.

لا شك أنّ الهجرة حدث عظيم لأنه كان نقطة تحول في مسيرة الدعوة الإسلامية، وفي هذا الحدث العظيم حدث مهم آخر يتعلق بالإسلام عموماً وبالرسول عليه الصلّاة والسّلام وبصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه خصوصاً، هذا الحدث هو ما جرى في غار ثور، وكلمة الغار لا شكّ تعيدنا إلى الغار الأول الذي كان الرسول عليه الصلّاة والسّلام يتحنث فيه قبل التكليف بالرسالة، ومن خلال الموازنة بين الغارين يتبين أنّهما يتماثلان في أشياء ويفترقان في أخرى وذلك من حيث:

التمائل:

. كلمة الله هي العليا.

. ما كان فيهما لله وحده، فقد كان الرسول عليه الصلّاة والسّلام يطلب أن يعبد الله الواحد الأحد ويرضيه في الغارين.

. جبريل كان حاضراً في الغارين مبلغاً ومؤيداً.

أما وجوه الافتراق فتتمثل في:

. في الغار الأوّل كان التكليف وفي الثاني كان النصر.

. في الغار الأوّل كان الوحي بالقرآن وفي الثاني كان الوحي بالتأييد.

. في الغار الأوّل ما كانت الصحبة وفي الثاني كان الصحاب مؤنسا وناصراً.

. في الغار الأوّل كان الأمن، وفي الثاني كان التهديد.

يقول الحقّ جلّ وعلا:

{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ

بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ  
عَزِيزٌ حَكِيمٌ {1100

ونتساءل عدد من التساؤلات الموجبة للبحث:

. ماذا حصل في الغار؟

. من هو صاحب المذكور؟

. من المحزون؟ ولماذا؟

. لمن كانت السكينة؟ وبماذا؟

. لمن كان التأييد؟

. ماذا كانت النهاية؟ وما النتيجة؟

. ما الدرس من هذه الحادثة العظيمة؟

الغار ثقب عظيم في الجبل، وكان ذلك الجبل يقال له ثور، في يمين مكة على مسيرة ساعة، مكث رسول الله عليه الصلّاة والسّلام فيه مع أبي بكر ثلاثة أيام، وقد ذكروا أن قريشا ومن بمكة من المشركين تعاقدوا على قتل رسول الله عليه الصلّاة والسّلام فنزل {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا} {1101}، فأمره الله تعالى أن يخرج هو وأبو بكر أول الليل إلى الغار، والمراد من قوله: (أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) هو أنهم جعلوه اضطروا إلى الخروج بسبب ما فعلوا به وبأصحابه، وخرج رسول الله عليه الصلّاة والسّلام وأبو بكر أول الليل إلى الغار، وأمر عليا أن يضطجع على فراشه ليمنعهم السواد من طلبه، حتى يبلغ هو وصاحبه إلى ما أمر الله به، فلما وصلا إلى الغار

---

1100 - التوبة 40.

1101 - الأنفال 30.

دخل أبو بكر الغار أولاً، يلتمس ما في الغار، فلما طلب المشركون الأثر وقرّبوا، بكى أبو بكر خوفاً على رسول الله عليه الصّلاة والسّلام فقال عليه الصلاة والسلام: "لا تحزن إنّ الله معنا" فقال أبو بكر: إنّ الله معنا، فقال الرّسول: « نعم » فجعل يمسح الدموع عن خده، ثم قال رسول الله: « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » وقيل لما دخل الغار وضع أبو بكر ثمامة على باب الغار، وبعث الله حمامتين فباضتا في أسفله والعنكبوت نسجت عليه وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (اللهم أعم أبصارهم)؛ فجعلوا يترددون حول الغار ولا يرون أحداً.

وحدث في الغار نزول السكينة من الله تعالى، وهنا نتساءل:

على من نزلت السكينة؟

ولماذا؟

في قوله تعالى: (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ) قال بعضهم أن الضمير في قوله: (عَلَيْهِ) عائداً إلى الرّسول فهذا باطل لوجوه:

الوجه الأوّل: أنّ الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات، وأقرب المذكورات المتقدمة في هذه الآية هو أبو بكر، لأنه تعالى قال: (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ) والتقدير: إذ يقول محمّد لصاحبه أبي بكر لا تحزن، وعلى هذا التقدير: فأقرب المذكورات السابقة هو أبو بكر، فوجب عود الضمير إليه.

الوجه الثاني: أنّ الحزن والخوف كان حاصلًا لأبي بكر لا للرّسول صلّى الله عليه وسلّم، فإنه عليه الصلاة والسلام كان آمناً ساكن القلب بما وعده الله أن ينصره على قريش فلما قال لأبي بكر لا تحزن صار آمناً، فصرف السكينة إلى أبي بكر ليصير ذلك سبباً لنزول خوفه، أولى من صرفها إلى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، مع أنّه قبل ذلك ساكن القلب قوي النفس.



الوجه الثالث: أنه لو كان المراد إنزال السكينة على الرسول لوجب أن يقال: إنَّ الرسول كان قبل ذلك خائفاً، ولو كان الأمر كذلك لما أمكنه أن يقول لأبي بكر: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) فمن كان خائفاً كيف يمكنه أن يزيل الخوف عن قلب غيره؟ ولو كان الأمر على ما قالوه لوجب أن يقال: فأُنزل الله سكينته عليه، فقال لصاحبه لا تحزن، ولما لم يكن كذلك، بل ذكر أولاً أنه عليه الصلوة والسلام قال لصاحبه لا تحزن، ثم ذكر بقاء التعقيب نزول السكينة، وهو قوله: (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ) علمنا أن نزول هذه السكينة مسبق بحصول السكينة في قلب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومتى كان الأمر كذلك وجب أن تكون هذه السكينة نازلة على قلب أبي بكر.

فإن قيل: وجب أن يكون قوله: (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ) المراد منه أنه أنزل سكينته على قلب الرسول، والدليل عليه أنه عطف عليه قوله: (وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا) وهذا لا يليق إلا بالرسول، والمعطوف يجب كونه مشاركاً للمعطوف عليه، فلما كان هذا المعطوف عائداً إلى الرسول وجب في المعطوف عليه أن يكون عائداً إلى الرسول.

قلنا: هذا ضعيف، لأن قوله: (وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا) إشارة إلى قصة بدر وهو معطوف على قوله: (فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ) وتقدير الآية إلا تنصروه فقد نصره الله في واقعة الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأُنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها في واقعة بدر 1102.

نقف مع الدرس الذي تقدمه هذه الحادثة الأبرز في الهجرة، إنها في الحقيقة درس عظيم لأنه في يقيننا أن الله عزَّ وجلَّ قادر على أن يجعل النبي عليه الصلوة والسلام يهاجر متى شاء وأتى شاء دون أن يجعله يمر بمثل ما مر به، ولكن الله أراد أمراً كان مفعولاً، أمر هو أصل لأمر كثيرة، لقد أراد الله

أن يقوم محمد عليه الصلاة والسلام بما عليه في التكليف من الدعوة إلى الله عزّ وجلّ وأن يلاقي ما لاقى إخوانه من الأنبياء والمرسلين من المشاق، ليكون بالتالي لنا ولغيرنا درس في أن العمل أساس في العبادة وفي الدعوة إلى الله عزّ وجلّ.

هنا قد يتساءل أحد فيقول:

أيكون ذلك تجريد للرسول من العون؟

الإجابة حاصلة في نتيجة ما جرى، ولو كان كذلك لانتهدت الرسالة، ولكن الأمر راجع إلى ما يريد الله عزّ وجلّ، ولعل أمثلة من القرآن توضح ذلك بأجلى الصور، فقد كان إبراهيم في قبضة الذي كفر وهو يعد له النار والله مطلع على ذلك وقادر على منع وصول النار إلى إبراهيم أو أن يصل إبراهيم إليها لكن ذلك لو حصل ما كان سيبقى الحدث الدرس إلى الآن على قدرة الله عزّ وجلّ ونوع التأيد وعظمته، فلو كان إبراهيم مُنع من النار أو مُنعت منه لما كان الأمر بعظمة أن يكون إبراهيم في النار ولا تمسه بأذى مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} {1103}، والأمر كذلك مع الرسول محمد عليه الصلاة والسلام في الغار، فالله الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان قادرا على أن يسري به من مكة إلى المدينة دون أن يمر بالغار، لكن الغار كان درسا ضرورة للمؤمنين من حيث:

. الصبر

. اليقين

. الفؤة

. العزم

. العمل

. الرجاء

هذه صفات ومثلها أخرى كانت في شخص الرسول محمد عليه الصلاة والسلام والمقصود أن تكون عند كل مؤمن بالله ورسوله وهو يواجه أمرا من أمور الدنيا أو مسألة من مسائل الدين.

المسألة ليست إذن تجريد الرسول من العون لأنّ التأييد والنصر موجودان في الوعد الإلهي، بل إنه هنا أقوى من صورته عند إبراهيم صلى الله عليه وسلم، لأنّ في إبراهيم كان الأمر للنار ولكن في مع سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام كان صاحب الأمر، كان الله معه ومع صاحبه (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)، ولكم تذكرنا هذه المعية العظيمة والمهيبة والمفرحة لكل مؤمن بالله وملائكته ورسله بمثلتها التي كلما مرت بنا تتلج صدورنا بقرب نصر الله، وذلك في ساعة المقولة اللينة من موسى وأخيه هارون صلوات الله وسلامه عليهما أما طاغوت من طواغيت الظلم ومن قساة القلوب القلائل في مسيرة الإنسانية أمام فرعون حيث تملك الخوف الرسولين مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَقْرَظَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى} 1104.

في هذه الساعة يأتي الجواب الذي تنهار أمامه جبال الخوف، يقول الحق جلّ وعلا: {قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} 1105.

---

1104 - طه 45.

1105 - طه 46.

وهكذا فإن حزن أبي بكر لم يدم طويلا وهو يسمع كلام الرسول (إنّ الله معنا) لأنّ هذا من شأنه أن يُنهي كل الاحتمالات أما النفس البشرية حيث يؤول الأمر بيد الله فلا بدّ عند ذلك أن يحصل التسليم لله عزّ وجلّ ويتحقّق الرضا بما قدر الله فما شاء فعل.

ويقدم الغار ولا شك درسا مهما في العقيدة وفي الثبات عليها، درسا يقول الآ المكان ولا الزمان يمكن أن ينالا من اليقين الصادق المستقر في قلب المؤمن، وكذلك فإن قسوة الظروف تتهاوى هي الأخرى أما فوّة وصلابة عقيدة المؤمن.

ومن دروس الغار درس في العلاقة الاجتماعية بين البشر، فاستحضار من كان في الغار الرسول سيد الكائنات عليه الصلّاة والسّلام ومعه واحد من أصحابه، وقراءة ما جرى من حوار بينهما يعطي درس معبر عن: . المودة الخالصة بين الصاحبين اللذين يمثلان العلاقة الإنسانية في صورتها المثلى.

. التواضع يبين الموقف مدى التواضع الذي اتصف به الرسول عليه الصلّاة والسّلام وهو يواسي صاحبه الحزين ويسليه بما يخفف عنه.

. فوّة الثبات على العقيدة برغم قهر الظرف ويعبر عنه سيدنا أبو بكر الصديق الذي كان مثالا في الثبات على العقيدة وهو يرى الموت وقد دنا منه.

### القربى في المفهوم القرآني:

إن موقف النبي عليه الصلّاة والسّلام من ذوي القربى يمكن أن نؤسس له على جانبين:

الأول:

خاص:

الثاني:

عام

ونقول إنّ النبي عليه الصّلاة والسّلام بيعثته قد وضعت من قبل الباري عزّ وجلّ أسسا جديدة للقرّبي غيرت ما كان متعارف عليه من قبل ذلك.

فقد كانت القرّبي كما كان معهودا خاصة بأولي الأرحام الذين يجمع بينهم نسب واحد يرجعون إليه ولا سيما نسب الآباء، الأقربّ فالأقربّ.

فقريش من أبناء إسماعيل وليست كل أبنائه.

وبنو هاشم من أبناء قرّيش هم ليسوا كل قرّيش.

ويجمع ذرية النبي إسماعيل بالعربّ نسب واحد وهو نسب اللغة.

كما يجمع نسب أبناء إسماعيل وذريته بأهل مصر من حيث أم العربّ المستعربة التي قيل عنها هاجر.

ولكن كل هذه الأنساب لا بدّ أن تذوب من الأدنى إلى الأعلى بدعوة الإسلام على يد النبي صلّى الله عليه وسلّم.

هذا من حيث النسب الخاص، أما من حيث النسب العام فهو الذي لا يختلف عليه اثنان في كونه دعوة عالمية تستهدف كل بني الإنسان لتحقيق كرامة الإنسان بتقواه لله واتباعه لشريعته المنزلة على النبي محمّد عليه الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ  
حَبِيرٌ {1106

. فالنَّسبُ الأوَّلَى هو أن النَّاسَ جميعاً سواء في النَّسبِ ليس من فرق  
بينهم لا لون ولا عرق ولا لغة ولا بين الشعوب ولا بين القبائل.

. قدر الإنسان من معرفة هذه الحقيقة والعمل بها

. العودة للأصل الأول الذي خلق الله عليه الخلق

. فكانت دعوة النبي عليه الصلوة والسلام تبدأ بالنسب الخاص.

. وتستهدف الوصول إلى النسب العام الذي هو الأصل.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ  
وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبَيْةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَرَهَا بِالْأَبَاءِ مُؤْمِنٌ نَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ  
أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ لِيَدْعَنَّ رِجَالَ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ  
فَحْمِ جَهَنَّمَ أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا  
النَّتْنَ" 1107

حذر النبي صلى الله عليه وسلم رجالاته من فخرهم بالأبائهم وتعاضمهم  
بهم لا بأعمالهم وإنما بأصولهم، والأصل لا يغني صاحبه عند الله وإنما الذي  
يغني العمل، وكون هؤلاء لا وزن لهم بأصولهم فهم كما أخبر النبي عليه  
الصلوة والسلام (فحم من فحم جهنم).

. ثم وضح النبي عليه الصلوة والسلام أن هؤلاء ذوي الأصول الأنثوية  
(أهون على الله تعالى من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن) وأن الشرف

بأولئك الذين شبههم بالجعلان التي تدافع عن نفسها بأنتن الريح قد سقط  
بظهور الإسلام، فهذه القرى سوء على سوء.

. وقد كانت نعوت العرب قبل الإسلام بقبائلها ولما جاء الإسلام  
صارت النعوت بمراتب الدين فصار للمؤمنين نعوتاً بدلاً من قبائل العرب  
وبدلاً من شعوبها عند غير العرب مصداقاً لقوله تعالى: {التائبون العابدون  
الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن  
المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين} 1108

وقال الله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ  
وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ  
وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ  
فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا  
عَظِيمًا} 1109 فالانتماء إلى هذه القيم والشرف بهذه الأنساب أنسب  
وأعلى شرفاً من نسب الآباء والسلف غير الصالح.

وإن أبقى الإسلام على التعارف بالنسب فهذا ليس من باب الفخر  
وإنما من باب التعريف لا أكثر.

النسب إلى الآباء فخراً وإلى الإسلام شرفاً:

إنَّ النسب إلى الآباء للفخر والتعظيم على الآخرين من أجل  
تسفيهم وتحقيرهم يؤدّي بصاحبه إلى النار، والنسب إلى الإسلام الذي  
يمحو كل قرى باطلة ويثبت قرى الإسلام لنشر الأخوة بين الناس يؤدّي  
بصاحبه إلى الجنة.

---

1108 التوبة 112.

1109 الأحزاب 35.

عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ  
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَ أَحَدُهُمَا أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ فَقَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ  
السَّلَامُ فَقَالَ أَحَدُهُمَا أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ  
قَالَ أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ابْنُ الْإِسْلَامِ قَالَ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ  
أَنَّ هَذَيْنِ الْمُنتَسِبِينَ أَمَا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُنتَمِي أَوْ الْمُنتَسِبُ إِلَى تِسْعَةٍ فِي النَّارِ  
فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ وَأَمَا أَنْتَ يَا هَذَا الْمُنتَسِبُ إِلَى اثْنَيْنِ فِي الْجَنَّةِ فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا  
فِي الْجَنَّةِ" 1110

وقد أكدت السيرة ذلك في نسب سلمان ابن الإسلام وعمر ابن  
الإسلام حيث انتسب سلمان الفارسي إلى الإسلام لا إلى أبيه أو وطنه  
فارس، وكذلك عمر بن الخطاب انتسب إلى الإسلام الذي عده أشرف من  
النسب إلى الخطاب الذي كان من أعز قريش في الجاهلية.

وهنا تتجلى القرى الأكثر وشيخة من القرى التي تحوي بصاحبها إلى  
النار، عن قتادة، وعلي بن زيد بن جدعان، قال: كان بين سعد بن أبي  
وقاص وسلمان الفارسي شيء، فقال سعد وهم في مجلس: انتسب يا فلان،  
فانتسب، ثم قال للآخر: انتسب، ثم قال للآخر حتى بلغ سلمان، فقال:  
انتسب يا سلمان، قال: "ما أعرف لي أبا في الإسلام، ولكن سلمان ابن  
الإسلام، فسمى ذلك إلى عمر، فقال عمر رضي الله عنه لسعد ولقيه:  
انتسب يا سعد، فقال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين، قال: فكأنه عرف، فأبي  
أن يدعه حتى انتسب، ثم قال للآخر حتى بلغ سلمان، فقال: انتسب يا  
سلمان، فقال: أنعم الله علي بالإسلام، فأنا سلمان ابن الإسلام، فقال  
عمر: « قد علمت قريش أن الخطاب كان أعزهم في الجاهلية، وإن عمر ابن  
الإسلام أخ لسلمان ابن الإسلام، أما والله، لولا لعاقبتك عقوبة يسمع بها

---

1110 مسند أحمد، ج 43، ص 195.



أهل الأمصار، أو ما علمت؟ أو ما سمعت أن رجلا انتمى إلى تسعة آباء في  
الجاهلية فكان عاشرهم في النار، وانتمى رجل إلى رجل في الإسلام وترك ما  
فوق ذلك، وكان معه في الجنة"1111

فعلى هذا نقول:

إن الإسلام هو البيت الذي يجب أن ينتسب إليه كل مؤمن لا إلى  
أي بيت أو قبيلة أو مصر من الأمصار ويعضد ذلك قول الله تعالى: {إِنَّمَا  
الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}1112 فالإيمان بالله وبرسوله بهذا المعنى نسب صريح لا  
شك فيه يمكن لأي إنسان أن يدخل فيه بخلعه لكبره وكفره وبعده عن الله.

فقد صهر الإسلام شعوب الأرض في نسب جديد ألا وهو الإسلام  
وتصديقا لذلك:

. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سلمان منا أهل  
البيت"1113

. وكذلك بلال الحبشي فهو بلال ابن الإسلام.

. وصهيب الرومي فهو صهيب ابن الإسلام.

وعليه فالإسلام نسب

والإسلام وطن

والإسلام دين

---

1112 - الحجرات 10.

1113 - شعب الإيمان، ج 11، ص 124.

والإسلام شرف

والإسلام فخر

وحتى تتحقق هذه الدعوة كان النبي عليه الصلّاة والسّلام يبعد كل قرّبي ليست على الإسلام ويدني كل قرّبي ذات صلة بالإسلام، فلا شك إن بلال الحبشي أحب على قلب رسول الله عليه الصلّاة والسّلام من أبي جهل عمرو بن هشام أحد سادة قريش وابن عم النبي ذي القرّبي القبلية من النبي صلّى الله عليه وسلّم.

أليس الله قائل لنبيه في قرآن يتلى إلى يوم الدين تعبد به النبي عليه الصلّاة والسّلام والمسلمون: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ هَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ} 1114

أبو هب: هو أبو هب (عبد العزى) بن عبد المطلب عم النبي عليه الصلّاة والسّلام من أولي القرّبي في النسب الآبائي وليس النسب الديني وكان من الذين دعاهم النبي عليه الصلّاة والسّلام طاعة لله في قوله: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} "فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ حَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ يَا صَبَاحَاهُ فَقَالُوا مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتَفُ قَالُوا مُحَمَّدٌ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ يَا بَنِي فُلَانٍ يَا بَنِي فُلَانٍ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ حَيًّا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي قَالُوا مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا قَالَ فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ قَالَ فَقَالَ أَبُو هَبٍ تَبَّا لَكَ أَمَا جَمَعْتَنَا

إِلَّا لِهَذَا ثُمَّ قَامَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَقَدْ تَبَّ كَذَا قَرَأَ  
الْأَعْمَشُ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ "1115

فهذه القرى من أبي هب لم تفد أبا هب في إيمانه، ولم تفد النبي في  
تعزيد الدعوة، بل كانت من أسباب تطاول أبي هب على النبي لكونه عمه  
ولم تثنه عن مواصلة الدعوة.

. ولأنَّ أبا هب يعلم تمام العلم أن الرسول عليه الصلوة والسلام لن  
يردها عليه لحسن أخلاقه التي عهدتها عليه.

. إنَّ النبي ليس فحاشا ولا يجهر بالسوء ويعفو عن السيئة مصداقا  
لقوله تعالى: {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ  
سَمِيعًا عَلِيمًا} 1116

ولما كانت دعوة الإسلام تقوم على قرى الدين لم تلغ في ذات الوقت  
تأصيل القرى بناء على عبادة الله ثم تفصيل درجاتها مصداقا لقوله تعالى:  
{وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ  
وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ  
السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} 1117

. عبادة الله وعدم الإشراف به شيئا

. وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

. وَبِذِي الْقُرْبَىٰ

. واليتامى

---

1115 - صحيح مسلم، ج 1، ص 473.

1116 - النساء 148.

1117 - النساء 36.

. والمساكين

. وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ

. وَالْجَارِ الْجُنُبِ

. وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ

. وَابْنِ السَّبِيلِ

. وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ

. إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا

والتساؤل:

ما الأساس الذي تقوم عليه تلك العلاقات؟

من الواضح أن القرآن قد وضع ذلك الأساس جلياً وجعل على رأس تلك العلاقات الإيمان بالله وعدم الإشراك به شيئاً.

والآية تجمع من أحكام أوامر القربي في النسب والدين والمخالطة، والخطاب للمؤمنين؛ فقدّم الله تعالى الأمر بالعبادة على النهي عن الإشراك.

. لأنه قد تقرّر نفي الشرك لأنه يبطل العبادة ولاهم كانوا يعبدون الله في الجاهلية ويشركون معه أصناماً تقرّبهم إلى الله زلفى مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} 1118

. وأراد الله نفي الشرك بدوام العبادة لله بصيغة الفعل الأمر (واعبدوا) الذي يفيد الاستمرارية.

. ونهى عن الشرك تحذيرا مما كانوا عليه في الجاهلية (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى). والأمر (اعبدوا) والنفي (ولا تشركوا) لإفادة الحصر إذ مفاده: اعبدوا الله ولا تعبدوا غيره فاشتمل على معنى إثبات ونفي، كأنه قيل: لا تعبدوا إلا الله.

. (واعبدوا الله) بعبادته وحده بان تكون عبادته بالفعل والترك لأمر الله تعالى بذلك (افعل ولا تفعل)، وهذا يشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح. وقوله تعالى: (وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) لأن من عبد مع الله غيره انتفى كونه مؤمنا وبهذا يخرج من قربي المؤمنين بالله.

. وينسف الأساس الأخلاقي الذي يرفع عليه قواعد الأخلاق الإسلامية ومنها تحديد المعاملة من ذي القربي، فعبادة الله والإخلاص له هي ذلك الأساس مصداقا لقوله تعالى: { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ } 1119 . رفع قواعد الأخلاق:

ولما أسس الدين ووضع القاعدة الأساس ألا وهي عبادة الله وحده وعدم الإشراك به أخذ يرفع البناء الأخلاقي الإسلامي دونما نسيان لأهم صروحه وهو العلاقة بين المؤمن وذوي القربي، وأول من يهتم بهم الإسلام في تلك العلاقة هم الوالدين لأنهما الأصل الأول للإنسان والسبب في وجوده بعد إرادة الله.

فقال الله تعالى: (وبالوالدين إحسانا) وإحسانا مفعول مطلق لغرض التوكيد لفعل أمر محذوف والتقدير: وأحسنوا بالوالدين إحسانا لأهمية قربي الوالدين

وقد قرن الله تعالى وجوب بر الوالدين بعبادته وتوحيده في مواضع كثيرة في القرآن من مثل قوله تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} 1120.

. وقوله تعالى: {وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} 1121.

. وقال تعالى في الوالدين الكافرين: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} 1122.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال يا رسول الله ما الكبائر قال الإشراف بالله قال ثم ماذا قال ثم عقوق الوالدين قال ثم ماذا قال اليمين الغموس قلت وما اليمين الغموس قال الذي يفتطع مال امرئ مسلم هو فيها كاذب " 1123.

وقوله تعالى: (وبالوالدين إحسانا) اهتمام بشأن الوالدين إذ جعل الأمر بالإحسان إليهما عقب الأمر بالعبادة.

والسؤال:

---

1120 - الإسراء: 23.

1121 - لقمان: 14.

1122 - لقمان: 15.

1123 - صحيح البخاري، ج 21، ص 238.

ماذا لو كان الوالدان على الكفر؟

هل يصلهما لإنسان؟

هل يقطعهما؟

نقول:

حقّ الوالدين ثابت سواء أكان على الكفر أم على الإيمان.

فإن كانا على الكفر أحدهما أو كلاهما يجب التودد إليهما ودعوتهما إلى الإيمان وذلك كما جاء في سير سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُعْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ أَهْلِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَعْنٌ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} 1124.

. ويكفي هنا أن نشير إلى تودد سيدنا إبراهيم مع أبيه بقوله يا أبت

على سبيل الرّحمة وانتزاع مشاعر الأبوة أو القرّبيّ بين سيدنا إبراهيم وآزر.

. قسوة آزر إذ لم يقل مرة واحدة يا بني.

. وبالرغم من تيقن سيدنا إبراهيم من كفر آزر إلا انه قال له سلام

عليك سأستغفر لك ربّي.

وهذا من باب الإحسان للكافر فما بالناس المؤمن وذلك انطلاقاً من قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} {1125}.

. موقف المؤمن من الوالد الكافر الذي يريد كفر الابن بالله.

وهنا تكمن المعضلة

ماذا لو أصر الكافر على كفر الابن؟

هل يطيعه؟

هل يعصوه؟

هل يفارقه؟

وتحضرنا قصة سعد ابن أبي وقاص مع أمه التي كانت سبياً في نزول قوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} {1126}

وقد ذكر في سبب نزول الآية الأولى روايات منها ما أخرجه الترمذي، من أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص، وذلك أنه حين أسلم، قالت له أمه حمنة بنت سفيان: يا سعد بلغني أنك صبأت، فوالله لا يظلني سقف بيت، وإن الطعام والشراب على حرام، حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، فجاء سعد إلى النبي عليه الصلاة والسلام - ونقل إليه ما قالته أمه.

---

1125 - النحل 90.

1126 العنكبوت 8.



فنزلت هذه الآية.. فجاء سعد إليها فقال لها: يا أماه لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني، فكلتي إن شئت، وإن شئت فلا تأكلي، فلما يئست منه أكلت وشرّبت"1127. هذا وكل معاملة مع ذي القربى في الإسلام فهي بتوجيه من الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلّم، فأن سعدا كان أبر ابن بأمه فلما رأت أن يجعله يشرك بالله ذهب للنبي عليه الصلّاة والسّلام فأرشده إلى أن يطيعها في غير الكفر بالله وأن يبرها مع كفرها.

. وكان سعد خال رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ولكن هذه القربى لم تعفه من نصيحة عمر بن الخطاب له لما ولاه على الكوفة فقال له: "يا سعد بن وهيب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله عليه الصلّاة والسّلام وصاحبه. فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن. وإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته. فالناس شريفهم ووضعهم في ذات الله سواء. الله ربهم وهم عباده. يتفاضلون بالعافية. ويدركون ما عند الله بالطاعة. فانظر الأمر الذي رأيت عليه رسول الله عليه الصلّاة والسّلام منذ بعث إلى أن فارقنا، فالزمه فإنّه الأمر"1128

فلم تنفع قرابة أبي جهل من النبي صلى الله عليه وسلّم، ولم تنفع قرابة أم سعد بسعد، وهي في ذات الوقت أم خال الرسول عليه الصلّاة والسّلام وتلتقي معه عليه الصلّاة والسّلام في النسب، وكذلك النسب الأقرب للنبي عليه الصلّاة والسّلام لم تنفعهم تلك القربى إلا بالعمل مصداقا لما جاء في الصحيح: "قَامَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} 1129.

---

1127 - الوسيط لسيد طنطاوي، ج 1، ص 3296.

1128 - مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلّم، ج 1، ص 444.

1129 الشعراء 214.

قَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا اشْتَرَوْا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ  
اللَّهِ شَيْئًا يَا بَنِي عَبْدِ مَنَاةٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ  
الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكَ  
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَيَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتَ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكَ  
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا"1130

ومن خلال استقراء النصوص القرآنية التي ذكرت الآل نستنتج الآتي:

1. أن الآل ابتداءً بإبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعلى ما تقدم فإن الآل هم الذين ينحدرون من صلب الرجل دون  
النظر إلى الزوجة سواء أكانت الزوجة من آله أم من أهله أم غير ذلك، لأن  
الزوجة على حالات ثلاث:

1. الزوجة من الآل: مثل سارة زوجة إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،  
التي كانت ابنة عم له، فهي وإياه ينحدران من آل واحدٍ، ولذا فالعلاقة،  
علاقة آلٍ بالانتماء إلى الأعلى، وعلاقة أهل ضمن الآل الواحد.

2. الزوجة من الأهل: مثل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، فهي  
من أهل محمد عليه الصلاة والسلام قبل الزواج، وتلتقي معه في الآل عند  
خزيمة بن مدركة، وعلى هذا فهي ليست قرشية، لأن (قريش) هو مالك بن  
النضر بن كنانة بن خزيمه، فهي تفارق قريشا قبل ثلاثة آباء، وعليه فهي من  
أهله قبل خزيمه نزولا، ومن آله عند خزيمه صعودا1131.

---

1130 - صحيح البخاري، ج 9، ص 291.

1131 - ينظر نهاية الأرب، ج 1، ص 14.

3 . الزوجة من غير الآل والأهل: مثل هاجر زوجة إبراهيم صَلَّى اللهُ عليه وسلّم، فقد أصبحت من أهله عندما تزوج بها، فهي خارج الآل، ولم تدخل في الأهل إلاّ بعد الزواج من إبراهيم صَلَّى اللهُ عليه وسلّم.

والآل على ما ذكرنا من تعريفه، هو قائم منذ آدم صَلَّى اللهُ عليه وسلّم، ومستمر في ذريته وهو الآل العام في جميع البشر.

وأما الآل الخاص وهو آل النبوة فقد بدأ بإبراهيم عليه الصلّاة والسّلام وانتهى بمحمّد صَلَّى اللهُ عليه وسلّم.

وقد حدد ذلك أمر وتقدير إلهي بعلامات دالة على ابتداء آل النبوة وانتهائه، حيث تحدّد ذلك بما لا يدع مجالاً للشك في انتهاء آل النبوة بمحمّد عليه الصلّاة والسّلام بما يلي:

1 . آل النبوة ابتداءً بذبح وفداء: قال تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ} 1132.

2- آل النبوة انتهى بذبح وفداء، وهو نذر عبد المطلب، إن ولد له عشرة من البنين ليذبحنّ أحدهم فداء، فكان الذبيح عبد الله بن عبد المطلب، إلى أن افتُدي بمائة من الإبل 1133. مع العلم بأن إسماعيل عليه الصلّاة والسّلام نبي، وعبد الله ليس كذلك.

3- الآل لا يكون إلا من الذكر في النبوة وغيرها.

---

1132 - الصفات 102 - 107.

1133 - ينظر السيرة لابن كثير، ج 1، ص 174.

4- محمّد عليه الصّلاة والسّلام لم يعيش له ولد ذكر ليستمر به الآل، قال تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} 1134

5. النبي الخاتم منطقيًا إلا يخلف ذكورا لانقطاع الوحي والنبوة، قال تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} 1135

وإضافة إلى ذلك فيما يؤطر آل النبوة ويجدها حصرا أن الذبح والفداء ابتداء بأول الآل وهو إسماعيل عليه الصّلاة والسّلام وانتهى بآخر الآل وهو أبو محمّد عبد الله بن عبد المطلب أي بعد إبراهيم بواحد فقط وقبل محمّد بواحد فقط. ولو ذبح عبد الله لما كان محمّد، مع علمنا يقينيا أنه لا بدّ أن يولد محمّد ليكون رسول الكافة وخاتم النبيين.

وكذلك فإن العرب قبل نزول القرآن كانت تتجوز في لفظة الآل فتخرجها من اللفظ إلى عموم الدلالة، وإن جاءت مخصوصة في قول الشاعر:

يا أيها الرجل المحول رحله... هلا نزلت بآل عبد مناف 1136.

حتى جاء بها القرآن الكريم، وإنما كانت تستخدمها في معنى الرجوع (آل فلان إلى قومه أي رجع إليهم) وكانت اللفظة التي تستخدمها العرب قبل نزول القرآن بهذا المعنى هي كلمة (معشر) فتقول يا معشر قريش، حتى جاء القرآن الكريم وحدد استخدام المصطلح وميز بين الخاص والعام، فكانت لفظة (آل) في الخاص، ولفظة (معشر) في العام:

---

1134 - الكوثر 1 - 3.

1135 - الأحزاب 40.

1136 - روح المعاني، ج 23، ص 142.

. الخاص في آل كقوله تعالى: {فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

وَأَتَيْنَاهُمُ مَّلَكًا عَظِيمًا} 1137

. العام في معشر كقوله تعالى: { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ

مِّنكُمْ يَفْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} 1138

فقد تحدد كل مصطلح بخصوصيته، وحتى أن القرآن الكريم لم يذكر الآل قبل إبراهيم صلى الله عليه وسلم، لأن جميع من ذكر في القرآن من آلٍ هم بعد إبراهيم صلى الله عليه وسلم، ولما رأت العرب أن لفظة الآل تحدد الهوية أكثر من لفظ معشر، استخدموا اللفظ ولم يتقيدوا بخصوصيته، فنسبوا الآل مجازاً حتى تجاوزوا صلة القربي والمصاهرة كأبناء علي رضي الله عنه وهم من آل أبي طالب.

فإذا كانت المصاهرة تدخل ذرية البنات في آل آبائهم فإن علي بن أبي العاص بن الربيع وأمه زينب بنت رسول الله، وعبد الله بن عثمان بن عفان وأمه رقية يتساويان في ذلك مع الحسن والحسين ابني فاطمة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. لأن أي قضية إذا وجب الأمر في جزئها، وجب في كلها، وإذا انتفى عن جزئها انتفى عن كلها. والقضية هنا لا تخرج عن احتمالين هما:

. إما أن الحسن والحسين يُدخلان عليا وعبد الله في آل محمد صلى الله عليه وسلم.

. وإما أن عليا وعبد الله يُخرجان الحسن والحسين من آل محمد صلى الله عليه وسلم. ولما كان الانتساب من جهة الأثني، كان الخروج من الآل

---

1137 - النساء 54.

1138 - الأنعام 130.

أولى، والدخول في الأهل أولى، وعليه فجميع هؤلاء من أهل محمد صَلَّى اللهُ عليه وسلّم.

إلا أنّ إدخال الحسن والحسين في آل رسول الله عليه الصلّاة والسّلام دون أبناء بناته الأخريات، فهو من قبل الخلط والتجاوز في معنى الآل، وذلك جاء من أن جميع بنات رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلّم، وأبنائهن توفوا في حياة الرّسول عدى فاطمة وأبنائها.

وعليه فلم يبق للمسلمين من أهل رسول الله عليه الصلّاة والسّلام سوى فاطمة وأبنائها، ولما كانت فاطمة هي أصغر بناته، وهي الوحيدة التي بقيت له من ذريته، لذلك كان حب رسول الله كله لها ولأبنائها، ومن هنا كانت عاطفة المسلمين وحبهم لنبيهم وبرّهم به، هو حبهم لأهله الذين لم يبق منهم بعده إلا ابنته فاطمة وسبطيه الحسن بن علي والحسين بن علي من آل أبي طالب، فكانت عاطفة المسلمين معبرة عن عاطفة رسول الله في حبّ فاطمة وأبنائها، وكأنّها الوحيدة بعد موت أخواتها وأبنائهن، الأمر الذي عكس ذلك في مواقف المسلمين من التعبير عن هذا الحبّ كموقف عاطفي أولاً، ثمّ أثبت ذلك في كتاباتهم فيما بعد.

وعليه فالآل يتساوى فيه الذين ينحدرون من الأصلاب، ولذا فهو ليس اختياراً عاطفياً، ولأننا نكتب في هذا الموضوع بعقلانية، فلا بدّ من توضيح الأمر على وجهه الحقيقي.

ولما كان الآل مرتبطاً بمذكر في آل النبي وغيره، لا بدّ لنا من العودة إلى الأنساب حتى نوضح لأيّ آل يرجع كل من الحسن والحسين ابني علي، وعلي بن أبي العاص بن الرّبيع وعبد الله بن عثمان بن عفان.

ونثبت بداية نسب رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلّم: وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن

مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك (قريش) بن النضر بن  
كنانة بن خزيمه بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن  
عدنان 1139، وعلى هذا يكون النسب:

1 . محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن  
قصي .

2 . علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن  
قصي .

3 . عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية الأكبر بن عبد شمس بن  
عبد مناف بن قصي .

4 . أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف  
بن قصي .

وبناء على سلسلة النسب فإن علاقة هؤلاء جمعا بآل محمّد صلّى الله  
عليه وسلّم، تصاعدية وليست تنازلية، فكيف يكونون من آله؟

. محمّد عليه الصلّاة والسّلام وعلي يلتقيان عند عبد المطلب

. محمّد عليه الصلّاة والسّلام وعليّ وعثمان وأبو العاص يلتقون عند  
عبد مناف بن قصي . ولذا فليس أحدا منهم من آل محمّد صلّى الله عليه  
وسلّم، وليس أحدا منهم من آل عبد الله بن عبد المطلب، لأن آل محمّد بن  
عبد الله بن عبد المطلب هم القاسم والطاهر والطيب من خديجة أمّ المؤمنين  
وماتوا قبل البعثة 1140، وإبراهيم من ماريّا القبطية، ولد ومات بعد  
البعثة 1141.

---

1139 - ينظر نهاية الأرب، ج 1، ص 9.

1140 - ينظر سيرة ابن إسحاق، ج 1، ص 22.

فالرسول عليه الصلّاة والسّلام لم يعيش له ولد ذكر حتى يكون الآل فيه لقوله تعالى (ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم) وعلى هذا فإنّ آل النبوّة انتهت في محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب، لذلك نجد أبا الفرج الاصبهاني لم يجاوز الصواب وكان دقيقا في ردّ الفروع إلى أصولها، ولم ينسب أحدا إلى آل بيت النبوّة عندما ألف كتابا بعنوان (مقاتل الطالبين) الذي ذكر فيه جعفر بن أبي طالب ومحمّد بن جعفر، وعلي بن أبي طالب، والحسن بن علي والحسين بن علي وجميعهم يرجعهم إلى آل أبي طالب 1142. ولذا نرى أنّه مصيب في هذا العرض وفقا لقاعدة الآل.

آل موسى وعيسى ابن مريم:

لما كان موسى عليه الصلّاة والسّلام من بني إسرائيل، وله فيهم نسب معروف ينحدر منه، وآل يرجع إليهم وهم آل عمران، فمن المنطقي أنّه يتميز خطاب الله تعالى له، عن خطاب عيسى عليه الصلّاة والسّلام الذي خلق من غير أب، مع العلم أن أمه مريم من آل عمران.

ومع ذلك فلا يمكن أن يكون عيسى عليه الصلّاة والسّلام من آل عمران لاختلال شروط الآل في عيسى، وهو عدم توفر الانحدار من الصلب، ليرجع بآله إليه.

ولكن لما توفر ذلك في موسى صلّى الله عليه وسلّم، كان المر مختلفا، إذ نجد الخطاب أو النداء مرتبط بنسب يصل به إلى آل هو ينحدر منهم.

إن خطاب موسى عليه الصلّاة والسّلام لقومه، كان مقرونا دائما (يا قوم) ذلك أنّه منهم وله فيهم نسب معروف:

---

1141 - ينظر سيرة ابن كثير، ج 1، ص 264.

1142 - مقاتل الطالبين، ج 1، ص 1، 4، 5، 12.



قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ} 1143.

وقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا} 1144.

ومثله قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي} 1145.

ففي هذه الآيات نسبة الله تعالى إليهم بقوله (لقومه) وموسى عليه الصلوة والسلام انتسب لهم بقوله: (يا قوم) دلالة على أنه منهم، ولو كان غير ذلك لأنكروه.

ولكن هناك آية واحدة لم يقل فيها (يا قوم) وهي:

قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً} 1146.

والسبب في ذلك أن أسلوب الخطاب كان تقدم في السورة نفسها قبل عشر آيات فلم تعد حاجة للتكرار، وعلى فهي استمرار الخطاب (يا قوم).

وكذلك كان قومه ينادونه بالاسم المجرد لعدم الاشتباه، لأنه معروف فيهم، وقد جاءت معرفة موسى وشهرته في قومه بأمر من الله تعالى، ذلك أنه تربى في بيت فرعون، علما أنه من عامة بني إسرائيل وليس من خاصتهم.

---

1143 - البقرة - 54.

1144 - المائدة - 20.

1145 - الصف - 5.

1146 - البقرة - 67.

وقد ورد ذلك ثلاثة عشرة مرة في القرآن الكريم منها قوله تعالى:  
{وَأِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ  
وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} 1147. وكذلك قوله تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا  
جَبَّارِينَ} 1148. وقوله تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ  
نَحْنُ الْمُلْقِينَ} 1149.

وعلى ذلك جرى الخطاب له من الله تعالى (يا موسى) فهو من آل  
عمران الذين هم من آل إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولما كانت الشهرة  
تغني عن التخصيص وجب النداء بالاسم مجردا، فقد ناداه الله تعالى إحدى  
عشرة مرة، كقوله تعالى: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي  
وَبِكَلَامِي} 1150. وكذلك قوله تعالى: {يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ  
الْحَكِيمُ} 1151.

والملاحظ أن النداء لعيسى عليه الصلاة والسلام من الله تعالى، ومن  
أصحابه الحواريين كان مختلفا وله خصوصية لخصوصية مولد عيسى صَلَّى اللهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث أنه وُلِدَ من دون أبٍ، فنسبه الله تعالى إلى أمه، علما أن  
أمه من آل عمران ولم يختلط دمه بغيرهم، ومن المعروف في اللغة وفي كلام  
العرب أن ينسب الرجل إلى أبيه الأعلى تفاخرا عندما يكون شريفا من ذوي  
الحسب والنسب، وليس هناك أشرف من آل النبوة، ومع ذلك نسبه الله  
تعالى إلى أمه لخصوصية مولده، وفي مثل هذا الموقف فقد نسب نبينا عليه  
الصلاة والسلام نفسه إلى جدّه يوم حنين وهو يقول: "أنا النبي لا كذب،

---

1147 - البقرة 55.

1148 - المائدة 22.

1149 - الأعراف 115.

1150 - الأعراف 144.

1151 - النمل 9.

أنا ابن عبد المطلب"1152. غير أن النسب هنا جاء من جهة الأب وإن  
علا، إلا أن عيسى عليه الصّلاة والسّلام ليس له من الوالدين إلا الأم،  
فكان نسبه إلى أمه دون الآل، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ  
وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرِّسْلِ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ  
الْقُدُسِ}1153. فقد ذكر موسى مجردا وعيسى منسوب إلى أمه، ولم يذكر  
عيسى مجردا إلا بعد أن أكد أنه ابن مريم ثلاث مرات قبلها، حيث ورد في  
البقرة مرتين، والثالثة في آل عمران على أنه ابن مريم، والتأكيد في اللغة أكثر  
من ثلاث مرات يكون عينا من المتكلم، واستخفافا بالمخاطب، حتى جاء في  
الرابعة مجردا في آل عمران أيضا قوله تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ  
قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ}1154.

وبعد التأكيد جرى الخطاب من الله تعالى لعيسى عليه الصّلاة  
والسّلام أو ذكره إما مجردا وإما منسوبا لأمه:

فمن الخطاب المجرد قوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ  
وَرَأَيْتُكَ إِلَىَّ وَمُطَهَّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}1155.

ومن ذكره المجرد قوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ  
مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}1156.

ومن الخطاب المنسوب فيه لأمه قوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى  
ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ}1157.

---

1152 - صحيح مسلم، ج 5، ص 168.

1153 - البقرة 87.

1154 - آل عمران 52.

1155 - آل عمران 55.

1156 - آل عمران 59.

ومن ذكره المنسوب فيه لأمه، قوله تعالى: {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} 1158.

وعلى هذا كان نداء أصحابه من الحواريين له، قال تعالى: {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ} 1159.

ولهذا لم يخاطب عيسى عليه الصلوة والسلام من أرسل إليهم كما كان يخاطبهم موسى عليه الصلوة والسلام بقوله (يا قوم) علما أن مريم عليها السلام منهم، وهي من آل عمران، وهو ابن مريم، فلم ينتسب إليهم لانتفاء الآل من الذكر، وإنما كان خطابه لهم بما ينتمون إليه:

قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ} 1160.

وكذلك قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} 1161.

لقد ذكر عيسى عليه الصلوة والسلام منسوبا لأمه، لثلاثة أسباب

هي:

---

1157 - المائة 110.

1158 - مريم 34.

1159 - المائة 112.

1160 - المائة 72.

1161 - الصف 6.

1 . إظهار قدرة الله تعالى في عيسى المعجزة، ولادة وطفولة ورجولة ونبوة.

2 . تنبيهها على أنه ليس له أب فلا ينتمي إلى آل.

3 . إبعاد الشبهة عن مريم عليها السلام مما رماها به اليهود.

وعليه فعيسى ابن مريم نبي مرسل معصوم من أولي العزم من الرسل، وأمه صديقة في الدرجة الثانية بعد الأنبياء، وفي الدرجة الأولى التي ترقى إليها مكانة امرأة عند الله، وتنحدر من أشرف بيت لبني البشر وهم آل النبوة، ومع ذلك لم يرد في كتاب الله تعالى، ولا فيما ذكره المفسرون والفقهاء، من نسبة عيسى عليه الصلاة والسلام إلى آل بيت النبوة، لأنه ينتسب إلى أنثى، فكيف ينتسب من كان دونه.

العلاقة بين الآل والإلّ:

بقي في هذا الجانب مسألة واحدة وهي قوله تعالى: { لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً }  
إِلَّا وَلَا ذِمَّةً }

فهل هناك علاقة بين الآل والإلّ من حيث المبنى أو المعنى؟

فأما من خلال المبنى فإن الجذر الثلاثي لكلمة (آل) على ما سبق وبيناه من خلال المعاجم هو (ء، ا، ل) همزة مفتوحة وألف ساكنة بعدها لام.

وأما (إلّ) فجذرها الثلاثي هو (إ، ل، ل) همزة مكسورة ولام ساكنة بعدها لام.

فالجزر اللغوي لكلا اللفظين مختلف، واختلاف الجذر اللغوي هو اختلاف في المعنى ضرورة، إذ من المعروف أنه ليس هناك كلمتين في اللغة العربية تعطي معنىً واحداً مطلقاً

ص، ولكن تشتمل إحداها على صفة أو أكثر من صفات الأخرى ولا تطابقها البتة، وهذا ما يعرف بالتزاد اللغوي، ولو كانت مطابقة لها لانتفت الحاجة إلى إحداها.

وأما من حيث المعنى، فإنّ (الآل) بمعنى الرجوع، وآل الرجل ما انحدر من صلبه لأنه يرجع في أصله إليه.

والإلّ ليست كذلك، وإن كانتا تدل على صلة القرابة. غير أن القرابة درجات، ومعنى درجات أنّها معانٍ غير متطابقة، وعلى هذا الأساس قامت أنصبة الموارث، إذ لو كانت كل القرابات بدرجة واحدة لاستوى الجميع فيها وتساوت أنصبة الوارثين، ولما أنزل الله آيات الموارث في الذكر الحكيم.

ولذا فاختلاف درجات القرابي من الصلب أو الرحم أدى إلى اختلاف المعنى، وإن اشتملت إحداها على صفة أو أكثر من صفات الأخرى.

"والإلّ قُرْبَى الرَّحْمِ قال:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ فِي قُرَيْشٍ... كَيْلَ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ" 1162

واضح من البيت الشعري أنه يريد القرابة، إذ أن السقب هو ابن الناقة الذكر أول ولادته، والرأل فرخ النعام، فهذا من الأنعام وذاك من الطيور ولا قرابة بينهما، فإن كانت قرابة بين السقب والرأل، فهي مثل قرابة المخاطب بالبيت الشعري من قريش.

وجاء في مجاز القرآن: "الإلّ: العهد والعقد واليمين" 1163. وكذلك:  
"الإلّ: القرابة والذمة والعهد" 1164. ومعظم ما جاء في معنى الإلّ لم  
يقتصر على معنى واحدٍ، وإنما يجمع بين معنيين أو أكثر، وعليه لا يمكن  
الأخذ بأيٍّ منها لاختلافها وتعددتها، إلا أن أوضح معنى منفرد لها والذي  
نرجحه، ما جاء عند الأصفهاني: "الإلّ: كل حالة ظاهرة من عهد حلف  
وقرابة تثل تلمع فلا يمكن إنكاره" 1165. وعليه فالإلّ صفة معنى معروف  
مسبقا للمخاطب، وصلة لموضوع، وهو على ذلك لفظ يضاف إليه أربع  
كلمات وهي:

1. إُلُّ عهدٍ.

2. إُلُّ عقدٍ.

3. إُلُّ حلفٍ.

4. إُلُّ قرابة.

5. إُلُّ صلة.

ولذا فإننا نرى أن الإلّ هو الشيء ظهوره وبيانه، وعليه يكون المعنى:  
بينك وبين فلان إُلُّ أنا أعرفه، سواءً أكان عهدا أو عقدا أو حلفا أو قرابة،  
فهو يلمع لي، وهو ظاهر لي.

وعليه فالإلّ هي صلة معينة تربط بين شيئين في موضوع ما يخرج عن  
خصوصية الآل وعن خصوصية الأهل، وعندما تعطي معنى صلة علاقة الدم

---

1163 - مجاز القرآن، ج 1، ص 45.

1164 - معاني القرآن، ج 3، ص 186.

1165 - غريب القرآن، ج 1، ص 20.

تكون في الدرجة الثالثة، لأنها قرابة على العموم وليس على الخصوص، لأنّ درجات القرابة هي:

1. الآل: قرابة خصوص الخصوص.

2. الأهل: قرابة الخصوص.

3. الإلّ: قرابة العموم من إحدى معانيها.

ولذا فلا تطابق بين الإلّ والآل لا من حيث المبنى اللغوي ولا من حيث المعنى الدلالي.

### العابس المتولي:

إن من الأشياء التي تثير التساؤلات في سيرة سيدنا محمد عليه الصلّاة والسّلام ما قيل عنه في سورة عبس.

إنه عبس

وتولى

وتلهى

عن رجل أعمى عاجز، وهو عليه الصلّاة والسّلام القائل: "إِنَّ الرَّفِقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا يُنَزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ" 1166.

فكيف لا يرفق وهو الذي أمر الناس بالرفق!!؟

وكيف يعبس وهو الذي علّم الناس أن الابتسامه صدقة لقوله صلّى الله عليه سلم: "تبسمك في وجه أخيك صدقة لك، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلالة لك صدقة،

---

1166 - صحيح مسلم، ج 12، ص 487.



وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم  
عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك  
صدقة"1167

فإنّ وصف النبي عليه الصلّاة والسّلام بالعابس المتولي يتعارض مع كل  
ما جاء عن النبي عليه الصلّاة والسّلام في القرآن الكريم وفي الحديث  
الصحيح.

إذن فعلينا مناقشة ما أشيع غلطا أنّه عليه الصلّاة والسّلام عابس  
ومتول ولاه في وجه الأعمى.

وسناقش هذا الغلط على ست مستويات:

الأول: القرآن الكريم.

الثاني: اللغة

الثالث: كتب التفاسير

الرابع: أسباب النزول

الخامس: الحديث الشريف.

السادس: السيرة.

أولا القرآن الكريم:

قال الله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى}1168

---

1167 - صحيح ابن حبان، ج 3، ص 51.

1168 عبس -1-2

. اسم السورة عبس فعل ماض لا يدل دلالة مباشرة على النبي صَلَّى  
الله عليه وسلّم، فغير معلوم من هو العابس.

. قول الله تعالى: (عبس وتولى أن جاءه الأعمى)

. فالكلام محكي للنبي صَلَّى الله عليه وسلّم.

. الكلام ليس محكي عن النبي صَلَّى الله عليه وسلّم.

. أن جاءه الأعمى فالضمير (في جاءه) لا يعود على النبي عليه  
الصلاة والسلام بل يعود على غائب موصوف بالعبوس من قبل ذلك كما  
سنرى من خلال النصوص القرآنية.

. لم يقل الله سبحانه وتعالى: (أن جاءك العمى)

. حتى إن كلمة الأعمى وما فيها من دلالات العجز والضعف لا  
يمكن أن تلاقي من رد فعل النبي عليه الصلاة والسلام إلا الرأفة واللين  
والشفق ولو لم تلق هذا فذلك سيؤدّي إلى تعارض مع نصوص قرآنية أخرى  
من مثل قول الله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ  
حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} 1169.

فهل تتوافق صفة العابس المتولي مع

. عزيز عليه ما عنتم؟

. حريص عليكم؟

. بالمؤمنين رءوفا رحيمًا؟

. فهو عليه الصلاة والسلام حريص على البشرية يطلب هداها؟

. لا يرضي لهم العنت والمشقة في الكفر؟

. رءوف بالمؤمنين رحيم بهم؟

. أمّا العابس المتولي فهولا رءوف بالمؤمنين ولا رحيم بهم ولا حريص

عليهم؟

. لذا يلزم أن يكون العابس المتولي غير الرءوف الرحيم.

. ثم إنّ العبس والتولي مع الأعمى أمر ممتنع على أن يكون من أخلاق

الرّسول، فكيف بالأمر أن ينسب اللقب أعمى لهذا العاجز الذي جاء إلى

مجلس من مجالس النبي عليه الصّلاة والسّلام فأنزل فيه الله قرآنا يصلّي به إلى

يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها يصفه بهذه الصفة (الأعمى)

ونقول: هل يستقيم أن يذكر الله هذه الصفة عن المذكور في الآية وهو

سبحانه وتعالى القائل: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ} 1170

وهنا تكون معضلة!!

هل النبي عابس؟!؟

هل النبي يناز بالألقاب؟!؟

من المؤكد لا

فهل الله هو الذي يناز المذكور في سورة عبس بهذا اللقب (أعمى)

. إن الذي أراد أن يلحق هذه الصفة بالنبي عليه الصّلاة والسّلام قد

جانبه الصواب.

وعليه نقول:

لا النبي عابس

ولا الله منابز بالألقاب

إذن فمن يكون العابس؟

ومن يكون المنابز بالألقاب؟

ونحن ما زلنا نجادل بالتي أحسن بحجج القرآن ومن آي القرآن ونقول:

. لم يُعرف عن النبي عليه الصلّاة والسّلام هذه الصفة في القرآن الكريم

(العابس المتولي).

. ولو كان هذا الوصف بالفعل يخص النبي عليه الصلّاة والسّلام

لوجدنا له شواهد في القرآن الكريم.

. وقد فتشنا في كل آيات القرآن فلم نجد فيه هذا الوصف للنبي عليه

الصلّاة والسّلام مطلقا.

. وكلمة عابس تكررت في القرآن الكريم مرتين مرة في هذه السورة

(عبس) ومرة في سورة أخرى هي سورة (المدثر) مصداقا لقوله تعالى: {ذَرْنِي

وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَدْتُ لَهُ نَمِيمًا

ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَأَن لَّيَاتِنَا عِينِدًا سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ

فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ

فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} 1171

وهنا نبدأ بترتيب نزول القرآن:

من المؤكد أن سورة المدثر أسبق من سورة عبس في النزول حتى قيل في

بعض الآراء إن المدثر هي أول ما نزل من القرآن.

ولما كان الأمر كذلك فإن صفة العابس وغيرها من صفات تتوافق  
وشخصية العابس في سورة المدثر من مثل ما ورد في هذه السورة عن الوليد  
بن المغيرة:

(كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا سَأُرْهِفُهُ صَعُودًا)

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

(ثُمَّ نَظَرَ)

(ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ)

وَ (ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ)

(فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ)

(سَأُصَلِّيهِ سَقَرَ)

. والمتأمل في هذه الصفات يجدها تتوافق مع شخصية العابس الباسر  
(عبس وبسر) وكلاهما تعني كلاحه الوجه وتجهمه وهذه ليست صفة النبي  
صلّى الله عليه وسلّم.

. وهذا العبوس والبسور والصاقه بالنبي عليه الصلّاة والسّلام يستهدف  
نقض القرآن الكريم ووصفه بأحط ما يرفضه المجتمع العربيّ والفضائل بوجه  
عام في كل زمان ومكان.

فهل هذا يصدر عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟

بالقطع لا، وإّما يصدر من كافر كفر بقيم المجتمع وبتعاليم الله سبحانه  
الذي قال حكاية عن الكافر الذي قال: (فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنَّ  
هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ)

. إن جزاء العابس (سقر) جهنم أعادنا الله منها.

. فهل جزاء النبي عليه الصلّاة والسّلام سقر؟

. هل من المعقول إن هذه الصفات يمكن أن تكون إحداها لسيدنا  
محمد عليه الصلّاة والسّلام الذي وصفه الله تعالى بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ  
عَظِيمٍ} 1172.

هل يعقل أن سقر جزاء لصاحب الخلق العظيم؟

هل تتوافق صفات العابس مع صفات النبي صلّى الله عليه وسلّم؟

أم هي من طباع الوليد بن المغيرة؟

نترك الإجابة لكل ذي عقل رشيد؟

إن ما قيل عن العابس المتولي في سورة عبس وهو الوليد بن المغيرة  
الذي قال الله عنه في سورة القلم (ذري ومن خلقت وحيدا)

{وَلَا تُطْعَمُ كُلٌّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَاعٍ لِلْحَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ  
عُتُلٌّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ  
الْأَوَّلِينَ} 1173.

وهذه صفات العابس المتولي:

حَلَّافٍ مَهِينٍ

هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ

مَنَاعٍ لِلْحَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ

---

1172 - القلم 4.

1173 - القلم 8-16.

عُتِّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنِ

أَنَّ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَيْنَ

إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سَنَسِيْمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ

والصفات السابقة تتنافى مع صفات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فهو عليه الصلّاة والسّلام الصادق الأمين الذي ليس أبا لأحد من رجال العرب ولا غيرهم: { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ } 1174 فهو عليه الصلّاة والسّلام ليس ذا مال وبنين، فقد مات أبناؤه الذكور صغاراً والكل يعلم ذلك.

وليس بخلاف ولا مهين

ولا هماز مشاء بنميم

ولا هو عابس متول.

فمن الذي نزلت فيه الآيات السابقة التي منه إنه عابس باسر؟

ترك الإجابة لكتب التفاسير ونأخذ منها علي سبيل المثال:

"(ذُرْبِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) يعني الوليد بن المغيرة "1175"

ومن هو الهماز المشاء بالنميم؟

"قال ابن قتيبة لا نعلم أن الله وصف أحدا ولا ذكر من عيوبه مثل ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة فالحقّ به عارا لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة"1176.

---

1174 - الأحزاب 40.

1175 - تفسير الطبري، ج 23، ص 19.

والوليد بن المغيرة هو العابس المتولي ذو الصفات الذميمة ومنها  
(عبس وبسر)

(عَبَسَ وَبَسَرَ) فالفعالان يدلان على أنّ الوليد كان متيقنا في قلبه  
بصدق سيدنا محمد عليه الصلّاة والسّلام ومع ذلك كان يكفر به عنادا من  
عند نفسه.

ويتأكد ذلك من سياق الآيات:

. فإنه بعد أن تفكر وتأمل قدّر في نفسه كلاما عزم على أن يقوله  
لقريش ليدحض به القرآن.

. فعلم أن الكلام الذي سيقوله افتراءات على القرآن كذب وزور.

. فظهرت العبوسة في وجهه لأنه يعلم ضعف ما يقوله.

. لو علم أنّ ما سيقوله عن القرآن صحيح وإنه سيهدم ما أنزله الله  
لفرح به.

. امتناع فرحه وظهور عبوسته لضعف ما وصل إليه.

. الوليد بن المغيرة كان شديد العناد لآيات الله، فمع عناده وفشله

عبس وبسر

وذلك يصوره القرآن ليظهر عناده وتصميمه على الفشل وظهور ذلك  
الفشل وتلك الخيبة على وجهه بقوله تعالى: { إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ  
قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ } 1177

---

1176 - تفسير الخازن، ج 6، ص 140.

1177 - المدثر - 18-22



فقال بعد أن أزهقه التفكير وأصابه العبوس من كلالحة وجهه ونفاذ صبر وطول عناد (إنه سحر يؤثر)

بالرغم من إنه هو القائل عن القرآن وصفا بليغا كما جاء في كتب السيرة عن ابن عباس قال: (إن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال اقرأ علي. فقرأ عليه { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى } 1178؛ فقال أعد. فأعاد. فقال والله إن له لحلاوة. وإن عليه لطلاوة. وإن أعلاه لمثمر. وإن أسفله لمغدق. وإنه ليعلو ولا يعلى عليه. وإنه ليحطم ما تحته. وما يقول هذا بشر).

وفي رواية "وبلغ ذلك أبا جهل فأتاه. فقال يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا. قال ولم؟ قال آتيت محمدا لتعوض مما قبله. قال قد علمت قريش أنني من أكثرها مالا. قال فقل فيه قولا يبلغ قومك: إنك منكر له" 1179. فقال إنه سحر.

وكذلك مما ورد في: "أن الوليد بن المغيرة قال لهم وقد حضر الموسم "ستقدم عليكم وفود العرب من كل جانب وقد سمعوا بأمر صاحبكم. فأجمعوا فيه رأيا، ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضا. فقالوا: فأنت فقل. فقال بل قولوا وأنا أسمع. قالوا: نقول كاهن. قال ما هو بزمرة الكهان ولا سجعهم. قالوا نقول مجنون قال ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه. فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخالجه. قالوا: نقول شاعر. قال ما هو بشاعر. لقد عرفنا الشعر رجزه وهزجه وقريضه. ومقبوضة ومبسوطة قالوا: نقول ساحر قال ما هو بساحر. لقد رأينا السحرة وسحرهم فما هو بعقدهم ولا نفتهم قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال ما نقول من شيء من هذا

إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول إنّ تقولوا: ساحر يفرق بين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك. فجعلوا يجلسون للناس لا يمر بهم أحد إلا حذروه رسول الله -صلى الله عليه وسلم" 1180

فثبت مما تقدّم أنه إنما الذي عبس وبسر هو الوليد بن المغيرة لأنه كان يعلم أن الذي يقوله كذب ويهتان بقوله عن القرآن إنه سحر يؤثر.

هذا في باب القرآن ونخرج منه أن العابس المتولي هو الوليد بن المغيرة وليس النبي صلى الله عليه وسلم.

-الجانب اللغوي:

وقد قدمنا الجانب القرآني على الجانب اللغوي لنبطل حجة من يقول على النبي عليه الصلاة والسلام إنّه عابس ومتول وعلى الله منابز بالألقاب وهذا افتراء محض على رسول الله وعلى الله سبحانه وتعالى مصداقا لقوله تعالى: {لَتَقْفُرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} 1181

وفي اللغة التي هي من أوعية معارف الدين يستبين لنا معان للعباس تتنافى وصفات رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فمن خلال النظر في كتب اللغة وجدنا أن عبس وبسر قريبتان في المعنى وتطلق إحداها على الأخرى.

وفي تاج العروس ما يبعد هذه الصفة عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويجعلها للكافر والمنافق

---

1180 - مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ج 1، ص 148.

1181 - النحل 116.

يقال: المؤمنُ دَعِبٌ لَعِبٌ والمنافِقُ عَيْسٌ قَطِبٌ

(عبس) عَبَسَ يَعْبِسُ عَبَسًا وَعَبَّسَ قَطَّبَ ما بين عينيه فَإِنْ كَثُرَ عَنْ  
أَسْنَانِهِ فَهُوَ كَالْحِخِّ وَقِيلَ عَبَّسَ كَلَّحَ وَفِي صِفَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا عَابِسٌ  
وَلَا مُفْنِدٌ"1182

"وَبَسَّرَ يَبْسُرُ بَسْرًا وَبُسُورًا عَبَسَ

وَوَجْهُ بَسْرٌ بَسْرٌ بِاسِرٍّ وَصِفَ بِالْمَصْدَرِ وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: (وَوُجُوهُ يَوْمئِذٍ  
بِاسِرَّةٍ) وَفِيهِ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَّرَ

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: بَسَّرَ أَي نَظَرَ بِكَرَاهَةٍ شَدِيدَةٍ.

وقوله (ووجوه يومئذٍ باسرة) أي مُقَطَّبَةٌ قَدْ أَيْقَنْتَ أَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِهَا  
وَبَسَّرَ الرَّجُلُ وَجْهَهُ بُسُورًا أَي كَلَّحَ

وَفِي حَدِيثِ سَعْدٍ قَالَ: "لَمَّا أَسْلَمْتُ رَاغَمْتَنِي أُمِّي فَكَانَتْ تَلْقَانِي مَرَّةً  
بِالْبِشْرِ وَمَرَّةً بِالْبَسْرِ"1183.

وَمِنَ الْمَلَاخِظِ أَنَّ اللَّغَةَ قَرَنْتَ الْبَسْرَ بِالْعَبْسِ وَأَصْبَحَتْ الصِّفَةُ مَلَاخِظَةً  
لِلْكَافِرِ الْقَانِطِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الْمَعَانِدِ لَمَّا أَنْزَلَهُ اللَّهُ أَوْ الَّذِي يَجْتَهِدُ لِرَدِّ الْمُسْلِمِ عَنْ  
إِسْلَامِهِ كَمَا هُوَ الْحَالُ مَعَ أُمِّ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ.

وَلَمْ نَجِدْ الْبَسْرَ وَالْعَبْسَ فِي وَصْفِ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ بِشَكْلِ عَامٍ أَوْ  
الْأَنْبِيَاءِ بِشَكْلِ خَاصٍّ فَكَيْفَ تَلْصِقُ هَذِهِ الصِّفَةَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

1182 - تاج العروس، ج 1، ص 478.

1183 - لسان العرب، ج 4، ص 57.

كما أن العبس ظلام في الوجه وهذا مما يبعد هذه الصفة بالكلية عن  
الرّسول محمّد عليه الصّلاة والسّلام فقد جاء في اللسان:

"وقد اكْفَهَرَ الرجلُ إِذَا عَبَسَ وَاكْفَهَرَ النجم إِذَا بدا وَجْهُهُ وضوءُهُ في  
شدة ظلمة الليل.

فلان مُكْفَهَرٌ أَي منقبض كالح لا يُرَى فيه أَثرٌ بِشَرٍّ ولا فَرِحٍ "

"ورجل كاسفُ الوجه عابسه من سوء الحال، يقال: عبس في وجهي  
وكسَفَ كُسُوفًا والكُسُوف في الوجه الصفرة والتغير" 1184

كما أن من معاني العبوس الوسخ وهذه الصفة لا يمكن بأية حال من  
الأحوال أن تكون من صفات الرّسول الأكرم صلّى الله عليه وسلّم.

"وَعَبَسَ الوَسْخُ عليه وفيه عَبَسَا يَبْسُ

وَعَبَسَ الثوبُ عَبَسَا يَبْسُ عليه الوَسْخُ

وَعَبَسَ الرجلُ اتسخ" 1185

ونتساءل:

هل بالله عهد علي النبي عليه الصّلاة والسّلام مثل هذه الصفات في  
القرآن أو التفاسير أو الحديث الشريف، اللهم نشكو إليك من أراد أن  
يؤذينا في النبي صلّى الله عليه وسلّم.

ومن اللغة التي تثبت ما جاء في السيرة لنفي هذه الصفة التي هي  
أصلاً ليست من صفاته صلّى الله عليه وسلّم:

---

1184 - لسان العرب، ج 6، ص 128.

1185 - لسان العرب، ج 6، ص 128.

"وفي حديث أمِّ مَعْبُدٍ: "لا عَابِسٌ ولا مُفَنِّدٌ" وهو الذي لا فائدة في كلامه لِكِبَرِ أَصَابِهِ فَهِيَ تَصِفُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَتَقُولُ: لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ" 1186

ولنفي صفة وفعل عبس من خلال كتب اللغة:

"والكَهْرُ: اسْتِقْبَالُكَ إِنْسَانًا بِوَجْهِ عَابِسٍ تَهَاوُنًا بِهِ وَازْدِرَاءً. وَقِيلَ: الْكَهْرُ: عُبُوسُ الْوَجْهِ وَفِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ أَنَّهُ قَالَ: "مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَبَابِي هُوَ وَأُمِّي مَا كَهَرَنِي وَلَا شَتَمَنِي وَلَا ضَرَبَنِي" 1187

والحديث كما جاء في الصحيح، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: "بَيْنَا أَنَا أَصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ وَاتَّكَلْتُ أُمِّيَاءَ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَيَّ أَفْحَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونِي لَكِبِّي سَكَتٌ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَبَابِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ فَوَ اللَّهُ مَا كَهَرَنِي وَلَا شَتَمَنِي قَالَ إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ إِذَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ" 1188

لذا يستبين بالدليل اللغوي أن العابس المتولي ليس النبي صلى الله عليه وسلم، بل هي صفة لازمت الوليد بن المغيرة وقيلت كذلك في وصف أم سعد بن أبي وقاص لترد سعد عن الإسلام.

---

1186 - تاج العروس، ج 1، ص 2177.

1187 - تاج العروس، ج 1، ص 3473.

1188 - صحيح مسلم، ج 3، ص 140.

والسؤال لماذا يصر البعض على إصاق هذه الصفة للنبي عليه الصلّاة  
والسّلام مع كونها للوليد بن المغيرة؟

ووضح هذه الصفة عند الوليد أبيّن من الشمس في نهار صيف،  
يؤكدّها علم من علوم القرآن الذي يؤخذ به وهو علم أسباب النزول.

أسباب النزول والعباس المتولي:

نأخذ القضية عقلا فنجد أنّها سارت في اتجاه واحد بينما الأصل أنّه  
اتجاهان... كيف؟

إن صفة العباس الباسر المدبر، والعباس المتولي متصلتان غير  
منفصلتين، فقد أخذ المفسرون اتجاه أنّ العباس المتولي هو النبي عليه الصلّاة  
والسّلام من خلال أسباب النزول لسورة عبس لما روي عن السيدة عائشة أم  
المؤمنين، بينما ترك الأخذ بسبب نزول آيات المدثر عن الذي خلقه الله  
وحيدا الذي عبس وبسر ولذي تم تأكيد أنّها في الوليد بن المغيرة.

ونحن نريد أن نسير في الاتجاهين لنصل إلى هدف واحد.

والسؤال ماذا عن آيات (ذري ومن خلقت وحيدا) وأسباب نزولها؟

نترك الجواب لمصدر من مصادر لا يجب الإغفال عنه وهو الرواية  
المعتمدة في سبب النزول لهذه الآيات.

وعن أي سبب نزلت؟

ومن الشخص الذي نزلت فيه؟

"سورة المدثر قوله تعالى: (ذَرِينِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا). أخبرنا أبو  
القاسم الجذامي، أخبرنا محمد بن عبد الله بن نعيم، أخبرنا محمد بن علي  
الصغاني، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم اللزيري، أخبرنا عبد الرزاق، عن معمر،

عن أيوب السخيتاني، عن عكرمة، عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي عليه الصلّاة والسّلام فقرأ عليه القرآن وكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فقال له: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه، فإنك أتيت محمّدا تتعرض لما قبله، فقال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له وكاره، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزها وبقصيدها مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلَى، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، فقال: هذا سحر يؤثر يأتريه عن غيره، فنزلت (فَدَرِنِي وَمَنْ حَلَقْتُ وَحِيدًا) الآيات كلها"1189.

والملاحظ في سبب نزول آيات المدثر في الوليد بن المغيرة لا خلاف عليه في كتب التفاسير واللغة والسيرة والحديث فكلها تجمع على انه الوليد بن المغيرة بهذا الوصف ولهذا السبب دونما غلط في اسمه.

بينما الأعمى المذكور في سورة عبس فهناك خلاف على:

سبب مجيئه للنبي صلّى الله عليه وسلّم.

اسمه ونسبه.

اسم أبيه واسم أمه.

ودليل ذلك من الآتي:

1- "سورة عبس قوله تعالى (عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى) وهو ابن

أم مكتوم، وذلك أنه أتى النبي عليه الصلّاة والسّلام وهو يناجي عتبة بن

---

1189 - أسباب نزول القرآن للواحدي، ج 1، ص 156.

ربّعة وأبا جهل بن هشام وعباس بن عبد المطلب وأبيا وأمّية ابني خلف ويدعوهم إلى الله تعالى ويرجو إسلامهم، فقام ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله، علمني ممّا علمك الله، وجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدري أنه مشتغل مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله عليه الصلّاة والسّلام لقطعه كلامه، قال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد إنّما أتباعه العميان والسفلة والعييد، فعبس رسول الله عليه الصلّاة والسّلام وأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، فكان رسول الله عليه الصلّاة والسّلام بعد ذلك يكرمه وإذا رآه يقول: مرحبا بمن عاتبني فيه ربّي "1190.

ونقول:

إنّ هذه الرواية يمكن نقضها من حيث:

. أين سلسلة الرواية.

. أين الوليد بن المغيرة المذكور في روايات أخرى غير هذه الرواية مجهولة

النسب.

. من الذي حضر هذا المجلس من المؤمنين ورأى ذلك ونقل عنه.

. ثم جملة "حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله عليه الصلّاة

والسّلام لقطعه كلامه، قال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد إنّما أتباعه

العميان والسفلة والعييد، فعبس رسول الله عليه الصلّاة والسّلام وأعرض عنه

وأقبل على القوم الذين يكلمه"

وأتساءل:



من الذي رأى هذه الكراهية في وجه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

ومن الذي علم ما دار في قلب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

ومن الذي علم ما قاله النبي عليه الصَّلَاة والسَّلَام في نفسه؟

بالتأكيد لا أحد من خلق الله

الذي علم هذا إن حصل أصلا هو الله

الله لم يخبرنا بهذه التفاصيل في القرآن

النبي لم يحدث بها لأحد

لذا فهي لم تحدث أصلا

وعليه فالعابس المتولي ليس رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم إننا نرى تناقضا بين سبب النزول وبين ما ورد في كتب الحديث:

من حيث الألفاظ التي تنقض النص كلية من مثل الآتي:

وفي أسباب النزول:

"أخبرنا محمد بن عبد الرحمن المصاحفي، أخبرنا أبو نجم ومحمد بن

أحمد بن حمدان أخبرنا أبو يعلى، حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد، حدثنا أبي

قال: هذا ما قرأنا على هشام بن عروة، عن عائشة قالت: أنزلت عبس

وتولى في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى النبي عليه الصَّلَاة والسَّلَام فجعل

يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله رجال من عظماء المشركين،

فجعل النبي عليه الصَّلَاة والسَّلَام يعرض عنه ويقبل على الآخرين، ففي هذا

نزلت عبس وتولى" 1191

. لما نظرنا في كتب الصحيح وجدنا ما ينقض ذلك السبب:

ففي أسباب النزول هذه العبارات:

(وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام وعباس بن عبد  
المطلب وأبيا وأميا ابني خلف ويدعوهم إلى الله تعالى ويرجو إسلامهم)

(وعند رسول الله رجال من عظماء المشركين)

بينما في الموطأ:

عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: "أُنزِلَتْ عَبَسَ وَتَوَلَّى فِي عَبْدِ اللَّهِ  
بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَجَعَلَ يَقُولُ يَا مُحَمَّدُ  
اسْتَدْنِي وَعِنْدَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ فَجَعَلَ  
النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُعْرِضُ عَنْهُ وَيُقْبِلُ عَلَى الْآخَرِ وَيَقُولُ يَا أَبَا فُلَانٍ  
هَلْ تَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا فَيَقُولُ لَا وَالِدِمَاءِ مَا أَرَى بِمَا تَقُولُ بَأْسًا فَأُنزِلَتْ  
عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى" 1192.

عن مسلم بن صبيح، قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها  
وعندها رجل مكفوف، وهي تقطع له الأترج وتطعمه إياه بالعسل فقلت:  
من هذا يا أم المؤمنين؟ فقالت: "هذا ابن أم مكتوم الذي عاتب الله تبارك  
وتعالى فيه نبيه صلى الله عليه وسلم، قالت: أتى النبي عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ  
ابن أم مكتوم وعنده عتبة وشيبة فأقبل رسول الله عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ  
عليهما، فنزلت عبس وتولى أن جاءه الأعمى ابن أم مكتوم" 1193.

---

1192 - موطأ مالك، ج 2، ص 122.

1193 - المستدرک علی الصحیحین للحاکم، ج 15، ص 382.

"عن أنس، رضي الله عنه، في قوله (عبس وتولى) جاء ابن أم مكتوم إلى النبي عليه الصلّاة والسّلام وهو يكلم أبي بن خلف فأعرض عنه، فأنزل الله (عبس وتولى)"1194.

فيكفي لنقض المتن الآتي:

. اختلاف الروايات على من كان عند رسول الله عليه الصلّاة والسّلام

1. "عتبة بن ربّعة وأبا جهل بن هشام وعباس بن عبد المطلب وأبيا وأمّية ابني خلف"

2. "وعند رسول الله رجال من عظماء المشركين"

3. "أتى النبي عليه الصلّاة والسّلام ابن أم مكتوم وعنده عتبة وشيبة فأقبل رسول الله عليه الصلّاة والسّلام عليهما"

4. "جاء ابن أم مكتوم إلى النبي عليه الصلّاة والسّلام وهو يكلم أبي بن خلف"

فهذه التناقضات الأربع في جزء من المتن حول من كان في مجلس رسول الله عليه الصلّاة والسّلام ألا يدعو لتساؤل:

إن كان الخلاف حول من كان يكلمه الرّسول صلّى الله عليه وأعرض بسببه عن ابن أم مكتوم ألا يعني هذا أن النص كله ليس بصحيح.

ثم أين الوليد بن المغيرة الذي ذكرته كتب المفسرين إنه كان في هذا المجلس.

وإن لم يكن الوليد في هذا المجلس ألا يكون احتمالاً أن العابس المتولي هو أحد هؤلاء الصناديد.

---

1194 - مسند أبي يعلى الموصلي، ج 7، ص 155.

ثم إن النبي عليه الصلّاة والسّلام يعلم أن نداء أو صف ذي عاهة بعاهته يؤذيه فقد ورد إنه كان يسمي الأعمى بصيرا لرفع الأذى النفسي عنه "عن جابر قال قال رسول الله عليه الصلّاة والسّلام انطلقوا بنا إلى البصير الذي في بني واقف نعوذه وكان رجلا أعمى" 1195

وهذا الضير هو "عمير القارئ وهو عمير بن عدي بن خرشة بن أمية بن عامر بن خطمة، أمه أمانة بنت الواهب بن عبد الله من بني حوارة، وكان عمير ضريرا، وهو الذي سماه رسول الله عليه الصلّاة والسّلام البصير، وكان يزوره في بني واقف" 1196

فما المعنى الذي من أجله ذكر رسول الله عليه الصلّاة والسّلام عميرا (البصير) وهو أعمى؟

ولم يعبس في وجهه وكان يذهب لزيارته؟

فلو كان عليه الصلّاة والسّلام عابسا للعمي ما ذهب ليعوده؟

ونقول:

إن الله لما ذكر العمي في القرآن ذكرهم دونما إساءة لهم بل ذكرهم بالحقيقة تشريعا والمجاز تأنيبا.

1- تشريعا في مثل قوله تعالى: {ليس على الأعمى حرج} 1197

وهذا في الجهاد، وفي الدخول على النساء، {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا

---

1195 - السنن الكبرى للبيهقي، ج 10، ص 200.

1196 - معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني، ج 15، ص 70.

1197 - النور 61.

عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ  
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا {1198

وهذه الأوصاف على الحقيقة ليست للنقص من أصحابها بل لمعرفة  
ما لهم وما عليهم في الدين فهي للتعريف.

فلا حرج عليهم في التخلف عن الغزو لكون كل واحد من هؤلاء لا  
يقدر على الجهاد لأن الجهاد مشروط بالاستطاعة ونفي الحرج، وهؤلاء  
أعداؤهم مقبولة صحيحة فلا حرج عليهم في التخلف.

2- تأنيبا في قوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنَّ  
تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ} {1199

وقوله تعالى: {أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمِّيَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ} {1200

وذلك لأن العمى الحقيقي هو عمى القلب عن طريق الإيمان ورؤية  
الحق فقد قال الله تعالى: {فَأَيُّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي  
فِي الصُّدُورِ} {1201

- ثم إن هذا الخبر لم يرد بلفظ النبي صلى الله عليه وسلم، فهم من  
أقوال السيدة عائشة أم المؤمنين.

. لم يرد لنا حديث بلفظ النبي عليه الصلاة والسلام إنه جاءه ابن أم  
مكتوم وفعل معه هذا الفعل.

. السيدة عائشة لم تكن قد ولدت في ذلك الوقت.

---

1198 - الفتح 17.

1199 - النمل 81.

1200 - يونس آية 43.

1201 - الحج 46.

. لم يأت في قول السيدة عائشة أن النبي عليه الصلّاة والسّلام قال لها ذلك ولا أبأها أخبرها بذلك.

. لم يرو هذا الكلام عن ابن أم مكتوم نفسه.

- ثم أن هناك أخبارا متضارّة أخرى حول سبب ذهاب ابن أم مكتوم إلى النبي تفيد أنه لم يكن مؤمنا، وأنه ذهب إليه وهو مؤمنا، وأنه سمع ملكين يتحاوران بشأنه وبشأن أبي طالب.

. نقول إن هذا الخبر مضطربّ ولا يصح أن نصدر به حكما على صفة للنبي صلّى الله عليه وسلّم، ولا سيما أن القرآن ينقض ذلك وينفيه.

#### 5. السيرة النبوية:

نكتفي بموقف منها ينفي إصاق صفة العابس على النبي عليه الصلّاة والسّلام وهو قول أم معبد التي مر بها النبي عليه الصلّاة والسّلام في هجرته إلى المدينة قولها في وصفه اخترنا منه:

"له رفقاء يحفون به، إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفند. فقال - يعني بعلها - : هذا والله صاحب قريش الذي تطلب، ولو صادفته لالتمست أن أصحبه، ولأجهدن إن وجدت إلى ذلك سبيلا"1202.

#### المجادلة:

إنّ من صفات النبي عليه الصلّاة والسّلام أنّه مجادل بالتي هي أحسن:

---

1202 - السيرة النبوية لابن كثير، ج 2، ص 261.

الجدل إصرار في الحوار يؤدي إلى اقتناع عن إرادة، ويستند الجدل على فوة الحجّة وإيمان المحاجج وفوة رسالته التي بها يحاجج، وإن خرج الجدل عن التي هي أحسن قد تكون النتيجة ما لا يحمد عقباه وهو الصدام والنزاع، قال تعالى: {وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} 1203، قال تعالى (جادلهم) ولم يقل (حاورهم)، فالمجادلة فيها مكابدة ودرجة عالية من التحمل، وعدم الإسراع في الخروج من الموضوع، إلى أن تتحقق القناعات بعد مكاشفات، وحجج دامغة، ليس فيها تزييفاً أو تهرباً من إحقاق الحق، وعلى المحاور ألا يُستفز من قبل المحاور الآخر، فالاستفزاز قد يُنهي زمن المجادلة التي لا ينبغي أن تُهزم بالاستفزات غير المسؤولة من قبل الآخر. أما (حاورهم) ففيها شيء من التخفيف إذا ما قورنت بالمجادلة، ففي المجادلة إصرار، وعدم إعطاء الفرصة لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلى نتائج مقنعة، وفيها التحذير والإنذار، وفيها التواعد إذا لم يتم الاتفاق، وفيها معرفة العواقب.

أمّا الحوار فقد لا تكون فيه مكابدة، يعتمد على فوة الحجّة، التي لا تستوجب الوعيد والتهديد، وفي الحوار شفافية ومنطق اعتبار الأنا والآخر.

في حالة التعنت وفشل المجادلة، يتم تسخير الإمكانيات لكف من يمتلك الفوة المهددة للحقّ عما يهدف إليه من مشاكل أو مآسي، ولذا يعتبر المال والنفس العنصران التاليان في الاستخدام بعد عدم التفهم لما دار من حوار بين المتجادلين بالحجّة، والمتجادلون عندما يفقدون قواعد الركون إلى المحاجة المنطقية، قد يضطروا إلى الخصام الذي لا طائل من ورائه إلا الاختلاف والافتتال.

إذا الأساس أن يتم التجادل والحوار بالتي هي أحسن، وعندما يصل الحوار والمجادلة إلى طريق مسدود فلا بدّاً من المواجهة العلنية بما هو أسوأ

حيث ينقسم النَّاس إلى فئتين، فئة مع الحقّ، وفئة مع الباطل. وعندما يحدث الصراع قد يمتد من أصحاب الحقّ إلى المناصرين لهم من جهة، وبين أصحاب الباطل والمناصرين لهم من جهة أخرى. ولهذا فحدود الحرب عندما تبدأ قد تكون معروفة ولكن عندما تستمر قد لا تُعرف حدودها، ولذا فعلى المتحاورين أن يضعوا في اعتباراتهم في الحوار المنطقي حدوث المتوقّع وغير المتوقّع حتى لا يتم الاستغراب بعدما تحدث المفاجأة.

وعليه فالقبول بالمحاجة هو قبول بالسلام، والخروج عنها خروج عن السلام، وعندما يخرج أطراف الحوار عن حدود المجادلة دون تفهّم لبعضهم البعض، أو دون تفهّم لقضاياهم ولما يجب وما لا يجب تجاهها، فقد يحدث بينهم الصدام الذي تُسخر له كل الإمكانيات والقوّة اللازمة للمواجهة أو للتصدي، وبطبيعة الحال المواجهة لن تكون إلا بالأنفس المؤيدة والمعارضة للفكرة (موضوع الاختلاف).

إذا عندما تغيب الحجّة بين المتجادلين بالتي هي أحسن يُفسح المجال للخصام والصدام، الذي يتطلب حشد الإمكانيات المادية من مال وعتاد، ثم بعد ذلك تحشد الأنفس القادرة على خوض الحرب، وعندما تشتعل نار الحرب، تقدم الأنفس فداء للدين أو الفكرة التي تم الاعتراض عليها، أو فداء ضد الدين أو الفكرة التي لا يود لها أن تنتشر وتسود بين النَّاس. وبرغم ذلك لا بدّ للحرب أن تتوقف بالمغالبة أو بالتحاور لوقف سفك الدماء، ولأجل ذلك ينبغي أن يعود أطراف الحوار إلى طاولة التفاوض والمجادلة بالتي هي أحسن.

ومن متطلبات المجادلة أن تكون على الحقّ بالحقّ، ولا تكون عن الذين يختانون أنفسهم وهم ليسوا بصادقين فيما يقولون، ولهذا نهي الله



رسوله الكريم أن يجادل عنهم، قال تعالى: {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ  
أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا} 1204.

قال تعالى: {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجُحَادِلٍ عَنِ نَفْسِهَا} 1205. قوله:  
(بُجَادِلُ عَنِ نَفْسِهَا) أي تُدافع وترافع بما لديها من حُجج عندما يُنسب أو  
يوجّه إليها ما ارتكبت من أفعال وعملت من أعمال، ويومها لن يكون بين  
أيدها إلا الحقّ من الحقّ فيومها لن تكون قادرة إلا على قول الحقّ، ممّا يجعل  
الجدل في ذلك اليوم جدل حقّ.

ولذا في ذلك اليوم ستُوفى كُلُّ نَفْسٍ بما عمَلت في الدنيا بالثواب  
الأوفى إن كانت نفس صالحة مصلحة في الدنيا، وبالعقاب الحقّ إن كانت  
قد أفسدت أو سفكت دما في الأرض بغير حقّ.

وعليه في الحياة الدنيا قد كان الإنسان أكثر شيء جدلا، قال الله  
تعالى: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} 1206 والجدل لا يتم ببسر، بل  
يتم بنقاش يؤدّي إلى البينة التي بها الإنسان يدرك مميزا بين ما يجب ويقدم  
عليه وبين ما لا يجب ويتعد عنه، ولذلك فالجدل يؤدّي إلى اليقين إذا  
سادت الروح الحسنى بين الناس المتجادلين حيث لا غالب ولا مغلوب إلا  
سيادة الحقّ وإحقاقه.

ولذا لا بدّ أن يكون للجدل عناصر وهي طرفان أو أكثر وموضوع  
للجدل وقبول بذلك الجدل، ومع ذلك فقد يكون أحد الأطراف مجادلا  
فيما ليس فيه جدل، وهو الحقّ المطلق، الذي إن أراد المتجادلون نتيجة  
موضوعية لا بدّ وان يحتكموا بقوله على أي قولٍ يقال منهم، قال تعالى: {أَلَمْ

---

1204 - النساء 107.

1205 - النحل، 111.

1206 - الكهف 54.

تَرِ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا  
 أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ {1207، ولذلك لم يستغرب رسول الله  
 جدال الذين كفروا وأشركوا وكذبوا وناقضوا في زمانه ومن قبله مع الرسل الذين  
 سبقوه، أولئك الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، مصداقا لقوله  
 تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ  
 كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ  
 كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ {1208.

وهناك من يأتي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام مجادلا في الحق ولا  
 يجادل به، وهناك من يأتي إليه ليستمع وهو جاعل على قلبه أكنة فلا يؤمن  
 بقرارٍ منه مسبقا ولذا هناك من يأتي إلى الرسول مجادلا في الحق بغير حق،  
 قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ  
 وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ  
 يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ {1209، وعليه أي جدل  
 بدون حق لا يخلص إلى نتيجة مرضية لمن لم يريد الحق أن يُحقَّق، وهؤلاء هم  
 الذين يجادلون في الحق بعد ما تبين لهم، قال تعالى: {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ  
 بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ {1210، إنه من  
 المستغرب أن يناقش ذي العقل في شيء ظاهرٍ بين بين يديه وأمام بصره  
 وبصيرته، ولكن لا استغراب في شيء من كافرٍ أو مشركٍ أو منافقٍ أو ضال.

1207 - غافر 69، 70.

1208 - التوبة 32، 33.

1209 - الأنعام 25.

1210 - الأنفال 6.

## المرأة لمجادلة:

قال الله تعالى: { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } 1211

. تجادلِك (مجادلة من المرأة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

. تشتكِي إلى الله

. تحاوركما

فما الجدال وما تعريفه؟

وما طبيعة الجدال الذي دار بين خولة وبين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

وما موضوع المجادلة؟

وهل من الدين مجادلة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قبل البدء في استبيان الحقيقة نقف على جذر الكلمة اللغوي فهي تعود لأصل ثلاثي يتكون من (ج د ل)

ومن هذا الأصل يكون:

جدلٌ مصدر الثلاثي جدل (جدلٍ جدلا)

والثلاثي المزيد بحرف (جادل) على وزن فاعل ويأتي منه المصدر على

صيغتين:

فعال (جدال)

مفاعلة (مجادلة)

كما في نازل نزال ومنازلة

وقاتل قتال ومقاتلة

وقد خلطت كتب التعريفات بين الجدل، والجدال، والمرء وأداروها في معنى واحد أو معنيين قريبين.

"-جدل "الجدل شِدَّةُ القَتْلِ وَجَدَلْتُ الحَبْلَ أَجْدِلُهُ جَدَلًا إِذَا شَدَدْتُ قَتْلَهُ وَفَتَلْتَهُ فَتَلًا مُحْكَمًا"1212

الجدل

. "هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان، دفع المرء خصمه عن إفساد قوله: بحجة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة"1213.

الجدال:

"عبارة عن مرء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها"1214.

. المجادلة: بضم الميم وفتح الدال مصدر جادل، "المناظرة لإفحام الخصم وإسكاته"1215

"المرءُ الجدال والتَّماري والممَّارةُ المجادلة على مذهب الشك"1216

---

1212 - لسان العرب، ج 11، ص 103.

1213 - التعريفات، ج 1، ص 24.

1214 - التعريفات، ج 1، ص 24.

1215 - معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 405.

ونقول:

كل التعريفات السابقة لا ترتقي لتعريف المجادلة بين المرأة المجادلة للنبي  
صلّى الله عليه وسلّم.

لماذا؟

. لأنها لا تمّاري على مذهب الشك فهي مؤمنة بالله ورسوله ولا تشك  
في حكم النبي صلّى الله عليه وسلّم.

. لا لأنه خصم.

. لأنها لا تقوم بمناظرة لإفحام الخصم وإسكاته تقصد منها (إفحام  
الخصم وإسكاته)

فالنبي عليه الصلّاة والسّلام مؤيد بالحجّة العقلية والقرآن الكريم  
والوحي في روعه عند الحاجة إلى ذلك.

. لأنها لم ترم إلى (القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض  
منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان)

فلا المرأة عندها الحجّة التي تلزم النبي عليه الصلّاة والسّلام وتفحمه  
حاشاه عن ذلك، لأنّه ليست هناك خصومة بينها وبين النبي صلّى الله عليه  
وسلّم.

وكذلك تخرج المجادلة بين خولة وبين النبي عليه الصلّاة والسّلام عن

(دفع المرء خصمه عن إفساد قوله: بحجة، أو شبهة، أو يقصد به  
تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة)

فما طبيعة الجدل بين خولة وبين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟  
كان الجدل ليس بين المرأة والنبي في أمر تختلف عليه والنبي، ولكن  
الجدال كان في فعل قام به (زوجها).

وكيف يكون الحل الشرعي فيه بوصف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ أَذْنُ الْخَيْرِ  
التي تتلقى أمر السماء لخلق الأرض.

فكان الجدل في (زوجها)

وليس في أمر يخص النبي عليه الصلوة والسلام يحتاج حجة أو برهان  
وإفحام.

فالمجادلة هنا:

. شكوى من المرأة للنبي ومشاورة للخروج من الكلمة الجاهلية التي  
قالها أوس وهو مسلم.

. فلا يحل له وهو مسلم أن يفعل فعلا من أفعال الجاهلية.

ويبدو انه ليس الوحيد الذي كان يفعل هذا مع زوجته.

. فكانت تلك الشكاية من المرأة لوضع حدٍّ يمنع الرجال من التلاعب  
بألفاظ تفكك عرى الأسرة.

. حتى لا تكون المرأة دمية يلهو بها الرجال كيف شاءوا.

. ويبدو أن النساء كن مغلوبات على أمرهن حتى فعلت المرأة ما فعلته  
فرفعت الشكوى إلى الرسول وإلى الله.

. وإلى الله شكوى لكل النساء

. إلى الرسول مجادلة في زوجها

. لأنها لا يمكن أن تكون في مجادلة مع الله في زوجها

ولكون النبي عليه الصلّاة والسّلام أمر بان يجادل بالتي أحسن السمع  
للمرأة وخفض جناحه لها مصداقا لقوله تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ  
لِلْمُؤْمِنِينَ} 1217

فكان الجدال في الزوج لا في أمر قضاه النبي صلّى الله عليه وسلّم

أيحقّ للزوج أن يفعل ذلك؟

فما جزاؤه؟

ما حكم قوله؟

ولم يكن عند النبي عليه الصلّاة والسّلام حكم شرعي قد نزل من  
السّماء في هذه المسألة.

الله يسمع هذه المجادلة والشكوى إليه فانزل السورة وبين حكم  
الظهار.

ثم عن سياق الرواية التي جاءت في المصادر حول الدافع الذي دفع  
أوس للظهار ما يعطي المرأة حقّوقا أخرى منها:  
. حقّ العبادة دون أن يشوش عليها الزوج.

كما أن من سعة صدر النبي عليه الصلّاة والسّلام ما يؤكد عدم  
عبسه في وجوه النّاس - المؤمن منهم أو غير المؤمن- ما حدث مع المرأة  
المجادلة.

## المجادلة في الظهار:

قال الله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَمْ ثَوْعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} 1218

إن سورة المجادلة سورة أحكام قد نزلت في العهد المدني الذي يوضح أحكام المجتمع والأسرة وحياة الفرد مع نفسه وغيره أيا كان هذا الغير. لذا سنقرأ هذه الآيات قراءة جديدة، لا من حيث أحكام القراءة ولكن من حيث القضايا.

فالقضايا الأبرز في الآيات:

1- الظهار

2- مناقشة المرأة لهذه القضية

2- حكمه

3- سبب تشريعه

4- دور المرأة في الحياة التشريعية

5- موقف الإسلام من المرأة



لا نستطيع أن نناقش هذه القضايا دوغما أن نبرز

ما الظهار؟

ومن الذي يقوم به؟

وعلى من يقع ضرره؟

كيفية مواجهة الظاهرة اجتماعيا؟

الظهار:

"الظَّهَارُ مِنَ النِّسَاءِ هُوَ قَوْلُهُ أَيُّ الرَّجُلِ لَامْرَأَتِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي  
أَوْ كَظْهَرِ ذَاتِ رَحِمٍ وَكَانَتِ الْعَرَبُ تُطَلِّقُ نِسَاءَهَا بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ وَكَانَ فِي  
الْجَاهِلِيَّةِ طَلَاقًا فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ نُهُوا عَنْهَا وَأَوْجِبَ الْكَفَّارَةُ عَلَى مَنْ ظَاهَرَ  
مِنْ امْرَأَتِهِ وَهَذَا هُوَ الظَّهَارُ.

وَأَصْلُهُ مَا حُوذُ مِنْ الظَّهْرِ وَإِنَّمَا حَصُّوا الظَّهَرَ دُونَ الْبَطْنِ وَالْفَخْذِ  
وَالْفَرْجِ وَهَذِهِ أَوْلَى بِالتَّحْرِيمِ لِأَنَّ الظَّهَرَ مَوْضِعُ الرُّكُوبِ وَالْمَرْأَةُ مَرْكُوبَةٌ إِذَا  
عُشِيَتْ فَكَأَنَّهُ إِذَا قَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي أَرَادَ: رُكُوبُكَ لِلنِّكَاحِ عَلَيَّ  
حَرَامٌ كَرُكُوبِ أُمِّي لِلنِّكَاحِ فَأَقَامَ الظَّهَرَ مَقَامَ الرُّكُوبِ لِأَنَّهُ مَرْكُوبٌ وَأَقَامَ  
الرُّكُوبَ مَقَامَ النِّكَاحِ لِأَنَّ النَّكَاحَ رَاكِبٌ وَهَذَا مِنْ لَطِيفِ الاستِعَارَاتِ  
لِلْكِتَابَةِ.

قال ابن الأثير: قيل: أرادوا أنت علي كبطن أمي أي كجماعها فكأنوا

بالظهار عن البطن للمجاورة "1219

"هو تشبيه زوجته، أو ما عبر به عنها، أو جزء شائع منها، بعضو  
يحرم نظره إليه من أعضاء محارمه، نسبا أو رضاعا، كأمه وابنته  
وأخته"1220

والذي يقع منه الظهار هو الرجل بوصفه يملك العقد والحل في الزواج  
دون المرأة باتفاق بينهما أو بين الرجل والولي الذي يلي أمر المرأة.

-ويقع ضرره على الرجل وليس على المرأة وحدها لأنه يهدد الأسرة  
بالتفكك.

-يظهر غلظة بعض الرجال

- يهين المرأة

يجعل المرأة في مكانة أقل من الرجل (من وجهة نظر المظاهر)

- يجعل الأولاد عرضة للضياع.

أما عن كيفية مواجهة المشكلة فهذا تحملت ثقله المرأة المجادلة المحاورة.

وهي على الأرجح خولة بنت مالك بن ثعلبة وقيل: اسمها خويلة  
قالت: ظاهر مني زوجي أوس بن الصامت.

وقد ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت.

فلما ظاهرها ذهبت إلى رسول الله عليه الصلّاة والسّلام وقالت:

"فجئت رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- أشكو إليه، وذكرت  
أمورا، وقلت: قدمت معه صحبتي، ونثرت له كنانتي.

---

1220 - التعريفات، ج 1، ص 46.

ولي منه صببية إن ضمهم إليه ضاعوا، وإن ضمتمهم إلي جاعوا.  
أشكو إلى الله عجري وبجري، ورسول الله عليه الصلاة والسلام يجادلني  
فيه، يقول: اتق الله، فإنه ابن عمك.

فما برحت حتى نزل القرآن: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها)  
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يعتق رقبة.

قلت: لا يجد.

قال: فيصوم شهرين متتابعين.

قلت: يا رسول الله، شيخ كبير ما به صيام.

قال: فليطعم ستين مسكينا.

قلت: ما عنده شيء يتصدق به.

قال: فأتى بعرق من تمر.

قلت: يا رسول الله، وأنا أعينه بعرق آخر.

قال: قد أحسنت، اذهبي فأطعمي عنه ستين مسكينا، وارجعي إلى

ابن عمك. 1221

لذا نقول:

إن المرأة المجادلة في الظهار والتي نزل فيها القرآن هي خولة بنت ثعلبة  
زوج أوس بن الصامت كانت قضيتها أعم من مشكلتها الخاصة فقد عاجلت  
قضية كلية تشملها وتمل كل النساء بعد ذلك، فهي إن كانت امرأة واحدة  
فهي تمثل جميع من يتعرضن لهذا القول (الظهار).

---

1221 - جواهر العقود، ج 2، ص 134.

ولما قضى رسول الله عليه الصلاة والسلام بهذا الحكم الشرعي:

الكفارة ب:

الصوم

الإطعام

التيسير في الخروج من هذا الذنب

نتساءل:

هل الظهار حرام أم حلال؟

الظهار محرم مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْتَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ} 1222

هذا القول حرام لأنه:

الزوجة غير الأم

لأنه لو طلقها لأمكن أن تتزوج بأخيه.

والأم لا يمكن أن تتزوج بأخي الزوج مهما حدث لأنه ابنها وهذا محرم

تحريم تأييد.

يمكن أن يراجعها ويطأها.

وهذا لا يمكن أن يحدث مع الأم لاستحالة أن تكون زوجة في شريعة

الإسلام.

وعليه:

فإن الزوجة لا تكون محرمة كالأم تأييدا.

وهذا القول (الظهار بألفاظه) حرام لأنه أيضا:

منكرا من القول

وزورا

والزور حرام بنص القرآن والحديث الصحيح:

قال الله تعالى: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ

الزُّورِ} 1223

وقوله صلى الله عليه وسلم: "عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ "أَلَا أُنبئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ ثَلَاثًا قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِمًا فَقَالَ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ قَالَ فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ

سَكَتَ" 1224

وعليه:

بما أن قول الزور من أكبر الكبائر

فالظهار من المرأة حرام

والسؤال:

من يقع الظهار ويصح؟

---

1223 - الحج 30.

1224 - صحيح البخاري، ج 9، ص 136.

يقع من الزوج

. لا من أحد بالوكالة عنه لقول الله تعالى: (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ

نِسَائِهِمْ)

. فمن نسائهم تعني من نسائهم الذين لهم الولاية عليهم والقوامة

بالزواج والوطء.

. لا من أحد ينوب مكانهم.

. ويصح الظهار من كل زوج يصح طلاقه.

مسلمًا

حرا

أو عبدا

أو كافرا (لأنه معمول به قبل الإسلام)

أمّا الآن فنظن إنه يصح من المسلم الحر لأن:

العبودية قد أبطلت

وإن كان في بعض الأماكن عبيد وتلفظ بكلمات الظهار صح ووقع

منه على زوجته.

والكافر لا علاقة له الآن بأحكام الإسلام.

لأنه يوجد خلاف الآن بين الكافر وبين كافر الجاهلية، فكافر

الجاهلية يعيش وفق مجموعة من القوانين الأعراف الاجتماعية تختلف ولا

شك عم يعيشه الهندوسي أو البوذي، أو اللادينيين

وكذلك يقع الظهار من السكران قياسا على حكم الطلاق كما بينا  
قبل ذلك في كتاب منهاج السلوك.

ولفظ الظهار:

. أنت عليّ أو مني، أو معي، أو عندي، أو لي، كظهر أمي، وكذلك  
أنت كظهر أمي عليّ

ولما جعل الله حكم الظهار التكفير يحرم الوطاء قبل ذلك.

فالأمر كان جدال اتباع في زوجها

لا جدال خصومة

لا مرء بشك

حوار بيقين يبين ضعف المرأة، وصدق الرسول، ورحمة الله وسمعه  
وبصره

ردع رجال استهانوا بالمرأة

إحقاق حقّ للمرأة في العبادة

في الحياة بكرامة

في محاورة أولي الأمر.

التحاور:

لما بحثنا في (والله يسمع تحاوركما)

وجدنا أن الناس قد أخذوها على المحاورة والمحاورة لا شك غير

التحاور:

أما المحاورة فهي:

"المجاورة ومراجعة النطق والكلام في المخاطبة وقد حاوره وتجاوزوا:  
تراجعوا الكلام بينهم" 1225

- فهذا التعريف للمحاورة يفضي إلى حقيقة ما دار بين التي تجادل  
في زوجها وتشتكي إلى الله.

. فقد كانت محاورة للنبي عليه الصلاة والسلام ومراجعته لكلام زوجها  
مع النبي وما حدث منه معها.

ونقول:

. إن المرأة كانت تنقل الحوار الذي دار بينها وبين زوجها.

. ولما رد عليها النبي عليه الصلاة والسلام صار ما بينهما تحاور.

. والفرق بين الحوار والتحاور:

الحوار يدور حول موضوع غير متفق عليه بين أطرافه

. التحاور يدور حول موضوع قد سبق ينقل طرف ما دار فيه للطرف

الآخر ثم ما يكون بينهما حوله تحاور.

وهذا ما حدث بين المرأة المجادلة المتحاوره وبين النبي صلى الله عليه

وسلم.

**الابتهاال:**

المعنى اللغوي:



المباهلة

"من البهل "والبهل اللعن

وبهله الله بَهْلًا لَعْنَهُ

وعليه بَهْلَةُ الله

وَهْلَتُهُ أَي لَعْنَتُهُ

وباَهَلَ القومُ بعضُهُم بعضًا وتَبَاهَلُوا وابتَهَلُوا تَلَاعَنُوا

والمباهلة المِلاعنة يقال باهلت فلانا أي لاعنته

ومعنى المباهلة أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا لَعْنَةُ الله

على الظالم منا

وَابْتَهَلَ فِي الدِّعَاءِ إِذَا اجْتَهَدَ وَمُبْتَهَلًا أَي مُجْتَهِدًا فِي الدِّعَاءِ

وَالِابْتِهَالُ التَّضَرُّعُ وَالِابْتِهَالُ الاجْتِهَادُ فِي الدِّعَاءِ وَإِخْلَاصُهُ لِلَّهِ عَزَّ

وَجَلَّ وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ (ثُمَّ نَبْتَهَلُ فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) أَي يُخْلِصُنَّ

وَيَجْتَهِدُ كُلُّ مَنْ فِي الدِّعَاءِ وَاللَّعْنُ عَلَى الْكَاذِبِ مَنْ.

وَالِابْتِهَالُ أَنْ تَمُدَّ يَدَيْكَ جَمْعًا وَأَصْلُهُ التَّضَرُّعُ وَالْمُبَالَغَةُ فِي

السؤال "1226

"قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (من ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم

فرفق الله به ومن ولي منهم شيئا فشق عليهم فعليه بهلة الله)، قالوا: يا رسول

الله وما بهلة الله؟، قال: لعنة الله"1227

1226 - لسان العرب، ج 11، ص 71.

1227 - مستخرج أبي عوانة، ج 14، ص 42،

إنّ موضوع الابتهاال من الموضوعات التي ذكرت في القرآن الكريم  
إجمالاً وفي السنة النبوية تفصيلاً، وهذا الموضوع من أقوى دلائل النبوة  
لسيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، وكونه خاتم النبيين.

حيث إن دعائه مستجاب

تعريض نفسه ونسائه وأولاده للموت من دلائل صدقه

رفض المباهلة من جانب النصارى دليل كذبهم

ولتوضيح قضية المباهلة؟

نتساءل:

ما المباهلة؟

ما سببها؟

من الذين باهل عنهم النبي صلّى الله عليه وسلّم؟

من الذين باهلهم النبي صلّى الله عليه وسلّم؟

ما نتائج المباهلة؟

وعليه فالمباهلة الملاعنة

والبهل والبهلة اللعن

والابتهاال الدعاء بتضرع إلى الله

ونقول:

إن المباهلة التي نحن بصددتها ليست ابتهاال الذي هو (التوجه إلى الله  
بالدعاء تضرعاً أن تحل لعنته على الظالم الكاذب).

. فلم يلعن النبي صَلَّى اللهُ ليه وسلّم وفد نجران أو غيرهم.  
. ولكن دعاهم للابتهال إلى الله لتكن لعنته على الكاذب  
. لذا يجب أن تكون القضية بمسمى الابتهال لا المباهلة.  
. ولعن الله فعل يتحقّق.  
. لعن النَّاس دعاء باللعنة.

. والنبي عليه الصّلاة والسّلام حوّل الخلاف مع النصارى الاحتكام إلى  
الله، وتكه ليحكم الله فيه ولم يدع عليهم.

قضية الابتهال:

تدور حول حقيقة عيسى ابن مريم  
صدق النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلّم

من كان مع النبي من المسلمين في الابتهال.

فموضوع الابتهال ذكره الله في سورة آل عمران، وكان يدور حول  
حقيق عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله أهو:

إله

ابن إله

ثالث ثلاثة

وهو بالقطع ليس أحد هؤلاء ولا اثنين منهم ولا جميعهم بل هو عبد  
الله ورسوله.

ومثله عند الله كتل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون.

فإن كان آدم مخلوق بالأمر كن في السماء

فعيسى مخلوق بالأمر كن في الأرض

ومن باب أولى أن يدعوا آدم إله بمنطقهم الفاسد كما توهموا عيسى

إله

فكان خلاف نصارى نجران من أبوه؟

والسؤال:

أبعد مثل آدم يكون جدال؟

فكان التوجه إلى الله بالدعاء ابتهالا هو الحل الناجع لهؤلاء الجاحدين

متحجري العقول

قال الله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} 1228

. فكان مع النبي عليه الصلاة والسلام سيدنا الحسن والحسين وسيدة

نساء العالمين الزهراء وسيدنا علي صلى الله عليهم وسلّم جميعا.

. ولكن المفاجأة أن المباهلة أو الابتغال لم يتما!

لماذا؟

لأنّ وفد النصارى عرفوا إنه إن هم رضوا بأن يبتهل النبي عليه الصلّاة  
والسّلام تضرعا إلى الله لتحل اللعنة على الظالمين، فستكون نهايتهم، فامتنعوا  
ورضوا بشروط النبي صلّى الله عليه وسلّم.

والنتيجة:

صدق النبي صلّى الله عليه وسلّم

كذب الذين يقولون في عيسى ابن مريم غير الحقّ

ونحن نجدد الدعوة لهم ولغيرهم ونقول كما قال النبي صلّى الله عليه  
وسلّم: {تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ  
شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا  
مُسْلِمُونَ} 1229

**أصحاب وليسوا خلفاء:**

لقد استأثر موضوع الخلافة بالنصيب الأكبر إلى يومنا هذا في الخلاف  
بين الفرق الإسلامية، فمنهم من يؤيد ومنهم يرفض ومنهم من يكفر.

والذين أطلق عليهم خلفاء هم من أصحاب النبي عليه الصلّاة  
والسّلام فيجب أن ننظر أولا:

أهم خلفاء أم أصحاب؟

وأي اللقبين أقدم؟

وأي اللقبين أولى؟

وهل الخلافة لا بدّ أن تكون في أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم؟

وماذا لو انقضى جيل الصحابة؟

وهل الخليفة لقب قرآني على من يحكم بعد النبي؟

أم أن اللقب مستحدث؟

وما معنى الصاحب؟

وهل يقتصر المعنى على ما تداولته الثقافة العامة عبر الموروث؟

هل الخليفة لقب تلقب به كل من حكم بعد النبي؟

ومن يخلف النبي؟

أنبي أم صاحب النبي؟

وماذا تعني الصحبة؟

أهي مكانية

أم زمانية

أم ملازمة

أم متابعة

الصاحب لغة:

"صحب فلانا - صحابة، وصحبة: رافقه.

استصحب الشيء: لازمه. الصاحب: الملازم. إنسانا كان، أو

حيوانا، أو مكانا. أو زمانا. ولا فرق بين أن تكون مصاحبتة بالبدن - وهو

الأصل والأكثر - أو بالعناية، والهمة.

الصاحب بالجنب: القريب منك، وصاحبك في السفر.

. الصحابة الزوجة، وفي التنزيل المجيد: {وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبه ولا ولدا} 1230 الصحابة: تأنيث الصحاب. (ج) صواحب"1231.

. فلو كانت الصحبة بدنية لكان الأقرب لذلك الزوجة من أي شخص آخر.

. ولكانت الدابة الملاصقة لصاحبها أكثر الأشياء صحبة.

. ولو كانت بالمقارئة المكانية لكانت أم جميل من الصحبيات، فقد كانت من جيران النبي صلى الله عليه وسلم.

. كما أن من اليهود الذين لم يسلموا من يستحق هذا اللقب لقرهم من سكن النبي في المدينة.

. ولو كانت الصحبة زمنية لكان كل من عاصر النبي عليه الصلاة والسلام زما من الصحابة، وهذا لم يتحقق.

إذن يتبقى رأي يقوله أي إنسان؛ الصحاب من آمن بالنبي عليه الصلاة والسلام ونطق بالشهادتين في زمنه صلى الله عليه وسلم.

ونقول:

هل النطق بالشهادتين في عصر النبي يضيفان لقب صاحب للنبي صلى الله عليه وسلم؟

فقد كان من المنافقين من نطقوا بالشهادتين؟

فهل هؤلاء أصحاب؟

---

1230 - الجن 3.

1231 - القاموس الفقهي، ص 207.

بالقطع لا؟

وهناك من يرى أن الصحبة من المعاشرة كما في اللسان

"وصاحبه عاشره" 1232

ونقول: حتى المعاشرة لا تفي بأن يدخل الإنسان في مصطلح  
الصاحب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكم من عاشر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم  
يكن صاحباً له بالمعنى الديني.

ولكن اللغة لم تنضب بعد ففي معانيها أن الصاحب الذي يحفظ  
صاحبه ويحيره

"وَأَصْحَابَ الرَّجْلِ وَاصْطَحَبَهُ حَفْظَهُ

وفي الحديث: "اللهم اصْحَبْنَا بِصُحْبَةٍ وَاقْلِبْنَا بِذِمَّةٍ" 1233 أيّ  
احفظنا بحفظك في سَفَرْنَا وَأَرْجِعْنَا بِأَمَانَتِكَ وَعَهْدِكَ إِلَى بِلَدِنَا. "1234  
فالصاحب هنا من يحفظ صاحبه.

وهذا المعنى الذي توفر في الصحابة في عدة مواقف في القرآن الكريم  
من مثل قوله تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ  
الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} 1235  
فالمبايعة كانت على الموت بين يدي لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.  
ومن بايع ينطبق عليه لقب الصاحب بمعنى الحافظ الذي يحفظ النبي

---

1232 - لسان العرب، ج 1، ص 519.

1233 - المستدرک علی الصحیحین للحاکم، ج 6، ص 91.

1234 - لسان العرب، ج 1، ص 519.

1235 - الفتح 18.



ولقب المؤمن الذي هو أشمل وأدق من لقب الصاحب الذي لم يأت في القرآن بمعنى مصاحبة النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد يقول قائل: فما قولك في الآية: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } 1236

الذين معه اقرب ما يكون من معنى الصحابي، ولكن الذين معه تتعدد:

الذين معه بالمعاصرة

بالقربة

بالجيرة

بالإيمان والحفظ والاتباع

وهنا فصل الخطاب

(فالصاحب الذي يؤمن بالنبي عليه الصلاة والسلام ورسالته ويحفظ النبي ويحميه ويتبعه وذلك في زمن النبي عليه الصلاة والسلام دون أن يعود إلى الكفر في حياة النبي عليه الصلاة والسلام أو يتردد بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم)

وهذه الصفات لا تجتمع في غير عصر النبي عليه الصّلاة والسّلام  
فيكون من انطبقت عليه هو (المؤمن المسلم الصاحب للدين)

وصحبة النبي الزمنية خاصة بذلك الجيل الذي عاصره وآمن به وناصره  
ولم يكفر في حياة النبي ولم يرتد بعده.

ونذكر هنا بيعة الأنصار للنبي عليه الصّلاة والسّلام ويتجلى فيها معنى  
الحفظ والحماية وقد جاء فيها "قال صلّى الله عليه وسلّم: (أبايعكم على أن  
تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم)1237.

فالصحبة هنا الجيرة بمعنى الجوار والحماية والحفظ مع الإيمان

ومعنى الجيرة والحماية والمنعة نجده في قول الله تعالى: ﴿ولا هم منا  
يُصْحَبُونَ﴾1238 فالأوثان وما اتخذوه آلهة لا تمنع أنفسهم ولا عابديها ولا  
متبعيها الملائكة المكلفين بعدائهم، ويُصْحَبُونَ يجارون فالكفار لا مجير ولا  
مانع لهم، وأنا جازّ لك أي أُجيرك وأمنعك.

والصحبة ههنا بمعنى النصر والمعونة فيقال: صحبك الله ونصرك الله،  
ويقال للمسافر: في صحبة الله وفي حفظ الله فالمعنى ولا هم منا في نصره ولا  
إعانة

ولسائل أن يسأل:

ماذا لو أجاز الكافر المؤمن أيعد صاحبا له على الإيمان؟

هل لو أجاز كافر النبي عليه الصّلاة والسّلام أيعد صحابيا له؟

---

1237 - سبل الهدى والرشاد، ج 3، ص 203.

1238 - الأنبياء 43.

وقد حدث ذلك لما أجاز المطعم بن عدي النبي عليه الصلّاة والسّلام  
عندما رجع النبي من الطائف وقد آذاه أهلها.

أيعد المطعم بن عدي الكافر الذي أجاز النبي عليه الصلّاة والسّلام  
صحابيا؟

وهذا ما تحكيه السيرة: "

ثُمَّ انْتَهَى النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى مَكَّةَ فَأَرْسَلَ رَجُلًا مِنْ حُرَاةِ  
إِلَى مُطْعِمِ بْنِ عَدِيِّ أَدْخَلَ فِي جِوَارِكٍ؟ فَقَالَ نَعَمْ وَدَعَا بَنِيهِ وَقَوْمَهُ فَقَالَ  
الْبِسُوا السَّلَاحَ وَكُونُوا عِنْدَ أَرْكَانِ الْبَيْتِ فَإِنِّي قَدْ أَجْرْتُ مُحَمَّدًا فَدَخَلَ رَسُولُ  
اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَعَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ  
فَقَامَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيِّ عَلَى رَاحِلَتِهِ فَنَادَى: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنِّي قَدْ أَجْرْتُ  
مُحَمَّدًا فَلَا يَهْجُهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ فَانْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى  
الرَّكْنِ فَاسْتَلَمَهُ وَصَلَّى رُكْعَتَيْنِ وَأَنْصَرَفَ إِلَى بَيْتِهِ وَالْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيِّ وَوَلَدُهُ  
مُحْدِقُونَ بِهِ بِالسَّلَاحِ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ "1239.

نقول:

مع أنّ المطعم بن عدي من قريش

وذو قربي من النبي صلى الله عليه وسلم

وأجاز النبي وحمّاه من أذى المشركين

إلا إنه على الرغم من هذا كله فهو ليس صحابي لأنه كافر.

ونتساءل:

ماذا لو كان مؤمنا في الظاهر ويخرج مع النبي ليحارب معه؟

## هذا من المنافقين

والمنافقون متقلبون في إيمانهم وكفرهم ولكن ينتهي الحال بهم إل الكفر الصريح مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا بِتَّبَرِ الْمُنَافِقِينَ بَأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِنْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} 1240

فهؤلاء مبتدأهم الإيمان ومنتهاهم الكفر ووسطهم التقلب بين الحق والباطل وثباتهم على الباطل فصنفهم القرآن (منافقين)

حالمهم التذبذب لا إلى الإيمان ولا إلى الكفر.

فلا يمكن أن يطلق عليهم لقب الصاحب لسبب بسيط وهو (عدم الاطمئنان على الإيمان)

مصداقا لقوله تعالى: {مُذَبَذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ}

أمّا المؤمن فهو مطمئن القلب على الإيمان مصداقا لقوله تعالى: {وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} 1241

والمنافق يشهد لسانه بالإيمان ولا يشهد بقلبه ويتخذ الذين كفروا أصحابا ينصرونه من دون المؤمنين مصداقا لقوله تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ

---

1240 - النساء 137-140.

1241 - النحل 106.

الْمُنَافِقِينَ لَكَادِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا  
يَفْقَهُونَ {1242}

وماذا عن الصحاب، وأصحاب في القرآن الكريم؟

لقد تتبعنا آيات القرآن فلم نجد هذا المعنى الذي نتداوله الآن عن  
صحابه النبي صلى الله عليه وسلم، فوجدنا أن كل مشتقات الكلمة لم ترد  
بمعنى الصحابي وإنما وردت بلفظ المؤمنين.

أما الصحاب والأصحاب فانصرفت لمعان أخرى من مثل: {قَالَ لَهُ  
صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ  
رَجُلًا} {1243}

ثم أصحاب الجنة

أصحاب النار

أصحاب السعير

أصحاب الفيل

ولم يرد لفظ: (أصحابه) ولا (صحابه) ولا (صحابي)

ولم يرد أيضا بلفظ المؤنث دلالة على الصحابيات، وإنما ورد بمعنى

الزوجة: {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا} {1244}

---

1242 - المنافقون 1-3.

1243 - الكهف 37.

1244 - الجن 3.

وقوله تعالى: {يَوْمُ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبِيهِ  
وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ} 1245

وعلى ما تقدّم فلم نجد في القرآن هذا اللفظ بمعناه المتداول إنما  
وجدنا:

- المؤمن الحقّ الملازم لإيمانه المناصر للنبي الحافظ له غير المنافق ولا  
الكافر

- الكافر الذي لم يدخل الإيمان في قلبه

- المنافق المذبذب بين الأمرين

- ثم المعنى الذي يعطي صفة الملكية والمصير، صفة الملكية أصحاب  
الفيل، والمصير أصحاب السعير والنار والجنة

- صاحبة بمعنى الزوجة.

والسؤال من أين جاء هذا اللفظ بهذه الدلالة؟

هذا اللفظ جاء على لسان النبي عليه الصلّاة والسّلام في أحاديث  
كثيرة منها، "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَرَجَ إِلَى الْمَقْبُرَةِ فَقَالَ  
السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ وَدِدْتُ أَنِّي قَدْ  
رَأَيْتُ إِخْوَانَنَا فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَسْنَا بِإِخْوَانِكَ قَالَ بَلَى أَنْتُمْ أَصْحَابِي  
وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْخَوْضِ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ  
كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ يَأْتِي بَعْدَكَ مِنْ أُمَّتِكَ قَالَ أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لِرَجُلٍ حَيْلٌ عُرِّ  
مُحْجَلَةٌ فِي حَيْلٍ دُهُمِ بُهُمْ أَلَا يَعْرِفُ حَيْلَهُ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَإِنَّهُمْ  
يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُرًّا مُحْجَلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْخَوْضِ فَلَا

يُذَادَنَّ رَجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّلَّ أَنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ أَلَا هَلُمَّ أَلَا هَلُمَّ  
هَلُمَّ فَيَقَالُ إِنَّهُمْ قَدْ بَدَلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ فَسُحِقًا فَسُحِقًا فَسُحِقًا" 1246

ومنها أيضا: "عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ  
وَالسَّلَامُ قَالَ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حَفَاءَ عُرَاهُ غُرْلًا ثُمَّ قَرَأَ { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ  
نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ } وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ وَإِنَّ  
أَنَاسًا مِنْ أَصْحَابِي يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ فَأَقُولُ أَصْحَابِي أَصْحَابِي فَيَقُولُ  
إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَيَّ أَعْقَابِهِمْ مِنْذُ فَارَقْتَهُمْ فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ  
الصَّالِحُ { وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَقَّيْتَنِي إِلَى قَوْلِهِ الْعَزِيزُ  
الْحَكِيمُ }" 1247

وعليه فإن المعنى الذي خرجنا به من القرآن هو المعنى الذي أكده  
النبي، ونبذ منه المنافق، والكافر، والمرتد.

. غير أنه قد ورد في كتب الصحاح أن لفظ الصحاح في زمن النبي  
عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يطلق على أي أصحاب دونما قصره على صحبة  
النبي عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والشاهد على ذلك الموقوف:

"عَنْ نَافِعٍ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَالَا يُصَلِّي مِنَ الضُّحَى إِلَّا  
فِي يَوْمَيْنِ يَوْمَ يَتَقَدَّمُ بِمَكَّةَ فَإِنَّهُ كَانَ يَتَقَدَّمُهَا ضُحَى فَيَطُوفُ بِالْبَيْتِ ثُمَّ يُصَلِّي  
رُكْعَتَيْنِ خَلْفَ الْمَقَامِ وَيَوْمَ يَأْتِي مَسْجِدَ فُبَاءَ فَإِنَّهُ كَانَ يَأْتِيهِ كُلَّ سَبْتٍ فَإِذَا  
دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَرِهَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْهُ حَتَّى يُصَلِّيَ فِيهِ قَالَ وَكَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ  
اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يَزُورُهُ رَاكِبًا وَمَاشِيًا قَالَ وَكَانَ يَقُولُ إِنَّمَا أَصْنَعُ

1246 - موطأ مالك، ج 1، ص 78.

1247 - صحيح البخاري، ج 11، ص 137.

كَمَا رَأَيْتُ أَصْحَابِي يَصْنَعُونَ وَلَا أَمْنَعُ أَحَدًا أَنْ يُصَلِّيَ فِي أَيِّ سَاعَةٍ شَاءَ مِنْ  
لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ غَيْرِ إِلَّا تَتَحَرَّوْا طُلُوعَ الشَّمْسِ وَلَا غُرُوبَهَا" 1248

فهنا لفظ الصحاب خاص بعبد الله بن عمر لا برسول اله صلى الله  
عليه وسلم.

وشاهد آخر وغيره كثير:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ قَالَ: "انْطَلَقْنَا مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ  
الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ فَأَحْرَمَ أَصْحَابُهُ وَلَمْ أُحْرَمِ فَأُنْبِئْنَا بِعُدُوِّ بَعْيَقَةَ  
فَتَوَجَّهْنَا نَحْوَهُمْ فَبَصُرَ أَصْحَابِي بِحِمَارٍ وَحَشِيَ الْحَدِيثَ" 1249

وعلى ما تقدّم فإن هذا اللفظ غير مخصوص على النبي عليه الصلّاة  
والسّلام ولم يرد فيه نص من القرآن، وما ورد فيه من الحديث متفرع إلى غير  
رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونحن نقول:

(الإيمان بالله وبالنبي في عصره ومناصرته والثبات على الإيمان في  
وجوده عليه الصلّاة والسّلام وبعد وفاته هذا هو الإيمان الذي يتطابق مع  
لفظ (أصحابي) كما جاء على لسان رسول الله عليه الصلّاة والسّلام ي  
بعض الأحاديث).

لأنّه إذا ارتد المؤمن في زمنه عليه الصلّاة والسّلام أو من بعد وفاته  
فهو قد فقد هذا اللقب لفقده الإيمان، وعلى هذا يكون الإيمان هو العمود  
الفقري لنيل لقب الصحابي.

---

1248 - صحيح البخاري، ج 4، ص 379.

1249 - صحيح البخاري، ج 6، ص 350.



كما أن لقب خليفة رسول الله لقب يجب البحث فيه لغة وقرآنا  
وحدیثا حتى نتبين لأنفسنا منه.

## 1 . اللغة:

وَحَلَفَ فُلَانٌ فُلَانًا إِذَا كَانَ حَلِيفَتَهُ يُقَالُ حَلَفَهُ فِي قَوْمِهِ خِلَافَةً وَفِي  
التنزيل العزيز وقال موسى لأخيه هرون: (احلُفني في قومي)

وَحَلَفْتُهُ أَيضًا إِذَا جِئْتُ بَعْدَهُ وَيُقَالُ حَلَفْتُ فُلَانًا أُحَلِّفُهُ تَحْلِيفًا  
وَاسْتَحْلَفْتُهُ أَنَا جَعَلْتُهُ حَلِيفَتِي وَاسْتَحْلَفَهُ جَعَلَهُ خَلِيفَةً

وَالْحَلِيفَةُ الَّذِي يُسْتَحْلَفُ مِنْ قَبْلِهِ وَالْجَمْعُ خَلَائِفٌ جَاءُوا وَهُوَ الْحَلِيفُ  
وَالْجَمْعُ حُلَفَاءُ

في قوله تعالى: {هو الذي جعلكم خلائف في الأرض} جعل أمة  
محمد خلائف كل الأمم

وقيل خلائف في الأرض يحلُف بعضهم بعضا"1250

"حَلَفٌ، أَوْ الْحَلْفُ نَقِيضُ قُدَّامٍ، وَالْقَرْنُ بَعْدَ الْقَرْنِ، وَمِنْهُ هُوْلَاءُ  
حَلَفٌ سُوءٌ، وَالرَّدِيءُ مِنَ الْقَوْلِ وَمَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ:  
(فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون  
غيا) الله لك خلفا بخير: أبدلك بما ذهب منك، وعوضك عنه.

أخلف الله عليك: رد عليك مثل ما ذهب منك.

استخلفه: جعله خليفته.

الخلافة: الإمارة، الإمامة.

---

1250 - لسان العرب، ج 9، ص 28.

. النيابة عن الغير .

. العوض، وفي الحديث الشريف: "اللهم أعط كل منفق خلفا" أي:

عوضا.

والخلفة: الاختلاف، ما يجيء بعد الشيء، وفي الكتاب العزيز: (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا)1251 وهذا على التتابع "1252

من خلال المعاني اللغوية لم يتبين لفظ الخلافة بشكل دقيق ولنا أن

نتساءل:

هل الخلافة بالمعنى الذي ورد إلينا مصطلح لغوي متفق عليه؟

أهو مصطلح قرآني يختص بالنبي صَلَّى الله عليه وسلّم؟

أهو متفق عليه في الحديث الصحيح؟

ومن خلال اللغة:

يمكن رد الغالبية الأعلى ممّا ورد فيه عن الخلافة بالمعنى الذي يطلق على من حكم المسلمين بعد رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم.

"فخلفته إذ جئت بعده" لا تعني الخلافة في الحكم وإنما تنصرف على

معان منها:

بعده زمنا

بعده قيادة

---

1251 - الفرقان 62.

1252 - القاموس الفقهي، ج 1، ص 120.

بعده عقلا

لا بعده نبوة

وغير ذلك وهذه المعاني لا تعطينا جديدا عن مصطلح الخلافة.

"استخلفه جعله خليفة" لم يثبت يقينا أن نبيا استخلف غير نبي ليخلفه، وهذا المعنى يكون في الحياة ولكن بعد الموت فلم يحدث لدى أي نبي ذلك الأمر.

. لذا لا يجب حمل المعنى الخاص بعامة الناس أو حتى خاصتهم على الأنبياء.

. وغير ذلك من معاني لا تفيد دلالة جديدة، غير ان استطراق اللغة لأمر موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام فسناقشه في حينه، وكذلك سليمان وداود.

الخليفة في القرآن الكريم:

أول من لقب بالخليفة في القرآن الكريم هو آدم عليه والصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 1253

. فهذا الخليفة بالجعل الإلهي لا بالاستخلاف البشري.

. رد الملائكة لمعنى الخلافة لأنه سيسفك الدماء ويفسد فيها.

. وضح الله لهم إن ذلك الذي قالوا وإن حدث سيحدث لإحفاق

حق وإزهاق باطل (قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

. فقتل الخليفة القاتل قصاصا حقّ.

. الدفاع عن العرض والدين وإزهاق الدم من أجل إعلاء كلمة الله  
حقّ.

. إفساد ما أفسده المفسدون حقّ.

. إذن فسك الدماء بحقّ وإفساد ما أفسده المفسدون لغرض الإصلاح  
حقّ.

وهذا الجعل باستحقاق الخلافة لم يتحقّق سوى لآدم عليه الصلّاة  
والسّلام وداود عليه الصلّاة والسّلام لقوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ  
خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ  
اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ  
الْحِسَابِ﴾ 1254

. فداود مجعول خليفة.

. والجعل من الله وليس من غيره.

. لم يأت بيعة ولا شورى.

. ولكن جعلنا ربّانيا.

ونتساءل هل هذا الجعل تحقّق في غير آدم وداود عليهما الصلّاة  
والسّلام نصا؟

والأنبياء إن جاز لنا اتفاقا؟

كما في علمنا (لا)

وهنا نعرض لمعنى الخلافة في غير هذين الموضوعين، فقد وردت الخلافة بين سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} 1255

فمن خلال النص أن هذه الخلافة:

. وقتية

. محددة بزمن (أربعين ليلة)

. سببية (غياب موسى للقاء ربه)

. منتهية غير مستدامة.

. حدثت مباشرة بين نبيين

. ليس فيها بيعة

. ليس فيها شورى

. ليس للأمة دخل فيها

. تحدث برضا الله

ولو قارنا بين معنى الخلافة عند الحكام الذين حكموا بعد النبي عليه  
الصلاة والسلام يستبين لنا:

. أن حكم الحكام بعد النبي ليس وقتي موقت بوقت بل هو مدى  
حياة الحاكم.

. الحكم غير محدد بزمن إسقاطا لمدة النبوة على الحكم إذ ان النبي  
يبقى نبيا مدى حياته منذ بعثه نبيا إلى وفاته، فالنبي يصوبه الله وهو مؤيد  
بالوحي.

. أمّا الحاكم فمن أين جاء بديمومة الحكم وهو غير مؤيد بوحي مثل  
النبي.

. وهل إذا طال عمر الحاكم إلى أن يصل إلى عمر الخرف (أرذل  
العمر) مصداقا لقوله تعالى: { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى  
أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } 1256

. هل يستمر الحاكم في الحكم بناء على ما يسمى (خلافة) التي قرنها  
بحكم النبوة؟

. وتساءل:

هل وصل نبي على أذل العمر والخرف وتلاشي العلم؟

. نقول يقينا (لا)

وهل وصل حاكم إلى أرذل العمر بالخرف وتلاشي العلم؟

نقول يقينا: كثير

إذن تبقى مسألة موسى وهارون عليهما السلام مسألة خاصة غير  
مقاس عليه في احكام بعد النبوة، وجعل الحاكم الإنسان العادي في مقام  
النبى.

وعندنا في القرآن أمر آخر يغري بالحكم وراثه ويسقطونه على الحكام  
لكي يتزبوا بزى الخليفة وذلك في قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ  
عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَرِثَ  
سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ  
إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} 1257

. فلو فرضنا جدلا أن سليمان قد ورث الحكم من أبيه داود الخليفة لنه  
ابنه فهذا منقطع بعد النبي محمد عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى: {مَا كَانَ  
مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ  
شَيْءٍ عَلِيمًا} 1258

. فهذا نص قطعي في عدم الأحقية بوراثه الحكم استنادا على مسألة  
سليمان وداود فالنبي ليس له ولد رجل يرثه في حكم الأمة وراثه لأنه خاتم  
النبين ورسول الله.

. وإن حدث ذلك انتفى كونه خاتما للنبين وفقا للقاعدة (إنه لا  
يخلف نبى إلا نبى)

. وتتساءل:

هل خلف النبي محمد عليه الصلاة والسلام نبى؟

هل أبو بكر ابن النبي؟

---

1257 - النمل 15، 16.

1258 - الأحزاب 40.

هل عمر ابن أبي بكر؟

ثم إن في وراثة سليمان لداود أمر غاية في الدقة وهو في قوله تعالى:  
(عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ)

فسليمان عليه الصلّاة والسّلام يقول:

علمنا منطق الطير

إن فداود علمه الله منطق الطير

وبما ان داود أبو سليما وني قبله فهو قد تعلم هذا العلم قبله

. ويجوز أن يكون سليمان قد تعلم هذا العلم من أبيه داود

. أو تعلمه وحيا

. ومن المؤكد إن التعليم كان للثنتين

. وان الفضل الذي كان عند داود كان عند سليمان

. وما عند سليمان كان من قبل عند داود

-وهذا الفضل المبين لم يتأت لأحد بعدهما فيرثهما.

ومما سبق نتساءل:

. هل من حاكم بعد النبي أوتي الفضل الذي أتاه الله للنبي صلّى الله

عليه وسلّم؟

. هل من أحد ممن حكم بعد النبي عليه الصلّاة والسّلام أتاه الله

المعجزات التي آتاها الله للنبي عليه الصلّاة والسّلام ومنها القرآن؟



. هل ورد أن أحدا من الحكام بعد النبي قد أنزل الله عليه قرآنا مثل

الله؟

والقرآن كان من فضل الله على النبي عليه الصلاة والسلام مصداقا  
لقوله تعالى: { وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ  
وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا } 1259

. هل النبي جاء ببيعة؟

. هل النبي جاء بشورى بين الله وأحد (حاشا لله)؟

بالتأكيد: (لا)

فطالما الأمر هكذا

يكون من حكم بعد النبي ليس بخليفة للنبي.

فماذا يكون؟

يكون:

1 . صحابيا

. لأنه آمن بالله ربًا واحداً واحداً وبالنبي رسولا من عند الله، وصاحب

النبي بمعنى حفظه ودافع عنه ومنعه مما يمنعه منه نفسه ولم يكفر ولم ينافق في  
حياة النبي، ولم يرتد بعد موته عليه الصلاة والسلام "

2 . حاكما بمشورة

ليس خليفة للنبي عليه الصلاة والسلام بالمعنى الذي أوضحناه.

3 . ليس له توريث الحكم إلا بمشورة لا إجبارا.

وعليه يكون من حكم بعد النبي ممن آمن في زمنه عليه الصلّاة  
والسّلام ولم ينافق ولم يرتد أصحاب حكام.

ومن حكم باسمه من غير هذا الجيل حاكم وليس بصاحب وليس  
خليفة.

لا أصحاب خلفاء.

### من معجزات محمّد:

نزل القرآن الكريم في وقت تعددت فيه الأديان، فكان منها أديان  
سماوية وأديان غير سماوية؛ إذ أن الأديان السماوية هي التي رافقت النبوات  
والرّسالات السماوية، فاليهود أرسل الله إليهم النبي موسى عليه الصلّاة  
والسّلام يحمل التوراة، أما المسيحية فقد أرسل الله إليهم النبي عيسى عليه  
الصلّاة والسّلام يحمل الإنجيل، وفي هذين الكتابين شرّع الله تعالى لهم أمور  
دينهم ودنياهم.

أمّا أصحاب الأديان غير السماوية فهم من المشركين، الذين أشركوا  
بالله تعالى وجعلوا له أندادا، وجعلوا في بيت الله الحرام تماثيل ونصبا وأصناما  
وهو يظنون أنّها تقربهم إلى الله زلفى، إذ يقول تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ  
وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ  
يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ  
كَفَّارٌ} 1260 وفي صراعات هذه الأديان جاء الدين الإسلامي ليتم رسالة  
الأديان السماوية، فكثير من اليهود والنصارى لم يلتزموا بما جاء في كتبهم من  
تعاليم وأحكام، فكان خطاب الله سبحانه وتعالى لهم يختلف عن خطابه  
للمشركين، فهم على بينة ووعي من أمر توحيد الله عزّ وجلّ؛ لأنهم عرفوا  
ذلك من كتبهم. أما المشركون فلم ينزل عليهم أي كتاب ولكنهم ورثوا طريقة

العبادة من آباؤهم وأجدادهم واحتفظوا بعبادة الأسلاف والأجداد وصنعوا لأربابهم تماثيل وأصناما ترمز إليهم مثل اللات والعزى وهبل حتى تكون لمعبوداتهم أجسام تلمس ومواقع تزار، فاستمروا على هذه الحال حتى جاء القرآن الكريم لينقذهم مما هم فيه من عبادة الأصنام إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، ومن جور الأحكام إلى عدل الإسلام.

ان الحديث عن معجزة النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم، يستوقفنا في البداية التعرف على تعريف المعجزة وشروطها واختلافها عن بعض المصطلحات التي قد تتداخل معها في نظر بعض الناس.

فالمعجزة: هي أمر يظهره الله بخلاف العادة على يد مدعي النبوة عند تحدي المنكرين على وجه يعجز المنكرون عن الإتيان بمثله. أو هي أمر خارق للعادة داع إلى الخير والسعادة مقرون بدعوى النبوة قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله سبحانه.

فشروط المعجزة حسب هذا التعريف هي:

1 . أن تكون المعجزة من الله تعالى دون غيره، لأنها تصديق منه لرسول فلا يصدقه بفعل غيره، سواء كان هذا الأمر (المعجزة) الذي يظهره الله قولاً مثل القرآن، أم فعلاً كفلق البحر لسيدنا موسى، أم تركاً كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه السلام.

2 . أن تكون خارقة للعادة لأنها لو لم تكن كذلك لأمكن للكاذب ادعاء الرسالة، وخرج بهذا السحر والشعوذة والمخترعات الغريبة.

3 . أن تظهر على يد النبي ليعلم أنه تصديق له... فخرج بهذا الكرامة والمعونة والاستدراج.

4 . أن تكون مقرونة بدعوى النبوة ومصاحبة لها حقيقة أو حكما  
كما إذا تأخرت بزمن يسير... وخرج بهذا الإرهاص.

5 . أن تكون المعجزة موافقة للمطلوب، فإن جاءت مخالفة للمطلوب  
سميت إهانة كما حصل لمسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة.

6 . أن تكون مؤيدة للنبي. فلو قال الإنسان: معجزتي نطق هذا  
الجماد فنطق الجماد مكذبا له فإن تكذيبه يعتبر دليلا على كذب المدعي.

7 . أن تتعذر معارضة الأمر الخارق للعادة والإتيان بمثله لأن المعارضة  
لو أمكنت واستطاع أحد أن يأتي بمثل الأمر الخارق للعادة الذي جاء به  
النبي لأمكن لأي كاذب أن يدعي النبوة.

8 . زاد بعضهم ألا تحصل المعجزة زمن نقض العادات- وذلك كزمن  
طلوع الشمس من مغربها وتكلم الدابة، وظهور المسيح الدجال، فإن الخوارق  
فيه ليست معجزة.

9 . أن تكون من جنس ما تعارف عليه الناس، كالسحر في زمن  
موسى صلى الله عليه وسلم، والطب في زمن عيسى صلى الله عليه وسلم.

#### الفرق بين المعجزة وبين غيرها من خوارق العادات:

هو أن المعجزة أمر خارق للعادة يظهر على يد نبي أو رسول

. والكرامة: أمر خارق للعادة يظهر على يد عبد صالح غير مدع  
للنبوة، وخير دليل العبد الصالح في قصة موسى صلى الله عليه وسلم. أو  
الكرامة بأنها ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى  
النبوة فما لا يكون مقرونا بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجا وما كان  
مقرونا بدعواها يكون معجزة

. والمعونة: أمر خارق للعادة يظهر على يد بعض العوام تخلصا من  
شدة1261.

عليه تكون المعجزة هي العمود الفقري لدعوة الأنبياء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ  
وسَلَّم، ذلك أن التبليغ يبحث عن بيئة مستهدفة تكون مستقبلة للدعوة،  
فالبراهين يجب أن تكون حاضرة كي تعيد الناس إلى الله تعالى بعد أن ضلوا  
وأضلوا، فالمعجزة هي نقطة العودة التي يكون من خلالها:

. التفكير.

. التبصر.

. الاسترجاع.

. التبيان.

. إعادة إنتاج الفكر لكن بطريقة صحيحة وواعية.

. البدء بحياة جديدة مغايرة عما كانت عليه سابقا.

. استمرار نسق الإيمان، ذلك أن كل الدعوات هي امتداد لبعضها  
البعض، إذ يقول تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلًّا مَّا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا  
كَذَّبُوهُ فَأَنبَغْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَّا  
يُؤْمِنُونَ} 1262.

. تكون المعجزة المرتكز الدائم الذي يجدد الإيمان، ويمنحه الديمومة  
والانتشار، ولاسيما القرآن الكريم فعن القرآن الكريم يقول رسول الله مُحَمَّد

---

1261 - تبسيط العقائد الإسلامية حسن أيوب، ج 1 ص 107.

1262 - المؤمنون 44.

عليه الصلاة والسلام: "كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَبْرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ هُوَ الْفَضْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ فَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنْ ابْتَعَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهُ الْجِنَّ إِذْ سَمِعْتَهُ حَتَّى قَالُوا (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ) مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ «1263.

. تكون المعجزة هي المرجع في دعوة النبي المرسل، وتكون على أمرين:

الأمر الأول: مرجعية مادية.

الأمر الثاني: مرجعية معنوية.

فالأمر الأول يرتبط بالنسق الدعوي المادي الذي ارتبط بالأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم الذين كانت معجزتهم عينيه مثل موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

أما الأمر الثاني فهو مرتبط بدعوة النبي محمد عليه الصلاة والسلام وهو القرآن الكريم، فهو كتاب معجز بآياته التي لا تنقضي عجائبها ناهيك عن البلاغة والفصاحة، فلم يتقيد بزمان ولا بمكان فهو باق إلى أن يشاء الله، بخلاف معجزة موسى وعيسى عليهما السلام فإنهما مرتبطتان بزمانهما عينتان.

إن إرسال الرّسل صلّى الله عليهم وسلّم جاء وفق مهمة تعد هي المحور الرئيس للدعوة، ألا وهي عبادة الله تعالى وعدم الإشراف به، إذ يقول تعالى:

1263 - سنن الترمذي، ج، 11 ص 93.

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} 1264، هذه العبادة والطاعة لا بد لها من أصول تبليغية تتماشى أو تحاكي العقل البشري في تقبل الأمر التعبدي الذي ليس له اختيار آخر يمكن أن يسلكه كي يكون من العابدين، فكان الأمر المهم الذي نعتقده هو أن الأنبياء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ كانوا من جنس البشر، وهذا الأمر تمثل لدى الكافرين بالاستغراب المبهم الذي لا يرتقي فيه الأمر التبليغي كما يتصورون أن يكون من قبل بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، إذ يقول تعالى: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا} 1265، الآيتان الكريمتان تثيران عدة أمور منها:

. طرح فكر الكافرين عند استقبال الدعوة ضمن تشكل معرفي غير واعي بل يحيل الأمر إلى استدراك ذهني إنساني خالص دون مجانسة سمة الدعوة أو حتى الوقوف على أطرها العامة والخاصة.

. كنوا بأكل الطعام والمشى في الأسواق عن ماثلة أحواله لأحوال الناس تذرعا منهم إلى إبطال كونه رسولا لزعمهم أن الرسول عن الله تكون أحواله غير ماثلة لأحوال الناس، وخصوا أكل الطعام والمشى في الأسواق لأحدهما من الأحوال المشاهدة المتكررة، ورد الله عليهم قولهم هذا بقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِهْمٌ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} 1266. ثم انتقلوا إلى اقتراح أشياء تؤيد رسالته فقالوا: {لولا أنزل إليه ملك فيكون معه

---

1264 - الذاريات 56

1265 - الفرقان 7 - 8

1266 - الفرقان 20

نذيراً}. وخصوا من أحوال الرّسول حال النذارة لأنّها التي أنبتت حقدّهم عليه.

والتساؤل الذي يطرح في هذه القضية:

. كيف يكون التحدي؟

. وما هو وجه التحدي؟

. وبأي شيء يكون التحدي؟

. وهل للتحدي ارتباط بما سبق من تحديات؟

. هل الاختلاف الحاصل بين الأقوام المختلفة له صدق في دعوات الرّسول صلّى الله عليهم وسلّم.

إنّ استدعاء دعوات الرّسول وتبيان ما فيها من دروس وعبر يفتح آفاق البحث الإعجازي على مصراعيه، وذلك كي نطرح عدة أمور تكون كلها مرتبطة مع بعضها البعض لكنها مختلفة ضمن الشكل التوظيفي الذي يجب أن تكون عليه، وهذا يفتح مدارات البحث الواعي المرتبط بمنهج معرفي واضح غير قابل للتأويل فلا يدخل بما يطرح ضمن المتشابهات.

ولهذا سنقف عند بعض محطات النسق الدعوي كي نطرق أبواب الإعجاز المختلفة التي مرت بها دعوات الله تعالى المرسل على أيدي أنبياءه صلّى الله عليهم وسلّم.

كانت البداية مع إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في زمن سادت فيه الحجج العقلية عقول الناس المختلفة وبخاصة طواغيت الأرض الذين يؤولون الأمور بما تشتهي أنفسهم، وبما يعظم وجودهم الدنيوي القابع على مركز التصدر والسيادة فلا انفكاك عن كل ما يثبت الأمور تجاه ما يريدون،



فكانت المحاوره المهمه بين إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام وخصمه، هذا الحوار كان فيه مكنن التحدي الذي يطرح دعوة إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، وكذلك يطرح فكر الذي حاجه في ربّه لكن بشكل مغاير، فكانت النهايه لمن كان تحديه مستندا على الحقّ، إذ يقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} 1267 هذه الآية الكريمة تحيل إلى سمة المحاجج في جراته وتجاهله وعناده ومحاجته فيما لا يقبل التشكيك، وما حمله على ذلك إلا (أن آتاه الله الملك) فطغى وبغى ورأى نفسه متأسا على رعيته، فحمله ذلك على أن حاج إبراهيم في ربّوية الله فزعم أنه يفعل كما يفعل الله، فقال إبراهيم (ربّي الذي يحيي ويميت) أي: هو المنفرد بأنواع التصرف، وخص منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأنّ الإحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة نهايتها، و(الذي) تفيد استغراق الزمن، فأنّه قد استغرق الفعل في الإحياء والإماتة في الماضي والحاضر والمستقبل، أما الذي حاج إبراهيم فلم يتحقّق له ذلك ولن يكون لغيره، وتأكيد لاستغراق الاسم الموصول باتصال الزمن والتفرد به الله، قوله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} 1268 فهو الله المحيط بالزمان والمكان، قال ذلك المحاج: (أنا أحيي وأميت) ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنه يقتل شخصا فيكون قد أماته، ويستبقي شخصا فيكون قد أحياه، فلما رآه إبراهيم يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة، فضلا عن كونه حجة،

1267 - البقرة 258.

1268 - الحشر 22.

اطرد معه في الدليل فقال إبراهيم: (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق) أي: عيانا يقر به كل أحد حتى ذلك الكافر(فأت بها من المغرب) وهذا إلزام له بطرد دليله إن كان صادقا في دعواه، فلما قال له أمرا لا فؤة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحا يقدح في سبيله (بعت الذي كفر) أي: تحير فلم يرجع إليه جوابا وانقطعت حجته وسقطت شبهته، وهذه حالة المبطل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه، فإنه مغلوب مقهور، فلذلك قال تعالى: (والله لا يهدي القوم الظالمين) بل يقيهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك، وإلا فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه ويسر لهم أسباب الوصول إليه، ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال1269. هنا الإعجاز كان عقليا، ضمن حجج وبراهين ساقها إبراهيم عليه الصلوة والسلام كي يحقق أمرين:

الأمر الأول: هدم حجج الكفر وبنائه.

الأمر الثاني: إعلاء كلمة الله تعالى وبيان عظمته وقدرته.

وهكذا كانت دعوة إبراهيم عليه الصلوة والسلام مثالا واضحا لتبليغ دعوة الله بأسلوب عقلي ينير الفكر ويفتح باب التأمل والاستبصار، ومن ثم الوصول إلى حقيقة الدعوة وأين تكمن، فالإيمان يبحث له عن مكان واع يكون التقبل فيه مستندا إلى قناعة وإدراك، وتحقيق هذا الأمر كان بالحجة العقلية التي أرساها إبراهيم عليه الصلوة والسلام أمام المحاججين.

أما دعوة موسى عليه الصلوة والسلام فقد جاءت في زمن كان السحر هو الأمر المسيطر على:

---

1269 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج 1، ص 111.

. عقول الناس .

. إدراكاتهم .

. استفهاماتهم .

. انبهارهم به .

فضلا عن ذلك كان سلاح التهيب الذي استخدمه فرعون ضد الناس، إذ يقول تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} {1270، والتساؤل الذي يطرح هنا:

. كيف تكون معجزة النبي المرسل إلى فرعون؟

. ألا تكون من جنس ما يعد خارجا عن المؤلف؟

. ألا تكون خارقة للعادة؟

. ألا تكون بابا من أبواب الإيمان؟

إن معجزة موسى عليه الصلاة والسلام كانت من جنس ما كان خارقا في ذلك الوقت ألا وهي العصا، يقول تعالى: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} {1271،

---

1270 - الأعراف 115، 116.

1271 - طه 17 - 24.

تحوّلت العصا حية أو ثعبانا، فما الفرق بينها وبين حبال السحرة التي تحولت  
أمامهم إلى حيّات وثعابين؟

إذن: لا بدّ من شيء يُميّز عصا موسى كمعجزة عن سحر السحرة  
وشعوذتهم؛ لذلك اختار موسى أن يُلقِي هو آخرًا بإلهام من الله حتى تلقف  
عصاه ما يأفكون، فما يُلقف لا بدّ أن يسبق ما يُلقف.

فمن حيث الحركة أمام الناظرين لا فرّق بين عصا موسى وحبال  
السحرة وعصيّهم، فكلها تتحرك في الدين استرهبّت أعينهم، إنّما تميزت عصا  
موسى بأفكها تلقف ما يصنعون من السحر، وتتبع حبالهم وعصيّهم، وتقفز  
هنا وهناك، فلها إذن عَيْن تبصر، ثم تلقف سحرهم في جوفها، ومع ذلك  
تظل كما هي لا تنتفخ بطنها مثلا، وهذا موضع من مواضع معجزة عصا  
موسى عليه الصلّاة والسّلام 1272.

فكانت معجزة موسى عليه الصلّاة والسّلام طريق الإيمان للناس،  
وذلك لأنّها:

. فعلها من جنس أفعال السحرة.

. خرقت العادي وهشمت صورة السحر العظيم الذي كان يُعتقد فيه.

. استسلام السحرة واعترافهم بمعجزة موسى عليه السلام، يقول تعالى:

{وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ  
السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ  
آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ  
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا  
أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا

فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِيَّامًا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا  
خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى {1273.

. هزت هيبة فرعون ومكانته أمام أعين الناس، إذ كانت مرتبطة  
بالسحر.

. تحقّق الإيمان الجماعي للسحرة، فقد سبقه اختيار دقيق من قبل  
موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، { قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسَ  
ضُحَى } {1274.

إنّ كلمة رسول الله من الكلمات التي لا يمكن أن تتحقّق في أي وقت  
أو حتى في أي مكان، دون شرط أو قيد، فالرّسول "إنسان أوحى الله تعالى  
إليه بشريعة وأمره بتبليغها للناس" 1275 هذا التعريف الجامع المانع كما  
نعتقد يكسب المعجزة المقدمة في الدعوة فهي مجردة من حاملها، فضلا عن  
ذلك ليس لأي أحد أن يقول: (أنا رسول من عند الله) بل لا بدّ أن يقدم  
بين يدي دعواه معجزة تثبت أنه رسول من الله. والآية كما نعرف هي الأمر  
العجيب الذي خرج عن القوانين والنواميس لتثبت صدق الرّسول في البلاغ،  
وما دامت المعجزة خارجة عن نواميس البشر، فالمخالف نقول له: أنت  
حين تكذب أن حامل المعجزة رسول، فكيف تعلل أنه جاء بمعجزة خرجت  
عن الناموس؟ إذن فالمعجزة تلزم المنكر الذي يتحدى وتفحّمه، لأنه لا  
يستطيع أن يأتي بمثلها، ولذلك قلنا: إن من لزوم التحدي ألا يتحدى الله  
حين يعطي رسولا معجزة إلا بشيء نبغ فيه القوم المبعوث إليهم ذلك  
الرّسول؛ لأن الحقّ لو جاء لهم بشيء لم يدرسوه ولم يعرفوه، فالرد منهم يكون

---

1273 - طه 69 - 73.

1274 - طه 59.

1275 - معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 222.

للسول بقولهم: إن هذا أمر لم نروض أنفسنا ولم ندرّبها عليه، ولو روضنا أنفسنا عليه لاستطعنا أن نفعل مثله، وأنت قد جئت لنا بشيء لم نعود أنفسنا عليه، لذلك يرسل الحقّ الرسول - أي رسول - بمعجزة من جنس ما ينبغ فيه القوم المرسل إليهم، فموسى عليه السلام، أرسله الله إلى قوم كانوا نابغين في السحر، فكانت معجزته تقرب من السحر.

فلا يمكن القول إنّ معجزة موسى كانت سحرا؛ لأن موسى عليه السلام لم ينزل بسحر ولكن بمعجزة إبطال السحر، إذ يقول تعالى: {فَلَمَّا أَتَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ} 1276. كانوا هم يخيلون للناس أشياء ليست واقعا لذلك تجد القرآن يعطيك الفارق بين ما يكون عليه ما يأتي به الله على يد رسول من الرسل من معجزة وسحر القوم، فيقول القرآن: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَىٰ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} 1277.

كأن الحقّ يقول لموسى عليه السلام: إن حدود علمك بما في يدك أنها عصا تتوكأ عليها وتهش بها على غنمك، أمّا علمي أنا فهو علم آخر. لذلك يأمره أن يلقي العصا، فلما ألقاها وجدها حية تسعى، فأوجس في نفسه خيفة.. إن (أوجس في نفسه خيفة) هي التي فرقت بين سحر القوم ومعجزة موسى عليه السلام.

لماذا؟ لأنّ الساحر يلقي العصا فيراها الناس حية وهو يراها عصا لأنّ الساحر لو رآها حية لخاف مثل الناس، لقد خاف موسى عليه السلام لأنّها

---

1276 - يونس 81.

1277 - طه 17 - 20.

تغيرت وصارت حية فعلا، ولذلك قال له الله: {قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْفَ سُنْعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى} 1278.

فلو كانت من جنس السحر لما أوجس في نفسه خيفة لأنه سوف يراها عصا وإن رآها غيره حية، وهذا هو الفارق 1279.

أما دعوة عيسى عليه الصلوة والسلام فقد جاءت في زمن انتشر فيه الطب، فكان من معيار العصر وتحديه، ولهذا كانت معجزة عيسى عليه الصلوة والسلام من جنس ما كان منتشرا بين الناس، إذ يقول تعالى: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} 1280، كانت معجزة عيسى عليه الصلوة والسلام خرقا لمعروف الأسباب في نواميس البشر، وكان عيسى ذاته في وجوده معجزة خارقة، فكذلك كان إبراؤه للأكمه والأبرص، وإحيائه للموتى، وإخراج الموتى من قبورهم، فكان هذا مناسبا لأجلها وزمنها، وكان كتاب الله تعالى بها، والزمن الذي عاش فيه ورسالته الخالدة، كان يناسبها، كتاب خالد يتحدى الأجيال جيلا بعد جيل، وهو أعظم من كل معجزات عيسى، وموسى وإبراهيم، لأن هذه المعجزات حوادث تنقضي، وتنتهي بزمنها، ولا يراها إلا من شاهدها، ولولا أن القرآن سجلها ما علم بها أحد، أما القرآن

---

1278 - طه 21.

1279 - تفسير الشعراوي، ج 1، ص 971.

1280 - آل عمران 48 - 51.

فمعجزته خالدة باقية تتحدى النَّاس جميعا جيلا بعد جيل، لأنَّ شريعة مُحَمَّد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خالدة، فكانت معجزتها خالدة باقية تدل على صدقها أمام كل النَّاس في كل زمان.

وإنَّ كل زمان له معجزته كما ذكرنا، فلا تكون آية صالحة لكل زمان، وإنَّ الله تعالى يمحو كل معجزة إلا في زمنها، ولذا قال تعالى:

يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب.

يمحو الله من الآيات ما يشاء محوه منها، ويثبت ما شاء منها، فإذا كانت العصا معجزة في عصر موسى، وأقامت الدليل على رسالة موسى عليه السلام، فإنَّ الله تعالى نسخها، ولا تكون آية لإتيان رسالة مُحَمَّد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ويثبت له آية أخرى، وهى القرآن الكريم، وإذا كان عيسى له آيات خرقت نظام الأسباب والمسببات، فقد نسخها الله تعالى، وأثبت مُحَمَّد معجزة أخرى تناسب رسالته، وتبقى ببقائها، فيثبتها الله تعالى 1281.

وبعث نبينا مُحَمَّد عليه الصَّلَاة والسَّلَام فكانت مؤيدة بالمعجزات

المخالفة للسنن المعروفة للناس، والخارجة عن مقدور البشر، ليكون إظهارها على يديه مع بشريته دليلا على أنه مرسل من عند الله.

فعدم حرق النَّار لإبراهيم عليه السلام، وناقاة صالح عليه السلام، أو عصا موسى عليه السلام، وما ظهر على يدي عيسى عليه السلام من المعجزات، كلها من هذا القبيل.



وكانت الآيات حسية يوم أن كان العقل الإنساني في الطور الذي لم يبلغ فيه الرشد بعد، ويوم أن كانت هذه المعجزات تبلغ من نفسية الجماهير مبلغاً لا تملك معه إلا الإذعان والتسليم.

فلما بدأ النوع الإنساني يدخل في سن الرشد، وبدأت الحياة العقلية تأخذ طريقها إلى الظهور والنماء، لم تعد تلك العجائب هي الأدلة الوحيدة على صدق الرسالة.

ولم يعد من السهل على العقل أن يدعن مجرد شيء رآه خارجاً عن عرف الحياة.

إنه يريد شيئاً جديداً يتناسب والطور الذي وصل إليه؛ يريد الإيمان الذي لا تخالطه الشكوك، واليقين الذي يبدد ظلام الشبهات<sup>1282</sup>.

### الإسراء والمعراج:

تعد حادثة الإسراء والمعراج من الحوادث المهمة التي شهدتها دعوة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، إذ دخلت سلم التشكيل الدعوي فطرحت أمراً مغايراً لم يطرحه باقي الأنبياء صلى الله عليهم وسلم، فكان مدعاة للتساؤل على مختلف الأصعدة ومختلف العقول التي تتحرى عن هذا الأمر ضمن تساؤلات عدة منها ما يرتقي إلى هذه الحادثة، ومنها من ينزل إلى درجة الانحدار الكلي فلا يجد له أي تبريراً سوى انه تساؤلاً مفتعل ليس إلا، وربّ سائل يسأل:

. ألم يكلم الله موسى؟

. ألا يدل التكليم على خرق سنن البشر؟

. ألا يدخل التكليم حقل الإسراء والمعراج؟

---

1282 - العقائد الإسلامية، ج 1، ص 155.

إن هذا التساؤلات لا تمنح أن تكون هناك مقابلة بين دعوة موسى ومحمد عيهما الصلّاة والسلام، فالدعوتان مختلفتان من حيث الأمر الذي نحيل إليه، ذلك أن تكليم موسى عليه الصلّاة والسلام كان خاصا به فلم يكن ضمن طروحات الدعوة التبليغية أو حتى كشفه لفرعون وغيره من المقصودين من دعوته، فالأمر كان متعلقا به ضمن طرق التبليغ التي بينها الله تبارك وتعالى بقوله: { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ } {1283}، أما الإسراء والمعراج فقد مثل نقطة واضحة في مسيرة دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فقد تمثل فيها جانبان:

الجانب الأول: أنها أمر خارق دخل مجال التبليغ، فالإسراء إلى المسجد الأقصى ومن ثم العروج إلى السماء يعد أمرا خارقا لتقبل الفكر البشري وذلك ضمن الاستدراك الذي يتحقق له عند سماع مثل هذا الأمر.

الجانب الثاني: فرضت فيها الصلاة، فكل العبادات فرضت على الأرض إلا الصلاة من حيث العدد والكيفية والأداء، فالقرآن الكريم يقدمها في سياقه على بقية الفروض، إذ يقول تعالى: { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ } {1284}، وقوله تعالى: { قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ } {1285}.

فالإسراء: هو المشي في الليل، سرى أي مشى في الليل، وأسرى أي مشى ليلا.

---

1283 - الشورى 51.

1284 - البقرة 43.

1285 - إبراهيم 31.

والمعراج: فهو مَفْعَالٌ من العروج، وهو اسمٌ للآلة التي عليها عُرِجَ به.

والإسراء: هو الانتقال ليلاً من مكة إلى بيت المقدس، وكان على دابة بين البغل وبين الحمار تسمى البُرَاق، والعروج إلى السَّمَاء فكان على آله، على سُلَّمٍ خاص وهو المعراج.

فإذن الإسراء اسم للفعْل، والمعراج اسم للآلة التي عليها سار؟ إلى السَّمَاء.

إذا كان كذلك، فالإسراء وهو المشي ما بين مكة إلى بيت المقدس ليلاً في ساعات معدودة ثم الرجوع، هذا أمر غيبي عجيب، لهذا الإيمان به واجب بتفاصيله التي وردت، فيكون له أصل الكلام على الغيبات 1286.

ونحن نقول إنّ رسول الله محمد عليه الصَّلَاة والسَّلَام لم يكن ماشياً ليلاً، ولكن مسراً به بكيفية أرادها الله تعالى أن تكون معجزة له.

يقول تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} 1287، هذه الآية الكريمة من الآيات التي أدخلت الموضوع حقلاً التساؤلات المتعددة ففيها:

. طرق لأبواب الغيب بسمّة واضحة.

. التبليغ عن فروض الله تعالى بطريقة تدعو إلى الاعتاض والتدبر.

فضلاً عن ذلك أن سياق الآية فيه ما يحيل إلى أن ما فيها هو أمر خاص، ذلك أن الآية الكريمة اشتملت على أمور عدة منها أن الله تعالى

---

1286 - إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل، ج 13، ص 21.

1287 - الإسراء 1.

نفسه الكريمة، وينزهها عن شرك من أشرك، ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه غيره، فقد أسرى بعبده محمد عليه الصلاة والسلام ليلا من (المسجد الحرام)، إلى بيت المقدس (المسجد الأقصى)، وهو المسجد الذي بارك الله ما حوله، من زروع وثمار ونبات.. ليري عبده محمداً، من آياته العظام، ما فيه الدليل القاطع على واحديته، وعظيم قدرته، وهو السميع لأقوال العباد، البصير بأحوالهم.

اختلف المفسرون حول ما إذا كان الإسراء قد تم بيدنه عليه السلام، أو بروحه فقط. وأكثر الفقهاء متفقون على أنه أسري به بيدنه وروحه، يقظة لا مناما. ولما حدث الرسول قريشا بإسرائه استغربوا ذلك كثيرا، وأخذوا يسألونه عن صفات بيت المقدس، فأخذ يصفه لهم، فقالوا: أما النعت فصحيح.

ويستدلون على أنه أسري به بيدنه أن الله تعالى بدأ السورة بقوله: {سبحان الذي أسرى بعبده}، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان الأمر لم يتعد المنام لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظما، ولما ارتدت جماعة من المسلمين عن الإسلام، ولما بادرت قريش إلى تكذيبه، ثم إن عبارة (عبده) تدل على مجموع الروح والجسد، وتدل على تهيؤ النبي عليه الصلاة والسلام جسدا وروحا بما يمكنه من اختراق المكان والزمان. وقال تعالى في آية أخرى عن هذا الإسراء: {ما زاغ البصر وما طغى} والبصر من آلات الذات لا الروح.

ومن آمن بقدرته تعالى التي لا حدود لها، لا يستعظم أن يسري الله برسوله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بجسده، لأن الإسراء بالنبي بجسده هو أمام قدرة الله في مثل السهولة التي يسرى به بروحه، ولذلك فلا يستغرب مؤمن بالله وقوع هذا الحادث).

إنّ الاختلاف الحاصل بين العلماء هو هل كان الإسراء بجسد النبي عليه الصّلاة والسّلام وروحه أم كان بروحه خاصة؟

وإنّ الحديث عن الإسراء يجب ألا يخرج عن حيز الزمن الذي حدث فيه، فلا بدّ من أمر القبول والرفض ضمن آليات البحث المعرفي، فالقبول والرفض وان كان متعلقا بالأمر العقديّة إلا أنّه يدخل باب تقبل الأمر ضمن آليّة التفكير البشري، فهو موجه إلى النّاس كافة وعلى مختلف الدرجات المعرفية والإدراكية للمتلقين بوصفهم المستهدفين، هذا الاستهداف هو صلب الدعوة لما يحمله من تليغات متعددة يكون على أساسها قيام الدعوة ومن ثم تتحقّق فيه التبعات المختلفة دنيويا وأخرويا، إذ يقول تعالى: {مَا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْلًا بِكَيْلٍ يُكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} 1288

فالجمهور يرى الإسراء: أنّه بجسد النبي عليه الصّلاة والسّلام وروحه، وآخرون: كان بروحه خاصة وكانت رؤيا نوم حقّ، فحجة الجمهور؛ أنه لو كان مناما لم تنكره قريش، ولم يكن في ذلك ما يكذب به الكفار، ألا ترى قول أم هانئ له: لا تخبر بذلك فيكذبك قومك، وحجة من قال: أن الإسراء كان مناما قال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ} 1289، وإنما يقال الرؤيا في المنام، ويقال فيما يرى بالعين رؤية، وفي الحديث أنه عليه الصّلاة والسّلام قال: بينما أنا بين النائم واليقظان وذكر الإسراء، وقال في آخر الحديث: فاستيقظت وأنا في المسجد الحرام، وجمع بعض النّاس بين

---

1288 - الحشر 7.

1289 الإسراء 60.

الأدلة فقال: الإسراء كان مرتين: أحدهما بالجسد والآخر بالروح، وأن الإسراء بالجسد كان من مكة إلى بيت المقدس، وهو الذي أنكرته قريش، وأن الإسراء بالروح كان إلى السموات السبع، ليلة فرضت الصلوات الخمس، ولقي الأنبياء في السموات (الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) صفة للمسجد الأقصى، والبركة حوله بوجهين: أحدهما: ما كان فيه وفي نواحيه من الأنبياء، والآخر: كثرة ما فيه من الزروع والأشجار التي خص الله بها الشام (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا) أي: لنري محمدا عليه الصلوة والسلام تلك الليلة من العجائب، فإنه رأى السموات والجنة والنار وسدرة المنتهى والملائكة والأنبياء، وكلمه الله تعالى حسبما ورد في أحاديث الإسراء، وهي في مصنفات الحديث 1290.

هذا هو مجمل الخلاف الذي حصل بين الأمة في أمر الإسراء، فالتفصيل الذي ذهبوا إليه ضمن جعل الإسراء على مرحلتين:

المرحلة الأولى: بالجسد والروح من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

المرحلة الثانية: بالروح من المسجد الأقصى إلى السماء.

ونحن نرى أنّ الإسراء كان إسراء تاما لعبده بما خصه من الاطلاع على آياته.

يجعل أمر الإسراء كامن في الطريقة التي تحقّق فيها، وهذا يخرج الإسراء من الحقيقية التي أرادها الله تعالى، وبطبيعة الحال هذا لا يمنع من كون الإسراء أمر خارق للعادة فطرحة على قوم:

. يتشبثون بالماضي.

. يفتعلون الأكاذيب.

. يلتمسون الخطأ في كل صغيرة وكبيرة.

. لا يخرج إدراكهم عما حولهم.

. ينكرون أي أمر يخالف معتقدتهم.

. يترّبصون بالرّسول عليه الصّلاة والسّلام الدوائر. ولهذا تجذرت عند

المشركين مفاهيم:

. الصد.

. المنع.

. التّكذيب.

فكان الإسراء احد هذه المواطن التي استند عليها المشركون في محاولة تفتيت المركز وجعل الأمور تسير كما كانت قبل البعثة النبوية، والاستناد لا نعني به التمثل والاستجابة لما يقوله الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بل هو تحويل ما يقوله عليه الصّلاة والسّلام إلى كلام يُحارب به عليه الصّلاة والسّلام وهذا ما وجدناه متجذرا في حادثة الإسراء، فعندما أبلغهم الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بما رآه في الإسراء نجدهم قد ادخلوه في سياق الدفاع عن معتقداتهم، إذ ذهبوا إلى تحليله وفق مدركاتهم البشرية الضيقة دون إحالته إلى الخالق، وهذا يُدخل الجميع مجال الامتحان:

كيف يتقبل المسلمون هذا الأمر؟

كيف يرفض المشركون هذا الأمر؟

هنا الطرح ينقصه التدبر والتعقل، فالقبول والرفض لا بدّ أن يبنى على إيمان حقيقي كي يتحقّق أحدهما، فالمسلمون تقبلوا هذا الأمر وفق معطيات

الدعوة وصاحب الدعوة، ذلك أن الإسراء حمل معه أموراً غيبية تستعرض  
الرّسالة السماوية في:

كيفيتها.

أصولها.

قواعدها.

ماهيتها.

مداراتها.

شمائلها.

ميزانها.

عاقبتها.

أما المشركون فإنهم يدورون حول الدعوة وصاحبها عليه الصّلاة  
والسّلام كي يحاولوا أن:

يفتتوا الدعوة.

سلب هبة الدعوة.

إفراغها من غيبيتها.

تسليمها للواقعية وفقاً لمقاييسهم.

عزلها عن محيطها الإيماني.

إنّ هذه المقابلة إن صح تسميتها بالمقابلة تفرغ حادثة الإسراء من  
السمة التي حدث فيها الاختلاف، وهو (هل كان الإسراء بجسد الرّسول



عليه الصلّاة والسّلام أم بروحه)، ذلك أن الأمر هو أكبر من ذلك فقبول المشركين أو رفضهم له لا يدخل الدعوة في متاهات أو إرهاصات، فلم يكن لهم شألاً من قريب أو من بعيد يجعل قبول أمر الإسراء يرتبط بهم، ولنستشهد بالحديث الذين يبين كيفية ما حصل حدثنا بشر بن موسى ثنا هُوذة بن خليفة ثنا عوف (ح) وحدثنا أبو مسلم الكشي ثنا عثمان بن الهيثم المؤذن عن عوف عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس: قال: لما أسرى بنبي الله صلّى الله عليه وسلم فأصبح بمكة جلس معتزلاً حزينا فأتى عليه عدو الله أبو جهل فقال كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ قال: (نعم) قال: (إنه أسري بي الليلة إلى بيت المقدس) قال: ثم أصبحت بين أظهرنا؟ قال: (نعم) فلم يره أنه يكذبه مخافة إلى دعا إليه قومه أن يجرده الحديث فقال: أرايت إن دعوت إليك قومك أتحدثهم بما حدثتني؟ قال: (نعم) فقال أبو جهل: يا بني كعب بن لؤي هلم فانتقصت المجالس حتى جلسوا إليهما فقال أبو جهل: حدث قومك بما حدثتني فقال صلّى الله عليه وسلم: (إنه أسري بي الليلة) فقال: إلى أين؟ قال: (إلى بيت المقدس) قالوا: ثم أصبحت بين أظهرنا؟ قال: (نعم) فمن مصفق ومن واضع يده على رأسه مستعجبا للكذب زعم وفي القوم من قد سافر إلى ذلك المسجد ورآه فقالوا: أتستطيع إن تنعت لنا المسجد؟ قال: (نعم) قال نبي الله صلّى الله عليه وسلم: (فنعته لهم حتى التبس علي بعض النعت قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو دار عقال: فجعلت أنعته وأنا أنظر إليه) فقال القوم: أما النعت والله فقد أصاب 1291.

إنّ استدراك المشركين للنعت فيه طلب واضح وإدراك واعى لحياة الرّسول عليه الصلّاة والسّلام فلو كانوا يعرفون انه سافر في يوم من الأيام إلى بيت المقدس لم يطلبوا منه هذا الطلب، ولهذا كما نعتقد أن تعجبهم بنبي

على ارض هشة، فلم يجدوا منفذا يدخلوا منه إلا بوصف بيت المقدس، فقولهم أما النعت فأصاب، ففيه استدراقات أخرى لم تدخل سياق الحديث المروي.

أما ما ذكره عليه الصلّاة والسّلام ممّا رآه في السّماء "فجملة هذه الأشياء في الإسراء رآها رسول الله - عليه الصلّاة والسّلام بجسمه عيانا دون أن يكون ذلك رؤيا أو تصويرا صور له، إذ لو كان ليلة الإسراء وما رأى فيها نوما دون اليقظة، لاستحال ذلك، لأنّ البشر قد يرون في المنام السماوات والملائكة والأنبياء والجنّة والنّار وما أشبه هذه الأشياء، فلو كان رؤية المصطفى - عليه الصلّاة والسّلام - ما وصف في ليلة الإسراء في النوم دون اليقظة، لكانت هذه حالة يستوي فيها معه البشر، إذ هم يرون في مناماتهم مثلها، واستحال فضله، ولم تكن تلك حالة معجزة يفضل بها على غيره، ضد قول من أبطل هذه الأخبار، وأنكر قدرة الله جلّ وعلا وإمضاء حكمه لما يجب كما يجب، جل ربّنا وتعالى عن مثل هذا وأشباهه"1292.

إن العهد المكي كان حافلا بالآيات القرآنية المتنوعة التي تطرح الفكر الغيبي وتجعله البداية القولية للدعوة، وهذا لا يجعل الإسراء ضمن إطار واحد خاص دون الآيات التي صورت الآخرة في صور تبعث على الخوف والرهبنة لكنها في الوقت نفسه صور غيبية غير متحققة الحصول ضمن الواقع الإنساني، إذ يقول تعالى: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ فَلَا أُقْسِمُ بِالْجَنَّةِ الْجُودِ الْكُنَّسِ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي فَوْةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ

1292 - النبوة والأنبياء في القرآن والسنة، ج 1، ص 5.

مَكِينٍ مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ وَمَا هُوَ  
عَلَى الْعَيْبِ بَصِينٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيُّنَ تَذَهَبُونَ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ  
لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ  
الْعَالَمِينَ {1293}

هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج في كل مقطع منهما تقرير  
حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة:

الأولى حقيقة القيامة، وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل كامل،  
يشمل الشمس والنجوم والجبال والبحار، والأرض والسماء، والأنعام  
والوحوش، كما يشمل بني الإنسان.

والثانية حقيقة الوحي، وما يتعلق بها من صفة الملك الذي يحمله،  
وصفة النبي الذي يتلقاه، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي معه، ومع  
المشيئة الكبرى التي فطرتهم ونزلت لهم الوحي.

والإيقاع العام للسورة بحركة جائحة. تنطلق من عقابها، فتقلب كل  
شيء، وتنتثر كل شيء؛ وتهيج الساكن وترزع الآمن؛ وتذهب بكل مألوف  
وتبدل كل معهود؛ وتهز النفس البشرية هزا عنيفا طويلا، يخلعها من كل ما  
اعتادت أن تسكن إليه، وتتشبث به، فإذا هي في عاصفة الهول المدمر  
الجارف ريشة لا وزن لها ولا قرار. ولا ملاذ لها ولا ملجأ إلا في حمى الواحد  
القهار، الذي له وحده البقاء والدوام، وعنده وحده القرار  
والاطمئنان 1294.

هذه السورة الكريمة قائمة على أمور غيبية غير متحققّة دنيويا وان  
كانت أدواتها من الدنيا إلا أن سمة التحقق غير موجودة إلا في الإخبار

---

1293 - التكوير 1 - 29

1294 - في ظلال القرآن، ج 7، ص 467.

الغبي الذي أخبر به القرآن الكريم، فهذا الوصف المرعب الذي يزلزل القلوب لا يمكن إلا أن يترك أثرا في النفس الإنسانية التي تتفاعل مع الحشد البلاغي والإعجازي للصور المتداعية، ولو أدخلنا هذه السورة المكية بمقارئة مع حادثة الإسراء والمعراج فهل يمكن أن يتحقق فيها:

الاستغراب.

الرفض.

وضع اليد على الرؤوس.

الانبهار.

في اعتقادنا سيحدث ما حدث عند سماع المشركين لحادثة الإسراء، فهذا الدوي من الانفعالات والمغالطات يحدث في كل حادثة، وفي كل أمر يدعو إلى:

التأمل.

الإدراك.

إعادة الإنتاج.

عليه يمكن القول إنّ القرآن الكريم في كل آياته يعرض قضايا بطريقتة فنية تستند على التصور الفني، فالتصوير الفني لا يغير من طبيعة المعنى في ذاته، فالمعنى باق كما هو ولكن التغيير يحصل في طريقة عرضه وكيفية تقديمه. والتصوير الفني يفرض علينا نوعا من الانتباه للمعنى الذي يعرضه وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى ونتأثر به، ويمكن القول أن التصوير الفني هو إقناع المتلقي، ففيه ظاهرة الإبانة والتوضيح، ويعتمد على لون من الحجاج والجدل ويحرص على إثارة الانفعالات في النفوس على

النحو الذي يؤثر في المتلقي ويستميله إلى القيم الدينية السامية التي يعبر عنها القرآن الكريم، ذلك أن القرآن الكريم في خطاب الجاهليين تهيؤاً وترغيباً، فيلجأ إلى طريقة خاصة تعتمد على المبالغة في الوصف اعتماداً ملحوظاً، وأصبح قوله تعالى: { سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ } 1295، من قبيل الاستعارة التي تهدف إلى المبالغة.

إن تعدد الآراء في الوقوف على أمر الإسراء بالقول:

كان بالجسد والروح.

كان بالروح فقط.

ولكن ينبغي أن يعلم الفرق بين أن يقال:

كان الإسراء مناماً.

. وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده وبينهما فرق عظيم، وعائشة ومعاوية لم يقلوا كان مناماً وإنما قالوا أسري بروحه ولم يفقد جسده وفرق بين الأمرين، فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم في الصور المحسوسة فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء أو ذهب به إلى مكة وأقطار الأرض وروحه لم تصعد ولم تذهب وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال، والذين قالوا عرج برسول الله عليه الصلاة والسلام طائفتان: طائفة قالت: عرج بروحه وبدنه، وطائفة قالت: عرج بروحه ولم يفقد بدنه، وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناماً وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسري بها وعرج بها حقيقة وباشرت من جنس ما تباشر به بعد المفارقة، وكان حالها في ذلك كحالها بعد المفارقة في صعودها إلى السموات سماء سماء حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة فتقف بين يدي الله سبحانه وتعالى فيأمرها بما يشاء ثم تنزل إلى

الأرض، فالذي كان لرسول الله عليه الصلّاة والسّلام ليلة الإسراء أكمل ممّا يحصل للروح عند المفارقة، ومعلوم أن هذا الأمر فوق ما يراه النائم".

فالإسراء ما كان مناما قطعاً لأنه لو كان مناما لما كذبه المشركون فإن من النَّاس من يرى أنه صعد إلى السّماء أو قطع مسافات شاسعة لا يتصورها العقل، وليس المنام معجزة خارقة للعادة، والروح في المنام لا تفارق الجسم، كذلك لو كان الإسراء مناما لصرح به رسول الله عليه الصلّاة والسّلام 1296.

أمّا الكلام عن لفظ الرؤية الوارد في النص القرآني الذي يحمل النص على أن يكون الإسراء والمعراج بالجسد والروح فهو باب كبير يمكن الأخذ منه وجعل الرؤية العينية هي المتحقّقة في الإسراء فلا بدّيل لها إلا أن تكون عينية في قوله تعالى: {لنريه من آياتنا} الآية، وقوله: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} 1297. وما زعمه بعض أهل العلم من أن الرؤيا لا تطلق بهذا اللفظ لغة إلا على رؤيا المنام، مردود. بل التحقّق: أن لفظ الرؤيا يطلق في لغة العرب على رؤية العين يقظة أيضاً؛ ومنه قول الراعي وهو عربيّ قح:

فكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشّر نفسا كان قبل يلومها

فإنه يعني رؤية صائد بعينه. ومنه أيضاً قول أبي الطيب:

ورؤياك أحلى في العيون من الغمض

قال صاحب اللسان.

---

1296 - سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، محمد رشيد رضا، ج 1، ص 171

1297 - النجم 17، 18.

وزعم بعض أهل العلم: أن المراد بالرؤيا في قوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا  
الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ) رؤيا منام، وأنها هي المذكورة في قوله تعالى: (لَقَدْ صَدَقَ  
اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ) والحق الأول.

وركوبه عليه الصلّاة والسّلام على البراق يدل على أنّ الإسراء بجسمه؛  
لأنّ الرّوح ليس من شأنه الركوب على الدواب كما هو معروف، وعلى كل  
حال:

فقد تواترت الأحاديث الصحيحة عنه: أنّه أسري به من المسجد  
الحرام إلى المسجد الأقصى، وأنه عرج به من المسجد الأقصى حتى جاوز  
السموات السبع 1298.

أمّا ما يرد حول وجود ذكر المسجد الأقصى ما الفائدة منه، فالبعض  
ذهب إلى القول إنّ الرّسول عليه الصلّاة والسّلام لم ينزل عن البراق ولم  
يصلي في المسجد الأقصى ولو صلّى في المسجد الأقصى لو جبت أن تكون  
الصلّاة إلى بيت المقدس 1299. ونحن نقول إن هذا الكلام الافتراضي يخرج  
الإسراء من القيمة الإيمانية التي أرادها الله تعالى أن تكون للمسلمين، أما  
الصلّاة في بيت المقدس وعدمها لا علاقة لها بالتشريع الذي سنه الله تعالى  
للناس جميعاً، فبيت المقدس كما نعتقد لا يدخل حالة التغييب في سياق  
دعوة رسول الله محمد عليه الصلّاة والسّلام فقد كان ولم يزل أحد المرتكزات  
الدينية التي تدول حولها القضايا المهمة والرئيسة وان لم يكن قبلة للمسلمين،  
فبوصفه أحد أركان الإسراء يعطي للمسلمين مكائته التي يريدّها الله تبارك  
وتعالى، فقد كان في كثير من الأحيان مركزاً من مراكز دعوات الأنبياء صلّى  
الله عليهم وسلّم، وهذا أيضاً يمنح دعوة النبي محمد عليه الصلّاة والسّلام

---

1298 - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج 18، ص 3.

1299 - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج 3، ص 441

بعدا أعمق في كونها امتدادا للنسق الدعوي الذي أراده الله تعالى، فلا انقطاع بل تواصل، إذ يقول تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ} 1300.

### المعراج:

ظهرت دعوة النبي محمد عليه الصلوة والسلام في وقت اتسم العقل العربي بالنضج الفكري، فالبلاغة والفصاحة أخذت جانبا كبيرا من هذا النضج، فكان الشعراء يتبارون فيما بينهم ويحتكمون ليصلوا في النهاية إلى من يكون هو المتقدم على غيره، إذ وصل الأمر بالتحكيم أن تكون إحدى النساء كأم جندب حكما بين الشعراء، فتحكم بين زوجها امرئ القيس والشاعر علقمة الفحل، ويصل الأمر بها إلى أن تفضل علقمة الفحل على زوجها، هذا التمايز المعرفي يطرحهم بشكل مغاير لما يعرف عن سكان الصحراء، فالوعي الجمعي لا يمنحهم إلا أنهم قوم لا يعرفون إلا بعض العلوم البسيطة التي تمنحهم الاستمرار مع الحياة، فالبحث عن الكأ والماء هو هاجسهم الوحيد، فضلا عن معرفة مواقع النجوم الذي يكون على أساسه الانتقال من مكان إلى آخر أو السير إلى أماكن بعيدة من أجل مقصد من مقاصد الدنيا، والتساؤلات التي تطرح في هذا المقام وبطبيعة الحال يكون معراج رسول الله محمد عليه الصلوة والسلام هو محورها:

. ألا تتقبل هذه العقول الناضجة فكريا المعراج؟



. ألا يكون فيه ارتباط مع عبادتهم فهم يعرفون الله؟ يقول تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالدِّينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} 1301.

. ألا يدخلوه ضمن نسقهم المعرفي الغيبي بقولهم إن لكل شاعر شيطان، قال  
الراجز

إِنِّي وَكُلُّ شَاعِرٍ مِنَ الْبَشَرِ... شَيْطَانُهُ أُنْثَى وَشَيْطَانِي ذَكَرٌ

مَا رَأَيْتُ شَاعِرًا إِلَّا اسْتَتَرَ... فَعَلَّ نَجْوَمَ اللَّيْلِ عَائِنَ الْقَمَرِ 1302

فأدخلوا ذلك على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وقالوا عنه بأنه شاعر؟ إذ يقول تعالى: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ أَمْ يُقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ} 1303.

هذا الطرح الجاهلي فيه انعكاس للثقافة العامة السائدة في ذلك الوقت، فرد دعوة الله كان مستندا على هذه الثقافة التي وجدت منافذا لها كي تحاول الدفاع عن معتقداتها ومن بين ذلك طرح قضية الغيب.

إن المعجم اللغوي في هذا الأمر يجعل مفردة (الغيب) هي المتقدمة على باقي المفردات بوصفها المرتكز الذي قام عليه:

. المعراج.

---

1301 - الزمر 3.

1302 - الحماسة البصرية، ج 1، ص 35.

1303 - الطور 29 - 31.

. التّكذيب .

فالأمر الغيبي لم يجد له مكانا في قلوب المشركين إلا فيما يعتقدون، ذلك أن إدراكهم العقلي لا يحيل إلى خرق سنن الأرض المتوافقة عندهم، فالخروج منها بأي صورة لا يمكن أن يتحقّق وفق مستواهم العقلي، كما أنّ أمر المعراج لا يخضع إلى المستوى العقلي أيا كان فهو خارق للعادة غير مرتبط بأي علم من العلوم أو حتى بأي شكل من أشكال المعرفة التي يمكن أن تتحقّق في ذلك الوقت.

عليه يكون المعراج أمرا خارقا للعادة، فيه عرض لعظمة الله تعالى وقدرته. ذلك أن طرح أمر المعراج يخلق حالة من التصدي الفكري للأمر من قبل المشركين، فقبوله ورفضه هو ميدان الدعوة، فدعوات الرّسُل صلّى الله عليهم وسلّم جميعا اتسم ميدانها بوجود طرفي نقيض كل واحد يبغي:

. الانتصار .

. الإفحام .

. الدفاع .

. الإبطال .

. الاستظهار .

هذا الميدان لا يسلب من الدعوة شيء بل يعطيها دافعا وحافزا جديدا، فهو يلملم أطراف الحديث، ويدفعه في ناحية جديدة يكون من خلالها الوصول إلى الحقيقة المبتغاة، إن سماع أمر المعراج يشكل حالة من التيه الفكري للمشركين ذلك أنّ الانغماس في الشرك يجعل الأمور كلها تجري وفق سياق المادة، فتهشيم الأصنام الشاخصة أمامهم لا يكفي، بل يحتاج إلى عملية تنوير تكفل لهم إيمانا جديدا وقراءة جديدة لكل ما يُسمع

عن دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فدعوته عليه الصلاة والسلام  
طرحت أمورا غيبية يكون من خلالها الإخبار عن:

. ما كان .

. ما سيكون .

فضلا عن ذلك بيان:

. عظمة الله تعالى .

. دلائل قدرته .

هذه الصورة الغيبية رافقت الدعوة الإسلامية ومنحتها بعدا عميقا  
وتصورا بعيدا يجعل أفقها لا يدرك حدوده للناظر، والتأمل فيها يضفي على  
العبادة حلاوة وطمأنينة وسكينة.

إن دعوة الله تعالى على يد رسوله الكريم محمد عليه الصلاة والسلام  
فيها طرح بعيد، فلم تكن دعوة ظرفية مثل دعوة شعيب ولوط عليهما  
الصلاة والسلام، بل هي دعوة لكل زمان ومكان، يقول الرسول الكريم عن  
القرآن الكريم: "كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ونبا ما بعدكم وحكم ما بينكم  
هو الفصل ليس بالهزل هو الذي لا تزيع به الأهواء ولا يشبع منه العلماء  
ولا يخلق عن كثرة رد ولا تنقضي عجائبه"1304.

والتساؤلات التي يمكن أن تطرحها عن الغيب منها:

. ما علاقة الغيب بالعبادة؟

. ألا يكون الغيب حافزا للعبادة؟

---

1304 - المصنف في الأحاديث والآثار، ج 6، ص 125.

. ألا يكون الغيب جزءا من العبادة؟

. ألا يكون الغيب مدخلا للإيمان؟

. ألا يكون الغيب بابا من أبواب التفكير؟

. ألا يكون أمر الغيب مؤديا إلى التسليم بالوحدانية؟

إنَّ الله - - هو علام الغيوب فلا يعلم أحد الغيب، بل الله - عز وجل - هو الواحد الأحد وهو العالم بغيب السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن، قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} {1305}، وقال - عز وجل - في سورة النمل {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} {1306}، وقال - عز وجل - {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} {1307}، وكذلك في قوله عز وجل: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} {1308}، فدللت هذه الآيات أن علم الغيب مختص بالله عز وجل، والمقصود به علم الغيب المستقبلي؛ يعني ما سيكون في الأرض أو في السماء هذا لا يعلمه على

---

1305 - الأنعام 59.

1306 - النمل 65.

1307 - الجن 26 - 28.

1308 - لقمان 34.

اليقين والحقيقة إلا الله - عز وجل - ، وإنما الناس يَحْرُصُونَ في ذلك فواجبٌ  
اعتقاد أن الله - عز وجل - يعلم الغيب وحده وتقدست أسماءه .

ومن ادَّعى شيئاً من علم الغيب فإنما هو من الشياطين أو من إخوان  
الشياطين كما قال - عز وجل - { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ  
اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ  
وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ  
إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } 1309، فذكر أن الجني يستمتع بالإنسي بعبادته له  
وتقريبه له، وأنَّ الإنس يستمتع بالجني بما يخبره من المعيبات وما يكون .

هذا دلَّت عليه أيضا عدد من الأحاديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ، وكانت الكهانة وهي ادِّعاء ما يُسْتَقْبَلُ من الأمور من الغيبات، أو  
العِرَافَةُ كانت من الأمور الشائعة في زمنه عليه الصَّلَاة والسَّلَام وقبل ذلك  
من أمور الجاهلية .

وسبب ادِّعاء علم الغيب في النَّاسِ من قبيل الكُهَّانِ أو العَرَّافِينَ أو  
المَجِّمِينَ أو من شابههم هو أنَّ الشياطين تُمِدُّهُمْ بالمعلومات .

والشياطين قد تُمِدُّهُمْ بمعلوماتٍ كاذبة، وقد تُمِدُّهُمْ بمعلوماتٍ فيها  
صدق، وقد يكذب الكاهن أو العراف أو المنجم مع ما أتاه من المعلومات  
مائة كذبة أو أكثر .

وما يَصْدُقُونَ فيه من الإخبار بالمعلومات سببه أن الله - عز وجل -  
إذا أوحى بالأمر في السماء وأمر ملائكته به مما يُنْفِذُهُ في خلقه - لأنَّ  
الملائكة مُنْقِذُونَ لأوامر الله عز وجل، فإنَّ الشياطين أعطاهم الله عز وجل

القدرة على الاستماع وعلى الصعود وأن يَعْلُوَ بعضهم بعضا فيما أَفَدَرَهُمُ اللهُ عليه.

فربّما استمعوا إلى بعض ما يوحيه الله عزّ وجلّ لملائكته وما يُلقِيه الملائكة بعضهم إلى بعض.

ولأجل هذا مُلِئَتِ السَّمَاءُ بالشهب وحُرِسَتْ بالنجوم التي تقتل من يسترق السمع، كما قال - عزّ وجلّ: {إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ} 1310، وقال عزّ وجلّ: {فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} 1311.

فجعل الله - عزّ وجلّ - في السَّمَاءِ رُجُومًا للشياطين وهي هذه الشهب 1312.

### مفهوم الغيب في الإسلام:

الغيب في الإسلام هو: كل ما غاب عن حس الإنسان سواء بقي سرّاً محفوظاً يعجز الإنسان عن إدراكه بحيث لا يعلمه إلا اللطيف الخبير، أو كان ممّا يعلمه الإنسان بالخبر اليقين عن الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم، وقد يعلم الإنسان بعض الغيب بتحليله الفكري أو نحو ذلك من الوسائل. (وذلك في بعض ما يمكن الوصول إليه بالوسائل المساعدة على توسيع مدى الحواس مثل المناظير وغيرها من الأجهزة وهذا ممّا يدخل في الغيب النسبي كما سنرى) 1313.

عليه يكون الغيب على ثلاثة أقسام:

---

1310 - الحجر 18.

1311 - الصفات 10.

1312 - شرح العقيدة الطحاوية، ج 1، ص 702.

1313 - العقيدة، ج 1، ص 40.

1 . الغيب المطلق: وهو الذي ليس للإنسان سبيل إلى العلم به عبر وسائل إدراكه أو حواسه وهو نوعان:

النوع الأول: ما أعلم الله تعالى الناس به أو ببعضه عن طريق الوحي إلى الرسل الذين يبلغونه إلى الناس ومن أمثله ذلك الشياطين والجن وما جاء من أخبارهم نحو قوله تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} 1314.

النوع الثاني: ما استأثر الله تعالى بعلمه فلم يطلع عليه أحد من خلقه لا نبي مرسل ولا ملك مقرب وذلك هو المقصود بقوله تعالى: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ) ومن أمثله العلم بوقت قيام الساعة، والموت من حيث زمانه ومكانه وسببه، وبعض ما سمى الله تعالى به نفسه. قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَبِيرٌ} 1315 وقال عليه الصلاة والسلام في بعض دعائه: "اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك" 1316.

2 . الغيب المقيد النسبي: وهو ما كان غائبًا عن البعض مثل الحوادث التاريخية. فإنها غيب بالنسبة لمن لم يعلم بها، لذلك قال الله تعالى للنبي عليه الصلاة والسلام بعد أن ذكر قصة آل عمران: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ

---

1314 - الجن 1.

1315 - لقمان 34.

1316 - مسند الإمام أحمد، ج 9 ص 433.

إِلَيْكَ وَمَا كُنْتُ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَفْئَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتُ لَدَيْهِمْ  
إِذْ يَخْتَصِمُونَ} 1317.

3. الغيب المقيد غير النسبي: وهو كل ما غاب عن الحس بسبب بعد  
الزمان (المستقبل) أو المكان أو غير ذلك حتى ينكشف ذلك الحجاب  
الزماني أو المكاني كما في قوله تعالى: {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ  
عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا  
يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} 1318 وذلك في موت سيدنا  
سليمان عليه الصلاة والسلام 1319.

إن التعرف على الغيب وعلى أنواعه يجعلنا ندرك أن المعراج هو أمر  
عظيم أرادته الله تعالى كي يكون مدخلا من مداخل التعرف على عظمته  
وقدرته، فبه يكون:

. التفكير.

. الاستبصار.

. الاتعاض.

وهذا لا يكون إلا للمؤمنين، أما المشركون والكافرون فإنهم يعرضونه

على:

. ثقافتهم.

. إدراكهم.

---

1317 - آل عمران 44.

1318 - سبأ 14.

1319 - العقيدة، ج 1، ص 44.



. وعيهم.

. أسلافهم.

. مصلحتهم.

فالنهاية تكون مفتوحة ذلك أن كل ما عُرض عليه يكون معه، من ذلك أن عبادتهم يحيلونها على الأسلاف، إذ يقول تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} {1320}، وقوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ} {1321}، كذلك رفضهم لرسول الله محمد عليه الصلاة والسلام بدعوى انه كباقي الناس ليس فيه ما يميزهم عنهم، يقول تعالى: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا} {1322}، هذه الإحالات المختلفة توحى بعجزهم عن استيعاب الدعوة والوقوف على جوانب الإعجاز فيها، ذلك أن:

. التكذيب.

. الصد.

هو قاموس المشركين فلم يفلحوا في المجابهة، وطرح أسئلة تكون مقابلة للمعراج، فالارتقاء للسماء، والإخبار عن مشاهدات مختلفة، والتبليغ بأوامر واجبة التنفيذ لم تجد لها صدى في التفكير أو حتى التفكير، كما لم تسعفهم

---

1320 - المائة 104.

1321 - لقمان 21.

1322 - الفرقان 7.

ذاكرة الجمعية في تحليل ما يسمعون ومن ثم رده إلى المنزلة التي يجب أن يكون فيها.

إنّ الإحالة لا تكون وفق تصور آني أو هوائي أو حتى لمجرد التوافق، بل يجد أن تكون وفق منطلق الانصهار والدخول في قالب واحد يكون من خلاله الإعلان عن الإيمان الكامل بالله تعالى وبما جاء به رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، هذا الإيمان يدخل تحته كل أنواع الغيب سواء أكان إيمانا مطلقا أم إيمانا نسبيا مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 1323.

يبدأ التسلسل الإعجازي في عرض المعراج بالرؤية التي أصبحت مدخلا مهما للوقوف على تفصيلات المعراج، إذ يقول تعالى: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ أَفَتُنْمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَآغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} 1324

هذه الآيات الكريمة استعرضت المعراج وفق ثلاث رؤى وهي:

. رأى.

. رآه.

. رأى.

أما الفؤاد ففؤاد من؟

---

1323 - البقرة 3 - 5.

1324 - النجم 11 - 18.

هنا السؤال لا يجد له جوابا إلا القول بأنه فؤاد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ذلك أن السياقات المختلفة في هذه المعجزة تدل على أن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام بأنه المقصود في المعراج، وذلك من خلال:

. قوله تعالى: {إلى عبده}.

. قوله تعالى: {وهو بالأفق الأعلى}.

. قوله تعالى: {ما ضل صاحبكم}.

هذه السياقات الثلاثة تشير صراحة إلى النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، فضلا عن ذلك أن الإسراء لا يكتمل إلا بالمعراج، وهذه نقطة يجب الإشارة إليها، ذلك أن المعجزة كما نعتقد أشبه ما تكون لنا بحركة دائرية لها بداية ونهاية، إذ كانت بدايتها من المسجد الحرام ونهايتها بالمسجد الحرام، وهذا يعطيها بعدا:

. عقائديا.

. تعبديا.

. إيمانيا.

أما تعريف المعراج كما هو مشهور ضمن السياق الإعجازي المكمل للإسراء فهو "أنه عُرج به صلى الله عليه وآله وسلم من الأرض إلى السماء إلى السماء السابعة إلى أن بلغ مكانا سمع فيه صريف الأقلام، أقلام القضاء والقدر، القلم إذا كُتب به سُمع له صوت فهو وصل إلى هذا الحد إلى سدرة المنتهى التي ينتهي إليها كل شيء صعد إلى الأرض مكان ما بلغه فيما نعلم أحدٌ من البشر.

. وكان العروج وهو في مكة قبل الهجرة بثلاث سنوات أُسري به من مكة إلى المسجد الأقصى واجتمع بالأنبياء هناك "1325.

أما الرؤيا ففيها مسائل منها:

المسألة الأولى: كيف يرى الله أو كيف يرى جبريل مع أنه ألطف من الهوى والهواء لا يرى، وكذلك يقول الوهم والخيال إن رأى ربّه رأى في جهة ومكان وعلى هيئة والكل ينافي كون المرئي إلهًا، ولو رأى جبريل عليه السلام مع أنه صار على صورة دحية أو غيره فقد انقلبت حقيقته ولو جاز ذلك لارتفع الأمان عن المرئيات، فنقول رؤية الله تعالى ورؤية جبريل عليه السلام على ما رآه محمد عليه الصلّاة والسّلام جائزة عند من له قلب بالفؤاد لا ينكر ذلك، وإن كانت النفس المتوهمة والمتخيلة تنكره.

المسألة الثانية: ما معنى (مَا كَذَبَ)؟ نقول فيه وجوه: الوجه الأول: ما قاله الزمخشري وهو أن قلبه لم يكذب وما قال إن ما رآه بصرك ليس بصحيح، ولو قال فؤاده ذلك لكان كاذبا فيما قاله وهو قريب ممّا قاله المبرد حيث قال: معناه صدق الفؤاد، فيما رأى، (رأى) شيئا فصدق فيه الثاني: قرئ (مَا كَذَبَ الفؤاد) بالتشديد ومعناه ما قال إن المرئي خيال لا حقيقة له الثالث: هو أن هذا مقرر لما ذكرنا من أن محمّدا صلّى الله عليه وسلّم، لما رأى جبريل عليه السلام خلق الله له علما ضروريا علم أنه ليس بخيال وليس هو على ما ذكرنا قصد الحقّ، وتقديره ما جوّز أن يكون كاذبا وفي الوقوع وإرادة نفي الجواز كثير قال الله تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيَّ اللَّهُ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} 1326، وقال تعالى: {لَا

---

1325 - شرح العقيدة السفارينية، ج 1، ص 443.

تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ {1327 وقال تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَّرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبَّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} {1328 والكل لنفي الجواز بخلاف قوله تعالى: {لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} {1329 و{لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} {1330، و{لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} {1331 فإنه لنفي الوقوع.

المسألة الثالثة: الرائي في قوله (ما رأى) هو الفؤاد أو البصر أو غيرهما؟ نقول فيه وجوه الأول: الفؤاد كأنه تعالى قال: ما كذب الفؤاد ما رآه الفؤاد أي لم يقل إنه جني أو شيطان بل تيقن أن ما رآه بفؤاده صدق صحيح الثاني: البصر أي ما كذب الفؤاد ما رآه البصر، ولم يقل إن ما رآه البصر خيال الثالث: ما كذب الفؤاد ما رأى محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا على قولنا الفؤاد للجنس ظاهر أي القلوب تشهد بصحة ما رآه محمد عليه الصلاة والسلام (من الرؤيا) وإن كانت الأوهام لا تعترف بها 1332.

وحديث الإسراء والمعراج شكل حيزا معرفيا في عرض دقائق الأمور التي صاحبت هذه المعجزة، فضلا عن ذلك حصل التبليغ بالصلاة، ذلك أن أي نص أو سياق لا يمنح التفصيل بالصلاة إلا الحديث الشريف الذي عرض تلك المعجزة العجيبة ومنحها الاندماج الكلي مع الآيات الكريمة التي مثلت الأرض الصلبة لهذه المعجزة ولهذا استعنا بالنص الصحيح كاملا، حَدَّثَنَا هُدْبَةُ بْنُ خَالِدٍ حَدَّثَنَا هَمَّامُ بْنُ يَحْيَى حَدَّثَنَا قَتَادَةُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ

1327 - الأنعام 103.

1328 - النمل 93.

1329 - يوسف 56.

1330 - الكهف 30.

1331 - النساء 48.

1332 - تفسير الرازي، ج 14، ص 403.

عمالك بن صعصعة رضي الله عنهما أن نبي الله عليه الصلاة والسلام  
 حدثهم عن ليلة أسري به بينما أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجعا  
 إذ أتاني آت فقد قال وسمعتُهُ يقول فشق ما بين هذه إلى هذه فقلت  
 للجارود وهو إلى جنبي ما يعني به قال من ثغرة نحره إلى شعرته وسمعتُهُ يقول  
 من قصه إلى شعرته فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً  
 فغسل قلبي ثم حشيت ثم أعيدت ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض  
 فقال له الجارود هو البراق يا أبا حمزة قال أنس نعم يضع خطوه عند أقصى  
 طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل  
 من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم  
 قيل مرحباً به فنعمة المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال  
 هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالإبن  
 الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح قيل من  
 هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل  
 مرحباً به فنعمة المجيء جاء ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا  
 الحالة قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا ثم قال مرحباً بالأخ  
 الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح قيل من هذا  
 قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحباً  
 به فنعمة المجيء جاء ففتح فلما خلصت إذا يوسف قال هذا يوسف فسلم  
 عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد  
 بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك  
 قال محمد قيل أوقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحباً به فنعمة المجيء جاء  
 ففتح فلما خلصت إلى إدريس قال هذا إدريس فسلم عليه فسلمت عليه  
 فرد ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء  
 الخامسة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل  
 وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحباً به فنعمة المجيء جاء فلما خلصت فإذا

هَارُونَ قَالَ هَذَا هَارُونُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ مَرْحَبًا بِالْأَخِ  
الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ  
مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ مَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ  
قَالَ مَرْحَبًا بِهِ فَنَعِمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا مُوسَى قَالَ هَذَا مُوسَى  
فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ  
فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى قِيلَ لَهُ مَا يُبْكِيكَ قَالَ أَنْبِئِي لَأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي  
يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ  
السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ قِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ  
قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ قَالَ مَرْحَبًا بِهِ فَنَعِمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَلَمَّا خَلَصْتُ  
فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ هَذَا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ قَالَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ قَالَ  
مَرْحَبًا بِالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ثُمَّ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى فَإِذَا نَبَقُهَا  
مِثْلُ قِلَالٍ هَجَرَ وَإِذَا وَرَفُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفَيْلَةِ قَالَ هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى وَإِذَا  
أَرْبَعَةُ أَهْمَارٍ تَهْرَانٍ بَاطِنَانِ وَتَهْرَانٍ ظَاهِرَانِ فَقُلْتُ مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيلُ قَالَ أَمَّا  
الْبَاطِنَانِ فَتَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنَّبِيلُ وَالْفُرَاتُ ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ  
الْمَعْمُورُ ثُمَّ أُتِيْتُ بِإِنَاءٍ مِنْ حَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ  
فَقَالَ هِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ  
صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ بِمَا أُمِرْتُ قَالَ أُمِرْتُ  
بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ قَالَ إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ وَإِنِّي  
وَاللَّهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ فَارْجِعْ إِلَى  
رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى  
فَقَالَ مِثْلَهُ فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ فَرَجَعْتُ  
فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ  
صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلَهُ فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ  
فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ بِمِ أُمِرْتُ قُلْتُ أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ قَالَ  
إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ

وَعَاجَزْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَاجِزَةِ فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ  
قَالَ سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّىٰ اسْتَحْيَيْتُ وَلَكِنِّي أَرْضَىٰ وَأُسَلِّمُ قَالَ فَلَمَّا جَاوَزْتَ نَادَىٰ  
مُنَادٍ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَحَقَّقْتُ عَنْ عِبَادِي "1333.

في قصة الإسراء والمعراج نلمح أواصر القرى بين الأنبياء كافة. وهذا  
المعنى من أصول الإسلام، إذ يقول تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ  
وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ  
وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} 1334. والتحيات المتبادلة  
بين النبي عليه الصلاة والسلام وإخوته السابقين، توثق هذه الأصرة. ففي  
كل سماء أحل الله تعالى فيها أحد رسله، كان النبي يستقبل فيها بهذه  
الكلمة: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح! فلا خلاف بين الأنبياء صلّى  
الله عليهم وسلّم، فقد جاءوا لبناء الناس وفق أسس وقواعد أرادها الله تعالى.  
أما النبي محمد عليه الصلاة والسلام فقد أرسله الله تعالى لتكملة البناء الذي  
تعهد به من سبقوه، ومنع الزلازل من تصديعه. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ -  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ "مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا  
فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ فَجَعَلَ النَّاسَ يُطِيفُونَ بِهِ يَقُولُونَ مَا رَأَيْنَا بُنْيَانًا أَحْسَنَ مِنْ  
هَذَا إِلَّا هَذِهِ اللَّيْنَةُ. فَكُنْتُ أَنَا تِلْكَ اللَّيْنَةُ" 1335.

عليه يكون الإسراء والمعراج من المعجزات التي تحققت في دعوة رسول  
الله محمد صلّى الله عليه وسلّم، فكانت عنوانا لعظمته ولعظمة الدعوة التي  
بشر بها، فكل التفاصيل التي حدثت في الإسراء والمعراج هي معجزة لا  
يتحقق لأي بشر منها مهما كانت منزلته أو عظمته، ذلك أن ظهور  
المعجزات لا يكون إلا وفق إرادة إلهية، فمن خلالها يتحقق التأييد الرباني

---

1333 - صحيح البخاري، ج 13، ص 223.

1334 - البقرة 285.

1335 - صحيح مسلم، ج 15، ص 201.



للنبي المرسل فتكون دعوته مثارا للتساؤلات المختلفة التي تفضي في كثير من الأحيان إلى الإيمان به وبمعجزته وبالله تعالى.

### الرؤيا:

تعد الرؤيا المحور المهم في معجزة الرسول الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام (الإسراء والمعراج) هذه المعجزة أهدت العقول وملمت الفكر المتشظي وأوقفته على السلم الموصل إلى الدار الخالدة التي أرادها الله تعالى لعباده المتقين، مصداقا لقوله تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} 1336، فالرؤيا أيا كانت كما نعتقد بصرية أم قلبية، هي موجهة للفكر البشري نحو إدراك الأفاق المختلفة، ذلك أن الاستيعاب البشري يقف دائما على المحك المعرفي المتواتر القابع في زاوية محدودة، فلا نجد له حركة واضحة أيا كانت هذه الحركة، وهذا يدفعه إلى التستر خلف جدران كثيرة، تكون هي الحجج المتكررة التي لا تنفك عن سياق الخطاب الذي ارتهن بالمشركين طيلة فترة الرسالة الإسلامية.

لم ترد لفظة (الرؤيا) حصرا بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام بل كانت حاضرة في الدعوات السابقة بسبيل أسبغ على الدعوة طريقة من طرق التبليغ الإلهي، من ذلك قوله تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ} 1337 فمعنى {قد صدقت الرؤيا} قد فعلت

---

1336 - القصص 83.

1337 - الصفات 102 - 107.

مثل صورة ما رأيت في النوم أنك تفعله. وهذا ثناء من الله تعالى على إبراهيم بمبادرته لامتنال الأمر ولم يتأخر ولا سأل من الله نسخ ذلك.

والمراد: أنه صدق ما رآه إلى حدِّ إمرار السكين على رقبة ابنه، فلما ناداه جبريل بالآ يذبحه كان ذلك الخطابُ نسخاً لما في الرؤيا من إيقاع الذبح، وذلك جاء من قِبَلِ الله لا من تقصير إبراهيم، فإبراهيم صدَّق الرؤيا إلى أن نهاه الله عن إكمال مِثالها، فأطلق على تصديقه أكثرها أنه صدَّقها، وجُعِلَ ذبح الكبش تأويلاً لذبح الولد الواقع في الرؤيا 1338.

فرؤيا إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام من الرؤى الصادقة التي حكى عنها، فقد كانت مثالا للتساؤلات المتعددة التي طرحت أمراً مغايراً ما قد يختلف البشر في تطبيقه، فقتل الولد ليس بالأمر الهين، وتنفيذ مثل هذا الأمر كما نعتقد يتمثل فيه رأس الهرم التعبدية، ففيه درس واضح للناس كافة كيف تكون العبادة الحقّة لله تعالى، فهذه صورة من صور العبادة التي جرت على يد نبي الله وخليله إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام وان لم تتحقّق إلا انه شرع في تنفيذها طاعة لله تعالى.

أما رؤية يوسف صلّى الله عليه وسلّم، إذ يقول تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} 1339 ففيها كما نعتقد بداية الدعوة التي أرادها الله تعالى، فقصته دائرية ابتدأت برؤيا وهي قوله تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} 1340 وانتهت بتأويل رؤيا وهي قوله تعالى: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ

---

1338 - تفسير التحرير والتنوير، ج 12، ص 143.

1339 - يوسف 4.

1340 - يوسف 4.

سُجِّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {1341}، فكانت حياته عليه الصلوة والسلام فيها رؤى متعددة حتى أصبح الحديث عن تأويل الرؤى مرتبطا بقصة يوسف عليه الصلوة والسلام ففيها أكثر من رؤية، فكانت الرؤيا هي السبب هي الناصر له والمركز في إظهار دعوته، منها رؤيا صاحبي السجن اللذين كانا معه، يقول تعالى: {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} {1342}، ومنها رؤيا الملك، إذ يقول تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ حُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ} {1343}، إن تعدد الرؤى في قصة يوسف عليه الصلوة والسلام معها بعدا عقديا، ذلك أن تحقق الرؤى والتنبؤ بتحققها لا يكون لأي أحد من البشر إنما هو خاص بالأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم.

إنّ الله تعالى جعل رؤيا الملك خلاصا ليوسف عليه السلام من السجن، وذلك لأنّ الملك لما قلق واضطرب بسببه، لأنّه شاهد أنّ الناقص الضعيف استولى على الكامل القوي فشهدت فطرته بأن هذا ليس بجيد وأنه منذر بنوع من أنواع الشر، إلا أنّه ما عرف كيفية الحال فيه والشيء إذا صار

1341 - يوسف 100.

1342 - يوسف 36، 37.

1343 - يوسف 43.

معلوماً من وجهه وبقي مجهولاً من وجه آخر عظم تشوق الناس إلى تكميل تلك المعرفة وقويت الرغبة في إتمام الناقص لا سيما إذا كان الإنسان عظيم الشأن واسع المملكة، وكان ذلك الشيء دالاً على الشر من بعض الوجوه فبهذا الطريق قوى الله داعية ذلك الملك في تحصيل العلم بتعبير هذه الرؤيا، ثم إنّه تعالى أعجز المعبرين اللذين حضروا عند ذلك الملك عن جواب هذه المسألة وعماه عليهم ليصير ذلك سبباً لخلاص يوسف من تلك المحنة.

فالقوم ما نفوا عن أنفسهم كونهم عالمين بعلم التعبير، بل قالوا: إن علم التعبير على قسمين منه ما تكون الرؤيا فيه متسقة منتظمة فيسهل الانتقال من الأمور المتخيلة إلى الحقائق العقلية الروحانية ومنه ما تكون فيه مختلطة مضطربة ولا يكون فيها ترتيب معلوم وهو المسمى بالأضغاث والقوم قالوا إن رؤيا الملك من قسم الأضغاث ثم أخبروا أنهم غير عالمين بتعبير هذا القسم وكأنهم قالوا هذه الرؤيا مختلطة من أشياء كثيرة وما كان كذلك فنحن لا نهتدي إليها ولا يحيط عقلنا بها وفيها إيهام أن الكامل في هذا العلم والمتبحر فيه قد يهتدي إليها، فعند هذه المقالة تذكر ذلك الشرابي واقعة يوسف فإنه كان يعتقد فيه كونه متبحراً في هذا العلم<sup>1344</sup>.

هذه الرؤى سارت في النسق الدعوي إلى أن وصلت إلى دعوة الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم، فكانت أحد مراكزها المهمة، فالمشركون وقفوا عندها طويلاً فطرحوا كثيراً من التساؤلات التي من شأنها أن تزعزع الناس بالرسالة وبصاحب الرسالة، إلا أن ما ذهبوا إليه أصبح فيما بعد من ترهات الماضي المتكررة في فكرهم وفي فكر من تبعهم.

---

1344 - تفسير الرازي، ج 9، ص 51.

إنّ الرؤيا كما نعتقد إحدى سياقات الخطاب التوضيحية التبليغية،  
فعلى أساسها تنعقد أموراً كثيرة من ذلك ما تحقّق في المعراج، ألا وهو فرض  
الصلاة من حيث:

الكيفية.

العدد.

المضمون القرآني.

التوقيت.

فالرؤيا فيها أمر تصوري ينطلق الخيال فيه كي يحول ما يسمعه إلى  
صورة واضحة المعالم ضمن:

إدراك.

وعى.

بشرية.

ثقافة.

عقيدة.

المتلقي وهذا يجعل التصور واحداً، ذلك أن المخاطبين هم في مستوى  
واحد من الذي ذكرناه من سمات، فالعقيدة المخاطبة هي عقيدة واحدة:

ترفض.

تقبل.

ضمن المعيارية التي تؤمن بها، ذلك أن السياق المتبع قائم على  
استدعاء الفكر العقدي، فهو أيا كان فهو:

ميدان القبول والرفض.

وهو أساس الصراع الذي ساد في ذلك الوقت وان لم يكن هو المقصود بذاته؛ إنما كان الجانب الاقتصادي هو القاعدة الرئيسة في رفض دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

إنّ الميدان الأرحب لمعجزة الإسراء والمعراج هو الرؤيا، فقد دخلت مجال الخلاف بين الأمة الإسلامية، فالطرح فيها كان بين:

رؤيا بصرية.

رؤيا قلبية.

رؤية مناميه.

والتساؤل الذي يمكن أن يطرح:

لماذا لم تكن نظر وليست رؤيا مادام الأمر يتعلق ب:

إخبار.

إبلاغ.

خطاب.

مقابلة.

وصف.

إن القول بالنظر لا يتحقق فيه المراد فهو "الإقبال بالبصر نحو المرئي ولذلك قد ينظر ولا يراه،" 1345 ونحن نقول إن مصطلح "النظر ينتفي مع

---

1345 - الفروق اللغوية، ج 1، ص 544.

النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أمّا الرؤية فهي "إدراك المرئي" 1346 وهذا يعطي المعجزة بعدا أكبر، فتخرج من طور الوصف وتدخل طور التحليل المفضي إلى بيان:

أهميتها.

عظمتها.

ثم إن الرؤية على قسمين:

1. رؤية مادية حسية بصرية.

2. رؤية معنوية فلبية (عقلية).

والمريئات العينية وقع عليها الخطاب القرآني، إذ يقول تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ 1347.

والسؤال الذي يمكن أن نطرحه فنقول: هل الرسول عليه الصلّاة والسلام رأى الله تعالى؟

بالنسبة للرؤية البصرية فالله تعالى منزّه عن الرؤية البصرية لقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ 1348، وقوله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ

---

1346 - الفروق اللغوية ج 1، ص 544.

1347 - النجم 11.

1348 - الأنعام 103.

لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ  
وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ {1349.

يقول تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا  
الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ  
إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا} {1350، هذه الآية من الآيات الكريمة التي دخلت مجال  
النقاش والتأويل، فطرحت آراء عدة إلا أنها لم تخرج عن المتعارف الإنساني  
في التأويل، إذ بقي الأمر محسورا بين الرؤيا:

القلبية.

البصرية.

وهذا يفضي إلى أن الخلاف حولها لم يخرج كثيرا مما هو متوقع، أما غير  
المتوقع فلم يكن له حضور في أي دائرة من الدوائر سواء في دائرة الممكن أم  
في دائرة غير الممكن، وذلك لان الفكر:

الإنساني.

العلمي.

لا يستطع طرح أي أمر آخر خارج النطاق المتعارف عليه، فلم يكن  
هناك طرح رؤيا جديدة تكون خارج الرؤيا القلبية أو الرؤية البصرية، فبقي  
مدار الحديث مقتصرًا على ما قيل في هذا الأمر.

فقوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ  
الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا} {1351، تنبيه على

---

1349 - الأعراف 143.

1350 - الإسراء 60.

1351 - الإسراء 60.



تحققها بالاستدلال عليها بما صدر عنهم عند مجيء بعض الآيات لاشتراك الكل في كونها أمورا خارقة للعادات منزلة من جناب رب العزة جل مجده لتصديق رسوله عليه الصلاة والسلام فتكذيبهم ببعضها يدل على تكذيب الباقي، والمراد بالرؤيا ما عاينه عليه الصلاة والسلام ليلة أسرى به من العجائب السماوية والأرضية كما أخرجه البخاري. والترمذي. والنسائي 1352.

والتحقيق في معنى هذه الآية الكريمة: أن الله جلّ وعلا جعل ما أراه نبيه عليه الصلاة والسلام من الغرائب والعجائب ليلة الإسراء والمعراج فتنة للناس، لأن عقول بعضهم ضاقت عن قبول ذلك، معتقدة أنه لا يمكن أن يكون حقًا، قالوا: كيف يصلي بيت المقدس، ويخترق السبع الطباق، ويرى ما رأى في ليلة واحدة، ويصبح في محله بمكة؟ هذا محال! فكان هذا الأمر فتنة لهم لعدم تصديقهم به، واعتقادهم أنه لا يمكن، وأنه جلّ وعلا جعل الشجرة الملعونة في القرآن التي هي شجرة الزقوم فتنة للناس، لأنهم لما سمعوه عليه الصلاة والسلام يقرأ {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ} 1353 قالوا: ظهر كذبه. لأن الشجر لا ينبت في الأرض اليابسة، فكيف ينبت في أصل النار؟ فصار ذلك فتنة. وبين أن هذا هو المراد من كون الشجرة المذكورة فتنة لهم بقوله: {أَذَلِكْ خَيْرٌ نُزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ} 1354، وأشار في موضع آخر إلى الرؤيا التي جعلها فتنة لهم، وهو وقوله: {أَفْتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِدْرَةَ مَا يُغْشَى مَا زَاغَ

---

1352 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج 4، ص 208.

1353 - الصفات 64.

1354 - الصفات 62 - 64.

البصر وَمَا طغى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى {1355، فلازمة الفتنة  
الرؤيا1356.

إن لفظة الرؤيا أشهر استعمالها في رؤيا النوم، وتستعمل في رؤية العين  
كما نقل عن ابن عباس في هذه الآية، قال: هي رؤيا عَيْنِ أَرِيهَا النَّبِيَّ لَيْلَةَ  
أَسْرِي بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، رواه الترمذي وقال: إنه قول عائشة ومعاوية  
وسبعة من التابعين، سماهم الترمذي. وتأولها جماعة أنها ما رآه ليلة أسري به  
إذ رأى بيت المقدس وجعل يصفه للمشركين، ورأى غيرهم واردة في مكان  
معين من الطريق ووصف لهم حال رجال فيها فكان كما وصف. ويؤيد هذا  
الوجه قوله: التي أريناك { فإنه وصف للرؤيا ليُعلم أنها رؤية عين. ومن الآراء  
التي قيلت في هذه المعجزة:

. قسم رأى أنّ النبي عليه الصلّاة والسّلام يدخل مكة في سنة الحديبية  
فرده المشركون فلم يدخلها فافتتن بعض من أسلموا فلما كان العام المقبل  
دخلها.

. قسم ذهب إلى القول بأنها رؤيا مصارع صناديد قريش في بدر أريها  
النبي عليه الصلّاة والسّلام قبل ذلك أي بمكة. وعى هذين القولين فهي رؤيا  
نوم ورؤيا الأنبياء وحي.

والفتنة: اضطراب الرأي واختلال نظام العيش، وتطلق أيضا على  
العذاب المكرر الذي لا يطاق، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ  
وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ} {1357،

---

1355 - النجم 12 - 18.

1356 - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج 18، ص 309.

1357 - البروج 10.

وقال: {يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ} 1358. فيكون المعنى على أول القولين في الرؤيا أنها سبب فتنة المشركين بازدياد بعدهم عن الإيمان، ويكون على القول الثاني أن المرئي وهو عذابهم بالسيف فتنة لهم.

فكانت تلك الرؤيا إنذارا لقريش بما سيقع في تلك السنة من تفلت المسلمين من أيديهم، وتسليطهم بعد هذا عليهم، وإنذارا لها أيضا بما سيقع من تحويل القبلة عن كعبتهم، وهي مصدر رزقهم وأمنهم وشرفهم، ليتدبروا أمرهم قبل وقوع ما أندورا به، ولا يكون لهم عذر إذا لم يتدبروا به.

وكان الإسلام قد انتشر بالمدينة قبيل الهجرة، حتى صار للمسلمين فيها قوة يمكن الاعتماد عليها، فهياً ذلك لتلك الرؤيا وجعلها تجيء في وقتها، وترمز إلى ما ترمز إليه من ظهور شأن الإسلام بعدها، وقد قوى في ظهوره الرجاء، وصار الأمل فيه قريب التحقيق، وكثيرا ما تكون الرؤيا وليدة لما يلابسها من الأحوال والظروف، فتجيء متأثرة بما رامزة لما تهيئ له.

والفتنة نوعان: فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين وفتنة الشهوات

وقد يجتمعان للعبد وقد ينفرد بإحدهما

ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى فهناك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى فقل ما شئت في ضلال سيء القصد الحاكم عليه الهوى لا الهدى مع ضعف بصيرته وقلة علمه بما بعث الله به رسوله فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس وقد أخبر الله سبحانه أن إتباع الهوى يضل عن سبيل الله فقال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ

الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ  
الْحِسَابِ {1359

وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق وهي فتنة المنافقين وفتنة أهل  
البدع على حسب مراتب بدعهم فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات  
التي اشتبه عليهم فيها الحقّ بالباطل والهدى بالضلال

ولا ينجى من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول وتحكيمه في دق  
الدين وجله ظاهره وباطنه عقائده وأعماله حقائقه وشرائعه فيتلقى عنه  
حقائق الإيمان وشرائع الإسلام وما يثبتته الله من الصفات والأفعال والأسماء  
وما ينفيه عنه كما يتلقى عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها ومقادير  
نصب الزكاة ومستحقيها ووجوب الوضوء والغسل.

من الجنابة وصوم رمضان فلا يجعله رسولا في شيء دون شيء من  
أمور الدين بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة في العلم والعمل لا  
يتلقى إلا عنه ولا يؤخذ إلا منه فالهدى كله دائر على أقواله وأفعاله وكل ما  
خرج عنها فهو ضلال فإذا عقد قلبه على ذلك وأعرض ما سواه ووزنه بما  
جاء به الرسول فإن وافقه قبله لا لكون ذلك القائل قاله بل لموافقته للرسالة  
وإن خالفه رده ولو قاله من قاله فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبهات وإن  
فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه.

وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد وتارة من نقل كاذب وتارة من  
حقّ ثابت خفي عن الرجل فلم يظفر به وتارة من غرض فاسد وهوى متبع  
فهي من عمى في البصيرة وفساد في الإرادة

وأما النوع الثاني من الفتنة: ففتنة الشهوات وقد جمع سبحانه

بين ذكر الفتنتين في قوله: { كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ فُؤُةً  
وَكَثْرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ  
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي  
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } 1360 فهذا الخوض بالباطل وهو  
الشبهات.

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان  
من الاستمتاع بالخلق والخوض بالباطل لأن فساد الداعين إما أن يكون  
باعتقاد الباطل والتكتم به أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح فالأول: هو  
البدع وما والاها والثاني: فسق الأعمال

فالأول فساد من جهة الشبهات والثاني من جهة الشهوات

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى  
قد فتنه هواه وصاحب دنيا أعتمه دنياه.

ففتنة الشبهات تدفع باليقين وفتنة الشهوات تدفع بالصبر ولذلك  
جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بمهاذنين الأمرين فقال: { وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً  
يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا  
عَابِدِينَ } 1361

فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين 1362.

**الولاية والألوية:**

الولي المطلق:

---

1360 - التوبة 69.

1361 - الأنبياء 73.

1362 - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ج 2، ص 165.

قال تعالى: { أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } 1363.

لقد أفاضت كتب القدماء والمحدثين في كثرة ما تناولت من مفهوم الولاية ومعانيها بما تحمل من تناقضات وتباينات بعضها يوافق الصواب، وكثير منها يصدر عن هوى من اعتقاد فكرة أو تحريف عقيدة أو نظرة خاطئة مقصودة كان الغرض منها المخالفة لذاتها.

غير أن أحدا لم يعرج على موضوع الأولوية ويفصلها عن الولاية، وإن كانتا تشتركان في شيء من المعنى، فجمعت الأولوية إلى الولاية وخرجت المفاهيم تحت عنوان الولاية.

أمّا ما نتناوله في هذا البحث، سوف نفصل في المصطلحين ونحاول إظهار مفهوم كلٍّ منهما على حدة، ابتداء بالولاية وانتهاءً بالأولوية.

أمّا في مفهوم الولاية فإننا نحترم كل ما قيل مما يقبله العقل، ويرضاه الحق والعدل، وتطمئن إليه النفس المطمئنة، بما جبل الإنسان في تغليب الخير على الشرّ من قبول الفضائل والارتياح إلى القيم الأخلاقية السامية بما لا يخالف المنطق السليم.

وعليه نقول: إن الولاية لله ثمّ لرسوله ثمّ للمؤمنين، حيث قال تعالى: { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } 1364.

وعلى هذا فإن الولاية ليست على التكافؤ أو التساوي، وإنما هي تنازلية إلى أن تشمل العموم، فإن وصلت حدّ العموم أصبحت متساوية،

---

1363 - الشورى 9.

1364 - المائدة 55.

وبهذا يخرج من التساوي اللفظان المفردان (الله) و(ورسوله) وما كان متقدماً رتبة وجب أن يبدأ منه الولاء التنازلي، لأنه الولي المطلق ومصدر الولاء، ومن كان مؤمناً فهو ولي لأي مؤمن، وأي مؤمن لأي مؤمن فهو وليه ومولاه وعلى هذا يكون الأمر:

. الله ولي الرسول والمؤمنين ومولاهم.

. الرسول ولي المؤمنين ومولاهم.

. المؤمنون يتولون الله ورسوله.

. المؤمنون بعضهم أولياء بعض.

قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 1365.

لقد نصت الآية الكريمة على وجوب الولاء المتبادل بين المؤمنين والمؤمنات، وهذا الولاء بين المؤمنين والمؤمنات محكوم بشروط الولي المطلق وما يأمر به الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى يصلوا إلى الغاية من هذا الولاء بحيث:

. يأمر بالمعروف.

. ينهون عن المنكر.

. يقيمون الصلاة.

. يؤتون الزكاة.

. يطيعون الله ورسوله.

فقد حددت الآية شروط الولاية بين المؤمنين والمؤمنات التي إن أخذوا بها وصلوا إلى غايتها التي بيّنها الله لهم في قوله: (أولئك سيرحمهم الله).

ثمّ أفردت الآية لفظ الجلالة وعطفت عليه الرّسول في قوله: (ويطيعون الله ورسوله) لأسباب منها:

1. اشتراك عموم المؤمنين في الولاية فيما بينهم.
2. ولاؤهم جمعاً لله ورسوله ولاء طاعة لما فيها من التشريع.
3. إفراد لفظ الجلالة والرّسول وخصوصهما بالطاعة درجة أعلى في الولاية.

4. تقديم لفظ الجلالة، هو تقديم رتبة.

5. ما كان متقدماً رتبة فهو الولي المطلق.

6. عطفت الرّسول على لفظ الجلالة، اشتراك في الحكم النسبي.

وعلى هذا فالآية تسلسل الولاية من الإطلاق إلى النسبية إلى النسبية الجزئية، من الله تعالى، إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، ثمّ إلى المؤمنين. ثمّ إن ولاية النبي عليه الصّلاة والسّلام هي مطلقة على المؤمنين.

وربّ قائل يقول كيف حكتم هذا الحكم، وأن سياق الآية في ترتبها للمطلق والنسبي والجزئي مغاير للرأي الذي خرجتم به.

فنقول: إن المعاني اللغوية ليست بسياقاتها المترتبة على السوابق واللواحق فقط، وليس بالضرورة أن كلّ لفظ متقدم بالذكر أن يتقدم في الحكم، وليس كلّ لفظ متقدم ذكراً، أن يكون حكمه متقدماً رتبة، وإن كان ذلك قاعدة لغوية في توضيح المعاني وتوظيفها، ولكن عندما تظهر قرينة



لفظية أو معنوية، فإنه ينتفي العمل بتلك القاعدة، ويصبح الحكم مقاسا على القرينة الموضحة، يستوي في ذلك اللفظية المذكورة والمعنوية الملحوظة، والقرينة اللفظية المذكورة أشد دلالة من القرينة المعنوية الملحوظة.

ولذا عندما جاء قوله تعالى: (ويطيعون الله ورسوله) متأخر رتبة عن المؤمنين والمؤمنات، ويحمل أمر الطاعة الواجب عليهم، كان له الصدارة في الحكم وإن كان متأخرا لفظا.

فالله سبحانه وتعالى هو الولي المطلق، وهو الذي يتولى عباده المؤمنين، ويتولى الصالحين، فقد قال تعالى: {إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} 1366.

فالله سبحانه وتعالى هو الذي يتولى عباده في كل أمورهم بتسييرها وتديريها، والولي هو الناصر والحافظ الذي يتولى نصر عباده وحفظهم، فالله تعالى يتولى الصالحين من عباده وينصرهم لا يخذلهم، فلا تضرهم عداوة من عاداهم.

فالولي المطلق جل شأنه سبق في مشيئته ووعدته أن يتولى الصالحين من عباده ولا يخذلهم.

ولذا جاءت الآية على لسانه عليه الصلاة والسلام: (إن وليي الله) وربط ذلك بتنزيل الكتاب لتوضيح الفارق بين الولي المطلق والولي النسبي، ويدل ذلك على تفخيم أمر المنزل في أنه الفارق بين الحق والباطل، وأنه المجلي لظلمات الشرك، والمفحم لألسن أرباب البيان، والمعجز الباقي في كل أوان، وهو النور المبين والحبل المتين، وهنا تظهر دلالة أخذ الولاء تصاعديا،

حيث أنه عليه الصلّاة والسّلام بيّن أن الله تعالى هو الولي، ومن أراد أن يكون من أولياء الله فعليه بالصلّاح.

فالصلّاح هو منتهى الصفات الحميدة التي لا يشوب صاحبها فساد رأي أو اعتقاد أو عمل سوء، لذلك مدح الله تعالى أنبياءه وعباده بهذه الصفة وكان لهم وليًا لما للصلّاحين من فضائل مصدرها الولي المطلق منها:

. التوحيد.

. الإيمان.

. العقيدة.

. الأخلاق.

ولذا فقد خص الله تعالى أنبياءه وعباده المقربين بهذا الوصف فقال  
مبشرا مريم بعيسى عليه الصلّاة والسّلام: { إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ  
يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ } 1367.

إن عيسى عليه الصلّاة والسّلام:

. كلمة من الله تعالى.

. وجيهاً في الدنيا والآخرة.

. من المقربين عند الله تعالى.

. مكلم للناس في المهد وكهلاً.

فكل واحدة من هذه الصفات، من العظمة والشرف بمكان، ومع ذلك فقد ختم الكلام بما وصفه به أن جعله من الصالحين فكان ولياً له.

إذ أنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً بعد النبوة حتى يتولاه الله تعالى، ومن يتولاه الله تعالى يكون في جميع الأفعال من الأوامر والنواهي يسير على:

. نهج الصلاح.

. طريق الحق.

. سبيل الرشاد.

وهذا النهج هو صلاح الدين والدنيا، به يستحق المؤمن حقّ الولاية، وعندما يصل الإنسان إلى درجة الصلاح، يتولاه الله تعالى بولايته كما تولى يونس عليه الصلوة والسلام بعد أن جعله من الصالحين قال تعالى: {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} 1368.

فهذا لا يعني أنه عليه الصلوة والسلام لم يكن صالحاً، فكيف وهو النبي المصطفى، ولكن هذا يدل على أن:

. الصلاح يكتسب.

. الصلاح درجة عالية لا يناها إلا أهل الاجتباء.

. صفة الصلاح تنسلخ عن من يتصف بها.

. صفة الصلاح تعود لمن انسلخت عنه.

. النبوة ثابتة لا تنسلخ.

. النبوة اصطفاء.

. الصلاح اجتناب.

. الولاية بعد الصلاح.

فعندما اجتنابه وجعله من الصالحين عصمه من أن يفعل فعلا يكون تركه واجبا، وجعله من الصالحين لأن الصلاح إنما يكون يجعل الله خلقه من الصالحين، وإن كان للعبد مدخل فيه بسبب الكسب في صرف إرادة جزئية، وعندما تسخر هذه الإرادة سعيا وراء الصلاح واكتسابه بالإرادة البشرية والتوفيق الإلهي يصل إلى درجة الولاية.

وعلى هذا يكون الصالح التام الصلاح، هو الذي لا يعصي الله ولا يهيم بمعصيته، فلا تزول عنه ولاية الله، وهذا دأب الأنبياء صلى الله عليهم وسلم الذين لا تزول عنهم ولاية الله تعالى، لأنهم من الصالحين، بينما تنسلخ الولاية عن بعض المؤمنين أحيانا، لانسلاخ الصلاح عنهم، لأن انسلاخ الصلاح هو نزول درجة، أو إخلالهم بشرط شرعي كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} 1369.

فإن كانت ولاية المؤمنين تنسلخ عن بعض المؤمنين، فإن ولاية الله ورسوله تنسلخ أيضا عن هذا البعض عند الإخلال بالشروط انسلاخا جزئيا، وإن بقي منها ولاية جزئية كونهم مشتركين معهم في الإيمان، ومفارقين لهم في الهجرة، ولأن الله سبحانه وتعالى هو الولي المطلق، فلا يسلم ولايته

المطلقة عن المؤمنين لقوله تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} 1370.

وبإزالة الأسباب التي قد تسلخ عن الصلاح، فإنّ ذلك مدعاة للدخول في الولاية، ولذا فالصالحون الذين استوت سيرتهم وعلانيتهم في الخير وصلحت أحوالهم عند الله تعالى فرضي عنهم، وكانوا أولياء الله تعالى الذين تولاهم بنفسه عزّ وجلّ وأبعد عنهم الخوف والحزن قال تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} 1371.

إنّ الذين يتولاهم الله هم الفائزون بالدنيا والآخرة، ذلك أنهم اتصفوا بالصفات النسبية للولي المطلق، فالتزموا أوامره وامتنعوا عن نواهيه، فأمنوا الخوف والحزن، لأنّ الموالين لله بالإيمان والطاعة يحبهم ويحبونه، فلا خوف عليهم من الخزي في الدنيا، ولا من العذاب في الآخرة، وهم لا يجزون على ما فاتهم من عرض الدنيا، لأنّ لهم عند الله ما هو أعظم من ذلك وأكثر، وهم الذين صدّقوا بكل ما جاء من عند الله، وأذعنوا للحقّ، واجتنبوا المعاصي، وخافوا الله في كل أعمالهم.

فكان لهؤلاء الأولياء البشرى بالخير في الدنيا، وما وعدهم الله به من نصر وعزة، وفي الآخرة يتحقّق لهم وعد الله، ولا يخلف الله الميعاد، وهذا الذي بُشّروا به في الدنيا، وما يظفرون به في الآخرة، هو الفوز العظيم.

إنّ من المعلوم أنّ أولياء الله هم أحبّاء الله، ولولا محبته لهم لما أوجب ولايته عليهم، وذلك لمعرفةهم برّهم حقّ المعرفة، ذلك أنّ الولاية من ضمن معطياتها هي معرفة الله تعالى. فمعرفة الله التي توجب الولاية تنقسم على قسمين:

---

1370 - آل عمران 68.

1371 - يونس 62.

الأول: معرفة ذهنية عقلية ترتبط بالحقوق والواجبات تقوم على القلب والجوارح، والقلب تكمن فيه محبة الخالق عزّ وجلّ، والجوارح تعبر عن هذه المحبة في التقوى والصلاح ممّا يؤدي من أعمال الطاعات في الأوامر والنواهي من الفرائض.

الثاني: معرفة النفس وميوها وأهوائها، وتكون الطاعة من خلال النفس بمنعها عن الشهوات وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، فإذا عرف الإنسان نفسه حقّ المعرفة وعلم حدودها وعالجها بالمعاندة والكبح والممانعة بكسرهما الشهوات، أمن مكرها وكيدها، فدخل في الصلاح والولاية لأن الله تعالى يتولى الصالحين.

وأولياء الله هم المؤمنون تمام الإيمان لقرّبهم من وليّهم المطلق سبحانه وتعالى، لأنهم يتولونه بالطاعات ويتقربون إليه بالتقوى والاستغراق في معرفته، لأنهم وقفوا على دلائل قدرته، وتدبروا آياته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، فاجتهدوا في ذلك حقّ الاجتهاد، لذلك لا خوف عليهم في الدارين من أن يلحق بهم مكروه.

فالخوف إنّما يكون من حدوث شيء من المكاره في المستقبل، فهم آمنوا بطاعتهم وتقواهم ذلك الخوف، لأنهم أصبحوا أولياء الله، ولا هم يحزنون من فوات مطلوب، لأن الحزن إنّما يكون من تحقق شيء ممّا كرهه في الماضي، أو من فوات شيء أحبه فيندم عليه، فهم لا يعترِبهم ما يوجب ذلك، فلا يخافون ولا يحزنون، لما علموا من معرفة الله تعالى في حقّوقه عليهم، وواجباتهم تجاهه، فتحققت لهم ولاية الله بذلك من الخشية استعظاما لجلال الله وهيبته، فكان وليّهم ومولاهم بعنايته ورعايته لهم.

وهذه العناية والرعاية هي غاية من يتولاه الله وقد حقّقها لهم، ويدل على ذلك التحقّق الأدلة العقلية والعقلية.

أمّا النقل: فهو أنّ الله تعالى مدح بهذا الوصف نبيّه عليه الصّلاة  
والسّلام عندما تولاه وأضاف إلى الولاء جبريل وصالح المؤمنين بقوله تعالى:  
{فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ  
ظَهِيرٌ} 1372.

وأما العقل: فيدل على أنّ الولي المطلق يعلم الصالح من المفسد،  
والصلاح ضد الفساد، وكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد، سواء أكان  
ذلك:

. في الاعتقاد.

. أم في الأقوال.

. أم في الأفعال.

. أم في الأعمال.

. أم في الأخلاق.

فإذا كان كلّ ما يحصل من باب ما يجب أن يكون فقد حصل  
الصلاح، وإذا حصل الصلاح وجب الولاء، وإذا وجب الولاء، أوصل  
المؤمن إلى أرفع الدرجات.

فالولي الذي يتولاه الله تعالى، هو الذي يكون صالحا في اعتقاده وفي  
عمله وسلوكه وتصرفاته وكل ما يصدر عنه أو ما يكتنه في قلبه ونيته.

وقد أصلح الله تعالى شؤون رسوله صلّى الله عليه وسلّم، لأن الله تعالى  
تولاه حيث كمل به خلقه وأقام به أوده وأبان به الحقّ من الباطل والهدى  
من الضلال، لذلك فإن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام قال: إن وليي الذي

نزل الكتاب الذي تعرفون حقيقته، فهو يتولى الصالحين ويخذل عدوهم، والصالحون يتولاهم الله بفضله ويمنحهم مغفرته ويورثهم أرضه، فمن أعظم ما يضيفي السعادة على العبد المؤمن، ركونه إلى ربه، وتوكله عليه، واكتفاؤه بولايته ورعايته وحراسته، فالذين صلحت نياتهم، وأقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، فهم لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى، ولم يتولوا غيره مما لا ينفع ولا يضر، تولاهم الله ولطف بهم، وأعانهم على ما فيه الخير، والمصلحة في دينهم وديناهم ودفع عنهم بإيمانهم كل مكروه، فهذا التولي لهم جزاء صلاحهم وتقواهم ومسبب عنه، فلا يكون متقدما عليه، وإن كان فإنما صاروا صالحين ومتقين بمشيئته وقدرته وفضله وإحسانه، وكونهم متقين وصالحين فدلّ على أن هذا التولي هو بعد الصلاح.

فالله سبحانه وتعالى يتولى الصالحين، وهم الذين لا يعدلون بالله شيئا فيتولاهم وينصرهم، ولا تضرهم عداوة من عاداهم كما قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} 1373 فالولي ينصر من تولاه بالحجة والظفر والانتقام له من عدوه وغير ذلك من العقوبات، وأن الله تعالى ينتقم لوليه من الأعداء ولو بعد حين.

وأول من يتولى الولي المطلق من خلقه ليكون وليا نسبيا، هم الصالحون، فقد قال الله تعالى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} 1374 فهذا الجدار الذي أقامه العبد الصالح، هو ولي من أولياء الله، أقامه إكراما لولي من أولياء، حيث أن هذا الجدار كان تحته كنز لغلّامين يتيمين من أهل المدينة، وكان أبوهما رجلا صالحا، فتولاه الله عزّ

1373 - غافر 51.

1374 - الكهف 82.



وجلّ، وتولى ذريته من بعده بأن حفظ لهما الكنز حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما، رحمة بهما، وتكريما لأبيهما في ذريته.

وما فعل ذلك العبد الصالح باجتهاد منه أو علم، وإنما فعله بتوجيه من الولي الذي تولى ذرية ذلك الرجل بعد موته إكراما لصلاحه، فمن أراد أن يحفظه الله في أبنائه فليخلف من الله سبحانه وتعالى صلاحا وتقوى، وليحفظ الله في نفسه في السر والعلن، وفي السراء والضراء، وفي الصحة والمرض، فإن أهل الكنز الذين ذُكروا في سورة الكهف حفظ الله عليهم كنزهم، فلما كان ذلك الرجل صالحا، حفظ الله عليه أبنائه وكنزه، فكل من يتولى الله، يتولاه الله في أهله وزوجته ولده ورزقه حتى يلقي الله ربه وهو راضٍ عنه.

إن الأولياء الذين يتولاهم الله مولاهم، يحقّهم بعنايته ويحفظهم برعايته لأنهم خلفاءه في أرضه بما يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، فقد هدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور، فقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَبِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ {1375} الله تعالى يتولى شؤون المؤمنين فهو ناصرهم لأنه وليهم، يخرجهم من ظلمات الشك والحيرة إلى نور الحق والاطمئنان، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من نور الإيمان الذي فطروا عليه والذي وضح بالأدلة والآيات، إلى ظلمات الكفر والضلال والفساد.

وأما من والى الله تعالى فقد غمره الله بفضله ومحبتة وإعانتة له، وهو الذي يتولى أمور أوليائه ولا يكلهم إلى غيره.

فالولي يكون باعتبار المحبة والنصرة، فيقال: (للمحب) وإلٍ لأنه يُقرب من حبيبه بالنصرة والمعونة لا يفارقه، وقد يكون باعتبار التدبير والأمر والنهي، فيقال لأصحاب الولاية الدنيوية: أولياء لأنهم مقربون إلى الناس في تدبير أمروهم ومراعاة مصالحهم ومهماتهم، فالله تعالى يتولى الذين عظم إيمانهم وثبت في علمه أنهم يؤمنون حقّ الإيمان، لذلك تولاهم الله وأخرجهم من الظلمات إلى النور، لأنّ إخراج المؤمن بالفعل من الظلمات تحصيل حاصل، وهي أعمّ من ظلمات الكفر والمعاصي وظلمات الشبه والشكوك.

ومن الملاحظ في الآية أنّ الله تعالى قد جمع الظلمات لأن أنواع الضلال والكفر متعددة ومتشعبة، وأما النور فقد أفردته لأنه يهدي إلى صراط مستقيم وسنأتي على تفصيل ذلك.

(الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات)

إنّ الإيمان نور، نور واحد في:

. طبيعته.

. حقيقته.

. مصدره.

وإنّ الكفر ظلمات، ظلمات متعددة متنوعة. ولكنها كلّها ظلمات.

وما من حقيقة أصدق ولا أدق من التعبير عن الإيمان بالنور، والتعبير عن الكفر بالظلمة. لأنّ الإيمان نور يشرق به كيان المؤمن أوّل ما ينبثق في ضميره. تشرق به روحه فتشف وتصفو ويشعّ من حولها نور ووضاءة ووضوح، ثمّ أنه نور يكشف:

. حقائق الأشياء .

. حقائق الفضائل .

. حقائق القيم .

. حقائق التصورات .

فيراها قلب المؤمن:

. واضحة بغير غبش .

. بينة بغير لبس .

. مستقرة بغير أرجحة .

فيأخذ منها ما يأخذ، ويدع منها ما يدع، في هواده وطمأنينة وثقة واستقرار، هو نور يكشف الطريق إلى الناموس الكوني، فيطابق المؤمن بين حركته وحركة الناموس الكوني من حوله ومن خلاله؛ ويمضي في طريقه إلى الله هينا لینا، لا يعتسف في طريقه ولا يصطدم بشيء من المحرمات، فلا يخبط خبط عشواء، لأن الطريق في فطرته مكشوف له ومعروف لديه، فهو نور واحد يهدي إلى طريق واحد.

وأما ضلال الكفر فظلمات شتى متنوعة كثيرة منها:

. ظلمة الكفر والضلال .

. ظلمة الهوى والشهوة .

. ظلمة الشرود والتيه .

. ظلمة الكبر والطغيان .

. ظلمة الضعف والذلة .

. ظلمة الرياء والنفاق.

. ظلمة الطمع والجشع.

. ظلمة الشك والقلق.

وظلمات شتى لا يأخذها الحصر، تتجمع كلها عند الشرود عن طريق الله، والتلقي من غير الله، والاحتكام لغير منهج الله، فشتان ما بين من كان وليه الله ومن كان أولياؤهم الطاغوت.

فما أن يترك الإنسان نور الله الواحد الذي لا يتعدد، ونور الحق الواحد الذي لا يلتبس على مؤمن صالح، حتى يدخل في الظلمات من شتى الأنواع وشتى الأصناف، وكلها ظلمات، وقد أكد الله تعالى على أنّ النور واحد والظلمات متعددة في أكثر من موضع في التنزيل العزيز، حيث نقف على إفراد النور في قوله تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 1376. فعلى الرغم من تعدد السماوات والأرضين حيث خلق الله سبع سماوات ومن الأرض مثلهن، فقد أفرد لهنّ ولمن في هنّ نورا واحدا، لأنّه نور الحق الذي يهدي إلى صراط مستقيم، وما من نور آخر غيره يتبعه أولياؤه.

وأما الظلمات فهي متعددة لتعدد أنواع الضلال وأسبابه وطرقه وسبله، ولذا شبه الله تعالى أعمال الكافرين بالظلمات لهذا التعدد حيث قال تعالى: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ

سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ  
يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ {1377}. فقد ذكر الله تعالى أربع ظلمات  
لتعدد مصادر ضلال الكافرين وهذه الظلمات شبهها:

الأولى: بحر الجبي.

الثانية: يغشاه موج.

الثالثة: من فوقه موج.

الرابعة: من فوقه سحاب.

فإذا اجتمعت هذه الظلمات الأربعة على الكافر، فإنه لا يكاد يرى  
يده إذا أخرجها، لما تحجب هذه الظلمات عنه من النور المفرد، على  
العكس من أولياء الله الذين يخرجهم من الظلمات إلى النور، وليس هذا  
فحسب، ولكن بالنسبة للمؤمنين الذين تولاهم الله تعالى لما تولوه بصلاحتهم  
في أنفسهم وطاعتهم لخالقهم ووليهم ومولاهم.

إنّ المؤمن بحاجة الله الولي، وفي ضرورة إلى مولى يتولاه، ومن صفات  
المولى المطلق، القدرة والنصرة، والحلم والعلم، والغنى والقوة، والبقاء والقهر،  
والمتّصف بذلك كله من الأسماء الحسان هو الله الواحد الأحد المهيمن المحيط  
بكل شيء.

فليس في الكائنات ما يُسكن العبد من وليّ ويطمئنُّ إليه، ويتنعم  
بالتَّوجُّه إليه إلا الله سبحانه، فهو وليُّ المؤمنين وملاذ الصالحين، ومعاذ  
الملجئين، وغوث المستغيثين، وجار المستجيرين، فهو وليهم ومولاهم.

وناهيك عما تقدم مما تحمله الآية في حقّ أولياء الله، فإنه إضافة إلى ذلك من معانيها أنه قد شبّه الله سبحانه وتعالى العقل بالنور فقال: (الله نور السماوات والأرض) أي منورهما، وأكثر ما يطلق النور والظلمات في القرآن الكريم على العلم والجهل، كما في الآية التي نتناولها في قوله تعالى: (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور)، وإنما كان ذلك بالعقل، أي يخرجهم:

. من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

. من ظلمات الجهل إلى نور العلم.

. من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة.

. من ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة.

وحاصل ذلك أنه يخرجهم من ظلمات الشرور المتنوعة إلى ما يرفعها من أنوار الخير العاجل والآجل على حدّ سواء لأنه ولهم.

ومن هنا نتبيّن أن الله قسم النَّاس فجعلهم قسمين:

أحدهما: المؤمنون، الله وليهم.

القسم الثاني: كفار وهم أعداء الله.

فولاية الله لا تزول عن المؤمن بوجه من الوجوه كما أوضحناه سالفًا، إلا إذا كفر بالله كفرًا يخرج من الملة، ولا يمكن أن يكون لأولياء الله خاتم أبداً، ولو كان لهم خاتم لكان هو آخر مؤمن على وجه الأرض قبل قيام الساعة، لأنّ الساعة لا تقوم إلا على شرار النَّاس.

## أولوية النبي وولايته:

قال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} 1378.

لقد أقر الله تعالى الولاية العامة لرسول الله عليه الصلاة والسلام على المؤمنين جمعا، فيقدم هذه الولاية على ولايتهم لأنفسهم، ذلك أن الله سبحانه وتعالى يعلم أن النبي أحرص على استقامة أمرهم وأحق بولاية المؤمنين من أنفسهم، ولذا وجبت عليهم طاعته وامتنال أمره في اتباع شرعه.

ولذا فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم؛ فهو صلى الله عليه وسلم، أجدر بالمؤمنين من أنفسهم في كل أمر من أمور الدين والدنيا، كما يشهد به الإطلاق على معنى أنه لو دعاهم إلى شيء، ودعتهم أنفسهم إلى شيء آخر، كان النبي عليه الصلاة والسلام أولى بالإجابة إلى ما يدعوهم إليه من إجابة ما تدعوهم إليه أنفسهم، لان النبي صلى الله عليه وسلم، لا يدعوهم إلا لما فيه نجاتهم وفوزهم، وأما أنفسهم فرمما تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم كما حكى الله تعالى عن امرأة العزيز: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 1379.

وعليه: يجب أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام أحب إلى المؤمنين من أنفسهم وأمره أنفذ عليهم من أمرها وآثر لديهم من حقوقها، وشفقتهم عليه أكثر من شفقتهم عليها وأن يبذلونها دونه ويجعلوها فداءه في كل ما دعاهم إليه.

---

1378 - الأحزاب 6.

1379 - يوسف 53.

فالمراد بهذه الأولوية للنبي عليه الصلّاة والسّلام بالمؤمنين، إضافة إلى الولاية الشرعية أن يرتقي المؤمن ويرتفع عن الأنا إذا كان الموضوع يحمل خير العامة، وهو من باب الإحسان إلى النفس في تدريبها على الارتقاء بها في الإحسان إليها، بنكرانها فيما تشتهي، حتى لا يوطّن المؤمن نفسه على هواها، وإنما يتوسع توطين النفس على استيعاب الآخرين حبا في الخير للآخر.

وعليه: فإنّ رسول الله عليه الصلّاة والسّلام كونه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فما يصلح حال المؤمنين أمانة عنده صلّى الله عليه وسلّم، ولأته أهل للأمانة بحيث يضعها في محلها فكان أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وأما جمع الأنفس فكان للتوزيع الدالة عليه (من) التفضيلية، بمعنى أن كلّ مؤمن يؤول إلى فرد من أفراد الأنفس التي يحملها الفرد بين جنبه، وأن النبي عليه الصلّاة والسّلام أولى بكل مؤمن من نفس ذلك المؤمن، وذلك أشد ولاية وقربا لكل مؤمن من قرب نفسه إليه أو من قربته إلى نفسه، وهو قرب معنوي يراد به آثار القرب من محبة ونصرة وخير، فرسول الله عليه الصلّاة والسّلام بهذه الآية تعدّى خيره إلى الإنسانية كلها على وجه العموم، والمؤمنين على وجه الخصوص، وأولوية رسول الله عليه الصلّاة والسّلام بالمؤمنين من أنفسهم هو خير لأنفسهم، فقد قال صلّى الله عليه وسلّم: "والذي نفس محمد بيده إنّ على الأرض من مؤمن إلا أنا أولى الناس به، فأياكم ما ترك ديننا أو ضياعا فأنا مولاه، وأيكم ترك مالا فألى العصبه من كان"1380.

---

1380 - صحيح مسلم، ج 3، ص 1237.



## مترتبات الأولوية:

لقد أخبر الله تعالى أن النبي عليه الصلّاة والسّلام أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأنه إذا أمر فيهم بأمر فعليهم قبول ما أمر به، ولا اختيار لهم إلا ما اختار رسولهم لهم:

- في دينهم.

- في أهليهم.

- في أموالهم.

- في أولادهم.

- في أنفسهم.

وذلك لما فيه خير الدنيا والآخرة لهم، ولما كان عليه الصلّاة والسّلام هو الأولى بالمؤمنين من أنفسهم، فولايته عليه الصلّاة والسّلام أولى من أية ولاية بعد مولاة الله تعالى، فهو عليه الصلّاة والسّلام لما كان أولى بنا من أنفسنا، فهو أولى بنا من آبائنا وأبنائنا وأمهاتنا وأزواجنا وآلنا وأهلنا جمعاً، ولما ترتب على هذه الصلّات حقوق وواجبات لأصحابها، وكان النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فقد تصدرت حقوقه وواجباته علينا حقوق وواجبات ذو القربى وما يترتب عليها من أوامر ونواهي ومحارم هو أولى بها صلّى الله عليه وسلّم، ومن هذه المترتبات:

1. أن الولاء له عليه الصلّاة والسّلام من المؤمنين فوق كل ولاء.

2. أنه للمؤمنين الأسوة الحسنة، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ

اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} 1381.

3 . أمره واجب الطاعة وما لمؤمن فيه خيار، قال تعالى: { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } 1382.

4 . النصيحة له مقرونة بالنصيحة لله عزّ وجلّ في القول والعمل، قال تعالى: { لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } 1383.

5 . الولاء للأولوية أمانة في أعناق المؤمنين، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } 1384.

6 . تحريم إيذائه عليه الصلّاة والسّلام بقول أو فعل أو عمل، قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا } 1385.

7 . تحريم أزواجه من بعده على المؤمنين وعلى العالمين، قال تعالى: { وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا } 1386.

فالله عزّ وجلّ رفع قدر نبيه صلّى الله عليه وسلّم، وزاده شرفا إلى شرفه، وفضّله على سائر خلقه، ورفع نساءه شرفا، فجعلهنّ أمهات للمؤمنين بأن حرّم أزواجه على جميع العالمين أن يتزوجوهنّ بعد موته، إذا

---

1382 - الأحزاب 36.

1383 - التوبة 91.

1384 الأنفال 27.

1385 - الأحزاب 57.

1386 - الأحزاب 53.

طلق امرأة من نسائه، فقد حرمت على كل أحد أن يتزوجها، لأنهن أمهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهنّ أجمعين.

فقد خصه الله الكريم بكل خلق شريف عظيم، فهو أولى بالمؤمنين ولاية دعوة وخير ومحبة ونجاة، وأزواجه أمهاتهم بالنبوة التي شرفه الله بها.

8. فرض الله تعالى على خلقه أن يصلّوا على رسول الله عليه الصلّاة والسلام وأعلمهم أنه يصلي عليه هو وملائكته شرفاً له، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} {1387}.

9. ثمّ من التأكيد على ولاية الأولوية أن الله سبحانه وتعالى اختصه عليه الصلّاة والسلام بتشريع الأمر والنهي، وأمر المؤمنين بوجوب القبول منه، قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {1388}.

وعود على بدء لقوله تعالى: (الني أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم)

فالني عليه الصلّاة والسلام أولى بالمؤمن من نفسه في كلّ شيء على ما بيّناه من آيات الذكر الحكيم، وأزواجه صلّى الله عليه وسلّم، هنّ أمهات المؤمنين في كتاب الله، وحتى لا يلتبس الأمر على البعض، فلا يقيس الأبوة على الأمومة كون أزواج النبي عليه الصلّاة والسلام هنّ أمهات المؤمنين، فيكون بذلك النبي أبّ لهم وهو استنباط خاطئ، لأنّ أولوية الولاء بالنبوة، والأمهات بالتحريم، أضف إلى ذلك أن الله تعالى وضّح هذا الأمر وجعله

---

1387 - الأحزاب 56.

1388 - الحشر 7.

بَيْنَا جَلِيًّا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ  
اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ } {1389}.

وهذه علاقة دقيقة بين النبوة وأتباعها، إذ أن علاقة زوجاته عليه  
الصلاة والسلام بالمؤمنين غير علاقته هو بهم، فقد حرم القرآن الكريم على  
المؤمنين أن ينكحوا أزواجه من بعده، أما هو فكان يحل له أن يتزوج من  
نساءهم، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ  
أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ  
وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ  
نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ  
عَلِمْنَا مَا فَרَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ  
حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } {1390}

فمحمد صلى الله عليه وسلم:

. أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

. أزواجه أمهاتهم.

. ما كان أباً أحد منهم.

فهو عليه الصلاة والسلام وليهم ومولاهم، وما بعد قول الله قول.

### حقوق الأولوية:

لقد أوجب الله سبحانه وتعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام حقوقاً زائدة  
على مجرد التصديق بنبوته تجري على قلوب المؤمنين وألسنتهم وجوارحهم  
منها:

---

1389 - الأحزاب 40.

1390 - الأحزاب 50.

. أن يكون أولى بالمؤمنين من أنفسهم قال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ  
بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ}

. أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه وولده ووالده وجميع الخلق، قال  
تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ  
اقتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ  
وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}.

. أن الله أمر بتعزيزه وتوقيره، {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا  
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} 1391.

ذلك أن التعزير، اسم جامع لنصره وتأييده من كل ما يؤذيه صلى الله  
عليه وسلم، والتوقير اسم جامع لكل ما فيه سكينه وطمأنينة من الإجلال  
والإكرام، وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما  
يخرجه عن حد الوقار صلى الله عليه وسلم.

ومن تمام الأولوية لمحمد عليه الصلاة والسلام بالولاء أن الله تعالى:

. حرم التقدم بين يديه بالكلام حتى يأذن.

. نهى عن رفع الصوت فوق صوته.

. لا يُجهر له بالكلام كما يجهر الرجل للرجل.

. أخبر أن الذين ينادونه وهو في منزله لا يعقلون.

لكونهم رفعوا أصواتهم عليه، ولكونهم لم يصبروا حتى يخرج إليهم. ثم

أخبر أن من يفعل ذلك، يكون فعله سببا في حبوط عمله.

أما الذين يعضون من أصواتهم عنده عليه الصلاة والسلام:

. هم الذين امتحنت قلوبهم للتقوى.

. إن الله يغفر لهم ويرحمهم.

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ  
وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا  
تَشْعُرُونَ. إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ  
قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ  
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ  
عَفُورٌ رَحِيمٌ } 1392.

ومن تمام الأولوية وكمالها له عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى خصه  
بمخاطبة انفراد بها دون غيره بما يليق بحضرة النبوة فقال تعالى: { لَا تَجْعَلُوا  
دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا } 1393.

فنهى الله تعالى المؤمنين أن يقول أحد منهم:

. يا محمد

. يا أحمد

. يا أبا القاسم.

ولكن يقولون: يا رسول الله، يا نبي الله.

وهذا ما نراه من تمام أولويته وكمالها صلى الله عليه وسلم

وكيف لا يكون ذلك والله سبحانه وتعالى أكرمه في مخاطبته إياه بما لم  
يكرم به أحدا من الأنبياء، فلم يدعه باسمه في القرآن قط وهذا من كمال  
الألوية، بل يقول:

. { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُرَدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } 1394

. { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ } 1395

. { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ } 1396

. { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ } 1397

. { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } 1398

. { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } 1399

. { يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ } 1400

. { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ } 1401

وأما خطاب الله تعالى لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام أجمعين من آدم  
الذي خلقه الله تعالى بيده، إلى عيسى الآية المعجزة في الخلق نجد الخطاب  
بالاسم المباشر:

---

1394 - الأحزاب 28.

1395 - الأحزاب 59.

1396 - الأحزاب 50.

1397 - الأحزاب 1.

1398 - الأحزاب 45.

1399 - الأنفال 64.

1400 - المزمل 1.

1401 - المدثر 1.

. { قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ } 1402

. { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ } 1403

. { قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ } 1404

. { يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا } 1405

. { قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي

وَبِكَلَامِي } 1406

. { يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ } 1407

. { إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى

وَالِدَتِكَ } 1408

وقد أوجب الله تعالى على جميع الخلق أن يخاطبوه بما خاطبه الله به، وأن يقابلوه من بالصلاة والسلام والثناء والمدح والمحبة والتعظيم والتعزير والتوقير والأدب معه في الكلام والطاعة للأمر والنهي.

وأما قوله تعالى:

. { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ

انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ } 1409.

---

1402 - البقرة - 33.

1403 - البقرة - 35.

1404 - هود - 46.

1405 - هود - 76.

1406 - الأعراف - 144.

1407 - ص - 26.

1408 - المائدة - 110.



. {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ} 1410.

. {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} 1411.

. {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} 1412.

ففي هذه الآيات التي ذكر فيها اسمه عليه الصلاة والسلام صراحة، لم يكن الخطاب موجها له، وإنما هو إخبار للمؤمنين خاصة وللناس على وجه العموم.

إن محمداً عليه الصلاة والسلام حقيق بألوية المؤمنين وولايتهم وألوية البشرية جمعاء، وكيف لا يكون كذلك وقد قال تعالى في حقه محبوا عمّا يُكنه للمؤمنين: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} 1413.

فمن شففته على أمته عليه الصلاة والسلام أنه أوضح لها كل ما تحتاج إليه في معاشها ومعادها من دنياها وآخرتها، سواء أكان في العبادات أم المعاملات فبين لها مشكلاتها ووضع لها حلولها بما يشفي صدورها ويغيظ عدوها، رافة بأتمه ورحمة بها، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "ما تركت شيئا يقرّبكم من الجنة ويباعدكم عن النار إلا قد بينته لكم، وإن روح القدس

---

1409 - آل عمران 144.

1410 - الأحزاب 40.

1411 - محمد 2.

1412 - الفتح 29.

1413 - التوبة 128.

نفث في روعي وأخبرني، أنها لا تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها وإن أبطأ عنها، فيا أيها الناس: اتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء رزقه أن يخرج إلى ما حرم الله عليه، فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته"1414.

فهذا البيان وهذا التوضيح من الرأفة والرّحمة بأمتة الأولى بها عليه الصلّاة والسّلام اشتمل على ما يتصل بالمؤمنين في أنفسهم وأهلهم ومجتمعاتهم في الدنيا والآخرة بنظام بلغ ذروة الكمال والتمام حيث قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}1415.

### النبي الفاتح:

لما كان محمّد عليه الصلّاة والسّلام هو:

. نبي الكافة

. النبي الخاتم.

. رسول الثقلين.

فترتب على ذلك أمور لمحمّد عليه الصلّاة والسّلام لم تكن للأنبياء الذين سبقوه صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين، ومن هنا فتح الله تعالى لمحمّد عليه الصلّاة والسّلام ما لم يفتحه لأحد من الأنبياء من قبله، فكان النبي الفاتح بما فتح الله تعالى لنبيه صلّى الله عليه وسلّم، لأن الله عزّ وجلّ يفتح ما يشاء بما يشاء لمن يشاء، فكان الفتح ممّا اختص به الله تعالى نبيه محمّد عليه الصلّاة والسّلام دون الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، ودون سائر الخلق

---

1414 - مصنف عبد الرزاق، ج 11، ص 125

1415 - المائة 3.

أجمعين، فقال تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن  
ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ  
نَصْرًا عَزِيمًا} 1416.

فالفتح الذي فتحه الله تعالى لنبِيِّه ليكون فاتحًا، لم يكن مقتصرًا على  
فتح مكة أو صلح الحديبية أو غيرها مما ينصب على الجانب المادي في  
الغزوات والذي أفاضت به كتب التفاسير والمطان والسِّيَر والتاريخ، وهذا  
النوع من الفتوح ليس مجال بحثنا لأنه استوفيت منه جوانب كثيرة على مرّ  
العصور، وهو جزء من الفتح العظيم الذي سنتناول منه جوانب أخرى ما  
استطعنا إلى ذلك سبيلًا، والفتح الأكبر لمحمد الفاتح عليه الصلّاة والسّلام  
يتمثل في أمور كثيرة سنتناول منها:

. الفتح العقائدي.

. الفتح الاجتماعي.

. الفتح الفكري والعقلي.

أمّا الفتح المادي الذي يمثل جزءًا من الفتوحات العظيمة، فإنه لا  
شكّ من الأهمية بمكان، كونه ركيزة البناء وتأسيس قاعدة الانطلاق ثمّ نشر  
الفتوحات.

فالفتح المادي الذي يتمثل في الغزوات وذهبت الآراء فيه مذاهب  
شتى سواء أكان:

. فتح مكة.

. أم صلح الحديبية.

. أم فتح خيبر .

فإنها جمعا من الفتوح التي فتحها الله تعالى لنبية صلى الله عليه وسلم، غير أننا نرى أن الفتح لما جاء بصيغة الفعل الماضي (إننا فتحنا لك) يدل على فتوح تحققت وفتوح لم تتحقق، فالفتوح التي تحققت وقف عليها النبي عليه الصلاة والسلام هو وأصحابه، والفتوح التي لم تتحقق كامنة في علم الله تعالى بما هو غيب لعباده وأنبأهم بتحققها لهم مستقبلا، بينما هي متحققة بما قضت به مشيئته تعالى وهو الذي يجليها في وقتها.

لقد بشر الله تعالى رسوله صلى الله عليه بالفتح الذي فتحه له، والتعبير عنه جاء بصيغة الفعل الماضي على سنن سائر الأخبار الربانية للإيدان بتحقيقه لا محالة تأكيدا للتبشير، مثل قول تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} 1417.

وقوله تعالى: {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} 1418.

حيث ينزل الفعل الماضي منزلة المستقبل لتأكيد تحقق الأمر وحصوله.

كما أن تصدير الكلام بحرف التحقيق (إننا) أكد ثبوت الأمر وتحقيقه من لدن المخبر، إضافة إلى ما فيه من الفخامة المنبئة عن عظمة شأن المخبر.

فالإخبار بهذا الفتح نكاد نعتقد أنه جميع ما فتح الله تعالى لنبية عليه الصلاة والسلام من الاضطفاء والنبوة والإسلام والدعوة وانتشارها بالحجة إقناعا وبالسيف دفاعا، ولا فتح أبين من هذا الفتح وأعظم منه، حيث حذف مفعوله لشمول دلالته، وحذف المفعول جاء قصدا للتأكيد على

---

1417 - الأنبياء 105.

1418 - الحج 5.

الفعل والإيذان به، أن مناط التبشير هو الفتح نفسه الصادر عنه سبحانه وتعالى، وليس المقصود خصوصية المفتوح، ولذا حُذِفَ المفعول وأُثْبِتَ مصدر الفعل وصفته (فتحا مبينا) فاستغرق الزمان والمكان.

### . الفتح العقائدي:

محمّد عليه الصّلاة والسّلام خاتم الأنبياء والمرسلين فلا نبي بعده، وهذا ممّا أجمع عليه المسلمون وعُرف من الدين بالضرورة، بثلاثة ركائز أساسية لم تكن لأحد من الأنبياء أو المرسلين صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين وهي:

. كمال العقيدة.

. تمام النعمة.

. الرضا لأهل العقيدة بالإسلام.

حيث قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} 1419.

وهذا الفتح لم يكن لأحد من الأنبياء قبله صلّى الله عليه وسلّم، لأنه أقرّ أصول التوحيد التي جاءت بها الأنبياء قبله، وأتى بتشريعات لم تكن تعرفها الإنسانية من قبل.

أما هذا الفتح وعلاقته بدعوات الأنبياء السابقين صلّى الله عليهم وسلّم فإنها قائمة على أساس التأكيد والتتميم كما تدل عليه النصوص القطعية الدلالة. قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ

مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ  
وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا {1420}.

وبيان ذلك أن دعوة كل نبي تقوم على أساسين اثنين:

الأول: العقيدة.

الثاني: التشريع والأخلاق.

فأما العقيدة فلم يختلف مضمونها منذ بعث الله آدم عليه الصلاة والسلام إلى مبعث النبي الفاتح محمد صلى الله عليه وسلم، وهي الإيمان بوحداية الله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من الصفات، والإيمان باليوم الآخر والحساب والجنة والنار، وكل ما يتعلق بالغيبيات من أمور العقيدة. فكان كل نبي يدعو قومه للإيمان بهذه الأمور، وكان كل منهم مصدق لدعوة من سبقه، ومبشر بدعوة من سيأتي بعده، وهكذا تلاحقت بعثتهم إلى مختلف الأقاليم والأمم ليؤكد الجميع حقيقة واحدة أمروا بتبليغها وإيصالها إلى البشر قال تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} {1421}.

وأما التشريع للأنبياء صلى الله عليهم وسلم فكان مُراعاً فيه الزمان والمكان والحاجات ومشبعاتها، ومن هنا كان لكل نبي تشريع مختص بقومه، إلى أن جمعها الله تعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام بما فتح له، وكان النبي الفاتح، قال تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ} {1422}.

---

1420 - النساء 163.

1421 - القصص 70.

1422 - الشورى 13.

إن من أعظم الفتح التي فتحتها الله تعالى لنبيه عليه الصلّاة والسّلام هو فتح العقيدة التي وضعت الناس على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها، حيث نظم هذا الفتح العلاقة وما تمتد إليه من جوانب، في علاقة المخلوقين بخالقهم، وعلاقة المخلوقين فيما بينهم، وبهذه العلاقة يكون هذا الفتح قد وضع حدودا للإنسان وأثار له الطريق وحدد له الموقف من:

. الضياع العقائدي.

. القلق النفسي.

. التخبط الاجتماعي.

فمّمّالا شك فيه أن معرفة العلاقة الصحيحة مع الله سبحانه وتعالى، هي أهم ما يحتاجه الإنسان، وهذا ما وضحه جميع الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم لمن بعثوا فيهم من أمم، وهي أفضل الأعمال عند الله سبحانه وتعالى، لأنه من خلال معرفة أصول العلاقة وتنظيمها يصل الإنسان إلى الحقائق الفكرية التي تحقّق السعادة في الدنيا والآخرة، وتحديد الحقائق الفكرية في العدل والمساواة والحقوق والواجبات وفق المفاهيم الصحيحة، يجب أن يتركز إلى أصول ونظرية فكرية صحيحة بعيدة عن التعصب الفكري أو العرقي حتى تتقدم الإنسانية بإنسانيتها لا بمادياتها، وهو أهم من التقدم العلمي أو أنه مقدم عليه، لأن العلم والتقدم المدني والرقمي الحضاري ما لم يصدر عن إنسانية الإنسان، بمعنى أن يكون خدمة للإنسانية، فإنه سيكون وبالاً عليها، وهذا ما نشهده في عصرنا الحاضر.

فأفضل بني البشر من عرف الحقائق الفكرية سواء أكانت عقائدية أم علمية أم اجتماعية، وآمن بها وطبّقها، إلا أن الاختلاف العقائدي يبقى موجوداً، فهناك من لا يريد أن يقتنع مهما رأى من أدلة، وواجبنا هو إنارة الطريق للعقول والقلوب التي تريد الحقّ، وتبحث عنه، وقد أتىح للبشرية اليوم

من التنوير والعلم والمعرفة أشياء كثيرة ومتنوعة، وكذلك تواصل جماعي وفردى ما يجعلها مهياة لأن تقول كلمة الحق بالأدلة والبراهين، ونحن على استعداد لتقبل أى رأى يخالف ما نقول إذا كان مدعماً بالأدلة، لأنه واجب على كل طرف أن يدخل فى مجال المناقشة فى النفي والإثبات، أن يحضر الأدلة التى تثبت صواب عقائده، والأدلة التى تثبت خطأ ما يخالفها.

لقد كان الفتح العقائدى بمثابة إيجاد للذات، ونحن لا نعنى الذات البشرية التى تتكون من مقومات الإنسانية العامة التى يتساوى فيها الناس جمعاً. وإنما إضافة إلى ذلك، أو قبل ذلك نعنى المقومات الفكرية والاعتقادية، ومن ثم السلوكية المستقيمة فى العمل والتطبيق بحيث تحقق ذات الإنسان.

إن السلوك الصحيح يتمثل فى الأصول الاعتقادية التى شرحت للإنسان حقيقة الكون والإنسان والحياة، وملأت بذلك ساحة الفراغ الفكرى والنفسى الذى كان متأرجحاً بين القبول والرفض أو بين الصواب والخطأ.

وعلى هذا فإنّ الفتح بهذا الاتجاه، أوضح وحدة الاعتقاد التى أثمرت وحدة السلوك المنسجم مع واقع كل من:

. الكون.

. الإنسان.

. الحياة.

وعندما تمّ الفتح عن حقائق العلاقة من خلال الاعتقاد بين الإنسان وخالقه، وبين الإنسان ومحيطه، لابدّ أن تثمر هذه العلاقة من وحدة الذين



يأخذون بهذا الاعتقاد، عن تضافر جهودهم وجمع شتاتهم، الذي يفجر  
ينابيع الخير لهم.

إن الفتح العقائدي وضع الأمة على محور جامع يتمثل في اليقين  
الفكري الشامل الذي يوضح صورة متكاملة عن حقيقة وجود الخالق  
والوجود الكوني وعن حقيقة العلاقة بين الخالق والمخلوق من جهة وبين أفراد  
الإنسان من جهة أخرى، قال تعالى: {وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا  
وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ  
إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ  
آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} 1423.

فال محور الذي يؤلف بين الجميع ويجعلهم متساوين أمام الخالق هو  
الاعتصام بحبل الله، المتمثل في بنیان العقيدة المتكاملة والاجتماع عليه، ثم  
نهامهم عن الإعراض عنه (ولا تفرقوا) للمحافظة على عدم ضياعهم. ولو أنه  
أمرهم بالاتحاد وعدم التفرق، قبل التمسك بال محور الجامع، لكان ذلك عبثا  
من القول، ولكانت محاولة الوحدة أشبه بمن يريد أن يرسم دائرة متكاملة  
دون أن ينطلق من نقطة محورية ثابتة تحدد بداية هذه الدائرة.

ولذا فإننا نجد الفتح العقائدي يدعو إلى التأمل والتفكير والتدبر.  
وعملية الإكراه على اعتقاد ما، غير واردة ولا ممكنة. ذلك أن الاعتقاد في  
حقيقته إنما يتمثل في يقين الإنسان الناتج عن البحث في أصوله ومقدماته  
وعلله وأسبابه، وليس قائما على القسر أو مصادرة الرأي قال تعالى: {لَا  
إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ  
فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} 1424.

---

1423 - آل عمران 103.

1424 - البقرة 256.

ومما يقع فيه البعض من الخطأ في فهم هذه الآية أن يذهبوا إلى (لا) على أنها ناهية جازمة، بينما هي نافية للجنس، أي أنها نفت جنس الإكراه البتة.

إنّ الفتح العقائدي الذي جاء به التكليف الإلهي الموجه إلى الناس، إنّما انصب على عمل وسلوك اختياري يتمثل في توجيه العقل والفكر إلى البراهين والمقدمات والأسباب التي من شأنها أن تبصّر الإنسان بكل من الحقّ والباطل على حدّ سواء.

ولذا كان الثواب والعقاب على الاختيار المنوط بالعقل في اختياره.

أمّا الانفعالات فلا يتعلق التكليف بها بحال من الأحوال. لأنّها لا تدخل في وسع الإنسان وطاقته، وقد قال الله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} 1425.

إنّ الفتح العقدي هو بمثابة المصباح الذي يضيء للعقول طريقها، والله تعالى إنّما كلف عباده التزام المنهج العقلي الموصل إلى معرفة الحقّ، فمن عرف الحقّ وجب أن يذعن له، وهذا الإذعان ليس قسرا، وإنما تمت معرفة الحقّ عن طريق العقل، فمن عرف الحقّ بعقله ولم يتبعه فقد وجبت له العقوبة باختيار، ومن عرف الحقّ واختار الباطل فقد أباى ولن يضرّ الله شيئا، والله تعالى غني عن خلقه، حيث أخبر بقوله: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} 1426. وهي دعوة إلى الإنسان في أن يسلك سبيل النظر في البراهين والأدلة والآيات التي توصله إلى العلم بالآلة إلا الله.

إنّ الفتح الذي جاءت به العقيدة أمر قائم على المحاكاة العقلية من أجل الوصول إلى قناعة في حقيقة الاعتقاد، ولا يتصور أحد أن الأمر على

---

1425 - البقرة 286.

1426 - محمد 19.

نقيض هذه الحقيقة الواضحة. فلا يتصور أحد أن التكليف الإلهي وارد على الإيمان والاعتقاد مباشرة، دون أي محاكمة عقلية أو منهج منطقي، ودون أي بحث أو نقاش، لجأوا إلى التسليم المطلق!

ودلينا في ذلك النصوص النقلية التي فتح الله بها لنبهه أصول الدعوة إلى العقيدة حيث قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} 1427.

فهذا الفتح في العقيدة وطريقة إيصالها تعمد إلى مخاطبة القلب من خلال العقل بالحجة والمنطق والدليل والبرهان، وإن لينها ورفها في المخاطبين والأمر بهذه الطريقة في التعامل مع البشر هو دليل على أن الخالق غني عنهم.

### . الفتح الاجتماعي.

إنّ الفتح الذي فتحه الله تعالى لنبهه الفاتح، قد بلغ أسمع الدنيا وأبصارها باستمرارية هذا الفتح الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، بكل ما قدمه للإنسانية على المستويين المادي والمعنوي وما يتبع ذلك من جوانب عقائدية واجتماعية واقتصادية، بحيث لم يكن مقتصرًا على المسلمين وحدهم.

لقد أتى محمد صلى الله عليه وسلم، من جملة ما أتى به من الفتح، الفتح الاجتماعي الذي أرسى قواعد التعامل ونظّم العلاقات لأتباع العقيدة فيما بينهم من جهة، وبين أتباع العقيدة وغيرهم من جهة أخرى.

فكان هذا الفتح أساسًا من أسس التعامل والعلاقة التي تقوم بين البشر في تقنين الحقوق والواجبات والمعاملات والأحوال الشخصية والمدنية

وما لهم وما عليهم، بإعطاء كلّ ذي حقّ حقه، فوضع البشرية على بينة من أمر ما يصلحها، ونهاها عما يفسدها بالأدلة والبراهين والتجربة، ولأن الإنسان هو غاية رسالة الفاتح ووسيلتها، لذا كان الفتح الاجتماعي هدفا من أهداف العقيدة.

إنّ ترابط المجتمع، وتواصل أفراده، وتماسك أجزائه، وتراص لبناته، مقصد عظيم من مقاصد الفتح، وهدف مهم من أهداف العقيدة، والذي يوضح هذه العلاقة ويؤطرها ويبيّن سبلها ويحدد أبعادها لأهل العقيدة فيما بينهم من جهة، وبينهم وبين خالقهم من جهة أخرى قوله تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 1428.

فالمؤمنون والمؤمنات مأمورون بالحبّة فيما بينهم وينصر بعضهم بعضا بمقتضى الحقّ وبمقتضى الإيمان بهذا الحقّ، الذي يأمرهم به دينهم الحقّ، وينتهون عما تُهوا عنه من المنكرات التي تأبها النفس المطمئنة، ويبيّن لهم حقوق الخالق من حقوق الخلق، وإن كان كلاهما أمر من الله تعالى، فهم يؤدّون الصلاة في أوقاتها للخالق طاعة له، ويؤتّون الزكاة للمخلوقين طاعة للخالق. ويمثّلون ما يأمر به الله ورسوله بما فتح عليهم، ويجتنبون ما ينهى عنه الله ورسوله بما فتح عليهم أيضا.

وقد أكد من جاء على يديه الفتح عليه الصّلاة والسّلام على البنية الاجتماعية حيث قال صلّى الله عليه وسلّم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا" 1429.

---

1428 - التوبة 71.

1429 - سنن الترمذي، ج 4، ص 325.

وأما علاقة الجوار فلم يقصرها على المؤمنين، وإنما يدخل فيه المؤمن وغير المؤمن، وهذا ما أكد عليه من الشمول لعموم الإنسانية بالرعاية والحماية وحسن الجوار متسلسلا من الأدنى إلى الأقصى.

فأمر بحسن الجوار، ومعرفة حقوق الجار، فللجار في الإسلام حرمه مصونة، وحقوق كثيرة، لم تعرف منها قوانين الأخلاق ولا شرائع البشر من قبل إلا الشيء اليسير، فقد بلغ من عظيم حق الجار أن قرنه الله سبحانه وتعالى بعبادته وتوحيده، وجعله من الحقوق العظيمة، فهل هناك أعظم من هذا الفتح قال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} 1430.

لقد أمر الله تعالى بحسن الجوار ولم يوصي به فقط، ذلك أن الأمر يختلف عن الوصية، لأن الأمر يدخل في باب الطاعات، ومن عظمة هذا الفتح الاجتماعي أنه لم يحدد هوية انتماء الذين ذكروهم في الآية، وإن كان الخطاب للمتعبدين معلوم من أنه للمؤمنين، غير أن التسعة الآخرين المذكورين في الآية وهم:

. الوالدان.

. ذوي القرى.

. اليتامى.

. المساكين.

. الجار ذو القرى.

. الجار الجنب .

. الصاحب بالجنب .

. ابن السبيل .

. ملك اليمين .

قد صرف النظر عن انتمائهم العقدي للبعد الاجتماعي والإنساني، ذلك أن الفتح للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جاء ليشمل الإنسانية جمعاء، فإن لم تتبعه عقدياً، فقد ترك لها الباب مفتوحاً تأخذ من هذا الفتح ما ترقى به إلى إنسانيتها التي كرمها الله بها على العالمين.

إن الفتوحات التي فتحها الله تعالى لنبيه قد امتدت من المحيط إلى المحيط، وسماحة هذا الفتح الذي لم يجبر أيّاً من أبناء البلاد التي دخلها الفتح على اعتناق عقيدته، وهذا ما أوجد عناصر أخرى من غير أهل العقيدة ساهمت بشكل أو بآخر في تشكيل هذا البناء على اعتبار أن هؤلاء أصبحوا أحد مكونات الأمة التي ينتمون لها، حتى ولو لم يدينوا بدينها أو ينتمون إلى عقيدة الفاتح.

ولذا نلاحظ أن هذا التنوع لم يقتصر فيما عمّه الفتح على الاختلاف العقائدي فحسب، بل امتدّ كذلك إلى تنوع الاجتهادات والآراء والأفكار التي أنتجت فيما بعد العديد من التيارات الفكرية التي كانت تعكس بجدارة قدرة أهل الفتح على احتواء مختلف الرؤى واستيعابها انطلاقاً من السماحة التي يحملها الفاتح.

وهذا الاستيعاب الذي يحمل السماحة والعدالة والمساواة، النابعة من منطلقات فكرية جاء بها الفاتح، وطرح من خلالها حلولاً للإنسانية مترفعا عن التعددية واللون والجنس والعرق، وفق رؤية جديدة أرادت أن تبين موقف

الفتاح بما يحمل من فكرة، هي غير تفاضلية إلا بالتقوى. وعلى هذا فإنّ المواطنة مكفولة للجميع انطلاقاً مما يحمل الفتح من فضائل وقيم جاء بها الفتح.

إنّ الاختلاف والتنوع سنة من سنن الله في الكون، كما أنه سنة بين البشر، وهو على هذا سنة الخالق في المخلوقين وقد دلت على ذلك نصوص القرآن قاطعة الدلالة، حيث قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} 1431

كما نصّ القرآن الكريم على أنّ اختلاف الألسنة والألوان بين الناس آية من آيات الله وليس تفضيلاً لبعض الخلق على البعض قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ} 1432.

لقد جاء النصوص الدلالية يؤكد أنّ اختلاف الألسنة والألوان حقيقة قائمة بين البشر، ولذا لم يفرق الفتح وأهل الفتح بين أحد من الناس على أساس لونه أو عرقه، كما أنه لم يأمر أحداً بترك لسانه أو العدول عنه إلى لسان آخر أو تكلم لغة غير لغته، لأن الكتاب الذي بشر بالفتح لم يأمر بشيء من هذا القبيل.

فالاختلاف سنة من سنن الله في خلقه ظاهرة بادية، وهو آية من آيات الله لأولي الألباب، قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ

---

1431 - الحجرات 13.

1432 - الروم 22.

وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ  
يَعْقِلُونَ {1433}.

فالكون قائم على المتضادات مثل:

. الليل والنهار .

. الشمس والقمر .

. الحرارة والبرودة .

. الحقّ والباطل .

. الهدى والضلال .

. الخير والشر .

هذه الثنائية التي يتركب منها الكون، قائمة في كلّ شيء، وليس معنى هذا أن التنوع وهذه الثنائية، لا بدّ أن يكون بين شيء إيجابي وبين آخر سلبي، ولكن هناك تنوع داخل كل إطار وليسوا جمعا بدرجة واحدة، فالإيمان نفسه درجات.

ولذا فإن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام لما فتح الله له، وهو الذي يمثل قدوة الفاتح معيارا، قد سمحت سماحته لليهود أن يستمروا على ما هم عليه، ويحصلوا على المواطنة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولو أنّ اليهود لم يتأمروا على الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ولم يُخلّوا بالعهود والمواثيق التي قطعوها على أنفسهم، لاستمروا في حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية في موطنهم، ولما تأمروا على الفاتح وأصحابه، كتب الله له فتحا آخر عليهم، بأن أجلاهم عن إشعاع الفتح من المدينة.



وربّ قائل يقول:

كيف يستقيم أن هذا الفاتح الذي وضع أسس فكرة المواطنة السياسية، والسماح بالخلاف في العقيدة، لا يسمح بهذا الخلاف في السياسة.

لقد أشرنا آنفاً أن المنطلقات الفكرية التي جاء بها الفاتح قائمة على المساواة بين الناس جمعاً، وأن التعددية مفتوحة في ظل هذا الفتح، ولا يحدّها إلا شرط واحد، إذا لم يتحقّق هذا الشرط، فهنا على مجتمع الفتح أن يتدخل للحظر والمنع حفاظاً على نفسه.

وهذا الشرط هو عدم تعاون المختلفين مع الأعداء أو السعي لتقويض النظام أو الإخلال به، فهذا هو الشرط الذي يمكن أن يؤدّي إلى منع ذلك، وهذا شرط موجود ومتعارف عليه لدى جميع الأمم وليس لدى المسلمين فقط، إذ أن من واجب الحضارات أن تحمي رعاياها وتحمي نفسها.

وأما أن الادّعاء بعدم قبول التعددية السياسية خشية دعوة هؤلاء بأفكارهم وعقائدهم ونشرها في مجتمع الفتح، فإنه ادّعاء لا يقوم حجة ولا يصمد لبرهان، لأن مجتمع الفتح يمتلك من الحجج الإقناعية والبراهين العقلية ودلائل الحقّ ما يجعله في موقف عدم الخشية من الرأي الآخر، معتمداً على ثوابت وحقائق تكمن في المنطلقات النظرية التي لا يختلف عليها عاقلان في قبولها وصولاً إلى الحقّ والحقيقة قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} 1434.

ولذا نجد موقف الإسلام محددًا من مسألة الاختلاف في العقيدة،  
وقائم على الاعتراف بالآخر، قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ  
مِنَ الْعَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا  
انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} 1435.

لأنّ مفهوم التعايش مع الآخر من بني البشر واحترام الحق في  
الاختلاف وضمنان عدم الاعتداء على الناس بسبب أفكارهم أو معتقداتهم  
أمر أقرّه:

. واهب الفتح.

. الفتح نفسه.

. من جرى الفتح على يديه.

فقد قال تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} 1436.

فلم يحدد هوية هؤلاء الناس من انتماء أو جنس أو لون أو عقيدة.  
ومعلوم أنّ الناس متعدّدوا الأجناس والأعراق والألوان والعقائد.

فمن هذه الناحية يمكن أن نقول إن الإسلام ربّما يكون الدين الوحيد  
الذي عرفته البشرية الذي يعمل على تحقيق هذه المعاني، في حين أن الأديان  
الأخرى لم تكن تعرف أي تسامح مع المختلفين معها، وتاريخ أوروبا  
والصراعات المريرة التي جرت بين الكاثوليك والبروتستانت خير شاهد على  
ذلك إلى وقتنا الراهن.

---

1435 - البقرة 256.

1436 - القرّة 83.

بينما يكاد الإسلام أن يكون الدين الوحيد في تاريخ البشرية من الأديان التي سبقته، قد نفى مقولة: (الناس على دين ملوكهم) فقد كانت جميع الحضارات السابقة على الإسلام من اليونانية إلى الرومانية أو المسيحية وحتى الوثنية قبل ذلك، تعتمد المبدأ الثابت لها بأنّ الناس على دين ملوكهم. بمعنى أنّ أيّ مواطن موجود تحت راية حاكم أو في مملكته فهو على دين هذا الملك أو الحاكم، أما إذا خالف دين الملك لا يكون مواطناً، وقد وصل بهم الأمر إلى تسمية من يغيّر دينهم بالأعداء، ولذا كان الاعتراف بالآخر من أعظم الفتوح التي قدمها الإسلام للإنسانية جمعاء.

لأنّ الإسلام حين جاء، أتى بفاتحة جديدة في التعددية والاعتراف بالآخر وقبوله، فقبل لأول مرة في التاريخ الإنساني الذين لا يدينون بدينه كمواطنين، لهم حقوق وعليهم واجبات، ولا يكاد يخلو كتاب في الإرث العقدي من الثقافة والتنظيم إلا وفيه باب عن تنظيم أوضاع غير المسلمين من أهل الكتاب أو أهل الذمة وحتى الوثنيين للبلاد التي عمّها الفتح بإثبات ما لهم وما عليهم كونهم مواطنين.

ودليلنا على ذلك أن الرسول الفاتح صلّى الله عليه وسلّم، حين جاء إلى المدينة وضع وثيقة تبين علاقته وعلاقة أتباعه عليه الصلّاة والسّلام بالآخرين، حيث مثلت هذه الوثيقة فتحاً جديداً في تاريخ البشرية، كانت بمثابة الدستور الذي نظم قواعد العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أهل المدينة، حيث كان بين ظهرانهم قبائل اليهود وغيرهم من الوثنيين قبل أن يعمّ الفتح قلوبهم وعقولهم، وهذه الوثيقة دليل على اعتراف الفاتح عليه الصلّاة والسّلام بالوجود الاجتماعي والثقافي والاقتصادي لهؤلاء، شرط أن يكونوا تحت سلطة النظام السياسي الذي أمّن لهم المواطنة، وهذه الوثيقة وهذا الاعتراف مثلاً فتحاً جديداً في تأسيس العلاقات بين المسلمين وغيرهم

على اعتبار أن غير المسلمين مواطنون، وقد اعترف بهم كأمة، ولأوّل مرّة  
وجد في تاريخ البشرية مستويان من العلاقات ضمن الدولة الواحدة:

المستوى الأول:

. قائم على أساس فكرة وحدة العقيدة.

. المستوى الثاني:

. قائم على فكرة المصلحة والعيش المشترك.

فالمصلحة والعيش المشترك بين المسلمين وغيرهم، دليل على أن هناك  
مقاصد معينة لبقاء غير المسلمين على أرض واحدة، وهي فكرة حديثة وفتح  
جديد لم تعرفه البشرية من قبل.

وهنا يمكن لنا المقارنة بين هذا الفتح وما كان قبله من أديان ترفض  
التعامل مع الآخر وترفض قبوله، حيث نجد فكرة الكاثوليكية التي تأخذ  
بالمذهب الشامل أو الكلي، ترفض الاعتراف بالآخر، فلا تقبل أن تظهر  
فكرة مسيحية أخرى مناهضة لها أو معارضة لمذهبها، حيث ظهرت  
البروتستانتية كمذهب احتجاجي على الاحتكار الديني والدينيوي، فكانت  
نتيجة ظهور مذهب آخر، اندلاع معارك وسفك دماء لا تزال قائمة إلى  
اليوم.

وعلى العكس من ذلك أن الرّسالة التي جاء بها الإسلام كانت فتحة  
جديدا في حلّ مشكلات البشرية مع أبناء الدين الواحد والأديان التي  
عايشها، فهي قائمة على فكرة التعددية بحيث نظمت العلاقات مع جميع  
الأعراق والأديان والمذاهب في قبول الآخر والاعتراف به والتعامل معه.

ولذا نجد الإمام مالك عند ما طلب منه أبو جعفر المنصور بأن يجعل  
من (الموطأ) كتابا للمسلمين رفض ذلك، لأنّه لا يرى لنفسه الحقّ في

احتكار الاجتهاد، ويرى أنّ هناك مجتهدين آخرين، ومذاهب أخرى في الدين الواحد، بمعنى أن هناك تعددية فقهية، ولكنها تعددية لها قواعد ومناهج وأصول ولها نظر علمي، وأنها مدارس على أعلى مستوى في العلم والنظر في إدارة أوضاع المسلمين بما يناسب الزمان والمكان والاستثناء بأمورهم:

. العقائدية.

. الاجتماعية.

. الاقتصادية.

. الأحوال الشخصية.

. العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

إنّ الفتح الاجتماعي الذي جاءت به عقيدة الفاتح قد وضعت أسسا وأرست ركائز لا غنى للإنسانية عنها حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

**. الفتح الفكري والعقلي.**

إنّ الله سبحانه وتعالى كرم الإنسان على جميع خلقه، وجعل أكرم ما في الإنسان عقله الذي يستدل به على خالقه وحقائق خلقه من خلال الأسباب والوسائل التي سخرها الله له.

وعندما لا يستطيع الإنسان الوقوف على الأسباب لإحداث النتائج، أو كانت الوسائل غير صالحة للوصول إلى الغايات، فإن الإنسان قد ابتعد عن المهمة المناطة به في الخلافة وعمارة الأرض، إذ أن أمر التكليف من الله تعالى للإنسان، مناط بما منحه من القدرات المادية والعقلية، ومن خلال ما

سخر له في هذا الكون الرحيب، حيث قال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا  
إِلَّا وُسْعَهَا} 1437.

وعندما جعل الله تعالى الإنسان خليفة في الأرض وكلفه بإعمارها  
وإصلاحها وعدم الإفساد فيها، فلا بدّ أنه مستطيع، وبدون هذه الاستطاعة  
يصبح الوجود عديمًا وفاقدًا لمعنى وجوده.

إن تراخي الزمن وتباعد الفترات بين الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم من  
جانب، وما تحمل النفس النزاعة من جانب آخر، جعل الإنسان يبتعد عمّا  
وجد من أجله، فعاث في الأرض فسادًا، ممّا ترك عليه تراكمات كثيرة بعيدة  
عن الحقّ والصواب حتى خالجت عقله وذاكرته من جهة، وداخلت نفسه  
وشهواتها من جهة أخرى.

ومن خلال هذه المخالجة والمداخلة فقد تعرض العقل الإنساني لكثير  
من الأوهام والضلالات والشكوك على مدى تاريخ البشرية بتراخي الزمن  
عن مصدر الحقيقة التي تأتي بها الأنبياء والمرسلون، وبما تراكم على العقل من  
مغالطات تعامل معها على أنها مسلمات متوارثة غير قابلة للخطأ.

ومع أنّ قدرة العقل على تصحيح نفسه بنفسه موجودة إلى حدّ ما  
لدى بعض الأفراد، ما يوفر له درجة لا بأس بها من الحماية عن الغوص في  
مناهات الضياع من الضلال، لكنه بسبب قصوره البشري، يبقى بالنسبة  
للحقيقة المطلقة، محتاجًا إلى تعزيز ما يعتقد صوابًا، من مصدر مبرأ عن  
الخطأ، وهذا المصدر هو الفتح الذي يأتي عن طريق الوحي. وبمجرد أن يتم  
إرساء القضايا المتعلقة بالحقائق من خلال مبادئ أولية، فإن العقل يكتسب  
عندئذ قوة يستطيع بها أن يتغلب على ما يعترضه من مشكلات.

وعليه فإنّ كافة افتراضات العقل الأولية بعد فتح الوحي حول الحقائق تكون أقرب للصواب على تنوع هذه الحقائق التي منها:

1 . بعضها يكون غيبيا مُسلّم بها:

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} 1438.

وهنا لابدّ من وقفة أمام هذا الفتح الذي جاء به محمّد عليه الصلّاة والسلام حيث أن:

. علم الساعة غيب مطلق.

. علم ما في الأرحام نقف عليه بعد خروجه.

. كسب الغد يُعلم عندما يأتي الغد.

. الموت بأي أرض، نعلمه بعد وقوع الفعل.

فكان حدوث الغيب النسبي ومعرفتنا له حال تجليه، هو استلال على وقوع الغيب المطلق.

2 . بعضها يكون بديهيها في الوجود:

كقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْقُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ

مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ  
وَالسَّحَابِ الْمُسَحَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ {1439}.

3 . بعضها إخباريا عبارة عن تجارب بشرية آثارها قائمة:

كقوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ  
مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا  
فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ {1440}.

فالحقيقة الأولى من هذا البعض لا يمكن إدراكها إلا للذين تتوفر فيهم  
الدرجة المطلوبة من الحكمة ونضوج الرؤية الإيمانية والأخلاقية، هؤلاء الذين  
نتوقع منهم أن يدركوا الحقيقة على وجهها الصحيح. ومن هنا، فإن إدراك  
مثل هذه الحقائق والقيم قد لا يكون عاما بالمفهوم الرياضي القائم على  
الحقائق الذهنية مثل العمليات الحسابية، أو الحقائق الواقعية مثل اللبن الذي  
لا يكون إلا أبيضاً.

وإنما ذلك يتطلب نوعاً آخر من المؤهلات الضرورية التي يتعين  
وجودها. وحيثما لا يتأتى للعقل، اليقين الجازم بالوقوف على هذا النوع من  
الحقائق، فإن نور الإيمان يمكن أن يمدّه بهذا اليقين، بل إنه يلقي ضوءاً كاشفاً  
على سائر الفرضيات الأولية التي تضيء مزيداً من اليقين على النظرة  
الشاملة للكون المبنية على تلك الفرضيات.

إنّ بين الإيمان والفرضيات العقلية الأولية علاقة تفاهم وتناغم  
واتصال. وإن الفتح العقدي الذي جاء به الإسلام، لا ينفك عن العقل  
سواء في وظيفة تلك الفرضيات النظرية أو فيما تسهم به في خير الدنيا

---

1439 - البقرة - 164.

1440 - الأحقاف 24، 25.



والآخرة، خلافا للديانات الأخرى القائمة على التسليم المطلق بما تأمر به عقائدهم دون جدل أو نقاش، حتى وإن كان يناقض العقل.

ولذا لم يكن الفتح العقدي في الإسلام ليضع الإدراك العقلي والإدراك الإيماني على طرفي نقيض بحيث يفرض على الإنسان أن يختار بينهما.

وهكذا كانت الدعوة عامة لأصحاب الفتح وغيرهم في أن ينظروا بعقولهم وليس بأبصارهم إن كانوا ينشدون الحقيقة، قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ} 1441.

فهي دعوة للعقل في التفكير والتدبر بهذا الكون وصولاً إلى الحقائق:

. الإلهية.

. الكونية.

. العلمية.

فهذا الفتح العقدي قد طرح الكليات للبشرية ودعاها للتفكير فيها وصولاً إلى حقائقها عن طريق الأدلة العقلية والبراهين المنطقية دون أن يغلق الباب أمام أحد، ولم يفرض على أحد قبولها قبل مناقشتها في استيعاب عللها وأسبابها التي نتجت عنها المعلولات، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِعَمَدٍ تَرْوَاهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا

رَوَّجَيْنِ اثْنَيْنِ يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ  
يَتَفَكَّرُونَ {1442}.

لقد كانت معجزات موسى عليه الصلّاة والسّلام تعالج قضايا آنية  
بعض منها من جنسها، مثل العصا التي لفتت ما يَأْفِكُ السحرة، قال  
تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلِقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا  
يَأْفِكُونَ} {1443}.

والبعض الآخر تكريماً لموسى عليه الصلّاة والسّلام واستجابة لدعائه:  
{قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ  
الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ فَمَا كَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ} {1444}. من أجل ترسيخ  
إيمان قومه بالمعجزة.

ومعجزات عيسى صلّى الله عليه وسلّم، التي هي أصلاً امتداد لطريقة  
خلقه المعجز من جهة، ومحاكاة لواقع قومه من جهة ثانية في إبراء الأبرص  
والأكمه وإحياء الموتى، قال تعالى: {وَأُبْرِئِ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ  
بِإِذْنِ اللَّهِ} {1445}

أمّا الدعوة إلى العقيدة التي جاء بها محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فهي  
فتح جديد في التعامل ووسائل الإقناع عن طريق الحوار والجدال والنقاش  
والتأمل والتفكّر والتدبّر اعتماداً على العقل في استنتاج الأدلة والبراهين على  
صدق الفتح الذي نزل به الوحي.

---

1442 - الرعد 2، 3.

1443 - الأعراف 117.

1444 - الشعراء 62، 63.

1445 - آل عمران 49.

وبهذا الفتح تحولت الدعوة إلى الإيمان من الاستسلام والتسليم، إلى المناقشة والجدل الذي ينشد المعرفة وصولاً إلى الحقائق بإعمال العقل في التفكير والاستنتاج للوقوف على الحقيقة المطلقة، إذ لا حقيقة مطلقة إلا الله، ولا حقيقة مطلقة إلا من الله الذي فتح لنبه عليه الصلاة والسلام هذا الفتح من أجل معرفة الحقيقة.

فالفتح الذي تكلم عن الحقيقة وأراد إيصالها بالمعرفة إلى البشرية، فإن خير ما يوصف به أنه قائم على وحدة الحقيقة التي يدعو إليها، وهذه الوحدة:

. مستمدة من وحدانية الله المطلقة.

. إن الله تعالى هو الحق.

. الحق من أسماء الله الحسنى.

فإذا كان الله واحداً كما دلت الأدلة والبراهين العقلية والنقلية، فلا يمكن أن تتعدد الحقيقة. إن الله يعلم الحقيقة وينزلها من خلال الوحي صافية إلى خلقه، فلا يمكن أن يجيء ما ينزل به الوحي مختلفاً عما في الحقيقة الواقعية، لأن الله سبحانه هو خالق الحقائق كلها الواقعية منها والمطلقة.

والحقائق التي تدخل في نطاق ما يحيط به عمل العقل مُتضمّنة في قوانين الطبيعة التي هي سنن الله في خلقه، وهي سنن دائمة ثابتة، ومن هنا يمكن أن تُكتشف تلك الحقائق وتقن وتستخدم لمصالح الإنسانية عن طريق الفكر والعقل.

والفتح الذي جاء به الوحي معلنا وحدانية الخالق، وأنه خالق الوجود، كذلك فتح معرفة حقيقة القوانين الطبيعية أو السنن الربانية التي تسيّر هذا الكون وفق مشيئة الواحد الحق. ومن الواضح أنه لا يمكن أن يكون هناك

بيان أو تعبير عن تلك القوانين أصدق من بيان خالقها ومدبرها، وعليه فإنه نظريا لا يمكن أن نتصور وجود أي تناقض بينهما، قال تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} 1446.

فهذا ما يقبله العقل ويطابق تفكيره، وهذا التطابق المنطقي بين العقل والحقيقة والواقع من جانب، وبين ما يأتي به الوحي من جانب آخر هو أعظم مبدأ جاء به الفتح المعرفي الذي يحاكي العقل والمنطق بعيدا عن السفسطة الفلسفية والميتافيزيقا القائمة على الظن والتخمين، حيث يقوم على مبادئ معرفية يدركها العقل بالتدبر والتأمل منها:

. أن وحدة الحقيقة تعني رفض أي إمكانية للتناقض بين الحقائق الواقعية وما أتى به الفاتح عن طريق الوحي.

فكل ما جاء بهذا الفتح عن طريق الوحي لا بد أن يكون صادقا منسجما مع الواقع موافقا له، إذ لا يتصور أن يكون الحق، يطع خلقه على غير الحقائق، وإن كانت نسبية لهم، مطلقة للخالق عز وجل.

وعليه: فإن ما بينه لهم لا يمكن أن يتعارض البتة بأي وجه من الوجوه مع حقائق الواقع، لأنه ما كان هذا الفتح من الوحي، إلا للإرشاد والتعليم والمعرفة من أجل الاستقامة.

فإن ظهر أي تناقض بين فتح الوحي وبين الواقع، فإن على العقل أن يراجع نفسه في فهم ما أتى به الفتح مادام يؤمن بمبدأ وحدة الحقيقة، لأن هذا المبدأ يحمي العقل من الغوص في متاهات خطر التأويل والتفسير الذي لا تدعمه حجة ولا يكون عليه دليل ولا يقوم به برهان، لأنّ العقل لا ينافي الحقائق لأسباب منها:

. أنّ الحقيقة تقتضي منطقيا أنه لا يوجد تعارض أو خلاف أو تفاوت بين العقل وبين الفتح الذي أتى به الوحي.

إنّ الإنسان وهو مدعو إلى التدبّر والتفكر والتأمل في هذا الكون، يحاول أن يكتشف السنن التي أوجدها الخالق في الكون من أجل الوقوف على حقيقتها، ويمكن لهذا الإنسان أن يظن أنه قد أمسك بالحقيقة أو وقف عليها، وكثيرا ما يخطئ ويتوهم. وهذا الموقف الذي يقف عليه، يخلق له تعارضا ظاهرا بين العقل وبين فتح الوحي، والحقيقة ترفض هذا التعارض وترى أنّه وهم، وعندما يظهر هذا التعارض وجب النظر بالمعطيات من جديد.

لأنّه قد يكون سبب التعارض، هو ما انتهى إليه العلم أو العقل من نتائج، أو إساءة فهم ما جاء به فتح الوحي، وهنا وجب مراجعة المسلمات العقلية، وليس الحقائق اليقينية.

. إنّ السنن الإلهية وطبيعة قوانين المخلوقات، تفرض التفكّر والتدبّر والتأمل في طبيعة الخلق، أو في أي جزئية منه، بحيث لا يمكن أن يقف عند حدّ أو أن يُغلق بابه، ذلك أن نَعَمَ اللهُ على خلقه غير محدودة، ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾{1447؛ فترتب على ذلك أن سنن الله في خلقه غير محدودة.

فمهما عرفنا منها، وتعمقنا في هذه المعرفة، لا يزال منها المزيد طي جهلنا وعدم معرفتنا.

ومن هنا، فإنّ الاستعداد لقبول الجديد من البراهين والأدلة، والتمسك بالتدبّر والتأمّل، هي خصائص لازمة للعقل السليم الذي يقبل الحقيقة ووحدها، الأمر الذي دعا إليه الفاتح.

ولذا وجب البحث الدائب وراء السنن الكونية والقوانين الطبيعة التي لا يكون الحكم عليها نهائيا قياسا للنسبية البشرية.

وعليه فإن هذا الفتح قد أبقى الباب مفتوحا على الأحكام التي أثبتتها الأدلة والبراهين، لأنّ أصدق الأحكام البشرية مهما بلغت من الدقة تبقى صالحة إلى وقت ظهور أدلة جديدة تدعمها حجج عقلية وبراهين منطقية تدحض ما قبلها وتثبت الجديد، والله أعلم.

### الأمة والرّسالة الخاتمة:

قبل الدخول في مناقشة قضية النبي الخاتم، لابدّ من الوقوف على حاجة الإنسانية للنبي الخاتم والكتاب الخاتم بالأدلة النقلية والعقلية.

إن من فضل الله علينا وعلى الناس، بعد هذا التطور العلمي الهائل، في إثبات كثير من الحقائق الإنسانية والكونية التي جاء بها الكتاب الخاتم عن طريق النبي الخاتم، أنه لم يعد في مقدور أحد أن يلقي الحبل على غاربه ويفتري أشياء ما أنزل الله بها من سلطان.

وإن كان البعض يحاول، فإنما هي محاولة التشبث بآراء دحضتها الأدلة وعفت عليها البراهين، حيث قال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} 1448.

إن كثيرا من الآيات القرآنية والكونية التي وقف عليها كثير من الجاحدين والمنكرين، والتي اكتشفوا بعضها بأنفسهم تبرهن لهم على حقيقة النبي الخاتم وإن كانوا لها منكرين.

لقد جاء الكتاب الخاتم مع النبي الخاتم، شاهداً على الكتب السماوية السابقة، وجامعا لرسالاتها، ومحقق التمام وكمال تاريخ النبوة، ومؤكداً على وحدتها، ومصوّباً لمسيرتها، ومبيناً علل النكوص التي لحقت بأصحابها وكانت سببا في انحرافهم، ليكون ذلك بياناً وهدى وموعظة على يد الأمة الخاتمة التي أخذت ذلك عن النبي الخاتم من الكتاب الخاتم، وبذلك تكون الأمة الوسطية مصداقا لقوله تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } 1449. وشهادة الأمة الوسط على الناس، دليل على أنها أمة النبي الخاتم الذي أتى بالكتاب الخاتم.

لقد جعل الله تعالى شهادة الأمة على الأمم دليلا على أن محمداً عليه الصلوة والسلام هو النبي الخاتم، فكان هذا الدليل يتمثل به:

. شهادة منها على أنه النبي الخاتم.

. شهادة على الأمم، شهوداً تاريخياً من القصص القرآني الذي لم ينكره أهل الكتاب.

. شهادة واقعية من خلال تفويمها للحاضر بقيم الكتاب الخاتم.

. شهادة مستقبلية من خلال بيان معالم طريق النجاة وصولاً إلى الصراط المستقيم.

ثم وضع الضوابط التي تحمي الناس من السقوط.

فالنبي الخاتم، جاء بمقومات الشهادة التاريخية والمستقبلية، فورث النبوة والكتاب، وتوقف تاريخ النبوة عند بعثته، وجعلت معايير ومقومات الشهود التي جاء بها خالدة مجردة عن حدود الزمان والمكان.

ذلك أن درء الفتنة عن الأرض، والحيلولة دون الفساد الكبير، يقتضي

بروز:

. قوامة العدل.

. وشهادة العدل.

. وأمة العدل.

التي تجلت في الرسالة الخاتمة التي جاء بها النبي الخاتم.

وهذا منوط إلى حدٍ كبيرٍ بوعي الأمة على أنها تحمل رسالة النبي الخاتم مسلمة ذلك لذاتها، ووعيتها برسالتها، وأبعاد مستلزمات رسالة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، لتصويب الطريق، وتأهيل نفسها للقيام بواجبها تجاه الإنسانية، ووعيتها بالناس الذين كُلفت بإيصال الرسالة إليهم من تحبّ ومن لا تحب على حدٍ سواء، كما أمرها به الله تعالى في قوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } 1450.

وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ

وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ } 1451.

لماذا الرسالة الخاتمة؟

---

1450 - المائة 8.

1451 - النساء 135.



إنّ الرّسالة الخاتمة التي جاء بها النبي الخاتم، حملت فيما حملته معايير التحرر المستمر من العبودية والتسلط أيّاً كان نوعها، وبصرت مقوّمات الحياة وما بعد الحياة، وجعلت الاجتهاد لا يخرج عن مضمون الفضائل والقيم الأخلاقية السامية التي تواطأ عليها الناموس العام للمجتمع الإنساني بغرض فكّ احتمال الالتباس:

بين الحقّ والباطل.

بين الهدى والضلال.

بين الخير والشر.

بعيدا عن هوية الأشخاص أو الأجناس أو الأقوام، أو انتماءاتهم، بحيث تبقى هذه المعايير قيماً مجردة منفتحة على بني الإنسان جميعاً، يمكن التحلي بها والتعامل معها واختيارها من قبل الجميع، لأنها في حقيقة الأمر ليست حكراً على أحد، وبالتالي تصبح من حقّ الجميع ابتداءً، ومن واجب الجميع حمايتها والدفاع عنها بالاتصاف بها وتقمصها، كون بعضها من الفضائل السامية التي أمر بها الله تعالى وهو مصدر لها، وبعضها الآخر من الأخلاق العالية التي تعارف الناس عليها، ولذا قبلت بها أمة النبي الخاتم، وحملتها إلى البشرية، لأنه لا يعترض على ذلك معترض عاقل، يعلم أن هذا المعايير من الفضائل مصدرها من الله تعالى، والأخلاق العظيمة أمر بها، وهذا ما ارتضاه الخالق لخلقه الذي يعلم ما يصلحهم، وما يبعضهم عن الفساد.

ولذا جاءت الرّسالة الخاتمة من النبي الخاتم بمعايير تصلح لكلّ زمان ومكان، إذ لا يمكن أن نتصور بحال من الأحوال أن يكون الإنسان، بأنشطته المتعددة ورغباته ونزواته وميوله وانحرافات وطيشه وتجبره وظلمه وفساده، وما يراه عدلاً وما يراه ظلماً، وما يرضى عنه حقاً وما لا يرضى عنه

باطلا، وما يعرض له من السقوط والنهوض، أن يضع معيارا على نفسه وعلى الآخرين، لأنه بذلك يصبح الإنسان هو المعيار وموضوع المعيارية في الوقت نفسه، إضافة إلى ذلك، فإن هذا التصور يُبدي أن الله تعالى قد خلق الخلق كلهم، وكأنهم يعيشون على مائدة مستديرة، متساوون في الحقوق والواجبات الإنسانية . وليس في الحقوق والواجبات الإلهية . لا يرى أحدهم فضلا لأحد على آخر! فكيف يمكن لإنسان أن يقبل وضع القيم المعيارية لسلوكه ونشاطه من قبل إنسان آخر يماثله في كل ما ذكرناه؟

فإذا كان ذلك كذلك، فما هي الضمانات التي تمنع تلك المعايير أن تكون وسيلة للتسلط والاستبداد والاستعباد؟

فإذا كان الإنسان عاجزا عن وضع المعايير لنفسه، التي تتقلب في الرغبات والرهبات والنزوات والإمكانات والظروف المحيطة والضغط المختلفة، الأمر الذي يضطره إلى تغيير أحكامه ومعاييره، والحكم بقصورها أحيانا، ونقضها في أحيان أخرى، فأنتى له أن يضع معايير لغيره؟

يضاف إلى ذلك أن منبع الشرّ في التاريخ البشري كان كامنا في تسلط الإنسان على الإنسان، حيث أخذ هذا التسلط أشكالا متعددة، من اللون والقوم والطبقة والجنس والحزب والقبيلة، وأن هذا التسلط كان ولا يزال هو سبب البلاء، وأن إنسانية الإنسان يمكن أن تتحقق وتُسترد ما لم يوقف هذا التسلط، وتصبح المعايير الحاكمة والقيم المقومة للسلوك تستمد من جهة أخرى، خارجة عن سيطرته ووضعه أصلا.

وعليه نقول: أن النبي الخاتم الذي جاء بالرسالة الخاتمة، التي تحمل قيما ومبادئ ومعايير مستمدة من الله تعالى، يتساوى الناس أمامها، ولا يملك أحد الحقّ فيها دون آخر، إلا من يؤمن بها ويعمل لها ويسعى في نشرها وترسيخها، علما أن الإيمان بها متاح للجميع، لأنّها فضائل الله تعالى،

وقيم النبوة الخاتمة الخالدة والثابتة، المستمدة من خالق الإنسان، الذي يعلم خصائصه وطاقاته وغرائزه وحاجاته وما ينفعه وما يضره، قال تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} 1452.

فالعلم بالإنسان والخبرة به، لا يحيط بها إلا خالق هذا الإنسان، ونصيب الإنسان من هذا العلم لا يؤهله لوضع المعايير.

لذلك نعتقد أن التحقق بهذا الجعل الوسط الذي جاءت به الرسالة الخاتمة، وما تحمله من عبادات وعقائد وأوامر ونواهي، وتبينها للحق والباطل والخير والشّر والهدى والضلال، وتوزيع الحقوق والواجبات تجاه الخالق وتجاه المخلوق، ومحددة ما للذات وما للآخر، بحاجة دائماً لتقويم المقياس ومراجعته من قبل الذات من أجل المحافظة على سلامة التمسك بالمعيار، وعدم تلبسه بالأشخاص، واكتشاف الخلل، وتحديد أسبابه، وتصويب المسار، وفق ما أقرته الرسالة الخاتمة.

ومن المعروف أنّ الأمة الخاتمة التي ارتضت أن تحمل الرسالة الخاتمة من حيث خصائص هذه الأمة وصفاتها، والأهلية التي أهلها الله تعالى بها، وأهلية الحق العدل، هي في هذه الصفات قاضٍ عدل، بما يتطلب القضاء من خصائص وصفات في القاضي، وما يتطلب من معرفة بالمعايير القانونية والأحكام الشرعية والفضائل والقيم التي تحكم على الحادثة بأنها جريمة وخروج غير المشروع، أو هي تقع ضمن العمل المشروع، فإذا سقطت العدالة واستبعد ميزان الحق، حُرمت الكفاءة وسقطت أهلية الأمة في حمل الرسالة الخاتمة، وأصبحت غير مؤهلة لتحمل ما ينطوي عليه الختام.

وبما أنّ الأمة هي التي حملت الرسالة الخاتمة عن النبي الخاتم، باعتبارها أمة الفكرة وأمة العقيدة التي كلفها الله بحملها، فوجب على كل من يؤمن

بهذه العقيدة ويختار هذا الخيار، أن يكون خاتماً في نفسه للآخرين وفق ما أمر به النبي الخاتم، مهما كان جنسه أو لونه أو قومه أو جغرافيته، بعيداً عن الانغلاق والتعصب، مؤهلاً بهذا الاعتبار لأن يكون من أهل الرسالة الخاتمة منقاداً للنبي الخاتم.

إنّ الفضائل والقيم والمعايير، التي حملها النبي الخاتم مستمدة من خالق الإنسان، العالم بكينونته وحاجاته ونزواته وشهواته وأهوائه، المجسدة في سيرة النبوة الخاتمة، بعيدة عن:

شهوات الإنسان.

عبث الإنسان.

استغلال الإنسان.

مؤهلة لأن تكون معايير حقّ وعدل على الذات وعلى الآخر.

لذلك فالفضائل التي جاءت بها الرسالة الخاتمة، والقيم المستمدة من النبي الخاتم، لا يمكن أن تكون إلا واقعية قابلة للتطبيق، حيث تعتبر مناط التكليف هو استطاعة الإنسان وفطرته فيما هو مهياً له، وما يترتب على التهيؤ من استعداد وإرادة وفعل.

**النبي الخاتم:**

قال الله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} 1453.

ربّما تبدو هذه الآية الكريمة للبعض بعيدة عن الدليل على أن ختام النبوة محمّد صلى الله عليه وسلّم، ولكن إذا استعرضنا معظم الآيات التي خوطب بها الأنبياء صلى الله عليهم وسلّم، نجد أن الأنبياء:

. إمّا أن ينسب النبي المبعوث فيهم، إليهم كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَادِكُمُ الْعِجَلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} 1454.

. وإمّا أن ينسبون إليه قال تعالى: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} 1455.

. وقال تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤُسُّ} 1456.

. وإمّا أن تكون علاقة التساوي في الأخوة، قال تعالى: {وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ} 1457.

وقال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} 1458.

---

1454 - البقرة - 54.

1455 - الأعراف - 159.

1456 - يونس - 98.

1457 - الأعراف - 65.

1458 - الأعراف - 73.

وحتى أن إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام جاء في حقّه قوله تعالى:  
{وَحَاجَّةُ قَوْمِهِ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَحَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا  
أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} 1459.

أمّا في خطاب من اتّبع محمّدا عليه الصلّاة والسّلام فكان الأمر مختلفا  
تماما . جاءكم رسول من أنفسكم . ولم يقل: جاءكم رسول منكم حتى لا  
يقتصر الخطاب على قريش أو على قومه الذي ينتمي إليهم . من أنفسكم .  
فلم يكن ذلك من أجل شدة الحساسية وعمق الصلة فحسب، مع أنّها أدلّ  
على نوع الوشيجة التي تربطهم به، فهو بضعة من أنفسهم، تصلهم به صلة  
النفس بالنفس، وهذا لا يقتصر على أنفس قوم معينين، لذلك نجد القرينة  
الموضحة (بالمؤمنين رؤوف رحيم) أخرجت المعنى من الخصوص إلى الشمول  
والعموم، فمن آمن بهذا الرّسول، كائنا من كان، فقد تجاوز العرق واللون،  
والتاريخ والجغرافيا، والزمان والمكان، فلا يقتصر على قوم أو شعب أو أمة،  
وهذا يعني أنه نبي الكافّة، ونبي الكافّة، فهو بالتالي هو النبي الخاتم الذي هو  
من أنفسهم.

ثمّ أن الله سبحانه وتعالى أخبر الأنبياء بالنبي الخاتم وكتابه الخاتم الذي  
يحمل رسالته الخاتمة حيث قال الله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا  
آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ  
وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا  
مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} 1460.

---

1459 - الأنعام 80.

1460 - آل عمران 81.

في هذه الآية الكريمة نقف على أخذ الميثاق من الأنبياء، وظاهر من سياق الآية أنه استثنى منهم محمداً صلى الله عليه وسلم، وهذا الاستثناء دليل على:

. أن الميثاق أُخذ من الله تعالى.

. أخذ الميثاق كان على الأنبياء.

. أخذ الميثاق من الأنبياء كان للنبي الخاتم.

. خروج محمد عليه الصلاة والسلام من هذا الميثاق دلالة على أنه النبي الخاتم.

ثم أن في الآية من البراهين والقرائن ما يكفي للدلالة على أن الرسالة التي يحملها هي الرسالة الخاتمة، لما في الآية من أوامر واجبة الطاعة لله في حق الأنبياء لمحمد صلى الله عليهم وسلم وعليهم أجمعين منها:

. الإيمان به.

. نصرته.

ثم أكد ذلك على الأنبياء بجزئيات وتفصيل الميثاق الذي ذكره:

. الإقرار (أقرتم).

. العهد (وأخذتم على ذلكم إصري).

. الاعتراف (قالوا أقرنا).

. طلب الشهادة (قال فاشهدوا).

. التأكيد على الشهادة (وأنا معكم من الشاهدين).

ولو لم يكن هو النبي الخاتم، لأخذت شهادته على النبي الخاتم.

ففرض شهادتهم للرسول عليه الصلّاة والسّلام أن يشهدوا أنّ محمّداً رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، خاتم الأنبياء لا نبي بعده، وكتابه خاتم الكتب لا كتاب بعده، وهو مهيمن على كل كتاب، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ} 1461.

مصدّق لما سلف من الكتب قبله، وأن شريعته ناسخة للشرائع، قاضية عليها إلا ما أقره كتابه ووافقه، وكتابه خاتم على الكتب وحاكم عليها، وأنه هو الذي بشر به عيسى صلّى الله عليه وسلّم، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} 1462.

وهو المذكور في التوراة والإنجيل وسائر كتب الله عزّ وجلّ المنزلة على رسله، قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} 1463.

فمن الواضح أن جزء من الكثير الذي كانوا يخفونه من الكتاب هو معرفتهم وعلمهم بالنبي الخاتم الذي أمروا أن يؤمنوا به ويصدقوه وينصروه.

فقد أخذ الله ميثاق النبيين أن يؤمنوا به وينصروه لو أدركوه، وإن لم يدركوه فقد أخذ عليهم الميثاق بالتبليغ بالإيمان به وتصديقه ونصره، فأقروا بذلك وشهد الله تعالى على شهادتهم بأشياء منها:

---

1461 - المائة 48.

1462 - الصف 6.

1463 - المائة 15.



. أن الأنبياء أخذت شهادة أمهم على الإيمان به وأمرتهم بتصديقه  
وأخبرتهم بظهوره.

. أن إيمان أهل الكتاب بكتابه مفترض عليهم مأمورون به في كتبهم  
وعلى السنة رسلهم. . أن طاعته ومحبته فريضة واجبة على الكافة كطاعة الله  
تعالى.

. أن اتباع أمره واجتناب نهيه مفترض على الأمة إيجاباً أوجبه الله تعالى  
له.

. فرض افترضه على خلقه متصل بفرائضه من المتممات للإيمان.

وأما الميثاق الذي دخل به محمد عليه الصلاة والسلام مع الأنبياء  
والمرسلين جمعاً، فقضيته مختلفة عن النبي الخاتم والرسالة الخاتمة حيث قال  
تعالى: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى  
وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ  
وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا } 1464.

فالله سبحانه وتعالى أخذ الميثاق على الأنبياء جمعاً، ثم أخبر محمداً  
عليه الصلاة والسلام بقوله (ومنك) كونه الرسول الخاتم وهو المخاطب  
بالكلام، ثم أردف ذلك بنوح صلى الله عليه وسلم، كونه أول المرسلين، ثم  
اتبع ذلك بإبراهيم وموسى وعيسى صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

فقد كان الإخبار بأن الميثاق جرى على جميع الأنبياء وأخذ منهم دون  
استثناء، وأما تقديم محمد صلى الله عليه وسلم، فهو واجب التقديم لسببين:

الأول: أنه المخاطب بالإخبار ليخبر به.

الثاني: كونه الرسول الخاتم.

وأما تخصيص نوح صلى الله عليه وسلم، وعطفه بالواو على الضمير (منك ومن نوح) فمن أجل فاتحة المرسلين وخاتمهم، ولأن نوحا في ذريته النبوة والكتاب، ويأتي ضمنا من أرسل بينهما من رسل تترى على فترات.

ثم ذكر بعد ذلك إبراهيم وموسى وعيسى صلى الله عليهم وسلم، لأن ذكر هؤلاء، يغني عن ذكر كثير من الأنبياء والرسالات لأسباب كثيرة منها:

1. أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو أبو الأنبياء.

2. أن ملة إبراهيم كان عليها هود وصالح وإسماعيل.

3. أن موسى عليه الصلاة والسلام كان على شريعته أبناء يعقوب وداوود وسليمان صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

4. ذكر عيسى صلى الله عليه وسلم، لأن رسالته تصحيح للانحراف عن شريعة موسى.

5. أن رسالات إبراهيم وموسى وعيسى كانت معروفة، وهناك من يدين بها.

وبالجملة فقد خص الله تعالى بالذكر أربعة من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ويمكن أن نضيف إلى تلك الأسباب أن موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، كان لهما في زمن المخاطب قوم وأمة فذكرهما احتجاجا على قومهما، وإبراهيم كان العرب يقولون بفضله وكانوا يتبعونه في بعض الشعائر والذين كانوا يعرفون بالموحدين، ثم أن نوحا كان أصلا ثانيا للناس، فهو أبو البشر بعد آدم عليه الصلاة والسلام (وجعلنا ذريته هم الباقيين) حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان.

فالميثاق في هذه الآية التي دخل فيه النبي الخاتم، يختلف في اختصاصه وتوجهه عن الميثاق الذي أخذ للنبي الخاتم، ذلك أن الميثاق هنا، أخذ عليهم أجمعين، والمراد من هذا الميثاق المأخوذ من النبيين صلى الله عليهم وسلم، هو إرسالهم إلى البشر بما هم مأمورون به من التبليغ، لما اصطفاهم الله تعالى واختصهم بالنبوة وكلفهم بالرسالات وأمرهم بالتبليغ، فكان ذلك ميثاق من الأنبياء لله تعالى بأداء ما كلفوا به من تبليغ الرسالة أمانة منهم لما أخذ عليهم من ميثاق.

ثم إن الله تعالى شدد على الأنبياء بذلك الميثاق بقوله تعالى:  
{وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا}

والميثاق الغليظ هو سؤالهم عما فعلوا فيما كلفوا به وقبلوا ذلك التكليف من حمل الرسالة وأداء أمانتها كما قال تعالى: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} 1465.

وهذا السؤال هو التخليط، وهو بمثابة الاستجواب لمن أرسل إليهم، وشهادة المرسلين المتضمنة لتبليغ أوامر الله في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم.

لقد أمر الله سبحانه وتعالى الرسل بالتبليغ بما أخذ عليهم من ميثاق، وأمر الأمم بالقبول والاتباع، ثم ذكرهم بعذاب الأمم التي عاندت وعصت الرسل السابقين، ذكر بأن الحساب يوم القيامة دقيق وعادل، حيث يسأل كل إنسان عن عمله، كل إنسان دون استثناء ثم يُحاسب عليه:

(فلنساءلن الذين أرسل إليهم) يسأل الناس؟

. هل تبليغتم الرسالة؟

. بماذا أجبتهم المرسلين؟

(ولنسألنّ المرسلين)

. هل بلغتكم ما أنزل إليكم من ربكم؟

. بماذا أجابكم أقوامكم؟

إن الله سبحانه وتعالى لم يأخذ المواثيق على عباده إلا بما فيه والحقّ والعدل والخير، ولذا وجب طلب الإقرار.

وميثاق الإقرار في قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} 1466.

ما ذكره الله تعالى في هذه الآية، أن الله تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلّموا رسولا مصدّق لما معهم آمنوا به ونصروه، وأخبر أنهم قبلوا ذلك، وحكم تعالى بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين، فهذا هو المقصود، وأنه تعالى أوجب على جميع الأنبياء الإيمان بكل رسول جاء مصدّقا لما معهم.

أمّا من الجانب اللغوي لمفهوم هذه الآية فنقول:

قوله تعالى: (ميثاق النبيين) فأتى بالمصدر وأضاف إليه النبيين.

ومن المعلوم أن المصدر أقوى في الدلالة من الاسم والفعل، ثمّ إن المصدر يجوز أن يكون مضافه فاعلا أو مفعولا، فإن حُمِلَ المضاف على أنه فاعلا، فإن الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين، وإن حُمِلَ على أنه مفعولا،

فالمعنى أنّ الله تعالى أخذ الميثاق للنبیین من النَّاسِ، ولما قام هذا الدليلان  
فإننا نعتقد أن المعنى بأن الله تعالى:

. أخذ من النبیین ميثاقهم.

. أخذ للنبیین ميثاق النَّاسِ.

وعلى هذا يكون المعنى الأول أن الله تعالى أخذ الميثاق من النبیین في  
أن يصدق بعضهم بعضاً، ويؤمن بعضهم ببعض، ولذا لا يخرج بقية النَّاسِ  
في التصديق بالأنبياء وما أتوا من كتاب، وهذا ما ذهبنا إليه في شمول  
المعنيين.

وإن كان قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ) يُشعر بأن أخذ  
الميثاق هو الله تعالى، والمأخوذ منهم هم النبیین، وليس في الآية ذكر لقوم أو  
أمة، فلا يحسن صرف الميثاق إلى النَّاسِ فنقول: من يذهب هذا المذهب  
فهو من باب إضافة الميثاق إلى الموثق عليه، وهو من باب إضافة الفعل إلى  
فاعله، ولا يدخل فيه بقية النَّاسِ، فهذا مخالف شرعا وعقلا، لما وردت فيه  
النصوص النقلية من الكتاب والسنة وهي أكثر من أن تحصى، كقوله تعالى:  
{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ  
وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْرُونَ} 1467.

فإن كان إضافة الفعل إلى الفاعل أقوى من إضافته إلى المفعول، فإن  
إضافته إلى المفعول لا تكون أقل من مساواته به. ثُمَّ إِنَّ المنطق العقلي أسلم  
له إذا ذهب في إضافته للمفعول من إضافته إلى الفاعل وذلك أن:

. إضافته إلى الفاعل تقتصر على الأنبياء ولا يدخل فيهم أحد.

. إضافته إلى المفعول يُدخل النَّاسِ جمعا في الميثاق.

. الأنبياء من الناس .

وعليه: تكون إضافته إلى المفعول أقوى من إضافته إلى الفاعل في هذا  
الموضع. ولذا فإن الميثاق قد أخذ من الأنبياء في التبليغ ومن الناس في  
التلقي.

وعليه فقد وجب على كل أمة جاءها رسول أن تؤمن بالنبى الخاتم  
لأنها أخبرت به عن طريق نبيها الذي أعطى الله تعالى الميثاق على ذلك،  
وصدق الله تعالى إذ يقول: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ  
مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ  
وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي  
كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ  
أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 1468.

وعلى هذا فإنهم يعلمون أنه النبى الخاتم وذلك أنه:

. يجدونه مكتوبا عندهم .

. في التوراة والإنجيل .

. يأمرهم بالمعروف .

. ينهاهم عن المنكر .

. يحلّ لهم الطيبات .

. يحرم عليهم الخبائث .

. يضع عنهم الإصر والأغلال .

وهذا يعني أن جميع الأنبياء تعلم من هو النبي الخاتم، وأن أقوامهم علمت ذلك من أنبيائهم ومن الرّسالات التي جاؤوا بها، فأعلموهم بالميثاق المأخوذ عليهم بالتبليغ والإقرار، ولا ينكر ذلك إلا فاسق.

فكان الإقرار بالنبي الخاتم من الأنبياء، وأخذوا على ذلك إصر الله وعهده، ثمّ شهدوا وشهد الله على شهادتهم، ثمّ أخبر بحال من تولى عمّا أمر به المولى عزّ وجلّ بقوله تعالى: {فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} 1469.

فقد أخذ الله سبحانه وتعالى موثقا عظيما جليلا كان هو شاهده وأشهد عليه رسله. فهو موثق على كل رسول، أنّه مهما آتاه من كتاب وحكمة، ثم جاء رسول بعده مصدّق لما معه، أن يؤمن به وينصره ويتبع دينه، وجعل هذا عهدا بينه وبين رسله جمعا، نصرة منه تعالى ونصرة من أنبيائه للنبي الخاتم.

والآية الكريمة تطوي الأزمنة، وتتجاوز الأمكنة، حتى كأن الخطاب في الزمن الصفر والمكان الصفر، على الرغم من تراخي الزمان وترامي المكان بين الأنبياء المتتابعة، لأن الخطاب يجمعهم في مشهد، في استفهام تقريرى: (أأقرتم، قالوا أقرنا، قال فاشهدوا). لذلك نرى رسم الصورة في التعبير القرآني تظهر جلال الموقف في الحضرة الإلهية والأنبياء مجتمعون لحظة الخطاب لأخذ الميثاق للنبي الخاتم.

هذا المشهد الجليل، الذي يرسمه التعبير القرآني، وهو يتمثل بحضرة الباري عزّ وجلّ، والرّسل مجتمعون، دليل على أن الرّسالة واحدة من إله واحد غايتها واحدة.

وفي ظل هذه الصورة، يبدو الموقف الذي تتجسد فيه الغاية متصلًا متسانداً، ومستسلماً للتوجيه الإلهي، الذي تتمثل فيه الحقيقة الواحدة التي شاء الله سبحانه وتعالى أن تقوم عليها الحياة البشرية، دون انحراف أو تعارض أو تصادم، لما سنّه الخالق لخلقه.

ويبقى الاصطفاء والاختيار والإخبار من الله تعالى لأتباعه ورسوله، مجسداً حقيقة الرسالة بالنبى الفاتح والنبى الخاتم من أنبياء الله تعالى.

ثمّ أن هناك قضية مهمة لا نغفل عنها تراود أذهان كثير من الناس، وهي كيف يؤمن السابق باللاحق؟

إن هذه القضية تحمل في ثناياها جوانب كثيرة منها:

## 1 . العلم:

. إن علم الأنبياء هو من علم الله تعالى، وقد أعلمهم الله بما هم أهله من العلم، يبلغون جزءاً منه وهذا هو التكليف.

. وعلم آخر لا يعني بقية البشر في تعلّمه وتعليمه والأخذ به، ممّا اختص الله تعالى إمّا تعليمه للأنبياء والرّسل أو أجراه على أيديهم مثل:

اليقين: قال تعالى: {وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} 1470.

الاطمئنان: قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 1471.

---

1470 - الحجر - 99.

1471 - البقرة - 260.



المعجزات: كما قال عيسى ابن مريم: {أَيُّ قَدِّ حِجَّتِكُمْ بَآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ  
أَيُّ أَحْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ  
الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ  
فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} 1472.

## 2. وحدة الرسالة ومصدرها:

إنَّ الله سبحانه وتعالى عندما أخذ الميثاق من الأنبياء للنبي الخاتم، دلَّ  
بذلك على أن الرسالة واحدة على اختلاف المبلِّغين زمانا ومكانا، وأنَّ  
رسالة النبي الخاتم لا تختلف في جوهرها وحقيقتها عن رسالة النبي الفاتح وما  
انحصر بينهما من أنبياء ورسالات، ولذا أخبر الله تعالى أنبياءه بوجوب  
الإيمان بما قبل أوانها.

إن الاصطفاء والاختيار من الله تعالى لبعض عباده، في تبليغ رسالته،  
مناطه أن النبوة خالصة عن الدنيا وما فيها، وخالصة للآخرة، ولذا فإن الله  
تعالى يختص من المصطفين الفاتح والخاتم ومن يحمل ذرية النبوة، ويختار  
التسلسل بمشيئته لرسالته؛ ثم يسلمها إلى مختار بعده، ويسلم نفسه معها  
لأخيه اللاحق به. فما للنبي في نفسه من شيء؛ وما له في هذه المهمة من  
أربّ شخصي، ولا مجد ذاتي، إنما هو عبد مصطفى، ومبلغ مختار.

## 3. التبليغ

ولما أخذ الله تعالى الميثاق من الأنبياء للنبي الخاتم، وجب عليهم تبليغ  
الأمم التي بعثوا فيها بهذا الميثاق من الإيمان به وتصديقه ونصره، ومن لم  
يفعل فقد نقض الميثاق الذي أخذه عليه الله تعالى فخرم بذلك إيمانه، ذلك

أن الإيمان بالنبي الخاتم جزء من رسالة الأنبياء الفواتح والتوالي التي جاءت بحقيقة واحدة تدعو إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وبهذا فقد وجب إيمان السابقين بالنبي الخاتم بناء على ما أُبلغوا به ممن أخذ منهم الميثاق على الإيمان والتبليغ، قال تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} 1473.

وكما أبلغت الأمة الخاتمة بوجوب الإيمان بالأنبياء والرسل التي قبلها، فقد وجب إيمان السابقين على النبي الخاتم أن يؤمنوا به بما بيّنه لهم أنبياءهم ورسلهم بما كانوا واثقوا الله عليه.

وفي ظل هذه الحقيقة يبدو الذين يتخلفون من أهل الكتاب وغيرهم عن الإيمان بالرسل الخاتم صلى الله عليه وسلم، ومناصرتهم وتأييدهم، تمسكا بدياناتهم، لا بحقيقتها، فحقيقتها تدعوهم إلى الإيمان به ونصرتهم، ولكن باسمها تعصبا لأنفسهم في صورة التعصب لها لا بحقيقة الإيمان! مع أنّ رسلهم الذين حملوا إليهم هذه الرسائل قد قطعوا على أنفسهم عهدا ثقيلا غليظا مع ربهم في مشهد جليل، والذين يتجاهلون حقيقة الإيمان بالنبي الخاتم ونصرتهم وتصديقه، إنما يكونون قد نقضوا الميثاق الذي أخذه الله تعالى على الأنبياء الذين بدورهم قد بلغوا من أرسلوا إليهم بما كانوا واثقوا الله عليه.

## الدلائل على النبي الخاتم:

إنّ دلائل النبي الخاتم أعظم من أن تحصى، نقلية وعقلية على حدّ سواء، وقد تعددت البشارات في الكتب السابقة لدى أهل الكتاب بخاتم النبيين محمّد صلّى الله عليه وسلّم، حيث بشر الأنبياء السابقون بقدمه، وأمروا أتباعهم بالإيمان به عليه الصلّاة والسّلام وتصديقه إذا ظهر، ولولا ما أصاب هذه الكتب من تحريف وتزييف عن عمد أو غير عمد، لكانت النصوص الدالة على النبي الخاتم عليه الصلّاة والسّلام واضحة وضوح الشمس في وسط النهار.

فإن زعم أهل الكتاب أن كتبهم لم تبشر بالنبي الخاتم عليه الصلّاة والسّلام وأنّ النصوص التي يستشهد بها المسلمون غير دالة على ذلك، فالإجابة على هذا الزعم وتفنيده هذه الآراء من البساطة والسهولة في الردّ عليها ودحضها وإثبات نقيضها بما لا يدع مجالاً للزاعمين إلا أنّ يستسلموا للأدلة وهم صاغرون، ولذا نقول:

إنّ وجود هذه البشارات أو عدمها لدى أهل الكتاب سواء بسواء، فرسالة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ليست بحاجة إلى دليل يقام لها من خارجها على أنّها الرّسالة الخاتمة، ونبوته الخاتمة صلّى الله عليه وسلّم، ليست بحاجة أيضاً إلى الدليل الخارجي، بحيث إذا لم يوجد ذلك الدليل الخارجي بطلت الرّسالة وبطلت النبوّة وبطل الختام!

إنّما رسالة دليلها فيها، ووجود البشارات والأدلة والبراهين عليها عند أهل الكتاب، لا يضيف إليها شيئاً، وعدم وجود تلك الدلائل أو جحودها ونكرانها لا ينقص من الرّسالة الخاتمة شيئاً، ولا ينتزع من محمّد عليه الصلّاة والسّلام خاتمة النبوّة.

إنّ النبي الخاتم ورسالته حقيقة قائمة بذاتها، لها سلطانها الغني عمّا سواها، ودليلها قائم فيها، خالد خلود الزمان والمكان، باق ما تعاقب الليل والنهار.

ومع هذا لا بدّ من إظهار أدلّتنا لدحض افتراءاتهم، وأوّل هذه الأدلة هي أدلّة نقلية من القرآن الكريم أشارت إلى علم الجاحدين بها في كتبهم، فإن أقروا بذلك فقد ظهر حقنا وزهق باطلهم، وإن لم يقرّوا، فقد زهق باطلهم وانجلى حقنا. فكيف يكون هذا؟

قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} 1474.

والذي حملهم على أن يكفروا بما عرفوا، هو حسدهم لرسول الله عليه الصلّاة والسّلام أن يختاره الله للرسالة الخاتمة التي انتظروها فيهم، ويعرفونها كما يعرفون أبناءهم، وهذا الحقد مخالف لمشية الله أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده. فكان هذا بغيا منهم وظلما، فعادوا من هذا الظلم بغضب من الله، وهذه المواقف مضطربة ومتأصلة في عقلية اليهود وتصرفاتهم ونفسياتهم التي تبدو طبيعة فيهم.

هي طبيعة الأثرة الضيقة التي تسكن نطاق التعصب الشديد؛ وتشعر أنّ كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع من حقّها، وعليه: فلا ترتبطهم بالإنسانية وشيعة، ولا يتمنّون الخير لإنسان؛ فكان نكرانهم نابعا من هذه المعايير، لا كما يدّعون من عدم علمهم بما أعلمهم به الله تعالى.

فالقُرآن الكريم مصدّق لما معهم في أمور الرّسالة كلّها، وأولها، ما يتعلق بتكليفهم بتصديق النبي الخاتم في أمر النبوّة، وهذا الكتاب مصدّق لما معهم من دلائل النبوّة.

فإن كان هذا الكتاب غير مصدّق لما معهم فقد انتفت الوحداية، وهذا محال.

وإن كان مصدّقاً لجزء ومخالفاً لجزء، فقد تعددت الآلهة، وهذا باطل.

وإن كان مصدّقاً لما معهم، وكفروا به فقد بان دليلنا.

والتصديق الذي جاء به الكتاب لما معهم، هو موافقته لكتبهم فيما يختصّ بالنبوّة وما يدلّ عليها من العلامات والصفات والنعوت.

غير أنّ جحودهم وكفرهم منبعهما الظنّ القائم على أن النبي الخاتم يكون من بني إسرائيل لكثرة من جاء فيهم من الأنبياء، وكانوا يرغبون الناس في دينه ويدعونهم إليه فلما بعث الله تعالى محمّداً عليه الصلّاة والسّلام وهو ليس منهم، عظم ذلك عليهم فأظهروا التكذيب وخالفوا ما كانوا يدعون إليه.

ثمّ أنّ الله تعالى بعد أن ذكر الكتاب الخاتم، أكّد لهم على الرّسول الخاتم الذي يحمل الرّسالة الخاتمة، قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} 1475.

فهذه الآية تثبت حقائق كثيرة منها:

. حقيقة النبي الخاتم الذي يعرفه أهل الكتاب.

. حقيقة الطباع الفاسدة لمن يعلم الحقّ ويقول بالباطل.

. نبذ فريق منهم كتاب الله وراء ظهورهم.

. الفريق الآخر أقرّ واعترف بصدق ما جاءه.

فكان هذا مظهرا من مظاهر نقض فريق لكل عهد يعاهدونه. فلقد كان ضمن الميثاق الذي أخذه الله عليهم، أن يؤمنوا بكل رسول يبعثه، وأن يصدّقوه وينصروه و.

فلما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، نقضوا ميثاقهم وخانوا بعهدهم، فنبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب، كتاب الله وراء ظهورهم، فاستوى في هذا النبذ، كتاب الله الذي معهم، والذي يتضمن البشرى بالنبى الخاتم وقد نبذوه، والكتاب المصدّق لما معهم الذي جاء به النبى الخاتم.

فكيف ينبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب، كتاب الله وراء ظهورهم؟

هذا النبذ إنما ينطوي على عدم الارتقاء إلى مستوى الكتاب، ولا يعني ذلك أن الله سبحانه وتعالى، أكرم لقيما، أو أعطى المعروف والإحسان لغير أهله، وإن كانوا هم في الحقيقة ليسوا أهلا لذلك.

وعلى هذا نقول: أن الله سبحانه وتعالى يريد الإيمان والصلاح والخير والهداية للناس جمعا إلاّ من أبى، وهؤلاء أبوا، فحقّ عليهم القول بما كانوا ينبذون.

ثمّ إن نبذهم هذا كان وزره مضاعفا، فلو كانوا من المشركين ولم يكن لديهم كتاب يُعلمهم بالكتاب الخاتم الذي جاء به النبى الخاتم، لكان نبذهم لكتاب الله وراء ظهورهم مفهوما! أو التمسنا لهم العذر في ذلك، وإن لم يكن في ذلك عذر لأحد، ولكنهم:

. هم الذين أوتوا الكتاب .

. هم الذين عرفوا الرسائل والرسل .

. هم الذين اتصلوا بالهدى ورأوا النور .

ثم بعد ذلك، هم الذين نذبوا كتاب الله وراء ظهورهم!

فنبذوه وجحدوه وتركوا العمل به، وأبعدوه عن مجال تفكيرهم وحياتهم. فالتعبير القرآني يجسد الصورة وينقل المعنى الفكري من دائرة الذهن إلى دائرة الحس؛ فيمثل عملهم بحركة مادية متخيلة، تصور هذا التصرف تصويرا بشعا شنيعا، ينضح بالجحود ويتسم بالفظاظة، التي أفضت إلى سوء أدب مع الله تعالى.

ودليلنا على ذلك في أنهم يخفون في صدورهم ما لا يبدونه للحق قوله تعالى: { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُسْنِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } 1476.

فهم يعرفون النبي الخاتم بأوصافه والرسالة الخاتمة بما أوتوا من الكتاب، وقد ذكر الإمام الرازي: "أن منافقي أهل الكتاب كانوا إذا لقوا أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام قالوا لهم: آمنا بالذي آمنتم به ونشهد أن صاحبكم صادق وأن قوله حق ونجده بنعته وصفته في كتابنا، ثم إذا خلا بعضهم إلى بعض قال الرؤساء لهم: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم في كتابه من نعته وصفته ليحاجوكم به، فإن المخالف إذا اعترف بصحة التوراة واعترف بشهادة التوراة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فلا حجة أقوى من

ذلك، فلا جرم كان بعضهم يمنع بعضا من الاعتراف بذلك عند محمد عليه الصلّاة والسّلام وأصحابه"1477.

وعود على بدء نقول:

إن صح أن أهل الكتاب، لم يخبرهم كتابهم بأمر النبي الخاتم صلّى الله عليه وسلّم، ولا بأمر الرّسالة الخاتمة سلّبا أم إيجابا، فإن ذلك مطعن في هذه الكتب، وليس طعنا في صدق الكتاب الخاتم الذي جاء به النبي الخاتم، لأنه من يقف على كتب أهل الكتاب يجدها تخبر بأخبار الحوادث الماضية من سفر التكوين في خلق آدم ونزوله إلى الأرض، ونبوة إبراهيم وموقفه من النمرود وغير ذلك، والحوادث القادمة كحادثة نبوخذ نصر والإسكندر وأولاد يعقوب ومصر ونيوى وبابل، وهي أقل بكثير من النبأ العظيم، فيبعد كل البعد ألا يُخبر أحد منهم عن خروج النبي الخاتم عليه الصلّاة والسّلام الذي يبلغ دينه الشرق والغرب ويغلب الأديان، ويبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فكيف يجوز العقل السليم أنهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة ولم يأتهم خبر النبأ العظيم.

رسول الثقلين (الإنس والجن)

أ. نبي الكافة.

ب. غير أهل الكتاب.

ج. أهل الكتاب.

د. الجن.

---

1477 - تفسير الرازي، ج 2، ص 168.



رسول الله عليه الصلّاة والسّلام رسول الثقلين من الإنس والجن بما جاء من الأدلة النقلية وما يدل عليه العقل، فأما الأدلة النقلية التي عمّت الناس جمعاً فكثيرة نذكر منها:

قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} 1478.

وقوله تعالى: {وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ} 1479.

وأما الجن فدلّت النصوص على أنهم مكلفون وأمرُوا باتّباع دعوته عليه الصلّاة والسّلام ودخلوا في جملة الثقلين بالتكليف:

قال تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} 1480.

وقال تعالى: {قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} 1481.

---

1478 - الأعراف 158.

1479 - الأنعام 19.

1480 - الأحقاف 29-31.

1481 - الجن 2، 1.

فثبت بقولهم: يا قومنا أجيئوا داعي الله أنتم عرفوا أنه مبعوث إليهم  
وسمعوا دعوته إياهم والذين لم يحضروا من جملتهم فلذلك قالوا: (يا قومنا  
أجيئوا داعي الله وآمنوا به).

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أُعْطِيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ  
قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبَعَثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ،  
وَأَحَلْتُ لِي الْغَنَائِمَ، وَلَمْ تَحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا  
وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ، صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنَصَرْتُ بِالرَّعْبِ بَيْنَ  
يَدَيِ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيْتُ الشَّفَاعَةَ" 1482.

وأما الأدلة العقلية فهي أكثر من أن تحصى، سواء أكانت عقلية  
مجردة قائمة على الفطرة، أم أنها استنباطية من النصوص النقلية.

فالفطرة تحب الخير وتأبى الشر، وترفع الهدى وتضع الضلال، وتنحاز  
إلى الحق وتبتعد عن الباطل، فما من مخلوق عاقل يأبى هذه الأخلاق التي  
جاء بها محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فضلا عن أنها الدين الحق الذي ينتشل  
هذا المخلوق العاقل من رتبة الاستعباد والضلال والظلم والطغيان، ويرتفع به  
إلى مصاف الدين الحق والأخلاق السامية وصولا إلى الغاية المنشودة التي  
تكمن بها سعادته.

أما العقلية المستنبطة من النقلية من حيث تقبل العقل لها فهي كثيرة  
منها:

. إحلل الطيبات.

. تحريم الخبائث.

. الأمر بالمعروف.

. النهي عن المنكر.

. الإخراج من الظلمات إلى النور.

ولك ما تشاء من هذا القبيل ما يقبله العقل ممّا لا حصر له، ثمّ إن  
كلّ ذلك دون أجر، قال تعالى: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ  
الْمُتَكَلِّفِينَ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} 1483.

فهذه الأدلة النقلية والعقلية توضح:

. سماحة الرّسالة كونها تسع الثقلين.

. أنه عليه الصّلاة والسّلام رسول الثقلين.

. الثقلان مكلفون باتباعه صلّى الله عليه وسلّم.

نبي الكافة محمد عليه الصّلاة والسّلام

محمد عليه الصّلاة والسّلام نبي الكافة برسالته الكافة، ونبي الكافة  
للناس جمعاً، ورسالته كافة للرسالات التي جاءت قبله ليس بمعنى الإلغاء  
والإبطال، وإنما بمعنى التصحيح والعودة إلى ما جاءت به الرّسالات التي قبل  
رسالته، وتخليص تلك الرّسالات ممّا أصابها من انحراف على أيدي الضالين  
المضلين، حيث إن الله تعالى خلق الخلق على فطرة التوحيد منذ أن جعل الله  
آدم عليه الصّلاة والسّلام أول خليفة في الأرض، وأنزل معه الدين الحقّ  
والرّسالة الحقّ، وبما هيأ الله تعالى البشر من تقبل الفطرة السليمة حيث قال  
تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى

أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ {1484}.

ومن هنا انبثقت الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولذا خاطب الله تعالى نبيه عليه الصلّاة والسّلام بما فطره عليه مع الخلق حيث قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {1485}.

فالله تعالى لم يغير فطرة البشر، وإن الذين ضلوا عن الفطرة اختاروا ذلك بأنفسهم، فهذه النصوص واضحة الدلالة بأنّ الناس وُجدوا في حياتهم مستقيمين على الحقّ مؤتلفين عليه، وأنّ الانحراف والاختلاف إنما جاء عرضاً طارئاً، قال تعالى: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا} {1486}.

إن استمرار هذا الاختلاف واتساع شقته، إنما كان بتأثير الوراثة في تراخي الزمن والابتعاد عن الحقّ، وتلقين كل جيل عقيدته للناشئين من آبائهم أو مجتمعاتهم، ولذا قال نبي الكافة صلّى الله عليه وسلّم: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصره أو يمجّسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء" {1487}.

فالرّسالات السماوية متفقة على أنّ الإنسانية لم تترك وشأنها لما يعتريها من انحرافات، فلم تترك باستلهاها العبادات والقوانين والنظم من غرائزها وأطماعها، بل تعهداها الله تعالى بنوري الإلهام الوحي من أول يوم،

---

1484 - الأعراف 172.

1485 - الروم 30.

1486 - يونس 19.

1487 - صحيح البخاري، ج 1، ص 365.

فكان آدم عليه الصّلاة والسّلام هو أول الملهمين، وأول المؤمنين الموحدين،  
وأول المتضرعين الأوابين.

فإذا كان آدم عليه الصّلاة والسّلام أول الأنبياء، ومحمد عليه الصّلاة  
والسّلام آخر الأنبياء، وهو النبي الخاتم ونبي الكافة، وكفّ بنبوته الرّسالات  
السماوية، فهل أن هذه الرّسالات:

. مختلفة متغايرة.

. متفقة متطابقة.

. متحركة متطورة.

. حقيقة ثابتة.

إن الرّسالة السّماوية كان لها السبق في الوجود على أي دين، وإن ما  
اعتراها من شوب أو خلل وما وُجد من ديانات وضعية باطلة، إنما هو  
محض شدوذ وانحراف صدر عن فئات وأشخاص كان لها مصلحة في ذلك،  
وعليه نتساءل:

. هل بدأت هذه الديانات السّماوية واستمرت تنزل ديانة إثر ديانة

على نمط واحد، ثم انتهت وهي على هذا النمط دون تغيير ولا تطور؟

. أم أنها بدأت على نمط خاص، ثم تطورت إلى أنماط مختلفة، ثم

انتهت بنمط آخر هو نسيج وحده تمثل في الرّسالة الكافة؟

وعليه نقول: إن الرّسالات السّماوية كلها جاءت متفقة ومختلفة:

. متفقة في أصولها.

. مختلفة في فروعها.

كلها يتفق على الجوهر والحقيقة على أصول العقيدة وجوهر التوحيد، فهي جمعا تدعو إلى الإيمان بالله وحده، والإيمان بكل ما جاء عنه، والأخذ بكل ما يصل بالإنسان إلى الخير ويباعد بينه وبين الشر.

ونبي الكافة عليه الصلّاة والسّلام برسالته الكافة أكّد على هذه الحقيقة في القرآن الكريم وصرّح بوحدة الرّسالات السماوية كلها في الأصل والجوهر، حيث قال تعالى: { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } 1488.

وهذا دليل قطعي من جوانب كثيرة نذكر منها:

آ: أنّه عليه الصلّاة والسّلام نبي الكافة، إذ أنّ التشريع الذي تحمله رسالته تتضمن ما شرّعه الله تعالى لأول المرسلين نوح عليه الصلّاة والسّلام إلى نبي الكافة وما انحصر بينهما من الأنبياء والمرسلين وخصّ بالذكر أصحاب الرّسالات الباقية.

ب: أنّ الرّسالة السماوية واحدة في جوهرها وأصلها.

ج: أنّها تختلف في الفروع التطبيقية من شريعة إلى أخرى.

أمّا فروع الشرائع وتفصيلها وجزئياتها، وسورها وصورها، فتختلف فيها الديانات السماوية اختلافا ظاهرا في التطبيق العملي، لا في الجوهر والحقيقة.

فمثلا فريضة الصلّاة، جاءت بها كل الشرائع السماوية، ولكنها تختلف صورها وتطبيقها من شريعة إلى شريعة: فهي في الشريعة الإسلامية

قيام، وقراءة، وركوع، وسجود على كيفية معروفة، وفي شريعة عيسى عليه الصلاة والسلام ترانيم وتراتيل تتلى على هيئة خاصة.

وفريضة الصيام: جاءت بها كل الشرائع السماوية، كما تصرح به الرسالة الكافة في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } 1489. ولكنها تختلف صورتها من شريعة إلى شريعة، فالصوم في الشريعة الإسلامية: إمساك عن الطعام والشراب والنساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وفي شريعة عيسى عليه الصلاة والسلام: إمساك عن أكل كل ذي روح من الحيوان وما يتولد منه في وقت معين.

وهكذا تختلف الشرائع السماوية في أمور كثيرة كلها فرعية غير أصلية وذلك في الحقيقة، اختلاف في الأسلوب والمنهج لا في الجوهر والهدف، وقد جاء ذلك صريحا في قوله تعالى: { لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا } 1490.

أما لماذا اتحدت الشرائع السماوية في أصولها واختلفت في فروعها؟

فذلك لأنّ الأصول حقيقة وجوهر ثابت لا يتغير منها شيء بحال من الأحوال.

. فالله سبحانه وتعالى، هو الله بذاته وصفاته وأسمائه الحسان، لا يتغير ولا يتحول أبدا.

. الرّسل في كل أمة، هم الرّسل بما يجب لهم وما يجوز في حقهم.

---

1489 - البقرة 183.

1490 - المائدة 48.

. الكتب المنزلة على مدى تاريخ الرّسالات السماوية، هي الكتب المنزلة بما لها من قداسة وتعظيم.

وكل ما جاء عن الله حقّ ثابت، وصدق لا يُنقض، فأصول الأخلاق والعبادات والمعاملات والحرام والحلال بما أوجبه الله تعالى يرتضيه كلّ إنسان عاقل سويّ، لما يحمل من حقّ الخالق على المخلوق، وما ترضاه النفس الإنسانية، لما يحفظ لها من كرامة حقوق، واحترام لهذه الحقوق بما شرّعه الله تعالى، ولا يجيد عن ذلك إلا ضالّ أو مضلّ.

أما الفروع: فهي التي يعترها التغير والتبديل، ويتناولها التعديل والتطوير، لأنها ليست أكثر من تطبيق للأصول في صور مختلفة، ولا بدّ لهذه الصور أن تختلف تبعا لاختلاف أحوال المكلفين واستعدادهم، وما يحيط بهم من عوامل وظروف كثيرا ما يكون لها أثر في التكاليف، فما يصلح لزمان قد لا يصلح لزمان آخر، وما يلائم طبيعة قوم قد لا يلائم طبيعة قوم آخرين، غير أن التوحيد الذي يعبرّ عن جوهر الرّسالات جمعا لا يتأثر بالزمان والمكان أو اختلاف الظروف والبيئة، ولذا اتفقت الأصول واختلفت الفروع.

وعلى ما تقدم من وحدة الرّسالات في جوهرها وأصولها، واختلافها في صورها وتطبيقاتها، إذن هي مهية لن تدخل ضمن الرّسالة الكافة وما يدعو إليه نبي الكافة تبعا لوحدة الجوهر الحقيقي الثابت، والظرف الزماني والمكاني المتغير، ولذا وجب على أتباع الرّسالات الأخرى أن يدخلوا في الكافة لعدم التعارض ومراعاة المصلحة.

إنّ من المهيات الأولى للكافة، أنّ الإنسانية فيما يخص حياتها الدنيوية، تنمو وتتطور وتمرّ في مراحل، وهذه الأطوار التي مرت بها الإنسانية في مراحلها المختلفة، أشبه ما تكون بالأطوار التي يمرّ بها الإنسان الفرد في



حياته، فهو يبدأ بمرحلة الطفولة، ثم يتدرج في مراحل أخرى، ينمو فيها جسمه وعقله حتى يصل إلى مرحلة الرجولة والنضج التام.

ومجموع هؤلاء الأفراد تتشكل منهم البشرية، حيث كان بها من الفؤة وما تمتلك من وسائل وأدوات وحاجات ومشبعات لتلك الحاجات ما يناسب حياة الطفولة البشرية، وبما يناسب في تطبيق الفروع من الرسائل، ثم هي بعد ذلك مرّت بمراحل متتابعة، كل مرحلة تزيد فيها عن سابقتها نمواً وقدرة وتقبلاً، وهي في كل مرحلة من هذه المراحل تحتاج إلى نوع من الغذاء الروحي يتناسب مع ما هي عليه من درجة النمو والقدرة والتقبل، وعندما تبلغ البشرية تمام نضجها وغاية رشدها، تحتاج في هذه المرحلة الأخيرة إلى ما يلائمها كما ونضجاً فكان نبي الكافة برسالته الكافة.

فالغذاء الروحي الذي أمدّ الله به البشرية في أطوارها ومراحلها المختلفة هو الدين بجوهره مع اختلاف تطبيقاته وفقاً لمراحل النمو، وحملة هذا الدين إلى البشرية هم الأنبياء والمرسلون صلّى الله عليهم وسلّم، ونبي الكافة عليه الصلّاة والسّلام جاء للبشرية برسالة تعاهدت عليها البشرية، وتعرفها حقّ المعرفة عن أنبيائها ورسالتها، ومجموع الرّسل وإن اختلفوا في الظرف والزمان والمكان، إنّما يدعون إلى حقيقة واحدة، تمهيدا لبناء بيت واحد يؤسس السابق للاحقّ، ويشيّد اللاحقّ على أساس السابق وصولاً لنبي الكافة برسالة كافة، فلا غرابة بعد ذلك، وقد قال صلّى الله عليه وسلّم: "مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلاًّ وُضِعَتْ هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين" 1491.

ولذا نقول إنّ الدين عند الله واحد، ونبى الكافة ختمت به الرّسالات السماوية التي كوّنت في مجموعها صرحا واحدا، اشترك في بنائه الأنبياء جمعا، فما من نبى بُعث إلا وقد وضع فيه لبنة، حتى إذا شارف البنيان على التمام والكمال ولم يبق منه إلا موضع لبنة يتم بها تمامه ويكمل حسنه وبهاؤه، بعث الله محمّدا عليه الصّلاة والسّلام للناس كافة وداعيا له، فكان صلّى الله عليه وسلّم، بما جاء به من الدين اللبنة المتممة للبناء، المكملة للحسن والجمال، فكان خاتم الأنبياء والمرسلين ونبى الكافة بالرّسالة الكافة.

وهكذا شاءت حكمة الله تعالى أن يرسل محمّدا عليه الصّلاة والسّلام بدين جمع هدي وإرشاد الأنبياء السابقين ورسالاتهم، وختم به عليه الصّلاة والسّلام الرّسالات، وجعل رسالته للناس كافة ولم تكن لقومه خاصة.

ب . غير أهل الكتاب

رسالة الثقلين التي جاء بها خاتم الأنبياء ونبى الكافة تقرر أنها تشمل:

. الإنس .

. الجن .

. أهل الكتاب .

. غير أهل الكتاب .

وسنفضّل ذلك كلّ في موضعه، ونبدأ بغير أهل الكتاب لأنه الأشمل والأعم الذي تدخل فيه البشرية جمعا، ومن ضمنهم أهل الكتاب.

ولقائل أن يقول: كيف يدخل أهل الكتاب في غير أهل الكتاب وهم

خلف .

نقول: إنّ أهل الكتاب لما انخرفوا عن تعاليم الرّسالات السماوية، فقد خرجوا من الأهلية ولم يبقَ لهم من الكتاب إلا النسبة التي ينتسبون بها إلى الكتاب، فبقي الكتاب على جوهر حقيقته بانسلاخهم عنه، وضلوا عنه ضلّالا بعيدا، فهم بذلك أعظم جرما من الذين كانوا أميين قبل أن يأتيهم كتاب.

وأما دليل رسالة الثقلين لغير أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ {1492}.

فالأُمِّيُّون ليسوا فقط الذين لم يكن لديهم كتاب ثمّ نزل فيهم من حيث:

آ . الزمان .

ب . المكان .

ج . اللغة .

وإنما إضافة إلى الزمان والمكان واللغة، فقد دخل في الحكم كل من لم يأتيه كتاب أو لم يتبع كتابا أنزل من قبل.

وأما قوله: (وأخريّن لما يلحقوا بهم) فقد دخل في حكم الوجوب من لم يوجد بعد، ذلك أن معنى (لما) تفيد نفي الحاضر، وإثبات المستقبل.

فالله سبحانه وتعالى بعث رسوله للناس كافة بين قومه، ورسالته جاءت لجميع الناس، وإن دلائل عموم رسالته عليه الصلّاة والسّلام معلومة

من النصوص النقلية في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ  
إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} 1493.

وكذلك قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ  
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 1494.

ونحن لا نقرّ بأنّ المراد بالأميين هم العرب الذين لا يعرفون القراءة  
والكتابة كما ذهب كثير من الباحثين في معنى الأمي والأمين، وهذا تفسير  
غير منطقي بأن توصف أمة بكاملها أنها أمية القراءة والكتابة لما فيه من  
المغالطات والخلط الشيء الكثير.

والرد على ذلك سهل يسير من ثبوت القراءة والكتابة وتمكن العرب  
منها والأدلة كثيرة نذكر منها:

1 . إن كان المقصود أهل مكة، فمن المعلوم أن قريشا كانت تشترك  
جميعها في التجارة ورحلة الشتاء والصيف، ومن المعلوم أيضا أن جميع بطون  
قريش كانت مساهمة في هذه التجارة بأنصبة معلومة لكل بطن من بطونها أو  
لكل فرد من أفرادها، وهذه الأسهم والأموال والأرباح لا بد أن تقيّد كتابة  
من أجل معرفة رأس المال والأرباح وتوزيع ذلك حسب الأسهم لكل مسهم  
فيها وهذا لا يكون بالمشافهة.

2 . كتبة الوحي الذين كانوا يدونون القرآن الكريم، كانوا يكتبونه  
ويقرؤونه.

3 . فداء أسرى بدر كان أن يعلم الأسير من قريش واحدا من  
المسلمين مقابل فدائه.

---

1493، الأعراف 158.

1494، سبأ 28.

4. تدوين صلح الحديبية من قبل قريش والمسلمين.

ثمَّ إذا انتقلنا إلى دائرة أوسع، فإنَّ العربَ العارِبةَ كان لهم دول وحضارات في معين وسبأ، وهذه الحضارات التي تنتمي إلى دول، لها دواوينها في الجند والزراعة والتجارة.

والعربُ المستعربةَ كان لها دول وحضارات أيضا، مثل مملكة كِنْدَا ودولة المناذرة ودولة الغساسنة، وجميع هؤلاء ينتمون إلى الأمة الأمية.

وعليه نتساءل ما هي الأمية ومن هم الأميون؟

وللإجابة على هذا التساؤل نقول:

إن هناك نوعين من الأميين:

الأول: الذين لم يخلُ فيهم كتاب من الكتب السماوية كما هو حال اليهود والنصارى الذين خلا فيهم كتاب بدليل قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} 1495.

فثبوت دلالة القراءة والكتابة وعدم ثبوتها في سياق الآية مستويان، فقد بعث الله تعالى في الأميين رسولا:

- يتلو عليهم الآيات.

- يزكِّيهم.

- يعلمهم الكتاب.

- يعلمهم الحكمة.

ذلك أنهم كانوا في ضلال مبين، ولم يكونوا يجهلون القراءة والكتابة، ولو كان الأمر كذلك لانتفت دعوة غير أهل الكتاب إلى الإسلام من الأمم ذات الحضارات أصحاب الثقافة والعلوم والفنون الذين لم يخلُ فيهم كتاب.

الثاني: الذين خلا فيهم كتاب ولكن لا يعلمونه، قال تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} 1496.

وربّ قائل يقول: إن الله تعالى وصف نبيه عليه الصلّاة والسّلام وصفا صريحا بالنبي الأمي في أكثر من موضع كقوله تعالى: {فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} 1497.

والجواب على ذلك من جانبين:

الأول: أن النبي الأمي هو هذا الرسول الذي لم يؤت كتابا من قبل، ولم يؤت كتابا عن طريق أسلافه من قومه، ولم يؤمر باتباع كتاب قبل كتابه.

الثاني: أن جميع أنبياء بني إسرائيل لم يوصف أحد منهم بهذا الوصف من موسى إلى عيسى صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين، ذلك أن كتاب موسى عليه الصلّاة والسّلام قد خلا فيهم من قبل، فلم يعودوا أميين.

ثم إن بعد ذلك هناك مسألة مهمة في مفهوم الدلالة على معنى الأمي بأنه عدم العلم بالكتب المنزلة من الله سبحانه وتعالى على رسله، وليس عدم القراءة والكتابة، فقد ذكر الله تعالى بعضا من أهل الكتاب الذين يعرفون الكلم عن مواضعه، مع أنهم يعلمونه أنه الحقّ، ويقولون للبعض الآخر لا تحدثوا الذين آمنوا بما فتح الله عليكم حتى لا يكون ذلك عليكم حجة، ثم استثنى منهم الذين لا يعلمون الكتاب، وإتّما يحملونه على الظن فوصفهم

---

1496، البقرة 78.

1497، الأعراف 158.

بالأميين لعدم علمهم بالكتاب، وليس لعدم علمهم القراءة والكتابة حيث قال تعالى: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُسْنِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} 1498.

وعلى هذا فقد دخل في رسالة رسول الثقلين صلى الله عليه وسلم:

. الأميون الذين لم يؤتوا كتاب من العرب وغيرهم.

. الأميون الذين لا يعلمون الكتاب وهم بعض أهل الكتاب.

إنّ من المسلمات أن الكمال من الكامل المطلق، والرّسالة الكافية التي جاء بها نبي الكافة كاملة بدلالة النصوص النقلية، وأمر بدهي وطبعي، أن رسالة الثقلين قد بلغت الغاية في الهداية والتشريع ضرورة، لأنها جاءت لإسعاد البشرية في أرقى مراحلها وأوج كمالها، فأى شيء يرجى للبشرية بعد ذلك؟

أي شيء يرجى لها بعد الكمال الذي لا كمال بعده؟

لا شيء إلا أن تمشي البشرية معتصمة بها إلى نهايتها، إذ ليس بعد الكمال غاية، ولا بعد بلوغ المنتهى نهاية، حيث قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} 1499.

فمن المعلوم أن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن الكريم، وبعبارة أدق هي من آخر ما نزل من القرآن الكريم، والخطاب في هذه الآية لكل من

---

1498 - البقرة 76 - 78.

1499 - المائدة 3.

دخل في هذا الدين وأتبع رسالة رسول الثقلين ومن يدخل لاحقًا، ومعنى ذلك أنه دخل في الخطاب:

. الأميون من العرب.

. الأميون من غير العرب.

. الأميون من أهل الكتاب الذين لا يعلمون الكتاب.

ومجموع هؤلاء شملتهم رسالة الثقلين كونهم من غير أهل الكتاب، والأميون من أهل الكتاب دخلوا في الأميين الذين لم يكن لديهم كتاب كونهم لا يعلمون كتابهم.

. أهل الكتاب

إن رسول الثقلين عليه الصلوة والسلام رسول إلى أهل الكتاب بدلالات كثيرة منها:

. نبي الكافة.

. النبي الخاتم.

. النصوص النقلية.

. الأدلة العقلية.

وقد بينا في نبي الكافة والنبي الخاتم كثيرا من أدلة الوجوب في اتباع رسول الثقلين، وسنبيّن هذا الوجوب من الأدلة النقلية والعقلية بما يقبله العقل وفق المنطق السليم، وما ترتاح إليه النفس وتطمئن به إلى صدق الأدلة إن شاء الله.



فمن النصوص النقلية التي تدعو أهل الكتاب إلى اتباع رسول الثقلين قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} 1500.

هذه الآيات في القرآن الكريم من أوائل ما أمر الله تعالى رسول الثقلين أن يخاطب بها أهل الكتاب ويدعوهم إلى اتباع رسالته، فهي تحمل من الدعة واللطف والرفقة والحسن في التعامل بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ما نراه.

فإن دعاني بهذه الدعوة نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى صلى الله عليهم وسلم أجمعين، فلا أملك إلا أن أجيهم، وليس لي من سبيل إلا اتباعهم، لما تحمل هذه الدعوة من الحق والعدل والإنصاف في مضمونها، وما فيها من رفعة أخلاق وحسن التأدب ولين الجانب في أسلوبها إنَّها دعوة منصفة من منصف، في إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولو لم يكن عليه الصلاة والسلام رسولا لهم ما كان ليدعوهم إلى اتباعه.

هي دعوة لا يريد بها رسول الثقلين عليه الصلاة والسلام أن يتفضل عليهم، وإنما هي كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى واحد، لا يعلو بعضهم على بعض، ولا يتعبد بعضهم بعضا، دعوة لا يأبأها إلا متعنت مفسد، لا يريد أن يفيء إلى الحق القويم.

إنَّهَا دَعْوَةٌ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ الَّذِي يَعْرِفُونَ، وَلَكِنْ عَلَى الْآيَشْرَكُوا بِهِ شَيْئًا،  
وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرْبَابًا، لَا نَبِيًّا وَلَا رَسُولًا وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ،  
فَالْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ كُلُّهُمْ عِبَادُ اللَّهِ، وَإِنَّمَا اصْطَفَاهُمْ اللَّهُ لِلتَّبْلِيغِ عَنْهُ، لَا  
لِمُشَارَكَةِ فِي الْأُلُوْهِيَةِ وَالرَّبُّوبِيَةِ.

فهذه الدعوة كلمة عادلة اتفقت عليها الرُّسُلُ والكتب التي أنزلت من  
عند الله، ثُمَّ إِنْ الدَّعْوَةُ إِلَى كَلِمَةٍ سِوَا تَسْتَدْعِي لَدَيْهِمْ مَرْجِعِيَّاتٍ عَقَائِدِيَّةٍ  
تَخْلَوْنَ عَنْ قِسْمٍ مِنْهَا، وَأَخْفَوْا قِسْمًا آخَرَ.

فَأَمَّا الْقِسْمُ الَّذِي تَخْلَوْنَ عَنْهُ، هُوَ الْآيَ نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا  
يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِهِ، وَلَا يَطِيعُ أَحَدٌ أَحَدًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ مِنْ  
تَحْرِيمٍ وَتَحْلِيلٍ وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيٍ عَنِ الْمُنْكَرِ، قَالَ تَعَالَى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ  
عُزَيْرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ  
يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ الْيَوْمَ يُؤْفَكُونَ} 1501.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي الَّذِي يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، مَا بَشَّرْتَهُمْ بِهِ  
رَسُولُهُمُ بِالرَّسُولِ الَّذِي أَمْرُهُمْ بِاتِّبَاعِهِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ رَسُولَ الثَّقَلَيْنِ، هُوَ  
رَسُولُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ، حَيْثُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ:  
{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا  
بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} 1502.

فهذه البشرية لم تكن للأمينين وإنما لأهل الكتاب، وجاءت في القرآن  
الكريم إخبارا عن عيسى عليه الصلوة والسلام بأنه أدّى الأمانة وبلغ الرسالة  
بوجوب اتباع أحمد لمن أدركه منهم.

---

1501 - التوبة 30.

1502 - الصف 6.

ثُمَّ إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى كَلِمَةِ عَدْلِ وَصِدْقِ مُسْتَوِيَةٍ لَا التَّوَاءِ فِيهَا أَمْرٌ يَجِبُ أَنْ يَقْبَلَهُ أَيُّ عَاقِلٍ وَلَا يَجَادِلُ فِيهِ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ السَّوَاءُ، إِلَّا نُدْخَلَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ السَّمُوَ إِلَى جَلَالِهِ أَوْ الْارْتِقَاءَ إِلَى كَمَالِهِ، فَالْعَقُولُ السَّلِيمَةُ تَرْفُضُ كَلِمَةَ الشَّرْكِ قَطْعًا.

وبالعقل السليم والحجة المنطقية هل يشارك المخلوق خالقه فيما خلق؟

نحن بني البشر نرفض أن يشاركنا أحد في أموالنا أو أملاكنا ما لم يكن له فيها مساهمة أصلا وهي مخلوقة لنا!

فكيف يستقيم قبول الشرك في الخلق ممن ليس له القدرة على الخلق؟

ومن هنا نقول: إن كل مخلوق أشركوه في الألوهية، إنما جاء من بعد الأمر (كن) فكان الخلق، والذين يشركونه إنما هم داخلون في الأمر (كن).

وإن كان الشرك في إدارة الخلق، فهو سبب لا يصمد لحجة، بدليل أن إدارة الكون وما فيه من خلق أهون من خلقه أصلا، مع علمنا أن الله تعالى ليس من صفاته أهون أو أصعب.

فإذا كان هذا هو السبب في الشرك فهو أتفه من أن يكون حجة، لأن الخالق سبحانه وتعالى قادر على إدارة هذا الكون ومن فيه بما فيه، ولذا فالله تعالى أنزل منهجا متدرجا: عمدته التوحيد في حقيقته . جوهره، وجزئياته العبادات في صورها المتعاقبة وصولا إلى رسول الثقلين الذي أمروا باتباعه، فإذا ما اتبع الإنسان رسالة رسول الثقلين التي دعت إلى الحقيقة والجوهر وضمت الجزئيات صار الإنسان منسجما مع هذا الكون والخلق، فلا داعي للزوم الشرك.

وإن كان الله شريك - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - وتمتع الشريك بقدرات ما، فهذه القدرات تنقص من قدرات الشريكين، والإله الحقّ قدراته كاملة لأنّ من صفاته الكمال، ولأنّ الله تعالى كامل في علمه، كامل في قدراته، كامل في أفعاله، كامل في صفاته فقد حسم الأمر لخلق بقوله تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ} 1503.

لقد قرر القرآن الكريم أن رسول الثقلين هو رسول لأهل الكتاب أيضا لأنهم لا يخرجون عن الثقلين بحدّ من حدود، ولذا خاطبهم الله تعالى بقوله: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 1504.

. فلم يقل رسولكم.

. ولم يقل رسولهم.

بل قال رسولنا، ورسولنا إلى من خلقنا ممن وجب عليهم اتباع رسالته والافتداء بهديه.

لقد كان أهل الكتاب يستعظمون أن يدعوهم نبي ليس منهم إلى الدين الحقّ، هو نبي من الأميين بالمعنى الذي أوضحناه، وهم يعتقدون أن الرّسالة والنبوة مقصورة على أبناء إسحاق صلّى الله عليه وسلّم، كانوا يتعالون على الأميين ويتعاملون عليهم؛ لأنهم هم أهل الكتاب وهؤلاء أميون!

---

1503 - المؤمنون 91.

1504 - المائدة 15، 16.

فلما أراد الله الكرامة لهؤلاء الأميين بعث فيهم خاتم النبيين ورسول الثقلين، وجعل فيهم الرسالة الكافية الشاملة للبشر أجمعين.

وفي هذا النداء الإلهي لأهل الكتاب، يسجل عليهم أنهم مدعوون إلى اتباع هذه الرسالة والداعي لها، ومدعوون للإيمان بهذا الرسول ونصره وتأييده، كما أخذ عليهم ميثاقه. ويسجل عليهم شهادته - سبحانه - بأن هذا النبي الأمي هو رسوله إلى أهل الكتاب كما أنه رسول إلى الأميين وإلى الناس كافة.

. فلا مجال لإنكار رسالته أنها عند الله.

. ولا مجال للدعاء بأن رسالته مقتصرة على قوم.

. ولا مجال للنكران بأنها ليست موجهة إلى أهل الكتاب.

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا، يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير)

فهو رسول الله إليهم في أن:

. يبين لهم ما أشكل عليهم.

. يوضح لهم ما استعصى عليهم فهمه.

. يكشف لهم ما تواطؤوا على إخفائه من حقائق كتاب الله الذي معهم.

يستوي في ذلك اليهود والنصارى، وقد أخفى اليهود كثيرا من أحكام الشريعة؛ كرجم الزاني، وتحريم الربا، وأخفى النصارى التوحيد، كما أخفوا جمعا خبر بعثة النبي الأمي رسول الثقلين (الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل).

وقد أخبرهم الله تعالى أنه عليه الصلّاة والسّلام يعفو عن كثير ممّا أخفوه من الكتاب، وما حرّفوه ممّا لم يرد في الكتاب، وهذا الذي لديهم لم يعد له عمل في المجتمع الإنساني لسببين:

الأوّل: أن الذين يعملون به هو ما كتبوه بأيديهم ممّا اشتروا به ثمنًا قليلاً.

الثاني: ما كانت له وظيفة معينة في ظرف زمني ومكاني لم يعد يؤدّي الحاجة.

أمّا وقد جاء الرّسالة الشاملة الدائمة، واستقرت، وقد أكملها الله وأتمّ بها نعمته ورضيها للناس ديناً، فلم يعد فيها نسخ ولا تبديل ولا تعديل.

ويبين لهم طبيعة ما جاء به رسول الثقلين، ومهمته في الحياة البشرية، وما قدر الله من أثره في حياة النّاس وما بعد الحياة.

(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام. ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم)

وليس أدق ولا أصدق ولا أدل على طبيعة هذا الكتاب وعلى طبيعة هذا المنهج، من أن الله تعالى تعهده بالرعاية والحفظ، حيث قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} 1505

إنّ الله سبحانه وتعالى أعلم أهل الكتاب برسول الثقلين من حيث:

. التنبيه.

. الإنذار.

. وجوب الاتباع.

حتى لا يقول أحدهم لم يبلغني عن هذا الرسول شيء.

ومن حسن الأدب وسماحة العفو أنه يبين كثيرا مما كانوا يخفون من الكتاب، ويعفو عن كثير، حيث أن هذا الأمر فيه دليلان:

. دليل على كثرة إخفاء الحق بدليل التبيين.

. دليل على كثرة الذنوب، بدليل كثرة العفو.

وبعد هذا نقول: إن رسول الثقليين محمد عليه الصلاة والسلام هو رسول لأهل الكتاب كونهم من الثقليين وقد بشرهم به عيسى عليه الصلاة والسلام قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ {1506}. فأثبت الله تعالى على النصارى ببشارة عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام وجوب اتباع محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم إنه تعالى أخبر عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى: أنهم يجدون صفة محمد عليه الصلاة والسلام في التوراة والإنجيل، وأنه نبي أوجب عليهم اتباعه ونصرته، فقال الله تعالى: ﴿عَدَائِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا

بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ  
الْمُفْلِحُونَ {1507.

وقال تعالى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا  
كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ  
يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ  
بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {1508.

وقال تعالى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ  
مِنَ الرَّسُلِ أَنَّ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ  
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {1509.

فقطع الله تعالى بذلك كل حجة لأهل الكتاب بما أخبرهم عن صفته  
في كتبهم، وأن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم:

. هو النور .

. هو الحق .

. يخرجهم به من الظلمات إلى النور .

. يهديهم به إلى صراط مستقيم .

الجن الأصل

قال تعالى في كتابه العزيز: { وَرَبِّكَ يُخَلِّقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ  
الْحَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {1510. لقد خلق الله تعالى الخلق

---

1507 - الأعراف 156، 157.

1508 - المائدة 15، 16.

1509 - المائدة 19.



بحكمة منه ولحكمة له، والجن خلق من خلق الله تعالى كمثل سائر المخلوقات، ولكنها مخلوقات خفية لها القدرة على أن تقوم بأعمال وأفعال لا يستطيع الإنس عملها أو فعلها مثل:

. الصعود إلى السماء ولمسها في دائرة الممكن:

قال تعالى: { وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا } 1511.

. القعود من السماء واستراق السمع:

قال تعالى: { وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا } 1512.

. القدرة على لمس السماء:

قال تعالى: { وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهَدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا } 1513.

ومادة خلقهم تختلف عن المخلوقات الأخرى قال تعالى: { وَالْجَانُّ خَلْقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ } 1514.

وهم مكلفون بالعبادة، فأوجب عليهم ذلك اتباع الرسل حيث قال تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } 1515.

---

1510 - القصص 68.

1511 - الجن 8.

1512 - الجن 9.

1513 - الجن 13.

1514 - الحجر 27.

1515 - الذاريات 56.

ومحمد عليه الصلاة والسلام هو رسول الثقلين، والجن أحد طرفي هذا الثقلين، فهو رسول لهم بدلالة النصوص وهم يعلمون ذلك من خطاب الله تعالى لنبية عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} 1516.

إنّ هذا الإصغاء إلى القرآن الكريم والإنصات له ثم الإيمان به قياسا على ما علموه من كتاب موسى صلى الله عليه وسلّم، هذا بداية.

ثمّ إن هذه الآيات من الأدلة على أنّ محمداً عليه الصلاة والسلام هو رسول لهذا الثقل من الثقلين وهم الجن الذين استمعوا لهذا القرآن، فتنادوا بالإنصات لما اطمأنت قلوبهم إلى الإيمان به، فانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعوهم إلى الله ويبشرونهم بالرسول الذي يعرفونه، وهذه المعرفة للجن برسول الثقلين معلومة عندهم ممّا يعلمون من الكتاب الذي أنزل من قبل، وهو كتاب موسى وبشرى عيسى عليهما الصلاة والسلام، فقد ربطوا بين كتاب موسى وهذا القرآن، فاستنتجوا وحدة المصدر وحقّيقة الجوهر، وهذه الحقيقة التي جاءت على لسان الجن، أخفاها اليهود والنصارى، ومن هنا نتبيّن حقيقة كونية في وحدة الخلق من الإشارة التي جاءت من المخلوقات الخفية لتعطي درسا لبني البشر في القضية التي يجادل بها البعض، وبها يجحدون

فقول هذا نفر من الجن في:

. خشوعهم.

- إنصاتهم.

- إنذار قومهم.

تتضمن أسس الاعتقاد الصحيح في:

- التوحيد.

- تصديق الوحي.

- وحدة العقيدة

ووحدة العقيدة هذه بين الكتب السماوية أظهرتها الجن مع أنّ كثيرا من الإنس يخفونها.

وهنا يقع التساؤل؟

إن كانت هذه المخلوقات لا نراها وهي خارج حياتنا فلماذا ذكرها الله

لنا؟

إنّ الإجابة على هذا التساؤل تمكن في أمور عديدة منها:

- أنّ الله تعالى أعطى دليلا أن محمّد رسول الثقلين من الإنس والجن.

- أنّ بعض الإنسان الذي كرّمه الله على العالمين لم يكن أهلا لهذا

التكريم فجحد.

- أنّ بعضا من خلق الله من هو أدنى مكانة من الإنسان، أفضل من

بعض الإنسان.

- هذا الأدنى من الخلق سوف يشهد شهادة الحقّ على من هو أعلى

منه مكانة.

. إن بعضا من الأقل تكريما، هو أفضل من بعض من كرم على العالمين.

ومن هنا نعلم الحكمة من قوله تعالى: {فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوًّا بِهَا بِكَافِرِينَ} 1517.

إن رسول الثقلين هو رسول إلى الجن وهم يتربونه وينتظرون مجيئه لاتباعه والتصديق به، ذلك أنهم أول ما سمعوا القرآن يتلى وصفوه بالهدى أو أنهم أطلقوا عليه هذا الاسم كونهم يعلمون الهدى من الضلال، قال تعالى حكاية عن الجن: {وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَحَافُ بِخَسَا وَلَا زَهْفًا} 1518.

وأول سمة من سماتهم التي ذكرها الله تعالى لنبهه عليه الصلاة والسلام أنهم عقلاء مميزون حيث قال تعالى: {قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} 1519. وبهذا يتساوون مع الإنس في أمر التكليف واتباع رسول الثقلين صلى الله عليه وسلم، وقد ورد في آيات كثيرة من القرآن الكريم ما يدل على تلازم الثقلين في قوله تعالى: {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَفْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} 1520.

وأنهم جمعا مأمورون بالتكليف حيث قال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يُفَصِّحُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ

---

1517 - الأنعام 89.

1518 - الجن 13.

1519 - الجن 1.

1520 - الرحمن 31-33.

هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ  
كَانُوا كَافِرِينَ { 1521.

ومن ظاهر النص القرآني في الآية الكريمة نجد أن الخطاب جمع الثقلين  
بالتساوي في:

. أسلوب الخطاب في الاستفهام الإنكاري.

. مستوى الخطاب في التكافؤ.

. توجيه الخطاب للثقلين.

. قصد الخطاب في القصص والإنذار لكليهما.

. غرض الخطاب دعوة الثقلين.

. هدف الخطاب إقامة الحجّة على الثقلين.

. غاية الخطاب الإقرار من الثقلين

وهذا يقتضي أن تكون الرّسل:

إمّا من الثقلين (الجن والإنس)

وإمّا من أحدهما (الإنس)

فرسل الجن والإنس كانت بعضاً ممّا ذكر من الثقلين، فإذا كانت  
(من) التبعية التي استثنت بعض الثقلين من الرّسل تعود على الإنس،  
فهذا يعني أن الرّسل من الإنس كانت إلى الثقلين وأدلته من الكتاب كثيرة،  
ولكن يترتب على هذا الأمر أمر آخر وهو رسل الرّسل، وهذا متحقّق في

قوله تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} 1522.

فالدليل هنا يلزم منه أن يكون آمن قسم من الجن فبلغوا قومهم ودعوهم إلى ما استمعوا من الهدى، فكان القسم الذي آمن ودعا قومه إنما هم بمثابة رسل من المرسلين من الله تعالى ولا يلزم من هذه الآية إثبات رسول من الجن للجن.

وأما قوله تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} 1523.

فإنه واضح من النص أن الرسول صلى الله عليه وسلم، جاءه نفر من الجن فاستمعوا القرآن وعندما وجدوه يهدي إلى الرشده الذي يعلمونه من كتاب موسى عليه الصلاة والسلام آمنوا به، ثم ذهبوا إلى قومهم مخبرين بما سمعوا من وصف لهذا القرآن فشرعوا في:

. الثناء على الله تعالى بالمدح والتمجيد.

. يصنفون قومهم إلى مسلم وكافر وصالح ودون ذلك.

. وجزاء كل منهما.

وأنه لما سمعوا الهدى آمنوا به، وليس في سورة الجن دعوة من الذين آمنوا إلى الذين لم يؤمنوا بالتبشير والإنذار، وإنما آمنوا ونقلوا الخبر، وهذا يعني أن الذين لم يسمعوا عندهم علم بما أخبرهم به بعض قومهم، وكأنها بشرى يبشرون بها قومهم بأنه جاءهم الرسول الموعود، ولو لم يكن عليه الصلاة والسلام رسولاً لهم لما آمنوا به.

---

1522 - الأحقاف 29.

1523 - الجن 1-2

## النبي

### محمد من السنّة

ولد محمد عليه الصلّاة والسّلام في مكّة المكرمة يوم الاثنين الثّاني عشر من شهر ربيع الأوّل عام 571 م، ويعرف عام مولده بعام الفيل، وهو العام الذي حاول فيه أبرهة الحبشي أن يهدم الكعبة.

كان ميلاد محمد بشري إنسانية وربّانية، ومع ذلك فقد ضاقت بعض الأنفس من ميلاده كونه نبيا ولا نبي من بعده، رسولا ولا رسول من بعده، وأنّ رسالته الإسلام ناسخة لكلّ الرّسالات السابقة، وهي حافظة لما ترشد إليه من مواعظ وعبر وحلول. فعن حسان بن ثابت، قال والله إيّ لغلّام يفعّة ابن ثمان سنين أعقل كلّ ما سمعت، إذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صوته: يا معشر اليهود حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك ما لك؟ قال طلع الليلة نجم أحمد.

ولما وُلِدَ محمد صلّى الله عليه وسلّم، في ذلك اليوم، قالت أمّه آمنّة، لقد أضاء نور إلى السّماء رأيت في ذلك التّور قصور الشام، إنّه نور من نور الله.

والنّور اسم ضياء وجمال تستبشر به الخلائق وترضى، تشدّ إليه ولا تطمأن إلا به سبحانه ينير الأنفس كما ينير الدروب، من نوره تشرق الشمس وتتألأ السّماء بنوره وتضيء القمر، وبالنّور يهتدي العباد إلى التي هي أحسن.

ولهذا؛ فالنّور حُسن يستمدّ من الكلمة التي تنير القلوب، ومن الآيات العظام للنور المطلق، والنّور المطلق لا يُرى في ذاته، ولكن يستمد من

آياته، فالنور ليس كمثلته شيء، ولهذا فالله الذي ليس كمثلته شيء هو نور السماوات والأرض {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} 1524.

وعليه "فالنور يُظهِرُ مَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْتَلِفُ بِحَسَبِهِ، فَنُورُ السَّمْعِ مُظْهِرٌ لِلْمَسْمُوعَاتِ، وَنُورُ الْبَصَرِ كَاشِفٌ لِلْمُبْصِرَاتِ، وَنُورُ الْقَلْبِ كَاشِفٌ عَنِ الْمَعْلُومَاتِ، وَنُورُ الْجَوَارِحِ مَا يَبْدُو عَلَيْهَا مِنْ أَعْمَالِ الطَّاعَاتِ" 1525

ومن فضائل ونعم الله على عباده نعمة الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة للتحلي بهذه النعمة إلا بانسراح الصدر بنور البصيرة، ولا نعمة أعظم من الكفر والجهل والمعصية، لذا يتأتى عمى القلب بظلمة الجهالة، فالعقلاء وأرباب البصائر قلوبهم، {كَمِشْكَاتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحِ فِي رُجَاجَةِ الرُّجَاجَةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ} 1526. ولأن الله هو النور وهو الذي جعل في الأرض خليفة؛ فهو الذي بث نوره في المستخلفين فيها ليصلحوا ولا يفسدوا ولا يسفكوا الدماء بغير حق.

وهؤلاء هم خلفاء النور بالنسبية لا على الإطلاق، فالعلم نور بصائرهم التي بها عرفوا الحق بالحق؛ فأشرق نور الله بعلمه فيهم، مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} 1527.

وفي مقابل الذين اطمأنت قلوبهم بذكر الله، الكافرون الجاهلون الذين اسودت قلوبهم بما يكفرون ويجهلون، {كَظَلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَعْشَاهُ موج

---

1524 النور 35.

1525 عون المعبود، ج 3، ص 292.

1526 النور، 35

1527 الرعد 28.



مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ {1528}. فأصحاب العقول الواعية والقلوب البصيرة هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم لنور الإسلام، والكافرون الجاهلون بحقيقة الإيمان هم الذين أراد الله أن يضلهم؛ فجعل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء، فالجاهل كما هو حال ذلك اليهودي الذي ضاقت نفسه عليه بعد ما علم أن نور من النور الأعظم قد ولد رحمة، وهو الذي جاء ذكره في التورات والانجيل وبشروا الأنبياء به (محمد رسول الله) صلى الله عليه وسلم، فذلك اليهودي كان مظلم القلب؛ فلم تنفتح بصيرته وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان دليلا {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا} {1529}، وعليه فالجهل أصل الظلمة والكفر والبعد عن مصدر النور.

وحتى نندرج في الرقي لنقتبس من النور المحض علينا أن ننظر في اللغة لنرى ما النور؟

إنّ (الله نور، وله نور) نور ذاتي مهلك لا سبيل للوصول إليه، ونور مخلوق كنور الشمس والقمر، وكالذي سيتحلى به على عباده ليريه من جماله يوم القيامة وفي الجنة، وهذا النور من وراء حجاب الصورة.

ومن ثمّ؛ فالنور: هو الحقّ، الذي يتجلى في سماه، وهو الذي يُدرك بذاته وهو ينير البصر والبصيرة، يُهتدى به ويُهتدى إليه، به يرشد الضال سبيله إذا اهتدى، وبدونه يضلّ ضالا، ولذا فبه تراح الظلمة والغمة وتُثار الدروب.

---

1528 النور، 40

1529 الإسراء، 72

وعليه الله هو النور، وهو الفؤة الخارقة لكل فؤة، وهو القدرة النافذة لأبي ظلمة، وبه يتم التبيين دون زيف. ولأنّ النور هو الله، فالنور هو الفؤة والقدرة التي تنير الإبصار والبصائر، كما تنير الدروب والسبل، ولأنّ النور هو الله؛ فهولا يُرى مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكِ وَلَكِنْ أَنظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} 1530. موسى عليه الصلوة والسلام يرى الجبل كما نحن نراه، أي بأمهات عينيه يرى الجبل جبلا، ولكن هل العينان لوحدهما كافيتان لرؤية الجبل؟ بالطبع لا. أي لو لم يكن النور الذي هو من نور الله ماثوثا ومنتشرا بين السماوات والأرض، ما كان للعينين من نور، وإذا فقدت العينان نور الله فيهما فقدت الرؤية حتى وإن كانت العينان سليمتين. ولننظر، إذا أغلقت عليك غرفة بالتمام ومعك في الغرفة فأر أو جمل هل لك أن ترى الفأر أو الجمل إذا لم ينفذ فيها نور؟ بالتأكيد لا. ولهذا علينا بإدراك الله بنوره الذي به رأينا الجبل، ونحن على سبيل المثال: إذا نظرنا إلى الشمس لزمن قصير قد نفقد بصرنا، ولهذا ينهانا الطبيب عن النظر إلى مصادر النور، فهي فؤة خارقة للبصر، ولذا فما بالكم بالنور المطلق. أي إذا كانت مصادر النور المخلوقة فؤة لا يطاق النظر إليها فما بالكم بفؤة خالقها؟ ولهذا عندما تركزت فؤة نور الله على الجبل جعلته دكا، وهكذا لو تركزت فؤة نور الله على الأرض والسماوات لجعلتها كما جعلت الجبل؛ وهكذا كان نور الله في محمد سراجا منيرا.

وعليه فمن يدرك نور الله لا يشكّ في وجوده، ومن له في نفسه بعد ذلك ظن فإنّ بعض الظن إثم، ولذا فمن أدرك نور الله أدركه يقينا، ولهذا

قال موسى عليه الصلاة والسلام: { فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ }.

إن الله نور في ذاته، ونور في خلقه، ونور في علمه، ونور في بصره وسمعه، ونور في الحركة والسكون. ولذا في الشروق ضياء وفي الغروب نور، ضياء الشمس في النهار، وضوؤها في كبد السماء ليلا نجوما تتلأأ وقمر منيرا، قال تعالى: { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ } 1531.

وهكذا محمد رسول الله وكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام نور، ولهم نور)، فهم نور المنير في أرضه، وكتبه معهم نورا تنير الأرض التي استخلفهم فيها مبشرين ومنذرين ومحرضين على الحق وإحقاقه، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا } 1532.

و(للمؤمنين نور) يسعون به في الدنيا والآخرة، قال تعالى: { يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ } 1533، وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ثُبُوبًا إِلَى اللَّهِ

---

1531 يونس 5، 6.

1532 الأحزاب 45، 46.

1533 الحديد 12، 13.

تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي  
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ  
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ  
قَدِيرٌ {1534}.

والنور في اللغة: في أسماء الله تعالى النور "هو الذي يُبَصِّرُ بنوره ذو  
العماية ويرشُدُ بهداه ذو العواية" 1535

وهذا المعنى فيه الهداية التي تستمدّ من نوره، بمعنى إرشاده للطريق  
الصحيح للوصول إلى الحقيقة ولا بأس من هذا المعنى؛ فاللغة قد أحالتنا إلى  
معنى مستفاد من النور لا إلى معنى النور في حدّ ذاته، مع التأكيد في الوقت  
نفسه أنّ الأثر المعنوي للنور وهو الهداية لا شكّ مطلب من أعزّ المطالب  
التي يرجوها الخليفة الذي يسعى ليصلح في الأرض ولا إصلاح إلا بنور  
الهداية قال الله تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ  
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ  
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 1536

نعم (الله ولي الذين آمنوا) فهو سبحانه محبهم ومعينهم ومتولي أمورهم  
لا يكلهم إلى غيره، فالولي يكون بالمحبة والنصرة؛ فيقال للمحبّ ولي لأنّه  
يتقرب من حبيبه بالنصرة والمعونة ولا يفارقه، والولي الناصح المحب يكون  
بحسن ونفع التدبير، وبصحة الأمر، وبنفع النهي، لذلك الله ولي الذين أراد  
أن يهديهم للإيمان ويخرجهم بالهداية من الظلمات، وهي ظلمات الكفر  
والمعاصي وظلمات الشبه والشكّ في قدرة الله (إلى النور) نور الإيمان،

---

1534 التحريم 8.

1535 لسان العرب، ج 5، ص 240.

1536 البقرة 258

فيخرج الله سبحانه وتعالى بهدايته وتوفيقه كل مؤمن من الظلمة التي وقع فيها إلى ما يقابلها من النور، والظلمات جمع تدل على أنواع الضلالة المتعددة من أنواع الكفر على جميع ملله، والنور مفرد فيدل على أنّ الإسلام دين واحد وسمى الكفر ظلمة لالتباس طريقه وسمى الإسلام نورا لوضوح طريقه (والذين كفروا) الذين ثبت في علمه الأزلي كفرهم هؤلاء (أولياؤهم الطاغوت) الشيطان وأعدائه من المضلين عن طريق الحق من الكهنة والسحرة وقادة الشر والمفسدين في الأرض ومن يقفون عائقا أمام تحقيق الخلافة المثلى في الأرض الذين يعتقدون في الأصنام التي هي جماد لا ينفع ولا يضر، فالولاية هنا ولاية اعتقاد لأن المفسدين الضالين المضلين أهل الظلمات يعتقدون ويتوجهون إليهم من دون الله فهم بذلك تنحوا عن طريق النور إلى طريق الظلمات. والطاغوت وأعدوان الظلام يخرجونهم من نور الإيمان الفطري الذي خلقهم الله عليه إلى ظلمات الكفر والفساد والانهماك في الشهوات، والخروج من نور اليقين إلى ظلمات الشك والشبهات، وإسناد القدرة المطلقة إلى الطاغوت مع أنّ الله مخرج العباد إلى الوجود ومرشدهم لطريق النور.

فالله (النور) وبنور هدايته يخرج المؤمنون من ظلمة المعصية إلى نور الطاعة والهداية لأنه يصلي على الذين آمنوا به وصلاته رحمة لأنّ صلته لنا لا تعني أنّ فيها ركوع أو سجود أو قيام حاشا لله ولكنها كما قلنا إرادة رحمة، واستجابة للملائكة الذين يستغفرون للمؤمنين، قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا } 1537 فالله هو الذي يصلي عليكم ويرحمكم وأنتم لا تذكرونه فذكر صلته تحريضا للمؤمنين على الذكر والتسبيح (ليُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) يعني يهديكم برحمته، والصلوة من الله رحمة، ومن الملائكة

استغفار، واللفظ المشترك يجوز استعماله في معنيين معا وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ جائز وينسب هذا القول إلى الشافعي رضي الله عنه وهو غير بعيد فإن أريد تقريبه بحيث يصير في غاية القرب فالرحمة والاستغفار يشتركان في العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمينية لكون العناية جزءاً منهما (وكان بالمؤمنين رحيمًا).

والسؤال هل الملائكة وهي الكائنات النورية تستغفر للمؤمنين؟

نعم الملائكة تستغفر للمؤمنين وليس الأمر كذلك فقط، بل أكثر فإن كائنات البحر تستغفر لطالب العلم، ولأنّ العلم نور فهو يهدي إلى الحقّ بالإتباع، فني التور عليه الصلّاة والسّلام يقول: "وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحَيَّاتُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ" 1538.

ولأنّ نور العلم يفوق أي نور فإنّ النبي عليه الصلّاة والسّلام جعل فضل العالم الذي يعبد الله على علم أعلى من العابد الذي انقطع للعبادة وفاته الأخذ بالعلم، والعلماء الذين استناروا بنور العلم قد فازوا بميراثهم للأنبياء لأنّ الأنبياء هم مصابيح الهدى والعلم، والميراث المادي يفنى ونور العلم باق ما دامت السماوات والأرض فالعلم نافع في الدنيا لصاحبه ولمن يحيط به ونافع في الآخرة ببقاء أثره الحسن لأنه يرجح ميزان العبد لما ناله من ثواب متصل لقوله صلى الله عليه وسلم: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ" 1539.

---

1538 سنن أبي داود، ج 10، ص 49.

1539 صحيح مسلم، ج 8، ص 405.

والثلاثة -أرى- أنها تجتمع في العلم فإنّ العلم لا يوفيه أجر فهو في عمومه صدقة، يأخذ العالم ثوابه بفضل ما نقله أبنائه في العلم، ومن المؤكد أن خير ولد هو ولد العلم الذي يحفظ علم أبيه وينميه، لذا فالعلم نور متصل لا ينقطع بحيلة صاحبه.

والله (النور) فهو الظاهر الذي به كل ظهور والظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نورا 1540

فلو لم يكن هو الظاهر كل الظهور ما ظهر من خلقه شيء، وظهور الأشياء به لأنّه أوجدها من لا شيء، فبه ظهرت وجودا وبه ظهرت بصرا وبه ظهرت بصيرة لأولي البصائر لذا بيّن سبحانه وتعالى أنّ العبرة لا يعتبر بها إلا ألو الأبصار والعظة لا يتعظ بها إلا ألو الأبصار: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} 1541.

وأولو الأبصار هم الناظرون في بهاء صنع الله عزّ وجلّ السائرون في طريق طاعته وهذه الطاعة عبرة لأولى الأبصار.

لذلك نور البصر لا يساوي قيمة بما يعوّل عليه من نور البصيرة التي تبصر الحقّ أما من عميت بصيرته فهو أعمى البصر لأنّ النور المظهر للتبصر انقطع من بين البصيرة والبصر فانعدم عنده البصر الثاقب الذي يغوص في عمق المبصر فيدرك منه ما لا يدركه غيره من ذوي الأبصار الكليّة العاجزة التي لم تدرك موقعها الحقيقي في الحياة فلم تبصر لا بالبصر ولا بالبصيرة.

إنّ الدور الأوّل للإنسان في الكون هو خلافة الله في أرضه، فأما إذا غفل ذو البصر عن إِبصار دوره فقد أخطأ في حقّ ذاته وأهمّل في واجبه بل تنازل عن حقّه في الخلافة لانعدام النور المتصل من البصيرة إلى البصر فلم

---

1540 لسان العرب ج 5 ص 240

1541 آل عمران 13

تظهر له حقيقة وجوده ولا حقيقة ما حوله، وصدق الله في قوله: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} 1542.

وفي تفسير الألوسي: "وهذا حث على النظر والاعتبار فلا يعتد بعمى الأبصار وإنما يعتد بعمى القلوب فكأن عمى الأبصار ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب، فالكلام تذييل لتهويل ما بهم من عدم فقه القلب وأنه العمى الذي لا عمى بعده بل لا عمى إلا هو أو المعنى أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها وإنما العمى بقلوبهم فكأنه قيل: أفلم يسيروا فتكون لهم قلوب ذات بصائر فإن الآفة ببصائر قلوبهم لا بأبصار عيونهم وهي الآفة التي كل آفة دونها كأنه يحتهم على إزالة المرض وينعي عليهم تقاعدهم عنها" 1543.

والله (النور) الظاهر المظهر بنوره لغيره هو الرب الذي يدبر الكون وهو الخالق لكل شيء المستحق للعبادة وهو المتصرف في كل شيء لأنه الذي أظهر الموجودات بنوره قال تعالى: {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} 1544 وهو سبحانه وتعالى لشدة ظهوره لا يدرك لا بالأبصار ولا بالبصائر وإنما يدرك في خلقه الظاهر من خلال الاعتبار والعظة فهو، (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) والأبصار جمع البصر الذي هو حاسة النظر وتطلق على العين من حيث أنها محلها، وإدراك الشيء عبارة عن الوصول إليه والإحاطة به فلا تصل إليه الأبصار ولا تُحيط

---

1542 الحج، 46

1543 تفسير الألوسي، ج 13، ص 83. بتصرف

1544 الأنعام 102، 104.



به، وقد كَلَّتْ أَبْصَارُ المخلوقين عن الإحاطة به. وعن ابن عباس ومقاتل رضي الله عنهم: لا تدركه الأبصارُ في الدنيا وهو يُرى في الآخرة (وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار) أي يحيطُ بها علمه إذ لا تخفى عليه خافيةً (وَهُوَ اللطيف الخبير) فيدرك ما لا تدركه الأبصارُ، ويجوز أن يكون تعليلاً للحُكْمين السابقين أي لا تدركه الأبصارُ لأنَّه اللطيفُ وهو يدرك الأبصارَ لأنه الخبيرُ فيكون اللطيفُ مستفاداً من مقابل الكثيفِ لما لا يُدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها.

وقوله تعالى: (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ) استئنافٌ وارد على لسان النبي عليه الصلوة والسلام، والبصائرُ جمعُ بصيرةٍ وهي النور الذي به تستبصرُ النفسُ كما أن البصرَ نورٌ به تبصرُ العين، والتعرضُ لعنوان الرَبْوِيَّةِ مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار كمال اللطيفِ بهم أي قد جاءكم من جهة مالكم ومبليغكم إلى كمالكم اللائقِ بكم من الوحي الناطقِ بالحقِّ والصوابِ ما هو كالْبصائرِ للقلوب أو قد جاءكم بصائرُ كائنةً من ربكم (فَمَنْ أَبْصَرَ) أي الحقَّ بتلك البصائرِ وآمن به (فَلِنَفْسِهِ) أي فلنفسه أبصر، أو فإبصاره لنفسه لأنَّ نفعه مخصوصاً بها مصداقاً لقوله تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} 1545، (وَمَنْ عَمِيَ) أي ومن لم يبصر الحقَّ بعد ما ظهر له بتلك البصائرِ ظهوراً بيّناً وضلَّ عنه، فعبر عنه بالعمى تقبيحاً له وتنفيراً عنه {فَعَلَيْهَا} أي فعليها عمي أو فعماؤه عليها أو وبأل عملي {وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} فالحفيظُ الله.

وقيل أيضاً في تفسير البصر والبصيرة والإدراك: (لَا تُدْرِكُهُ الأبصار) الأبصار جمع بصر يطلق على الجارحة الناظرة، وعلى الفؤة التي فيها وعلى البصيرة وهي فؤة القلب المدركة، وإدراك الشيء عبارة عن الوصول إلى غايته والإحاطة به، (وبهذا نقول لا إدراك لنور الله) أي لا بلوغ لنوره، من حيث الرؤية، بل من حيث الهداية ممكن، ولهذا فبنور الله تدرك الأشياء والحقائق

التي هي عليها، وبه تتم رؤية الأشياء المخلوقة بنوره وفقا لدائرة الممكن. وأكثر المتكلمين على حمل البصر هنا على الجارحة من حيث إنها محل القوة. وتقرير ذلك على أن الإدراك المضاف إلى الأبصار إنما هو الرؤية ولا فرق بين أدركته ببصري ورأيته إلا في اللفظ أو هما متلازمان يصح نفي أحدهما مع إثبات الآخر فلا يجوز رأيته وما أدركته ببصري ولا عكسه، فالآية نفت أن تراه الأبصار، وذلك يتناول جميع الأبصار بواسطة اللام الجنسية في مقام المبالغة في جميع الأوقات لأن قولك: فلان تدركه الأبصار لا يفيد عموم الأوقات فلا بد أن يفيد ما يقابله فلا يراه شيء من الأبصار لا في الدنيا ولا في الآخرة لما ذكر ولأنه تعالى تمدح بكونه لا يرى حيث ذكره في أثناء المدائح وما كان من الصفات عدمه مدحا كان وجوده نقصا يجب تنزيه الله تعالى عنه فظهر أنه يمتنع رؤيته سبحانه.

وعليه فالمراد بالإدراك الرؤية المطلقة لا الرؤية على وجه الإحاطة، وأن (لأنّ تُدْرِكُهُ الأبصار) سالبة كلية دائمة وهذا أقوى الأدلة النقلية في هذا المطلب كما ذكره (الكوراني) والجواب عنه: "إنّ الإدراك ليس هو الرؤية المطلقة وإن اختاره على ما نقله الآمدي أبو الحسن الأشعري وإنما هو الرؤية على نعت الإحاطة بجوانب المرئي كما فسره ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وعن ابن عباس في قوله تعالى: (لأنّ تُدْرِكُهُ الأبصار) لا يحيط بصر أحد بالله تعالى. وإليه ذهب الكثير من أئمة اللغة وغيرهم. والرؤية المكيفة بكيفية الإحاطة أخص مطلقا من الرؤية المطلقة ولا يلزم من نفي الأخص نفي الأعم، فظهر صحة أن يقال: رأيته وما أدركه ببصري أي ما أحاط به من جوانبه وإن لم يصح عكسه 1546.

وبما أنّ الله نور ومصير المؤمن إلى النور، فهنا يبرز التساؤل هل يرى نور الله رؤية إدراكية؟ أم رؤية غير إدراكية؟

---

1546 تفسير الألوسي، ج 5، ص 463

هناك مجموعة من النصوص التي تثبت الرؤية أو تنفيها، كما أنه من الواجب علينا تتبعها لإيضاح الأمر وبيان تعلق ذلك بالنور، ومن هذه النصوص:

عدم إثبات الرؤية:

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النَّورَ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصْرُهُ مِنْ خَلْقِهِ" 1547.

وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ حِجَابُهُ النَّورَ لَوْ كَشَفَهَا لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصْرُهُ" 1548 ثُمَّ قَرَأَ أَبُو عُبَيْدَةَ قَوْلَهُ تَعَالَى: {إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَتِ كُفْرًا مِنْهَا بَخْرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ فَبَسَّ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} 1549

عَنْ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "مَنْ رَعِمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ وَلَكِنْ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَخَلْقُهُ سَادُّ مَا بَيْنَ الْأُفُقِ" 1550.

---

1547 سنن ابن ماجه، ج 1، ص 227.

1548 مسند عبد بن حميد، ج 2، ص 156.

1549 النمل 8، 9.

1550 صحيح البخاري، ج 11، ص 11.

ولانعدام رؤية الله إلا آيات عظام، قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 1551.

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ كُنْتُ مُتَكِّمًا عِنْدَ عَائِشَةَ فَقَالَتْ: "يَا أَبَا عَائِشَةَ ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ قُلْتُ مَا هُنَّ قَالَتْ مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ قَالَ وَكُنْتُ مُتَكِّمًا فَجَلَسْتُ فَقُلْتُ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِي وَلَا تَعْجَلِينِي أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ)، (وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَلَةً أُخْرَى)، فَقَالَتْ أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَ إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظْمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ فَقَالَتْ أَوْ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) وَقَالَتْ: أَوْ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ). ثُمَّ قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ وَاللَّهُ يَقُولُ: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)، ثُمَّ قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ وَاللَّهُ يَقُولُ: (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)، وَقَالَتْ: وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَاتِمًا شَيْئًا مِمَّا أُنزِلَ عَلَيْهِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ، (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفْيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) 1552

وعليه فمحمّد نور من النور الأعظم، الذي سطع في كون ذلك الزمان بولادة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، الله أكبر الله أكبر يوم وُلِدَ محمّد، ذلك اليوم هو اليوم النور، وُلِدَ محفوظاً وُلِدَ معصوماً وُلِدَ محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فسمع بالخبر جدّه عبد المطلب؛ فأسرع وهو يسمع صوت الطفل الذي وُلِدَ للتوا، النور الذي خرج للبشرية، الذي مات أبوه قبل أن يولد، فإذا بالطفل يُعطى لجدّه عبد المطلب فيأخذه ويشمه شمة، ويقبله ثم يُسرع به إلى البيت يطوف به، يطوف بمن؟ يطوف بالطاهر المطهر، يطوف بالمصطفى عليه صلوات الله وسلامه، الذي تصلّى عليه الملائكة في السماء، الذي يصلي عليه الرّب عزّ وجلّ، فإذا بعبد المطلب يحمل هذا الطفل يطوف به حول البيت ويدخله داخل البيت فرحاً مسروراً سعيداً مستبشراً بهذا الطفل الذي ولد، ثم رجع به مرّة أخرى يدفعه إلى أمّه آمنة التي فرحت فرحاً عظيماً بميلاد ذلك الطفل الرضيع، وهو يقول لها: سميتك محمّداً سميتك محمّداً.

بدأ البحث عنم يُرضع محمّداً صلّى الله عليه وسلّم، وكان في تلك الفترة نسوة من "بني سعد بني بكر" جئن إلى مكّة يبحثن عنم يرضعنّه، وكان في الجمع امرأة اسمها "حليمة السعدية" وكانت قد ركبت أتاناً لها حمار، وكانت تلك السنة، سنة قحط وجدب، سنة لم تمرّ عليهم مثلها، حتى أنّ حليمة وزوجها "الحارث ابن عبد العزى" كان معها ولهما طفل صغير للتو مولود، تقول حليمة لم يكن في ثدي ما يشبع طفلي، كيف تبحث عنم ترضعه، تقول حتى أنّ طفلي كان يبكي الليل كلّه فلم نكن ننام الليل من شدّة بُكائه من الجوع هذا طفلها، فكيف تبحث عنم ترضعه،

تقول حتى وصلنا إلى مكّة تقول فما مِنّا من امرأة إلا وعرضَ عليها رسول الله عليه الصلّاة والسّلام ترضعه فرفض جميعاً، لم؟، لما علّمن أنّه

يتيم. وماذا نصنع بطفل يتيم؟ ليس له أب وماذا يصنع جده؟ تركناه جميعنا، وبحثنا عمّن نرضع؛ فكل واحدة من صاحباتي وجدت من ترضعه وذهبت به، وبقيت أنا لم أجد أحدا، فقلت لزوجي والله إنّي أكره أن أرجع إلى صاحباتي بغير طفل أرضعه، والله لأرجعن إلى اليتيم فأخذه؛ فقال زوجي الحارث: أفعلني؛ فلعلّ الله أن يجعل فيه بركة؛ فأخذت محمّدا، فأخذه عليه الصلّاة والسّلام ورجعت إلى رحلي التحقّت بالقافلة بالصّحبة، لأرجع إلى بلدي.

فما إن وضعته في حجري إلا وأقبل ثدي؛ فوضع حتى روي؛ فألقمته لأخيه الطفل الجائع، فوضع حتى روي، فناما ولم يكن ابني قد نام منذ أيّام، ولما أصبحنا قال زوجي إنّ النسمة التي أخذتها فيها بركة، فقالت حليلة إنّي لأرجوا الله ذلك، ثمّ قالت: حتى الشاة التي كانت معنا ليس فيها قطرة من لبن، قد امتلأ ضرعها.

ويقال: أنّ ثوبية هي أوّل من ارضع محمّد قبل أن تقدم حليلة بنت أبي ذؤيب عبد الله السعدية من بني سعد بن بكر، وكانت قد أرضعت قبله عمّه حمزة؛ فكان رسول الله عليه الصلّاة والسّلام يكرمها وتكرمها زوجته خديجة أمّ المؤمنين.

ولما أصبحت حليلة رضي الله عنها هي المرضعة؛ أصبحت أمّا للنبي بالرّضاعة، حتى شبّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وبعد أن تزوج النبي جاءته حليلة كونها الأم؛ فبسط لها رسول الله رداءه وأعطتها خديجة أربعين شاة وأعطتها بعيرا. وجاءت إليه يوم حنين فقام إليها وبسط لها رداءه فجلست عليه.

### كفالة عبد المطلب لمحمد:

كفل عبد المطلب جدّ محمد محمّدا رعاية وعناية مع حبّ رفيع، ولما بلغ محمّد السادسة من عمره ذهبت به أمّه إلى يثرب لزيارة أخواله من بني النجار ومعها حاضنته أمّ أيمن، وفي طريق العودة ماتت أمّه رضي الله عنها في مكان يسمى (الأبواء) بين مكّة ويثرب؛ فرجعت به أمّ أيمن إلى مكّة فكان الكفيل كفيلا (جدّه عبد المطلب).

بقي في كفالة عبد المطلب حتى وفاته، وقد أوصى عبد المطّب من بعده ولده أبا طالب بحفظ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ فكفله أبو طالب وقام برعايته أحسن قيام، وكان يحبّه حبّا لطيفا.

### محمد مع تجارة خديجة:

خرج إلى الشام في تجارة لخديجة وهو ابن خمس وعشرين سنة، مع غلامها ميسرة، وكانت خديجة رضي الله عنها ذات شرف ومال، ولما علم أبو طالب بأنّها تهيئ تجارتها إلى الشام، قال أبو طالب لمحمد: يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتدّ الزّمان علينا، وقد بلغني أنّ خديجة عازمة على التجارة؛ فهل لك أن أكلمها؟ قال ما أحببت: فقال لها أبو طالب هل لك أن تستأجري محمّدا؛ فقالت لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا؛ فكيف وقد سألته لحبيب قريب؟ فقال له أبو طالب: هذا رزق، وقد ساقه الله إليك؛ فخرج صلّى الله عليه وسلّم، وكانت التجارة الرابحة، فأحبّت خديجة محمّدا لما له من حرص على تجارتها وصدقه ووفائه وأمانته.

ومن ثمّ ذهبت إليه وقالت: ما يمنعك أن تتزوج؟ قال ما بيدي ما أتزوج به. قالت: فإنّ كيفيت ذلك. قال فمن هي؟ قالت خديجة. قال كيف لي بذلك؟ قالت على ذلك؛ فأجابها بالقبول، وخطبها ثمّ تزوجها. ثمّ أمنت به رسولا، وقد أعانته بأموالها على تبليغ رسالته الخاتمة.

## محمد يضع الحجر الأسود مكانه:

بُنيت الكعبة بعدما تعرّضت لما تعرّضت له من أثر السيول، وكان محمّداً آنذاك ابن خمس وثلاثين سنة، فلمّا بلغ البناء موضع الحجر الأسود اختلفت قريش على من يضعه في مكانه، وكل قبيلة أرادت ذلك لنفسها حتى كادت تقع فتنة، ولكنهم نهاية اتفقوا على أن يحكم بينهم أوّل داخل عليهم من باب شيبه (باب السلام)؛ وقد دخله محمّد؛ فكان الحلّ، فرضوا بحكمه؛ فحكم أن يوضع الحجر في ثوب ويحمل أطرافه من كلّ قبيلة رجل؛ فرضوا بذلك ولا عناد ولا خلاف، ثم أخذ من الثوب ووضع في مكانه.

أولاده:

- 1- القاسم وبه كان يكنى، عاش حتى مشى ومات بمكة
- 2- عبد الله ويلقب بالطيب والظاهر، وذلك لولادته بعد الوحي. ولد بمكة بعد الإسلام، ومات بها.
- 3- فاطمة وهي صغرى بناته تزوجها عليّ بعد الهجرة.
- 4- زينب وهي اكبرهنّ تزوجها قبل الإسلام أبو العاصم القاسم.
- 5- رقية تزوجها عثمان.
- 6- أم كلثوم تزوجها عثمان بعد وفاة رقية.
- 7- إبراهيم بن مارية القبطية، ولد بالمدينة ومات وهو ابن ثمانية عشر شهراً.



## الأخلاق من أحاديث محمد:

قال صلى الله عليه وسلم: "أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه" 1553

عن أبي هريرة رضي الله عنه: سئل رسول الله عليه الصلاة والسلام عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؛ فقال: "تقوى الله وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال: الفم والفرج رواه الترمذي وأحمد.

قال صلى الله عليه وسلم: "إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا" رواه الترمذي.

قال صلى الله عليه وسلم: "إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار" رواه أبو داود

قال صلى الله عليه وسلم: "حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار" رواه أحمد.

عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله عليه السلام قال: "إن أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وأشبه المؤمنين بي أحسنهم خلقًا" 1554.

عن ابن أبي مليكة، عن يعلى بن مملك، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء، أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء" 1555

---

1553 رياض الصالحين، ص 216.

1554 الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير، ص 593.

1555 سنن الترمذي ت شاکر، 4، ص 362.

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلي رحمه الله، قال: حدثنا أصحاب محمد -  
صلى الله عليه وسلم-: "أهم كانوا يسيرون مع النبي -صلى الله عليه  
وسلم-، فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل معه، فأخذه، ففزع،  
فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: لا يحل لمسلم أن يروغ  
مُسْلِمًا"1556

أما خلق محمد فهي خلق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وخلقه على  
وجه الخصوص قرآنية، فعن عائشة رضى الله عنها: أن سعيد بن هشام سأها  
عن خلق رسول الله عليه الصلاة والسلام فقالت: "كان خلقه القرآن،  
ألست تقرأ القرآن: قد أفلح المؤمنون"1557.

قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ}1558 أي أنك يا محمد قد  
خلقت خلقا على الخلق العظيم، ومن هنا جاء اسمه (محمد) كونه قد خلق  
على الحمد خلقا، وهنا أيضا يتضح الفرق بين مفهوم اسم (محمد) وبين  
مفهوم اسم (محمود)؛ فمحمود هو المحمود من الناس سلوكا وعملا، أما  
محمد؛ فهو الذي خلقه الله تعالى على الحمد خلقا. ولهذا تطابق اسم محمد  
مع صفته محمد.

### خاتم محمد رسميًا:

نقش خاتمه محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام على ثلاثة أسطر،  
وقيل كان نقش خاتمه: (أشهد ألا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله) وورد عن  
خاتمه التالي: أخبرنا أبو بكر بن علي قال حدثنا أمية بن بسطام قال

---

1556 مختصر سنن أبي داود للمنذري ت حلاق، 3، 371.

1557 تفسير الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 4، ص 585.

1558 القلم 4.

حدثنا معتمر قال سمعت حميدا عن أنس أنّ النبي عليه الصلّاة  
والسّلام "كان خاتمه من ورق فصفه منه" 1559.

### بعثت محمّد:

بُعث رسول الله عليه الصلّاة والسّلام بالنبوّة في السّابع والعشرين من  
شهر رجب يوم الاثنين، وعمره أربعون سنة. وكان قبيل البعثة يختلي للعبادة  
في غار في أعلى جبل يقال له حراء على ثلاثة أميال من شمال مكة؛ وفي  
ذلك الغار نزل عليه الوحي. وروى البخاري ومسلم أنّ أوّل ما بدئ به  
رسول الله عليه الصلّاة والسّلام من الوحي الرؤيا الصادقة في النّوم؛ ثم حبب  
إليه الخلاء؛ فكان يأتي حراء فيتعبّد فيه حتى جاه الحقّ وهو في غار حراء؛  
فجاءه الملك فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ  
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} 1560 فرجع بها  
يرجف فؤاده حتى دخل على خديجة؛ فقال زملوني فزملوه حتى ذهب عنه  
الرّوع؛ فقال يا خديجة ما لي؟ وأخبرها الخبر، وقال قد خشيت عليّ، فقالت  
له كلا: ابشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، أنّك لتصل الرّحم، وتصدق الحديث،  
وتحمل الكلّ، وتعين على نوائب الحقّ.

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري أنّه سئل أيّ القرآن أنزل قبل قال يا  
أيّها المدثر قبل أم اقرأ باسم ربّك؛ فذكر أنّ رسول الله صلّى الله عليه  
وسلّم، حدّثه قال جاورت بحراء شهرا، ثمّ نزلت؛ فاستبطنت بطن الوادي  
فنوديت؛ فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي، ثمّ نظرت إلى  
السّماء؛ فإذا هو في الهواء (جبريل) فأخذني رجفة؛ فأتيت خديجة فأمرتهم؛  
فدثروني؛ ثمّ صبوا على الماء؛ فأنزل الله على {يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبُّكَ

---

1559 المحدث: الألباني، صحيح النسائي، الرقم الآلي: 5214.

1560 العلق 5.1

فَكَبَّرَ وَثِيَابَكَ فَطَهَّرَ} 1561 ثم جمع بين الروایتين بالحديث عن جابر عن النبي بينما أنا أمشي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسا على كرسي بين السماء والأرض ففرغت منه؛ فرجعت؛ فقلت زملوني زملوني؛ فذرني؛ فأنزل الله: (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ).

### انقطاع الوحي:

لا اتفاق على مدة انقطاع الوحي المؤقت فهناك من قال خمسة عشر يوما وهناك من قال: اثني عشر يوما، وأيضا قيل أربعين يوما، وهنا قال المشركون: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ وَدَّعَهُ رَبُّهُ وَقَلَّاهُ (ابغضه) فأنزل الله تعالى: {وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ} 1562

### المعارك التي خاضها الرسول:

المعارك التي خاضها الرسول عليه الصلوة والسلام لم تكن اعتداءات، ولم تكن بغاية إكراه الناس على الإسلام حيث لا إكراه في الدين هو رسالة محمد، الذي جاء بها مبشرا ومحرضا ومنذرا وداعيا للسلام وعبادة الله وحده لا شريك له، ومع ذلك كُتب عليه القتال وهو كره له.

والمعارك التي كتبت عليه وخاضها 29 معركة خلال ثمانية سنوات (من 2 هـ إلى 9 هـ) ولم يشارك في 35 غزوة 1563.

ومع ذلك هناك آراء أخرى مختلفة في تحديد عدد المعارك التي شارك فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتلك التي أعد لها سرايا، فهناك من قال: خمس وعشرون، وقيل سبع وعشرون، وقيل تسع وعشرون. أمّا السرايا فقد كانت أكثر عددا من الغزوات، ولا اتفاق في حصرها عددا؛ فهناك من

---

1561 المدثر 1.4.

1562 الضحى 1.3.

1563 الطبري، تاريخ الطبري، ج2، ص259. 161.

قال: خمسة وثلاثون، وهناك من قال، أربعون غزوة، بل هناك من قال أكثر من ذلك بكثير 1564.

شرع الجهاد لأول مرة في الإسلام خلال العهد المدني، وقبل ذلك كان المسلمون مأمورين بعدم استعمال القوة في مواجهة غير المسلمين، وكان تشريع الجهاد دفاعاً عن النفس فقط في أول الأمر: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ} 1565 ولا قتال من بعد ذلك إلا مع أهل الفتن، {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} 1566. ثم جاء الأمر بمقاتلة المفسدين في الأرض من أجل سلام وأمن واستقرار، دون إكراههم على الإسلام، ومن هنا جاء إقرار دفع الجزية في مقابلة تحقيق الأمن الوطني، {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} 1567.

ومن المعارك الكبرى معارك بدر الكبرى، وأحد، والخندق، وخيبر، وذات السلاسل، وحنين.

---

1564 عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، محمد بن محمد بن سيد الناس أبو

الفتح فتح الدين، دار القلم بيروت، الطبعة الأولى، ص 47 . 92.

1565 الحج 39، 40.

1566 البقرة 139.

1567 التوبة 29.

## صلح الحديبية:

في شهر ذي القعدة من العام السادس للهجرة، أعلن النبي محمد المسير إلى مكة لأداء العمرة. وكان يخشى أن تتعرض له قريش بحرب أو يصدوه عن البيت الحرام؛ فحشى الأعراب الخرج معه، ولكن بعضهم تلكأ؛ فخرج ومن معه من المهاجرين والأنصار وبمن لحق به من الأعراب. وهنا كشف الله نوايا بعض الأعراب، مصداقا لقوله تعالى: {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قَوْلٌ مَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَرُؤِينَا ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنُّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا} 1568.

ولأنه التحدي سلما لبس المعتمرون ملابس الإحرام ليظهروا لقريش أنهم يريدون العمرة ولا يقصدون الحرب، وما حملوا من سيوف إنما كان للحماية مما قد يعترضهم في الطريق. وعندما وصلوا إلى (ذي الحليفة) أحرموا بالعمرة. فلما اقتربوا من مكة بلغهم أن قريشا جمعت الجموع لمقاتلتهم وصدّهم عن البيت الحرام.

فلما نزل النبي محمد عليه الصلاة والسلام بالحديبية أرسل عثمان بن عفان إلى قريش وقال له: "أخبرهم أننا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عمارا، وادعهم إلى الإسلام، وأمره أن يأتي رجالا بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات، فيبشرهم بالفتح، وأن الله عز وجل مظهر دينه بمكة؛ فانطلق عثمان، فأتى قريشا، فقالوا: إلى أين؟ فقال: بعثني رسول الله أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام،

ويخبركم: أنه لم يأت لقتال، وإنما جئنا عمارا. قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ إلى حاجتك".

ولكن عثمان احتبسته قريش فتأخر في الرجوع إلى المسلمين؛ فخاف النبي عليه، وبخاصة بعد أن شاع أنه قد قتل، فدعا إلى البيعة، فتبادروا إليه، وهو تحت الشجرة؛ فبايعوه على ألا يفروا، وهذه هي بيعة الرضوان.

وقامت قريش بإرسال عروة بن مسعود الثقفي إلى المسلمين؛ فرجع إلى أصحابه، فقال: "أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك كسرى وقيصر والنجاشي والله ما رأيت ملكا يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمدا. فإذا أمر ابتدروا أمره، وإذا توضعوا كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم، وما يحدون إليه النظر تعظيما له، ثم قال: وقد عرض عليكم خطة رشدا فاقبلوها؛" فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتية، فقالوا: آتية. فلما أشرف على النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له". فبعثت له، واستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك، قال: "سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت". قال: فلما رجع إلى أصحابه، قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فلم أر أن يصدوا عن البيت. فقال رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعوني آتية. فقالوا: آتية. فلما أشرف عليهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "هذا مكرز، وهو رجل فاجر". فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، فبينما هو يكلمه، إذ جاء سهيل بن عمرو. قال معمر: وأخبرني أيوب، عن عكرمة، أنه لما جاء سهيل، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "سهل من أمركم" قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو، فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابا. فدعا الكاتب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اكتب بسم الله

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ "فَقَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: مَا هُوَ، وَلَكِنْ أَكْتُبُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتُ تَكْتُبُ. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ مَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اَكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ"، ثُمَّ قَالَ: "هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ "فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنْ أَكْتُبُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَاللَّهِ إِيَّيَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، أَكْتُبُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ "قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: "لَا يَسْأَلُونِي حُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا ". فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَلَى أَنْ تُخْلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَتَطُوفَ بِهِ "فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَا أُخِذْنَا ضُعْطَةً، وَلَكِنْ لَكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ. فَكَتَبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: عَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ، إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟ فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ جَاءَ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرِو يَرْسُفُ، وَقَالَ يَخْبِي عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ: يَرْسُفُ فِي قُبُودِهِ، وَقَدْ حَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ. فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ، أَوَّلُ مَا أَقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ "قَالَ: فَوَاللَّهِ إِذَا لَا نُصَالِحُكَ عَلَى شَيْءٍ

أَبَدًا. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَأَجِزْهُ لِي قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزُهُ لَكَ. قَالَ: بَلَى، فَافْعَلْ. قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ. قَالَ مِكْرَزُ: بَلَى قَدْ أَجْرَنَاهُ لَكَ. فَقَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيُّ مَعَاشِرِ الْمُسْلِمِينَ، أُرِدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟ وَكَانَ قَدْ عَذَّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ. فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ: بَلَى؛ قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ؟ وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى،



قَالَ: قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ: "إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي". قُلْتُ: أَوْلَسْتَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَتَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى قَالَ: "أَفَأَخْبِرُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ؟" قُلْتُ: لَا. قَالَ: "فَإِنَّكَ آتِيهِ، وَتَطُوفُ بِهِ"، قَالَ: فَاتَّبَعْتُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيُّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُونَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يَعْصِي رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِعَزْرِهِ، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ: تَطُوفُ بِعَزْرِهِ حَتَّى تَمُوتَ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَعَلَى الْحَقِّ. قُلْتُ: أَوْلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَفَأَخْبِرُكَ أَنَّهُ يَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ، وَتَطُوفُ بِهِ. قَالَ الرَّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا. قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِضِيَّةِ الْكِتَابِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَصْحَابِهِ: قُومُوا، فَانْحَرُوا، ثُمَّ اخْلِقُوا. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ، حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، قَامَ، فَدَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ، ثُمَّ لَا تُكَلِّمَ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ، فَيَحْلِقَكَ. فَقَامَ، فَخَرَجَ، فَلَمْ يُكَلِّمَ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ: نَحَرَ هَدْيَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا، فَانْحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَخْلُقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَفْتُلُ بَعْضًا عَمَّا"1569.

### نتائج الصلح:

. الاعتراف بهيبة محمد.

. الاعتراف بهيبة الدين الإسلامي.

. الاعتراف بأن المسلمين قابلين للتحدّي وسيجاوزن الصّعاب.

. القبول بالمسالمة التي أظهرها محمد وقومه.

. التفريغ لنشر الدين بلا مقاتلة.

. لفت انتباه الشعوب إلى الدين الإسلامي.

. تهيئ الشعوب لقبول الدين كونه قوة حجة وقوة مؤمنين.

. جاء الصلح مقدمة لفتح مكة.

### التاريخ والمصالحة بين اختلاف وخلاف:

إنّ الاختلاف والخلاف من سنن الحياة، والتدافع بين الناس بهما لا ينقطع، ومع ذلك في كلّ مفاجئة استغراب؛ فبأسباب الاختلاف كان الخلاف الأوّل على أشده بين الأخوين ابني آدم عليه الصلّاة والسّلام؛ فقتل أحدهما الآخر خلافاً، {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَمَنْ يُتَّقَبَلْ مِنْ الْآخِرِ قَالَ لَافْتُنَّاكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ} 1570.

ولأنّ الاختلاف يزداد تنوعاً بازدياد عدد المختلفين؛ فكذلك الخلاف يتضاعف قضية وعدداً. وكما يقولون في البدء كانت الكلمة؛ فالكلمة بداية هداية، ثمّ خلاف يأتي من بعده تذكّر وتدبّر وتفكّر؛ فمن تمكّن من هذه القيم الكريمة، تمكّن من الهداية الممكنة من الإصلاح، والعفو، والصّفح، والتسامح، ومن لم يتمكّن من ذلك هداية؛ فسيظل على كفرٍ وضلالٍ؛ فأدم

الذي كان على الهداية منبعا ظلّ عليها إلى أن أغواه وزوجه الشيطان فخالفا  
نهي الله، {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ} 1571.

ومع أنّ الكلمة في البدء هداية، لكن في دائرة الممكن المتوقع وغير  
المتوقع تأتي الهداية بعد ضلالٍ، كما هو حال آدم وزوجه الذي كان بداية  
على الهداية طائعا لأمر الله، ثمّ خالف الأمر إلى أن تاب الله عليه فاهتدى،  
{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} 1572  
أي: بعد أنّ كان آدم على الهداية منبعا، خالف الأمر، ولكن الله تاب عليه؛  
فأصبح نهاية على الهداية.

ولأنّ الاختلاف والخلاف توأم العلائق البشرية؛ فبهما الحياة البشرية  
مع المختلف متنوع، ومع المخالف تتأزم.

ولأنّ العلاقة بين الاختلاف والخلاف وثيقة؛ فكان مولودهما الأول  
صداما بين الحقّ والباطل، اللذان بأسبابهما اصطفى الله تعالى الأنبياء  
والرسل عليهم الصلّاة والسّلام، مبشرين، ومنذرين، وداعين، ومحرضين على  
كلّ ما من شأنه خيرا؛ فكان أول الأنبياء آدم نبيا على المختلفين خلقا  
(الملائكة، والجنّ، والإنس)؛ ولأنّ الإنس غير الملائكة وغير الجنّ؛ فكان  
بينهم الاختلاف والخلاف كما هو آت:

أولا: كان الاختلاف والخلاف بين آدم والملائكة على من يكون  
خليفة في الأرض، {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً  
قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ  
لَكَ} 1573. وهنا كان التفضيل لآدم على الملائكة الذي حمل ما لم تحمله

---

1571 البقرة 36.

1572 البقرة 33 .37.

1573 البقرة 30.

الجبال، {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} 1574.

ثانيا: الاختلاف والخلاف بين آدم والجن، {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} 1575. ثم كان الاختلاف والخلاف بين الجن، وسيظل على الكثرة مع الكثرة، {وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا} 1576، وقال تعالى: {وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا} 1577.

ثالثا: كان الاختلاف والخلاف بين الإنس (آدم وزوجه)، وكان من بعدهما الخلاف بين ابنيهما اللذين اختلف الناس من بعدهما، وسيظلون، {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا} 1578. {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} 1579.

ومع أن الاختلاف والخلاف بين الإنس والجن، إلا أن الفاسقين من النوعين يتوافقون فسقا، والصالحين من الإنس مع الصالحين من الجن يتوافقون صلاحا. {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} 1580،

---

1574 الأحزاب 72.

1575 الكهف 50.

1576 الجن 4.

1577 الجن 11.

1578 يونس 9.

1579 هود 118، 119.

1580 الجن 5، 6.

وقال تعالى: {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا} 1581.

وهكذا، كان الخلاف يتجدد ويتكرر مع أنبياء الله جميعهم، خلاف سببه الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل، فسيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم، الذي بُعث للهداية كفر به البعض من قومه حتى كادوا أن يقتلوه ويُحرِّقوه لولا فضل الله، {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} 1582. ونوح وهو الأسبق على إبراهيم عليهما الصلوة والسلام، قد خالفه قومه، ومن بعده لوط وشعيب وغيرهم من الأنبياء الذين ابتلوا في شعوبهم وأقوامهم وقراهم ومدنهم، وآخرهم رسول الكافة محمد عليه وعليهم جميعا الصلوة والسلام، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ}، 1583، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ} 1584.

وهكذا كان الخلاف من بعدهم؛ فحادثة سقيفة بني ساعدة حيث اجتمع عدد من الصحابة من المهاجرين والأنصار ودارت بينهم مفاوضات انتهت في النهاية باختيار أبو بكر كأول خليفة للمسلمين.

تعددت الروايات حول ما حدث تحديدا في هذه الحادثة، واختلفت الرؤى على صحة الاختيار أو الشورى في المفاوضات؛ فبعد وفاة نبي الإسلام محمد اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ورشحوا سعد ابن عبادة للخلافة، ولكن حينما سمع عمر بن الخطاب بهذا الأمر، أخبر أبو بكر الصديق وأسرع إلى السقيفة، وأكدوا أحقية المهاجرين في الخلافة كما يعتقد.

---

1581 الجن 14.

1582 العنكبوت 24.

1583 الفرقان 31.

1584 الأنعام 112.

دار جدال بين أبي بكر وعمر من جهة، والأنصار من جهة أخرى؛ فاقترح الأنصار أن يكون من المهاجرين أمير ومن الأنصار أمير، فاختلف معهم عمر بن الخطاب في هذا الأمر ورشح أبو بكر للخلافة. وانتهى الأمر باختيار أبي بكر خليفة للمسلمين وفقا لترشيح عمر ابن الخطاب.

ومع أنّ الاختلاف بين الناس من نعم الله التي بها تتنوّع أساليب الحياة وتُكسّر أطواق الملل، ولكن في المقابل الخلاف بين بني الإنسان نُقمة، به تُقطع علاقات المحبّة والمودة، كما قُطعت العلاقات بين الذين يؤمنون بربّ واحد، ونبيّ واحد، كما هو الحال بين طائفة أهل الشيعة وطائفة أهل السنة؛ فطائفة الشيعة كانت ترى أنّ آل بيته أولى الناس بالخلافة، وأولى آل بيته عمّه العباس وابن عمه علي، وعلي أولى من العباس لأنّه أسبق إلى الإسلام، كما أنّ له نسلا من ظهر الرّسول، ثمّ إنّ العباس نفسه لم ينازع عليّا في أولويّته للخلافة.

وهكذا في كلّ مرحلة من مراحل الدّولة الإسلامية، الخلافات تتجدّد؛ والخلفاء يُقتلون؛ فقتل عمر، ومن بعده قُتل عثمان، ثمّ قُتل علي. وقد ظهر بأسباب الخلاف المرتدّون، والخوارج الذين خرجوا على الإمام علي ابن أبي طالب عندما قبل التحكيم في موقعة صفّين، ذلك لأنّ الخوارج رأوا أنّ عليا قد أخطأ بقبوله التحكيم؛ فقالوا جملتهم الشهيرة (لا حكم إلّا لله) 1585.

ومن بين أهم معركة اختلافية موقعة الجمل التي وقعت في البصرة عام 36 هـ بين قوات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والجيش الذي يقوده الصحابيّان طلحة بن عبيد الله والزبير ابن العوام، بالإضافة إلى أم المؤمنين عائشة التي قيل أنّها ذهبت مع جيش المدينة في هودج علي

---

1585 علي الصلابي، سيرة أمير المؤمنين أبي سفيان، دار الجوزي، القاهرة، 2007، ص

ظهر جمل، وسميت المعركة بالجمل نسبة إلى الجمل الذي عليه هودج أمنا عائشة رضي الله عنها.

بعد حدوث الفتنة ومقتل الخليفة عثمان بن عفان عام 35هـ، بايع كبار الصحابة الإمام علي بن أبي طالب لخلافة المسلمين، وانتقل إلى الكوفة، ونقل عاصمة الخلافة الإسلامية إلى هناك، وبعدها انتظر بعض الصحابة أن يقتص الإمام من قتلة عثمان، لكنّه لم يأخذ بهذا الأمر.

ومن هنا، كان الخلاف بين علي ومعاوية حتى بلوغ حالة الاقتتال بين صحابة رسول الله؛ فكانت معركة صفين في محرّم سنة 37هـ، حيث أراد علي أن يعزل معاوية من على الشام؛ فخرج إليه بجيشه، ودار الاقتتال عند صفين، وعندما شعر جيش معاوية بأنّه على مقرّبة من الهزيمة، رفعوا المصاحف على رؤوس الرّماح، وطلبوا التحكيم مع علي وجيشه (أهل العراق)؛ فرفعوا شعارا بقولهم: (كتاب الله بيننا وبينكم) إنّه شعار أهل الشام تحت رئاسة معاوية 1586.

ومع أنّ الطرفين قد اتفقا على وقف الاقتتال والقبول بالتحكيم، لكن الرّفص كان على أشده من قبل طائفة من جيش علي بن أبي طالب. ومع ذلك، تمّ الاتفاق وحُتم بحتم علي بن أبي طالب على أعلى صحيفة التحكيم، وحُتم بحتم معاوية بن أبي سفيان على أسفل الصحيفة.

ومع أنّه الاتفاق المختوم، لكن الرّافضين من أهل العراق ظلوا على رفضهم، بل زادوا على رفضهم الخروج عن طاعة علي، ورفعوا صوتهم بقولهم (لا حكم إلّا لله) وطلبوا من علي نقض العهد، ولكنّه رفض.

---

1586 علي الصلاحي، علي بن أبي طالب شخصيته وعصره، دار الجوزي، القاهرة، ص

كان موسى الأشعري مفاوضا وممثلا لعلي وجيشه، وكان عمرو ابن العاصّ مفاوضا وممثلا لمعاوية وجيشه؛ فقام الأشعري بخطبته قائلا: "أيّها النّاس إنّنا نظرنّا في أمرنا؛ فرأينا أقربّ ما يحضرنّا من الأمن والصّلاح، ولم الشعث، وحقنّ الدّماء، وجمع الألفة خلعنا عليّا ومعاوية، وقد خلعت عليّا كما خلعت عمامتي هذه" وخلع عمامته. 1587

وقام عمرو وقال: (أيّها النّاس إنّ أبا موسى عبد الله بن قيس قد خلع عليا وأخرجه من هذا الأمر الذي يطلب، وهو أعلم به، ألا وإني خلعت عليّا وأثبّت معاوية عليّ وعليكم).

فقال الأشعري: كذب عمرو، ولم نستخلف معاوية، ولكنّا خلعنا معاوية وعليّا! فقال عمرو: بل كذب عبد الله بن قيس، قد خلع عليا، ولم أخلع معاوية.

ووفقا لصحيفة التحكيم عاد علي ومن معه من جيشه إلى الكوفة، وتحرك معاوية وجيشه إلى الشام.

ولأنّ الخلاف يشتدّ مع شدّة الصدام؛ فكان علي أشدّه بين علي بن أبي طالب والذين انشقوا وخرجوا عنه، وكان أكثر شدّة عندما اجتمع الخوارج عنه في النهراوان سنة 38هـ، فقَاتلهم علي، وقتل منهم من قتل، ثم اختلفوا وتخالفوا؛ فانشقوا بعد ذلك إلى 20 فرقة.

قُتل علي بن أبي طالب على أيدي الخوارج في 16 رمضان 40هـ، وهو يصلي الفجر في المسجد 1588.

---

1587 سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ج 3، ص 7.

1588 علي محمّد الصلابي، فتنة مقتل عثمان، دار الجوزي، القاهرة، ص 53.



ولأنّ الخلاف يفرّق ولا يجمع، كان الخلاف حتى بين الذين يؤمنون برّب واحد، ورسولٍ واحد، ولا يفرّقون بين أحد من رُسله؛ فكان المرتدّون بأسباب حداثة الإسلام وضعف الإيمان، والاختلاف على من يأتي من بعد الرّسول؛ فكان الخوارج، وكان الاقتتال بين هذا وذاك قتالا بلا شفقة. كلّ ذلك كان بأسباب عدم قبول الاختلاف (عدم قبول الرأي الآخر) إنّ الله الاقتتال من أجل السّلطة، وليس الاقتتال من أجل الهداية ونشر الإسلام والعدالة وإحقاق الحقّ.

ولأنّ الخلاف المؤدّي إلى الاقتتال؛ كان الخلاف بين أهل الدّين الواحد لا يختلف عن الخلاف مع من هم على دين آخر.

فالاختلاف والخلاف عبر الرّمن متلازمان مترافقان في أيّ مكان وفي كلّ المعمورة؛ ففي الدّولة الفاطمية كان الاختلاف والخلاف منذ البدء مع مؤسسها عبيد الله المهدي (909 - 934م) وذلك بعد قضائه على دولة الأغالبة، واتخاذه مدينة المهديّة بتونس عاصمة له، التي من بعدها زحف الفاطميون وحلفاؤهم إلى المشرق وأسسوا القاهرة مع رابع خلفاء العبيديين المعز لدين الله الفاطمي، وبأسباب الخلاف لم يتبقّ منهم في الجزائر والمغرب وتونس إلّا القليل.

توسعت الدّولة الفاطمية على حساب الخلافة العباسية واستولى الفاطميون على شرق الجزائر، ثمّ تونس، ثمّ ليبيا، ثمّ صقلية التي بقيت في حكمهم حتى 1061م 1589.

ولأنّ الخلاف على السّلطة والحكم، دخل الفاطميون في صراع مع العباسيين للسيطرة على الشّام. كما أنّهم تنازعوا السيطرة على شمال إفريقيا مع أمويي الأندلس. وكذلك تمكّنوا من السيطرة على الحجاز والحرمين ما

---

1589 علي الصلابي، فتنة مقتل عثمان، مرجع سابق، ج 3، ص 27.

بين سنوات 965-1070م. ولكن صلاح الدين الأيوبي انقلب على الدولة الشيعية، وتولى الوزارة منذ 1169م، وأعاد الخلافة العباسية سنة 1171م 1590.

قامت الدولة العباسية التي انتشر الخلاف والنزاع فيها؛ فتكوّنت فرق دينية متعدّدة عارضت الحكم العبّاسي. وكان محور الخلاف بين هذه الفرق وبين الحكّام العبّاسيين هو (الخلافة) أو إمامة المسلمين. وكان لكلّ جماعة منهم خصوصياتهما السياسية في إقامة الحكم الذي تريد. وجعلت هذه الفرق النّاس على خلافات بين طوائف وأحزاب، وأصبحت المجتمعات العبّاسيّة ميادين تتصارع فيها الآراء وتتناقض، فوسّع ذلك من الخلاف السياسي بين مواطني الدولة حتى تصدّعت وحدتها، ومن العوامل الداخلية التي شجّعت على انتشار الحركات الانفصالية، اتساع رقعة الدولة العبّاسية، وبعد المسافة بين أجزاء الدولة وصعوبة المواصلات في ذلك الزّمن، هذه جعلت الولاة في المدن النائية يتجاوزون سلطاتهم، ويستقلّون بشؤون ولاياتهم دون أن يخشوا الجيوش القادمة من عاصمة الخلافة لإخماد حركتهم الانفصالية، والتي لن تصل إلّا بعد فوات الأوان، ومن أبرز الحركات الانفصالية عن الدولة العبّاسية، حركة الأدراسة وحركة الأغالبة، والحركة الفاطمية.

انتهى الحكم العبّاسي في بغداد سنة 1258م على يدّ هولاءكو خان التتري الذي قتل من قتل إلى جانب قتله الخليفة وأبنائه؛ فانتقل من بقي على قيد الحياة من بني العبّاس إلى القاهرة بعد تدمير بغداد، حيث أقاموا الخلافة مجددًا في سنة 1261م.

---

1590 علي الصلابي، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية، دار

الجوزي، القاهرة، ص 138.

استمرت الخلافة العباسية حتى سنة 1519م، عندما اجتاحت الجيوش العثمانية بلاد الشام ومصر، وفتحت مدنها وقلاعها، فتنازل آخر الخلفاء عن لقبه لسلطان آل عثمان (سليم الأوّل) ؛ فأصبح العثمانيون خلفاء المسلمين، ونقلوا مركز العاصمة من القاهرة إلى القسطنطينية 1591.

هكذا هي نتائج الخلاف بداية استيلاء على السّلطة، ثمّ صراعات وفتن بين الفرق والطوائف التي حياتها لهو، وفساد، وكيد، ومكر، إلى أن تأتي النهاية بسقوط غير مأسوف عليه.

ولأنّ الخلاف؛ فلا يقتصر على شعب أو دين أو أمة أو حضارة، بل يمتدّ بين الناس كلّما توافرت معطيات ظهوره؛ فالخلاف كما يجري بين المسلمين؛ فهو الخلاف يجري بين المسيحيين الذين تقسّموا بأسبابه إلى كاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت.

فبأسباب الخلاف في القرن الخامس الميلادي، حدث انشقاق كبير نتج عنه أن أصبحت بعض كنائس الشرق تحت قيادة كنيسة الإسكندرية، وكنائس الغرب تحت قيادة كنيسة روما، وسميت الأولى بالكنائس الأرثوذكسية، والثانية بالكنائس الكاثوليكية إلى أن جاء الخلاف في القرن الحادي عشر الذي بأسبابه انفصلت كنائس القسطنطينية واليونانية وبعض الكنائس الأخرى عن الكنيسة اللاتينية، وسميت أيضا بالكنائس الأرثوذكسية.

فبأسباب الخلاف، يؤمن الكاثوليك والبروتستانت أنّ الأب أعظم من الابن والروح، والأرثوذكس يؤمنون بأنّهم متساوون.

فبالنسبة لروح القدس: يؤمن الكاثوليك والبروتستانت أنه منبثق من الأب والابن معا، والأرثوذكس يؤمنون أن الروح منبثق من الأب فقط.

أما بالنسبة للابن: يؤمن الكاثوليك والبروتستانت بأنه مكوّن من طبيعتين ومشيتتين، ويؤمن الأرثوذكس أنه طبيعة ومشية واحدة.

وبالنسبة لمريم عليها السلام، يؤمن الكاثوليك أنّها أمّ المسيح، وزوجة الروح القدس بالفعل، وأنّها الآن في السماء، فوق المسيح ابنها، ويؤمن الأرثوذكس أنّها أم الإله وأنّها الآن في السماء عن يمين المسيح، ويؤمن البروتستانت أنّها إنسانة عادية مسيحية؛ وهكذا هو الاختلاف والخلاف يتلونان ويتنوعان ويمتدّان مع الحياة امتدادا بلا انقطاع، ممّا يجعل المصالحة حلّا لمشكلة المختلف والمخالف<sup>1592</sup>.

ومع أنّ جمال الحياة متنوّع، إلّا أنّ الخلاف على رأس المفسدات لهذا التنوّع، ولا سبيل من بعده للناس إلّا التفاهم، والتفهم، والاستيعاب، والمصالحة الوطنية الممكنة من التكيّف والتوافق والوحدة، ومن لم يقبل بذلك، سيجد نفسه في مواجهة الناس.

ومن ثمّ؛ فعلى بني آدم أن يميّزوا بين ما يجب ويتبعوه إرادة، وبين ما لا يجب، ويجتنبوه، ويتتهون عنه، وبعد التبيّن لا ينبغي أن يكره أحد على شيءٍ هولا يرغبه، {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} 1593، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} 1594، {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ} 1595، {فَدَكَّرَ} 1596 {إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ}.

---

1592 سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، مرجع سابق، ص 136.

1593 البقرة 256.

1594 يونس 99.

هذه الآيات الكريمة مأمور الأخذ بها أمرا من عند الله تعالى، وذلك بأسباب الاختلاف والخلاف الإنساني؛ فلا داعي للإكراه والإجبار والإقصاء والسيطرة بغير حق. بل الذي يجب اتباعه هو قبول الآخر المختلف، واستيعاب المخالف، وتفهم ظروفه، والعمل معه من حيث هو، من أجل أهداف وآمال مشتركة تستوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة، حتى يتمكن الجميع من بلوغ المأمول الأجود مع وافر التوافق والتقدير.

ولأنّ الاختلاف مقدّر من عند خالق المختلفين مصداقا لقوله تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) فلا طاعة لأحدٍ يريد أن يسيطر على أحدٍ حتى وإن كان ولي أمر، (فَدَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ).

إذن، الطاعة المطلقة لله تعالى، ولكن الطاعة في دائرة الممكن هي للأمر؛ فالذين يقولون طاعة أولي الأمر واجبة، نقول لهم: نعم، ولكن في مرضاة الله تعالى، أي: لا طاعة لهم في غير ذلك؛ فإن كان الحاكم ظلما؛ فهل الله تعالى يؤيد ظلما، أو يناصره ليكون عبيد الله المؤمنين مؤيدين له ومناصرين؟

وإذا كان الحاكم مفسدا في الأرض؛ فهل يكون هذا الحاكم في مرضاة الله تعالى؟

وإذا كان الحال بين الناس هو مجموعة من المفسد، وعلى رأس المفسد ولي الأمر؛ فهل يا ترى ستكون طاعة ولي الأمر واجبة ومرضية لله تعالى؟

---

1595 الكهف 29.

1596 الغاشية 21، 22.

طاعة ولي الأمر واجبة في غير معصية ما أمر الله به، ولكن إن أصبح ولي الأمر على مجموعة من المفساد؛ فلا طاعة له فيما يرتكبه من مفساد، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } 1597. بدون شك طاعة الله طاعة عبادة وتسليم مطلق، وطاعة الرسول عليه الصلوة والسلام من طاعة الله تعالى لاتباع ما جاء به كتابا منزلا من عند الله.

أمّا طاعة أولي الأمر منكم؛ فهي طاعة للأمر الذي هو منكم، أي: عندما يقرّر الشعب قرارا (سواء في حالة السلم أم حالة الحرب) أو أن يصدر الشعب دستورا؛ فلا ينبغي لأولي الأمر مخالفته، وكذلك لا ينبغي لمواطنٍ قرره مخالفته، ذلك كونه قرارا جمعيًا، وليس بقرارٍ فردي، ولا حتى جماعي، قرار شعب بأسره، أو أمة بكاملها؛ فلا طاعة لولي أمر في غير ما ولى عليه من أمر من (المواطنين)، ولهذا؛ فإنّ إجماع الناس شعب أو أمة بحالها يعدُّ حُجّة.

ولأنّ المقصود من طاعة أولي الأمر هو طاعة للأمر الذي هو منكم (من الجميع) أي: من الذين يتعلّق الأمر بهم، سواء أكان الأمر سلما أم حربًا أم سياسة داخلية أم سياسة خارجيّة؟، أو أيّ أمر يتعلّق بالناس وشؤونهم العامّة. إنّه قال تعالى: (وأولي الأمر منكم) ولم يقل: (وأولي أمركم) فالأولى تعود على من يتولّى أمركم إرادة مع وضوح الأمر المكلف به ولاية منكم، أمّا الثانية: فتخصّ ولي أمركم (الوالدين أو من يتولّى رعايتكم خاصّة وأنتم قصر)، ومع ذلك حتى الوالدين لا طاعة لهما في معصية الله عزّ وجلّ

مصداقا لقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} 1598.

إذن، طاعة أولي الأمر في مرضاة الله لا يمكن أن تكون فيما يرتكبه أولي الأمر من مفاسد ومعاصي، بل الطاعة فقط في مرضاة الله حيث لا مفاسد، فإن كانت المفاسد سائدة في سياسة أولي الأمر منكم؛ فلا طاعة لهم في معصية وإفساد في الأرض، قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ} 1599.

ولأن من بين الإفساد في الأرض قتل النفس التي حرم الله؛ فولي الأمر إن قتل نفسا بغير حق فقد أفسد، ولأن بعضا من أولي الأمر يعلم أن من قتل نفسا بغير نفس؛ فلا كفارة له ليكفر بها عن ذنبه؛ فهو إن قتل نفسا فكأنما قتل الناس جمعا، ولهذا، لن يتوقف عن قتل المزيد من الأنفس بما أنه قد قتل نفسا من قبل، بل سيكون أكثر تماديا في سفك الدماء 1600، قال تعالى: {أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} 1601، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} 1602.

---

1598 العنكبوت 8.

1599 البقرة 11، 12.

1600 عقيل حسين عقيل، خريف السلطان (الرحيل المتوقع وغير المتوقع)، شركة الملتقى

للطباعة والنشر، بيروت، ص 220 . 223.

1601 المائة 32.

1602 آل عمران 21.

ومع أنّ قتل النفس بغير حقّ محرّم ومجرّم ديناً وعرفاً وحُلُقاً، لكن الذين لا علاقة لهم بهذه ولا بتلك؛ فلا يتردّدون ظلماً في سبيل سيطرة وتولي الأمر بغير حقّ، واحتلال وطن بغير حقّ، وهتك عرض بغير حقّ، ونهب مال بغير حقّ؛ فالناس يختلفون، والسياسات تختلف وأصحابها يتخالفون؛ فيسقط من يسقط بالفوّة، ويتولى من يتولى بالفوّة، وكذلك تحتل دولة بالفوّة كما أنّها بالفوّة تتحرّر.

وعليه؛ فطاعة ولي الأمر واجبة بما أنّه لم يخالف الأمر، ولكن إن حاد عن الأمر؛ فلا طاعة له، بل يجب إعادته إلى الأمر المستوجب الطّاعة، كما هو حال إمام الصّلاة عند المسلمين الذي يصطفّ المصلون وراءه يركعون ويسجدون لله طاعة؛ فإن خلّ أو أخطأ في غفلة عن قراءة القرآن المصلّي به، وجب على المصلّين أن يصحّحوا له ما أخطأ فيه قراءة، وإن أخطأ في سجدة أو ركعة فلا يطاع، بل ينبّه لما أخطأ فيه حتى يعود إلى الأمر، وفي حالة لم يعد؛ فلا يتبعه المصلون فيما ذهب إليه خطأ، بل عليهم تنبيهه حتى العودة إلى صحة الأمر وسلامة أدائه أمراً هو كما هو، ومن هنا، يتضح الفارق بين طاعة الأمر وبين طاعة أولي الأمر، ولذلك؛ فلا طاعة لولي أمر خرج عن الأمر الذي كلّف به من قبل الناس، ولكن إن كان ولي الأمر قد استلب الأمر استلاباً؛ بانقلابٍ أو ثورة فردية أو جماعية، أو بأية حيلة من تحاييله وأساليبه المتتوية؛ فلا وجوب لطاعته، بل مقاومته واجبة من أجل إعادة المسلوب والمستولى عليه.

إنّ الخلاف مع من يخالف الشرع حقّ شرعي، ومع من يخالف الدستور، حقّ دستوري، ومع من يخالف العرف حقّ عرفي، ومع من يخالف القيم الحميدة، حقّ قيمي. وفي المقابل يجب احترام وتقدير المختلفين ديناً وعرفاً حيث لا إكراه في ممارسة الحرّية المرسيخة لكرامة الإنسان.



ولذا؛ فبعد التأزمات والشدائد إن لم يكن بعد الخلاف تفهّم وتوافق وعفو وتسامح ومصالحة، ستكون بدايات الاقتتال وإشعال نيران الفتن، والحروب الأهلية، واحتلال البلدان، وقتل الأنفس بغير حقّ ستكون معروفة، ولكن نهاياتها ستكون غير معروفة العواقب؛ هكذا بأسباب الاختلاف والخلاف قُتل الملايين في معارك وحروب طاحنة ولا زال كما يقولون الحبل على الجرارة 1603.

### الإصلاح من سنن الأنبياء والمصلحين:

الإصلاح أنواع ويتشكل بمقصد أصحابه؛ فإمّا أن يكون إصلاحاً حقيقياً فتتلاشى التناقضات وتصحح الأوضاع وتستقيم الأمور، أو أن يكون إصلاحاً مزعوماً هدفه تجميل الصورة أمام الناس؛ فتوضع الرتوش واللّمسات الزخرفية ببعض الإجراءات والتغييرات السطحية، وهذا لا يمنح أيّ تغيير ممّا يكسب الصورة الماضية بقاء أكثر؛ فيمنحها استمرارية جديدة لم يكن لها أن تستمر، والصالح ينشد التغيير الذي يغير الأمور من جذورها ويرميها إلى الوراء ولا يعود إليها مهما كان وتحت أيّ ظرف من الظروف.

ولأنّ الإصلاح قيمة حميدة، تستمدّ منه صفة الصلاح؛ فكان إسحاق نبياً من الصالحين، قال تعالى: {وَبَشِّرْنَا بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ} 1604. والصلاح هو منتهى الصفات الحميدة التي لا يشوب صاحبها فساد رأي أو اعتقاد، لذلك مدح الله تعالى أنبياءه وعباده بهذه

---

1603 عقيل حسين عقيل، السياسة بين خلاف واختلاف، القاهرة، 2014، ص 91 \_

.104

1604 - الصفات 112

الصفة، وقد جاء في تعريفها اللغوي أن: "الصلاح ضدّ الفساد، وأصلح الشيء بعد فساده أقامه" 1605.

فالإصلاح قيمة يحمل صاحبها ممّا يحمله:

. الحرص.

. بُعد النظر.

. الأخلاق الكريمة.

. الحكمة.

. الاعتاظ وأخذ العبر.

. الأخذ بكلّ ما يؤدّي إلى بناء وإعمار.

ولذا، فقد خصّ الله تعالى أنبياءه وعباده المقربين بهذا الوصف فقال في حقّ عيسى عليه الصّلاة والسّلام: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ} 1606.

تحتوي هذه الآيات الكريمة على أنّ عيسى عليه الصّلاة والسّلام هو:

. كلمة من الله تعالى.

. وجيهاً في الدنيا والآخرة.

. من المقربين عند الله تعالى.

. مكلمّ للناس في المهدي وكهلاً.

---

1605 - لسان العرب، ج 2، ص 516.

1606 - آل عمران 45-46

. من الصّالحين.

فلكلّ واحدة من هذه الصّفات من العظمة والشرف بمكان، ومع ذلك فقد ختم الكلام بما وصفه به بأن جعله من الصّالحين وعليه:

فإنّه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً؛ لأنّه لا يكون كذلك إلاّ ويكون في جميع الأفعال من الأوامر والنواهي مواظباً على:

. القول الحقّ.

. الفعل الحقّ.

. العمل الحقّ.

. السلوك القدوة.

وهذا النهج هو الممكن من صلاح الدّين والدّنيا، لأنّه يتناول جميع أفعال الجوارح والقلوب، ومن الملاحظ في كثير من الآيات التي تتكلم عن الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، تذكر بعض التفاصيل عن صفاتهم، ثمّ يردف ذلك بالصلاح الذي يدلّ على أرفع الدرجات.

وأما قوله تعالى في يونس عليه الصّلاة والسّلام: {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصّٰلِحِينَ} 1607. فهذا لا يعني أنّه لم يكن صالحاً، فكيف لا يكون كذلك وهو النبي المصطفى، ولكن هذا يدل على:

. إنّ الصّلاح يكتسب.

. الصّلاح درجة عالية لا ينالها إلاّ صادق القول والفعل والعمل.

ومن ثمّ؛ فالصّلاح يجعل من المتصّفين به على الدّرجة العالية، والمكانة الرّفيعة، وهذه الدّرجة الرّفيعة هي مطلب الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، فقد طلبها سليمان بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلَنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصّٰلِحِينَ﴾ 1608.

لقد أخبر الله تعالى أنّ إسحاق عليه الصّلاة والسّلام من الصّالحين الذين يؤدّون العمل الصّالح، ومع أنّ درجات الأنبياء أعظم من درجات الصّالحين، ومع ذلك قال يوسف عليه الصّلاة والسّلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالحَقِّي بِالصّٰلِحِينَ﴾ 1609.

ومع العلم أنّ يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم الصّلاة والسّلام هم آباء يوسف وهم أنبياء، فهو لم يقل: الحقني بأبائي الأنبياء، وإنّما طلب اللحاق بالصّالحين التي هي من صفة آباءه الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وعلى هذا يكون قد طلب الصّلاح التّام وهو الذي لا يعصي الله ولا يهيم بمعصية وعلى هذا يكون طلبه:

. أن يجعله صالحا أبدا.

. أن يلحقه بالصّالحين من آباءه.

فالصّالحون الذين استوت سريرتهم وعلايتهم في الخير، وصلحت أحوالهم عند الله تعالى؛ فرضي عنهم، وهذه الصّفة هي غاية المدح ويدلّ عليها النقل والعقل، أمّا النقل: فهو أنّ الله تعالى مدح بهذا الوصف الأنبياء

---

1608 - النمل 19.

1609 - يوسف 101.

والمرسلين عليهم الصلّاة والسّلام؛ فقال بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذوي الكفل: {وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصّٰلِحِينَ} 1610.

وقال مبشرا إبراهيم: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصّٰلِحِينَ} 1611.

وذكر حكاية عن سليمان عليه الصلّاة والسّلام في قوله تعالى: {وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصّٰلِحِينَ} 1612.

وأما العقل:

. يعلم أنّ الصّلاح ضدّ الفساد.

. وكلّ ما لا ينبغي أن يكون في مرضاة الله تعالى هو فساد.

سواء أكان ذلك:

. في العقائد.

. أم في الأعمال.

. أم في الأخلاق.

فإذا كان كلّ ما يحصل من باب ما يجب أن يكون؛ فقد حصل الإصلاح والصّلاح الذي يدلّ على أرفع الدرجات.

فالصّالح هو الذي يكون صالحا في اعتقاده، وفي عمله، وسلوكه، وتصرفاته، وكلّ ما يصدر عنه، أو ما يكفّه في قلبه ونبيّته.

---

1610 - الأنبياء 86.

1611 - الصفات 112.

1612 - النمل 19.

والإصلاح قيمة أخلاقية مشاعة يتّصف الإنسان بها اختياراً بتوفيق الله تعالى، وذلك أنّ الإنسان يستطيع أن يكون صالحاً بإرادته، ولا يستطيع أن يكون نبياً لأنّ النبوة اصطفاء واجتباء من الله تعالى.

والصلاح درجات لدى الإنسان من حيث المكانة، وإثماً من حيث الخصوص أو الشمول وذلك أن يكون الإنسان:

. صالحاً في نفسه لنفسه.

. صالحاً لنفسه ولأهله.

. صالحاً لنفسه وأهله والآخرين.

وهناك أسباب أخرى ممّا خصّ الله تعالى بها أنبياءه ورسله فوصفهم بأحسن الوصف، ومدحهم بأجلّ الصّفات، بأنهم من الصّالحين؛ فقد جرت سنّة الله في وصف أنبيائه عليهم الصّلاة والسّلام بأجلّ الصّفات بعد النبوة فكان أنبياءه من الصّالحين:

حيث جعلهم ورثة الأرض مصداقاً لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} 1613.

فإبراهيم أبو الأنبياء من الصّالحين الكرام، {وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} 1614.

ولقد بشر الله زكريا بنبي من الصّالحين قال تعالى: {أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} 1615.

---

1613 - الأنبياء 105.

1614 - البقرة 13.

وهكذا كان عيسى عليه الصلاة والسلام، {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ} 1616.

وعليه؛ فإنَّ جميع أنبيائه هم من الصَّالحين، {وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلِيَّاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ} 1617، وقوله تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ} 1618، وهكذا، اجتبي الله تعالى يونس من الصَّالحين، {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِّنَ الصَّالِحِينَ} 1619.

ونقف على بعض ما في الإصلاح والصَّلاح من قيم حميدة رفيعة الشأن من خلال قوله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} 1620.

فقد ذكرت الآية بعض صفات الصالحين التي تمثل عماد الإيمان والعلاقة بين الإنسان وخالقه، والإنسان والمخلوقين في:

. الإيمان بالله تعالى.

. الإيمان باليوم الآخر.

---

1615 - آل عمران 39.

1616 - آل عمران 45-46.

1617 - الأنعام 85.

1618 - الصافات 112.

1619 - القلم 50 .

1620 - آل عمران 113-114.

. الأمر بالمعروف .

. النهي عن المنكر .

. الإسراع في الخيرات .

فمن حمل هذه الصفات؛ فقد انتمى إلى من وصفهم الله تعالى بأنهم  
من الصالحين .

ولسائلٍ أن يسأل:

من هو الصّالح؟

نقول:

الصّالح من يعمل صالحا في مرضاة الله تعالى، وهو القادر على أعمال  
وأفعال الإصلاح ما استطاع إليه سبيلا. وبهذا كان جميع الأنبياء الكرام هم  
صالحون من عند الله تعالى؛ فهم الصّالحون للرّسالات التي بُعثوا بها رُسُلا  
عظاما، وهم الصّالحون للنبا العظيم الذي أنبتوا به من الله عزّ وجلّ،  
والصّالحون هم رفيعو الدّرجات، كما هو حال أيوب عليه الصّلاة والسّلام  
الذي كما اتّصف بالصبر وُصِفَ بأنّه من الصالحين الذين هم في مرضاة الله  
عزّ وجلّ من أنبياء ورُسُل عظام، قال تعالى: { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ  
عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ  
وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمَن دُرِّيْتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ  
وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى  
وَإِلْيَاسَ كُلِّ مَن الصّٰلِحِينَ } 1621.



ولأنَّ أيوب من الصّالحين؛ فكان على الهداية والطّاعة لا يَرجو رحمة  
إِلَّا من الرّحمن الرّحيم الذي شفاه من كلِّ ألم وداء؛ فأصبح على الفؤة من  
المعافين المكرّمين.

ولأنَّ أيّوب من الصّالحين؛ فكانت له الاستجابة بما نوى أن يدعو الله  
دعاء الصّالحين الأبرار، { وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ  
الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً  
مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ } 1622.

وعليه؛ فالصلاح لا يكون إلا للمخلصين، ولا يكون إلا منهم في  
دائرة النسبية والممكن.

ولكن كيف تُعمل الصّالحات؟

عمل الصّالحات ليس بالأمر السهل؛ فالصّالحات تتطلّب تقوى  
سابقة عليها، ومعرفة وإتقان ونصح دون كلل ولا ملل، مع رجاء في  
استجابة بثواب يحقّق الغايات المرجوة.

وقد يكون المترتب على العمل فعل إصلاح، وقد يكون المترتب عليه  
فعل إفساد في الأرض، وسفك دماء فيها بغير حقّ. قال تعالى: { وَلَقَدْ آتَيْنَا  
دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارُ لَهُ الحَدِيدَ أَنْ اِعْمَلْ سَابِغَاتٍ  
وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } 1623؛ فالعمل  
الصّالح من صفات الخليفة في الأرض، ولأنَّ داود كان خليفة في الأرض؛  
فكان عاملا للخيرات ومُكثرًا منها، ولهذا، اتّصف داود عليه الصّلاة  
والسّلام بعمل الصّالحات، وعامل الصّالحات هو المصلح في الأرض بالقول  
الطيب الذي يفكّ الأزمات، ويطمئن القلوب بالإيمان الذي يدعو إليه بالتي

---

1622 الأنبياء 83، 84.

1623 سبأ 10، 11.

هي أحسن، وهو العامل بكلّ ما في وسعه أن يعمله من أجلّ إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، وهو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدعو إلى الخير والعفو والتسامح والصفح والتصالح.

ولأنّ الصّالحات هي التي تبقى لأصحابها يوم القيامة ضمانا لدخول الجنّة، فمن أصلح بين النّاس وأكثر من عمل الصّالحات ضمن الجنّة، ومن لم يعمل في حياته صالحا يخسر الدارين، ولن يكون من الوارثين من حيث:

أ. أنّه لم يترك أثرا طيبا لمن بعده في الحياة الدنيا.

ب. بأعماله غير الصّالحات في الحياة الدنيا يضيّع فرصة دخوله الجنّة في الدار الآخرة.

قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} 1624. وجاء الوعد بالاستخلاف مقصورا على الذين آمنوا وعملوا الصّالحات، وهذا يدلُّ على أنّ الذين آمنوا ولم يعملوا الصّالحات غير معينين بالأمر، وفي هذا استثناء من الخلافة، حيث استثنى الله غير المؤمنين من الخلافة بقوله: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ). وهذا يدل على أمور ثلاثة:

الأول: استثناء غير المؤمنين من الاستخلاف.

ثانيا: تعميم الاستخلاف للمؤمنين منهم.

ثالثاً: تخصيص الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم، وهنا يتضح التميّز بين من آمن ولم يعمل عملاً صالحاً، وبين من آمن وعمل عملاً صالحاً.

ولهذا، سيبدّل الله تعالى خوف المؤمنين من الأعداء أمناً، وبما أنّ هذا الأمر وعدٌ من الذي وعده الحقّ، وهولاً يخلف وعده، إذن؛ فليُرمى الخوف في غيابات الحب بالعمل الصالح حتى نكون من المستخلفين في الأرض.

ومن الآية السابقة يتّضح أمر الخليفة بأنّه ليس الإنسان المطلق، بل الإنسان المؤمن الذي يعمل صالحاً، وهذا لا ينفي الوجود والعيش على الأرض للكُلّ دون استثناء، بل يعني أن مستقبل الأرض سيكون بين أيديّ آمنة، وليس بين أيديّ عابثة، ولهذا لا إكراه في الدين، بل في الدين الحُجّة التي تحمل في مضامينها الحقيقة التي تتطلّب مؤمنين بها حتى يتمكّنوا من تسويقها بقواعد الوجوب الحقّ دون إكراه للآخرين. ولذا؛ فإنّ أمر الإصلاح يتعلّق بصناعة المستقبل، وهذا المستقبل لن يتحقّق إلّا بما يتركه الإنسان من أثر طيب في القول والفعل والسلوك والعمل، ليسهم في عمليات الإصلاح المتعدّدة والمتنوّعة.

قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} 1625. ولذلك كان الاستخلاف لغاية، وكان الله الفضل على من يلتزم بأسباب استخلافه، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ} 1626 ولهذا؛ فمن شروط الاستخلاف الإصلاح، ولكن أيّ إصلاح؟

---

1625 . البقرة . 11.

1626 . النور . 55.

أقول:

إنَّه العمل الصَّالِح بِشكِّله المطلق، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} 1627 ولذلك؛ فالعمل غير الصَّالِح هو دليل عدم القبول بأمر الإصلاح في الأرض. ولو لم يجعل الله تعالى أمر العمل بإرادة، لكان الجميع مستخلفين فيها بالقوَّة، وفي مقابل ذلك لو يؤاخذ الله تعالى الإنسان بما يفعل السفهاء ما ترك على ظهرها من دابة {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} 1628.

وعليه: فالإصلاح قيمة لا يتبَّعها إلا مهتدٍ بالحق إلى الحق، والصَّالِح هو الذي لا يقصر أمر الصَّالِح على نفسه، بل يتعدى به إلى الآخر، لأجل أن يصلح حاله، ويعمل على تغييره إلى كلِّ ما من شأنه أن يؤدِّي إلى المحبَّة وإلى ما هو أفضل وأجود وأنفع في غير معصية لله، ومن ثم؛ فمن لا يتبَّع الصالحين المصلحين قد يسفِّه نفسه ويكون في الآخرة من النادمين.

والصالحون في الآخرة، همَّ العاملون عليها في الدنيا، قال تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَأَنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} 1629.

فقوله تعالى: (وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَأَنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) فهو يُخبر عن مكانة نبي الله تعالى في الدارين في هذه الآية الكريمة، الذي جاء في جملتين مؤكدتين بأدوات التوكيد.

---

1627 فصلت 46.

1628 فاطر 45.

1629 البقرة 130.

الأولى: (وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا) مؤكدة باللام وقد.

والثانية: (وَأَنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) مؤكدة بأداتي توكيد، إنَّ،

واللام.

وذلك لأنَّ الإخبار عن اصطفاء الله له في الدنيا أمر غير معلوم لمن عاصروه من البشر، وكذلك كونه في الآخرة من الصالحين، فهو أمر مغيب عنهم يحتاج فيه إلى إخبار من الله تعالى، فأخبر الله به مُؤكدا بأداة التوكيد.

ويمكننا القول: بأنَّ الاصطفاء جاء من أجل الإصلاح أمرا مرتبطا بالحياة الدنيا، فالله تعالى اصطفى الكثير من عباده للقيام بالعديد من المهام منها:

. مهمة التبشير بثواب الله والإنذار من عقابه والتبليغ بأوامره تعالى بالنبوة والرسالة من أجل هداية الناس إلى الطريق الحق، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ليكون الإصلاح قيمة حميدة ومفضلة بين الناس، ولهذا اصطفاء الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، مصلحين مبشرين ومنذرين، قال تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} 1630، وهذه مكان العمل الصالح الممكن من الإصلاح.

. مهمة حفظ كتاب الله (القرآن الكريم) حتى يتحقق حفظ الله تعالى له مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} 1631.

. مهمة الإصلاح والدعوة للمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 1632.

---

1630 الأنعام 48.

1631 الحجر 9.

أما الحياة الباقية؛ فإنه ارتبط بها العمل الصالح الذي به ينال العامل مكانته في الجنة {إِلَّا مَنْ تَابَ وَأَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا} 1633.

وعليه؛ فالصالحون في الآخرة هم المصلحون في الدنيا، قال تعالى: (وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) تأكيد على اصطفاء الله تعالى لإبراهيم صلى الله عليه وسلم، أي: جعله الله صالحا وصافيا من الأدناس، وكل ما يتنافى مع كونه مصطفى من فعل أو قول، أو عمل أو سلوك، فجاء قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} 1634.

هذا عن اصطفاء الله تعالى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام في الدنيا، واستمر الإخبار من رب العزة عن مكانة خليله وصفيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الآخرة بقوله تعالى: {وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} 1635

من الصالحين الذين أخبر الله تعالى أنه:

1632 آل عمران 104.

1633 الفرقان 70.75.

1634 العنكبوت 27.

1635 النحل 122.

. يتولّاهم.

قال تعالى: {إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} 1636.

. يدخلهم الله تعالى في رحمته.

قال تعالى: {وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} 1637.

وقال تعالى: {وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ} 1638.

إذن القاعدة تنصُّ على:

(إِنَّ الصَّالِحِينَ مِنَ الْعِبَادِ يَتَوَلَّاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَتِهِ).

وإن تساءل متسائل:

ما الصفات التي تدخل العباد في الصالحين؟

وبالإجابة عن هذا التساؤل نجد:

إِنَّ مِنْهَا صِفَاتٌ مَجْمُوعَةٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنْاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} 1639.

وعليه؛ فالصالحون هم الذين:

---

1636 الأعراف 196.

1637 الأنبياء 75.

1638 الأنبياء 86.

1639 آل عمران 113\_115.

1 . يؤمنون بالله تعالى: {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ  
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ  
الصَّالِحِينَ} 1640.

2 . يؤمنون برُسل الله تعالى ويصدّقونهم ولا يفرّقون بينهم مصداقا لقوله  
تعالى: {أَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ  
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا  
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} 1641.

3 . يؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا  
وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا  
فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} 1642.

4 . يتعبّدون لربّهم بالقيام، والتلاوة والصلاة، {قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا  
يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ  
فِيهِ وَلَا خِلَالَ} 1643.

5 . يأمرن بالمعروف ويعملونه، {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ  
بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ  
وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 1644.

---

1640 آل عمران 114.

1641 البقرة 285.

1642 البقرة 62.

1643 إبراهيم 31.

1644 التوبة 71.



6. ينهون عن المنكر ويحبتبونه، {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} 1645.

7. يسارعون في الخيرات، {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} 1646.

8. لا يفسدون في الأرض، {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} 1647.

9. يعمرون الأرض وفيها يصلحون، {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 1648.

10. لا يسفكون الدماء بغير حق، {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْنَا إِلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمُ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} 1649.

إذن، الصلاح ما ليس بفساد وهولا يكون إلا على الهداية والطاعة التامة لله رب العالمين.

والصالح هو الصالح في ذاته من ذات الله تعالى؛ فهو الذي حُلق في أحسن تقويم، وكان على قيمة الإصلاح في الأرض ليعمل صالحا يرضاه

---

1645 آل عمران 114.

1646 المؤمنون 60، 61.

1647 البقرة 27.

1648 النور 5.

1649 الأنعام 151.

الخالق، ولذا؛ فالصالح هو: من يصلح للحياتين ويرث فيهما خيرا كثيرا، قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 1650.

وفي اللغة، الصالح: "من بني آدم: هو المؤدّي حقوق الله عليه" 1651.

وقال الزجاج: "الصالح الذي يؤدّي لله ما افترض عليه، وإلى الناس حقوقهم" 1652.

ولأنّ كلّ الأنبياء من الصالحين (كلّ من الصالحين) فنحن لا نميّز بين أحدٍ من رُسُلِهِ وقالوا سمعنا وأطعنا، إنهم الأنبياء والرّسل الصابرون الطائعون الصالحون الذين أدخلهم الله في واسع رحمته مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ يَا إِلَهَ إِلَهٍ إِنْ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمَمِ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ} 1653.

وعليه، فالصالح غير المصلح، فالصالح من صلحت أحواله خلقا فكان على الصلاح صفة تامّة وعلى الأخلاق قدوة حسنة، والمصلح هو من يُسهم في إصلاح المفاسد أو الآخرين، وهو الذي يأمل أن يكون على الصلاح ليكون صالحا في ذاته ويبلغ درجة الصالحين الذين منهم جميع

---

1650 البقرة 25.

1651 تفسير الطبري، ج 3، ص 91.

1652 تفسير القرطبي، ج 4، ص 79.

1653 الأنبياء 85 . 88.

الأنبياء والمرسلين صلى الله عليهم وسلم، ومع ذلك فالصالح هو من لا يؤمن إلا بما هو خير وفي مرضاة الله، وهو الذي لا يؤمن أن يكون على غير ذلك قولاً وعملاً، ولهذا، يتوجّه بالعمل الصالح للآخرين ليُسهِمَ في إصلاح أحوالهم لأنّه في ذاته مصلحاً، قال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} {1654}، وعندما يكون أهل الأرض يصلحون أحوالهم ولا يفسدون فيها، ولا يسفكون الدماء بغير حق، فهم يتصفون بصفة الإصلاح؛ فيتحلّون بقيمته يعمّرون ويشيدون وينون ويفلحون، وهم متّقون لرّبهم في كلّ كبيرة وصغيرة يقدمون عليها أو يتعدون عنها.

إذن، الصالح هو: من توقّرت فيه معطيات الصّلاح ليكون نافعا ومفيدا لما يقدّم عليه من عمل، وهو من يُصلح أحوال المفسدين وفسادهم في الأرض دون كلل ولا ملل، ولذا، لا مُصلح بالمطلق إلا الله تعالى، أمّا المستخلفون فيها؛ فهم المصلحون بالإضافة، قال تعالى: {يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} {1655}.

ولأنّ الإصلاح صفة طيبة؛ فكان نبي الله صالح على هذه القيمة، أي: لقد انطبق اسم صالح مع صفة الإصلاح؛ فهو صالح في اسمه وهو صالح في صفاته وهو صالح في أفعاله؛ فهو غير منقوص من حيث كونه صالحاً، ولهذا بُعث صالح ليصلح أحوال قومه ليكونوا مصلحين في الأرض كما يشاء الله أن يكون بنو آدم مستخلفين فيها بالإصلاح والإعمار، ولهذا، جاء صالح مصلحاً وصالحاً وناصحاً ومرشداً لقومه، قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ

1654 هود 117.

1655 الأحزاب 71، 72.

الْعَالَمِينَ أَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْجُونَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي هُنَّ فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ {1656.

وعليه: فالمصلح من كان قوله صالحا، وفعله صالحا، وعمله صالحا، وسلوكه صالحا، ويأمر بالصلح والإصلاح، وينهى عن الفساد والمفاسد.

والمصلح هو: من يَصْرَّ على إصلاح ما يفسده المفسدون الفاسدون في أخلاقهم وإيمانهم وأعمالهم وأفعالهم، قال تعالى: {قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ يَكَلِّمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} {1657، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} {1658.

ولأنَّ من مشيئة الله في خلقه أن جعل منهم الصالحين والمصلحين؛ فكان شعيب في طبعه مُصلحا، مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ} {1659؛ فقول شعيب: (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ) يدلُّ على حُسن إرادته الطائفة لأعمال الخيرات الحسان التي بها يتم الإصلاح في الأرض وإعمارها وفلاحها، ولذا فقوله: (مَا اسْتَطَعْتُ)، تدلُّ على إصراره على الإقدام على أفعال الإصلاح في الأرض من خلال الفضائل التي بعثه الله بها رسولا كريما، ومن خلال القيم الحميدة والفضائل

---

1656 الشعراء 144 . 152.

1657 يونس 81، 82.

1658 الأحزاب 70، 71.

1659 هود 87، 88.

الخيّرة والعمل في الأرض بين الناس ومعهم حتّى لا يسود الفساد فيها،  
ولذلك فشعيب صلى الله عليه وسلّم، مُصلح في الأرض طاعة لأمر الله  
الذي جعله مصلحا فيها.

وفي معنى إصلاح شعيب قال الرّازي: "ما أريد إلا أن أصلحكم  
بموعظتي ونصيحتي، وقوله: (ما استطعت) فيه وجوه:

الأوّل: أنّه ظرف والتقدير: مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت  
متمكّنا منه لا آلو فيه جهدا.

الثاني: أنّه بدل من الإصلاح، أي: المقدار الذي استطعت منه.

الثالث: أن يكون مفعولا له، أي: ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت  
إصلاحه 1660.

ولأنّ الإصلاح خير قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "ألا أخبركم  
بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة؟ قال: قلنا بلى، قال: إصلاح  
ذات البين" 1661. قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ  
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} 1662 أي: (فأصلحوا بين أخويكم) إذا اقتتلا  
بأن تحملوهما على حكم الله وحكم رسوله 1663.

ولأنّ الإصلاح قيمة حميدة؛ فالصالح هو المناسب لأداء الأفعال  
الحسان، فإذا قال صدق فيما قال، وإذا عاهد أوفى، وإذا عمل أحسن  
عمله، ولذلك كان الرجل الصّالح صالحا لأداء الأعمال والأفعال والمواثيق

---

1660 تفسير الرازي، ج 8، ص 458.

1661 تفسير البغوي، إحياء التراث، ج 1، ص 701.

1662 الحجرات 10.

1663 تفسير الطبري، جامع البيان، ج 22، ص 297.

والعهد مع فائق الالتزام التام بالهداية والطاعة لله رب العالمين، قال تعالى: {قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حُجْجٍ فَإِنَّ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} 1664؛ فقلوه: (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) في الوفاء بما عهدت لك يا موسى، أي: في حُسن الصحبة والالتزام بما قلته لك في هذا اليوم ستجده بالتمام إن شاء الله يوم أن تتم الثمانية حُجج، وهذا وعد لا يتمه إلا صالح، ولهذا، قال شعيب لموسى: (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ).

وعليه: فالإصلاح قيمة مرغوبة من الصالحين الراغبين في كسب وراثة الدارين، ومثل هذه الرغبة هي التي جعلت الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام برسالاتهم يرشدون لكل ما من شأنه أن يؤدّي إلى الإصلاح والإعمار والبناء والفلاح؛ فينهون عن كل منكرٍ ويأمرون بكل معروفٍ ويسارعون في عمل الخيرات وهم لها مكثرون، ولذا؛ فمن أراد أن يكون كذلك ليس له بدٌ إلا الإصلاح ما استطاع إليه سبيلا.

ومع أنّ الإصلاح عمل خير ثماره تعود على فاعله، لكن أكثرهم لا يفقهون وأكثرهم مفسدون ومنافقون ومجرمون وضالون وكاذبون؛ فمنهم من يعجبك قوله ولكنّه من ألدّ الخصام مصداقا لقوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ  
بِالْعِبَادِ {1665}.

ولأنَّ الله تعالى لا يُحب الفساد في الأرض، سادت قيمة الإصلاح بين  
المصلحين، وفيها ابتغاء مرضات الله، ولذلك؛ فمن يتولَّى أمر النَّاس وهو  
مفسد لن يكون رحيمًا بهم، ولا بالبلاد قرارًا وتنفيذًا وسياسة واقتصادًا،  
ولذلك فتورث الحكم للمفسدين فيها مفسدة، أمَّا المصلحون؛ فلا يورثون.

المصلحون وحدهم المتيقنون بأنَّ الأمر بين النَّاس يجب أن يكون  
شورى حيث لا إكراه في الدين، أي: بما أنَّ الدين العظيم لا إكراه فيه؛  
فكيف يتمُّ القبول بالإكراه في ممارسة السلطة وحكم البلاد والعباد فيها  
كرها!

قال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ  
بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ  
فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} {1666}.

وقال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ  
تُزَكَّوْنَ} {1667}.

ومن ثم؛ فالإصلاح قيمة حميدة بين النَّاس يعيد العلاقات بينهم بعد  
انقطاع أو قطيعة، وبه تُصلح الأرض بعد إفسادٍ فيها، وبه يُصلح البناء  
ويُعمَّر بعد خرابٍ أو فساد، ذلك لأنَّ الإصلاح قيمة بنائية تُمكن من بلوغ  
مستهدفات وغايات مشتركة بين الأنا والآخر، وتُمكن من إعادة المفقود  
وتنقله من الوهن إلى الفؤة.

---

1665 البقرة 204 . 207.

1666 الحجرات 9.

1667 الحجرات 10.

ومن هنا؛ فالإصلاح صفة المصلحين في الأرض الذين يتقون الله؛ فينتهون بنهيه، ويتجنبون ما أمر بتجنبه، ويجرمون ما حرّمه، ويقدمون على أداء ما أمر بأدائه، ويتعظون بمواعظه، ويقنطون بأبنيائه أسوة حسنة، ويتذكّرون ما قصّ عليهم من قصص؛ فيتدبّرون أمورهم، ولا يغفلون عمّا في أنفسهم من علة ليغيروها إلى ما هو أحسن وأفيد، ثمّ يستهدفون الآخرين بالتغيير، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} 1668.

وعليه؛ فإنّ الإصلاح استقامة وسلامة من العيوب وزوال العداوة والخصومة والشقاق، وبذلك؛ فالصالح هو: من يكون مهتديا في حياته وممّاته ويوم بعثه؛ فيكون لمن بعده أسوة لمن يريد اتعاظا. وبذلك يكون العمل الصّالح في مرضاة الله تعالى، والعمل غير الصّالح هو العمل الفاسد الذي يجعل مرتكبيه في دائرة غضب الله. قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 1669.

فتح مكة:

عن جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنِ جَابِرٍ: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَرَجَ إِلَى مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ (يريد بالفتح فتح مكة وذلك في السنة الثامنة من الهجرة) فِي رَمَضَانَ فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ كُرَاعَ الْعَمِيمِ وَهِيَ مَوْضِعٌ بِالْحِجَازِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ؛ فَصَامَ النَّاسُ مَعَهُ فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ النَّاسَ

1668 الرعد 11.

1669 البقرة 25.



قَدْ شَقَّ عَلَيْهِمُ الصِّيَامُ فَدَعَا بِقَدْحٍ مِنْ مَاءٍ بَعْدَ الْعَصْرِ فَشَرِبَ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ فَأَفْطَرَ بَعْضُ النَّاسِ وَصَامَ بَعْضٌ؛ فَبَلَغَهُ أَنَّ نَاسًا صَامُوا فَقَالَ: «أَوْلَاكَ الْعُصَاةُ» (هذا الحديث يقوي مذهب الأكثرين القائل بترجيح الصيام في السفر إلا إذا كان هناك مشقة أو تضرر فيترجح الفطر؛ فإنَّ الرِّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ عَلِمَ أَنَّ النَّاسَ قَدْ شَقَّ عَلَيْهِمْ شَرِبَ أَمَامَهُمْ وَأَفْطَرَ لِيَفْطَرُوا مِثْلَهُ، وَقَالَ لِمَنْ لَمْ يَتَابِعْهُ فِي فِطْرِهِ: (أَوْلَاكَ الْعُصَاةُ) وَإِنَّمَا سَمَّاهُمْ عِصَاةً لِعَدَمِ فِطْرِهِمْ مَعَ تَضَرُّرِهِمْ بِالصَّوْمِ وَلِأَنَّهُمْ كَانُوا ذَاهِبِينَ إِلَى فَتْحِ مَكَّةَ وَمَجَاهِدَةِ الْأَعْدَاءِ وَهَذَا يَضْعَفُهُمْ وَيَعْرِضُهُمْ لِلْهَزِيمَةِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قَالَ الَّذِي حَدَّثَنِي: "لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْعَرَجِ: يَصُبُّ الْمَاءَ عَلَى رَأْسِهِ مِنَ الْعَطَشِ، أَوْ مِنَ الْحَرِّ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ طَائِفَةً مِنَ النَّاسِ قَدْ صَامُوا حِينَ صُمْتَ، قَالَ: فَلَمَّا كَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْكَدِيدِ: دَعَا بِالْقَدْحِ، فَشَرِبَ، فَأَفْطَرَ النَّاسَ" 1670. ولا يلزم من نعتهم إياهم بالعصاة فساد صومهم وغاية ما أنه خلاف الأفضل والأولى" 1671

قال ابو هريرة: "بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ عَلَى أَحَدِ الْمُجَبَّبَيْنِ، وَبَعَثَ زُبَيْرًا عَلَى الْمُجَبَّبَةِ الْأُخْرَى، وَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ عَلَى الْحُسَيْرِ، ثُمَّ رَأَى فَقَالَ: (يَا أَبَا هُرَيْرَةَ) فَقُلْتُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: "اهْتَفِ بِالْأَنْصَارِ، وَلَا تَأْتِنِي إِلَّا بِالْأَنْصَارِيِّ" قَالَ: فَفَعَلْتُ، ثُمَّ قَالَ: "انظُرُوا فُرَيْشًا وَأَوْبَاشَهُمْ فَاحْصُدُوهُمْ حَصْدًا" قَالَ: فَانْطَلَقْنَا، فَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يُوجِّهُ إِلَيْنَا شَيْئًا، وَمَا مِنَّا أَحَدٌ يُرِيدُ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا أَخَذَهُ، وَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُبِيرَتْ حَضْرَاءُ فُرَيْشٍ، لَا فُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ

1670 موطأ مالك رواية أبي مصعب الزهري، 1، ص 307.

1671 مسند الشافعي، ترتيب السندي، 1، ص 268.

أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ» فَأَلْقَى النَّاسَ سِلَاحَهُمْ، وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ فَبَدَأَ بِالْحَجْرِ فَاسْتَلَمَهُ ثُمَّ طَافَ سَبْعًا، وَصَلَّى حُلْفَ الْمَقَامِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ جَاءَ وَمَعَهُ قَوْسٌ أَخَذَ بِسَيْتِهَا فَجَعَلَ يَطْعُنُ بِهَا فِي عَيْنِ صَنِمٍ مِنْ أَصْنَامِهِمْ وَهُوَ يَقُولُ: {جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} 1672. ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى أَتَى الصَّفَا فَعَلَا مِنْهُ حَتَّى يَرَى الْبَيْتَ، وَجَعَلَ يَحْمَدُ اللَّهَ وَيَدْعُوهُ، وَالْأَنْصَارُ عِنْدَهُ يَقُولُونَ: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَذْرَكَتُهُ رَغْبَةٌ فِي قَرِينِهِ، وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ وَجَاءَ الْوَحْيُ، وَكَانَ الْحَقُّ إِذَا جَاءَ لَمْ يَخْفَ عَلَيْنَا، فَلَمَّا رَفَعَ الْوَحْيُ قَالَ: "يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، قُلْتُمْ: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَذْرَكَتُهُ رَغْبَةٌ فِي قَرِينِهِ، وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ كَلَّا، فَمَا اسْمِي إِذَا، كَلَّا، إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، الْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ" فَأَقْبَلُوا يَبْكُونَ، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا فُئِنَّا إِلَّا الضَّرْنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِيكُمْ وَيَعْدِرَانِيكُمْ» 1673

عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: "دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَى نَاقَةٍ لِأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ حَتَّى أَنَاخَ بِفِنَاءِ الْكَعْبَةِ فَدَعَا بِعُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ بِالْمِفْتَاحِ، فَجَاءَ بِهِ فَفَتَحَ فَدَخَلَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ وَأَسَامَةُ، وَبِلَالٌ، وَعُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ فَأَجَافُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ مَلِيًّا، ثُمَّ فَتَحُوهُ"، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: "فَبَادَرْتُ النَّاسَ فَوَجَدْتُ بِلَالًا عَلَى الْبَابِ فَقُلْتُ: أَيْنَ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: بَيْنَ الْعَمُودَيْنِ الْمُقَدَّمَيْنِ" 1674

قَالَ أَبُو إِيَّاسٍ: أَنْبَأَنَا، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُعَقَّلٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ قَرَأَ سُورَةَ

1672 الاسراء 81.

1673 مسند أبي داود الطيالسي، 4، ص 189.

1674 السنن الكبرى للبيهقي، 5، ص 256.

الْفَتْحِ "قَالَ: فَقَرَأَ أَبُو إِيَاسٍ، ثُمَّ رَجَعَ، وَقَالَ: لَوْلَا أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَيَّ لَفَرَأْتُ بِهَذَا اللَّحْنِ" 1675

عَنْ مُحَارِبِ بْنِ دِثَارٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ "كَانَ يَتَوَضَّأُ لِكُلِّ صَلَاةٍ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ صَلَّى الصَّلَوَاتِ كُلَّهَا بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ" 1676

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ قَالَ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدُهُ، وَنَصَرَ عَبْدُهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ" 1677.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: "دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ الْكَعْبَةَ، فَأَعْلَقَ عَلَيْهِ الْبَابَ، وَدَخَلَ مَعَهُ الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ، وَعُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ، وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَبِلَالٌ فَلَمَّا خَرَجُوا سَابَقَتْ النَّاسَ فَسَبَقْتُهُمْ فَقُلْتُ لِبِلَالٍ: أَيْنَ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: «بَيْنَ الْعَمُودَيْنِ الْمُقَدَّمَيْنِ حِيَالِ الْجُرْعَةِ» 1678

عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ طَاوُسٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: "إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَامٌ، حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ، حَرَّمَهُ اللَّهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَا أُحِلَّ لِأَحَدٍ فِيهِ الْقَتْلُ غَيْرِي، وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي فِيهِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، وَمَا أُحِلَّ لِي فِيهِ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ النَّهَارِ، فَهُوَ حَرَامٌ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَلَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُحْتَلَى خَلَاهُ، وَلَا يُنْقَرُ صَيْدُهُ، وَلَا تُتَقَطُّ لُقَطَتُهُ إِلَّا

---

1675 مسند أحمد مخرجا، 34، ص 175.

1676 سنن ابن ماجه، 1، ص 170.

1677 مسند أبي داود الطيالسي، 4، ص 27.

1678 مسند أبي داود الطيالسي، 3، ص 380.

لِمُعَرِّفٍ"، قَالَ: فَقَالَ الْعَبَّاسُ: وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ، قَدْ عَلِمَ الَّذِي لَا بَدَّ لَهُمْ مِنْهُ - إِلَّا الْإِذْخِرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا بَدَّ لَهُمْ مِنْهُ، فَإِنَّهُ لِلْقُبُورِ وَالْبُيُوتِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِلَّا الْإِذْخِرَ" 1679

عَنْ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَامَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَهُوَ عَلَى دَرَجِ الْكَعْبَةِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ فَقَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَخَدَّهُ، أَلَا إِنَّ قَتِيلَ الْخَطَا، قَتِيلَ السَّوْطِ وَالْعَصَا فِيهِ مِائَةٌ مِنَ الْإِبِلِ، مِنْهَا أَرْبَعُونَ خَلْفَةً، فِي بُطُونِهَا أَوْلَادُهَا، أَلَا إِنَّ كُلَّ مَأْتَرَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَدِمٌّ تَحْتَ قَدَمِي هَاتَيْنِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ سِدَانَةِ الْبَيْتِ وَسَقَايَةِ الْحَاجِّ، أَلَا إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُهُمَا لِأَهْلِهِمَا كَمَا كَانَا" 1680

عَنْ عُمَرَ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَامَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ: "الْمَرْأَةُ تَرِثُ مِنْ دِيَّةِ زَوْجِهَا وَمَالِهِ، وَهُوَ يَرِثُ مِنْ دِيَّتِهَا وَمَالِهَا، مَا لَمْ يَفْتُلْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَإِذَا قَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ عَمْدًا لَمْ يَرِثْ مِنْ دِيَّتِهِ وَمَالِهِ شَيْئًا، وَإِنْ قَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ خَطَا وَرِثَ مِنْ مَالِهِ وَلَمْ يَرِثْ مِنْ دِيَّتِهِ" 1681

عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله قال: "لما كان فتح مكة أهرأق رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمر، وكسر جزارها، ونهى عن بيعها، وعن بيع الأصنام" 1682.

1679 مسند أحمد ط الرسالة، 4، ص 184.

1680 سنن ابن ماجه، 2، ص 878.

1681 سنن ابن ماجه، 2، ص 914.

1682 الجامع لابن وهب ت رفعت فوزي عبد المطلب، 1، ص 51.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ وَقْدٍ عَنِ النَّحْوِيِّ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ شَهِدَ مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ أَلْفٌ مِنْ  
بَنِي سَلِيمٍ"1683.

عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ طَاوُسٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمَ الْفَتْحِ فَتَحَ مَكَّةَ: "لَا هِجْرَةَ، وَلَكِنْ  
جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ، وَإِذَا اسْتَنْفَرْتُمْ فَأَنْفِرُوا"1684.

وعليه فهناك الكثير من المواعظ الخلقية التي وعظ بها رسول الله  
المسلمين يوم فتح مكة، ولهذا؛ فإنَّ الفتح صفة من صفات محمد مصداقا  
لقوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ  
وَمَا تَأَخَّرَ وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا  
عَظِيمًا}1685

وهنا اختلف في هذا الفتح ما هو؟ ففي البُخاري حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ  
بَشَّارٍ قَالَ حَدَّثَنَا عُندَرٌ قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ سَمِعْتُ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ "إِنَّا  
فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا" قَالَ: الْحُدَيْبِيَّةُ. وَقَالَ جَابِرٌ: مَا كُنَّا نَعُدُّ فَتْحَ مَكَّةَ إِلَّا  
يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: "تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ وَقَدْ كَانَ فَتْحَ مَكَّةَ  
فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ"1686.

وفي كلِّ الأحوال فالفتح الجليل فتح على محمد عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ  
بما مكَّنه من إحداث الثقل من الأُمِّيَّة إلى الإمام بالنبا العظيم؛ فكان نبيا  
مرسلا برسالة الفتح العظيم؛ ففتح بها محمد عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مشارق

---

1683 مسند البزار، البحر الزخار، 11، ص 76.

1684 السنن الكبرى للبيهقي، 9، ص 27.

1685 الفتح 1. 3.

1686 تفسير القرطبي، 16، ص 260.

الأرض ومغارها، أي بصفة الفتح وحجة الفتح كان كل شيء أمام محمد بعد العسر يسرا.

إنه الفتح الذي كثرت فتوحاته باسم الله تعالى. قال الإمام الغزالي: "الفتح هو الذي بعنايته يفتح كل مغلق وبهدايته ينكشف كل مشكل، فتارة يفتح الممالك لأنبياؤه، ويخرجها من أيدي أعدائه، وتارة يرفع الحجاب عن قلوب أوليائه ويفتح لهم الأبواب إلى ملكوت سمائه وجمال كبريائه" 1687.

وقال ابن القيم في نونيته:

وكذلك الفتح من أسمائه والفتح في أوصافه أمران

فتح بحكم وهو شرع إلهنا والفتح بالأقدار فتح ثاني

والرب فتح بدين كليهما عدلا وإحسانا من الرحمن 1688

الفتح اسم من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته الكريمة التي خص بها ذاته العلية، مصداق لقوله تعالى: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} 1689. لا فتح إلا بوجود طرفين يكون أحدهما أقوى حجّة من الآخر حتى يُدعَى من لا حجّة له للذي يمتلك الحجّة الحق، وبالتقاء الطرفين أو اجتماعهما تُبثّ المعلومة الحجّة لدحض المعلومة الخاطئة، وإن لم يتم ذلك موضوعيا ستكون المناصرة من قبل المؤمنين للمعلومة الصائبة ويكون التضاد من الفؤة المناصرة للمعلومة الخاطئة. والذين

---

1687 أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى ي شرح أسماء الله الحسنى. بيروت. دار الكتاب

العلمية، ص 61.

1688 النونية، 2، ص 234.

1689 سبأ، 26.

يؤمنون بالحقّ ويعملون على إحقاقه يُسمّون الفاتحون أي الذين يزيلون الصعاب من الطريق حتى يتم عبور المناصرين والمؤيدين والمؤمنين بالحقّ.

وقوله (ثم يفتح بيننا بالحقّ) أي أن يُمكن الله بعضنا من بعض بالحجّة حيث لا إكراه في الدين، وبالفوّة حيث كسر الاعتداء ومغالبة المعتدين. وفي كل الحالات هو فتح.

في الحالة الأولى: تتم مغالبة الحجّة بالحجّة، حتى يؤمن الناس. وإن أمنوا فقد اهدوا.

وفي الحالة الثانية: إن لم يؤمنوا بالحجة ولم يناصروا المؤمنين العداء فهم أخوة في ظل نظام الدولة المسلمة ولا عدوان عليهم.

وفي الحالة الثالثة: إن أشركوا وأعلنوا العداء لمن أسلم واهتدى للحقّ فقتلهم حقّ حتى يستسلموا للفوّة ويعم السلام بدين السلام.

وقوله: (وهو الفتح العليم) تعني: أنّ الله تعالى هو الفتح الذي لا يصعب عليه شيء فهو الفعّال لما يُريد.

والفتح العليم: تدل على أنّ خالق كل شيء قادر على أن يفتح كل ما ينبغي أن يُفتح ممّا خلق، فهو عليم بأمره وهو يمتلك مفاتيحه ولذا سيكون الفتح دون معاناة فهو القادر لأن يفعل.

وعليه فالفتح هو:

. الذي يمتلك القدرة على الفعل متى شاء دون أن تواجهه مغالبة.

. الفتح هو الغلاب الذي لا يغلبه غالب.

. هو مدلل الصعاب وقاهرها بالفوّة.

. هو فاتح أبواب الرّحمة على عباده.

. هو حاق الحقّ وزاهق الباطل.

. هو القادر بدون تردد على أن يفعل فيفعل.

. هو من يمتلك مفاتيح العلم ومفاتيح الغيب معا.

. هو الله عزّ وجلّ الذي بيده مفاتيح الجنّة فيعطيها لمن آمن وتاب،

ومفاتيح النّار فيعطيها لمن كفر وأشرك.

والفتح: فعل خير، والفتاح فاعل الخيرات الكثيرة والحسان. ولذا فإنّ

الفتح تيسير وتذليل للصعاب والعوائق التي تعترض سبيل الخيّرين من عباده،

والفتاح هو الميسّر للأمر في حالة استعصائه.

والفتاح: هو القائم بالفعل مباشرة دون إنابة عن أحد، وهو أيضا

الذي تصدّر له الأوامر فيقوم بفعل الفتح تنفيذا للأمر الذي يُطاع. ولهذا

فالفتح جهد يُبذل من أجل غاية.

أمّا الفتوح: فهو ذاتي، وهو الذي يهب هبة، دون وسائط أو معاناة

أو جهد يُبذل، وهو القابل لأن يتجسد في الأعمال والأفعال حتى يُحدث

النقلة إلى ما هو أفضل وأنفع وأجود.

والفاتحة: هي الوسيلة المستخدمة والمدخلة في أبواب الخير والرّحمة،

ولهذا فإنّ البسملة هي فاتحة الفاتحة، والفاتحة هي فاتحة الكتاب وهي

المدخلة الرئيسية الممكّنة من دخول الآيات العظام. وهي أيضا المدخلة

بأدبها وراقيها الذوقي لمخاطبة الله تعالى مباشرة في أي دعاء كريم. وهكذا

شهادة الآله إلا الله هي الفاتحة لدخول الإسلام، وهكذا أيضا يُذكر اسم

الله على الذبيحة ليدخل لحمها حلالا على من أسلم فالحمد لله ربّ العالمين

الذي بيده مفاتيح الحياة والممّات فلا يظلم ربّنا أحدا.



ولأنَّ الفتح تمهيد لعمل عظيم. فإنَّ الفتح هو الفاعل للعمل العظيم،  
ولذلك كانت الفتوحات الإسلامية تمهيدا لنشر الإسلام الذي به يُحقَّق الحقُّ  
ويُزهق الباطل.

وعليه أن أردت أن تكون الخليفة فعليك بفعل الآتي:

. أغلق أبواب الشرك تُفتح لك أبواب التوحيد.

. أغلق أبواب الكذب تُفتح لك أبواب الصدق.

. أغلق أبواب العبودية لغير الله تُفتح لك أبواب الحرية.

. أغلق أبواب الظلم تفتح لك أبواب التسامح.

. أغلق أبواب الحرام تُفتح لك أبواب الحلال.

. أغلق أبواب الاتكال على غير الله تُفتح لك أبواب التوكل عليه.

. أغلق أبواب الحسد تُفتح لك أبواب المحبة.

. أغلق أبواب الظن تُفتح لك أبواب اليقين.

. أغلق أبواب الجحود تُفتح لك أبواب الاعتراف والتقدير.

. أغلق أبواب التكبر تفتح لك أبواب التواضع.

. أغلق أبواب الذل تفتح لك أبواب العزة.

. أغلق أبواب الخيانة تُفتح لك أبواب الثقة.

. أغلق أبواب الخوف تُفتح لك أبواب الطمأنينة.

. أغلق أبواب المعصية تُفتح لك أبواب الطاعة.

. أغلق أبواب الشقاء تفتح لك أبواب السعادة.

. أغلق أبواب الشح تُفتح لك أبواب المكارم.

. أغلق أبواب الشر تُفتح لك أبواب الخير.

. أغلق أبواب الرذيلة تُفتح لك أبواب الطهارة.

. أغلق أبواب الحقد تُفتح لك أبواب الرحمة.

. افتح أبواب الرحمة تفتح لك أبواب الجنة.

قال تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا} 1690. قال الشعبي: المقصود بالفتح هو الحديدية حيث أصاب بها ما لم يُصب في غزوة. ووردت في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي وفي تفسير الجلالين: أنها تدل على أن مكة فُتحت عنوة بدون قتال وهذه الآية وعد بفتحها 1691. والذي يهمنا من قوله (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) هو ما تحتويه هذه الآية من تيسير وتمهيد لانتشار الإسلام، ويقصد بفتح مبین: فتحا لا شك فيه في الزمن الحاضر بفتح الحديدية، والمستقبل بفتح مكة وغيرها من المدن والأمصار في المعمورة. ولذلك فمن ينظر إلى ما نحن عليه في زماننا، يتيقن بأنه قول الحق فقد كان فتحا مبينا على العالمين.

وقوله: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) في اعتقادنا أن الذنب الذي تقدم هو الذنب الذي تأخر، حيث لا ذنب للرسول عليه الصلاة والسلام بعد الاضطفاء والتكليف بالرسالة، والذنب الذي تقدم هو ما كان عليه قبل الرسالة، وما تأخر هو ذلك الذنب الذي لم يبق بعد الرسالة، وفي هذا القول تماثل مع ما ينطبق على قوله هو (الأول والآخِر)،

---

1690 الفتح، 1. 3.

1691 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء السادس عشر، ص 260.

أي هو الله لا شريك له فهو هو واحد أحد لا ثاني معه (الأول والآخر) هكذا يكون الحال مع قوله (ما تقدم من ذنبك وما تأخر). أي لا ذنب لمحمد عليه الصلاة والسلام بعد الرسالة فأول الذنب هو آخره.

وقوله (وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا) تدل على أنّ بالإسلام تتمّ النعمة حيث لا ذنب لك يا محمد من بعده وهذه نعمة وهداية حقّ على الصراط المستقيم الذي بالسير على نهجه يتحقّق لك النصر المعزز بقوة العزيز الحكيم.

وعليه فكان الفتح على محمد بالرسالة والفتح على الرسالة بالفتح المبين الذي هو دليل إثبات تشهد عليه الحديبية ومكة وكل مصر من الأمصار التي فتحت والتي ستفتح لا محالة.

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينٍ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّوهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ } 1692. ما يقصده بالتجارة هو الآتي:

. الإيمان بالله تعالى.

. الإيمان برسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

. الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله عزّ وجلّ.

. أن يكون الجهاد بالأموال ثم بالأنفس. والمترتب على هذه التجارة

هو:

. مغفرة الذنوب.

. دخول الجنة التي تجري الأنهار المتنوعة والمتعددة بخيرات أكثر من تحتها، والتي فيها مساكن طيبة في جنات عدن. وهذه الخيرات والجنان هي نتاج الفوز العظيم الذي تحقق للرسول عليه الصلاة والسلام والذين آمنوا معه بما التزموا به من إيمان وطاعة لله وللرسول.

أما قوله (وأخرى تجبونها نصر من الله وفتح قريب) تدل على أن الذين لا يزالون على قيد الحياة سينالون من تجارهم وهي الإيمان والطاعة مكاسب ومغانم كثيرة في حياتهم الدنيا وسيعيشون انتصارات متعددة وكثيرة وفتوحات، تعود عليهم بالفوائد والمنافع الكثيرة، وبهذا فهم كمن يعيش جنتين الأولى في الحياة الأولى، والثانية في الحياة الآخرة.

قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} 1693. الإيمان ليس سهلا كما يظن البعض أنه يتعلق باليقين، ورؤية اليقين ليست سهلة فهي تحتاج للمعلومة الصائبة والدليل والبرهان الثابتين والحجة المطلقة التي تتوحد في الزمن حيث الصلاحية الدائمة، فالعدل على سبيل المثال هو العدل، والظلم هو الظلم سواء في الزمن الماضي أو الحاضر أو المستقبل، ولذا فمن يؤمن بالعدل حق والظلم باطل ستكون حجته باقية عبر الزمن وهذا هو الدليل الإيماني المتضمن للثبات والاستمرارية على الحق الدائم. وعليه لو آمن أهل القرى بالحق الدائم عبر الزمن لكانوا القوة التي لا تقهر ولا تظلم أحدا مما يجعل قلوب الناس تتطلع وتفتح للحق الذي يمتد بالإيمان قوة.

وقوله (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) هذه الآية مثوبة ورحمة تعود على الذين آمنوا، وهم الذين ينالون الأجر في الدارين: رضاء الله

عليهم بتيسير معاشهم وأرزاقهم في حياتهم، ورضاهم عن أنفسهم المطمئنة في الدار الدنيا، ولأجل ذلك فهم يكافؤون بالجنة في الدار الآخرة. ولكن لو راجعنا ما تدل عليه كلمة (لفتحنا) للاحظنا المعنى الاشتراطي الذي تتضمنه والذي يعود على قوله (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا) وذلك لأن كلمة (لو) كلمة احتمالية المعنى وليس يقينية المعنى فهي لا تثبت إلا بالجواب أو الفعل المترتب عليها. ولقد تبين الأمر بالجواب (ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) أي أن أهل القرى لم يُصدقوا الحق الذي جاء به رسل الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم جميعا، فظلموا أنفسهم، فأخذهم الله تعالى بما كانوا يكسبون.

وكانت نتيجة الأخذ بإزالة المعوقين الذين بإزالتهم ذلت الصعاب أمام الفاتحين بالحق بالدعاية والتبشير والهداية للتي هي خير. ولهذا فمن يتمسك بالحق يفتح الله عليه خيرا ومن يتمسك بالباطل ليس له إلا أن يُرهب. مصدقا لقوله تعالى: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} 1694، وقوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} 1695.

قال تعالى: {وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} 1696 هذه الآية جاءت على لسان شعيب عليه الصلاة والسلام، وهو يدعو ربه بأن يفتح بينه ومن آمن معه وبين قومهم الذين هم منهم، ويقال حسب ما ورد في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي "أن شعيب عليه الصلاة والسلام بعثه الله إلى أمتين: أهل مدين

1694 التوبة، 55.

1695 الأنبياء، 18.

1696 الأعراف، 89.

وأصحاب الأيكة"1697. والأمتان الاثنتان هما قومه أي من بني دمه وأصله. ولذلك فللفتح أبعاد محلية وقومية وله أبعاد إنسانية:

البعد المحلي والقومي: أن يُبعث الرُّسل والأنبياء إلى قراهم ومدنهم وشعوبهم وأهلهم فكانت جميع الرسائل السماوية لا تخرج عن هذا البعد المحلي إلا رسالة محمد عليه الصلّاة والسّلام قد جاءت بقضايا جامعة لا مانعة. أما الرسائل التي سبقتها فجميع قضاياها جامعة مانعة، جامعة للقوم أو أهل القرية أو القرى ذات العلاقة، وذلك لأنها تخصهم ولا تعم الآخرين، فهي جاءت لمعالجة قضية معينة أو بعض من القضايا المحلية أو الخاصة. فنوح عليه الصلّاة والسّلام بُعث ليُنذر قومه مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}1698، قال: (قومك) ولم يقل (الناس كافة) وقومك هم الذين تربطك بهم علاقة. ويونس عليه الصلّاة والسّلام بُعث لمائة ألف أو يزيدون هذه قضية جامعة مانعة تجمع القوم الذين بُعث إليهم عددا فقط مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَبَدَأَ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ}1699. ومثل لوط عليه الصلّاة والسّلام الذي بعث لقومه ولقضية الفساد الأخلاقي التي تفشت بينهم. وكذلك شعيب عليه الصلّاة والسّلام الذي بُعث لمعالجة قضية الفساد الاقتصادي التي تفشت بين قومه.

---

1697 القرطبي، الجزء العاشر، ص 250.

1698 نوح، 1.

1699 الصفات، 139 . 148.

وقضية موسى عليه الصلّاة والسّلام مع فرعون وملئه الذي طغى في أرض مصر وأكثر فيها الفساد قال تعالى: {أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} 1700.

أمّا البعد الإنساني: أن تكون الرسالة غير مقتصرة أو خاصة بقوم واحد أو قرية أو مصر من الأمصار بذاته. وهذا الاشتراط جاءت به رسالة الإسلام الخاتمة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 1701 تحتوي هذه الآية الكريمة القضية الجامعة لا المانعة التي ذكرناها في الأسطر السابقة، فهذه القضية لم تكن مقتصرة على قوم أو شعب بعينه ولا تقفل أبوابها في وجه الآخر من يكون فهي المستوعبة للجميع وذلك بفتحها أبوابها أمامهم بدون استثناء. وسميت بالجامعة لا المانعة ذلك لانعدام التخصيص فيها ولا تمنع أحدا من الدخول فيها من يكون ذكرا أو أنثى يهوديا أو مسيحيا أو منتميا لأي دين من الأديان غير السماوية فهي للجميع دون ممانعة.

ولهذا أرسل الله تعالى رسوله محمّد صلوات الله وسلامه عليه إلى الناس كافة. (بشيرا ونذيرا) تعني التبشير بالقول الحقّ ونشره بين الناس حتى يُدركوا الجنّة التي جاء الرّسول ليبشر بها كافة النّاس إن آمنوا. والنذير: هو الرّسول محمّد عليه الصلّاة والسّلام الذي جاء بدين الحقّ ليُنذر بالقرآن عن ارتكاب المظالم والشرك بالله تعالى حيث من أشرك وكفر واقتترف ذنبا ولم يتب فستكون النّار هي مثواه في الآخرة إن لم يؤمن. ولهذا جاء قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} 1702.

---

1700 طه، 24.

1701 سبأ، 28.

1702 الصف، 9.

وعليه كل الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا فاتحين لا لقضايا سياسية بل لقضايا أخلاقية واجتماعية واقتصادية وروحية حيث لا طمع لهم في مصلحة أو منفعة خاصة سواء الذين بعثوا إلى الخاصة أو الذي بُعث للكافة. وهؤلاء هم الأنموذج الأمثل للخليفة في الأرض، لذا فمن يُرد أن يكون خليفة في الأرض فعليه بالاعتداء بما قالوا وبما فعلوا وسلكوا وعليه بالهداية للتي هي أحسن وأقوم. أمّا أولئك الذين لا علاقة لهم بذلك فهم المعرّضون للمساءلة والعقاب.

والفتاح بالإضافة هو الخليفة في الأرض الذي اتخذ رسول الله الكريم صلوات الله وسلامه عليه الأسوة فيما يقول وفيما يعمل ويفعل ويسلك. ولذا فلم ينته التبشير والإنذار بانتهاء الرّسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم بل المعمورة لم تهتد بعد ممّا يستوجب على المؤمنين التبشير بالحقّ قولاً وعملاً وفعلاً وسلوكاً لا سياسة ومخادعة وطمعا شخصانيا في غير مرضاة الله تعالى.

فالفتاح بالإضافة هو المؤمن الذي مثلما يعمل من أجل نفسه يعمل من أجل الآخرين الذين في حاجة للعلم والهداية من أجل القضاء على الجهل، والذين في حاجة للدواء من أجل المعافاة والشفاء، والذين في حاجة للماء من أجل الارتواء، ومن أجل المحرومين من ممارسة حقوقهم وأداء واجباتهم وحمل مسؤولياتهم. وأن يعمل ذلك لا لبلوغ غاية خاصة في نفسه كأن يفوز بمكانة اجتماعية أو سلطة أو ثروة، بل من أجل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل حتى تعم العدالة والتسامح والإخاء بالحقّ في الدار الدنيا، وينجو من التّار ويفوز بالجنتّة في الدار الآخرة. ولذلك فبطبيعة الحال من ينجو ويفوز في الدار الدنيا يفوز بالجنتّة في الدار الآخرة، وهذه لا يُلقّاها إلا خليفة في الأرض.



وعليه فمن أراد أن يفوز بالجنة فعليه بالخليفة ولكي يكون خليفة عليه بالحقّ واتباع القدوة الحسنة حتى تكون القدوة في نفسه وفي روحه إيماناً راسخاً وفي قوله عملاً وفعلاً وسلوكاً نافعا. وبهذه يصبح الخليفة الذي لا يقول إلا الحقّ صادقاً، ولا يعمل إلا مفيداً نافعا، فلا يشرب مُحرّماً، ولا يأكل أموال الناس بالباطل، ولا يقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحقّ، ولا يزيى، ولا يوقد نار الفتنة، ولا يُجَلِّل ما حرّم الله، ولا يعتدي ظلماً وبهتاناً، ولا يركع أو يسجد إلا لله تعالى. يتطهر بالصدقة والزكاة وبالعمل الصالح يؤدّي جميع الفرائض إيماناً تاماً بالله تعالى، يتقدم لأعمال الإحسان وإذا ما أخطأ يُكفّر عن سيئاته، ويتوب إلى الله ربّه ولا يشرك به شيئاً.

ولأنّ الفتح يُستمد من الفتح الأعظم، فعلى العباد ألا يتأخروا عن استمداد هذه الصفة الحسنة منه تعالى، وهذه ليست بمستحيلة فيما أنها صفة فهي قابلة لأن تستمد حتى تتجسد في السلوك والفعل، ولأنها كذلك فالذي خلقه الله عزّ وجلّ في أحسن تقويم هو القادر على استمدادها من مصادرها المكتوبة في الكتاب (اللوح المحفوظ) ومن السنة العملية التي تجسدت في أعمال الرّسول عليه الصلّاة والسّلام وأفعاله الحسان.

وحتى لا يعم اللبس والغموض بعض معاني الكلمات وما تدل عليه من مفاهيم، علينا أن نميز بين الفتح وبين الحرب.

. فالفتح يؤسس على معطيات إنسانية من أجل الهداية والمساواة لا من أجل المغالبة، وهذه المعطيات هي:

. التبشير بالحقّ الذي يقضي على الفساد في الأرض وذلك لأجل البقاء والاستخلاف فيها حتى النهاية. قال تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ} 1703.

. التبشير بالجنة للذين رضوا بأن يكونوا خلفاء في الأرض ولم يرضوا أن يكونوا مع الخوالم عندما تدق ساعات الفتح المبين. قال تعالى: {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 1704. وقال: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} 1705.

. الإنذار بالعيوب والتحريض والعمل على إصلاحها بالتي هي أحسن. قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} 1706.

. الإنذار بالنار في الحياة الآخرة لكل من كذب وتولى أو أقرّف ذنبا أو سفك دما أو أكل مالا حراما أو شهد شهادة زور بهتان بغير حق. قال تعالى: {إِن عَلَيْنَا لِلْهَدَى وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى فَأَنْذَرْتَكُمْ نَارًا تَلْظِي لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى وَسَيَجْنِبُهَا الْأَتْقَى} 1707. وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} 1708 وقال تعالى {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي

---

1704 التوبة، 87، 88.

1705 البقرة، 25.

1706 القصص، 77.

1707 الليل، 12 . 17.

1708 المائدة، 8.

الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ  
جَمِيعًا {1709}.

. إعلان المحبة في الله تعالى والعمل بها لأجل تقوية اللحمة والقضاء  
على التفرقة. قال تعالى: {وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا  
نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا  
وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ  
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ {1710}.

وفي حالة ما إذا أحسَّ المسلمون بخطر على دينهم من أي مصر من  
الأمصار المحيطة بهم كانوا لا يعلنون الحرب ولا يدخلونها إلا إذا كتبت  
عليهم، ولذا فالإحساس بالخطر هو الذي كان يُحْفِزُهُم للفتح الذي من  
معطياته الآتي:

. القضاء على الكفر والشرك بالله تعالى. قال عز وجل: {فَقَاتِلُوا أُمَّةَ  
الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ {1711}.

. إنذار المستهدفين بالفتح وإبلاغهم بموضوعه. قال تعالى: {قُلْ يَا  
أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ  
بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا  
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {1712}.

---

1709 المائدة، 33.

1710 آل عمران، 103.

1711 التوبة، 12.

1712 آل عمران، 63.

. تبشيرهم بالرسالة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 1713.

. تقديم الحجّة التي دعتهم إلى التداعي لمستوجبات الفتح. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً} 1714. وقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 1715.

. التأكيد على الغاية وهي تحقيق السلام بين الناس ليعيشوا إخوة متحابين في الله تعالى. قال عزّ وجلّ: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتُ مُؤْمِنًا} 1716

. استيعاب الأقوام المفتوحة قراهم وأمصارهم دون إكراه في الدين. قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} 1717. يفهم من هذه الآية الكريمة أنه لا غاية شخصية أو طمعا في سلطة أو ثروة من وراء الفتح، بل الغاية من ورائه هي الإيمان والتقوى لله تعالى.

---

1713 آل عمران، 84.

1714 البقرة، 208.

1715 البقرة، 256، 257.

1716 النساء، 94.

1717 الأعراف، 96.

. إعداد الفتوة وإظهارها مع الميل إلى التفاوض الذي يُمكن من دخول  
الأمصار بدون قتال. قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ  
الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ  
يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ  
جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَإِنْ يُرِيدُوا  
أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أُتِدَّكَ بِبَصَرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ} 1718.

. عندما تكون الشعوب تعبد الأصنام شركا بالله تعالى يتخذ المؤمنون  
قرار الفتح ويُقدمون عليه فعلا وسلوكا. قال تعالى: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ  
جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ  
فَعْتُكُمْ شَيْئًا} 1719.

أما الحرب فتؤسس على معطيات المغالبة، والمخادعة والدهاء وتقليب  
الأمور فتعلن الحروب وتشب نيرانها مما يجعلها تؤسس على الآتي:

. السيطرة على مقاليد الفتوة من ثروة ومنجزات مادية.

. التوسع الجغرافي من أجل مستقبل بعيد.

. القضاء على ما يُخيف أو يُنذر بخطر.

. اختلافات فكرية أو ثقافية أو عرقية أو دينية.

. بسط سيادة القوي على الضعيف وجعله في حالة تبعية وقهره  
بالمغالبة.

. الخوف من التحكم في مصادر الحياة كمناخ المياه ومناخ النفط.

---

1718 الأنفال، 60 .62.

1719 الأنفال، 19.

. الحيلولة بين أصحاب القضايا وامتلاكهم لمقاليدهم الفؤة.

وعليه فالفرق كبير بين الفتح الذي تكمن غايات السلم فيه وبين الحرب الذي تظهر غايات الاضطهاد والاستعباد والاستعمار فيه، ولذا فإن الفتح وضوح بالمصادق والحرب غموض بلا حُجَّة، والفتح لا تترتب الأضرار عليه، والحرب والافتتال نيرانها لا تقف إلا بمغالبة وضرر شديد وخسائر مؤلمة وموجعة، وخير مثال على ذلك للمقارنة فتح مكة الذي ثم بسلم دونما أضرار أو خسائر حيث لم توجَّه ضربة واحدة لإنسان فالضربات التي وجهت يوم فتح مكة هي تلك التي بها هُدمت الأصنام وجعلتها دكا تنهاوى بين أيدي الفاتحين وهم يعلنون أن الله واحد أحد لا شريك له وأن المسلمين أخوة وأنه لا إكراه في الدين. أما الحرب فنيرانها تأكل الأخضر واليابس تضر ولا تبقي كما هو الحال في العراق وفلسطين والحرب في جنوب لبنان وفي أفغانستان. أناس يقتلون وتدمر مساكنهم وتهتك أعراضهم، وتسفك دماءهم بغير حق ويهجرون كرها حتى أنهم فقدوا كل شيء فلا حول ولا فؤة إلا بالله.

قال تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {1720}. تُثبت هذه الآية بأن فاتح الرحمة هو الذي بيده مفاتيحها وهو الله عز وجل، وهو الذي إن فتح رحمته (أي رحمة منه) فلا أحد قادر على منع وصولها لمن يُراد لها أن تصله بإرادته تعالى. وإن أراد أن يحجب رحمته عن أحد فلا راحم له غيره، ولذا فهو العزيز الذي إن فتح رحمته على من يشاء يعزه بها كيف يشاء وإن أراد إذلاله فيمسك رحمته عنه فيظل في فاقة إلى أن يرحمه الله العزيز الحكيم، والحكيم: هو الذي يعلم الأسرار من وراء عطائه بفتح أبواب رحمته على من

يشاء، وإغلاقها عنمن يشاء. فهذه أسرار والأسرار هي التي تكمن فيها الحكمة والعلل المفسرة لأسباب العطاء والرحمة ولأسباب الإمساك والمنع.

وفي الحديث الذي أسنده الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر بن العاص، قال: "خرج علينا رسول الله عليه الصلاة والسلام يوماً كالموَدِّع فقال: (أنا محمد النبي الأمي ثلاثة مرات، ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش، وتُجَوِّزُ بي، وعُوفِيَتْ، وعُوفِيَتْ أمتي، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم، فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله، أحلُّوا حلاله وحرِّموا حرامه" 1721.

قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} 1722.

علم الغيب سر نحن لا نعلمه، أبوابه مقفلة ومفاتيحه بيد من يعلم أسرار سبحانه لا إله إلا هو، يعلم ما في البر والبحر، ويعلم متى تسقط الورقة من نبتتها قبل أن تسقط ويعلم الحبة في مكنها كيف تنمو وكيف تمتص غذائها، ومتى تنضج ومتى تجف ومتى تؤكل، ومن الذي سيأكلها بالتحديد، ومتى سيأكلها بالتحديد وأين يأكلها؟ ولذلك فهو علام الغيوب فكل شيء أحصاه وعده عدا، رطب أو يابس أو غيره مما خلق هو الذي يعلمه ويعلم مواقيت نهاياتها مثلما يعلم مواقيت بداياته وإلى ما يصير إليه قبل أن يصير على ما سيصير عليه.

فالغيب أسرار من ورائها حكم، ومع أننا لا نعلم الغيب إلا أننا نعلم به ونؤمن، وللغيب ثلاث معطيات:

---

1721 مسند أحمد، ج 15، ص 198.

1722 الأنعام، 59.

الأولى المعطية المطلقة: وهي لا يعلم الغيب بالمطلق إلا الله، ولذلك كل شيء أحصاه وعده عدا وكل آتية يوم القيامة فردا. قال تعالى: {إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} 1723. ومن علم الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا هو:

. قيام الساعة: قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً} 1724.

. علم الموت: الموت نهاية مجهولة لبداية معلومة، ومع أنّ كل العباد يؤمنون بالموت نهاية لبداية، إلا أنّهم جميعا لا يعلمون متى يموتون بالتحديد الدقيق، ولا يعلمون أين سيموتون بالتحديد، ولا يعلمون كيف سيموتون بالتحديد، ولذا فالجميع ترك هذا الأمر لمن يعلمه ولن ينشغل به إلا إذا ضاقت الدنيا به واشتد عليه الألم قد نجده في حالة انتظار لمتى؟ وأين؟ وكيف؟ قال تعالى: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} 1725.

. العلم الخلقى: فالله وحده يعلم متى تحمل الأنثى، وممن ستحمل، وبما تحمل، وهل ما ستحمله سيكون ذكرا أم أنثى؟ أمّا نحن بني الإنسان فلا نعلم إلا بالحمل إذا ما تم بإذن من الله تعالى، فبعدها تكون المتابعة والرعاية والعناية. قال تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا

---

1723 مريم، 93 . 95.

1724 الأعراف، 187.

1725 لقمان، 34.



تَزَادُ {1726} وقال عز وجل: {وَتَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى} {1727}.

. أمر الروح: الروح التي تنبعث في جسم الكائن الحي أمرها مجهول بالنسبة للبشر الذين خلقهم الله في أحسن تقويم، أما بالنسبة له فأمرها معلوم قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} {1728}.

. أمر الرحمة: فمع أننا نعلم أن الرحمة توهب هبة، إلا أننا لا نعلم على من ستكون الرحمة؟ ومتى ستكون؟ وأين تكون؟ فهذه جميعها تقع في دائرة علم الغيب الذي لا يعلم أمره إلا الله تعالى. ولذا فأمر الغيب يُبشر بها الله عز وجل عباده المؤمنين تبشيرا قال تعالى: {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ} {1729}. وقال تعالى: {كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} {1730}. وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} {1731}.

. أمر العقاب: مع أنّ أمر العقاب أمر معلوم وأنّه حدث ويحدث وسيحدث، إلا أننا لا نعلم كيفيته حتى وإن وقع مصداقا لقوله تعالى: {فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} {1732} هذا الأمر هو حال قوم عاد وثمود، وكذلك أصحاب الأيكة من بعدهم الذين كذبوا

---

1726 الرعد، 8.

1727 الحج، 5.

1728 الإسراء، 85.

1729 التوبة، 21.

1730 الأنعام، 12.

1731 الأنبياء، 107.

1732 النحل، 36.

شعيب فأخذهم عذاب يوم الظلة؛ وهكذا فالعقاب الذي لم يحدث بعد فإننا لن نعلمه ولا نعلم على من سيكون حتى وإن ظننا فإن بعض الظن إثمٌ. ولذلك قال تعالى: {يعلم ما تكتب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبي الدار}1733.

. أمر التواب: بما أن من الناس من يعمل شرا فيعاقب عليه فكذلك من الناس من يعمل خيرا فيثاب عليه بالجزاء الأوفى، قال تعالى: {إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}1734. وقال عز وجل: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ}1735 وقال: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ}1736.

. أمر السماء: المؤمنون يعلمون بأن السماء سيأتي عليها يوم تكون فيه وردة كالدهان، وردة لم تكن حمراء ولا صفراء ولا خضراء بل ستكون بلون الدهان في جماله وروعته. قال تعالى: {فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}1737. ولأن المؤمنين يعلمون من علم الغيب يقينا بأن السماء ستنشق وتصبح وردة كالدهان إلا أنهم لا يعلمون ساعته ولا كلفيته ولا روعته وحسنه.

. الأمر الآتي: كلد مفكر عاقل يعلم علم المستقبل وفقا لانتظامه في الزمان والحركة، ولكن لا أحد يعلم أن ما يتوقعه للمستقبل قد يقع، فبدون شك إن لم يحدث أمر الغيب سيكون غدا الجمعة بما أن اليوم هو الخميس،

---

1733 الرد، 42.

1734 الأعراف، 128.

1735 النساء، 17.

1736 هود، 61.

1737 الرحمن، 37.

وسيسقط المطر غدا بما أن للسحب تكاثف وتلبد بالماء، ولأننا نعلم علم المستقبل فإننا نعلم أننا سنتعلم ونعمل ونتزوج فنبي مسكنا ونسعى دون كل ولا ملل للحصول على العيش الرغيد ومع ذلك نعلم أننا سنموت يقينا وأننا سنجازى على أعمالنا ثوابا أو عقابا ونعلم أن الله غفور رحيم ودود، ولكننا لا نملك مقاليد الأمور ومفاتيح الغيب حتى نضمن بأننا سنتعلم ونعمل ونبي مساكنا لأسرنا المتوقعة وأن الخميس سيأتي غدا ممطرا، وأننا سنجازى كما نحن نتمنى.

. أمر البعث: المؤمنون يعلمون بالبعث كما هم يؤمنون به، ولذا فلو لم يعلموا بأمره ما كانوا مؤمنين به. أمّا المنكرون فلا يعلمون بأمره حتى يفاجؤا به مصداقا لقوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} 1738.

الثانية المعطية الخاصة: إنها معطية الرسل والأنبياء الذين يُوحى لهم ويُنبؤون بما لم يُنبأ الآخرون به، قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مَنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} 1739. وقال تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ} 1740. أي ما أطلعتك عليه بالوحي يا محمد هو من أنباء الغيب، وإلا هل كنت تعلم بأمر زكريا ومريم لو لم أوحى إليك أمر كل منهما؟ ولذا فقله (نوحيه إليك) تعني نُطْلِعُكَ عَلَيْهِ مسلمات وبراهين وُحجج مثبتة ذات دلالة حتى لا يأتيك الظن وتكون على اليقين بالبينة.

1738 الروم، 55، 56.

1739 آل عمران 179.

1740 آل عمران، 44.

ولأن الوحي هو إظهار على علمٍ من علم الغيب فأوحى الله إلى نوح عليه الصلّاة والسّلام أن يصنع الفلك فصنع، وهكذا أوحى إلى يوسف وهود عليهما الصلّاة والسّلام، وأوحى إلى الحواريين أن يؤمنوا به وبرسله فأمنوا، كما أوحى ربك للنحل أن يتخذ من الجبال بيوتا.

قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} 1741 هكذا في حدود التخصيص أوحى الله عزّ وجلّ لمن شاء من خلقه ما شاء.

الثالثة المعطية النسبية: الساعة معطية ومسلمة لا شك في وقوعها بالنسبة للمؤمنين وهؤلاء هم القلة الذين يعلمون بأمرها أما الكفرة والمشركون فلا علم لهم بها، فهم يعلمون بالموت الذي يشاهدونه ولا يؤمنون بالبعث من بعده هؤلاء هم الكثرة، {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 1742 تدل هذه الآية على أنّ بعض الناس وهم ليسوا بأكثرية يعلمون بالساعة مع أنّهم لا يعلمون العلم المطلق الذي يُمكنهم من معرفة الزمان الذي ستقوم فيه. قال تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} 1743 ترشد هذه الآية إلى أن أمر الإحاطة بعلم الله المطلق مقصور عليه، أما ما هو نسبي منه فمفقود وهو بيد عباده مع درجات التفاوت النسبي بين من أوحى إليهم ومن وهب لهم رحمة العلم وأنبأهم بما لا يعلم البعض وبين علم المؤمنين وغير المؤمنين، فقد مكّن الله من يشاء من عباده ممّا يشاء علما ولم يُمكن الجميع من علمه ولهذا قال تعالى: {تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} 1744. وعلى سبيل المثال: أمر انشقاق

---

1741 الجن، 26، 27.

1742 الأعراف، 187.

1743 البقرة، 255.

1744 يوسف، 76.

القمر الذي أنبأنا به الله تعالى في مُنزل كتابه الحكيم فآمنا به بالمطلق قد شهدته غزاة الفضاء بأمهات عيونهم ولذا فهو علم غيب بالنسبة لغير المؤمنين إلى أن تم اكتشافه حقيقة بين أيدي العلماء والباحثة في علوم الفضاء.

وهناك أمر آخر لم يقع بعد والمؤمنون يعلمونه ويؤمنون به يقينا وسيأتي لا محالة إنه اليوم الذي ستكون فيه السماء وردة كالدهان، ومع أننا نعلم هذا اليوم سيأتي يقينا إلا أننا لا نعلم متى سيأتي فهذا الأمر من علم ربّي ونحن لم نؤت من العلم إلا قليلا. فزدنا من علمك علما يا الله حتى نعلم ونحن مؤمنون من علمك الواسع.

وحظ العبد من اسمه الفتح أن يكون كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفقا لما رواه أنس ابن مالك أنه قال: "إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير فطوبى لمن كانت مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل مفاتيح الشر على يديه" 1745.

ولأنّ الله يريد للإنسان أن يكون خليفة له في إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل فلذا ينبغي على العباد أن يفتحوا أبواب العلم للجميع حتى يُسهّموا في نقل النَّاس من الظلمة إلى النُّور، ونقلهم من الفقر إلى الغنى وذلك بغنى النفس حتى تطمئن بعد خوف من فاقة وحاجة، وأن يعملوا على تمكين الفرد والجماعة والمجتمع بكامله من ممارسة حقوقهم وأداء واجباتهم وحمل مسؤولياتهم، والسعي إلى تحويل الأفراد إلى الإنتاج الذي به يُحقّق لهم الوفرة الحلال، وليفتحوا أبواب الزكاة وأبواب الصدقات، وأن يفتحوا أبواب الصحة والمعافاة، وأن يفتحوا أبواب الدين وتيسيره للعباد برأفة ومحبة ومؤاخاة وبأسلوب يشوق المتعطشين إليه وبحجة تلجم أفواه المزايدين والمشرّكين والجهلة دون إكراه، وأن يفتحوا أبواب الاستغفار والتوبة والرّحمة والهداية على

العباد حتى تنعم البشرية بقيم السماء وفضائله وتزداد الرحمة على المستخلفين في الأرض من أبواب الله الواسعة.

الفتّاح هو مالك القدرة والقوة المطلقة الممكنة للفتح متى شاء وكيف شاء، وأينما شاء، فالقادر المطلق هو الذي يفتح ويغلق ما يشاء من أبواب الخير والشر، فلا يمكن أن يتدخل أيّ كان من الخلق مهما وصلت درجة قربته من الله سبحانه وتعالى في أن يغيّر ما أراد الخالق تعالى، فإذا أراد أن يفتح باب العذاب أو العقاب على قوم وفي وقتٍ معين لا يمكن أن يقدر أحد على غلق هذا الباب، قال تعالى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} {1746، وإذا أراد القادر على أن يفتح باب الرحمة على قوم ما فلن يستطيع أي مخلوق أن يغلقه، قال تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {1747، فالعقاب والرحمة يتطلبان قدرة مطلقة لكي تسع كل الخلق وكل زمان ومكان، لذلك فالفتّاح لا بدّ أن يكون قادرا مقتدرا.

وهو القادر أيضا على فتح أبواب العلم لمن يطلبه ويسعى إليه، هذا العلم النافع المفيد الذي يصل بصاحبه إلى أرقى الدرجات، فلا يمكن أن يصل أي إنسان إلى درجة معينة من العلم والمعرفة دون أن يفتح الله له هذا الباب، لأن العلم بحد ذاته نعمة عظيمة من نعم الله علينا ولا يملك النعم إلا خالقها عزّ وجلّ، فلا يأخذ الإنسان الغرور والكبرياء إذا وصل إلى درجات رفيعة من العلم، بل يجب أن يتذكر أن الذي فتح عليه هذه النعمة هو نفسه

---

1746 الأنعام 65.

1747 فاطر 2.

القادر على إمساكها ومنعها عنه، والعلم الحقيقي هو الذي يصل بصاحبه إلى أقصى درجات التواضع والعطاء.

فعلى الخليفة أن يكون فاتحا لأبواب العلم والخير أمام الآخرين على قدر استطاعته وإمكانياته، فلا يبخل بعلمه وعمله على مسلم بل يجب أن يجعل من علمه وعمله رادعا لكل جاهل في أمور دينه ودنياه، فيغلق بذلك أبوابا التخلف والجهل المؤديان لفتح أبواب الكفر والعصيان واتباع العادات التي من شأنها إبعاد الإنسان عن خالقه بالخرافات والأباطيل والمزاعم الكاذبة، وأن يعمل صالحا يرضاه الفتح ليكون خليفة مصلحا وفاعلا للخيرات الحسان.

فخليفة الله في الأرض لا بدّ أن يملك القدرة على فتح كل منافذ الخير والرحمة والعلم في الأرض، وأن يسعى فيها مصلحا بين الناس، فلا يجعل الجهل والكفر يسودان الأمة وتتفشى الأمراض النفسية والاجتماعية بين المسلمين بذلك، من هنا نستطيع أن ندرك أهمية القدرة على نشر الفضائل وفتح أبواب الخير بكل أنواعه، هذه هي الأمة التي أرادها الله للمؤمنين أن تكون، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} {1748}، فلا يمكن أن نكون فتّاحين للخير مبشرين به إلا إذا كان المعروف هو السائد بيننا، ولا يمكن أن نكون مغلقين لكل أبواب الفساد والشر إلا إذا انتهينا عن المنكرات والشرور، لتخرج الأمة سليمة ومعافاة من كل مرض فاسدٍ، وتكون بمثابة درع أمام الكفر والجحود.

الفتّاح ودود، والود من المشاعر التي قد تكون خافية على البعض منا فلا نشعر به إلا متأخرا، وقد لا نستطيع أن نتفهّمه بسهولة ونصل إلى عمقه وخفاياه، فالود من الأحاسيس الراقية التي تتطلب ردا راقيا وساميا عليه، فمن الصعب أن نقابل الود بالجفاء والقسوة والنفور، ولكن للأسف فإننا نجد أن الكثير من الخلق يقابل ود الخالق المطلق بالجفاء والعصيان، مع أنّه الغني عن ودهم لكنه يطلبه منهم، قال تعالى: {وَرَبِّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنَّ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مَنْ بَعْدَكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ} {1749}، من الآية الكريمة السابقة ندرك أن الخالق فتّاحا لباب الود الذي يأتي على هيئة رحمة بالعباد، فالله تعالى يفيض على عباده بالود المتمثل برحمته بهم أجمعين، سواء كان هذا العبد مؤمنا أو عاصيا أو مذنبا، فإذا أراد الودود أن يفتح باب رحمته في وجه أي عبد فلا يملك أحد أن يغلق هذا الباب، لأن الفتّاح بعلمه المطلق يدرك متى وأين وكيف ينزل رحمته بخلقه، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} {1750}، وقال تعالى أيضا: {وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} {1751}، فالفتّاح المطلق هو الودود المطلق الذي يوزّع وده ورحمته وحبه كيفما يشاء عزّ وجلّ.

والخليفة من صفاته أن يكون ودودا بل أن يكون مفتاحا للود والمحبة بين نفسه وخالقها وبين نفسه وبين الناس، فلا يغلق باب الحوار والتسامح مع غيره ممن أخطأ في حقّه، بل هو من ترك بابه مشرّعا أمام غيره ليدخلوا عن طريقه إلى ربّوع الخير والمحبة والأخوة.

---

1749 الأنعام 133.

1750 البقرة 160.

1751 البروج 14 . 16.



ولابدّ لكي ينجح بكسب محبة من حوله أن يكسب محبة وود نفسه أولاً، وهذا لا يستطيع الخليفة الحصول عليه والشعور به إلا إذا وجد طريقه إلى الله تعالى بحبه ووده وطاعته وخضوعه له عزّ وجلّ، فيصل بذلك لأن يجعل من قلبه مفتاحاً للخير والإيثار والتضحية، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ {1752}.

وللخليفة العليم بالإضافة دور كبير يستوجب القيام به قولاً وعملاً وفعلاً وفي كل ذلك عليه مسؤوليات من شأنها أن ترفع درجاته عالياً عند خالقه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ {1753}، فما خصص الله تعالى هذه المكانة للعلماء إلا لأهمية دورهم في فتح أبواب الهداية والدعوة للحقّ بين الناس، فما من خير أو معروف يسود بين الناس إلا ويكون العلم دافعاً له ومحرضاً عليه، وما من طريقة لنشر فضيلة إلا وكان العلم أساسه، ولكن العلم ليس سواءً في الخير والشر، لأن العقل البشري مثلما يكون مفتاحاً للعلم أحياناً يكون بعلمه مفتاحاً للشر والجحود، يقود فيه العلماء الناس إلى الباطل والضلال، كالذين قال فيهم الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا

---

1752 الحشر 9.

1753 فاطر 28.

يَسْتَعْجِلُونَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ {1754،  
فهؤلاء علماء بني إسرائيل جلبوا بعلمهم الهلاك والكفر لشعبهم بالرغم من  
علمهم بالحق والهدى، فالعلم بدون الإيمان والخشوع لا يمكن أن يكون  
مفتاحا للتقدم والرقى بل يكون قفلا على كل حضارة وفوزا وانتصارا.

فطوبى لمن كان علمه فاتحا للخير والحق في وجوه العباد، مغلقا أبواب  
الضلال والفساد والهلاك، هذا العلم الذي أمرنا بالسعي عليه الفتح.

وعليه على الخليفة أن يكون قلبه فتاحا للآتي:

أولا: للأمل:

الأمل بذرة إذا غُرست في الأرض الصالحة أنبتت نفسا صلبة وقوية لا  
تنحني مع الهموم والأحزان، لأنه بوجود الأمل بقدرة الله ورحمته ووده وحلمه  
لا يمكن أن تنغلق أمامنا أبواب الفرج والفرح بنصر الله لنا على أنفسنا وعلى  
من كاد لنا وظلمنا، فالأمل يجعل من القلب مفتاحا للقوة والصبر اللذان  
يرفعان من درجة المؤمن عند الله تعالى.

فإذا تغلغل الأمل في النفس نزع اليأس من هذه النفس، لأنه لا يمكن  
أن يجتمع الأمل واليأس في نفس واحدة، وهناك الكثير من الأمور لا تأتي إلا  
بوجود القوة التي تنبعث في النفس المملوءة بالأمل، فمثلا النصر لا يمكن أن  
يأتي إلا بفتح باب الأمل في الله وفي نصره وتأيبده عز وجل في القلب، قال  
سبحانه وتعالى: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَّوَّابَاتِ الْفِتَّةِ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي  
ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ} {1755، فالآيات الكريمة السابقة تدعونا بشكل  
مضمون إلى إحياء الثقة بالله والأمل بنصره، الذي من شأنه أن يلغي الفرق

---

1754 الشعراء 192 . 206.

1755 آل عمران 13.

في الفؤة والعدد بين الفتتين، ولكي نكون على هذا النحو لابد من فتح باب حب الله ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام في قلوبنا، هذا الحب الذي هو أساس فتح الله لنا باب النصر والفوز على من يعاديننا، والذي نراه اليوم من هزيمة للمسلمين وتصنيفهم من العالم الثالث فمرجه كله لعدم فتح باب المحبة والثقة بالله عز وجل، لذلك فعلى خليفة الله في الأرض أن يكون مليئا بالأمل بقدرة الله ونصره للحق دائما عندها فلن تُغلق في وجهه أبواب النجاح والنصر والرقى، فمن فتح بابا مع الله فتح الله أبوابا من الخير عليه.

ثانيا: فتّاحا للحب:

لا يمكن للمؤمن أن يصل إلى درجة رفيعة عند الله تعالى بدون أن يكون داعيا وفتّاحا لكل باب يأتي منه الحب والود، وهذا الحب إذا أردناه أن يكون في الطريق الحق لابد أن يكون منبعه هو حب الله عز وجل ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام قبل أي حبٍ آخر، لأن من شأن هذا الحب أن يفتح بابا من أبواب الجنة له، فيكون بذلك الحب من الفائزين، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، "أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَعَدَدْتَ لَهَا قَالَ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. قَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ" 1756.

وبالتالي فإن فتح المؤمن الحقيقي باب الحب الصادق لله ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام يجعله محبا لنفسه ولمن حوله، فينغلق قلبه بهذا الحب عن أي شعور بالعدوانية والبغض والحسد لمن حوله، فينأى بذلك عن أي مرض اجتماعي من الممكن أن يصيب الإنسان الفاقد للحب والمودة.

وبالحب الصادق للحياة والخير والأرض والسماء يكون القلب البشري مفتاحا لكثير من المشاعر النبيلة مثل:

---

1756 صحيح مسلم، ج13، ص91.

الرّحمة: التي طالما كانت مطلب الإسلام والرّسول الكريم عليه الصّلاة والسلام، وكانت الرّحمة بمثابة دعوة للمشاركة في الإحساس والتعاطف فيما بي: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى" 1757.

التواضع: من المستحيل أن يسكن الكبر قلبا يفيض بحب الله ورسوله عليه الصّلاة والسلام وجميع المسلمين، فالكبر علامة جحود ومرض يجعل من الإنسان مغلقا على حب ذاته لا يعترف بالحقيقة ويرفض التعايش مع غيره ممن هم أقل منه في المستوى طبعا كما يراهم بغروره، وهذا ما نهانا الله تعالى عن التخلق به لما فيه من خلقٍ ذميم، قال تعالى: {وَلَا تَمْسِرِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} 1758، وقال تعالى أيضا: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْسِرِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} 1759، من الآيتين السابقتين نستنبط مبدا رائعا إذا سار عليه المسلمون فلن نجد معه أي مسلم ذليل مهان ضعيف وهذا المبدأ هو الاعتدال الذي يتمثل في التواضع في الحياة فلا يكون الإنسان ذليلا ولا يكون مغرورا بل واثقا قويا بالحق، لأن من مضار الغرور هو فتح باب الجحود ونكران النعم وغلق العقل عن تقبل الحقيقة.

أمّا التواضع فيجعل من الإنسان مرآة للحقّ تنعكس فيها الصورة الحقيقة دون تشويه أو تزوير فيها، فيكون بذلك قريبا من خالقه عزّ وجلّ ومن نفسه ومع من حوله.

---

1757 صحيح مسلم، ج 12، ص 468.

1758 الإسراء 37.

1759 لفرمان 18.

ثالثا: فتّاحا لسبل التضحية الحقّة:

من أروع صور الإنسانية التي يتجسد فيها الحب الصادق هي التضحية والإيثار، وهي من الأمور التي لا تسهل على أي إنسان، من السهل الدعوة والمناداة بالتضحية كشعور فاضل ونبيل ويجب على المسلم التحلي به، إلا أن تنفيذه يبقى أمر صعب على الكثيرين ممن يواجهون مواقف تتطلب التضحية في سبيل الأحبة، ولكنها تسهل إذا كان القلب فتّاحا لحب الله وحب رسوله الكريم وحب الصالحين، فمن كان حب الخالق مهيمنا على فؤاده كان حب الخالق له مفتاحا للسعادة والنجاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 1760، والتاريخ الإسلامي مليء بالقصص والمواقف التي تتجسد فيها أروع وأنبل صور الإيثار والتضحية، لذلك فقد فتح المستخلفون فيها مشارق الأرض ومغاربها بهذه الأخلاق النبيلة التي تمكنوا بها من فتح القلوب قبل المدن والحصون، فكانوا فاتحين الأبواب الحصينة وفتّاحين للقلوب العاصية والعقول الجاحدة بإذنه تعالى.

وإذا أراد الخليفة أن يكون مستحقا للتحلي بصفات الخالق عزّ وجلّ فلا بدّ أن يكون أولا فاتحا لباب الحوار مع الخالق ومع نفسه ومع من حوله:

أولا: مع الخالق:

من المعروف أن الحوار يكون بين اثنين يتشاركان الحديث والسؤال والإجابة، وتبادل الآراء بينهما، وهذا من الممكن حدوثه من الفتح إذ يخلو الخليفة بنفسه ويتكلم إلى الله يشكو همه ويشكر نعمته ويطلب فرجه وستره

ويسأله الحل والجواب الشافي من كل تعب وحيرة وبالتأكيد فإن الله عز وجل سيفتح قلبه وعقله وسيهديه لما فيه خير، فالخالق قريب من الإنسان يسمعه ويعلم ما به، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} 1761، وقال تعالى أيضا: {قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} 1762، فاليقين بقرب الله منا هو بحد ذاته من شأنه أن يفتح باب الحوار واللجوء إليه لقربه منا.

وقد قال تعالى: {دَعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} 1763 أن لقربه علامات تفتح باب الحوار معه ومن هذه العلامات نزول رحمته بالمستغيث به، فتكون بمثابة ردا شافيا ومرضيا للمؤمن الذي لا يمكن أن يطلبها من غيره، إذن فرحمة الله تعالى بعبده تكون مفتاحا لأن يتابع المؤمن حوارَه ومناجاته مع الرَّحِيمِ المطلق.

وكذلك فإنه يحاور المؤمن التائب بقبول توبته، فيفتح له باب الاستغفار والعودة عما كان فيه، بذلك يمكن أن يستشعر المؤمن برد الخالق على خوفه من عقابه وطلب السماح والمغفرة منه عز وجل، قال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} 1764.

---

1761 البقرة 186.

1762 سبأ 50.

1763 الأعراف 55، 56.

1764 هود 61.

وكذلك أيضا الدعم المعنوي للإنسان، قال تعالى في كتابه الكريم:  
 {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ  
 إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ  
 تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ  
 حَكِيمٌ} 1765، فالسكينة إذا حلت بالنفس البشرية فإنها تفتح أبواب  
 الطمأنينة والثقة والمحبة فيها، ولا يستطيع منحها لها إلا الفتاح عز وجل.

ثانيا: مع نفسه:

لابد أن يترك خليفة الله تعالى باب الحوار مفتوحا دائما مع نفسه،  
 التي قد تحتاج إلى الطمأنينة أحيانا، وإلى العقاب والتوبيخ أحيانا أخرى لما  
 ارتكبه من ذنوب وأخطاء، قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى  
 أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ  
 الرَّحِيمُ} 1766، فالإسراف الذي جاء ذكره في الآية الكريمة السابقة إنما هو  
 الشدة في عقاب النفس ولومها على ما اقترفته من ذنوب وخطايا، لذلك  
 جاءت رحمة الله تعالى بهذه النفس التي تحاورت مع نفسها ووصلت إلى حد  
 التوبيخ والعتاب والندم، هذه النفس البشرية التي تتعرض دائما للزلات  
 والأخطاء بسبب وسوسات الشيطان الرجيم الذي حذرنا منه الله تعالى،  
 وفتح لنا باب العلم بما يضره لنا هذا الشيطان من عداوة وبغضاء في قوله  
 سبحانه وتعالى: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ  
 لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا بَجْدُ  
 أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} 1767، فالشيطان الرجيم توعد الإنسان بالإغواء  
 وزحزحته عن الصراط المستقيم، لذلك انقسم البشر ثلاثة أقسام:

1765 التوبة 40.

1766 الزمر 53.

1767 الأعراف 16، 17.

أ- القسم الأول: من ليس له سلطة عليهم لفؤة إيمانهم وحبهم لله تعالى، قال تعالى: { قَالَ يَا إِيَّايَ مَا لَكَ لَلَّآ تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَّمْ أَكُنْ لِلسُّجْدِ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَآ مَسْنُونٍ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاحِمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَرْبِنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ } 1768، فهؤلاء خلفاء الله تعالى في الأرض فتأحين للخير داعين لحب الله.

ب- الخطاءون: الذين يخضعون لوسوسات الشيطان في أوقات معينة ثم لا يلبثوا أن يندموا على خطئهم ويرجعوا إلى الحق، فيتوبوا إلى الله ويستغفروه، قال تعالى: { وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَأَمَّوْا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَاحِمٌ } 1769، وكذلك قوله تعالى: { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَاحِمٌ } 1770. وقوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } 1771.

ج - أتباع الشيطان: وهم من يطيعونه ويتبعون خطواته، فيملك بذلك الشيطان السلطة عليهم فيأمرهم بالسوء والفساد، قال تعالى: { فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى

1768 الحجر 32 .43.

1769 الأعراف 153.

1770 النور 5.

1771 آل عمران 155.



مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {1772، وكذلك قوله تعالى: {تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} 1773.

ثالثا: مع من حوله:

الإنسان كائن اجتماعي لا يستطيع أن يبقى لوحده في هذه الدنيا، ولذلك تطلب وجوده ضمن مجتمع أن يكون هذا الإنسان محاورا لمن حوله وإلا لأصبح وحيدا رغم كثافة البشر حوله، فلا يستشعر المرء بمن حوله إلا بفتح باب الحوار معهم فيأخذ منهم ويعطي لهم، فيكون بذلك إنسانا إيجابيا ذو قيمة في مجتمعه، لأن من شأن الحوار أن يفتح مئات الأبواب للتفاهم والحلول الصائبة لأصعب المشاكل التي تواجهنا، بالإضافة إلى اتساع ثقافة المرء وإدراكه من هذا التحوار البناء، ومن شأن هذا الأسلوب إذا اتبعه كافة فئات المجتمع أن يفتح أبواب الفائدة والمنفعة لجميع المسلمين، فالأب مثلا عليه أن يكون محاورا جيدا متفهما لطلبات زوجته وأبنائه أيضا، فيكون بذلك فتاحا للثقة بينه وبينهم والمودة والارتباط القوي الذي يجب أن يكون، ويغلق بهذا الأسلوب جميع الطرق المؤدية للانحراف والفساد وغيرهما، وكذلك على المعلم أن يكون محاورا لطلبته ورب العمل لموظفيه وهكذا، ليصبح المجتمع بأكمله متفاهما مترابطا لا ينقصه العلم بفائدة الحوار.

فكم من الأمور الدنيوية من السهل حلها بواسطة الحوار والمناقشة، لأن كل مشكلة من الممكن أن تُحل أو على الأقل تصغر بوجود أسلوب التفاهم والمشاورة والأخذ بالرأي الآخر، ولا يمكن أن نخسر أو نضيع طالما

---

1772 القصص 50.

1773 النحل 63

أننا متكاتفون في الرأي ومتفاهمون، فبذلك نفتح أبواب التبادل النافع بيننا في الرأي والتفكير.

والفتّاح عزّ وجلّ يفتح علينا أبواب الخير لكي نفتح بدورنا أبواب المنفعة والخير لغيرنا، وذلك مثل:

1- في نزول الأمطار المحيية للأرض فتح لباب الخيرات على البشر، قال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } 1774، فمن الآية الكريمة السابقة يفتح الله بابين للخير وهما:

أ. الباب الأوّل: هو باب سد حاجة الإنسان من الطعام، لأنّ في نزول المطر وخروج الزرع فائدة عظيمة تسد حاجة الإنسان من طعام ومن أموال، بالتالي فعلى هذا الإنسان الذي فتح الله عليه هذا الخير أن يفتح هو بدوره هذا الباب على المحتاجين ممن حوله، فلا يبخل بطعامه ولا بماله على الفقراء والمساكين، بل يجب أن يكون فاتحا لباب الصدقات والعطايا، فيعطي ممّا أعطاه الفتّاح، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ } 1775، وكذلك قوله تعالى: { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ يَا

---

1774 الأعراف 57.

1775 البقرة 254.

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ  
النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ  
وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الْكَافِرِينَ {1776، فيكون بذلك قد فتح باب الخير على نفسه أولاً بإتباع  
أوامر الله عزّ وجلّ ونيل رضاه، وافتح باب الخير على غيره ممن هم في حاجة  
وعوز.

والباب الثاني: هو فتح باب التذكرة والعبارة والإدراك لأصحاب العقول  
التي تبحث عن الحقّ، وفي ذلك الخير الكثير، فالإنسان بدون عقل مفتوح  
على الحقّ والهداية فهو أقرب للدواب كما أخبرنا بذلك ربّ العالمين في قوله  
تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ  
اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ  
لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} {1777، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ  
اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} {1778، فالمتأمل في قول الله تعالى والمدرك  
لحقيقة رحمته بالعباد وحبّه لهم فإنه بذلك يفتح باباً للجنة والنعيم الخالد، أما  
من أغلق باب عقله وقلبه عن أوامره وترك نفسه للشيطان يقودها للباطل  
والهلاك فإنه يفتح بذلك باباً للوصول إلى النار.

ونحن ندرك أن مصير الإنسان في الآخرة محصور بين مكانين يوم  
القيامة، وهما إما الجنة وإما النار، ولكن كيف يكون الإنسان فتّاحاً لأحدى  
هذه الأبواب؟

---

1776 البقرة 261 .264.

1777 الأنفال 21 .23.

1778 الأنفال 55.

يكون كذلك بالعمل الذي يسعى في الدنيا به، والذي يحكمه تغلب الخير أو الشر في النفس البشرية المسؤولة عن هذا العمل، فيختلف البشر بذلك في اختيارهم لفتح أي البابين منهما، قال تعالى: {قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} {1779}، وقال تعالى أيضا: {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا تُنزِلَتْ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّعْنَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} {1780}، فالخالق عزّ وجلّ يهداه ورحمته يفتح للعباد باب الجنة والنعيم لهم، ولكن منهم من يتبع الشيطان معرضا بذلك عن أوامره عزّ وجلّ.

## 2- فتح باب العلم لنا:

ليكون هذا الباب بمثابة نور من الله علينا نحتدي به إذا ضللنا الطريق، فالفتّاح إذا فتح على المؤمن باب العلم النافع والمعرفة الصحيحة فذلك لكي يكون هذا الإنسان بدوره داعيا لنبد الجهل الذي يؤدّي للضلال، فيحارب كل ما هو بدع وخرافات ويعمل على نشر الحقّ وسيادة العلم في العقول والقلوب، إذن فالخالق بفتحه هذا الباب فإنه يأمرنا بالأنا نغلقه في وجه أحد، فكل أمور وتفصيل حياتنا بحاجة إلى المعرفة والعلم لكي نكون على دراية كاملة ببواطن الأمور قبل ظواهرها.

1779 البقرة 139.

1780 القصص 51 . 56.

إذن فالفتّاح المطلق هو من يريد بنا الرّحمة والنجاح في الدنيا والآخرة بفتح باب العلم لنا والإدراك والخير والنعم التي لا تعد ولا تحصى وكذلك بفتح باب التوبة والاستغفار والرجوع عن الخطيئة، لذلك على الخليفة أن يتصف بهذه الصفة الكريمة بأن يكون فتّاحاً للخير والمعروف في الأرض ومع من حوله ومع نفسه، قال تعالى: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } {1781}، وقال تعالى: { لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ } {1782}، فلا خير أبداً في عبدٍ يكون مفتاحاً للشر والفساد والرديلة، لأنه بذلك يفتح أبواب جهنم له بإتباعه خطوات الشيطان الذي يأمر بالباطل وبالمفاسد، قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } {1783}، فكيف يكون باب الجنة مفتوحاً لمثل أولئك المفسدين؟

فعلى الخليفة أن يكون معيناً ومساعداً لنفسه أولاً ولغيره ثانياً بالآبتوان عن أن يكون فاتحاً ومفتاحاً للحقيقة التي تصل بالمرء للهداية وإدراك رحمة وحب وعظمة الخالق عزّ وجلّ، وأن يكون فاتحاً لأبواب الجنة التي لا تفتح إلا بالصبر على الحقّ والخير والعمل بهما:

أولاً: الصبر:

1781 آل عمران 110.

1782 آل عمران 113 . 115.

1783 النور 19.

فلا تغلبه الدنيا بل هو الذي يغلبها بفتح الباب بينه وبين الرحمن الرحيم، بذلك فلن تُغلق في وجهه أبواب الجنة، قال تعالى: {وَلَتَبْلُؤُنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} {1784، وكذلك قوله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ} {1785، إذن الصبر أحد مفاتيح الجنة التي تجعل من الإنسان على الأرض مستحقاً لأن يكون خليفةً لله، وأن يكون في الآخرة مستحقاً لجنان الخلد. قال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {1786.

ثانياً: العمل الصالح:

الإنسان في الحياة الدنيا حياته كلها أعمال منذ أول النهار إلى آخره، لأنه يتعرض للتعامل مع غيره فيعطي ويأخذ وهكذا، فالمجتمع قائم على تبادل الأعمال والمنافع بين الناس، ولكن اختلف البشر في نوعية الأعمال التي يتبعونها منهجاً ومسلوكاً لحياتهم، فليست كل الأعمال صالحة وليست كلها فاسدة وهذا ما يحدده إيمان المرء وإخلاصه لله، فكلما زاد الإيمان نتج عن ذلك العمل الصالح الطيب الذي يرضاه الله تعالى، قال عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

1784 البقرة 155 . 157.

1785 آل عمران 142.

1786 النحل 96.

يَحْزُنُونَ} 1787، وأيضا قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 1788، أما من كان عمله سيئا ومفسدا فهو الذي يفتح بيده باب جهنم وبئس المصير، بما عملت أنفسهم وابتعادهم عن الحق الذي أظهره الله لهم، قال تعالى: {إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} 1789.

فالعمل الصالح هو أحد مفاتيح الجنة التي أعدها الله تعالى لهم بعد أن فتح عليهم باب العلم بكيفية الوصول إليه والتمتع بنعيمها الدائم، والأعمال الصالحة التي من الممكن أن تُنجي العبد من الهلاك لا تحصى ولا تعد، مثل بر الوالدين والإنفاق في وجوه الخير، والجهاد في سبيل الله، والقيام بالعبادات على أكمل وجه، وغيرها من الأعمال التي يمكن للمرء أن يقوم بها في الحياة الدنيا فيكسب بها رضا الله ورضا نفسه ورضا الناس، فيفتح الله عليه الخير في الدنيا وفي الآخرة.

ثالثا: حب الله ورسوله عليه الصلاة والسلام:

هذا الحب هو أساس الفتح الصحيح لكل أبواب الجنة، ولا يمكن أن يُفتح أي باب من أبوابها في وجه إنسان إلا بهذا الحب النبيل، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، "أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ لَهُ

1787 البقرة 62.

1788 النحل 97.

1789 البقرة 94 . 96.

رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا أَعَدَدْتَ لَهَا قَالَ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَ  
أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ"1790، فسر جميع مفاتيح الجنة هو إذن كامن في  
هذا الحب الذي لا بد أن يتجسد في الأقوال والأفعال التي تصدر من  
الإنسان نفسه، فلا يمكن أن يدخل الجنة من كان فاقدا لهذا الحب الكبير.

رابعا: إدراك حقيقة الشيطان الرجيم ولعنه:

ومن الممكن أن نصل لهذه الحقيقة بالتأمل في الآية الكريمة الآتية، قال  
تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ  
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ  
أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا  
فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاحْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ  
يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ قَالَ فِيمَا أَعْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ  
الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَا تَنبَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ  
وَلَا بَئِدُ أَكْثَرُهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ  
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ}1791، فرد الشيطان على الخالق عز وجل  
عندما أمره أن يسجد لآدم عليه السلام بقوله: (أنا خير منه) من هذه  
الجملة ندرك مدى حقد الشيطان على بني آدم وتكبره عليه، وحب الانتقام  
منه، فإذا أدرك الإنسان حقيقة هذا الشعور ووصل إلى الإحساس بدرجة  
بغض وحسد الشيطان الرجيم للإنسان الذي كرمه الله تعالى عليه فإنه بذلك  
يكون قد امتلك أحد مفاتيح الجنة الأساسية، لأنه من أدرك هذه الحقيقة  
نأى بنفسه وحماتها من وسوساته، بل وغلب الشيطان وقهره بحب الله  
ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، لأنه من رضي بأن يكون تابعا لعدوه لا  
يستحق جنان الخلد التي أعدها الله وفتحها أمام كل راغب بها ساع إليها،

1790 صحيح مسلم، ج 13، ص 91.

1791 الأعراف 11. 18.



قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا  
حُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } 1792، وقال تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا  
لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ  
أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا مَا  
أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ  
الْمُضِلِّينَ عَضُدًا وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ  
يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا  
وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا } 1793، فحقيقة الشيطان أوضحها لنا الخالق ليفتح  
لنا باب إدراك نيته ورغبته في إلحاق الأذى والضياع والهلاك بنا، ومن أجل  
ذلك يجب أن يكون الخليفة دائم التذكر لهذه الحقيقة المنجية له من العذاب  
وسوء المصير، فلا يكون فاتحاً لذلك الشيطان باباً من الاستماع له واتباع  
أوامره بل عليه أن يغلق كل باب يمكن أن يدخل منه ذلك الشيطان ولا  
سبيل لذلك إلا باللجوء لله، والإخلاص له في العبادة، قال تعالى: { إِذْ قَالَ  
رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي  
فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ  
مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ  
أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ  
فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي  
إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ  
لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } 1794، فالذي يغلق باب  
جهنم هو الإخلاص لله في الحب والعمل.

1792 البقرة 168.

1793 الكهف 50. 53.

1794 ص 71. 83.

## خامسا: العلم النافع:

العلم المفيد النافع هو الذي يجعل من الإنسان فاتحا لأبواب إدراك الخالق في كل شيء، والعلم المقصود هنا ليس هو الوصول إلى أعظم الاختراعات والاكتشافات فقط، بل هو المقرون بالبحث والسعي وراء حقيقة هذا الكون وهذا الخلق، فلا يكتفي بالمعلومات يحشو بها عقله دون تنوير ولكن لابد أن يعن نظره فيما وراء كل شيء، فكم من عالم وصل إلى أرقى الدرجات في العلم الحديث لكنه بالرغم من ذلك مازال جاهلا بأمور نفسه وما ينفعها، ولأنّ على عاتق العلماء رسالة عظيمة يجب عليهم أن يؤدوا ما فيها على أحسن فهم مكلفون بها، إذ أنهم بالعلم يكونوا فاتحين لباب المعرفة والحقيقة أمام الكثير من العباد الذين ما يزالون يجهلون ما لهم وما عليهم من أمور دينهم وديناهم، فبالعلم النافع لا يمكن أن يبقى أي باب مغلق في وجه الإنسان فلا يتخبط هنا وهناك ليس يدري أي الطرق هي الأصح، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"1795، فمن شأن العلماء أن يكونوا فاتحين أو مضلين، إذ أن العالم الحق يجب أن يكون خليفة الله في الأرض يسعى بالإصلاح والإعمار ولا يمكن أن يتمكن من ذلك ومن حوله يغرقون في ظلمات الجهل والضلال، بل عليه أن يبدأ بفتح الأبواب واحدا تلو الآخر حسب إمكانياته، لكي يرقى بمجتمعه إلى أعلى درجات الإيمان الصادق الصحيح الخالي من الخرافات والأباطيل التي أدخلها الجهلة في ديننا، فأغلقت الباب بينهم وبين الوصول للحق واليقين.

---

1795 صحيح بخاري، ج1، ص176.

ولكي يفتح العلماء هذه الأبواب لابد أن يفتح الله عليهم أولاً السبل  
لذلك، ولكن كيف يفتح الله عليهم هذه السبل؟

بتقرب العلماء إلى الله أولاً، فلا يأخذهم الكبر والغرور عن ذلك، فلا  
خير في علم لا يرويه الإيمان، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ  
إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} {1796}، فلا يقف على حدود هذه الخشية إلا من  
امتلك العلم الكافي بما يستحقه هذا الخالق من خشية وحب، ففتح له  
الفتاح المطلق باباً للهداية والنجاح، ولا يدخل مع خلفاء الله في الأرض من  
كان جاهلاً بأمور دينه ودنياه، فقد فرّق الله بين من يعلم وبين من لا يعلم  
في كثير من الآيات القرآنية الكريمة، حيث كان العلم الفيصل بين من  
يستحقون فتح باب الجنة لهم وبين من يستحقون فتح باب جهنم لهم، قال  
تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ  
اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَمَنْ  
النَّاسُ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ  
آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ  
مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ  
قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ  
لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْزِلْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ  
وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ  
قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ  
يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا  
مُهْتَدِينَ} {1797}، فمن الآيات السابقة نصل إلى نتائج مهمة وحقائق  
عديدة لأصحاب العقول الصحيحة منها:

---

1796 فاطر 28.

1797 البقرة 6. 16.

أ - إن الله تعالى بعلمه المطلق والمسبق بعباده أدرك أنه من عباده من أغلق على نفسه باب الجهل والكفر، ويرفض أي إشارة للهداية والصلاح.

ب - بعث الرُّسل والأنبياء أكبر دليل على أن الخالق عزّ وجلّ هو الفَتَّاح المطلق لعباده، فهو ببعثه لهم فإنه يفتح لعباده أبوابا من الهداية والنصح والرشاد، ويبقى بعد ذلك اختيار الإنسان نفسه لأي باب سوف يتجه.

ج - هناك بعض الأمراض التي تصيب الروح فتغلق باب العلاج في وجه المصلحين، كالكفر والنفاق والعصيان والجحود والغرور وغيرها، وكلها أمراض تصيب النفس البشرية بيد صاحبها، لأنه لا حُجَّة لأي إنسان على الله بعد أن أرسل الرُّسل وبعث الأنبياء والمصلحين، ولكن هناك من البشر من رفض الطاعة والهداية ففتح بذلك باب العذاب وسوء المصير بيده، قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} 1798.

د- في سرد هذه القصص والحقائق عبرَ ومواعظ لمن أرادها، فمن شأن النصح والمواعظ أن تفتح بابا للتراجع والعودة للحق.

هـ- نستطيع من هذه الآيات أن نلمس رحمة الفَتَّاح بعباده أجمعين، ذلك من خلال فتح باب النصح والموعظة وإرسال الرُّسل وترك باب العودة والرجوع له مفتوحا.

فعلى الخليفة أن يكون ناصحا ومرشدا بعلمه وبصبره، فلكل إنسان أسلوبه الخاص والمميز له في الصبر والتعامل مع الآخرين، ولا بدّ أن يكون له الأثر الكبير في تغيير النفوس المغلقة بأن يفتح أمامها أبواب المعرفة والحب

والأخوة، ولنا في رسول الله عليه الصلّاة والسّلام أسوة حسنة فكان هو المعلم الذي فتح الله له باب العلم الحقيقي ليعلمه للعالم أجمعين، قال تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّٰ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ} {1799}، فطوبى لمن تلقى هذا العلم عن الرسول الكريم عليه الصلّاة والسّلام، ولمن علّمه لغيره من البشر مؤدياً بذلك أروع رسالة للبشرية وهي فتح باب المعرفة والمودة والنصر، فالمعرفة لا تأتي إلا بالسعي ورائها والجهد في الحصول عليها وفتح العقل أمام الحقيقة الماثلة أمامنا، والمودة لا تسكن النفس البشرية إلا بفتح باب التسامح والرحمة اللذان نستمدهما من رحمة الخالق وتسامحه، وكذلك النصر فلا يمكن أن نتصر في أي شيء مهما صغر دون أن نفتح أبواب القرب من الله تعالى فنكون بذلك خلفاء الله في الأرض كما أرادنا عزّ وجلّ، نعمّرها ونصلحها وننشر الفضيلة والحبّ فيها.

### رُسل رسول الله:

ذكر علماء السير أنّ رسول الله عليه الصلّاة والسّلام بعث عشرة من أصحابه الكرام برسائل إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام.

قال السهيلي: "بَعَثَ كِتَابًا مَعَ دِحْيَةَ بْنِ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيِّ إِلَىٰ قَيْصَرَ، وَبَعَثَ بِشُجَاعِ بْنِ وَهَبِ الْأَسَدِيِّ إِلَىٰ الْمُنْدَرِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شَمْرِ الْعَسَائِيِّ، وَأَنَّهُ بَعَثَ حُنَيْسَ بْنَ حُدَافَةَ السَّهْمِيِّ إِلَىٰ كِسْرَى، وَبَعَثَ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَىٰ الْمُقَوْسِ صَاحِبِ مِصْرَ، وَأَرْسَلَ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ إِلَىٰ الْمُنْدَرِ صَاحِبِ هَجَرَ، وَبَعَثَ سَلِيطَ بْنَ عَمْرٍو إِلَىٰ هَوْدَةَ بْنَ عَلِيٍّ صَاحِبِ الْيَمَامَةِ، وَبَعَثَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ إِلَىٰ مَلِكِ عُمَانَ، وَبَعَثَ عَمْرٍو بْنَ أُمَيَّةَ

الضَّمْرِيَّ إِلَى النَّجَاشِيِّ، فَمَضَوْا لِذَلِكَ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"1800

وهناك من قال أنّ رُسل رسول الله عليه الصّلاة والسّلام 48 رسولا وهم:

- 1- الأقرع بن عبد الله الحميري - رضي الله عنه - إلى ذي مران.
- 2- أبي بن كعب - رضي الله عنه - إلى سعد هذيم.
- 3- جرير بن عبد الله البجلي - رضي الله عنه - إلى ذي الكلاع بن ناكور.
- 4- حاطب بن أبي بلتعة - رضي الله عنه - إلى المقوقس ملك الإسكندرية.
- 5- حسان بن سلمة - رضي الله عنه - مع دحية إلى هرقل ملك الروم.
- 6- الحارث بن عمير الأزدي - رضي الله عنه - إلى صاحب بصرى.
- 7- حريث بن زيد الخير - رضي الله عنه - إلى يُحَنَّة بن رُوْبَة الأيلي.
- 8- حرملة بن حريث - رضي الله عنه - إلى يحنّة بن رُوْبَة الأيلي.
- 9- خالد بن الوليد - رضي الله عنه - إلى أكيدر ملك دومة.
- 10- خالد بن الوليد - رضي الله عنه - أيضًا إلى بني الحارث بن كعب.

---

1800 الآحاد والثاني لابن أبي عاصم، 1، ص 446.

11- دحية بن خليفة الكلبي - رضي الله عنه - إلى هرقل ملك الروم.

12- رفاعة بن زيد الضبيبي - رضي الله عنه - إلى قومه.

13- زياد بن حنظلة - رضي الله عنه - إلى قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر.

14- سليط بن عمرو العامري - رضي الله عنه - إلى هوزة بن علي الحنفي.

15- عمرو بن أمية الضمري - رضي الله عنه - إلى مسيلمة الكذاب.

16- السائب بن العوام - رضي الله عنه - إلى مسيلمة الكذاب.

17- شجاع بن وهب الأسدي - رضي الله عنه - إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك البلقاء.

18- صدى بن عجلان أبو أمامة الباهلي - رضي الله عنه - إلى قومه باهلة.

19- صدي بن عجلان أبو أمامة الباهلي - رضي الله عنه - إلى جبلة بن الأيهم.

20- الصلصل بن شرحبيل - رضي الله عنه - إلى صفوان بن أمية.

21- ضرار بن الأزور الأسدي - رضي الله عنه - إلى الأسود وطليحة.

22- ضرار بن الأزور الأسدي - رضي الله عنه - إلى عوف الزرقاني.

- 23- ظبيان بن مرثد - رضي الله عنه - إلى بني بكر بن وائل.
- 24- عبد الله بن حذافة - رضي الله عنه - إلى كسرى.
- 25- عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي - رضي الله عنه - إلى اليمن.
- 26- عبد الله بن قيس أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - إلى اليمن.
- 27- عبد الله بن عوسجة العرني - رضي الله عنه - إلى سمعان بن عمرو.
- 28- عبد الرحمن بن بديل بن ورقاء الخزاعي - رضي الله عنه - إلى اليمن.
- 29- أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر - رضي الله عنه - إلى البحرين.
- 30- عبيد الله بن عبد الخالق - رضي الله عنه - إلى طاغية الروم.
- 31- العلاء بن الحضرمي - رضي الله عنه - إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين.
- 32- عمرو بن العاص - رضي الله عنه - إلى جيفر بن الجلندي ملك عمان.
- 33- عمرو بن أمية الضمري - رضي الله عنه - إلى النجاشي ملك الحبشة.
- 34- عمرو بن حزم - رضي الله عنه - إلى اليمن.



- 35- عقبة بن عمرو - رضي الله عنه - إلى صنعاء.
- 36- عياش بن أبي ربيعة - رضي الله عنه - إلى اليمن.
- 37- فرات بن حيان - رضي الله عنه - إلى ثمامة بن أثال.
- 38- قدامة بن مظعون - رضي الله عنه - إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين.
- 39- قيس بن نمط - رضي الله عنه - إلى قيس بن عمرو.
- 40- معاذ بن جبل - رضي الله عنه - إلى اليمن.
- 41- مالك بن مرارة - رضي الله عنه - إلى اليمن.
- 42- مالك بن عقبة - رضي الله عنه - إلى اليمن.
- 43- المهاجر بن أمية - رضي الله عنه - إلى الحارث بن عبد كلال الحميري.
- 44- نمير بن خرشة - رضي الله عنه - إلى ثقيف.
- 45- نعيم بن مسعود الأشجعي - رضي الله عنه - إلى ابن ذي اللحية.
- 46- وائلة بن الأسقع - رضي الله عنه - إلى أكيدر ملك دومة.
- 47- وبر بن يحنس الأزدي - رضي الله عنه - إلى داذويه.
- 48- الوليد بن بحر الجرهمي - رضي الله عنه - إلى أقيال اليمن 1801.

## من رسائل النبي:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: "إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا رَجَعَ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ سِتِّ، أَرْسَلَ الرَّسُلَ إِلَى الْمُلُوكِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ إِلَيْهِمْ كُتُبًا، فَقِيلَ لَهُ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْمُلُوكَ لَا يَفْرُؤُونَ كِتَابًا إِلَّا مَخْتُومًا، فَأَتَّخَذَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمَئِذٍ حَاتِمًا مِنْ فِضَّةٍ، فَصَّهَ مِنْهُ، نَفْسُهُ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ: مُحَمَّدَ رَسُولَ اللَّهِ، وَحَتَمَ بِهِ الْكُتُبَ"، فَخَرَجَ سِتَّةَ نَفَرٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ فِي الْمُحَرَّمِ سَنَةَ سَبْعٍ، وَأَصْبَحَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ الْقَوْمِ الَّذِينَ بَعَثَهُ إِلَيْهِمْ، فَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ رضي الله عنه إِلَى النَّجَاشِيِّ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابَيْنِ، يَدْعُوهُ فِي أَحَدِهِمَا إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيَتَلَوُّ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَأَخَذَ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَوَضَعَهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَنَزَلَ مِنْ سَرِيرِهِ فَجَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ تَوَاضِعًا، ثُمَّ أَسْلَمَ وَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ، وَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ آتِيَهُ لِأَتَيْتُهُ، وَكَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِإِجَابَتِهِ وَتَصَدِيقِهِ وَإِسْلَامِهِ عَلَى يَدَيْ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رضي الله عنه - لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَفِي الْكِتَابِ الْآخِرِ، "يَأْمُرُهُ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَنْ يُزَوِّجَهُ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ" - وَكَانَتْ قَدْ هَاجَرَتْ إِلَى أَرْضِ الْحُبَشَةِ مَعَ زَوْجِهَا عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشِ الْأَسَدِيِّ، فَتَنَصَّرَ هُنَاكَ وَمَاتَ - وَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فِي الْكِتَابِ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِمَنْ قَبْلَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَيَحْمِلَهُمْ، فَفَعَلَ، فَزَوَّجَهُ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَصْدَقَ عَنْهُ أَرْبَعِمِائَةَ دِينَارٍ، وَأَمَرَ بِجَهَازِ الْمُسْلِمِينَ وَمَا يُصْلِحُهُمْ، وَحَمَلَهُمْ فِي سَفِينَتَيْنِ مَعَ عَمْرُو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ، وَدَعَا بِحَقِّ مَنْ عَاجَ، فَجَعَلَ فِيهِ كِتَابِي رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَقَالَ: لَنْ تَزَالَ الْحُبَشَةُ بِخَيْرٍ، مَا كَانَ هَذَانِ الْكِتَابَانِ بَيْنَ أَظْهُرِهَا، قَالَ: "وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - دِحْيَةَ بْنَ حَلِيفَةَ الْكَلْبِيَّ - وَهُوَ أَحَدُ السِّتَّةِ - إِلَى قَيْصَرَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ مَعَهُ كِتَابًا، وَأَمَرَهُ

أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى لِيَدْفَعَهُ إِلَى قَيْصَرَ؛ فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرَى إِلَيْهِ، وَهُوَ  
يَوْمَئِذٍ بِحِمَصَ، وَفَيْصَرُ يَوْمَئِذٍ مَاشٍ فِي نَدْرِ كَانَ عَلَيْهِ، إِنْ ظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى  
فَارِسَ أَنْ يَمْشِيَ حَافِيًا مِنْ قُسْطَنْطِينِيَّةَ إِلَى إِبِلِيَاءَ، فَقَرَأَ الْكِتَابَ، وَأَذِنَ لِعُظَمَاءِ  
الرُّومِ فِي دَسْكَرَةِ لَهُ بِحِمَصَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَّاحِ  
وَالرُّشْدِ؟، وَأَنْ يُنَبِّتَ لَكُمْ مُلْكُكُمْ؟ وَتَتَّبِعُونَ مَا قَالَ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ؟،  
فَقَالَتِ الرُّومُ: وَمَا ذَاكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ؟، قَالَ: تَتَّبِعُونَ هَذَا النَّبِيَّ الْعَرَبِيَّ، قَالَ:  
فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمْرِ الْوَحْشِ وَتَنَاحِزُوا وَرَفَعُوا الصَّلِيبَ، فَلَمَّا رَأَى هِرْقُلُ ذَلِكَ  
مِنْهُمْ يَبْسُ مِنْ إِسْلَامِهِمْ، وَخَافَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ وَمُلْكِهِ، فَسَكَّنَهُمْ، ثُمَّ قَالَ:  
إِنَّمَا قُلْتُ لَكُمْ مَا قُلْتُ، أَخْتَبِرُكُمْ لِأَنْظُرَ كَيْفَ صَلَابَتُكُمْ فِي دِينِكُمْ، فَقَدْ  
رَأَيْتُ مِنْكُمْ الَّذِي أُحِبُّ، فَسَجِدُوا لَهُ، قَالَ: "وَبَعَثَ رَسُولَ اللَّهِ - عَلَيْهِ  
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - عَبْدَ اللَّهِ بْنِ خُذَافَةَ السَّهْمِيِّ - وَهُوَ أَحَدُ السِّتَّةِ - إِلَى  
كِسْرَى يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ مَعَهُ كِتَابًا"، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَدَفَعْتُ إِلَيْهِ  
كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَرِئَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَخَذَهُ فَمَرَّقَهُ؛ فَلَمَّا  
بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَالَ: اللَّهُمَّ مَرِّقْ مُلْكَهُ،  
وَكَتَبَ كِسْرَى إِلَى بَادَانَ عَامِلِهِ عَلَى الْيَمَنِ أَنْ ابْعَثْ مِنْ عِنْدِكَ رَجُلَيْنِ  
جَلْدَيْنِ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بِالْحِجَازِ فَلْيَأْتِيَانِي بِحَبْرِهِ، فَبَعَثَ بَادَانُ قَهْرْمَانَهُ  
وَرَجُلًا آخَرَ، وَكَتَبَ مَعَهُمَا كِتَابًا، فَقَدِمَا الْمَدِينَةَ وَفَرَّائِصُهُمَا تُرْعَدُ، فَدَفَعَا  
كِتَابَ بَادَانَ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ "فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ  
وَالسَّلَامُ وَدَعَاهُمَا إِلَى الْإِسْلَامِ، وَقَالَ: ارْجِعَا عَنِّي يَوْمَكُمَا هَذَا حَتَّى تَأْتِيَانِي  
الْعَدَا فَأَخْبِرُكُمَا بِمَا أُرِيدُ؛ فَجَاءَاهُ مِنَ الْعَدَا، فَقَالَ لَهُمَا: "أَبْلِغَا صَاحِبِكُمَا أَنَّ  
رَبِّي قَدْ قَتَلَ رَبَّهُ كِسْرَى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لِسَبْعِ سَاعَاتٍ مَضَتْ مِنْهَا - وَهِيَ  
لَيْلَةُ الثَّلَاثَاءِ لِعَشْرِ لَيَالٍ مَضِينَ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ سَبْعٍ - وَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ  
وَتَعَالَى سَلَطَ عَلَيْهِ ابْنَهُ شَيْرَوَيْهَ فَقَتَلَهُ"، فَرَجَعَا إِلَى بَادَانَ بِذَلِكَ، فَأَسْلَمَ هُوَ  
وَالْأَبْنَاءُ الَّذِينَ بِالْيَمَنِ، قَالَ: "وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -  
حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ اللَّحْمِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ أَحَدُ السِّتَّةِ - إِلَى

الْمُتَّقِينَ صَاحِبِ الْإِسْكَانِ، عَظِيمِ الْقَبْطِ، يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ  
 مَعَهُ كِتَابًا؛ فَأَوْصَلَ إِلَيْهِ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَقَرَأَهُ  
 وَقَالَ لَهُ حَيْرًا، وَأَخَذَ الْكِتَابَ فَجَعَلَهُ فِي حَقِّ مَنْ عَاجٍ، وَحَتَمَ عَلَيْهِ، وَدَفَعَهُ  
 إِلَى جَارِيَتِهِ، وَكَتَبَ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ نَبِيًّا قَدْ  
 بَقِيَ، وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ يُخْرِجُ بِالشَّامِ، وَقَدْ أَكْرَمْتُ رَسُولَكَ، وَبَعَثْتُ إِلَيْكَ  
 بِجَارِيَتَيْنِ لهُمَا مَكَانٌ عَظِيمٌ فِي الْقَبْطِ، وَقَدْ أَهْدَيْتُ لَكَ كِسْفًا، وَبَعَلَّةً تَرْكَبُهَا،  
 وَمَنْ يَرِدُ عَلَى هَذَا، وَمَنْ يُسَلِّمُ، فَقَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هَدِيَّتَهُ،  
 وَأَخَذَ الْجَارِيَتَيْنِ، مَارِيَةَ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأُخْتَهَا  
 سِيرِينَ، وَبَعَلَّةً بَيْضَاءَ، لَمْ يَكُنْ فِي الْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ غَيْرُهَا، وَهِيَ: دُلْدُلٌ قَالَ  
 حَاطِبٌ: كَانَ لِي مُكْرَمًا فِي الضِّيَافَةِ، وَقَلَّةِ اللَّبَنِ بِبَابِهِ، مَا أَقَمْتُ عِنْدَهُ إِلَّا  
 خَمْسَةَ أَيَّامٍ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ضَنَّ الْحَبِيثُ بِمُلْكِهِ، وَلَا  
 بَقَاءَ لِمُلْكِهِ"، قَالَ: "وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شُجَاعَ بْنَ  
 وَهْبِ الْأَسَدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ أَحَدُ السَّبْتَةِ - إِلَى الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شَمْرٍ  
 الْعَسَايِيٍّ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ مَعَهُ كِتَابًا"، قَالَ شُجَاعٌ: فَأَتَيْتُ إِلَيْهِ  
 وَهُوَ بِعَوَاطِئِ دِمَشْقَ، وَهُوَ مَشْغُولٌ بِتَهْيِئَةِ الْإِنْزَالِ وَالْإِلْطَافِ لِقَيْصَرَ وَهُوَ جَاءَ  
 مِنْ حِمصَ إِلَى إِبِلْيَاءَ، فَأَقَمْتُ عَلَى بَابِهِ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، فَقُلْتُ لِحَاجِبِهِ: إِنِّي  
 رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - إِلَيْهِ، فَقَالَ: لَا تَصِلْ إِلَيْهِ حَتَّى  
 يُخْرِجَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، وَجَعَلَ حَاجِبُهُ - وَكَانَ رُومِيًّا - يَسْأَلُنِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ  
 - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَكُنْتُ أُحَدِّثُهُ عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ  
 الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ فَيَرِقُّ حَتَّى يَغْلِبَهُ الْبُكَاءُ، وَيَقُولُ: إِنِّي قَدْ  
 قَرَأْتُ الْإِنْجِيلَ، فَأَجِدُ صِفَةَ هَذَا النَّبِيِّ بَعَيْنِهِ، فَأَنَا أَوْمَنُ بِهِ وَأُصَدِّقُهُ، وَأَخَافُ  
 مِنَ الْحَارِثِ أَنْ يَقْتُلَنِي، قَالَ شُجَاعٌ: وَكَانَ يُكْرِمُنِي وَيُحْسِنُ ضِيَافَتِي، وَخَرَجَ  
 الْحَارِثُ يَوْمًا، فَجَلَسَ وَوَضَعَ التَّاجَ عَلَى رَأْسِهِ، فَأَذَنَ لِي عَلَيْهِ، فَدَفَعْتُ إِلَيْهِ  
 كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَقَرَأَهُ ثُمَّ رَمَى بِهِ وَقَالَ: مَنْ  
 يُنْتَرَعُ مِنِّي مُلْكِي؟، أَنَا سَائِرٌ إِلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ بِالْيَمَنِ جِئْتُهُ، عَلَيَّ بِالنَّاسِ، فَلَمْ

يَزَلْ يَفْرَضُ حَتَّى قَامَ، وَأَمَرَ بِالْحَيْوَلِ تُنْعَلُ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرْ صَاحِبَكَ مَا تَرَى،  
وَكَتَبَ إِلَى فَيْصَرَ يُخْبِرُهُ خَبْرِي وَمَا عَزَمَ عَلَيْهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ فَيْصَرَ: أَلَا تَسِيرُ  
إِلَيْهِ، وَاللَّهِ عَنْهُ وَوَافِي بَابِلِيَاءَ، فَلَمَّا جَاءَهُ جَوَابُ كِتَابِهِ دَعَانِي فَقَالَ: مَتَى تُرِيدُ  
أَنْ تَخْرُجَ إِلَى صَاحِبِكَ؟، فَقُلْتُ: غَدًا، فَأَمَرَ لِي بِمِائَةِ مِثْقَالٍ ذَهَبٍ، وَوَصَّلَنِي  
حَاجِبُهُ، وَأَمَرَ لِي بِنَفَقَةٍ وَكِسْوَةٍ، وَقَالَ لِي: أَقْرَأْ رَسُولَ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ  
وَالسَّلَامُ - مِنِّي السَّلَامَ، فَقَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -  
فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: "بَادَ مُلْكُهُ" وَأَقْرَأْتُهُ مِنْ حَاجِبِهِ السَّلَامَ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ،  
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "صَدَقَ"، وَمَاتَ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي  
شَمْرٍ عَامَ الْفَتْحِ، قَالَ: وَكَانَ فَرَوَةَ بْنُ عَمْرٍو الْجَدَامِيُّ عَامِلًا لِقَيْصَرَ عَلَى عَمَّانَ  
مِنْ أَرْضِ الْبُلْقَاءِ، فَلَمْ يَكْتُبْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْلَمَ  
فَرَوَةَ، وَكَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِإِسْلَامِهِ وَأَهْدَى لَهُ،  
وَبَعَثَ مِنْ عِنْدِهِ رَسُولًا مِنْ قَوْمِهِ، يُقَالُ لَهُ: مَسْعُودُ بْنُ سَعْدٍ، "فَقَرَأَ رَسُولُ  
اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كِتَابَهُ، وَقَبِلَ هَدِيَّتَهُ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ جَوَابَ كِتَابِهِ،  
وَأَجَازَ مَسْعُودًا بِانْتِنِي عَشْرَةَ أُوقِيَّةً وَنَشًّا - وَذَلِكَ خَمْسِمِائَةَ دِرْهَمٍ - قَالَ:  
وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - سَلِيطَ بْنَ عَمْرٍو الْعَامِرِيَّ -  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ أَحَدُ السِّتَةِ - إِلَى هَوْدَةَ بْنِ عَلِيٍّ الْحَنْفِيَّ يَدْعُوهُ إِلَى  
الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ مَعَهُ كِتَابًا، فَقَدِمَ عَلَيْهِ، فَأَنْزَلَهُ وَحَبَاهُ، وَقَرَأَ كِتَابَ النَّبِيِّ -  
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَرَدَّ رَدًّا دُونَ رَدِّ، وَكَتَبَ إِلَى النَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ  
وَالسَّلَامُ -: مَا أَحْسَنَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ وَأَجْمَلُهُ، وَأَنَا شَاعِرٌ قَوْمِي وَحَطِيبُهُمْ،  
وَالْعَرَبُ تَهَابُ مَكَانِي، فَاجْعَلْ لِي بَعْضَ الْأَمْرِ، أَتَبِعُكَ، وَأَجَازَ سَلِيطَ بْنَ  
عَمْرٍو بِجَائِزَةٍ، وَكَسَاهُ أَثْوَابًا مِنْ نَسِجِ هَجَرَ، فَقَدِمَ بِذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى النَّبِيِّ -  
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَأَخْبَرَهُ عَنْهُ بِمَا قَالَ، فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ  
وَالسَّلَامُ - كِتَابَهُ، وَقَالَ: لَوْ سَأَلَنِي سَيَابَةُ مِنَ الْأَرْضِ مَا فَعَلْتُ، بَادَ وَبَادَ مَا  
فِي يَدَيْهِ، فَلَمَّا انصَرَفَ مِنْ عَامِ الْفَتْحِ، جَاءَهُ جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ قَدْ مَاتَ،  
قَالَ: وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ - رَضِيَ

الله عنه - فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ ثَمَانٍ إِلَى جَيْفَرٍ، وَعَبْدٍ، ابْنِي الْجُنْدِيِّ - وَهُمَا مِنْ الْأَزْدِ، وَالْمَلِكُ مِنْهُمَا جَيْفَرٌ - يَدْعُوهُمَا إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ مَعَهُ إِلَيْهِمَا كِتَابًا، وَخَتَمَ الْكِتَابَ، قَالَ عَمْرُو: فَلَمَّا قَدِمْتُ عُمَانَ، عَمَدْتُ إِلَى عَبْدِ، وَكَانَ أَحْلَمَ الرَّجُلَيْنِ، وَأَسْهَلَهُمَا حُلْفًا - فَقُلْتُ: إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - إِلَيْكَ وَإِلَى أَخِيكَ، فَقَالَ: أَخِي الْمُقَدَّمُ عَلَيَّ بِالسِّنِّ وَالْمُلْكِ، وَأَنَا أُوصِلُكَ إِلَيْهِ حَتَّى يَقْرَأَ كِتَابَكَ، فَمَكَثْتُ أَيَّامًا بِبَابِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ دَعَانِي فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَدَفَعْتُ إِلَيْهِ الْكِتَابَ مُحْتَمًا، فَفَضَّ خَاتَمَهُ وَقَرَأَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِهِ، ثُمَّ دَفَعَهُ إِلَى أَخِيهِ، فَقَرَأَهُ مِثْلَ قِرَاءَتِهِ، إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ أَحَاهَ أَرْقَ مِنْهُ، فَقَالَ: دَعْنِي يَوْمِي هَذَا، وَارْجِعْ إِلَيَّ غَدًا، فَلَمَّا كَانَ الْعَدُّ رَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: إِنِّي فَكَّرْتُ فِيمَا دَعَوْتَنِي إِلَيْهِ، فَإِذَا أَنَا أضعفُ الْعَرَبِ إِذَا مَلَكَتُ رَجُلًا مَا فِي يَدِي، قُلْتُ: فَإِنِّي خَارِجٌ غَدًا، فَلَمَّا أَيَقَنَ بِمَخْرَجِي، أَصْبَحَ فَأَرْسَلَ إِلَيَّ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَأَجَابَ إِلَى الْإِسْلَامِ هُوَ وَأَخُوهُ جَمِيعًا، وَصَدَّقَا بِالنَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَخَلِيًّا بَيْنِي وَبَيْنَ الصَّدَقَةِ، وَبَيَّنَ الْحُكْمَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَكَانَا لِي عَوْنًا عَلَى مَنْ خَالَفَنِي، فَأَخَذْتُ الصَّدَقَةَ مِنْ أَعْيَانِهِمْ، فَرَدَدْتُهَا فِي قُرَائِهِمْ، فَلَمْ أَرَلْ مُقِيمًا فِيهِمْ، حَتَّى بَلَغْنَا وَفَاةَ رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَالَ: "وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مُنْصَرَفُهُ مِنَ الْجِعْرَانَةِ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى الْمُنْدَرِ بْنِ سَاوَى الْعَبْدِيِّ، وَهُوَ بِالْبَحْرَيْنِ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا، فَكَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِإِسْلَامِهِ وَتَصَدِيقِهِ، وَإِنِّي قَدْ قَرَأْتُ كِتَابَكَ عَلَى أَهْلِ هَجَرَ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَحَبَّ الْإِسْلَامَ وَأَعْجَبَهُ وَدَخَلَ فِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَرِهَهُ، وَبَارِضِي مَجُوسٌ وَيَهُودٌ، فَأَخَذْتُ إِلَيْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرًا، فَكَتَبَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّكَ مَهْمَا تُصْلِحُ، فَلَنْ نَعْزِلَكَ عَنْ عَمَلِكَ، وَمَنْ أَقَامَ عَلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ مَجُوسِيَّةٍ، فَعَلَيْهِ الْجَزِيَّةُ، وَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - إِلَى مَجُوسِ هَجَرَ يَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ، فَإِنْ أَبَوْا، أُخِذَتْ مِنْهُمْ الْجَزِيَّةُ، وَإِلَّا تُنْكَحُ نِسَاؤُهُمْ، وَلَا تُؤْكَلُ

ذَبَائِحُهُمْ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بَعَثَ أَبَا هُرَيْرَةَ مَعَ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ، وَأَوْصَاهُ بِهِ خَيْرًا، وَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لِلْعَلَاءِ فَرَائِضَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالغَنَمِ وَالثَّمَارِ وَالْأَمْوَالِ "فَقَرَأَ الْعَلَاءُ كِتَابَهُ عَلَى النَّاسِ، وَأَخَذَ صَدَقَاتِهِمْ" 1802.

### كتاب الرسول إلى المنذر بن ساوى:

عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِي مِخْلَانَ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى: "مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبَلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَاكُمُ الْمُسْلِمُ، لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ، وَذِمَّةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" 1803

### رسالة الرسول إلى هرقل:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرْقَلِ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَاعِيَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمَ تَسْلَمَ، وَأَسْلِمَ يُؤْتِيكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ" 1804

### رسالته إلى كسرى:

عَنْ عُمَيْرِ بْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: كَتَبَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى كِسْرَى وَقَيْصَرَ، فَأَمَّا كِسْرَى فَقَرَأَ الْكِتَابَ ثُمَّ مَرَّقَهُ، وَأَمَّا قَيْصَرُ فَقَرَأَ الْكِتَابَ،

---

1802 الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، 15، ص 42.

1803 المعجم الكبير للطبراني، 20، ص 355.

1804 مسند أحمد ط الرسالة، 4، ص 201.

وَوَضَعَهُ، وَأَوْمَأَ ابْنُ عَوْنٍ بِيَدِهِ تَحْتَ فِخْذِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:  
"أَمَّا هَؤُلَاءِ فَيَمْرُقُونَ يَعْنِي كَسَرَى، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَسَتَكُونُ لَهُمْ بَقِيَّةٌ" 1805

### رسالته إلى النجاشي:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُنْبَةَ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ  
الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ إِلَى النَّجَاشِيِّ وَنَحْنُ نَحْوُ مِنْ ثَمَانِينَ رَجُلًا، فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ  
مَسْعُودٍ، وَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَرْفُطَةَ، وَعُثْمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ،  
وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، فَأَتَوْا النَّجَاشِيَّ، وَبَعَثَتْ فُرَيْشُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ،  
وَعُمَارَةُ بْنُ الْوَلِيدِ بِهَدِيَّةٍ، فَلَمَّا دَخَلَا عَلَى النَّجَاشِيِّ سَجَدَا ثُمَّ ابْتَدَرَاهُ عَنْ  
يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَا لَهُ: إِنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي عَمَّنَا نَزَلُوا أَرْضَكَ، وَرَغِبُوا عَنَّا  
وَعَنْ مِلَّتِنَا، قَالَ: فَأَيُّنَ هُمْ؟ قَالَا: هُمْ فِي أَرْضِكَ، قَالَ: فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ  
جَعْفَرُ: أَنَا حَطِيبُكُمْ الْيَوْمَ، فَاتَّبِعُوهُ، فَسَلِّمْ وَلَمْ يَسْجُدْ، فَقَالُوا لَهُ: مَا لَكَ لَا  
تَسْجُدُ لِلْمَلِكِ؟ قَالَ: إِنَّا لَا نَسْجُدُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: إِنَّ  
اللَّهَ بَعَثَ فِيْنَا رَسُولًا، وَأَمَرَنَا إِلَّا نَسْجُدَ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ  
وَالزَّكَاةِ، قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: فَإِنَّهُمْ يُخَالِفُونَكَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأُمَّهِ،  
قَالُوا: نَقُولُ: هُوَ كَمَا قَالَ اللَّهُ، قَالُوا: هُوَ كَلِمَةُ اللَّهِ وَرُوحُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ  
الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ الَّتِي لَمْ يَمَسَّهَا بَشَرٌ وَلَمْ يَفْرِضْهَا وَلَدٌ قَالَ: فَرَفَعَ عُوْدًا مِنَ الْأَرْضِ  
ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْحَبَشَةِ وَالْقَسِّيِّينَ وَالرُّهْبَانِ وَاللَّهِ مَا يَزِيدُونَ عَلَيَّ مَا نَقُولُ  
فِيهِ مَا يَسُوِي هَذَا، مَرْحَبًا بِكُمْ وَمِنْ جِئْتُمْ مِنْ عِنْدِهِ، أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ الَّذِي نَحْدُهُ فِي الْإِنْجِيلِ، وَأَنَّهُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى  
ابْنُ مَرْيَمَ، فَاَنْزَلُوا حَيْثُ شِئْتُمْ، وَاللَّهُ لَوْلَا مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْمَلِكِ لَأَتَيْتُهُ، حَتَّى  
أَكُونَ أَنَا الَّذِي أَحْمِلُ نَعْلَيْهِ، وَأَوْضِعُهُ، وَأَمَرَ بِهَدِيَّةِ الْآخَرِينَ فَرُدَّتْ إِلَيْهِمَا، ثُمَّ



تَعَجَّلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَدْرَكَ بَدْرًا، وَرَعِمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ  
وَالسَّلَامُ «اسْتَغْفَرَ لَهُ حِينَ بَلَغَهُ مَوْتُهُ» 1806

### حديث الإسراء:

عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُتِيَ بِالْبُرَاقِ لَيْلَةَ  
أَسْرِي بِهِ مُسْرَجًا مُلْجَمًا لِيَرْكَبَهُ فَاسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: "مَا يَحْمِلُكَ  
عَلَى هَذَا فَوَاللَّهِ مَا رَكِبَكَ أَحَدٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ قَالَ فَارْفُضْ عِرْقًا" 1807

عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَمَّا لِكَ بْنِ  
صَعْصَعَةَ رَجُلٍ مِنْ قَوْمِهِ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: "بَيْنَمَا أَنَا  
عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ إِذْ سَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ: خُذْ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ،  
فَأُوتِيَتْ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا مِنْ مَاءٍ زَمْزَمَ". قَالَ: "فَشَرَحَ صَدْرِي إِلَى كَذَا  
وَكَذَا" قَالَ قَتَادَةُ: قُلْتُ: مَا يَعْنِي بِهِ؟ قَالَ: إِلَى أَسْفَلِ بَطْنِهِ؛ فَاسْتُخْرِجَ قَلْبِي،  
فَعُغْسِلَ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ أُعِيدَ مَكَانَهُ ثُمَّ حُشِيَ إِيمَانًا وَحِكْمَةً، ثُمَّ أُوتِيَتْ بِدَابَّةٍ  
أَبْيَضَ يُقَالُ لَهُ الْبُرَاقُ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَعْلِ، يَقَعُ خُطَاهُ أَقْصَى طَرْفِهِ،  
فَحَمِلَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ انْطَلَقَتْ حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، وَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ:  
مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَبُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ:  
نَعَمْ، فَفُتِحَ لَنَا قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلِنِعْمَ الْمَجِيءُ، فَأَتَيْتُ عَلَى آدَمَ، فَقُلْتُ: يَا  
جِبْرِيلُ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْإِبْنِ  
الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ". قَالَ: "ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ  
فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ: قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ،  
قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَفُتِحَ لَنَا قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلِنِعْمَ الْمَجِيءُ  
جَاءَ، فَأَتَيْتُ عَلَى يَحْيَى، وَعَيْسَى فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذَا؟ قَالَ يَحْيَى،

1806 رسالته إلى النجاشي: سنن سعيد بن منصور، 2، ص 227.

1807 صحيح ابن حبان - محققا، 1، ص 235.

وَعَيْسَى - قَالَ سَعِيدٌ: إِنِّي حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ فِي حَدِيثِهِ: ابْنِي الْحَالَةَ - فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمَا فَقَالَا: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّلَاثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جَبْرِيلُ: قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: فَفُتِحَ لَنَا، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلِنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ قَالَ: فَأَتَيْتُ عَلَى يُوْسُفَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَكَانَ نَحْوُ مَنْ كَلَامِ جَبْرِيلَ وَكَلَامِهِمْ، فَأَتَيْتُ عَلَى إِدْرِيسَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ انْتَهَيْنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَأَتَيْتُ عَلَى هَارُونَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَأَتَيْتُ عَلَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا جَاوَزْتُ بَكَى قَالَ: ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَحَدَّثَ نَبِيُّ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ نَبَقَهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ وَوَرَقَهَا مِثْلُ آذَانِ الْفَيْلَةِ، وَحَدَّثَ نَبِيُّ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ رَأَى أَرْبَعَةَ أَهْمَارٍ يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا نَهْرَانِ ظَاهِرَانِ وَنَهْرَانِ بَاطِنَانِ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ مَا هَذِهِ الْأَهْمَارُ؟ قَالَ: أَمَّا النَّهْرَانِ الْبَاطِنَانِ، فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: فَالنَّيْلُ وَالْفُرَاتُ، ثُمَّ رُفِعَ لَنَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، قُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ إِذَا خَرَجُوا مِنْهَا لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ قَالَ: ثُمَّ أُوتِيَتْ بِإِنَاءَيْنِ أَحَدُهُمَا حَمْرٌ، وَالْآخَرُ لَبَنٌ يُعْرَضَانِ عَلَيَّ، فَاحْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقِيلَ: أَصَبْتَ أَصَابَ اللَّهُ بِكَ أُمَّتَكَ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَفُرِضَتْ عَلَيَّ كُلَّ يَوْمٍ حَمْسُونَ صَلَاةً فَأَقْبَلْتُ بِهِنَّ حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمَا أَمَرْتُ؟ قُلْتُ: بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ إِلَيَّ قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمَعَالَجَةِ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَسَلِّهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ فَرَجَعْتُ، فَحَقَّقَ عَنِّي حَمْسًا فَمَا زِلْتُ أُحْتَلَفُ بَيْنَ رَبِّي وَبَيْنَ مُوسَى يُحْطُّ عَنِّي وَيَقُولُ لِي مِثْلَ مَقَالَتِهِ حَتَّى رَجَعْتُ بِخَمْسِ

صَلَوَاتٍ كُلِّ يَوْمٍ قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ قَدْ بَلَوْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ  
وَعَاجَلْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلَّهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ  
". قَالَ: «لَقَدْ احْتَلَفْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ لِكَيْبِي أَرْضَى وَأُسَلِّمَ،  
فَنُودِيَتْ إِنِّي قَدْ أَجَزْتُ أَوْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَحَقَّقْتُ عَنْ عِبَادِي وَجَعَلْتُ  
بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا" 1808

### حكم قاتل غير قاتله:

أخبرنا إبراهيم بن محمد، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جدّه  
قَالَ: "وُجِدَ فِي قَائِمِ سَيْفِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كِتَابٌ: إِنَّ أَعْدَى  
النَّاسِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْقَاتِلُ غَيْرَ قَاتِلِهِ، وَالضَّارِبُ غَيْرَ ضَارِبِهِ، وَمَنْ  
تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ" 1809

وفي رواية أخرى: عن محمد بن إسحاق قال: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّد  
بْنِ عَلِيٍّ: مَا كَانَ فِي الصَّحِيفَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي قِرَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ: "كَانَ فِيهَا: لَعَنَ اللَّهُ الْقَاتِلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ، وَالضَّارِبَ غَيْرَ ضَارِبِهِ،  
وَمَنْ تَوَلَّى غَيْرَ وُلِيِّ نِعْمَتِهِ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ" 1810

### من أحاديث دعاء النبي:

عن أبو كعب، صاحب الحرير، قال: حَدَّثَنِي شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ، قَالَ:  
قُلْتُ لِأُمِّ سَلَمَةَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، مَا كَانَ أَكْثَرَ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

1808 صحيح ابن خزيمة، 1، ص 153.

1809 مسند الشافعي، ص 198.

1810 مسند الشافعي، ص 198.

وَالسَّلَامُ إِذَا كَانَ عِنْدَكَ؟ قَالَتْ كَانَ أَكْثَرَ دُعَائِهِ: " يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ " 1811

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَائِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَدُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ، وَنَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَوْلَاءِ الْأَرْبَعِ " 1812

عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: كَانَ أَكْثَرَ دُعَائِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمَ عَرَفَةَ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " 1813

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُكْتَبِيِّ، عَنْ طَلِيْقِ بْنِ قَيْسِ الْحَنْفِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: "رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَأَنْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَأَمْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ الْهُدَى لِي، وَأَنْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَعَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَرًا، لَكَ ذِكْرًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مُطِيعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاعْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاسْأَلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي " 1814

عَنْ جَبْرِ بْنِ حَبِيبٍ، عَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا كَانَتْ تُصَلِّي فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَلَيْكَ مِنَ الدُّعَاءِ بِالْكَوَامِلِ الْجَوَامِعِ« فَلَمَّا انصرفت سألته عن ذلك، فقال: "قُولِي اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ

1811 مسند أحمد ط الرسالة، 44، ص 278.

1812 مسند أحمد ط الرسالة، 21، ص 422.

1813 مسند أحمد ط الرسالة، 11، ص 548.

1814 سنن ابن ماجه، 2، ص 1259.

أَعْلَمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا - أَوْ قَرَّبَ مِنْهَا - مِنْ قَوْلٍ أَوْ  
 عَمَلٍ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، اللَّهُمَّ  
 وَأَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،  
 وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذَكَ مِنْهُ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
 وَسَلَّمَ، وَمَا قَضَيْتَ لِي مِنْ قَضَاءٍ - أَوْ قَالَ: مِنْ أَمْرٍ - فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ لِي  
 رَشَدًا" 1815

عَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ  
 الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ يَقُولُ فِي بَعْضِ صَلَاتِهِ: "اللَّهُمَّ حَاسِبِنِي حِسَابًا يَسِيرًا" فَلَمَّا  
 انصَرَفَ، قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَا الْحِسَابُ الْيَسِيرُ؟ قَالَ: "أَنْ يَنْظُرَ فِي كِتَابِهِ  
 فَيَتَجَاوَزَ عَنْهُ، إِنَّهُ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَئِذٍ يَا عَائِشَةُ هَلَكٌ، وَكُلُّ مَا  
 يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ، يُكْفِرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ عَنْهُ، حَتَّى الشُّوْكَةُ تَشُوْكَهُ" 1816

عَنْ حَبِيبِ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ  
 عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ صَلَّى عَلَى جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:  
 "اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ وَاعْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ وَاعْسِلْهُ بِمَاءٍ ثَلَجٍ وَبَرْدِ  
 وَنَقَّهِ مِنَ الدُّنُوبِ وَالْخَطَايَا كَمَا يُنْقَى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ وَأَبْدَلْهُ بِدَارِهِ  
 دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَفِيهِ فِتْنَةُ الْقَبْرِ، وَعَذَابُ  
 النَّارِ" 1817

عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ مَرْثَدٍ، عَنْ أَبِي الرَّبِيعِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ مِنْ  
 دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ،

1815 مسند أبي داود الطيالسي، 3، ص 148.

1816 مسند أحمد ط الرسالة، 40، ص 260.

1817 مسند أبي داود الطيالسي، 2، ص 341.

وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَإِسْرَافِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ  
وَالْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ "1818

عَنْ أَبِي الرَّبِيعِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ  
الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ أَنْ يَقُولَ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدْ قَدَّمْتُ، وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا  
أَسْرَرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ وَإِسْرَافِي مَا لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُكَ أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَالْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ  
إِلَّا أَنْتَ "1819

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ  
وَفُجْأَةِ نِقْمَتِكَ وَجَمِيعِ سَخَطِكَ "1820.

عَنْ حَلِيفَةَ بْنِ حَصِينٍ، عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: كَانَ أَكْثَرَ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ  
الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ بِعَشِيَّةِ عَرَفَةَ: "اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كَالَّذِي نَقُولُ وَخَيْرًا مِمَّا نَقُولُ  
اللَّهُمَّ لَكَ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي وَإِلَيْكَ مَأْبِي، وَلَكَ رَبِّي تَرَائِي اللَّهُمَّ  
إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَوَسْوَاسَةِ الصِّدْرِ وَشَتَاتِ الْأَمْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي  
أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرٍ مَا تَجِيءُ بِهِ الرِّيحُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَجِيءُ بِهِ  
الرِّيحُ "1821

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ، عَنْ سَعِيدِ الْمُقْبَرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُ قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ  
بِكَ مِنْ جَارِ الشُّوْءِ، وَمِنْ زَوْجِ تُشَيْبِي قَبْلَ الْمَشِيبِ، وَمِنْ وَلَدٍ يَكُونُ عَلَيَّ

---

1818 مسند أبي داود الطيالسي، 4، ص 148.

1819 مسند إسحاق بن راهويه، 1، ص 323.

1820 الأدب المفرد بالتعليقات، ص 358.

1821 صحيح ابن خزيمة، 4، ص 264.

رَبًّا، وَمِنْ مَالٍ يَكُونُ عَلَيَّ عَذَابًا، وَمِنْ حَلِيلٍ مَّاكِرٍ عَيْنُهُ تَرَانِي وَقَلْبُهُ تَرَعَانِي  
إِنْ رَأَى حَسَنَةً دَفَنَهَا، وَإِذَا رَأَى سَيِّئَةً أَدَاعَهَا" 1822

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ  
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَقُولَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ الَّتِي ظَلَمْتُهَا عَرْشُكَ،  
وَنُورَهَا وَجْهُكَ، وَحَشْوَهَا رَحْمَتِكَ" 1823

عَنْ عَوْنِ الْعُقَيْلِيِّ، عَنْ مُطَرِّفٍ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: كَانَ مِنْ  
دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَخْطَأْتُ، وَمَا  
عَمَدْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا جَهَلْتُ" 1824

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ  
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ "اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ،  
وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بَرٍّ، وَالْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ، وَالنَّجَاةَ بِعَوْنِكَ مِنْ  
النَّارِ" 1825

عَنْ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ  
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّذِي كَانَ يَقُولُ: "يَا كَائِنًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ، وَالْمُكُونُ  
لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْكَائِنُ بَعْدَمَا لَا يَكُونُ شَيْءٌ، أَسْأَلُكَ بِلِحْظَةٍ مِنْ لِحْظَاتِكَ  
الْحَافِظَاتِ الْعَافِرَاتِ الْوَاجِبَاتِ الْمُنْجِيَاتِ" 1826

---

1822 الدعاء للطبراني، ص 399.

1823 الدعاء للطبراني، ص 425.

1824 المعجم الكبير للطبراني، 18، ص 120.

1825 المستدرک علی الصحیحین للحاکم، 1، ص 706.

1826 الأسماء والصفات للبيهقي، 1، ص 43.

عَنْ ثَابِتِ الْبُنَائِيٍّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَسْأَلُكَ مِنْ فَجْأَةِ الْخَيْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فَجْأَةِ الشَّرِّ" 1827

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَمِنْ تَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَمِنْ فَجْأَةِ نِقْمَتِكَ، وَمِنْ جَمِيعِ سَخَطِكَ وَعِقَابِكَ" 1828

عَنْ أَبِي مَرْزُوقٍ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَارْضَ عَنَّا وَأَدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَنَجِّنَا مِنَ النَّارِ، وَأَصْلِحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ" 1829

عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال: كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفة والغنى" 1830

### وفاة رسول الله:

روى ابن سعد في الطبقات أنه عليه الصلاة والسلام اشتكى يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من صفر سنة إحدى عشرة؛ فاشتكى ثلاث عشرة ليلة، وتوفي يوم الاثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة، ثم روى أنه اشتكى يوم الأربعاء لليلة بقيت من صفر سنة إحدى عشرة وتوفي يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول وكان

---

1827 الدعوات الكبير، 1، ص 364.

1828 الدعوات الكبير، 1، ص 463.

1829 ترتيب الأمالي الخميسية للشجري، 1، ص 321.

1830 مناقب علي لابن المغازلي، ص 483.



عمره ثلاث وستون سنة، ويقال: إنّه بعث وعمره (أربعون) وأقام بمكة بعد البعثة (ثلاث عشرة سنة) وبالمدينة بعد الهجرة (عشر سنين).

قَالَ: ثنا يُوْسُفُ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَأَى مِنْ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَقَّةً، فَاسْتَأْذَنَهُ إِلَى ابْنَةِ حَارِجَةَ، وَكَانَتْ فِي حَوَائِطِ الْأَنْصَارِ، وَكَانَ ذَلِكَ رَاحَةَ الْمَوْتِ وَلَا يَشْعُرُ، فَأَذِنَ لَهُ، ثُمَّ تَوُجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَأَصْبَحَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَجَعَلَ يَرَى النَّاسَ يَتَرَامِسُونَ فَأَمَرَ أَبُو بَكْرٍ غُلَامًا يَتَسَمَّعُ ثُمَّ يُخْبِرُهُ، فَقَالَ: سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ: مَاتَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَدَّ أَبُو بَكْرٍ ظَهْرَهُ وَهُوَ يَقُولُ: واقطع ظهراً، قَالَ: فَلَمَّا بَلَغَ أَبُو بَكْرٍ الْمَسْجِدَ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُ لَا يَبْلُغُ، قَالَ: فَأَرْجَفَ الْمُنَافِقُونَ، فَقَالُوا: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا لَمْ يَمُتْ، فَقَالَ عُمَرُ: لَا أَسْمَعُ أَحَدًا يَقُولُ: مَاتَ مُحَمَّدٌ، إِلَّا ضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ، فَكَفُّوا لِذَلِكَ، فَلَمَّا جَاءَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالتَّيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُسَجَّى كَشَفَ التَّوْبَ وَجَعَلَ يَلْتَمِسُهُ، وَيَقُولُ: يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذَيِّقَكَ الْمَوْتَ مَرَّتَيْنِ، أَنْتَ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ حَرَجَ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَقَدْ مَاتَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ رَبَّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّ رَبَّ مُحَمَّدٍ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، ثُمَّ قَرَأَ { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ } 1831 قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّ لَمْ نَقْرَأْهَا قَبْلَهَا قَطُّ، فَقَالَ النَّاسُ مِثْلَ مَقَالَةِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ كَلَامِهِ وَقِرَاءَتِهِ، قَالَ: وَمَاتَ لَيْلَةَ الْاِثْنَيْنِ فَمَكَثَ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمَئِذٍ وَلَيْلَةَ الثَّلَاثَاءِ وَدُفِنَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ، قَالَ: وَكَانَ أُسَامَةُ بْنُ

زَيْدٍ وَأَوْسُ بْنُ حَوَلِيٍّ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُغَسِّلَانِهِ "1832  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُغَسِّلَانِهِ "1832

فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:  
«مَنْ جَاءَهُمْ مِنَّا، فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ، رَدَدْنَاهُ إِلَيْهِمْ فَعَلِمَ اللَّهُ  
الإِسْلَامَ مِنْ قَلْبِهِ جَعَلَ لَهُ مَخْرَجًا» وَصَاحُوهُ عَلَى أَنَّهُ يَعْتَمِرُ عَلَيْنَا عَامَ قَابِلٍ  
فِي هَذَا الشَّهْرِ، لَا يَدْخُلُ عَلَيْنَا بِحَيْلٍ وَلَا سِلَاحٍ إِلَّا مَا يَحْمِلُ الْمُسَافِرُ فِي  
قَرَابِهِ فَيَثْبُتُوا فِيْنَا ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَعَلَى أَنَّ هَذَا الْهُدْيَ حَيْثُمَا حَبَسْنَاهُ فَهُوَ مَحْلُهُ،  
لَا يُقَدِّمُهُ عَلَيْنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَحْنُ نَسُوقُهُ وَأَنْتُمْ  
تَرُدُّونَ وَجْهَهُ فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ الْهُدْيِ وَسَارَ النَّاسُ.

وَعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: اعْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ  
الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، فَأَبَى أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَدْخُلَهُ مَكَّةَ حَتَّى  
قَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَتَبُوا الْكِتَابَ، كَتَبُوا: هَذَا مَا  
قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالُوا لَا نُقَرُّ بِهَذَا لَوْ نَعْلَمُ  
أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا مَنَعْنَاكَ شَيْئًا، وَلَكِنْ أَنْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «أَنَا  
رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ» وَقَالَ لِعَلِيِّ: "امْحُ: رَسُولُ اللَّهِ قَالَ: لَا  
وَاللَّهِ لَا أَحْوَكُ أَبَدًا فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ الْكِتَابَ، وَلَيْسَ يُحْسِنُ يَكْتُبُ، فَكَتَبَ  
مَكَانَ (رَسُولُ اللَّهِ)، (مُحَمَّدُ)، فَكَتَبَ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ،  
إِلَّا يَدْخُلُ مَكَّةَ السِّلَاحُ إِلَّا السَّيْفَ فِي الْقِرَابِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْ أَهْلِهَا بِأَحَدٍ  
أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَهُ، وَالْأَمْرُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ بِهِ "1833.

1832 الآثار لأبي يوسف، ص 214.

1833 الأموال لابن زنجويه، 1، ص 395.

قال تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} 1834 وقال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} 1835

مات محمد كما مات من قبله الأنبياء عليه وعليهم الصلّاة والسّلام إلا عيسى عليه السّلام فقد رفعه الله إليه رفعا إعجازيا؛ فكان رفعة آية من آيات الله الباقيات.

ومن آيات الله الباقيات توجد علاقة بين الرّسالة النّاسخة والرّسالات والصّحف والكتب والألواح المنسوخة (كون الرّسالات تنسخ بعضها بعضا) ولهذا لا وجود لأيّ منها (هي كما هي) منزّلة من الله تعالى، وهنا تتعدّد الروايات الرّواة عنها دون اتفاق، ولم تبق رسالة باقية (هي كما هي) إلا الرّسالة النّاسخة (الباقية) القرآن الكريم الذي لا اختلاف على تنزيله بالمطلق، قال تعالى: {هُوَ قُرْآنٌ مُّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ} 1836، وقال تعالى: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} 1837

ومن الآيات الباقيات وهي ذات علاقة مباشرة بالآية السّابقة أنّ مقام محمد عليه الصّلاة والسّلام بالمدينة المنورة قد نسخ مقامات الأنبياء كلّها؛ إذ لا وجود لمقام واحد على الأرض متّقف عليه، وهذه آية كونها تظهر العلاقة بين رسالة الكّافة التي نسخت كلّ ما سبقها من الرّسالات، وبين الرّسول الخاتم الذي بالصّلاة والسّلام عليه تكون الصّلاة والسّلام قد لحقت جميع الأنبياء والرّسل، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا

---

1834 النساء 78.

1835 الرحمن 26، 28.

1836 البروج 21، 22.

1837 فصلت 41، 42.

وَنَذِيرًا {1838} وقال تعالى: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا  
وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} {1839}، وقال تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ  
وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ  
وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ  
مُسْلِمُونَ} وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ  
الْحَاسِرِينَ {1840}

وحتى لا يظن البعض أنّ بحثنا قد عمّم قوله بانعدام وجود مقام لأيّ  
نبي في الوقت الذي فيه المقامات تزار في بعض دول العلم نقول: وجب  
علينا استعراض تلك المقامات المشار إليها:

1. النبي آدم: يقال إنّّه دفن في الهند، وله مزارات هناك. وقيل إنّّه في  
مكة. وقيل إنّّه في بيت المقدس، وقيل إنّ مدفن النبي آدم بالعراق في مدينة  
النجف.

2. النبي إدريس: قيل إنّ مقامه في الموصل بالعراق ومع ذلك هناك  
من يقول رفعه الله إليه رفعا.

3. النبي نوح: قيل إنّّه دفن في مسجد الكوفة. وقيل في الجبل الأحمر.  
وقيل في المسجد الحرام، وقبل دفن في مدينة كرك اللبنانية التابعة لمنطقة  
البقاع، والتي سميت تيمنًا باسمه كرك نوح، وقيل في مدينة جزرة الكردية  
التركية التي تشترك في حدودها الشمالية مع جبل جودي الذي رست عليه  
سفينة نوح كما هو معتقد لدى البعض، وجاءت تسمية هذه المدينة بالجزرة؛

---

1838 سبأ 28.

1839 البقرة 285.

1840 آل عمران 84، 85.

لأنّها كانت جزيرة على شكل هلال تقع في منتصف مياه نهر دجلة قبل أن يجف قسم كبير منه، وتمّ تحويل كلمة جزيرة إلى جزرة في العهد العثماني.

4. هود: اختلفت الآراء في مكان دفن سيدنا هود عليه السّلام، فقد قيل أنّه دُفن في مسجدٍ موجود في محافظة حضرموت في اليمن، ويقع هذا المسجد في قرية مهجورة، وقد وجدت الكثير من الآثار القريبة من المسجد بالإضافة إلى النقوش القديمة حول القبر والتي اعتُقد أنّها تخصّ قوم عاد. هناك اعتقاد آخر يقول إنّ قبر النبي هود عليه السّلام يقع بالقرب من بئر زمزم في السعودية، وهناك اعتقاد يفيد أنّ قبر هو عليه السّلام يقع في سورية في محافظة دمشق تحديداً في مسجدٍ موجود في دمشق وقيل أيضاً أنّه يوجد نقش في هذا المسجد يقول: (هذا هو قبر هود).

ومن الآراء الأخرى التي قيلت في هذه المسألة أنّ قبر هود عليه السّلام يقع في العراق في مدينة النجف بجوار قبور أنبياء آخرين وهم نوحٌ وصالحٌ وآدم عليهم السّلام. وفي رأي آخر قيل إنّهُ يقع في مدينة جرش في قرية تسمى (قرية النبي هود) نسبة إليه.

5. النبي صالح: هناك من يزعم أنّ قبره في حضرموت (اليمن). وقيل: إنّ قبره يقع بوادي سر في شمال الكسر وهو وادٍ واسع تصب إليه اودية وجبال كثيرة وفي سفح الجبل الذي باعلاه مكان يقال له (عسنب)، وقول آخر يقول: مقام النبي صالح يقع في المقبرة الإسلامية جنوب مدينة عكا الفلسطينية، وآخرون يقولون: يوجد مقام النبي صالح في جنوب العراق. وكلاهما لا دليل عليه، وأما هي من المواقع التي يخرعها بعض النّاس لجذب النّاس.

6. النبي لوط: يقال أنّ للنبي لوط عليه السّلام قبراً في قرية (صوعر) التي لجأ إليها بعد هلاك قومه. قع مقام النبي لوط (عليه السلام) في الغور

الصافي وهو عبارة عن كهف على سفح جبل يطل على البحر الميت. وهناك من يقول إنّه دفن في مدينة الخليل بفلسطين.

7 . النبي إبراهيم الخليل: يقال إنّه دفن في الخليل (فلسطين). والبعض يقول: ثبت مكان موته ولكن لا تُعرف عين البقعة التي دفن فيها.

8 . النبي إسماعيل: يقال إنّه دُفن بجوار والدته هاجر في مكة، وتتحدّث بعض الروايات أنّ إسماعيل عليه السّلام دفن في الحجر المعروف بحجر إسماعيل بين الرّكن والمقام، والحقيقة أنّه لم تصح تلك الروايات.

9 . النبي إسحاق: يقال: إنّه دفن مع أبيه إبراهيم في الخليل (فلسطين)، ولكن لا دليل قاطع أبداً.

10 . النبي يعقوب: يقال توفي في مصر. وتنفيذاً لوصيته نقله ابنه يوسف إلى الخليل بفلسطين، وهنا لا يقين في هذا الأمر، مع العلم أنّ الأنبياء الذين قد حدّدت أوطان مدافنهم ولكن لا يقين بأعينها أين هي يقيناً.

11. النبي يوسف: مات في مصر، ونقله إخوته تنفيذاً لوصيته ودفن في نابلس بفلسطين، وهناك روايات تشير إلى أنّه مات ودفن في مصر في مكان غير معلوم.

12 . النبي شعيب: يقال: إنّ قبر النبي شعيب عليه السّلام بالقرب من قرية بليدا جنوب لبنان، وقول آخر إنّه يقع في منطقة وادي شعيب جنوب مدينة السلط في الأردن، وهو عبارة عن مسجد حديث فيه قبرٌ

يُنسب للنبي شعيب، ويُعد من المواقع الأثرية المهمة في الأردن، وأحد أشهر المقامات استقطاباً للزوّار في الأردن 1841.

13 . النبي أيوب: يقال إنّه دفن بجوار زوجته بقريه الشيخ سعد القريبة من دمشق، ويقال: دفن في جنوب سلطنة عمان في محافظة ظفار في أعلى منطقة أتين، وله مقام في الأردن في منطقة بطنا في محافظة السلط في المنطقة التي أطلق عليها اسم خربة أيوب 1842

14 . النبي ذو الكفل: يقال: إنّه ولد في مصر، وتوفي في سيناء أيام التيه. وقيل دفن بجوار والده في أرض الشام، كما يقال أنّ قبره يتواجد في قرية كفل حارس في مدينة نابلس في فلسطين.

15 . النبي يونس: لا توجد أدلة تاريخية أكيدة على المكان الذي توفي فيه النبي يونس عليه السّلام، ولهذا هناك مقامان له، الأول موجود في كفرا القديمة في لبنان، محاطا بالآثار، والأعمدة المزركشة، وبعض الحجارة المنقوشة برموز تاريخية، أمّا المقام الثاني، فموجود في شمال شرق نهر دجلة فوق تلة النبي يونس أو ما يسمّى بتلة التوبة، في الموصل، في العراق، وهي المكان الذي عاش فيه النبي يونس، وتمّ بناء مسجد هناك باسم جامع النبي يونس.

16 . النبي موسى: يقال: إنّه توفي في سيناء ودفن هناك. ويقول البعض الآخر إنّه دفن في جبل نيبو الواقع في المملكة الأردنية الهاشمية إلى الجهة الغربية من مدينة مادبا الأردنية.

---

1841 جريدة الغد. اطلع عليه بتاريخ 22 يونيو 2015. وجريدة الدستور. اطلع عليه بتاريخ

22 يونيو 2015.

1842 وكالة الأنباء الأردنية - الملك يفتتح مسجد مقام النبي أيوب ويشارك جموع المصلين

أداء صلاة الجمعة

17. النبي هارون: توفي في سيناء ودفن هناك، كما ورد ذكر قبره عليه السلام على قمة جبل في مدينة البتراء الأردنية.

18. النبي الياس: قيل قبره في بعلبك (لبنان) ولا تود وثيقة تثبت ذلك.

19. النبي اليسع: هناك من يزعم أنّ قرية الأوجام بالقطيف تحتوي على قبر النبي اليسع لذلك جعلوا له مصلى. وقال آخرا قبره في قرافة مصر في تربة أليسع ويقال أنّها سُمّيت بتربة اليسع لاحتوائها على قبره، وقد أكد ذلك ياقوت الحموي عندما ذكر في رسم (مصر) أنّ بها قبر النبي

20. النبي داود: مقام النبي داود من الأماكن الإسلامية التي يجوبها المسلمون في مدينة القدس. ويتألف المقام من ضريح النبي ويقع المقام على ربوة مرتفع جبل صهيون، أمّا حقيقة كونه مدفونا في هذا الموقع فما هي إلا قصة خيالية لا تمت إلى الواقع بصلة، وقد كشفت الآثار عن مجمع كنيسة لليهود المنتصرين ونعلم من شهادة أيفانيو ان كنيسة مسيحية كانت في المكان وعليه فإنّ قبر داود المزعوم ليس إلا كنيسة مسيحية 1843

21. النبي سليمان: توفّي وهو متكأ على عكازه، ولم يلاحظ أيُّ أحدٍ بأنّه قد مات حتى انتهوا من البناء، ظانّين بأنّه يصلي ويتذكّر، وبعد أن سقطت عصاه أرضا لاحظوا بأنّه قد مات. ومنهم من قال إنّّه في لبنان أو العراق، والديانة اليهوديّة تعتقد بأنّه في فلسطين، ولكن لا توجد أدلة تثبت مكان القبر بالتحديد. كما ورد ذكر قبره عليه السلام في جنوب سلطنة عُمان في محافظة ظفار.

22. النبي زكريا: يقع مقام النبي زكريا عليه السلام في الجهة الشمالية من قرية ابو سنان ويؤدّي اليه الشارع الجديد الموصل الى قرية جث الجليل.

---

<sup>1843</sup> موسوعة تاريخ أقباط مصر - Coptic history بقلم المؤرخ عزت اندراوس.



23 . النبي يحيى: يقال ذُبح وهو في المحراب تنفيذاً لرغبة امرأة فاجرة من قبل ملك ظالم. ذكر أن رأسه مدفون في الجامع الاموي (دمشق).

24 . النبي عيسى: رفعه الله بعد بعثته بثلاث سنوات. ويقال القبر المقدس في المسيحية يقع القبر المقدس في كنيسة القيامة أو كما تسمى كنيسة القبر المقدس، وهذه الكنيسة تقع في البلدة القديمة في مدينة القدس العاصمة الفلسطينية. تم بناء كنيسة القيامة فوق الجلجلة، والجلجلة هي تلك الصخرة التي يسود اعتقاد أن السيد المسيح كان قد صلب فوقها.

25 . النبي محمد: هو النبي الذي لا اختلاف على مقامه في المدينة المنورة وهو النبي الخاتم صاحب المقام الخاتم.

وعليه: لا وجود لمقام من مقامات الأنبياء الكرام عليهم الصلوة والسلام هي كما هي ثابتة يقينية إلا مقام محمد عليه وعلى جميع الأنبياء الصلوة والسلام. ولهذا أظهرنا علاقة بين أن تكون رسالة الإسلام القرآن الكريم هي الرسالة الخاتمة ويكون محمدًا رسولا خاتما ومقاما خاتما. مما يستوجب الأخذ برسالة محمد (الإسلام) رسالة خاتمة وناسخة لكل الرسائل، ومن ثم فالصلوة والسلام على محمد يشمل الصلوة والسلام على جميع الأنبياء والرسل الكرام.

#### وختاماً:

لقد أنجزت هذا العمل الموسوعي بعد جهدٍ متواصل بدأته قبل ثماني سنوات وأنجزته في هذه الليلة المباركة (ليلة القدر) الموافق 26 من رمضان الكريم، 2017/6/21م، اللهم باسمك الغفور استغفرك، وباسمك التواب اتوب إليك، وباسمك الحميد احمدك، وباسمك الشكور اشكرك على فضلك الذي مدني حيوية ومقدرة على البحث والانجاز مع نعمة البصر والصبر وكثير من النعم التي انعمت بها عليّ.

اللهمّ تقبّل هذا العمل الموسوعي صدقة لوجهك الكريم، وانفعني به  
شفاء من الألم والداء، ومكّني به سلامة وامنا وحفظا ورعاية ومكانة ونقاء،  
واجعل لي عندك قدرا بجلالك الذي جعل هذه الليلة (فيها يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ  
حَكِيمٍ)، واجعلني من عبادك الصّالحين الوارثين، واجعل لي من لدنك  
سلطانا نصيرا، وارحم والديّ جنّة النّعيم، واحفظ أسرتي وما نملك من الفساد  
والضياع والهلاك، وافتح علينا يا الفّتاح مُلْكا واسعا، ومكانة رفيعة، ورزقا بلا  
حساب، وبارك في زوجتي وابنائي واصلح احوالهم وارضاء عنهم وعن أخوتي  
واخواتي ومن يدعوا لي وادعوا له صلاحا وعلما وحكمة ورحمة ورزقا حلّالا.  
اللهمّ أني ارُكع واسجد اليك طاعة فلا تجعلني تحت إيّ ظرف ارُكع واسجد  
لسواك، اللهمّ إنك عفوا تحب العف فأعفو عني، اللهمّ أني توكلت على  
ذاتك العليا واسمائك الحسنی وأوليت أمري وأمر أسرتي وأمر ما املك إليك  
ولا حول ولا قوّة إلا بك، والحمد لله ربّ العالمين.

26 من رمضان الكريم الموافق 2017/6/21م

أ.د. عقيل حسين عقيل

القاهرة